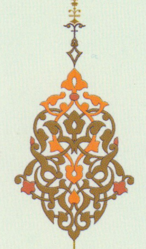


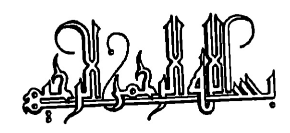
نصوص
في علوم القرآن

تأليف
السيد علي الموسوي الدارابي

المجلد الأول
(النزول)

بإشراف
مدير قسم القرآن
الأستاذ العلامة محمد واعظ زاده الخراساني




بسم الله الرحمن الرحيم



نصوص في علوم القرآن

تأليف

السيّد علي الموسوي الدارابي

المجلّد الأوّل

(النزول)

بإشراف

مدير قسم القرآن

الأستاذ العلّامة محمّد واعظ زاده الخراساني

موسوي دارابي، علي، ١٣٣٤ -
نصوص في علوم القرآن / تأليف علي الموسوي الدارابي: بإشراف محمد واعظزاده الخراساني. - مشهد: مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٢٩ق. = ١٣٨٦ش.
ج.
ISBN set 978-964-444-380-0
ISBN 978-964-444-381-7 (ج١)
فهرست‌نويسى بر اساس اطلاعات فيپا.
عربي
كتابنامه
١. قرآن - - علوم قرآني. ٢. قرآن - - وحي. الف. واعظزاده خراساني، ١٣٠٤ - ،. ب. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ج. عنوان.
٢٩٧/١٥ BP ٦٩ / ٥ / م ٨ ن ٦
كتابخانة ملى ايران ٢٤١٢٩-٧٩م



نصوص في علوم القرآن

المجلّد الاول

(النزول)

السيّد علي الموسوي الدارابي
بإشراف الأستاذ محمّد واعظزاده الخراساني

الطبعة الثالثة ١٤٣٢ق / ١٣٩٠ش
١٠٠٠ نسخة / الثمن: ١٣٢٠٠٠ ريال
الطباعة: دقت

مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٢٢٣٣٩٢٣، (قم)٧٧٣٣٠٢٩

www.islamic-rf.ir: E-mail: info @islamic-rf.ir

الفهرس العام

القسم الأوّل: نزول القرآن و فيه أبواب:

الباب الأوّل: كيفيّة النّزول، وفيه فصولٌ:

تصدير

بـقلم العـلّامة آيـة الله الشّـيخ مـحمّد واعظ زاده الخـراسـانيّ، مـدير قسـم القـرآن بـمجمع البـحوث الإسلاميّة وأُسـتاذ عـلوم القـرآن والحـديث بكـليّة الإلهـيّات والمـعارف الإسـلاميّة بـجامعة مشـهد.

نحمد الله تبارك وتعالى، ونصلّي ونسلّم على حبيبه محمّد وعلى آله وصحبه ومن اهتدىٰ بهداه.

إنّ هذا الكتاب -كما يدلّ عليه اسمه- يضمّ مجموعة من النُّصوص في علوم القرآن مرتّبةً ترتيباً زمانيّاً، منذ القدم وحتّى العصر الحاضر.

علوم القرآن

تشمل علوم القرآن بمعناها الواسع (لا المعنى الاصطلاحيّ) كلّ علم يتعلّق بـالقرآن بأيّ نحو كان. ويمكن تقسيم هذه العلوم إلى ثلاثة أقسام: ١ - علوم للقرآن ٢ - علوم في القـرآن ٣- علوم حول القرآن. وفيما يلي بحث موجز حول كلّ قسم من هذه الأقسام الثّلاثة؛ لكي نرى أيّاً منها يصدق عليه مصطلح «علوم القرآن».

١ـ علوم للقرآن

يستشفّ من هذا العنوان أنّ المراد منه جميع العلوم الّتي وُجِدَت لخدمة القرآن، وتمهيد الأرضيّة لفهمه ودرك معارفه أو اكتناه جوانبه الأُخرى. ولو أمعنّا النّظر في علوم الأدب الّتي لها علاقة بالقرآن لرأينا أنّ جميعها تقريباً ينضوي تحت هذا العنوان. فعلم النّحو - مثلاً - قد وُجِد لهذا الغرض كما هو معروف، وذلك حينما سمع الإمام عليّ عليه السلام رجلاً يقرأ آية البراءة على النّحو التّالي: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾[1] بكسر لام «رسولِهِ»، فالمعنى على هذا إنّ الله متبرّم ومشمئزّ من المشركين ورسوله. وهذا غلط، فإنّ معنى الآية هو أنّ الله ورسوله متبرّمان من المشركين. فأدرك عليه السلام حينذاك الخطر المُحدَق بالقرآن الكريم، فأحضر أبا الأسود الدُؤليّ، ولقّنه علم النّحو بقوله: «الكلمة اسم وفعل وحرف، وكلّ فاعل مرفوع، وكلّ مفعول منصوب، وكلّ مضاف إليه مجرور» ثمّ قال له: «انحُ هذا النّحو»، ولهذا سمّي النّحو نحواً، واعتبر الإمام عليّ عليه السلام مبتكر هذا العلم، وقد نقل المرحوم آية الله العظمى النّائينيّ بعض الرّوايات في هذا الخصوص.[2]

فعلم النّحو وشقيقه الصّرف قد وضعا لأوّل مرّة للقرآن، ثمّ عمّ اللّغة العربيّة وعلومها. كما هو الحال في علم المنطق؛ إذ ابتكره الفيلسوف اليونانيّ «أرسطو»، للوقوف أمام السّفسطة في علم الفلسفة، وشمل بعد ذلك جميع العلوم وخصوصاً العلوم العقليّة.

أمّا علم المعاني والبيان والبديع في الإسلام فقد وُضِع أساساً لدرك سرّ إعجاز القرآن الكريم؛ لأنّ إحدى النّواحي البارزة للإعجاز القرآنيّ منذ بدء النّزول هي بلاغة القرآن الّتي اعتبرت ولا زالت من المسلّمات عند أرباب البلاغة وقد تحدّى بها القرآن غير مرّة. بيد أنّ قواعدها وأسرارها كانت غير واضحة المعالم، على أنّ الملحدين في القرن الثّاني فما بعده أخذوا يشكّكون في بعض آيات القرآن وعباراته، وكانوا يرمون من وراء ذلك المساس بصحّتها. ممّا حدا بالأُدباء المسلمين، وخصوصاً المعتزلة منهم أن يهبّوا لبيان كنايات القرآن الّتي تبدوا متشابهة بحسب ظاهرها، ويدعوا إلى التّمعّن في القرآن من النّاحية الأدبيّة. ووقفوا شيئاً فشيئاً على سرّ إعجاز القرآن الّذي يعدّ أساس هذه العلوم الثّلاثة الّتي يرتبط كلّ منها بإحدى جوانب البلاغة والفصاحة للقرآن ومحسّناته اللّفظيّة والمعنويّة، ثمّ أصبحت فيما بعد ثلاثة علوم مستقلّة عن بعضها بعضاً.

---

١ ـ التّوبة ٣.

٢ ـ راجع (أجود التّقريرات) للمرحوم آية الله العظمى السّيّد الخوئيّ ١: ٢٢.

وممّا يؤيّد ذلك هو أنّ مواضيع كهذه قد طُرحت على بساط البحث لأوّل مرّة في كتب الإعجاز القرآنيّ، ولذا فإنّ الشّيخ عبد القاهر الجُرجانيّ المتوفّى عام (٤٧١ هـ) - الّذي يعتبر واضع علم البلاغة - قد أطلق على أحد كتبه اسم «دلائل الإعجاز»، وأطلق على كتاب آخر له اسم «أسرار البلاغة».

وكان العلماء المتقدّمون يلحظون إعجاز القرآن في آياته وعباراته، ولكن بعض علماء العصر الحاضر كالدّكتورة عائشة عبد الرّحمان بنت الشّاطئ طَرَحَتْ في كتابها «الإعجاز البيانيّ: ١٩٤» إعجاز الكلمة في الاستعمال القرآنيّ، وكذا فعل الشّيخ محمّد أبو زُهره في كتابه «المعجزة الكبرىٰ: ١٠٩» وحذا حذوَهُما آخرون، وهو رأي ثاقب. ويسعىٰ قسم القرآن في مجمع البحوث الإسلاميّة تحت إشرافي وبمباشرتي إلى بلوغ هذا الهدف من خلال كتابه المهمّ «المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته»، وهو موسوعة قرآنيّة كبيرة.

وأمّا علم اللّغة فإنّه وجد لأوّل مرّة في صدر الإسلام عند شرح ألفاظ القرآن، والشّاهد على هذا أسئلة نافع بن الأزرق (٦٥ هـ) لعبدالله بن عبّاس (٦٨ هـ)؛ حيث سأله بمائتيّ كلمة تقريباً من كلمات القرآن الكريم، وكان ابن عبّاس يجيبه عنها مستشهداً بشاهد شعريّ لكلّ كلمة.[1]

وتعتبر الكتب الّتي تحمل عنوان «مفردات القرآن» أو «غريب القرآن» أقدم معاجم اللّغة العربيّة. وكان الخليل بن أحمد الفراهيديّ المتوفّى عام (١٧٥ هـ) يستشهد بالقرآن لشرح معاني الكلمات، أو يعمد إلى شرح الآيات في كتابه «العين» الّذي يعدّ رائد المعاجم العربيّة. وكذلك كان شأن تلميذه البارز سيبويه المتوفّى عام (١٨٠ هـ) فقد سلك نهج أُستاذه في الاقتباس من القرآن بشرح كثير من ألفاظه في «الكتاب». وقد أعدَدْتُ مقالة بعنوان (علاقة «الكتاب» بالقرآن) للمؤتمر الكبير الّذي عُقِد في جامعة شيراز قبل حوالي ١٧ سنة بمناسبة مرور ألف ومائتين سنة على وفاة سيبويه، فطُبِعت بجامعة شهراز ضمن المقالات الفارسيّة المعدّة لذلك المؤتمر.

ولعلّ أقدم كُتب تفاسير القرآن تلك الّتي يُطْلق عليها اسم معاني القرآن، وقد وَصَلنا بعضها اليوم، مثل معاني القرآن للفرّاء المتوفّى عام (٢٠٧ هـ)، وهو يحوي شرحاً لألفاظ القرآن، وكأنّ

---

١ ـ الإتقان للسّيوطيّ ٢: ٦٧.

القدماء كانوا يطلقون علم معاني القرآن على علم التّفسير خلال حقبة من الزّمن، ويدعون المفسّرين باسم أصحاب المعاني.

وقبل أن نتصدّى لبيان القسمين الآخرين لعلوم القرآن، حريّ بنا أن نذكر هنا رأيين لعالمين معاصرين في هذا السّبيل، أي أنّ كثيراً من العلوم الإسلاميّة قد وُجدت لخدمة القرآن الكريم.

الرّأي الأوّل: للعلّامة الشّيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر سابقاً، المتوفّى عام (١٣٨٤ هـ) وقد كتب مقدّمة[١] لتفسيره الّذي كان ينشر في أعداد متتالية لمجلّة «رسالة الإسلام»، وهي من منشورات (دار التّقريب بين المذاهب الإسلاميّة) بالقاهرة، ثمّ طبعت أعدادها ـ وهي ستّون عددًا ـ في خمسة عشر مجلّدًا في كتاب مستقل من قبل المجمع العالميّ للتّقريب بين المذاهب الإسلاميّة و «مجمع البحوث الإسلاميّة» قال الشّيخ شلتوت بعد أن بيّن اهتمام المسلمين بالقرآن اهتماماً منقطع النّظير: «لا نكاد نعرف علماً من العلوم الّتي اشتغل بها المسلمون في تاريخهم الطّويل إلّا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم. فالنّحو الّذي يقوّم اللّسان ويعصمه من الخطأ أُريد به خدمة النّطق الصّحيح للقرآن، وعلوم البلاغة الّتي تبرز خصائص اللّغة العربيّة وجمالها أُريد بها بيان نواحي الإعجاز في القرآن، والكشف عن أسراره الأدبيّة، وتتبّع مفردات اللّغة، والتماس شواردها وشواهدها، وضبط ألفاظها وتحديد معانيها، أُريد بها صيانة ألفاظ القرآن ومعانيه أن تَعْدو عليها عوامل التّحريف أو الغموض، والتّجويد والقراءات لضبط أداء القرآن وحفظ لهجاته والتّفسير لبيان معانيه والكشف عن مراميه، والفقه لاستنباط أحكامه، والأُصول لبيان قواعد تشريعه العامّ وطريقة الاستنباط منه، وعلم الكلام لبيان ماجاء به من العقائد وأُسلوبه في الاستدلال عليها. وقُلْ مثلَ هذا في التّاريخ الّذي يشتغل به المسلمون تحقيقاً، لما أُوحي به الكتاب الكريم في مثل قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾[٢]، ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾[٣]، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[٤]. وقُلْ مثل هذا أيضاً في علم تقويم البلدان، وتخطيط الأقاليم الّذي

---

١ ـ العدد الأوّل الصادر عام ١٣٦٨: ١٤.

٢ ـ يوسف / ٣.

٣ ـ هود / ١٢٠.

٤ ـ القمر / ٤.

يُوحي به مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴾[1]، ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾[2]. وفي علوم الكائنات الّتي يُوحي بها مثل قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[3]، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[4]

وهكذا علوم الفلك والنّجوم والطّبّ، وعلوم الحيوان والنّبات وغير ذلك من علوم الإنسان، لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به ـ في نظر من اشتغل به من المسلمين ـ مقصوداً به خدمة القرآن، أو تحقيق إيحاء أوحَى به القرآن. حتّى الشّعر إنّما اشتغلوا بـه تـرقيةً لأذواقـهم وتـربيةً لملكاتهم، وإعداداً لها كي تفهم القرآن وتدرك جمال القرآن. وحتّى العَروض كـان مـن أسـباب عنايتهم به أنّه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين: إنّ محمّداً شاعر، وإنّ ما جاء به شعر.

وعقّب الشّيخ شلتوت في نهاية حديثه قائلاً:

لهذا كلّه أعتقد أنّي لا أتجاوز حدّ القصد والاعتدال إذا قلت: إنّه لم يظفر كتاب من الكتب سماويّاً كان أو أرضيّاً في أيّـة أُمّة من الأُمم قديمها وحديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدي المسلمين، ومن شارك في علوم المسلمين... انتهى موضع الحاجة.

الرّأي الثّاني: للمحقّق الشّهير سعيد الأفغانيّ، وقد اقتبسناه من مقدّمته على كتاب «حجّة القراءات: ١٩»[5] للإمام أبي زُرعَة المتوفّى بعد المائة الرّابعة للهجرة؛ قال الأفغانيّ – وقد حـقّق الكتاب –: «بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللّغة العربيّة ترابط محكم، فهما تـتقن مـن عـلوم العربيّة وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهي الأساس، وقدمك فيها غير

---

١ ـ الأنعام / ١١.

٢ ـ الملك / ١٥.

٣ ـ الأنبياء / ٣٠.

٤ ـ النّور / ٤٣-٤٥.

٥ ـ طبع مؤسّسة الرّسالة في بيروت، تحقيق سعيد الأفغانيّ.

ثابتة، وتصوّرك لِلغة غامض، يعرّضك لمزالق تُشرف منها على السّقوط كلّ لحظة. وسبب ذلك واضح لكلّ من ألمّ بتاريخ العربيّة، فهو يعلم حَقّ العلم أنّها جميعاً نشأت حول القرآن وخدمة له، فمتن اللّغة اهتمّ قبل كلّ شيء بشرح مفردات القرآن. وتجد غيرواحد من المؤلّفين الأوّلين ألّف في غريب القرآن وغريب الحديث.

والنّحو والصّرف أُنشئا لعصمة اللّسان عن الخطأ في التّلاوة أوّل الأمر، وكان الحافز على التّفكير في وضعهما أخطاء في التّلاوة بلغت مسامع المسؤولين فتنادوا لتدارك الأمر. وعلوم البلاغة همّها جلاء روعة البيان القرآنيّ لأذهان النّاس؛ ليتذوّقوا حلاوته، وتتلقّح ملكاتهم بفصاحته.

لذا كان أمراً طبيعيّاً قيام أئمّة القرّاء بعلوم العربيّة، وكان كبارهم أئمّة العربيّة الفحول، كأبي عمروبن العلاء (١٥٤ هـ)، ويعقوب الحضرميّ (٢٠٥هـ)، وابن مُحَيصن (١٢٣هـ)، واليزيديّ (٢٠٢هـ)، وقبله الخليل بن أحمد (١٧٥هـ)، حتّى الكسائيّ (١٨٩هـ) في كوفته على ضعف ملكته، وكذلك الرّواة عنهم. وهذا الإمام ابن مجاهد (٣٢٤هـ) مُسبّع السّبعة يقول: لا يقوم بالتّمام إلّا نحويّ عالم بالقراءات، عالم بالتّفسير، عالم بالقصص وتلخيص بعضها من بعض، عالم باللّغة الّتي نزل بها القرآن [١]. انتهى موضع الحاجة.

وأنا أقول: إنّ هذه الآصرة المتلاحمة بين القرآن واللّغة العربيّة أفرزت علماً جديداً يُدعى باسم (تأثير القرآن في اللّغة العربيّة وآدابها)، فأُلّفت كتبٌ عديدة في هذا المضمار.

أجل، لقد وُلدت علوم كثيرة في ظلّ القرآن، ولا زالت تتمخّض علوم أُخرىٰ، وأخيرًا انخرط الكمبيوتر في جوقة علوم القرآن وخِدمَته.

٢ ـ علومٌ في القرآن

وهي العلوم الّتي استنبطت من القرآن، وتُبيِّن بنحو ما مفهوماً من مفاهيم القرآن وتُوضّح أغراضه، كأنواع التّفاسير وأقسامها، وعلم الفقه وعلم الكلام وعلم الأخلاق، وكافّة العلوم الشّرعيّة الأُخرىٰ المستخرجة من القرآن بأيّ كيفيّة كانت.

ولعلّه يمكن القول بأنّ هذه العلوم غير محدودة؛ لقوله تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ

---

١ ـ الوقف والابتداء لابن الأنباريّ: ٢٥، طبعة دمشق، تحقيق الأُستاذ محيي الدّين رمضان.

تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[١].

ومن المسلّم به أنّ علوم القرآن لا متناهية على الرّغم ممّا نلمّ به إلى هذه السّاعة. فمثلاً هناك قسم من التّفسير يُدعى بالتّفسير العلميّ، وله ارتباط بالعلوم الطّبيعيّة؛ إذ كلّما تطوّرت هذه العلوم يطرأ عليه تحوّل وتغيّر. فقد تحدّث القرآن عن النّجوم والأجرام والجبال والبحار والرّياح والأمطار والسّحاب وغيرها من الظّواهر الطّبيعيّة. هذا على الرّغم من أنّ الهدف الأساسيّ للقرآن هو معرفة الله لا وصف الطّبيعة، إلّا أنّ ما تناوله القرآن حول عالم الخليقة تلميحاً أو تصريحاً له حقيقة، وسوف تدرك العلوم البشريّة كنهه تدريجيّاً.

وقد دُوّنت كتب عديدة وتفاسير كثيرة في مجال علاقة العلوم مع القرآن، ونحن نبارك هذه المحاولات ونشدّ عضد من يسعىٰ إلى ذلك، بشرط أن لا ينزع إلى الإفراط، ويلجأ إلى فرض هذه العلوم على القرآن. وحبّذا لو اكتشف علماء الإسلام أسرار الكون واستنبطوها من القرآن قبل أن يطّلع عليها الخبراء والمختصّون، ويكونوا رُوّاد الحركة العلميّة دائماً ولا يسيروا خلفها كما هو الحال عند المسلمين!.

٣ ـ علوم حول القرآن

المقصود من هذه النّقطة جعل القرآن محوراً وموضوعاً للبحث والتّحقيق، كما هو الحال في الطّبّ مثلاً؛ إذ جُعِل جسد الإنسان موضوعاً ومحوراً لهذا العلم. إنّ القرآن محور علم أو علوم تبيّن أبعاده المختلفة بشكل وافٍ ونحو كافٍ، ومن ثمّ يصطلح على نتيجة هذه البحوث اسم علوم القرآن. وهذا هو المراد بقولنا: «نصوصٌ في علوم القرآن».

وقد ذكر العلّامة السّيوطيّ في كتابه الشّهير «الإتقان في علوم القرآن» ثمانين علماً من علوم القرآن، وجعل لكلّ علم باباً، ثمّ تناوله شرحاً وتفصيلاً، وبيّن أسماء الكتب الّتي أُلّفت في كلّ علم من هذه العلوم، مثل نزول القرآن، والمكّي والمدنيّ، وجمع القرآن، وقراءات القرآن، والتّفسير والمفسّرين، والأمثال والأقسام، والكنايات والمبهمات، والنّاسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، وإعجاز القرآن، وهلمّ جرّاً.

ويعتبر كتاب «الإتقان» أساساً لعلوم القرآن على الدّوام قديماً وحديثاً، وجاءت على غراره كتب أُخرىٰ مثل «البرهان في علوم القرآن» للزّركشيّ (٧٤٥-٧٩٤ هـ) وقد أُلّف قبل

---

١ ـ النّحل / ٨٩.

«الإتقان» و الإتقان تحرير له، و«مناهل العرفان» للـزُّرقانيّ، و«مـباحث فـي عـلوم القـرآن» للدّكتور صبحي الصّالح، و«التّمهيد في علوم القرآن» للعلّامة المعاصر الشّيخ هـادي مـعرفت، وكثير غيرها ممّا أُلّف قبل البرهان وبعده، ونحن قد استقينا النّصوص من جميع هذه المـصادر وغيرها.

وممّا يجدر ذكره هنا هو أنّ أحد العلماء المتأخّرين في مصر قد عدّ (٢٥٠) علماً من هذه العلوم في كتابه المسّمى «الزّيادة والإحسان في علوم القرآن»، ولكنّه في الحقيقة عدّ كلّ بحث علماً واحداً، وكذا فعل السّيوطيّ؛ حيث يمكن أن تردّ كلّ هذه العلوم إلى علم واحد، وتعدّ مباحثاً لذلك العلم نفسه. وقد كان بعض هذه العلوم علماً مستقلّاً فيما سبق، كعلم القراءات، وعلم النّاسخ والمنسوخ، وعلم التّفسير، وعلم غريب القرآن، وغيرها. ومن المعلوم أنّ تاريخ التّفسير وأساليبه يعتبران من علوم القرآن، وأمّا التّفسير نفسه فهو علم مستقلّ بذاته.

والملاحظة الأُخرىٰ هي أنّ جميع هذه العلوم كانت تذكر قبل قرن تـقريباً تـحت عـنوان علوم القرآن، وقد بُحِث عنها في الكُتب الآنفة الذّكر أيضاً، ثمّ ذُكِر بعض مباحثها فيما بعد بعنوان تاريخ القرآن، ويبدو أنّ أوّل من سلك هذا المسلك هم المستشرقون، ومن ثَـمّ حـذا حـذوهم العلماء المسلمون خلال الكتب الّتي تحمل هذا العنوان. وقد تناولت كُتب «تاريخ القرآن» الأبعاد التّاريخيّة للقرآن، كأسماء القرآن وسـوره، وعـدد السُّـور، والمكّـيّ والمـدنيّ، وكـتابة القـرآن، والمصاحف، ورسم القرآن، وربّما تاريخ القرآءات والقرّاء أيضاً. وأصـبح تـاريخ القـرآن مـادّة دراسيّة تدرّس اليوم في الجامعات.

كما ظهر إلى الوجود علم آخر تفرّع من علوم القرآن أُطلق عليه اسم أساليب التّفسير أو المدارس التّفسيريّة، وأضحىٰ علماً مستقلّاً يُدَرّس كمادّة درسيّة. ولعلّ أوّل من لحظ استقلاليّـته عن سائر العلوم هو المستشرق الألمانيّ غولدزيهر (١٨٥٠ - ١٩٢١ م)، وهو يهوديّ مَجَريّ الأصل، وله كتاب باسم «مذاهب التّفسير الإسلاميّ» أفرغ فيه سمومه النّاقعة، وهو ماكان يهدف إليه. وكَتب بعده جماعة آخرون منهم العالم المصريّ المعاصر الدّكتور محمّد حسن الذّهبيّ ـ وقد شاهدته والتقيت به في القاهرة، ثم ارتقى إلى منصب وزارة الأوقاف في مصر واغتيل حين ذاك رحمه الله ـ حيث ألّف كتاب «التّفسير والمفسّرون»، وهو أهمّ كتاب في هذا الحقل بالرّغم من بعض النّواقص الّتي تعتوره والأخطاء الّتي صدرت عنه.

وبعد انفصال هذين العلمين عن علوم القرآن يبقى تحت هذا العنوان سائر المباحث الّتي

تعرّضوا لها باسم علوم القرآن، فلابدّ من أن يجتنب عن تكرارها في الدّراسات الجامعيّة تحت عنوانين.

وأمّا البحث حول هذا الكتاب فكما يلي

يضمّ هذا الكتاب بين دفّتيه - كما تقدّم - مجموعة نصوص في علوم القرآن، مدرجة حسب التّرتيب الزّمنيّ، اعتباراً من القرن الثّالث الهجريّ حتّى العصر الحاضر. ونعني بالنّصوص هنا جميع الأقوال والرّوايات الموجودة في كتب التّفسير وعلوم القرآن وفي كتب الحديث وتاريخ القرآن وغيرها من الكتب المؤلّفة في هذا المضمار، سواء كانت مدوّنة من قِبل أهل السّنّة أم من قِبل الشّيعة، ولايمتاز بعضها عن بعض إلّا بميّزة الزّمان والقدم. وطبيعيّ أنّنا لانوافق جميع مانقل عنها، خاصّة في بدء الوحي.

ولعلّ قائلاً يقول: إنّ تلك الآراء والرّوايات قد وردت في بعض الكتب المشهورة في علوم القرآن ككتاب «الإتقان في علوم القرآن» للعلّامة السّيوطيّ المتوفّى عام (٩١١ ﻫ) فما الفائدة من جمعها وتصنيفها من جديد؟

نقول: إنّ من يتصفّح الكتاب يلمس سقم هذا الرّأي؛ لأنّ أغلب النّصوص الواردة في كتب الحديث والتّفسير تخصّ علوم القرآن، بيد أنّها لم تجمع في مصنّف إلى الآن. علاوة على أنّ أكثر المؤلّفين في هذا الميدان هم من السّنّة، وجلّ هؤلاء لم يطّلعوا على روايات الشّيعة وآرائهم، وخصوصاً الشّيعة الإماميّة. ولذا عَمَدْنا في هذا الكتاب إلى إرداف هذه الآراء بآراء علماء السّنّة جنباً إلى جنب، وهو نهج قويم في المقارنة بين آراء هذا المذهب وسائر المذاهب الأُخرىٰ في مضمار علوم القرآن، وفي الحقيقة يُعَدّ هذا الكتاب دراسة مقارنة في هذا الميدان.

ونهدف من وراء تأليف الكتاب إلى جمع الآراء ومدّ يد العون إلى المحقّقين والباحثين فحسب؛ لكي تكون في متناوِل أيديهم، دون أن يتجشّموا عناء البحث ويضيّعوا الوقت عبثاً؛ لأنّ الحَجر الأساس للتّحقيق في كلّ علم من العلوم وخصوصاً في العلوم النّقليّة هو آراء المتقدّمين وما أُثر عنهم، ولابدّ أن يؤخذ هذا الأمر بنظر الاعتبار في كافّة العلوم النّقليّة.

ومن البديهيّ أنّ أكثر الأقوال تُوجَد في مقدّمات التّفاسير وفي كتب علوم القرآن، إلّا أنّها لا تفي بالغرض؛ إذ ينبغي الرّجوع إلى كافّة كتب التّفسير والبلاغة والتّاريخ والفهارس، وخصوصاً الكتاب القيّم «فهرست ابن النّديم» الّذي أُلّف عام (٣٧٧ﻫ) واقتباس كلّ نصّ يتعلّق بمبحث من

المباحث القرآنيّة من طيّات هذه الكتب، وهذا ما عملنا به في هذا الكتاب.

ومن المسلّم به أنّ عملاً شاملاً ومتشعّباً كهذا لا جرم أن يؤلّف وفق نظمٍ خاصّ، كتبويب مواضيعه وتنظيم موادّه، وهذا ما تمّ هنا بالفعل، فقسّمنا الكتاب إلى أقسام؛ فالقسم الأوّل يبحث حول نزول القرآن، وفيه أربعة أبواب؛ الأوّل: كيفيّة نزول القرآن ، والثّاني: كيفيّة نزول الوحي ، والثّالث: بدء الوحي ، أوّل وآخر مانزل، والرّابع: السّور المكّيّة والمدنيّة وترتيب نزولها. ثمّ يتلوه في القسم الثّاني والأقسام الأُخرىٰ، بحث جمع القرآن والمصاحف وكيفيّة القراءات، وغيرها من المواضيع المذكورة في الفهرس العامّ للكتاب.

وكان لابدّ بعد ذلك من ترتيب النّصوص المتعلّقة بالموضوع بحسب التّرتيب الزّمانيّ الّذي انتهجناه في كلّ مبحث، ابتداء من أقدم نصّ وانتهاء بأحدث نصّ حرّر في العصر الحاضر، وهذا ما حصل في كلّ فصل خاصّ بذكر رأي كلّ عَلَم من الأعلام. إلّا أنّ ما يُنقل عن عالِم لا يعني أنّه يُمَثّل جميع آرائه الشّخصيّة، بل يتضمّن أقوال الآخرين إضافة إلى قوله. ولذا وضعنا لكلّ فصلٍ عنواناً جامعاً يشمل جميع الآراء والأقوال، فمثلاً ذكرنا في باب كيفيّة التّزول: فصل ما نصّ البُخاريّ، فصل ما نصّ الطّبَرَيّ، وهكذا في سائر الفصول.

ويحدث أحياناً أن يلفَّق بين آراء عالِمين أحدهما مؤلّف كتاب والثّاني معلّق عليه وكانا يعيشان في زمانين، كما فعلنا ذلك في تفسير الكشّاف للزّمخشريّ المتوفّى عام (٥٣٨ هـ) وشارحه السّيّد الشّريف المتوفّى عام (٨١٦ هـ)؛ إذ لم يراعَ هنا عامل الزّمان. لأنّه كان يستلزم التّفريق بين النّصّين.

وقد ذكرنا مصادر الكتاب وأشفعناها بترجمة إجماليّة لأصحاب الكتب الّتي استقينا منها عند الابتداء بكلّ نصّ، إضافة إلى ما ذكرناه في فهرس الأعلام والمصادر بتفصيل أكثر.

إنّ إحدى المشاكل الّتي يعانيها من أراد جمع النّصوص بأسرها في مواضيعها هو تكرار المطالب الواردة في الكتب المختلفة بلفظ واحد أو بألفاظ متفاوتة. وقد تجاوزنا بعون الله هذه المشكلة بحذف المكرّرات إلى حدٍّ لا يخلّ بمحتواها، ثمّ التّنبيه على ورود النّصّ في ما تقدّم في الكتاب من أقوال المتقدّمين مع تعيين الجزء والصّفحة؛ لكي يسهل الرّجوع إليه بيسر وسهولة. ويستثنى من ذلك بعض النّصوص الّتي يؤدّي حذفها اعتماداً على ما تقدّم إلى إحداث خلل في الموضوع، فنحجم عندئذٍ عن ذلك اضطراراً، ونأتي بالنّصوص عيناً من أجل تفاوت بيّن بينها وبين ما سبقها من النّصوص ولو كانت تبدو مكرّرةً.

وعلى الرّغم من الجهود المبذولة حين البحث عن الكتب المؤلّفة في هذا الميدان إلّا أنّنا لم نعثر على بعضها، ممّا حدا بنا أن نضع مستدركاً لنصوصها في المستقبل، ولكنّنا قد نهلنا قدر المستطاع من المصادر الأصليّة المهمّة.

لقد أوعزت أوّل الأمر في تأليف هذا الكتاب إلى قسم القرآن، وبعد الموافقة عليه تحمّل عبء هذه المهمّة آخر المطاف سماحة حجّة الإسلام السّيّد عليّ الموسويّ الدّارابيّ (سدّده الله)، وبقيت طَيْلة هذه المدّة معه أُرشده إلى الرّأي الأصيل، وأُسدّده نحو السّبيل. كما هديته إلى المصادر، وأشرت عليه بوضع عناوين الكتاب وترتيب أبوابه وفصوله وكيفيّة نقل النّصوص وترجمتها من الفارسيّة وغير ذلك. وقد لبّى سماحته طلبي وعمل بكلّ ما أشرت عليه.

وإنّي أحمد الله تعالى لما وفّقني لإنجاز هذا المشروع الكبير، وأشكر السّيّد الموسويّ الّذي تلقّىٰ ما أشرت إليه بصدر رحب، وصبر طويل حتّى نهاية المطاف.

وأشكر أيضاً مسؤولي مجمع البحوث الإسلاميّة الموقّرين، والهيئة المشرفة على سير أعماله الّذين صوّتوا لطبع الكتاب، وعلى رأسهم حجّة الإسلام والمسلمين سماحة الشّيخ الإلهيّ الخُراسانيّ المحترم رئيس المجمع الّذي مهّد الطّريق لإخراجه، وأرفدنا بإرشاداته القيّمة.

وأملنا أن يدرك العلماء والمحقّقون في مجال القرآن مدىٰ أهميّة هذا المشروع، ويثمّنوا الجهود الّتي أخرجته إلى حيّز الوجود. كما نأمل منهم أن يوافوا قسم القرآن بآرائهم حول مادّة الكتاب ومحتواه؛ لكي نراعي ذلك في الطّبعات والمجلّدات القادمة. والحمد للّٰه أوّلاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

محمّد واعظ زاده الخراسانيّ

مدير قسم القرآن بمجمع البحوث الإسلاميّة

المدخل
في
«أقسام الكتاب»

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على نبيّنا محمّدٍ وآله الطّاهرين وصَحبه الميامين، ومن اهتدىٰ بهُداهم إلى يوم الدّين.

أمّا بعد؛ فهذا كتاب «نصوصٌ في علوم القرآن» حاوٍ لشتات ما يرتبط بعلوم القرآن من النّصوص المتفرّقة في كتب الحديث والتّفسير وعلوم القرآن وغيرها، ممّا اطّلعنا عليها من الآثار عامّةً من المتقدّمين والمتأخّرين والمعاصرين نقدّمه إلى الباحثين والمحقّقين في حقل القرآن الكريم، تسهيلاً عليهم الرّجوع إلى المصادر وتوفيراً لهم الأسباب والوسائل؛ لتكون لهم قريبة المتناول، سهلة المرام.

ويشتمل الكتاب على أقسامٍ وتتفرّع إلى أبواب؛

القسم الأوّل: «نزول القرآن» وفيه أربعة أبواب:

الباب الأول	كيفيّة نزول القرآن
الباب الثّاني	كيفيّة نزولالوحي وأقسامه.
الباب الثّالث	بدء الوحي، وأوّل وآخر ما نزل.
الباب الرّابع	السّور المكّيّة والمدنيّة وترتيب نزولها.

القسم الثّاني: «جمع القرآن» وفيه عشرة أبواب:

الباب الأوّل	كُتّاب الوحي و حفّاظه.
الباب الثّاني	كيفيّة جمع القرآن.
الباب الثّالث	صيانة القرآن عن التّحريف.
الباب الرّابع	مصاحف الصّحابة.
الباب الخامس	رسم القرآن و شَكْله و نَقْطه.
الباب السّادس	أسامي القرآن و السّور.
الباب السّابع	تناسب السّور والآيات.
الباب الثّامن	أقسام السّور.
الباب التّاسع	عدد السّور و الآيات و الكلمات والحروف.
الباب العاشر	الأجزاء و الأحزاب والأعشار.

القسم الثّالث: «القراءات» وفيه ستّة أبواب:

الباب الأوّل	علم اختلاف القراءات.
الباب الثّاني	القُرّاء السّبعة و رواتهم.
الباب الثّالث	اختلاف القراءات السّبعة و نموذجٌ منها.
الباب الرّابع	القُرّاء غير السّبعة و قراءاتهم.
الباب الخامس	علم الحجّة على القراءات.
الباب السّادس	نزول القرآن على سبعة أحرف.

القسم الرّابع[1]: «أسباب النّزول».

القسم الخامس: «إعجاز القرآن».

القسم السّادس: «الحروف المقطّعة».

القسم السّابع: «بلاغة القرآن».

القسم الثّامن: «غريب القرآن و مفرداته».

القسم التّاسع: «الوجوه والنّظائر».

---

١ ـ وجدير بالذّكر أنّ القسم الرّابع ومابعده من الأقسام، لم تُجمع نُصوصها ومُتونها كاملةً، حتّى نجعلها مبوّبةً كما فعلنا في قسم النّزول والجمع والقراءة.

القسم العاشر: «المحكم والمتشابه».
القسم الحادي عشر: «التّنزيل والتّأويل».
القسم الثّاني عشر: «النّاسخ والمنسوخ».
القسم الثّالث عشر: «التّفسير و المفسّرون».
القسم الرّابع عشر: «الاستعاذة والبَسْمَلة».
القسم الخامس عشر: «أمثال القرآن».
القسم السّادس عشر: «أعلام القرآن».
القسم السّابع عشر: «أقسام القرآن».
القسم الثّامن عشر: «التّكرار في القرآن».
القسم التّاسع عشر: «الأدعية في القرآن».
القسم العشرون: «فضائل القرآن».
القسم الحادي والعشرون: «ماأُلّف في علوم القرآن».

طريقة العمل

أ ـ مراجعة مصادر و كتب الفريقين، ككتب علوم القرآن والتّفسير و التّاريخ، والاقتباس منها.

ب ـ إعداد و جمع النّصوص الأوّليّة من هذه المصادر والكتب، ثمّ تنظيم كلّ نصّ بشكل مِلَفٍّ مستقلّ، وترتيبها حسب تاريخ و فيات المؤلّفين.

ج ـ عرض كلّ نصّ على النّصوص المتقدّمة، لحذف الزّوائد والمكرّرات، إلّا إذا كان يختلف عنها اختلافاً يسيراً لفظاً و معنًى، أو كان مختصراً، كي لا يتخلّل النّصوص فاصل، أو يعتورها نقص. وإن لوحظ تكرارٌ يسير في بعض النّصوص، ولكن قد يكون ذلك ـ مع كون ألفاظه المختلفة ونكاته اللّطيفة ـ مفيدًا للمحقّقين في استنتاج المواضيع وجمعها واختلاف الآراء وتعدّدها.

د ـ ضبط الآيات و ترقيمها حسب السّور و تطبيقها على رسم الخطّ القرآنيّ المقرّر لدينا.

هـ ـ ضبط أسماء الأعلام و المفردات الغريبة.

و ـ مقابلة النّصوص المقتبسة بمصادرها الأصليّة، وتصحيح أخطائها الّتي تتعلّق غالباً بتلك

المصادر.

ز ـ كتابة الألفاظ طبق قواعد الإملاء الحديث، ووضع علامات التّرقيم خلال العبارات.

وممّا يجدر ذكره هنا أنّ جميع المراحل المتقدّمة قد قُطِعت بإرشاد و إشراف الأُستاذ سماحة آية الله الشّيخ محمّد واعظ زاده الخُراسانيّ، واضع هذا المشروع و مبتكره، وقد راجعه عدّة مرّات، رغم ضيق وقته، وأبدى خلالها ملاحظات سديدة وقيّمة.

رعاية الأمانة العلميّة

لقد اقتبست نصوص هذه الموسوعة القرآنيّة من أصلها دون أيّ تغيير أو تصرّف. ولاشكّ أنّ فيها آراء سقيمة و روايات ضعيفة تعارض القرآن والسّنّة، ولاسيّما نصوص المتقدّمين، بَيْد أنّنا نقلناها بعين ألفاظها كما حكينا النّقود عليها كذلك، وأنطنا صحّتها و سُقمها بالباحث الأريب، والقارئ اللّبيب.

الزّوائد والإضافات في النّصّ

ألجأتنا الضّرورة إلى وضع عبارات في المتن عند حذف قسم من النّصّ لتكراره، وإحالته إلى النّصوص المتقدّمة، أو وضع عناوين عامّة لبعض النّصوص الّتي لاتحمل عنواناً، أو إضافة بعض التّوضيحات و غير ذلك. وقد وضعنا تلك العبارات بين معقوفتين، تمييزاً لها عن عبارات النّصّ.

الهدف إلى تأليف هذه الموسوعة

إنّ الهدف الأساسيّ والأسمىٰ الّذي دعا إلى إعداد وجمع هذه النّصوص هو عرض آراء المحقّقين الماضين والمعاصرين، الملفّقة مع أحاديث النّبيّ ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وأقوال الصّحابة والتّابعين في ميدان القرآن وعلومه، والّتي لازالت إلى الآن متفرّقة في بطون الكتب. ولهذا أقدمنا على تأليف و تنظيم هذه الموسوعة، ليكون هذا الأمر قريب المتناول بالنّسبة إلى محقّقي هذا العصر والعصور اللّاحقة. وقد صرفنا في إخراج هذه الموسوعة غاية جهدنا، ونقلنا قدر الاستطاعة عن كافّة العلماء و المحقّقين الكبار، سواء كانوا متقدّمين أم متأخّرين أو معاصرين، وما استثنينا النّاقدين أو ناقلي أقوال الآخرين، و لم يبدوا أيّ رأي لهم أيضاً، فأوردنا نصوصهم مستقلّة، لكي تكون هذه الموسوعة جامعة وكاملة، ولاتَدَع شيئاً إلاّ أتت به واستدركته.

ولكن هناك نصوص و آراء أهملنا ذكرها لأمرين:

أ ـ عدم ذكرها المواضيع المتعلّقة بأبحاثنا، أو ذكرها بصورة مختصرة أو مشابهة لما ذكرناه.

ب ـ تعذّر العثور على بعض المصادر، وهذه إحدى مشاكل عملنا، إذ مهما حاولنا تذليلها، عَسَر علينا أمرها. إلّا أنّ أغلب مافي هذه المصادر ملفّق بين بعض نصوص المتأخّرين والمعاصرين.

حوز قصب السّبق

إنّ هذه الموسوعة لا نظير لها في حجمها و استيعابها لما جمع من آراء العلماء و المحقّقين لكلا الفريقين، السّابقين منهم واللّاحقين، و في تلفيقها بين أحاديث النّبيّ صلى الله عليه وآله وأحاديث أهل البيت الطّاهرين عليهم السلام والصّحابة. ولا ينكر أنّ هناك مصادر كثيرة في ميدان علوم القرآن، تحمل عناوين مختلفة، إلّا أنّ هذه الموسوعة ـ بعد مقارنتها بها ـ تبذّها جميعاً، لما تتّصف به من المزايا المذكورة.

شكرٌ و تقديرٌ

أُوجّه شُكري وامتناني إلى أعضاء قسم القرآن لتعاونهم معنا، وأخصّ بالذّكر منهم الأُستاذ ناصر النّجفيّ الّذي راجع النّصوص، وسعى إلى ترجمة بعضها من الفارسيّة إلى العربيّة، وسماحة حجّة الإسلام والمسلمين الشّيخ محمّد حسن مؤمن زاده الّذي راجع الكتاب و سعى إلى إعداد طبعه، وإلى الزّميل المحترم السّيّد خِضر فيض‌الله لمقابلة الكتاب، وكذلك السّيّد حسين الطّائي (عضو قسم الحاسوب) لقيامه بتنضيد الحروف.

وفي الختام؛ نسأل الله تعالى أن يوفّقنا لإتمام هذا المشروع الكبير، لكي ينتفع به العلماء والباحثون، آملين من ذوي النّظر والبصيرة أن يُتحِفونا بآرائهم القيّمة البنّاءة.

السّيّد عليّ الموسويّ الدّارابيّ

١٣ رجب ١٤٢١ هـ ٢٠ /٧/ ١٣٧٩ش

القسم الأوّل في نزول القرآن

وفيه أربعة أبواب:

الباب الأوّل: في كيفيّة نزول القرآن

الباب الثّاني : في كيفيّة نزول الوحي وأقسامه

الباب الثّالث: في بدء الوحي و أوّل و آخر ما نزل

الباب الرّابع: في السّور المكّيّة والمدنيّة وترتيب نزولها

الباب الأوّل

في

كيفيّة نزول القرآن

وفيه فصول

الفصل الأوّل

نصّ البُخاريّ (م: ٢٥٦هـ) في «الجامع الصّحيح»

[كيفيّة نزول القرآن]

قال ابن عبّاس: المُهَيْمن الأمين؛ القرآن أمينٌ على كلّ كتاب قبله. حدّثنا عُبَيْدالله بن موسى عن شَيبان عن يحيىٰ عن أبي سَلَمة، قال: أخبرتني عائشة وابن عبّاس رضي الله عنهم، قالا: لَبث النّبيُّ ﷺ بمكّة عشر سنين، يُنزَل عليه القرآن، وبالمدينة عشراً.(٦: ٢٢٣)

حدّثنا موسى بن إسماعيل ، قال: حدّثنا أبو عَوانة ، قال حدّثنا موسى بن أبي عائشة ، قال حدّثنا سعيد بن جُبَيْر عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿لاَتُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالِج من التّنزيل شدّةً ، وكان ممّا يحرّك شفتيه. فقال ابن عبّاس: فأنا أُحرّكهما لكم كما كان رسول الله يحرّكُهما. وقال سَعيد: أنا أحرّكهما كما رأيت ابن عبّاس يُحرّكهما. فحرّك شفتيه. فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1] قال: جَمْعُه له في صَدْرك وتقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] قال: فأستمع له وأنصت. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: ثمّ إنّ علينا أن تقرأه فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل أستمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النّبيّ ﷺ كما قرأه.

---

١ ـ القيامة / ١٦ و١٧.

٢ ـ القيامة /١٨.

حدّثنا عَبْدان، قال: أخبرنا عبدالله، قال: أخبرنا يونس عن الزُّهْريّ، حدّثنا بِشر بن محمّد، قال: أخبرنا عبدالله، قال: أخبرنا يونس ومُعمَّر عن الزُّهْريّ نحوه، قال: أخبرني عُبَيْد الله بن عبد الله عن ابن عبّاس، قال: كان رسول‌الله ﷺ أجود النّاس، وكان ﷺ أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرّيح المُرسَلة. (١: ٤ ـ ٥)

وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾: وقال ابن عبّاس: سُدًى هَملاً، ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ سوف أتوب سوف أعمل، ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا حِصْن.

حدّثنا الحُمَيْدِيّ، حدّثنا سُفيان، حدّثنا موسى بن أبي عائشة، وكان ثقة عن سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس ﵄ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرّك به لسانه، ووصف سُفيان يريد أن يحفظه، فأنزل الله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾.

حدّثنا عُبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن موسى بن أبي عائشة، أنّه سأل سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قال: وَقال ابن عبّاس: كان يُحرّك شَفتيه إذا أُنزل عليه، فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ يخشى أن ينفلت منه. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾: أن نجمعه في صدرك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: أن تقرأه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ يقول: أُنزل عليه ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أنْ نُبيّنهُ على لسانك. قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾: قال ابن عبّاس: ﴿قَرَأْنَاهُ﴾: بَيَّنّاهُ، ﴿فَاتَّبِعْ﴾ اعمل به.

حدّثنا قُتيبة بن سعيد، حدّثنا جَرير عن موسى بن أبي عائشة عن سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس في قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾: قال: كان رسول‌الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي وكان ممّا يحرّك به لسانه وشفتيه فيشتدّ عليه، وكان يُعرف منه، فأنزل الله الآية الّتي في (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ): ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾: فإذا أنزلناه فاستمع ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: علينا أن نبيّنه بلسانك قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا

ذهب قرأه كما وعده الله: ﴿أَوْلىٰ لَكَ فَأَوْلىٰ﴾[1] توعُّدٌ. (٦: ٢٠٢)

باب كان جبريل يعرض القرآن على النّبيّ ﷺ

وقال مسروق عن عائشة عن فاطمة عليها السلام: «أسرّ إلى النّبيّ ﷺ أنَّ جبريل يعارضني بالقرآن كلّ سنة، وإنّه عارضني العام مرّتين، ولا أراه إلّا حَضَر أجَلي».

حدّثنا يحيى بن قَزَعة، حدّثنا إبراهيم بن سعد عن الزُّهْريّ عن عُبيد الله بن عبدالله عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: كان النّبيّ ﷺ أجود النّاس بالخير، وأجود ما يكـون فـي شـهر رمضان؛ لأنّ جبريل كان يلقاه في كلّ ليلة في شهر رمضان، حتّى ينسلخ يعرض عليه رسول‌الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الرّيح المُرسَلة.

حدّثنا خالد بن يزيد، حدّثنا أبو بكر عن أبي حَصِين عن أبي صالح عن أبي هُرَيْرَة، قال: كان يعرض على النّبيّ ﷺ القرآن كلّ عام مرّةً، فعرض عليه مرّتين في العام الّـذي قُبض، وكان يعتكف كلّ عام عشرًا، فأعتكف عشرين في العام الّذي قُبض. (٦: ٢٢٩)

---

١ ـ القيامة/٣٤.

الفصل الثّاني

نصُّ الطَّبَرَيّ (م: ٣١٠هـ) في « جامع البيان »[١]

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ البقرة / ١٨٥.

فإنّه ذكر أنّه نزل في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر من شهر رمضان، ثمّ أُنزل إلى محمّد ﷺ على ما أراد الله إنزاله إليه.

كما حدّثنا أبو كُرَيب، قال:حدّثنا أبوبكر بن عَيّاش، عن الأعمش، عن حَسَّان بن أبي الأَشْرَس، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن جملةً من الذّكر في ليلة أربع وعشرين من رمضان، فجُعِل في بيت العزّة.

قال أبو كُرَيب: حدّثنا أبو بكر، وقال ذلك السُّدّيّ، حدّثني عيسى بن عُثمان، قال: ثنا يحيى عن عيسى عن الأعْمَش، عن حَسَّان، عن سعيد بن جُبَير، قال: نزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر في شهر رمضان، فجُعِل في سماء الدّنيا.

حدّثنا أحمد بن منصور، قال: ثنا عبدالله بن رَجاء، قال: ثنا عمران القَطّان، عن قَتادة، عن ابن أبي المَليح، عن واثِلة، عن النّبيّ ﷺ قال: «نزلت صُحُف إبراهيم أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التّوراة لستّ مَضين من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان».

---

١ ـ وقد ذكر شطراً منه الحاكم النّيسابوريّ في المستدرك على الصّحيحين.

حدّثني موسى، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السُّدّيّ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّـذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، أمّا ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ فإنَّ ابن عبّاس قال: شـهر رمـضان، واللّـيلة المباركة: ليلة القدر، فإنّ ليلة القدر هي اللّيلة المباركة، وهي في رمضان، نزل القرآن جملةً واحدةً من الزُّبر إلى البيت المَعْمور، وهو مواقع النُّجوم في السّماء الدّنيا حيث وقع القرآن، ثمّ نزل على محمّد ﷺ بعد ذلك في الأمر والنّهي، وفي الحروب رَسَلاً رَسَلاً.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا عبد الوهّاب، قال: ثنا داود، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس، قال: أنزل الله القرآن إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئاً أوحاه، فهو قوله: ﴿إِنَّا اَنْزَلْـنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1].

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا ابن أبي عَديّ، عن داود، عن عِكْرِمة، عن ابن عـبّاس، فذكر نحوه، وزاد فيه: فكان بين أوّله وآخره عشرون سنة.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا عبد الأعلى، قال: ثنا داود، عن عِكْرِمة، عن ابن عبّاس، قال: أنزل القرآن كلّه جملةً واحدةً في ليلة القدر في رمضان إلى السّماء الدّنيا، فكان الله إذا أراد أن يحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتّى جمعه.

حدّثني يعقوب، قال: ثنا هُشَيْم، قال: أخبرنا حَصِين، عن حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر من السّماء العُليا إلى السّماء جملةً واحدةً، ثمّ فرّق في السّنين بعد. قال: وتلا ابن عبّاس هذه الآية ﴿فَـلَا أُقْسِـمُ بِـمَوَاقِـعِ النُّجُومِ﴾[2] قال: نزل مفرّقاً.

حدّثنا يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن الشَّعبيّ، قال: بلغنا أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا.

حدّثني المثنّى، قال: ثنا سُوَيد بن نصر، قال: أخبرنا ابن المُبارك، قرأه ابن جُرَيْج في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ قال: قال ابن عبّاس: أُنـزل القـرآن جـملةً واحدةً على جبريل في ليلة القدر، فكان لا ينزل منه إلّا بأمر، قال ابن جُرَيْج: كان ينزل من

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الواقعة / ٧٥

القرآن في ليلة القدر كلّ شيءٍ ينزل من القرآن في تلك السّنة، فنزل ذلك من السّماء السّابعة على جبريل في السّماء الدّنيا، فلا ينزل جبريل من ذلك على محمّد إلّا ما أمره به ربّه، ومثل ذلك ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1].

حدّثني المثنّى، قال: ثنا إسحاق، قال: ثنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدّيّ، عن محمّد بن أبي المُجَالِد، عن مِقْسَم، عن ابن عبّاس، قال له رجل: إنّه قد وقع في قلبي الشّكّ من قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقد أنزل الله في شوّال وذي القعدة وغيره، قال: إنّما أُنزل في رمضان في ليلة القدر وليلة مباركة جملةً واحدةً، ثمّ أُنزل على مواقع النُّجوم رَسَلاً في الشّهور والأيّام. (٢: ١٤٤ ـ ١٤٦)

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ...﴾ الإسراء /١٠٦

اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامّة قرّاء الأمصار: (فَرَقْنَاهُ) بتخفيف الرّاء من فرقناه، بمعنى أحكمناه وفصّلناه وبيّنّاه. وذُكر عن ابن عبّاس، أنّه كان يقرأه بتشديد الرّاء «فرّقناه»، بمعنى نزّلناه شيئاً بعد شيءٍ، آيةً بعد آيةٍ، وقصّةً بعد قصّةٍ.

وأولى القراءتين بالصّواب عندنا القراءة الأُولى؛ لأنّها القراءة الّتي عليها الحجّة مجمعة، ولا يجوز خلافها فيما كانت عليه مجمعة من أمر الدّين والقرآن. فإذا كان ذلك أولى القراءتين بالصّواب، فتأويل الكلام ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وفصّلناه قرآناً، وبيّنّاه وأحكمناه ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ وبنحو الّذي قلنا في ذلك من التّأويل قال جماعة من أهل التّأويل.

حدّثني عليّ، قال: ثنا عبدالله، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عبّاس، قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ يقول: فصّلناه.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن أبي جعفر، عن الرّبيع، عن أبي العالية، عن أُبيّ بن كعب: أنّه قرأ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ مخفّفاً، يعني بيّنّاه.

---

١ ـ الدُّخان / ٢.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن ابن جُرَيْج، قال: قال ابن عبّاس ﴿ وَقُرْاٰنـًا فَرَقْنَاهُ ﴾ قال: فصّلناه.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا بدل بن المخبر، قال: ثنا عَبّاد، يعني ابن راشد، عن داود، عن الحسن أنّه قرأ ﴿ وَقُرْاٰنـًا فَرَقْنَاهُ ﴾ خفّفها، فرّق الله بين الحقّ والباطل. وأمّا الّذين قرأوا القراءة الأُخرىٰ، فإنّهم تأوّلوا ما قد ذكرت من التّأويل.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن أبي جعفر، عن الرّبيع، عن أبي العالية، قال: كان ابن عبّاس يقرأها ﴿ وَقُرْاٰناً فَرَّقْـنَاهُ ﴾ مثقّلةً، يقول: أنزل آيةً آيةً.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا يزيد بن هارون، قال: أخبرنا داود، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، قال: قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال: ﴿ وَلَا يَاتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلَّا جِئْـنَاكَ بِالْحَقِّ وَاَحْسَـنَ تَـفْسِيرًا ﴾[1] ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[2].

حدّثنا الحسن بن يحيىٰ، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق، قال: أخبرنا مَعْمَر، عن قَتادة، في قوله: ﴿ وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ ﴾: لم ينزل جميعاً، وكان بين أوّله وآخره نحو من عشرين سنة.

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ ﴾ قال: فرّقه، لم ينزله جميعه. وقرأ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَـفَرُوا لَـوْلاٰ نُـزِّلَ عَـلَيْهِ الْـقُرْاٰنُ جُـمْلَةً وَاحِدَةً ﴾[3]... حتّى بلغ ﴿ وَاَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ ينقض عليهم ما يأتون به.

وكان بعض أهل العربيّة من أهل الكوفة يقول: نصب قوله ﴿ وَقُرْاٰنًا ﴾ بمعنى ورحمةً، ويتأوّل ذلك ﴿ وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[4]: ورحمة، ويقول: جاز ذلك؛ لأنّ القرآن رحمة، ونصبه على الوجه الّذي قُلناه أولى، وذلك كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ وَالْقَمَرَ قَـدَّرْنَاهُ

---

١ ـ الفرقان / ٣٣.

٢ ـ الإسراء/١٠٦.

٣ ـ الفرقان/٣٢.

٤ ـ الفرقان/٥٦.

مَنَازِلَ﴾.[١] وقوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ يقول: لتقرأه على النّاس على تُؤَدَةٍ، فترتِّله وتبيّنه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك، وبنحو الّذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل.

حدّثنا محمّد بن بَشّار، قال: ثنا عبد الرّحمان، قال: ثنا سُفيان، عن عُبَيد المُكتِب [٢]، قال: قلت لمجاهد: رجل قرأ البقرة وآل عمران، وآخر قرأ البقرة، وركوعهما وسجودهما واحد، أيّهما أفضل؟ قال: الّذي قرأ البقرة، وقرأ ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾.

حدّثني عليّ، قال: ثنا عبدالله، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عبّاس، قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ يقول: على تأييد.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصِم، قال: ثنا عيسى؛ وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا وَرْقاء جميعاً، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، قوله: ﴿ عَلٰى مُكْثٍ﴾ قال: على ترتيل.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن ابن جُرَيج، قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ قال: في ترتيل.

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾، قال: التّفسير الّذي قال الله ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾: تفسيره.

حدّثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزّاق، قال: أخبرنا الثّوريّ، عن عُبَيد، عن مجاهد، قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ على تُؤَدَةٍ. وفي المُكث للعرب لغات: مُكثٍ، ومَكثٍ، ومِكثٍ ومُكَيِّثى مقصور، ومُكْثاناً، والقراءة بضمّ الميم.

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ يقول تعالى ذكره: فرّقنا تنزيله، وأنزلناه شيئاًبعد شيءٍ.

كما حدّثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيَّة، قال: حدّثنا عن أبي رَجاء، قال: تلا الحسن ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ قال: كان الله تبارك وتعالى

---

١ ـ يٰس /٣٩.

٢ ـ المُكتِب اسم فاعل، من أكتب أو من كتّب بالتّشديد وهو المعلّم، يعلّم الصّبيان كتابة القرآن في ألواحهم.

يُنزِّل هذا القرآن بعضه قبل بعض؛ لِما عَلم أنّه سيكون ويحدث في النّاس، لقد ذُكر لنا أنّه كان بين أوّله وآخره ثماني عشرة سنة، قال: فسألته يوماً على سخطة، فقلت: يا أبا سعيد ﴿ وَقُرْاٰناً فَرَّقْنَاهُ ﴾ فثقّلها أبو رَجاء، فقال الحسن: ليس «فرَّقناه»، ولكن (فـرَقناه) ، فـقرأ الحسن مخفّفةً. قلت: من يُحدّثك هذا يا أبا سعيد؟ أصحاب محمّد؟ قال: فمن يحدّثنيه؟ قال: أنزل عليه بمكّة قبل أن يهاجر إلى المدينة ثماني سنين، وبالمدينة عشر سنين.

حدّثنا بِشر، قال ثنا يزيد، قال ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله: ﴿ وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ لم ينزل في ليلة ولا ليلتين، ولا شـهر ولا شـهرين، ولاسنة ولاسنتين، ولكن كان بين أوّله وآخره عشرون سنة وما شاء الله من ذلك.

حدّثنا بِشر، قال ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، عن الحسن، قال: كان يـقول: أنزل على نبيّ الله القرآن ثماني سنين وعشراً بعد ما هاجر، وكان قَتادة يقول: عشراً بمكّة، وعشراً بالمدينة . (١٥: ١٧٨ – ١٨٠)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤.

يقول تعالى ذكره: فارتفع الّذي له العبادة من جميع خلقه، الملك الّذي قهر سلطانه كلّ ملك وجبّار، الحقّ عمّا يصفه به المشركون من خلقه. ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾، يقول جلّ ثناؤه لنبيّه محمّدﷺ ولا تعجل يا محمّد بالقرآن، فتُقرِئه أصحابك أو تَقرأه عليهم من قبل أن يوحى إليك بيان معانيه، فعوتب على إكتابه وإملائه ما كان الله ينزله عليه من كتابه من كان يُكتِبه ذلك، من قبل أن يبيّن له معانيه. وقيل: لا تتله على أحدٍ، ولا تمله عليه، حتّى نبيّنه لك. وبنحو الّذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصِم. قال: ثنا عيسى، وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن ، قال: ثنا وَرْقاء جميعًا ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿ وَلَا تَـعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ قال: لا تتله على أحدٍ حتّى نبيّنه لك.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا حَجّاج. عن ابن جُرَيج، قال: يقول: لا تتله على أحد حتّى نُتمّه لك، هكذا قال القاسم: حتّى نُتمّه.

حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه عن ابن عبّاس، عن أبيه، قوله: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ يعني لا تعجل حتّى نبيّنه لك.

حدّثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة ﴿ وَلَاتَعْجَلْ بِالقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾، أي بيانه.

حدّثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق. قال: أخبرنا مَعْمَر. عن قَتادة ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ قال: تبيانه.

حدّثنا ابن المثنّى وابن بَشّار، قالا: ثنا محمّد بن جعفر، قال: ثنا شُعبة، عن قَتادة ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ من قبل أن يبيّن لك بيانه. (١٦: ٢١٩ ـ ٢٢٠)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ... ﴾ الفرقان / ٣٢.

يقول تعالى ذكره: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ ﴾، يقول: هلاّ نزّل على محمّد ﷺ القرآن﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾. كما أُنزلت التّوراة على موسى جملةً واحدةً؟ قال الله: ﴿ كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشّيء بعد الشّيء لنثبّت به فؤادك نزّلناه.

حدّثني محمّد بن سَعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عبّاس: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ، وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ قال: كان الله يُنزّل عليه الآية، فإذا عَلِمَها نبيّ الله نزلت آية أُخرى ليعلّمه الكتاب عن ظهر قلب، ويثبّت به فؤاده.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن ابن جُرَيج، قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كما أُنزلت التّوراة على موسى؟ قال: ﴿ كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾. قال: كان القرآن يُنَزَّلُ عليه جواباً لقولهم: ليعلم محمّد أنّ الله يجيب القوم بما يقولون بالحقّ. ويعني بقوله: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ لنصحّح به عزيمة قلبك، ويقين نفسك، ونشجّعك به.

وقوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ يقول: وشيئاً بعد شيءٍ علّمناكه، حتّى تَحفَّظْتَه، والتّرتيل في القراءة: التّرسّل والتّثبّت. وبنحو الّذي قلنا في ذلك، قال أهل التّأويل.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا هُشَيْم، قال: أخبرنا مُغيرة، عن إبراهيم، في قوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: نزل متفرّقاً.

حدّثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرّزّاق، قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الحسن، في قوله: ﴿ورَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: كان ينزل آية وآيتين وآيات، جواباً لهم إذا سألوا عن شيء أنزله الله جواباً لهم، ورداً عن النّبيّ فيما يتكلّمون به، وكان بين أوّله وآخره نحوٌ من عشرين سنة.

حدّثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حَجّاج، عن ابن جُرَيج، قوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: كان بين ما أُنزل القرآن إلى آخره أُنزل عليه لأربعين، ومات النّبيّ ﷺ لثنتين أو لثلاث وستّين. وقال آخرون: معنى التّرتيل التّبيين والتّفسير.

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن يزيد، في قوله: ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ قال: فسّرناه تفسيراً، وقرأ ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْاٰنَ تَرْتِيلًا ﴾. (١٩: ١٠ ـ ١١)

﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ... ﴾ الدّخان/٣

أقسم جلّ ثناؤه بهذا الكتاب أنّه أنزله في ليلة مباركة. واختلف أهل التّأويل في تلك اللّيلة، أيّ ليلة من ليالي السّنة هي؟ فقال بعضهم: هي ليلة القدر.

حدّثنا بِشر، قال ثنا يزيد، ثنا سعيد عن قَتادة ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾: ليلة القدر. ونزلت صُحُف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، ونزلت التّوراة لستّ ليالٍ من رمضان، ونزل الزّبور لستّ عشرة مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل الفرقان لأربع وعشرين مضت من رمضان...

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال : قال ابن زيد في قوله عزّوجلّ: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ اِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ قال: تلك اللّيلة ليلة القدر، أنزل الله هذا القرآن من

أمّ الكتاب، في ليلة القدر، ثمّ أنزله على الأنبياء [١] في اللّيالي والأيّام، وفي غير ليلة القدر. وقال آخرون: بل هي ليلة النّصف من شعبان. (٢٥: ١٠٧)

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ... ﴾ الواقعة / ٧٥.

قوله: ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ اختلف أهل التّأويل في معنى ذلك. فقال بعضهم: معناه فلا أُقسم بمنازل القرآن، وقالوا: أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ نجوماً متفرّقةً.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا هُشَيم... [وذكركما تقدّم آنفاً، ثمّ قال:]

حدّثنا ابن حميد، قال ثنا يحيى بن واضح، قال: ثنا الحسين، عن يزيد، عن عِكرِمة، في قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ قال: أنزل الله القرآن نُجوماً ثلاث آيات وأربع آيات وخمس آيات.

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا المعتمر، عن أبيه، عن عِكرِمة: أنّ القرآن نزل جميعاً، فوُضِع بمواقع النّجوم فجعل جبريل يأتي بالسّورة، وإنّما نزل جميعاً في ليلة القدر.

حدّثني يحيى بن إبراهيم المسعوديّ، قال: ثنا أبي، عن أبيه، عن جدّه، عن الأعمش، عن مجاهد ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ قال: هو مُحكم القرآن.

حدّثني محمّد بن سَعد، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عبّاس، قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ... ﴾ قال: مستقرّ الكتاب أوّله وآخره. وقال آخرون: بل معنى ذلك فلا أُقسم بمساقط النّجوم.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا وَرْقاء جميعاً، عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، قوله ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ قال في السّماء، ويقال مطالعها ومساقطها. حدّثني بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ أي مساقطها. وقال آخرون: بل معنى ذلك بمنازل النّجوم.

---

١ ـ في فتح القدير للشّوكانيّ ٤: ٥٥٤، وقال قَتادة: أُنزل القرآن كلّه في ليلة القدر من أمّ الكتاب، وهو اللّوح المحفوظ، إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا، ثمّ أنزله الله على نبيّه ﷺ في اللّيالي والأيّام، في ثلاث وعشرين سنة.

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَور، عن مَعْمَر، عن قَتادة: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ قال: قال بمنازل النّجوم. وقال آخرون: بل معنى ذلك بانتثار النّجوم عند قيام السّاعة.

حدّثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، في قوله: ﴿ فَلَا أُقسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجومِ ﴾ قال الحسن: انكدارها وانتثارها يوم القيامة.

وأولى الأقوال في ذلك بالصّواب قول من قال: معنى ذلك فلا أُقسم بمساقط النّجوم ومغايبها في السّماء، وذلك أنّ المواقع جمع موقع، والموقع: المَفْعِل، من وقع يقع موقعاً، فالأغلب من معانيه، والأظهر من تأويله، ما قلنا في ذلك، ولذلك قلنا: هو أولى معانيه به .
(٢٧: ٢٠٣)

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٧.

يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: لا تحرّك يا محمّد بالقرآن لسانك، لتعجل به.

واختلف أهل التّأويل في السّبب الّذي من أجله قيل له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ فقال بعضهم: قيل له ذلك، لأنّه كان إذا نزل عليه منه شيء عَجِل به، يريد حفظه، من حُبّه إيّاه، فقيل له: لا تعجل به، فإنّا سنحفظه عليك.

حدّثنا أبو كُرَيب، قال: ثنا سُفيان بن عُيَيْنة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس: أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجّل يريد حفظه، فقال الله تعالى ذكره: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ وقال ابن عبّاس: هكذا، وحرّك شفتيه.

حدّثني عُبَيد بن إسماعيل الهَبّاريّ ويونس قالا: ثنا سُفيان، عن عمرو، عن سعيد بن جُبَير: أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن تعجّل به، يريد حفظه؛ وقال يونس: يحرّك شفتيه ليحفظه، فأنزل الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾

حدّثني عُبَيد بن إسماعيل الهَبّاريّ، قال: ثنا سُفيان، عن ابن أبي عائشة، سمع سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس مثله، وقال: ﴿ لَا تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال: هكذا، وحرّك سُفيان فاه.

حدّثنا سُفيان بن وَكيع، قال: حدثنا جَرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، كان يحرّك به لسانه وشفتيه، فيشتدّ عليه، فكان يعرف ذلك فيه، فأنزل الله هذه الآية في (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ): ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ ﴾.

حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا مِهران،عن سُفيان، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه القرآن، حرّك شفتيه، فيعرف بذلك، فحاكاه سعيد، فقال: ﴿ لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: لتعجل بأخذه.

حدّثنا محمّد بن بَشّار، قال: ثنا عبد الرّحمان، قال: ثنا سُفيان، عن موسى بن أبي عائشة، قال: سمعت سعيد بن جُبَير يقول: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾. قال: كان جبريل عليه السلام ينزل بالقرآن، فيحرّك به لسانه، يستعجل به، فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾.

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثنا رِبْعَيُّ بن عُلَيَّة، قال: ثنا داود بن أبي هند، عن الشّعبيّ في هذه الآية ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان إذا نزل عليه الوحي عَجِل يتكلّم به، من حُبّه إيّاه، فنزل ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ ﴾.

حدّثني يونس، قال: أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: لا تَكلّم بالّذي أوحينا إليك، حتّى يُقضى إليك وحيه، فإذا قضينا إليك وحيه، فتكلّم به.

حُدّثتُ عن الحُسين، قال: سمعت أبا مُعاذ يقول: ثنا عُبَيد، قال: سمعت الضّحّاك يقول في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال: كان نبيّ الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي من القرآن حرّك به لسانه؛ مخافة أن ينساه.

وقال آخرون: بل السّبب الّذي من أجله قيل له ذلك، أنّه كان يُكثر تلاوة القرآن؛ مخافة نسيانه، فقيل له: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ إنّ علينا أن نجمعه لك. ونقرئكه، فلا تنسَ.

حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان لا يفتُر من القرآن مخافة أن ينساه. فقال الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ إنّ علينا أن نجمعه لك، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾: أن نقرئك فلا تنسى.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصِم، قال: ثنا عيسى؛ وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا وَرْقاء جميعاً، عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد، قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال: كان يستذكر القرآن، مخافة النّسيان، فقال له: كفيناكه يا محمّد.

حدّثني يعقوب بن إبراهيم، قال: ثنا ابن عُلَيَّة، قال: ثنا أبو رَجاء، عن الحسن، في قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يحرّك به لسانه ليستذكره، فقال الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾: إنّا سنحفظه عليك.

حدّثنا بِشْر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ كان نبيّ الله ﷺ يحرّك به لسانه، مخافة النّسيان، فأنزل الله ما تسمع.

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَور، عن مَعْمَر، عن قَتادة ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ القرآن، فيكثر مخافة أن ينسى.

وأشبه القولين بما دلّ عليه ظاهر التّنزيل، القولُ الّذي ذُكر عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، وذلك أنّ قوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ ﴾ ينبىء أنّه إنّما نهى عن تحريك اللّسان به، مستعجلاً فيه قبل جمعه، ومعلوم أنّ دراسته للتّذكّر إنّما كانت تكون من النّبيّ ﷺ من بعد جمع الله له ما يدرّس من ذلك.

وقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ يقول تعالى ذكره: إنّ علينا جمع هذا القرآن في صدرك يا محمّد، حتّى نثبّته فيه ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ يقول: وقرآنه حتّى تقرأه بعد أن جمعناه في صدرك. وبنحو الّذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل.

حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا مِهران، عن سُفيان، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ قال: في صدرك، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال: تقرأه بعد.

حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن

عبّاس: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أن نجمعه لك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: أن نُقرئك فلا تنسىٰ.

حُدِّثتُ عن الحسين، قال: سمعت أبا مُعاذ يقول: ثنا عُبَيْد، قال: سمعت الضحّاك يقول في قوله: ﴿إِنَّ علينا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ يقول: إنّ علينا أن نجمعه لك حتّى نثبّته في قلبك وكان آخروُن يتأوّلون قوله: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ وتأليفه. وكان معنى الكلام عندهم إنّ علينا جمعه في قلبك حتّى تحفظه، وتأليفه.

حدّثنا بِشْر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة، قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرآنَهُ﴾ يقول: حفظه وتأليفه.

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَور، عن مَعْمَر، عن قَتادة ﴿جَمْعَهُ وقُرآنَهُ﴾ قال: حفظه وتأليفه.وكأنّ قَتادة وجّه معنى القرآن إلى أنّه مصدر من قول القائل: قد قَرَأَتْ هذه النّاقةُ في بطنها جَنيناً، إذا ضمّت رحمها على ولد، كما قال عمرو بن كُلْثوم.

ذِرَاعَيْ عَيْطَلٍ أدْماءَ بِكْرٍ   هِجانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقرأْ جَنِيناً[1].

يعني بقوله: «لم تقرأ» لم تضمّ رحماً على ولدٍ. وأمّا ابن عبّاس والضّحّاك فإنّما وجّها ذلك إلى أنّه مصدر من قول القائل: قرأت أقرأ قُرآناً وقراءةً.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرآنَهُ﴾[2] اختلف أهل التّأويل في تأويله، فقال بعضهم: تأويله: فإذا أنزلناه إليك فاستمع قرآنه.

حدّثنا ابن حَميد قال: ثنا مِهران، عن سُفيان، عن منصور وابن أبي عائشة، عن سعيد

---

١ ـ البيت من معلّقة عمرو بن كلثوم المشهورة (انظره في شرحي الزُّوزَنيّ والتّبريزيّ على المعلّقات) وقال أبو عُبَيدة في مجاز القرآن (الورقة: ١٨٢) (فإذا قرأناه): جمعناه، وهو من قول العرب: ما قرأت هذه المرأة نسلاً قط: قال عمرو بن كلثوم: «لم تقرأ جنيناً». ا هـ وقال الفرّاء في معاني القرآن: (٣٥٠) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾: جمعه في قلب، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: قراءته. أي أنّ جبريل سيعيد عليك.وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ إذا قرأه عليك جبريل. والقراءة والقرآن: مصدران. كما تقول: راجح بين الرّجحان والرّجوح، والمعرفة والعرفان،والطّواف والطّوفان (بتحريك الطّاء والواو). ا هـ وفي شرح الزُّوزَني: العيطل: الطّويلة العُنُق من النّوق. والأدماء: البيضاء منها، والأدمة: البياض في الإبل. والبكر: النّاقة الّتي حملت بطناً واحداً، ويُروى بفتح الباء، وهو الفتى من الإبل، وكسر الباء أعلى الرّوايتين. والهجان الأبيض الخالص البياض. يستوي فيه الواحد والتّثنية والجمع، وينعت به الإبل والرّجال وغيرهما. ولم تقرأ جنيناً، أي لم تضمّ في رحمها ولداً. ا هـ

٢ ـ القيامة /١٨.

بن جُبَير، عن ابن عبّاس ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾: فإذا أنزلناه إليك﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ قال: فاستمع قرآنه.

حدّثنا سُفيان عن وَكيع، قال: ثنا جَرير، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾: فإذا أنزلناه إليك فاستمع له.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: إذا تَلى عليك فاتّبع ما فيه من الشّرايع والأحكام.

حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبيه، عن ابن عبّاس ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ يقول: إذا تلىٰ عليك فاتّبع ما فيه.

حدّثنا بِشر: قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ يقول: اتّبع حلاله، واجتنب حرامه.

حدّثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَور، عن مَعْمَر، عن قَتادة ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ يقول: فاتّبع حلاله، واجتنب حرامه.

حُدِّثتُ عن الحسين، قال: سمعت أبا مُعاذ يقول: ثنا عُبَيد، قال: سمعت الضَّحّاك يقول في قوله: ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ يقول: اتّبع ما فيه. وقال آخرون: بل معناه فإذا بيّنّاه فاعمل به.

حدّثنا عليّ، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية، عن عليّ، عن ابن عبّاس، قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ يقول: اعمَل به.

وأولى هذه الأقوال بالصّواب في ذلك: قول من قال: فإذا تُلي عليك فاعمل به، من الأمر والنّهي، واتّبع ما أُمرت به فيه؛ لأنّه قيل له: إنّ علينا جمعه في صدرك وقرآنه، ودلّلنا على أنّه معنى قوله: ﴿ وقُرآنَهُ ﴾ وقراءته، فقد بيّن ذلك عن معنى قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[1] يقول تعالى ذكره: ثمّ إنّ علينا بيان ما فيه من حلاله وحرامه، وأحكامه لك مفصّلة. واختلف أهل التّأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: نحو الّذي قلنا فيه.

حدّثني محمّد بن سعد، قال: ثني أبي، قال: ثني عمّي، قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن

---

١ ـ القيامة/١٩.

عبّاس ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ يقول: حلاله وحرامه، فذلك بيانه.

حدّثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾: بيان حلاله واجتناب حرامه، ومعصيته وطاعته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ثمّ إنّ علينا تبيانه بلسانك.

حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا مِهران ، عن سُفيان، عن موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ قال: تبيانه بلسانك. (٢٩: ١٨٧ - ١٩٠)

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ الأعلى / ٦

يقول تعالى ذكره: سنقرئك يا محمّد هذا القرآن فلا تنساه، إلّا ما شاءالله.

ثمّ اختلف أهل التّأويل في معنى قوله: ﴿ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾ فقال بعضهم: هذا إخبار من الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام أنّه يعلّمه هذا القرآن، ويحفظه عليه، ونهى منه أن يعجل بقراءته، كما قال جلّ ثناؤه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾.

حدّثني محمّد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصِم، قال: ثنا عيسى؛ وحدّثني الحارث، قال: ثنا الحسن ، قال: ثنا وَرْقاء جميعاً، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَاتَنْسَىٰ ﴾ قال: كان يتذكّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى، فقال قائلو هذه المقالة: معنى الإستثناء في هذ الموضع على النّسيان، ومعنى الكلام فلا تنسى، إلّا ما شاء الله أن تنساه، ولا تذكُرَه، قالوا: ذلك هو ما نسخه الله من القرآن، فرفع حكمه وتلاوته.

حدّثنا بِشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قَتادة ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَاتَنْسَىٰ ﴾: كانﷺ لا ينسى شيئاً ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾.

وقال آخرون: معنى النّسيان في هذا الموضع التّرك، وقالوا: معنى الكلام سنقرئك يا محمّد فلا تترك العمل بشيءٍ منه، إلّا ما شاء الله أن تترك العمل به، ممّا ننسخه.

وكان بعض أهل العربيّة يقول في ذلك: لم يشأ الله أن تنسى شيئاً، وهو كقوله:

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾[١] ولا يشاء. قال: وأنت قائل في الكلام: لأعطينّك كلّ ما سألت إلّا ما شئت، وإلّا أن أشاء أن أمنعك، والنّيّة أن لا تمنعه، ولا تشاء شيئاً. قال: وعلى هذا مجارِي الإيمان، يستثنى فيها، ونيّة الحالف اللّمام.

والقول الّذي هو أولى بالصّواب عندي قول من قال: معنى ذلك فلا تنسى إلّا أن نشاء نحن أن نُنسيكه بنسخه ورفعه. وإنّما قلنا ذلك أولى بالصّواب، لأنّ ذلك أظهر معانيه.

(٣٠: ١٥٤)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

يقول تعالى ذكره: إنّا أنزلنا هذا القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، وهي ليلة الحُكم الّتي يقضي الله فيها قضاء السّنة، وهو مصدر من قولهم: قَدَر الله عليّ هذا الأمر، فهو يَقْدِرُ قَدْراً. وبنحو الّذي قلنا في ذلك قال أهل التّأويل ...

حدّثنا ابن المثنّى، قال: ثني عبد الأعلى، قال: ثنا داود، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن كلّه جملةً واحدةً في ليلة القدر في رمضان إلى السّماء الدّنيا، فكان الله إذا أراد أن يَحدث في الأرض شيئاً أنزله منه حتّى جمعه.

حدّثنا ابن المثنّى قال: ثنا عبد الوَهّاب، قال: ثنا داود، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، قال: أنزل الله القرآن إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، وكان الله إذا أراد أن يوحى منه شيئاً أوحاه، فهو قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

قال: ثنا ابن أبي عَديّ، عن داود، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، فذكر نحوه، وزاد فيه، وكان بين أوّله وآخره عشرون سنة.

قال: ثنا عمرو بن عاصِم الكِلابيّ، قال: ثنا المعتمر بن سُليمان التّيميّ، قال: ثنا عِمران أبو العَوّام، قال: ثنا داود بن أبي هِند، عن الشَّعبيّ، أنّه قال في قول الله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: نزل أوّلُ القرآن في ليلة القدر ...

حدّثني يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن الشَّعبيّ، في قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي

---

١ ـ هود / ١٠٧.

لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: بلغنا أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا.

حدّثنا ابن حَميد، قال: ثنا مِهران، عن سُفيان، عن سَلَمة بن كُهَيل، عن مسلم، عن سعيد بن جُبَير: أنزل القرآن جملةً واحدةً، ثمّ أنزل ربّنا في ليلة القدر ﴿فيهَا يُفْرَقُ كَلُّ اَمْرٍ حَكِيمٍ﴾.[1]

قال: ثنا جَرير، عن منصور، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، في قوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أنزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر، إلى السّماء الدّنيا، فكان بموقع النّجوم، فكان الله ينزّله على رسوله، بعضُه في إثر بعض، ثمّ قرأ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُراٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرتِيلاً﴾[2]. (٣٠: ٢٥٨ ـ ٢٥٩)

---

١ ـ الدّخان/ ٤

٢ ـ الفرقان / ٣١.

الفصل الثّالث

نصّ ثقةالإسلام الكُلينيّ (م: ٣٢٩هـ) في «الأُصول من الكافيّ»

عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد؛ وسهل بن زياد، عن منصور بن العبّاس، عن محمّد بن الحسن السَّرِيّ، عن عمّه عليّ بن السَّريّ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «أوّل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وآخره ﴿إذا جَاءَ نَصْرُ الله﴾»[١].

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، ومحمّد بن القاسم، عن محمّد بن سُليمان، عن داود، عن حَفْص بن غِياث، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته، عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾ وإنّما أُنزل في عشرين سنة بين أوّله وآخره؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: «نزل القرآن جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثمّ نزل في طول عشرين سنة»: ثمّ قال: قال النّبيّ صلى الله عليه وآله: «نزلت صُحُف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التّوراة لستّ مضين من شهر رمضان، وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وأُنزل الزَّبور لثمان عشر خلون من شهر رمضان، وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان».

---

١ ـ لعلّ المراد أنّه لم ينزل بعدها سورة كاملة فلا ينافي نزول بعض الآيات بعدها كما هو مشهور (مرآت العقول ج/١٢: ٥١٨).

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن صَفوان، عن ابن مسكان، عن محمّد بن الوَرّاق قال: عرضت على أبي عبد الله عليه السلام كتاباً فيه القرآن مختَّم معشَّر بالذَّهب [1]، وكتب في آخره سورة بالذَّهب، فأريته إيّاه فلم يعبء فيه شيئاً إلّا كتابة القرآن بالذَّهب، وقال: «لا يعجبني أن يكتب القرآن إلّا بالسّواد كما كتب أوّل مرَّة».

محمّد بن يحيى، عن عبدالله بن محمّد، عن عليّ بن الحَكَم، عن عبدالله بن بُكَير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزل القرآن بإيّاك أعني واسمعي يا جارة» [2].

وفي رواية أُخرىٰ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «معناه ما عاتب الله عزَّوجلَّ به على نبيّه صلى الله عليه وآله. فهو يعني به ما قد مضى في القرآن مثل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [3]، عَنىٰ بذلك غيره».

عدَّة من أصحابنا، عن سَهْل بن زياد، عن عليّ بن الحَكَم، عن عبدالله ابن جُندَب، عن سُفيان بن السّمط قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: عن تنزيل القرآن قال: «اقرأوا كما علّمتم». (٢: ٦٢٨ ـ ٦٣١)

و نصّه أيضاً في «الفروع من الكافي»

باب «فضل شهر رمضان»

عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن عبدالله بن المغيرة، عن عمرو الشّامي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَاللهِ اِثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ [4] «فغرّة الشّهور شهر الله عزّ ذكره، وهو شهر رمضان، وقلب شهر رمضان ليلة

---

١ ـ قيل: المختَّم ما كان من علامة ختم الآيات فيه بالذّهب، ويمكن أن يراد به النّقش الّذي يكون في وسط الجلد أو في الافتتاح والاختتام، أو في الحواشي للزّينة.

٢ ـ هذا مثل يضرب لمن يتكلّم بكلام يريد به غير المخاطب.

٣ ـ الإسراء / ٧٤.

٤ ـ التّوبة / ٣٦.

القدر، ونزل القرآن في أوّل ليلة من شهر رمضان، فاستقبل الشّهر بالقرآن». (٤: ٦٥ ـ ٦٦)

باب في «ليلة القدر»

عدّةٌ من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، عن عليّ بن الحَكَم، عن سيف بن عُمَيرة، عن حَسّان بن مِهْران، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن ليلة القدر، فقال: «التمسها [في] ليلة إحدىٰ وعشرين أو ليلة ثلاث وعشرين».

أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن فَضَالة بن أيّوب، عن العَلاء بن رَزِين، عن محمّد بن مسلم، عن أحدهما عليهما السلام قال: سألته عن علامة ليلة القدر فقال: «علامتها أن تطيب ريحها، وإن كانت في برد دفئت [1]، وإن كانت في حرّ بردت فطابت». قال: وسئل عن ليلة القدر، فقال: «تنزّل فيها الملائكة والكتبة إلى السّماء الدّنيا فيكتبون ما يكون في أمر السّنة وما يصيب العباد، وأمره عنده موقوف له وفيه المشيئة، فيقدّم منه ما يشاء ويؤخّر منه ما يشاء، ويمحُو ويثبت وعنده أُمّ الكتاب».

محمّد بن يحيىٰ، عن أحمد بن محمّد، عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمّد، عن عليّ بن أبي حَمْزة، عن أبي بصير؛ عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نزلت التّوراة في ستّ مضت من شهر رمضان، ونزل الإنجيل في اثني عشرة ليلة مضت من شهر رمضان، ونزل الزّبور في ليلة ثماني عشرة مضت من شهر رمضان ونزل القرآن في ليلة القدر».

عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَير، عن عمر بن أُذَينَة، عن الفُضَيل؛ وزُرارة، ومحمّد بن مُسلم، عن حُمْران، أنّه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [2] قال: «نعم ليلة القدر، وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلّا في ليلة القدر؛ قال الله عزَّوجلَّ: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكيمٍ ﴾ [3]. (٤: ١٥٦ ـ ١٥٧)

---

١ ـ بالدّال المُهملة مهموزة اللّام من باب فرج أي سخنت.

٢ ـ الدّخان / ٣.

٣ ـ الدّخان / ٤.

الفصل الرّابع

نصّ الشّيخ الصّدوق (م: ٣٨١هـ) والشّيخ المفيد (م: ٤١٣هـ)

نزول القرآن في ليلة القدر

قال الشّيخ الصّدوق: إنّ القرآن نزل في شهر رمضان ، في ليلة القدر جملةً واحدةً إلى البيت المعمور ، ثمّ نزل من البيت المعمور في مدّة عشرين سنة ، وإنّ الله عزّوجلّ أعطى نبيّه ﷺ العلم جملةً ، ثمّ قال: ﴿وَلاَتَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[1]. وقال: ﴿لاَتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ* فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ* ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2].(الاعتقادات ضمن كتاب «شرح الباب الحادي عشر» : ٩٢)

قال الشّيخ المفيد: الّذي ذهب إليه أبو جعفر في هذا الباب أصله حديث واحد، لايوجب علمًا وعملاً. ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ماتضمّنه الحديث ، وذلك أنّه قد تضمّن حكم ماحدث وذكر ماجرىٰ على وجهه ، وذلك لايكون على الحقيقة إلّا لحدوثه عند السّبب، ألاترى قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[3]، وقوله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَاعَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ

---

١ ـ طه/١١٤.

٢ ـ القيامة/١٦ ـ ١٩.

٣ ـ النساء: ١٥٥.

عِلْمٍ)[١]، وهذا خبر عن ماضٍ ، ولايجوز أن يتقدّم مخبره ، فيكون حينئذٍ خبرًا عن ماضٍ وهو لم يقع ، بل هو في المستقبل ، وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.

وقد جاء بذكر الظّهار وسببه ، وأنّها لمّا جادَلَت النّبيّ ﷺ في محكم الظّهار أنزل الله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا)[٢] وهذه قصّة كانت بالمدينة ، فكيف ينزل الله تعالى الوحي بها بمكّة قبل الهجرة ، فيخبر بها أنّها قد كانت ولم تكن؟ ولو تتبّعنا قصص القرآن لجاء ممّا ذكرناه كثيرًا لايتّسع به المقال ، وفيما ذكرناه منه كفاية لذوي الألباب ، وماأشبهه ماجاء به الحديث بمذهب المشّبهة الّذين زعموا أنّ الله سبحانه وتعالى لم يزل متكلّمًا بالقرآن ، ومخبرًا عمّا يكون بلفظ «كان» وقد ردّ عليهم أهل التّوحيد بنحو ماذكرناه.

وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملةً في ليلة القدر أنّهنزل جملةً منه في ليلة القدر ، ثمّ تلاه مانزل منه إلى وفاة النّبيّ ﷺ ، فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد ممّا يقتضيه ظاهر القرآن ، والمتواتر من الأخبار وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء.

فأمّا قوله تعالى : (وَلاَتَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ)[٣]، وفيه وجهان غير ما ذكره أبو جعفر وعوّل فيه على حديث شاذّ؛

أحدهما: أنّ الله تعالى نهاه عن التّسرّع إلى تأويل القرآن قبل الوحي إليه به، وإن كان في الإمكان من جهة اللّغة ما قالوه على مذهب أهل اللّسان. والوجه الآخر: أنّ جبرائيل كان يوحي إليه بالقرآن، فيتلوه معه حرفاً بحرف، فأمره الله تعالى أن لا يفعل ذلك، ويصغي إلى ما يأتيه به جبرائيل، أو ينزله الله تعالى عليه بغير واسطة حتّى يحصل الفراغ منه، فإذا أتمّ الوحي به تلاه ونطق به وقرأه.

فأمّا ما ذكره المعوّل على الحديث من التّأويل فبعيد؛ لأنّه لا وجه لنهي الله تعالى له

---

١ ـ الزّخرف/٢٠.

٢ ـ المجادلة/١.

٣ ـ طه/١١٤.

عن العجلة بالقرآن الّذي هو في السّماء الرّابعة، حتّى يقضى إليه وحيه؛ لأنّه لم يكن محيطاً علماً بما في السّماء الرّابعة قبل الوحي به إليه، فلا معنى لنهيه عمّا ليس في إمكانه، اللّهم إلّا أن يقول قائل ذلك: إنّه كان محيطاً علماً بالقرآن المودَعُ في السّماء الرّابعة، فينتقض كلامه ومذهبه إنّه كان في السّماء الرّابعة؛ لأنّ ما في صدر رسول‌الله ﷺ وحفظه في الأرض، فلا معنى لاختصاصه بالسّماء، ولو كان ما في حفظ رسول‌الله يوصف بأنّه في السّماء الرّابعة (خاصّة) لكان ما في حفظ وغيره موصوفاً بذلك، ولا وجه يكون حينئذٍ؛ لإضافته إلى السّماء الرّابعة، ولا إلى السّماء الأولى، فضلاً عن السّماء الرّابعة. ومن تأمّل ما ذكرناه علم أنّ تأويل الآية على ما ذكره المتعلّق بالحديث بعيد عن الصّواب.[1]

(تصحيح الاعتقاد: ١٠٢)

١ ـ وقد أجاب العلاّمة المجلسيّ عمّا أورده الشّيخ المفيد على الشّيخ الصّدوق رحمهما الله تعالى كما يأتي في الفصل الخامس والثّلاثون.

الفصل الخامس

نصّ الشّريف المرتضى (م: ٤٣٦هـ) في «الأمالي»

تَأْوِيلُ آيَةٍ

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[١].

فقال: كيف أخبر تعالى بأنّه أنزل فيه القرآن، وقد أنزله في غيره من الشّهور على ما جاءت به الرّواية؟ والظّاهر يقتضي أنّه أنزل الجميع فيه، وما المعنى في قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾؟ وهل أراد الإقامة والحضور اللّذين هما ضدّا الغيبة، أو أراد المشاهدة والإدراك؟

الجواب، قلنا: أمّا قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ فقد قال قوم: المراد به أنّه تعالى أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا في شهر رمضان، ثمّ فرّق إنزاله على نبيّه ﷺ بحسب ماتدعو الحاجة إليه.

وقال آخرون: المراد بقوله: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ أنّه أنزل ـ في فرضه وإيجاب صومه على الخلق ـ القرآن؛ فيكون ﴿فِيهِ﴾ بمعنى في فرضه، كما يقول القائل: أنزل الله في الزّكاة كذا وكذا، يريد في فرضها، وأنزل الله في الخمر كذا وكذا، يريد في تحريمها.

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

وهذا الجواب إنّما هرب متكلّفه من شيء، وظنّ أنّه قد اعتصم بجوابه عنه، وهو بعد ثابت على ما كان عليه؛ لأنّ قوله: ﴿ الْقُرآنُ ﴾ إذا كان يقتضي ظاهرُه إنزال جميع القرآن فيجب على هذا الجواب أن يكون قد أُنزل في فرض الصّيام جميع القرآن، ونحن نعلم أنّ قليلاً من القرآن يتضمّن إيجاب صوم شهر رمضان، وأنّ أكثره خالٍ من ذلك.

فإن قيل: المراد بذلك أنّه أنزل في فرضه شيئاً من القرآن، وبعضاً منه.

قيل: فألّا اقتصر على هذا، وحمل الكلام على أنّه تعالى أنزل شيئاً من القرآن في شهر رمضان ولم يحتجّ إلى أن يجعل لفظة ﴿ فِيهِ ﴾ بمعنى في فرضه وإيجاب صومه.

والجواب الصّحيح، أنّ قوله تعالى: ﴿ الْقُرآنُ ﴾ في هذا الموضع لا يفيد العموم والاستغراق، وإنّما يفيد الجنس من غير معنى الاستغراق، فكأنّه قال: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ﴾ هذا الجنس من الكلام، فأيّ شيء نزل منه في الشّهر فقد طابق الظّاهر.

وليس لأحدٍ أن يقول: إنّ الألف واللّام هاهنا لا يكونان إلّا للعموم والاستغراق؛ لأنّا لو سلّمنا أنّ الألف واللّام صيغة العموم والصّورة المقتضية لاستغراق الجنس لم يجب أن يكون هاهنا بهذه الصّفة؛ لأنّ هذه اللّفظة قد تستعمل في مواضع كثيرة من الكلام ولا يراد بها أكثر من الإشارة إلى الجنس والطّبقة من غير استغراق وعموم، حتّى يكون حمل كلام المتكلّم بها على خصوص أو عموم، كالنّاقض لغرضه والمنافي لمراده، ألا ترىٰ أنّ القائل إذا قال: فلان يأكل اللّحم، ويشرب الخمر، وضرَب الأميرُ اليوم اللّصوص، وخاطب الجند، لم يُفْهم من كلامه إلّا محض الجنس والطّبقة من غير معنى خصوص ولا عموم، حتّى لو قيل له: فلان يأكل جميع اللّحم، ويشرب جميع الخمر أو بعضها، لكان جوابُه: إنّني لم أرد عموماً ولا خصوصاً، إنّما أُريد أنّه يأكل هذا الجنس من الطّعام، ويشرب هذا الجنس من الشّراب، فمن فَهِم من كلامي العموم أو الخصوص فهو بعيد من فهِم مرادي.

وأرىٰ كثيراً من النّاس يغلطون في هذا الموضع، فيظنّون أنّ الإشارة إلى الجنس من غير إرادة العموم والاستغراق ليست مفهومة، حتّى يحملوا قول من قال: أردت الجنس في كلّ موضع على العموم، وهذا بعيد ممّن يظنّه؛ لأنّه كما أنّ العموم والخصوص مفهومان في بعض المواضع بهذه الألفاظ فكذلك الإشارة إلى الجنس والطّبقة من غير إرادة عموم ولا

خصوص مفهومة مميّزة، وقد ذكرنا أمثلة ذلك. (٢: ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

تأوِيلُ آيَةٍ

إن سأل سائل عن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1].

فقال: ما معنى هذه الآية؟ فإنّ ظاهرها لا يدلّ على تأويلها.

الجواب، قلنا: قد ذكر المفسّرون في هذه الآية وجهين نحن نذكرهما، ونوضّح عنهما، ثمّ نتلوهما بما خَطَر لنا فيهما زائداً على المسطور.

وأحدُ ما قيل في هذه الآية: أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه القرآن وسمِعَه من جبرئيل قرأ عليه السّلام معه ما يوحى به إليه من القرآن أوّلاً أوّلاً قبل استتمامه والانتهاء إلى المنزَّل منه في الحال، وقَطْع الكلام عليها، وإنّما كان يفعل النّبيّ عليه السلام ذلك حرصًا على حفظه وضبطه، وخوفًا من نسيان بعضه، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ ليُثبت النّبيّ ﷺ في تلاوة ما يسمعه من القرآن، حتّى ينتهي إلى غايته لتعلّق بعض الكلام ببعض.

قالوا: ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ * فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ * ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾[2] فضَمِن الله تعالى أنّه يجمع له عليه السلام حفظ القرآن، ثمّ يثبّته في صدره؛ ليؤدّيه إلى أُمّته. وأسقَط عنه كُلْفَة الاستعجال بِتِرْداد تلاوته، والمسابقة إلى تلاوة كلّ ما يسمعه منه؛ تخفيفاً عنه وترفيهًا له. وأكّدوا ذلك بقوله تعالى: ﴿ فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ﴾ أي إذا انتهينا إلى غاية ما تريد إنزاله في تلك الحال، فحينئذ اتّبع قراءة ذلك وتلاوته، فلم يبق منه ما ينتظر في الحال نزوله.

والوجه الآخر أنّهم قالوا: إنّما نهىَ النّبيّ عليه السلام عن تلاوة القرآن على أُمّته وأداء ما يسمعه منه إليهم، قبل أن يوحى إليه عليه السلام ببيانه، والإيضاح عن معناه وتأويله؛ لأنّ تلاوته على مَنْ لايفهم معناه، ولا يعرف مغزاه لاتحسُن.

---

١ ـ طه / ١١٤.

٢ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

قالوا: ومعنى قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ المراد به قبل أن يقضى إليك وحي بيانه، وتفسير معناه؛ لأنّ لفظة «القضاء» وإن كانت على وجوهٍ معروفة في اللُّغة، فهي هاهنا بمعنى الفراغ والانتهاء إلى الغاية، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[1]. وكما قال الشّاعر:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كلَّ حـاجةٍ ومسّحَ بالأركان مَنْ هوَ مـاسِحُ

أي فرغنا من حاجاتنا، وانتهينا إلى غاية الوطَر منها.

فأمّا الجواب الثّالث، الزّائد على ما ذُكر: فهو أنّه غير ممتنع أن يريد، لا تعجل بأن تستدعي من القرآن ما لم يُوحَ إليك به، فإنّ الله تعالى إذا علِمَ مصلحةً في إنزال القرآن عليك أمر بإنزاله، ولم يدَّخره عنك؛ لأنّه لايدّخر عن عباده الاطّلاع لهم على مصالحهم.

فإن قيل على هذا الوجه: إنّه يخالف الظّاهر؛ لأنّه تعالى قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾ ولم يقل بطلبه واستدعائه، والظّاهر يقتضي أنّ الاستعجال بنفس القرآن لابغيره.

قلنا: الأمر على ما ظنّه السّائل. وعلى الوجوه الثّلاثة في تأويل الآية لابدَّ من تقدير ماليس في الظّاهر؛ لأنّ على الوجهين الأوّلين المذكورين لابدَّ من أن يقدَّر: لاتعجل بتلاوة القرآن، إمّا على سبيل الدّرس والتّحفّظ على ماذكر في الوجه الأوّل، وأن يتلوَه على أُمّته قبل إنزال البيان. وأيُّ فَرقٍ في مخالفة الظّاهر، بين أن يقدَّر: ولا تعجل بتلاوة القرآن، أو يقدّر: لاتعجل بطلب القرآن واستدعاء نزوله؟.

فإن قيل: هذا يدلُّ على وقوع معصية من النّبيّ ﷺ في استدعائه مالم يكن له أن يَستدعيَه من القرآن؛ لأنّ النّهي لايكون إلّا عن قبيح.

قلنا: النّهي لايكون إلّا عن قبيح لامحالة؛ لكنّ النّهي لايدلّ على وقوع الفعل المنهيّ عنه؛ لأنّه قد يُنْهىٰ عن الفعل من لم يواقعه قطّ ولا يواقِعُه، ألا ترىٰ أنّ النّبيّ ﷺ نُهي عن الشّرك وسائر القبائح، كما نُهينا، ولم يدلّ ذلك على وقوع شيء ممّا نُهي عنه منه!

وهذا أيضاً يمكن أن يكون جواباً لمن اعتمد على الوجهين الأوّلين إذا قيل له: أفوقع منه ﷺ تلاوةُ القرآن على أُمّته قبل نزول بيانه، أو عَجِل بتكريره على سبيل الدّرس كما

---

١ ـ فصّلت / ١٢.

نُهي عنه؟.

ويمكن مَنِ اعتمد على الوجه الأوّل في تأويل الآية أن يقول في قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ ﴾ وإن كان ظاهره النّهي ليس بنهي على الحقيقة؛ وقد يرد ماهو بلفظ النّهي وهو غير نهي على التّحقيق، كما يرد ما هو بصفة الأمر وليس بأمر، وإنّما ذلك تخفيفٌ عنه عليه السلام وترفيهٌ، ورفع كُلفة المشقّة، فقيل له عليه السلام: لاتتكلّف المسابقة إلى تكرير مايُنْزَل عليك خوفاً من أن تنساه؛ فإنّ الله تعالى يكفيك هذه المؤنة، ويعينك عن حفظه وضبطه، كما قال تعالى في الآية الأُخرىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾، أي جمعه في حفظك وتأمورك [١].

وبَعْدُ؛ فإنّ الأوْلى التّوقّفُ عن معرفة غاية الكلام الّتي ينتهي إليها، ويُقطع عليها. والتّلاوةُ لما يردمنه الأوّل فالأوّل؛ تلاوةٌ لما لا يُعْرَف معناه؛ لتعلّق الكلام بعضه ببعض؛ فنُدب عليه السلام إلى الأولى من التّوقّف على غايته.

وأمّا الوجه الثّاني: الّذي اعتمِد فيه على أنّ النّهي إنّما هو عن تلاوته على الأُمّة قبل نزول بيانه، فإن كان المعتمد على ذلك يقول: ليس يمتنع أن تكون المصلحةُ في التّوقُّف عن الأداء قبيل البيان، فنُهِيَ عليه السلام عن ذلك؛ لأنّ المصلحة في خلافه، فهذا جائز لامطعنَ فيه. وإن كان القصدُ إلى أنّ الخطاب لايحسُن إلّا مع البيان – على مذهب مَنْ يرى أنّ البيان لايتأخّر عن الخطاب – فذلك فاسدٌ؛ لأنّ الصّحيح أنّ البيان يجوز أن يتأخّر عن وقت الخطاب، وإنّما لايجوز تأخيره عن وقت الحاجة.

وقد بيّنّا الكلام في هذه المسألة، والأدِلّة على صحّة ماذهبنا إليه منها في مواضع من كُتبنا، وتكلّمنا على فساد قول مَن أوجب اقتران البيان بالخطاب.

على أنّ من اعتمد على هذه الطّريقة في هذا الموضع فقد غَلِط؛ لأنّ الآية تدلُّ على أنّ الله تعالى قد خاطب نبيّه عليه السلام بما يحتاج إلى بيان من غير انضمام البيان إليه. وإذا جاز ذلك في خطابه تعالى لنبيّه عليه السلام جاز مثلُه في خطاب النّبيّ عليه السلام لأُمّته؛ لأنّ مَنْ أبطل تأخير البيان عن زمان الخطاب يوجب ذلك في كلّ خطاب.

---

١ ـ التّأمور: القلب.

وليس يمكن أن يُدَّعَى أنّه تعالى قد بيّن له؛ لأنّ تأويلهم يمنع من ذلك، لأنّه قيل له على هذا الوجه: لاتَعْجل بتلاوة القرآن على أُمّتك قبل أن يقْضى إليك وَحْيهُ، يعني قبل أن ينزل إليك بيانه، فالبيانُ متأخِّر عنه على ذلك الوجه، وذلك قبيح على مذهب مَنْ منع مِنْ تأخير البيان من وقت الخطاب.

والتّأويل الّذي ذكرناه زائداً على الوجهين المذكورين يمكن أن تـفَسَّر بـه الآيـة الأُخرى الّتي هي قوله تعالى: ﴿ لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾، بطلب ما لم ينزل عليك من القرآن، فإنَّ علينا إنزال ماتقتضي المصلحة إنزالُه عليك وجمعُه لك، وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَاقَرَأْنَـاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، يدلُّ ظاهرهُ على جـواز تأخـير البـيان عـن وقت الخطاب؛ لأنّه تعالى أمره. إذا قرأ عليه المَلك وأوحى به إليه أن يقرأه، ثمّ صرّح بأنّ البيانْ يأتي بعده ؛ فإنّ ﴿ ثُمَّ ﴾ لايكون إلّا للتّراخي، وما هو مقتـرنٌ بالشّـيء لا تستعمل فيـه لفـظـة ﴿ ثُمَّ ﴾ ألا ترى أنّـه لا يقال: أتاني زيـد ثـمّ عمـرو، وإنّـما حـضـرا فـي وقت واحـد !. (٢: ٣٥٨ ـ ٣٦١)

ونصّه أيضاً في «رسائله»

كيفيّة نزول القرآن

ما القول عنده فيما ذهب إليه أبو جعفر ابن بابويه رحمه الله، من أنّ القـرآن نـزل جـملةً واحدةً على النّبيّ صلى الله عليه وآله إلى أن يعلم به جملةً واحدةً، وانصرف على قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾[١] الآية، إلى أنّ العلم به جملةً واحـدةً، انتفى على الّذين حكى الله سبحانه عنهم هذا لا عنه عليه السلام بقول الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[٢].

وذلك على مقتضى ثبوت هذه الصّفة للعموم المستغرق يدلّ على ما ذهب إليه، إذ

---

١ ـ الفرقان / ٣١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

ظاهره أقوىٰ من الظّاهر المتقدّم. ولو تكافآ في الظّاهر، لوجب تجويز ما ذهب إليه، إلّا أن يصرف عنه دليل قاطع يحكم على الآيتين جميعاً، وليس للعقل في ذلك مجال، فلابدّ من سمع لايدخله الاحتمال.

ويلزم تجويز ماذهب إليه أيضاً على مقتضى ثبوت هذه الصّورة مشتركة بين العموم والخصوص على سواء.

وقد جاءت روايات إن لم يوجب القطع بهذا الجائز أوجبت ترجيحه ونحوها، يقتضي أنّ الله سبحانه أنزل القرآن على نبيّه ﷺ جملةً واحدةً، ثمّ كان جبرئيل عليه السلام يأتيه عن الله سبحانه، بأن يظهر في كلّ زمان ما يقتضيه الحوادث والعبادات المشروعة فيه، وأشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1].

فإن يكن القطع بذلك صحيحاً على ما ذهب إليه أبو جعفر رحمه الله أنعم بذكره وتصرّفه، وإن يكن عنده باطلاً تطول بالإبانة عن بطلانه وكذب روايته، وإن كان التّرجيح له، أوْلىٰ ذكره، وإن كان الصّحيح عنده، تكافؤ الجائزين نظره إنشاء الله تعالى.

الجواب:

أمّا إنزال القرآن على النّبيّ ﷺ في وقت واحد أو في أوقات مختلفة، فلا طريق إلى العلم به إلّاالسّمع؛ لأنّ البيانات العقليّة لاتدلّ عليه ولا تقتضيه. وإذا كان الغرض بإنزال القرآن أن يكون علماً للنّبيّ ﷺ ومعجزاً لنبوّته وحجّة في صدقه، فلا حجّة في هذا الغرض بين أن ينزّل مجتمعاً أو متفرّقاً.

وما تضمّنه من الأحكام الشّرعية فقد يجوز أن يكون مترتّبة في أزمان مختلفة، فيكون الاطّلاع عليها والإشعار بها مترتّبين في الأوقات بترتيب العبادات.

وكما أنّ ذلك جائز، فجائز أيضاً أن ينزّل الله تعالى جملةً واحدةً على النّبيّ ﷺ، وإن كانت العبادات الّتي فيه تترتّب وتختصّ بأوقات مستقبلة وحاضرة.

والّذي ذهب إليه أبو جعفر ابن بابويه رحمه الله من القطع على أنّه أنزل جملةً واحدةً،

---

١ ـ طه / ١١٤.

وإن كانﷺ متعبّداً بإظهاره وأدائه متفرّقاً في الأوقات. إن كان معتمداً في ذلك على الأخبار المرويّة الّتي رواها فتلك أخبار آحاد لاتوجب علماً ولاتقتضي قطعاً، وبإزائها أخبار كثيرة أشهر منها وأكثر، تقتضي أنّه أنزل متفرّقاً، وأنّ بعضه نزل بمكّة وبعضه بالمدينة، ولهذا نسب بعض القرآن إلى أنّه مكّي وبعضه مدنيّ.

وأنّه ﷺ كان يتوقّف عند حدوث حوادث، كالظّهار وغيره، على نزول ما ينزل إليه من القرآن، ويقول ﷺ: «ما أُنزل إليّ في هذا شيء».

ولو كان القرآن أُنزل جملةً واحدةً لما جرى ذلك، ولكان حكم الظّهار وغيره ممّا يتوقّف فيه معلوماً له، ومثل هذه الأُمور الظّاهرة المنتشرة لا يرجع عنها بأخبار الآحاد خاصّة.

فأمّا القرآن نفسه فدالّ على ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ [1] ولو كان أُنزل جملةً واحدةً لقيل في جوابهم: قد أُنزل على مااقترحتم، ولا يكون الجواب كذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [2].

وفسّر المفسّرون كلّهم ذلك بأن قالوا: المعنى إنّا أنزلناه كذلك، أي متفرّقاً يتمهّل على أسماعه، ويتدرّج إلى تلقّيه.

والتّرتيل أيضاً إنّما هو ورود الشّيء في أثر الشّيء، وصرف ذلك إلى العلم به غير صحيح، لأنّ الظّاهر خلافه.

ولم يقل القوم: لولا أعلمنا بنزوله جملةً واحدةً، بل قالوا: لولا أُنزل إليك جملةً واحدةً، وجوابهم إذا كان أُنزل كذلك أن يقال: قد كان الّذي طلبتموه، ولا يحتجّ لإنزاله متفرّقاً بما ورد بنزوله في تمام الآية.

فأمّا قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [3] فإنّما يدلّ على أنّ جنس القرآن نزل في هذا الشّهر، ولا يدلّ على نزول الجميع فيه.

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ نفس الآية.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

ألا ترىٰ أنّ القائل يقول: كنت أقرأ اليوم القرآن، وسمعت فلاناً يقرأ القرآن، فلا يريد جميع القرآن على العموم، وإنّما يريد الجنس.

ونظائره في اللّغة لا تحصىٰ، ألاترى أنّ العرب تقول: هذه أيّام أكل فيها اللّحم، وهذه أيّام أكل فيها الثّريد. وهو لا يعني جميع اللّحم وأكل الثّريد على العموم، بل يريد الجنس والنّوع. وقد استقصيت هذه النّكتة في مواضع كثيرة من كلامي.

فأمّا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [1]، فلا: ندري من أيّ وجه دلّ على أنّه أُنزل جملةً واحدةً، وقد كان أنّه رحمه الله يبيّن وجه دلالته على ذلك. وهذه الآية بأن تدلّ على أنّه ما أُنزل جملةً واحدةً أولى، لأنّه تعالى قال: ﴿ قَبْلَ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ وهذا يقتضي أنّ في القرآن منتظراً ماقضى الوحي به وقوع منه، فإنّ نزول ذلك على أنّ المراد به قبل أن يوحىٰ إليك بأدائه، فهو خلاف الظّاهر.

وقد كنّا سُئلنا إملاء تأويل هذه الآية قديماً، فأملينا فيها مسألة مستوفاة، وذكرنا عن أهل التّفسير فيها وجهين، وضممنا إليهما وجهاً ثالثاً تفرّدنابه.

وأحد الوجهين المذكورين فيها: أنّه كان عليه‌السلام إذا نزل عليه الملك بشيء من القرآن قرأه مع الملك المؤدّي له إليه قبل أن يستتمّ الأداء؛ حرصاً منه عليه‌السلام على حفظه وضبطه، فأمر عليه‌السلام بالتّثبّت حتّى ينتهي غاية الأداء؛ لتعلّق الكلام بعضه ببعض.

والوجه الثّاني: أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله نهى أن يبلغ شيئاً من القرآن قبل أن يوحىٰ إليه بمعناه وتأويله وتفسيره.

والوجه الّذي إنفردنا به: أنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله نهى عن أن يستدعي من القرآن مالم يوحَ إليه به؛ لأنّ مافيه مصلحة منه لابدّ من إنزاله وإن لم يستدع، لأنّه تعالى لايدّخر المصالح عنهم ومالا مصلحة فيه لا ينزله على كلّ حال، فلا معنى للاستدعاء ولا تعلّق للآية بالموضع الّذي وقع فيه. (١: ٤٠١ - ٤٠٥)

---

١ ـ طه / ١١٤.

الفصل السّادس

نصّ البَيهقيّ (م: ٤٥٨ ﻫ) في «الأسماء والصّفات».

﴿ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ الرّوم / ٤ .

إنّ الله تعالى نفى عن كلامه الحدث بقوله: ﴿ وَاِنَّهُ فِى اُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [١] فأخبر أنّه كان موجوداً مكتوباً قبل الحاجة إليه في أُمّ الكِتَاب وقوله عزّوجلّ ﴿ بَلْ هُوَ قُرانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [٢] فأخبر أنّ القرآن كان في الّلوح المحفوظ، يريد مكتوباً فيه، وذلك قبل الحاجة إليه، وفيه مافيه من الأمر والنّهي والوعد والوعيد، والخبر والاستخبار، وإذا ثبت أنّه كان موجوداً قبل الحاجة إليه ثبت أنّه لم يزل كان. وقوله تعالى: ﴿ مَا يَاْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ اِلَّا اسْتَمَعُوهُ وهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [٣] يريد به ذكر القرآن لهم وتلاوته عليهم، وعلمهم به، فكلّ ذلك محدث، والمذكور المتلوّ المعلوم [٤] غير محدث، كما أنّ ذكر العبد لله عزّوجلّ محدث والمذكور غير محدث وقوله تعالى: ﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

---

١ ـ الزّخرف / ٤.

٢ ـ البروج / ٢٢.

٣ ـ الأنبياء / ٢.

٤ ـ بمعنى أنّ ماقام بالله سبحانه غير محدث وإطلاق المذكور والمتلوّ والمقروء والمكتوب ونحو ذلك عليه، من إطلاق وصف الدّالّ على المدلول، وإلّا فلا شكّ أنّ ما يصدر من فم العبد من الحروف والأصوات حادث قطعاً وكذلك الكتابة ونحوها: ولنا عودة إلى هذا البحث.

يريد به - والله أعلم - إنّا أسمعناه الملك وأفهمناه إيّاه، وأنزلناه بما سمع، فيكون الملك منتقلاً به من عُلوّ إلى سُفلٍ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1] يريد به حفظ رسومه وتلاوته. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[2] والحديد جسم لا يستحيل عليه الإنزال بمعنى الخلق فغير معقول، وأمّا النّسخ والإنساء والنّسيان والإذهاب والتّرك والتّبعيض فكلّ ذلك راجع إلى التّلاوة أو الحكم المأمور به، وبالله التّوفيق.

أخبرنا أبو زكريّا بن أبي إسحاق المزكّى، أنا أبو الحسن الطّرائفيّ، ثنا عُثمان بن سعيد، ثنا عبدالله بن صالح، عن معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾[3] يقول: ما نبدّل من آية أو نتركها، أي لا نبدّلها ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ يقول: خير لكم في المنفعة وأرفق بكم.

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، أنا عبد الرّحمان بن الحسين القاضي، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم بن أبي إياس ثنا وَرقاء عن ابن أبي نَجيح عن عُبَيد بن عُمَير اللّيثيّ في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ يقول: أو نتركها، نرفعها من عندهم فنأتي بمثلها أو بخير منها. وعن ابن أبي نَجيح، عن أصحاب ابن مسعود ﷺ في قوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾، أي نثبّت خطّها ونبدّل حكمها، أو ننسها، أي نرجئها عندنا. ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قلت: وفي هذا بيان لما قلنا، والمخايرة لا تقع في عين الكلام، وإنّما هي في الرّفق والمنفعة، كما أشار إليه ابن عبّاس ﷺ وكذلك المفاضلة إنّما تقع في القراءة على ما جاء من وعد الثّواب والأجر في قراءة السّورة والآيات والله أعلم.

أخبرنا أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عليّ الإسفراينيّ بن السَّقّا، أنا أبو يحيى عُثمان بن محمّد بن مسعود، أخبرني إسحاق بن إبراهيم الجَلاَّب، ثنا محمّد بن هاني، ثنا الحسين بن مَيمون، ثنا الهُذيل، عن مُقاتل، قال: تفسير ﴿جَعَلُوا﴾ على وجهين:

فوجه منهما: جعلوا لله، يعني وصفوا الله، فذلك قوله عزّ وجلّ في سورة الأنعام:

١ ـ الحِجر / ٩.

٢ ـ الحديد / ٢٥.

٣ ـ البقرة / ١٠٦.

﴿ وَجَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكَاءَ ﴾[١]، يعني وصفوا الله شركاء وكقوله في الزّخرف: ﴿ وَجَعلوا لهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزءًا ﴾[٢]، يعني وصفوا له. وكقوله في سورة النّحل: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ الْبَنَاتِ ﴾[٣]، يعني ويصفون لله البنات. وكقوله في الزّخرف: ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً ﴾[٤]، يعني وصفوا الملائكة إناثاً، فزعموا أنّهم بنات الرّحمان تبارك وتعالى.

والوجه الثّاني: وجعلوا، يعني قد فعلوا بالفعل، فذلك قوله عزّوجلّ في الأنعام: ﴿ وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْاَنْعَامِ نَصِيباً ﴾[٥]، يعني قد فعلوا ذلك. وقوله في سورة يونس: ﴿ قُلْ اَرَاَيْتُمْ مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ﴾، يعني الحرث والأنعام ﴿ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً ﴾.[٦] وقوله: ﴿ ثُمَّ جَعلَ مِنهَا زَوْجَهَا ﴾[٧]، يعني خلق. قلت: وأمّا قوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٨]، وقوله: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[٩]، فقد قال في آية أخرى: ﴿ فَاَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ ﴾[١٠]، فأثبت أنّ القرآن كلامه، ولا يجوز أن يكون كلامه وكلام جبريل عليه السلام. فثبت أنّ معنى قوله: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي تلقّاه عن رسول كريم أو قول سمعه من رسول كريم، أو نزل به عليه رسول كريم.

أخبرنا أبو عمرو محمّد بن عبدالله الأديب، أنا أبوبكر الإسماعيليّ، ثنا القاسم – يعني ابن زكريّا – ثنا أبوكُرَيب ويعقوب والمخزوميّ، قالوا: ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن جامع بن شَدّاد عن صَفوان بن مُحرِز، عن عمران بن حَصين رضي الله عنه قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

١ ـ الأنعام / ١٠٠.

٢ ـ الزّخرف / ١٥.

٣ ـ النّحل / ٥٧

٤ ـ الزّخرف / ١٩.

٥ ـ الأنعام / ١٣٦.

٦ ـ يونس / ٥٩.

٧ ـ الزّمر / ٢.

٨ ـ الحاقّة / ٤٠ - ٤٢.

٩ ـ التّكوير / ٢٠.

١٠ ـ التّوبة / ٦.

قال: «أقبلوا، البُشرى يا بني تميم، قالوا: قد بشّرتنا، فأعطنا. فقال: أقبلوا، البُشرى يا أهل اليمن. قالوا: قد بشّرتنا، فأخبرنا عن أوّل هذا الأمر كيف كان؟ فقال رسول‌الله ﷺ: كان الله قبل كلّ شيء، وكان عرشه على الماء وكتب في الذّكر كلّ شيء». وأتاني آتٍ، فقال: يا عمران! انحلّت ناقتك من عقالها، فقمت فإذا السّراب منقطع بيني وبينها فلا أدري ما كان بعد ذلك.

أخرجه البُخاريّ في الصّحيح من وجه آخر عن الأعمش، وزاد فيه ثمّ خلق السّموات والأرض ولعلّه سقط من كتابي، والقرآن ممّا كتب في الذّكر؛ لقوله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾[1].

وأخبرنا أبو عبدالله الحافظ، ثنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا محمّد بن إسحاق الصّاغانيّ، ثنا عَفّان بن مُسلم ثنا حَمّاد بن سَلَمة أنا الأشعث بن [2] عبد الرّحمان، عن أبي قِلابة، عن أبي الأشعث، عن النُّعمان بن بَشير ﵁ عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الله تبارك وتعالى كتب كتاباً قبل أن يخلق السّموات والأرض بألفي عام، وأنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا تقرآن في دار فيقربها شيطان ثلاث ليال».

أخبرنا أبو سهل أحمد بن إبراهيم المِهرانيّ وأبو النّصر بن قَتادة، قالا: أنا محمّد بن إسحاق بن أيّوب الصِّبغيّ، ثنا الحسن بن عليّ بن زياد السَّريّ، ثنا إبراهيم بن المُنذر الحزاميّ، ثنا إبراهيم [3] بن مهاجر بن مِسمار، حدّثني عمر بن حَفْص بن ذَكْوان، عن مولى الحُرقة، عن أبي هريرة قال: قال رسول‌الله ﷺ «إنّ الله تعالى قرأ: طٰهٰ ويٰس قبل أن يخلق آدم ﵇ بألف عام، فلمّا سمع الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأُمّة ينزل هذا عليها، وطوبى لجوف يحمل هذا، وطوبى لألسن تكلّم بهذا».

وأخبرنا أبو نصر بن قَتادة، أنا أبو الحسن السَّرّاج، ثنا مُطَيَّن، ثنا إبراهيم بن المُنذِر، فذكره بإسناده نحوه، إلاّ أنّه قال: عن مولى الحُرقة، يعني عبد الرّحمان بن يعقوب، وقال:

---

١ ـ البروج / ٢٢.

٢ ـ تكلّم فيه النّسائيّ. وأبو قِلابة مدلس. ز.

٣ ـ قال البُخاريّ منكر الحديث.

في متنه «بألف عام»، ولم يذكر قوله: «طُوبى لجوف يحمل هذا». تفرّد به إبراهيم بن مهاجر. قوله: «قرأ طه ويس» يريد به تكلّم وأفهمهما ملائكته، وفي ذلك إن ثبت [١] دليل على وجود كلامه قبل وقوع الحاجة إليه.

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، أنا أبو عبدالله بن يعقوب وأبوالفضل بن إبراهيم، قالا: ثنا أحمد بن سَلَمة، ثنا إسحاق بن موسى الأنصاريّ، ثنا أنس بن عَيّاض، قال: حدّثني الحارث بن أبي ذُباب، عن يزيد بن هُرْمُز، وعن عبدالرّحمان الأعرج، قالا: سمعنا أبا هُرَيرة يقول: قال رسول‌الله ﷺ: «احتجّ آدم وموسى عليهما السلام عند ربّهما، فحجّ آدم موسى، فقال موسى: أنت الّذي خلق الله بيده،[٢] ونفخ فيك من روحه [٣]، وأسجد لك ملائكته وأسكنك، جنّته ثمّ أهبَطْتَ النّاس بخطيئتك إلى الأرض. قال آدم: أنت موسى الّذي اصطفاك الله تعالى برسالاته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كلّ شيء، وقرّبك الله نجيًّا، فبِكَم، وَجَدتَ الله في كتب التّوراة قبل أن أُخلَق؟ قال موسى: بأربعين عاماً، قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصىٰ ءادَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ﴾ [٤]، قال: نعم، قال: أَفَتَلُومنّي أن أعمل عملاً كتب الله عليّ عمله أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول‌الله ﷺ فحجّ آدم [٥] موسى» رواه مسلم في الصّحيح عن إسحاق بن موسى الأنصاريّ. والاختلاف في هذه التّواريخ غير راجع إلى شيء واحد، وإنّما هو على حسب ما كان يظهر لملائكته ورسله، وفي كلّ ذلك دلالة على قدم الكلام.

---

١ ـ أبيّ يثبت وقد قال ابن حبّان هذا متن موضوع.

٢ ـ أي بنفسه من غير توسيط أب.

٣ ـ من زائدةٍ على مذهب الكوفيّين والإضافة للتّشريف.

٤ ـ طه / ١٢١.

٥ ـ حيث لم يضع السّؤال في محلّه لأنّه وجّه اللّوم إلى ما هو ليس من فعله، قاله الخطيب في الفقيه والمتفقّه. ومثله في أحكام ابن حَزْم، ونصّ قولهما في ما علّقناه على الاختلاف في اللّفظ والسّبب الحامل لهما على هذا التّفسير النّجاشيّ عن عدّ أحد النّبيين عليهم السلام ينكر القدر وآخر يعتلّ في الأفعال الاختياريّة بالقدر، وهو مذهب أهل الجبر. وإنّما لايصحّ ذكر القدر والاعتلال به عند أهل الحقّ في صدد التّسلّي عندما تحلّ مصيبة. وأصل الحديث لايجافي هذا التّفسير، وباقي الألفاظ من قبيل الرّواية بالمعنى. ولإثبات القدر أدلّة لا تحصى، فلا يحتاج إثباته على إبعاد هذا الحديث عن هذا التّفسير، فلا نستعجل في استنكار قولهما.

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ وأبو سعيد بن أبي عمر، قالا: أنا أبو العبّاس محمّد بن يعقوب، ثنا محمّد بن عليّ الوَرّاق، ثنا عبدالله بن رَجاء، أنا عمران – هو ابن داور القَطّان – عن قَتادة عن أبي المُلَيح، عن واثلَة... [وذكركما تقدّم عن الطّبَرَيّ، ثمّ قال:].

خالفه عبيدالله بن أبي حَميد، وليس بالقويّ فرواه عن جابر بن عبدالله ﷺ من قوله، ورواه إبراهيم بن طَهْمان عن قَتادة من قوله لم يجاوز به، إلّا أنّه قال: «لاثنتي عشرة». وكذلك وجده جَرِيربن حازم في كتابة أبي قِلابة دون ذكر «صُحف إبراهيم».

قلت: وإنّما أراد – والله أعلم – نزول الملك بالقرآن من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا.

أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، ثنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أنا موسى بن إسحاق القاضي، ثنا أبو بكر و عُثمان ابنا أبي شَيْبَة، ثنا جَرِير عن منصور، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ ثمّ قال:].

وأخبرنا أبو عبدالله الحافظ، أنا عبدالله محمّد بن عبدالله الصَّفّار، ثنا أبو طاهر محمّد بن عبدالله بن الزُّبَير الأصفهانيّ، ثنا الحسين بن حَفْص، ثنا سُفيان عن الأعمش، عن حَسَّان بن حُرَيث، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عبّاس ﷺ قال: فُصِلَ القرآن من الذّكر، فوُضع في بيت العزّة في سماء الدّنيا، فجعل جبريل ﷺ ينزله على النّبيّ ﷺ يرتّله ترتيلاً.

أخبرنا أبو الحسين بن بَشران ببغداد، أنا أبو جعفر الرَّزّاز، ثنا عليّ بن إبراهيم الواسطيّ، أنا يزيد بن هارون، أنا داود بن أبي هند، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس ﷺ قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك في عشرين سنة ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾[١]؛ ﴿ وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[٢].

وأخبرنا محمّد بن عبدالله الحافظ، ثنا عليّ بن عيسى الحِيريّ، ثنا إبراهيم بن أبي طالب، ثنا محمّد بن المثنّى، حدّثني عبد الأعلى بن عبد الأعلى، ثنا داود بن أبي هند، عن

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

عِكرِمة، عن ابن عبّاس ﷺ قال: أنزل الله تعالى القرآن إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، وكان الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يوحي في الأرض منه شيئاً أوحاه، أو يحدث منه شيئاً أحدثه.

قلت: هذا يدلّ على أنّ الإحداث المذكور في قوله عزّ وجلّ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾[١] إنّما هو في إعلامهم إيّاه بإنزال الملك المؤدّي له على رسول‌الله ﷺ ليقرأه عليه.

وأخبرنا أبو الحسن المُقرىء، أنا أبو عمرو الصَّفّار، ثنا أبو عَوانة، ثنا أبو الحسن المَيموني، قال: خرج إليّ يوماً أبو عبدالله أحمد بن محمّد بن حنبل، فقال: أُدخل، فدخلت منزله، فقلت: أخبرني عمّا كنت فيه مع القوم، وبأيّ شيء كانوا يحتجّون عليك؟ قال: بأشياء من القرآن يتأوّلونها ويفسّرونها، هم احتجّوا بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ﴾ قال: قلت: قد يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث لا الذّكر نفسه هو المحدث.

قلت: والّذي يدلّ على صحّة تأويل أحمد بن حَنبل ما حدّثنا أبوبكر محمّد بن الحسن بن فُورَك، أنا عبدالله بن جعفر، ثنا يونس بن حبيب، ثنا أبو داود، ثنا شُعبة، عن عاصم عن أبي وائل، عن عبدالله - هو ابن مسعود - قال: أتيت رسول الله ﷺ فسلّمت عليه، فلم يردّ عليّ، فأخذني ما قدم وما حدث. فقلت: يارسول‌الله أحدث فيَّ شيء؟ فقال رسول‌الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ يحدث لنبيّه من أمره ماشاء، وإنّ ممّا أحدث ألاّ تكلّموا في الصّلاة». في هذا بيان واضح لما قدَّمنا ذكره، حيث قال: «يحدث لنبيّه» وبالله التّوفيق.

أخبرنا أبو طاهر الفقيه، أنا أبوبكر القَطّان، ثنا أحمد بن يوسف السُّلَميّ، ثنا عبيدالله بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدّي، عن محمّد بن أبي المُجالد، عن مِقْسم عن ابن عبّاس ﷺ قال: سأله عَطيّة بن الأسود، فقال: إنّه قد وقع في قلبي الشّكّ... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ] (١٩٣ ـ ٢٢٩)

---

١ ـ الأنبياء / ٢.

الفصل السّابع

نصّ الشّيخ الطُّوسيّ (م: ٤٦٠ هـ) في تفسيره: «التّبيان»

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ ﴾ البقرة / ١٨٥.

﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ ﴾: قيل في معناه قولان؛

أحدهما: قال ابن عبّاس وسعيد بن جُبَير والحسن: إنّ الله تعالى أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السّماء الدّنيا، ثمّ أنزل على النّبيّ بعد ذلك نجوماً، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام.

والثّاني: أنّه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر من شهر رمضان.

فإن قيل: كيف يجوز إنزاله كلّه في ليلة وفيه الإخبار عمّا كان، ولا يصلح ذلك قبل أن يكون؟

قلنا: يجوز ذلك في مثل قوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[1]، وقوله: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾[2]، على إذا كان وقت كذا أنزل ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَنَادىٰ أَصْحَابُ الجَنَّةِ ﴾، أي إذا كان يوم القيامة ﴿ نَادىٰ

١ ـ آل عمران / ١٢٣.

٢ ـ التّوبة / ٢٥.

أَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ﴾[1]. (٢: ١٢١ - ١٢٢).

﴿ وَقُرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ الإسراء / ١٠٥

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾: قرأه أهل الأمصار بالتَّخفيف.وحكى عن ابن عبّاس: بتشديد الرّاء، بمعنى نزّلناه شيئاً بعد شيء، آيةً بعد آيةٍ، وقصّةً بعد قصّةٍ. ومعنى «فَرَّقْنَاهُ» فصّلنا فيه الحلال والحرام وميّزنا بينهما، وهو قول ابن عبّاس.

وقال أُبيّ بن كَعب: معناه بيّنّاه. وقال الحسن وقَتادة: فرّق الله فيه بين الحقّ والباطل.

ومن قرأ بالتّشديد؛ قال ابن عبّاس وقَتادة وابن زيد: إنّ معناه أنزل متفرّقاً لم ينزّل جميعاً، وكان بين أوّله وآخره نحو من عشرين سنة.

ونصب ﴿ قُرْآنًا ﴾ على معنى وأحكمنا قرآنًا ﴿ فَرَقْنَاهُ ﴾، أو آتيناك قرآنًا.

وقال بعضهم: نصب بمعنى ورحمةً، كأنّه قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ورحمةً؛ قال: لأنّ القرآن رحمة.

وقوله: ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ معناه على تُؤَدَةٍ، فترتّله وتبيّنه ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك، وهو قول ابن عبّاس ومجاهدو ابن زيد ...

وقوله: ﴿ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ أي أنزلناه شيئًا بعد شيءٍ، وهو قول الحسن وقَتادة. وقوله: ﴿ نَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ يدلّ على أنّ القرآن محدث، لأنّ القديم لايجوز وصفه بالمنزّل والتّنزيل، لأنّ ذلك من صفات المُحدَثين.

وقيل: في معنى ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أنّه كان ينزل منه شيء ثمّ يمكثون ما شاء الله، وينزّل شيء آخر. (٦: ٥٣٠ - ٥٣١)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الفرقان / ٣٢

ثمّ حكى أنّ الكفّار قالوا: ﴿ لَوْلَا ﴾ أي هلّا ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ﴾: على النّبيّ ﷺ ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ . فقيل: لهم: إنّ التّوراة أُنزلت جملةً؛ لأنّها أُنزلت مكتوبة على نبيّ يكتب

---

١ - الأعراف /٤٤.

ويقرأ وهو موسى، وأمّا القرآن، فإنّما أُنزل متفرّقاً؛ لأنّه أُنزل غير مكتوب على نبيّ أُمّيّ، وهو محمّد ﷺ.

وقيل: إنّما لم ينزل جملةً واحدةً، لأنّ فيه النّاسخ والمنسوخ، وفيه ما هو جواب لمن سأل عن أُمور، وفيه ما هو إنكار لما كان. وفي الجملة المصلحة معتبرة في إنزال القرآن فإذا كانت المصلحة تقتضي إنزاله متفرّقاً كيف ينزل جملةً واحدةً؟ فقال الله تعالى لنبيّه ﷺ إنّا أنزلناه متفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وقال أبو عُبَيدة: معناه لنطيّب به نفسك ونشجّعك.

وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ فالتّرتيل: التّبيين في تثبّت وترسّل. وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، أي لم ننزّل القرآن جملةً واحدةً؛ لأنّهم لا يأتونك بشيءٍ يريدون به إبطال أمرك ... (٧: ٤٨٨ ـ ٤٨٩)

﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

إخبار منه تعالى أنّه أنزل القرآن في اللّيلة المباركة، وهي ليلة القدر في قول قَتادة وابن زيد. وقال قوم: هي ليلة النّصف من شعبان. والأوّل أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[1].

وقيل: هي في كلّ شهر رمضان، فيها تقسّم الآجال والأرزاق وغيرهما من الألطاف، في قول الحسن.

وقيل: أُنزل إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ أُنزل نجوماً على النّبيّ ﷺ.

وقيل: ينزل في ليلة القدر قدر ما يحتاج إليه في تلك السّنة.

وقيل: المعنى إنّ ابتداء إنزاله في ليلة مباركة، ووصفها بأنّها مباركة؛ لأنّ فيها يقسّم الله تعالى نعمه على عباده من السّنة إلى السّنة.... (٩: ٢٢٤)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

قال ابن عبّاس وسعيد بن جُبَير والضّحّاك: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه القرآن عجّل بتحريك لسانه لحبّه إيّاه، فنهاه الله عن ذلك. والتّحريك: تغيير الشّيء من مكان، أو من جهة إلى جهة بفعل الحركة فيه، والحركة: ما به يتحرّك المتحرّك. والمتحرّك هو المنتقل من جهة إلى غيرها. واللّسان: آلة الكلام. والعجلة: طلب عمل الشّيء قبل وقته الّذي ينبغي أن يعمل فيه، ونقيضه الإبطاء، والسّرعة: عمل الشّيء في أوّل وقته الّذي هو له، وضدّه الأناة.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾، قال ابن عبّاس والضّحّاك: معناه إنّ علينا جمعه في صدرك، وقراءته عليك حتّى يمكنك تلاوته. وقال قَتادة: معناه إنّ علينا جمعه في صدرك وتأليفه على ما نزل عليك. وقال ابن عبّاس في رواية أُخرى: إنّ معناه إنّ علينا بيانه من حلاله وحرامه بذكره لك.

وقال قَتادة: معناه نذكر أحكامه ونبيّن لك معناه إذا حفظته.

وقال البَلخيّ: الّذي أختاره أنّه لم يُرد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكتُبهم يوم القيامة؛ لأنّ ما قبله وبعده يدلّ على ذلك، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن، ولا على شيء من أحكام الدّنيا، وفي ذلك تقريع للعبد وتوبيخ له حين لاتنفعه العجلة. والقرآن من الضّمّ والتّأليف؛ قال عمرو بن كلثوم:

ذِراعَيْ عَيطَلٍ أَدْمَاءَ بِكْـرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا

أي لم تضمّ رحمًا على ولدٍ.

وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْاٰنَهُ﴾ قال ابن عبّاس: معناه إذا قرأناه – أي تَلوناه – فاتّبع قراءته بقراءتك، وقال قَتادة والضّحّاك: معناه بأن يعمل بما فيه من الأحكام والحلال والحرام.

وقيل: معناه فإذا قرأه جبرائيل عليك فاتّبع قراءته. والإتّباع: مراجعة الثّاني للأوّل في ما يقتضيه، ومثله الاقتداء والاحتذاء والائتمام، ونقيضه الخلاف. والبيان: إظهار المعنى للنّفس بما يتميّز به من غيره، بأنّ الشّيء يبيّن إذا ظهر وأبانه غيره، أي أظهره بيانًا وإبانةً، ونقيض البيان الإخفاء والإغماض.

وقال قَتادة: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ معناه إنّا نبيّن لك معناه إذا حفظته. (١٠: ١٩٥ ـ ١٩٧)

الفصل الثّامن

نصّ الواحديّ (م: ٤٦٨ هـ) في «أسباب النّزول»

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ... ﴾ الإسراء / ١٠٥

أنزله مفرّقًا نجومًا وأودعه أحكامًا وعلومًا، قال عزّ من قائل: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾

أخبرنا الشّيخ أبوبكر أحمد بن محمّد الأصفهانيّ قال: أخبرنا عبدالله بن حَيّان قال: حدّثنا أبو يحيى الرّازيّ قال: حدّثنا سَهل بن عُثمان العَسكَريّ قال: حدّثنا يزيد بن زُرَيع قال: حدّثنا أبو رَجاء قال: سمعت الحسن يقول في قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ ذكر لنا أنّه كان بين أوّله وآخره ثماني عشرة سنة، أُنزل عليه بمكّة ثماني سنين قبل أن يهاجر، وبالمدينة عشر سنين.

أخبرنا أحمد، قال: أخبرنا عبدالله، قال: أخبرنا أبو يحيى الرّازيّ، قال: حدّثنا سَهل، قال: حدّثنا يحيى بن أبي كثير عن هُشَيم عن داود عن الشَّعبيّ قال: «فرّق الله تنزيله فكان بين أوّله وآخره عشرون أو نحو من عشرين سنة، أنزله قرآناً عظيماً، وذكراً حكيماً وحبلاً ممدوداً، وعهداً معهوداً، وصِراطاً مستقيماً فيه معجزاتٌ باهرة، وآياتٌ ظاهرة، وحجج صادقة ودلالات ناطقة...» (ص: ٣)

أخبرنا أبو إسحاق الثّعالبيّ، قال: أخبرنا محمّد بن عبدالله بن زكريّا الشّيبانيّ، قال:

أخبرنا محمّد بن عبد الرّحمان الدُّغُوليّ، قال: حدّثنا ابن أبي خُثَيم قال: حدّثنا موسى بن إسماعيل، قال: حدّثنا مهديّ بن ميمون، قال: حدّثنا غَيْلان بن جَرير عن عبدالله بن مَعبَد الزّمانيّ عن أبي قَتادة:«أنّ رجلاً قال: يارسولالله أرأيت صوم يوم الاثنين؟ قال: فيه أُنزل عليّ القرآن، وأوّل شهرٍ أُنزل فيه القرآن شهر رمضان، قال الله تعالى ذكره: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ ﴾ ».

أخبرنا عبد الرّحمان بن حمدان النّضروي، قال: أخبرنا أبو محمّد عبدالله بن إبراهيم ابن مياسر، قال: حدّثنا أبو مسلم إبراهيم بن عبدالله قال: حدّثنا عبدالله بن جابر بن الهَيثم الغدانيّ قال: حدّثنا عمران عن قَتادة عن أبي المُلَيح عن واثِلَة ... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ]. (ص: ٩)

الفصل التّاسع

نصّ المَيْبُديّ (م: ٥٣٠ هـ) في «كشف الأسرار»[1]

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ ﴾ البقرة / ١٨٥

في الآية قولان:

أحدهما: أنّ نزول القرآن كان في اللّيلة السّابعة عشرة من شهر رمضان، والّتي وقعت في نهارها غزوة بدر. نزل من ربّ العزّة إلى السّماء الدّنيا، وجعل في خزائنه في بيت العزّة، ثمّ نزل في ثلاث وعشرين سنة متفرّقة، سورة سورة، وآية آية إلى الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، وهي السّابعة عشرة من شهر رمضان.

ورُوي عن واثِلَة بن الأَسْقَع، أنّ النّبيّ ﷺ قال: «أُنزلت صُحُف إبراهيم أوّل ليـلة...» [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

والثّاني: ﴿ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ ﴾، أي أُنزل القرآن بفرضه على المسلمين وفضله.

وقال داود بن أبي هند: قلت للشّعبيّ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ ﴾ أما كان ينزل عليه في سائر السّنة؟ قال: بلى، ولكنّ جبرئيل كان يعارض محمّداً ﷺ في رمضان ما نزّل الله، فيحكم الله ما يشاء، ويُثْبت ما يشاء وينسىء. (١: ٤٩٠)

---

١ ـ تُرجمت فقرات من هذا النّصّ من الفارسيّة علمًا بأنّ اكثر هذا التّفسير بهذه اللُّغة.

﴿ وَمَا اَنْزَلْنَا عَلىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ الأنفال / ٤١

يقول الله تعالى في هذه الآية: أنزلنا القرآن في يوم الفُرقان.

وفي آية: ﴿ إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [١].

وفي آية أُخرى: ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [٢].

وبذلك أنزل القرآن في ليلة غزوة بدر ويومها إلى السّماء الدّنيا، ثمّ وضعه في بيت العزّة في موضع خزانة القرآن، ولذا قال الله تعالى في موضع: «اليوم» وفي موضع آخـر «اللّيل»، وهذا على التّوسعة في كلام العرب، وهم يخبرون عن اللّيل بحكاية اللّيل؛ لأنّ نزول القرآن لايقع إلّا في ليلٍ أو في نهارٍ، وذلك اليوم هو اليوم الّذي وقعت فيه غزوة بدر، وقد صادف يوم الجمعة «في السّابع عشر» من شهر رمضان. فأنزل الله القرآن حينئذٍ من هذه اللّيلة إلى الأرض إلى نهاية عمر النّبيّ ﷺ على مُكْثٍ. ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾، أي ثبّته الله على قلبه عندما يكتنفه الهمّ والغمّ، وكلّما أنزل حكمٌ تلاه حكمٌ آخر على مواقع النّجوم. وقال بعض المفسّرين في قوله: ﴿ وَالنَّجْمِ اِذَا هَوٰى ﴾ [٣]، أي والوحي إذا أنزل. (٤: ٥٣)

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ طه / ١١٤

قال الشّافعي: هو القرآن، بغير همز وهو إسم لكتابنا كـالتّوراة والإنـجيل والزّبـور، لكتب بني إسرائيل، ولو كان من القراءة لكان يسمّى كلّ مقروء قرآنًا، ولا يسمّى بـاسم كتاب الله شيء غيره. ﴿ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾. كان رسول الله يـتعجّل بـقراءة القرآن ساعة الوحي قبل أن يفرغ جبرئيل من إلقاء الوحي خشية النّسيان، فأمر بالإنصات وحسن الاستماع إلى أن يفرغ جبرئيل من البلاغ، ولهذا قال في مورد آخر: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾. قوله: ﴿ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ يعني من قبل أن يفرغ جبرئيل من تلاوته عليك. قرأ يعقوب «نَقْضِيَ» بالنّون وفتحها وكسر الضّاد ونصب اليآء «وَحْيُهُ»

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الإسراء / ١٠٥.

٣ ـ النّجم / ١.

منصوبًا. والوجه أنّ الفعل لله تعالى ذكره بلفظ التّعظيم، وهذا موافق لما قبله الّذي جاء بلفظ التّعظيم، وهو قوله: ﴿ أَنْزَلْنَاهُ قُرآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا ﴾[1]، ولما بعده وهو قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا ﴾ في أنّ كليهما على لفظ التّعظيم. وقرأ الباقون (يُقضٰى) بضمّ الياء وفتح الضّاد (وَحْيُهُ) بالرّفع. والوجه أنّه على إسناد الفعل إلى المفعول به، وهو الوحي، ومعلوم أنّ الله تعالى هو الموحي، فلذلك وقع الاستغناء عن ذكر الفاعل.

وقال مجاهد وقَتادة: لا تقرئه أصحابك، ولا تمله عليهم حتّى تبيّن لك معانيه.

وقال السُّدّيّ: لا تسأل إنزاله قبل أن يأتيك وقيل: معناه لا تلتمس إنزال القرآن جملةً فإنّا ننزّل عليك لوقت الحاجة.

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ أي زدني حفظًا حتّى لا أنسٰى ما أوحي إليّ. وقيل: معناه ربِّ زِدني عِلمًا بالقرآن ومعانيه. قيل:﴿ عِلْمًا ﴾ إلى ما علمت. وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: اللّهم زدني إيمانًا ويقينًا. (٦: ١٨٠ ـ ١٨١)

﴿ وَاِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ... ﴾ الشُّعراء / ١٩٢

(تَنْزِيلُ): صيغة مبالغة وتكثير، أي نزل القرآن من السّماء لابِدَفعةٍ واحدة، بل في مدّة ثلاث وعشرين سنة نجمًا نجمًا، وسورة سورة، وآية آية بحسب ما يليق الحال وبما تقتضي الحاجة إليه. يا محمّد كان نزول القرآن عليك وعلى أُمّتك رحمة من الله جلّ جلاله، فهو لم ينزله كما أنزل التّوراة على بني إسرائيل جملةً واحدةً. لا جرم أنّ صبرهم كان قليلاً، فهم لا يتقبّلونه ولا يتحمّلونه تدريجيًّا، وقليل الصّبر لا يقدر على الحمل الثّقيل، كالطّفل الرّضيع لا يستطيع أكل الطّعام، ولقلّة صبرهم فإنّهم لم يعلموا قدره، ولم يعرفوا حقيقته، فباعوه بثمن بخس إذ باعوه بصاع شعير. وحكى حالهم ربّ العالمين: ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الاَدْنىٰ ﴾[2]، ﴿ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾[3]. وحينما وصلت نوبة هذه

---

١ ـ طه / ١١٣.

٢ ـ الأعراف / ١٦٩.

٣ ـ البقرة / ٧٩.

الأُمّة وأعطاهم كتابًا صغيرالحجم، عظيم الفضل وكثير الشّرف، وأنزل خلال مدّة طويلة سورة سورة وآية آية؛ ليكون أثبت في فؤاد رسول‌الله ﷺ وأُمّته، وأقرّ في قلوبهم، وأحكم في صُدورهم.

قال الله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، لم ينزله بنسق واحد؛ تعظيمًا له وتشريفًا للأُمّة، فبعض أحكامه عامّ، وبعضها خاصّ. وأنزل بعضها بنظم ظاهر، وبعضها بنصّ قاطع، وبعضها مجمل، وبعضها مفسّر، وبعضها مطلق، وبعضها مقيّد، وبعضها محكم، وبعضها متشابه.

وإن كانت الآيات متشابهة لم يقف أحد فهم تنزيلها، وإن كانت ظاهرة لم تكن لأحد مزيّة في تعليمها. وإن كانت كلّها متشابهة كان العالم والجاهل سيّان في الجهل، وإن كانت كلّها ظاهرة فإنّهما سيّان في العلم، ولكان التّفاضل بين الخلق معدومًا. وتأبى رحمة الله أن تساوي بين العالم والجاهل، وليس من الحكمة أن يتكافآن. بل تقتضي‌الرّحمة الرّبّانيّة والحكمة الإلـهيّة أن يكون كلّ في موضعه، ويشقّ طريقه وفق جهده.

قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ﴾،يعني جبرئيل، ﴿عَلَـى قَلْبِكَ﴾[1]، يعني قلب المصطفى؛ لأنّه كان في المشاهدة والوحي، إذ أنزل به نزل بقلبه أوّلاً لشدّة تعطّشه إلى الوحي ولاستغراقه به، ثمّ انصرف من قلبه إلى فهمه وسمعه، وهذا تنزّلٌ من العلُوّ إلى السُّفْل وهو رتبة الخواصّ. فأمّا العوام فإنّهم يسمعون أوّلاً فينزل الوحي على سمعهم أوّلاً، ثمّ على فهمهم، ثمّ على قلبهم وهذا ترقّي من السُّفْل إلى العلُوّ، وهو شأن المريدين وأهل السُّلوك. فشتّان ماهما ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلـى قَلبِكَ﴾. (٧: ١٧١)

﴿حمٓ* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ١ ـ ٣

اختلفوا في جواب القسم، قيل: جوابه مقدّم، أي والكتاب المبين، حم ما هو كائن، وقيل: جوابه قوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ﴾، وهو الأصحّ. والمعنى إنّا أنزلنا القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وهي ليلة القدر، أنزله جملةً في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا،

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٤.

ثمّ نزل به جبرئيل على النّبيّ نجومًا في عشرين سنة.

وقيل: أنزل في ليلة القدر ما يحتاج إليه في طول السّنة إلى قابل. وقيل: كان بدو إنزاله في ليلة القدر. وقيل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني جبرئيل عليه السلام ينزل في ليلة القدر. وقيل: إنّا أنزلناه إلى الأرض، ومعه الملائكة جمّ غفير.

قال عِكرِمة: اللّيلة المباركة ليلة النّصف من شعبان، أنزل الله جبرئيل إلى السّماء الدّنيا في تلك اللّيلة، حتّى أملى القرآن على الكتبة، وسمّاها مباركة لأنّها كثيرة الخير والبركة، لما ينزل فيها من الرّحمة ويجاب فيها من الدّعوة. (٩: ٩٤)

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ...﴾ عبس / ١٣ - ١٥

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾، يعني مصاحف القرآن المكرّمة المعظّمة. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾: قال وَهْب بن مُنَبِّه: هم المسلون أصحاب النّبيّ ﷺ. وقيل: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ يعني في اللّوح المحفوظ عنده، قد شرّفه وكرّمه، وأعجز الخلق عن الإتيان بمثله. والصُّحُف؛ جمع صحيفة، وكلّ مكتوبٍ عند العرب صحيفة. وقيل: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ هي النّسخُ من القرآن الّتي في السّماء الدّنيا وفي اللّوح عند الملائكة.

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾، يعني في القدر والرّتبة، وتعظيم المنزلة والمحلّ. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: لا يمسّها إلاّ طاهر. وقيل: ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ عن أن ينالها أيدي الكفّار. وقيل: ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: لا يكون فيها ما ليس من كلام الله، مطهّرةٌ من التّناقض والكذب وآفات الكلام.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾، أي كتبة، وهم الملائكة الكرام الكاتبون، واحدهم سافر؛ يقال: سفرت، أي كتبت، ومنه قيل: للكتاب سِفْر، وجمعه أسفار. وقيل: هم الرّسل من الملائكة، واحدهم سفير، وهو الرّسول، والرّسل: سفراء الله بينه وبين خلقه.

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، أي كرام عند الله مطيعين. وقيل: السّفرة من الملائكة هم الّذين يكتبون، والبَرَرَة الّذين لا يكتبون، والبررة جمع بارّ، كفاجر وفَجَرَة. (١٠: ٣٨٣ ـ ٣٨٤)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ الأعلى / ٦

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ ﴾، أي سنجمع حفظ القرآن في قلبك وقراءته في لسانك، حتّى ﴿ لَا تَنْسىٰ﴾ كقوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾. قيل: كان النّبيّ ﷺ يتلقّف القرآن من جبرئيل بسرعةٍ، فكان إذا قرأ آية كان أن يسبقه بالتّلقّف؛ مخافة أن ينسى، فأنزل الله سبحانه ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ ﴾، فلم ينس بعدها شيئاً من القرآن ألبتّة ما عاش، وفي هذا إعجاز عظيم.

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾، أي ممّا لم يقع به التّكليف في التّبليغ، ولا يجب عليه أداؤه فينسيه الله سبحانه إذا شاء. وقال الحسن وقَتادة: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ الله ﴾ أن ينسيه برفع حكمه وتلاوته، كما قال تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾، والإنساء: نوع من النّسخ، ونسخ الله عزّ وجلّ من كتابه ثلاثة ألوان، منها ما أنسي رسوله ووضع عنه حكمه، ومنها ما أنساه وأثبت حكمه كالرّجم، والآيتان تشملان معاً هذين اللّونين، واللّون الثّالث ما أثبت ظاهره ووضع عنه حكمه. وقيل: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ ﴾، أي نعلّمك ونحفظ عليك ما نقرأه، فلا تترك العمل بما أمرت به.

﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾: أن لا تعمل به بالنّسخ. حُكي أنّ ابن كَيْسان النّحويّ حضر مجلس الجُنَيد يومًا، فقال: يا أبا القاسم ما تقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ ﴾؟ فأجابه مسرعاً كأنّه تقدّم السّؤال قبل ذلك بأوقات: لا تنسى العمل به، فأعجب ابن كَيْسان ذلك إعجاباً شديداً، وقال: لا يُفضّض الله فاك، مثلك تصدّر قوله: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ ﴾[1] من القول والفعل. قيل: يعني إعلان الصّدقة وإخفاها. ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ ﴾، أي للخلّة اليُسرىٰ. واليُسرىٰ: الفُعلى من اليُسر، وهو سهولة عمل الخير، أي نسهّل لك العمل الّذي يوصلك إلى الجنّة.

وقيل: معناه نوفّقك للشّريعة اليُسرىٰ، وهي الحنيفيّة السّمحة السّهلة.

وقيل: هو متّصل بالكلام الأوّل، معناه ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ ﴾، أي ما تقرأه على جبرئيل إذا فرغ من التّلاوة: ﴿ وَمَا يَخْفىٰ ﴾ : ما تقرأه في نفسك مخافة النّسيان. ثمّ وعده فقال:

---

١ ـ الأعلى / ٧

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ ﴾ [١]، أي نهوّن عليك الوحي حتّى تحفظه وتعلمه. (١٠: ٤٦٠ ـ ٤٦١)

﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ... ﴾ القدر / ١

﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ ﴾، الهاء ضمير القرآن وإن لم يتقدّم ذكره في السّورة ونظيره: ﴿ حـٰمٓ ❊ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ❊ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [٢]، أنزل الله القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللّوح... [سيأتي تمام الكلام عن الزّمخشريّ].

وقيل: معناه ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ﴾: جبرئيل بالقرآن ليلة القدر. وقيل: كان ابتداء إنزاله ليلة القدر.

وقيل: ﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، أي أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر ومنزلتها... ويحتمل أنّ الهاء تعود إلى القضاء والقدر النّازل ﴿ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾.

فإن قيل: قال الله تعالى في هذه السّورة: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ اَنْزَلْنَا عَلـٰى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [٣]، وقد أنزله في عشرين سنة كما قال: ﴿ وَقُراٰنـًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلـٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [٤]، فما وجه الجمع بين هذه الآيات ؟

الجواب: أنّه أنزله ليلة القدر الّتي كانت صبيحتها يوم بدر، وهي كانت ليلة سبع عشرة من رمضان، لم ترد بعد إلى العشر الأواخر أُنزل إلى السّماء الدّنيا، فوضع في بيت العزّة خزانة القرآن، ثمّ كان ينزل منه على رسول الله ﷺ نجومًا إلى أن قبض. (١٠: ٥٥٧ـ٥٥٨)

---

١ ـ الأعلى /٨

٢ ـ الدخان / ١-٣.

٣ ـ الأنفال / ٤١.

٤ ـ الإسراء /١٠٦

الفصل العاشر

نصّ الشّيخ أبي الفتوح الرّازيّ (م: ٥٣٥ هـ) في تفسيره: «رَوض الجَنان»[1]

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ... ﴾ البقرة / ١٨٥

قال عَطيّة بن الأسود: سألت ابن عبّاس عن قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ ﴾، إن كان نزول القرآن في شهر رمضان، فماذا نزل في الشّهور الأُخَر؟ قال: إنّ الله تعالى أنزل القرآن من الّلوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى السّماء الدّنيا، ثمّ أنزله في بيت العزّة، ومن هنا كان جبرئيل يأتي به نجمًا نجمًا على حسب الحاجة والمصلحة، في مدّة ثلاث وعشرين سنة، وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾.

قال داود بن الهند: سألت الشّعبيّ عن هذه المسألة؛ قال: نعم، نزل القرآن بأوقات متفرّقة، إلّا أنّ جبرئيل كان يأتي ببعض القرآن كلّ سنة في شهر رمضان إلى الرّسول ﷺ، وكان يعرضه عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللّٰهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[2].

والوجه الآخر في هذه الآية ﴿ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرانُ ﴾: أنّه بدىء بإنزاله في شهر رمضان.

---

١ ـ قد ترجمنا هذا النّص من الفارسيّة.

٢ ـ الرّعد / ٣٩ (سيأتي هذا الحديث كاملاً في عن السّيوطيّ في الدرّ المنثور).

وإذا قال أحدنا مثلاً: سأحجّ غدًا، كان معناه ابتدىء الحجّ غدًا، وكذلك قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، أي ابتدىء نزوله في شهر رمضان. (١: ٢٩١)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾ طه / ١١٤

قال بعض المفسّرين في سبب نزول هذه الآية: إنّ جبرئيل كان إذا قرأ القرآن على النّبيّ ﷺ قرأ النّبيّ معه؛ حرصًا منه على حفظه، حتّى أنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال بعضهم: المراد بها، لاتقرأ هذا القرآن على أصحابك ولا تعلّمهم، حتّى تُعلَّم أنت وتستمع بأحسن وجه. فلا يلزم أن يكون النّهي للنّبيّ من فعلٍ فَعَلَهُ أو يَفْعَلُهُ، بل نهاه تنزيهًا وإن لم ولَنْ يَفْعَل ذلك. ومثل هذا النّهي كثير في القرآن، منه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾[٣]. (٣: ٥٢٦)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

ثمّ حكى القرآن عن الكافرين أنّهم من جهة أُخرى – كانوا يطعنون بالقرآن، فقالُوا: لِمَ لَم ينزل هذا القرآن على محمّد ﷺ جملةً واحدةً؟ بل نزّل متفرّقًا، آية آية وسورة سورة، ولماذا لم ينزل مثل ما نُزلت التّوراة والإنجيل جملةً واحدةً؟

وأجاب عنه بعض العُلماء بأنّ الكتب السّابقة نُزِّلت مكتوبة مرّةً واحدةً على رسلٍ غير أُمّيين، ولكن هذا الكتاب نُزّل على النّبيّ الأُميّ متفرّقًا، أي آيةً آيةً وسورةً سورةً.

وقال بعضهم: إنّ الله تعالى أراد أن يكون في القرآن ناسخ ومنسوخ، فلا يجوز أن ينزّل جملةً واحدةً، بل أنزله بحيث يرفع المنسوخ عند نزول النّاسخ.

والصّحيح، أنّ المصلحة – وهي معتبرة في إنزال القرآن – تقتضي فيه التّفريق دون

---

١ ـ الأحزاب / ١.

٢ ـ الإنسان / ٢٤.

٣ ـ القلم / ٤٨.

نزوله جملةً واحدةً، وإليه أشار بقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وقالوا في معنى هذه الآية: حتّى يسهل عليك حفظه وتعلّمه.

قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ قال ابن عبّاس: أي بيّنّاه. وقال النَّخعيّ والحسن البَصْريّ: أي فرّقناه ونزّلناه في ثلاث وعشرين سنة.

قال ابن زيد: ﴿رَتَّلْنَاهُ﴾، أي فسّرناه، والتّرتيل هو بسط القراءة وإظهارها بجلاء، من قولهم: ثغر مرتّل، أي مفلّج. (٤: ٧٧)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان /٣

هذه اللّيلة هي ليلة القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]، قاله قَتادة وابنُ زيد.

وقال جماعة آخرون: هي ليلة النّصف من شعبان. والقول الأوّل أصحّ؛ لوجود النّظائر والقرائن في القرآن.

وقال قَتادة: ليلة القدر هي اللّيلة الّتي نزل فيها القرآن من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا، ثمّ أُنزل على الرّسول ﷺ بأوقات وأيّامٍ متفرّقة. (٥: ٢٧)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

قال عبدالله بن عبّاس وسعيد بن جُبَير والضَّحّاك: كان إذا أوحي إلى النّبيّ ﷺ يحرّك لسانه في فمه حرصًا على قراءته وفهمه، فنهاه الله عن ذلك بهذه الآية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...﴾.

وجاز هذا النّهي – وإن لم يفعل هذا الفعل بل نهاه – حتّى لا يفعله في المستقبل، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾[3]. ومعلوم أنّ رسول‌الله ﷺ لم يطع

---

١ ـ القدر / ١

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الأحزاب / ١.

الكافرين والمنافقين أصلاً، والضّمير في (بِهِ) جاز رجوعه إلى القرآن أو إلى الوحي.

قوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾، أي أحكامه، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾، أي نفصّل حلاله وحرامه.

وقال ابن عبّاس والضّحاك: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾، أي في صدرك، ونقرأه عليك حتّى تَعْلَمه.

ودلّت هذه الآية على أنّ رسول‌الله ﷺ جمع القرآن في آخر عمره؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾، لأنّه لا يمكن القراءة إلّا بمجموعٍ ومؤلّفٍ قريبٍ. وكذلك دلّت هذه الآية على أنّ تفسير القرآن لايجوز إلّا بنصٍّ عن رسول‌الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾. (٥: ٤٣٦)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً ﴾ الإنسان: ٢٣

أُنزلت هذه الآية على سبيل المنّة وتذكيرًا بالنّعمة.

وقال ابن عبّاس: لقد منّ الله على عباده أنّه أنزل القرآن متفرّقًا، آيةً من بعد آيةٍ وسورةً من بعد سورةٍ، ولم يُنزِّله جملةً واحدةً، حتّى لايصعب فهمه وتعلُّمه، كقوله: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ... ﴾[1]. (٥: ٤٥٢)

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

الفصل الحادي عشر

نصّ الزَّمَخشريّ (م: ٥٣٨ هـ) في «الكشّاف»
ونصّ السيّد الشَّريف (م: ٨١٦) في «حاشيته على الكشّاف»

الحمدلله الّذي أنزل القرآن كلامًا مؤلّفًا منظّمًا، ونزّله بحسب المصالح منجّمًا[١]. (٣:١)

---

١ ـ [قال السّيّد الشّريف الجُرجانيّ:]

قوله: «أنزل»، يروىٰ أنّه وقع في أُمّ النّسخ «خلق» مكان «أنزل» ثمّ غيّره المصنّف، فإن صحّ ذلك فالتّغيير **لفوائد**:

الأُولى: أنّ «الخلق» إذا نسب إلى ما هو جنس القول فقد يراد به معنى الاختلاق؛ يقال: خلق هذا الكلام واختلقه، أي افتراه، فلا يحسن استعماله في هذا المقام، وإن أُريد به معنى آخر.

الثّانية: أنّ كون القرآن حادثًا أمر شنيع عند الخصم، فأراد أن يكتمه أوّلاً، ثمّ أن يظهره بعد سوق مقدّمات مسلّمة عنده، ومستلزمة للحدوث في نفس الأمر، فإنّ ذلك أقوىٰ في استدراجه إلى التّسليم من حيث لا يشعر به.

الثّالثة: الاحتراز عن التّكرار؛ إذ قد حكم فيما بعد بحدوثه.

الرّابعة: أنّ الإنزال أدخل في كون القرآن نعمة علينا وأقرب إلينا؛ لتأخّره عن الخلق.

الخامسة: أنّ الحمد على إنزاله وارد فيه دون الحمد على خلقه.

السّادسة: أنّ «أنزل» أحسن التئامًا مع «نزل»؛ لِما بينهما من الصّنعة الاشتقاقيّة.

السّابعة: أنّ في الجمع بين الإنزال والتّنزيل إشارة إلى كيفيّة النّزول، على ما روي من أنّ القرآن أنزل جملةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، وأمر السّفرة الكرام بانتساخه، ثمّ نزل إلى الأرض نجومًا في ثلاث وعشرين سنة، وذلك أنّ الإنزال وإن كان مطلقا لكنّه إذا قوبل بالتّنزيل الدّالّ هاهنا على التّدريج فيما بين أجزاء القرآن، إمّا لدلالته على التّكثير، وإمّا لما قيّد به من التّنجيم، تبادر منه الإنزال دفعةً.

←

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ... ﴾ البقرة / ٢٣

فإن قلت: لِم قيل (ممّا نزّلنا) على لفظ التّنزيل دون الإنزال؟

قلت: لأنّ المراد النّزول على سبيل التّدريج والتّنجيم، وهو من محازّه[1] لمكان التّحدّي، وذلك أنّهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفًا؛ لما يكون من عند النّاس لم ينزّل هكذا نجومًا، سورة بعد سورة وآيات غِبّ آيات على حسب النّوازل، وكفاء الحوادث، وعلى سنن مانرى عليه أهل الخطابة والشّعر من وجود ما يوجد منهم مفرّقًا، حينًا فحينًا، شيئًا فشيئًا، حسب ما يعنّلهم من الأحوال المتجدّدة والحاجات السّانحة، لايلقى النّاظم ديوان شعره دفعة ولا يرمي النّاثر بمجموع خطبة أو رسالة ضربة، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملةً واحدةً؛ قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾[2].

فقيل: إن ارْتَبتُم في هذا الّذي وقع إنزاله هكذا على مُهلٍ وتدريجٍ، فهاتوا أنتم نوبةً

←

فإن قلت: الموصوف بالحركة حقيقةً هو المتحيّز بالذّات من الجواهر الأفراد وما يتركّب منها دون الأعراض، فإنّه يمتنع فيها ذلك سواء كانت أجزاؤها مجتمعة كاللّون، أو سيّالة كالصّوت الّذي هو جنس الكلام، فكيف يتصوّر إنزال القرآن وتنزيله مع أنّهما تحريك من علوّ إلى أسفل؟

قلت: ذلك مبنيّ على متعارف أهل اللّغة؛ حيث يصفون الكلام بما يوصف به مبلغه، فيقولون: نزل إلينا من القصر حكم الأمير، وكلامه على سبيل الإسناد المجازيّ، وصاحب «الكشف» جعل وصفه بالتّنزيل من هذا القبيل، وحمل الإنزال على إظهاره في اللّوح المحفوظ، زاعمًا أنّ للقرآن حركة معنويّة وهي الظّهور بعد الكمون لا زمانًا بل ذاتًا، وأنّ تلك الحركة من الأعلى رتبةً وشرفًا؛ لأنّ علوّ مرتبة واجب الوجود تعالى والقلم الأعلى على اللّوح لا يخفى، وتفسير كلامه على ما نقل عنه، أنّ القرآن كان كامنًا في العلم الإلهيّ، ثمّ أظهره الله تعالى بواسطة القلم الّذي هو العقل الأوّل في اللّوح المحفوظ الّذي هو نفس الكلّ، وهذا الظّهور ليس بزمانيّ؛ لأنّ الزّمان مقدار حركة الفلك الأعظم، وهو متأخّر عمّا ذكر بمراتب.

ويرد عليه أنّه مبنيّ على قواعد الفلسفة، وأنّ كونه في علم الله لابدّ أن يكون أزليًّا، فإذا لم يتأخّر الظّهور في اللّوح عن الكمون زمانًا بل ذاتًا كان أزليًّا؛ إذ لو كان حادثًا لكان متأخّرًا زمانًا اتّفاقًا، فيلزم قِدم اللّوح والقلم، وذلك باطل قطعاً. (هامش الكشّاف ١: ٣ ـ ٤)

١ ـ المحازّ: جمع محزّ من الحزّ بمعنى القطع، أي هذا المقام من المواضع الّتي تناسب اعتبار التّدريج في النّزول، واستعمال لفظ التّنزيل لمكان التّحدّي.

٢ ـ الفرقان / ٣١.

واحدةً من نُوَبِه، وهلمُّوا نجمًا فردًا من نجومه سورة من أصغر السُّور، أو آيـات شـتّى مفتريات، وهذه غاية التّبكيت، ومنتهى إزاحة العلل. (١: ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا اٰيَةً مَكَانَ اٰيَةٍ وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ... ﴾ النّحل / ١٠١

فإن قلت: هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أنّ القرآن إنّما ينسخ بمثله، ولا يصحّ بغيره من السُّنّة والإجماع والقياس؟

قلت فيه: أنّ قرآنًا ينسخ بمثله، وليس فيه نفي نسخه بغيره، على أنّ السُّنّة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم، فنسخه بها كنسخه بمثله.

وأمّا الإجماع والقياس والسُّنّة غير المقطوع بها فلا يصحّ نسـخ القـرآن بـها، فـي «ينزّل» و«نزّله». وما فيهما من التّنزيل شيئًا فشيئًا عـلى حسب الحـوادث والمـصالح، إشارة إلى أنّ التّبديل من باب المصالح كالتّنزيل، وأنّ ترك النّسخ بمنزلة إنزاله دفعةً واحدةً في خروجه عن الحكمة. (٢: ٤٢٨)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ... ﴾ الفرقان / ٣١

(نُزِّلَ) هاهنا بمعنى «أُنزل» لاغير، كخُبِّر بمعنى أُخبِر، وإلّا كان متدافعًا. وهذا أيضاً من اعتراضاتهم واقتراحاتهم الدّالّة على شِرادهم[١] عن الحقّ، وتجافيهم عن أتباعه؛ قالُوا: هلّا أُنزل عليه دفعةً واحدةً، في وقتٍ واحد كما أُنزلت الكتب الثّلاثة، وماله أنزل عـلى التّفاريق؟ والقائلون قُريش، وقيل: اليهود، وهذا فضول من القول ومماراة بما لا طـائل تحته؛ لأنّ أمر الإعجاز والاحتجاج به لا يختلف بنزوله جملةً واحدةً أو مفرّقًا.

وقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ جواب لهم، أي كذلك أنزل مفرّقًا، والحكمة فيه أن نقوّي بتفريقه فؤادك حتّى تعيه وتحفظه؛ لأنّ المتلقّن إنّما يَقْوي قلبه على حفظ العلم شيئًا بعد شـيءٍ وجزءًا عقيب جزءٍ، ولو أُلقي عليه جملةً واحدةً لبعل[٢] به وتعيّا بـحفظه. والرّسـول ﷺ

---

١ ـ شِرادهم (بضمّ الشّين وكسرها)، أي خروجهم.

٢ ـ أي تحيّر.

فارقت حاله حال موسى وداود وعيسى عليهم السلام؛ حيث كان أُمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، وهم كانُوا قارئين كاتبين، فلم يكن له بُدٌّ من التّلقُّن والتّحفُّظ، فأنزل عليه منجّمًا في عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين. وأيضًا فكان ينزل على حسب الحوادث وجوابات السّائلين، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ ولا يتأتّي ذلك إلّا فيما أُنزل مفرّقًا.

فإن قلت: ذلك في ﴿كَذٰلِكَ﴾ يجب أن يكون إشارة إلى شيء تقدّمه، والّذي تقدّم هو إنزاله جملةً واحدةً، فكيف فسّرته بـ(كَذٰلِكَ) أنزلناه مفرّقًا؟

قلت: لأنّ قولهم: لولا أُنزل عليه جملةً، معناه لِمَ أُنزل مفرّقًا، والدّليل على فساد هذا الاعتراض أنّهم عجزواعن أن يأتوا بنجمٍ واحدٍ من نجومه، وتحدّوا بسورة واحدة من أصغر السُّور، فأبرزوا صفحة عجزهم، وسجّلوا به على أنفسهم حين لاذُوا بالمناصبة، وفزعُوا إلى المحاربة، ثمّ قالُوا: هلّا نزل جملةً واحدةً؟ كأنّهم قدروا على تفاريقه حتّى يقدروا على جملته.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾: معطوف على الفعل الّذي تعلّق به «كَذٰلِكَ» كأنّه قال: كذلك فرّقناه و رتّلناه، ومعنى ترتيله أن قدّره آيةً بعد آيةٍ، ووَقْفَةً عقيب وَقْفَةٍ... [إلى أن قال:].

وقيل: هو أن نزّله – مع كونه متفرّقًا – على تمكّث وتهمّل في مدّة متباعدة، وهي عشرون سنة، ولم يفرّقه في مدّة متقاربة. (٣: ٩٠ ـ ٩١)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

فإن قلت: ما معنى إنزال القرآن في هذه اللّيلة؟

قلت: قالوا: أنزل جملةً واحدةً من السّماء السّابعة إلى السّماء الدّنيا، وأمر السّفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر، وكان جبريل عليه السلام، ينزل على رسول‌الله صلى الله عليه وآله نجومًا نجومًا.

فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟

قلت: هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان، فسّر بهما جواب القسم الّذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾. كأنّه قيل: أنزلناه؛ لأنّ من شأننا الإنذار والتّحذير من العقاب، وكان إنزالنا إيّاه في هذه اللّيلة خصوصًا؛ لأنّ إنزال القرآن من الأُمور الحكيمة،

وهذه اللّيلة مفرّق كلّ أمر حكيم. والمباركة: الكثيرة الخير؛ لما يتيح الله فيها من الأُمور الّتي يتعلّق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم، ولو لم يوجد فيها إلّا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة. ومعنى يُفرق يفصل ويكتب كلّ أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم وجميع أُمورهم منها إلى الأُخرى القابلة.

وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللّوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزّلازل والصّواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدّنيا، وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت. (٣: ٥٠٠)

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسـى إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ... ﴾ الأعلى / ٦

بشّره الله بإعطاء آية بيّنة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي - وهو أُمّيّ لا يكتب ولا يقرأ - فيحفظه ولا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾: فذهب به عن حفظه برفع حكمه وتلاوته، كقوله: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾: وقيل: كان يعجّل بالقراءة إذا لقّنه جبريل، فقيل: ﴿لَا تَعْجَلْ﴾، فإنّ جبريل مأمور بأن يقرأه عليك قراءة مكرّرة إلى أن تحفظه، ثمّ لا تنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾ ثمّ تذكّره بعد النّسيان. أو قال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾، يعني القلّة والنّدرة كما روي أنّه أسقط آية في قراءته في الصّلاة فحسب أُبيّ أنّها نُسِخت فسأله فقال: نسيتها، أو قال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾ والغرض نفي النّسيان رأسًا، كما يقول الرّجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلّا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء، وهو من استعمال القلّة في معنى النّفي. وقيل: قوله: ﴿فَلَا تَنْسـى﴾ على النّهي، والألف مزيدة للفاصلة كقوله: ﴿السَّبِيلاْ﴾ يعنى فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾ أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ يعني إنّك تجهر بالقراءة مع قراءة جبريل عليه السلام مخافة التّفلّت، والله يعلم جهرك معه وما في نفسك ممّا يدعوك إلى الجهر، فلا تفعل، فأنا أكفيك ما تخافه أو يعلم ما أسررتم وما أعلنتم من أقوالكم وأفعالكم، وما ظهر وبطن من أحوالكم، وما هو

مصلحة لكم في دينكم ومفسدة فيه، فينسى من الوحي ما يشاء ويترك محفوظًا ما يشاء.
﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرٰى ﴾ معطوف على ﴿ سنقرئك ﴾، وقوله: ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفٰى ﴾ اعتراض، ومعناه ونوفّقك للطّريقة الّتي هي أيسر وأسهل، يعني حفظ الوحي. وقيل: للشّريعة السّمحة الّتي هي أيسر الشّرايع وأسهلها مأخذًا. (٤: ٢٤٣)

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ... ﴾ القيامة / ١٦ ـ ٢٠

الضّمير في ﴿ بِهِ ﴾ للقرآن، وكان رسول الله ﷺ إذا لقّن الوحي نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمّها؛ مسارعةً إلى الحفظ، وخوفًا أن يتفلّت منه. فأمر بأن يستنصت له ملقيًا إليه بقلبه وسمعه، حتّى يقضى إليه وحيه، ثمّ يقفّيه بالدّراسة إلى أن يرسخ فيه. والمعنى لا تحرّك لسانك بقراءة الوحي مادام جبريل صلوات الله عليه يقرأ، ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾: لتأخذه على عجلةٍ، ولئلّا يتفلّت منك، ثمّ علّل النّهي عن العجلة بقوله: ﴿ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك، وإثبات قراءته في لسانك. ﴿ فَاِذَا قَرَاْنَاهُ ﴾: جعل قراءة جبريل قراءته، والقرآن: القراءة. ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ﴾: فكن مقفّيًا له فيه، ولا تراسله، وطأ من نفسك أنّه لا يبقى غير محفوظ، فنحن في ضمان تحفيظه. ﴿ ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ إذا أشكل عليك شيئاً من معانيه، كأنّه كان يعجل في الحفظ والسّؤال عن المعنى جميعًا، كما ترى بعض الحرّاص على العلم، ونحوه: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[1]. كَلاَّ: ردع لرسول الله ﷺ عن عادة العجلة، وإنكار لها عليه، وحثّ على الأناة والتُّؤَدَة. وقد بالغ في ذلك بإتباعه قوله: ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴾، كأنّه قال: بل أنتم يا بني آدم! لأنّكم خلقتم من عَجَل، وطُبِعتم عليه، تعجلون في كلّ شيءٍ، ومن ثمّ تحبّون العاجلة. (٤: ١٩١ ـ ١٩٢)

﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ... ﴾ القدر: ١

عظّم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصًّا به دون غيره. والثّاني: أنّه جاء بضميره دون اسمه الظّاهر شهادة له بالنّباهة والاستغناء عن التّنبيه عليه.

---

١ ـ طه / ١١٤.

والثّالث: الرّفع من مقدار الوقت الّذي أُنزل فيه. روي أنّه نزل جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، وأملأه جبريل على السّفرة، ثمّ كان ينزّله على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة. وعن الشّعبيّ، المعنى إنّا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر.

واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنّها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها. وأكثر القول أنّها السّابعة منها... (٤: ٢٧٣)

الفصل الثّاني عشر

نصّ الطَّبْرِسيّ (م: ٥٤٨ هـ) في تفسيره «مجمع البيان»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾ البقرة / ١٨٥

اختلف في قوله: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾؛

فقيل: إنّ الله أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السّماء الدّنيا، ثمّ أنزل على النّبيّ ﷺ بعد ذلك نجومًا في طول عشرين سنة، عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبَير والحسن وقَتادة، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام.

وقيل: إنّ الله تعالى ابتدأ إنزاله في ليلة القدر من شهر رمضان، عن ابن إسحاق.

وقيل: إنّه كان ينزّل إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ما يحتاج إليه في تلك السّنة، جملةً واحدةً، ثمّ ينزّل إلى مواقع النّجوم إرسالاً في الشّهور والأيّام.

عن السُّدّيّ بسنده إلى ابن عبّاس، ورواه الثّعْلَبيّ بإسناده عن أبي ذَرالغَفّاريّ عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «أنزلت صُحُف إبراهيم...» [وذكركما تقدّم عن الطّبَريّ، ثمّ قال:].

وهذا بعينه رواه العيّاشيّ عن أبي عبدالله عليه السلام عن آبائه عن النّبيّ ﷺ.

وقيل: المراد بقوله: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أنّه نزل في فرضه وإيجاب صومه على الخلق القرآن، فيكون فيه بمعنى في فرضه، كما يقول القائل: أنزل الله تعالى في الزّكاة كذا، يريد في فرضها. (١: ٢٧٦)

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ... ﴾ الإسراء / ١٠٦

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ ﴾، أي وأنزلنا عليك يا محمّد قرآنًا فصّلناه سورًا وآياتٍ، عن أبي مسلم. وقيل: معناه فرقنا به الحقّ عن الباطل، عن الحسن. وقيل: معناه جعلنا بعضه خبرًا وبعضه أمرًا، وبعضه نهيًا ، وبعضه وعدًا، وبعضه وعيدًا، وأنزلناه متفرّقًا، لم نُنزّله جميعًا؛ إذ كان بين أوّله وآخره نَيْف وعشرون سنة.

﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾، أي تثبّت وتُؤَدَةٍ، فتُرتِّله ليكون أمكن في قلوبهم، ويكون أقدر على التّأمّل والتّفكّر فيه، ولا تعجل في تلاوته فلا يفهم عنك، عن ابن عبّاس ومجاهد. وقيل: معناه لتقرأه عليهم مفرّقًا شيئًا بعد شيءٍ.

﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾: على حسب الحاجة ووقوع الحوادث. (٣: ٤٤٥)

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ... ﴾ طه / ١١٤

فيه وجوه؛

أحدها: أنّ معناه لا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبرائيل عليه السلام من إبلاغه، فإنّه صلى الله عليه وآله كان يقرأ معه، ويعجل بتلاوته مخافة نسيانه. أي تفهم ما يوحىٰ إليك إلى أن يفرغ الملك من قراءته، ولا تقرأ معه، ثمّ إقرأ بعد فراغه منه. وهذا كقوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾[١]، عن ابن عبّاس والحسن والجُبّائيّ.

وثانيها: إنّ معناه ولا تقرأ لأصحابك ولا تُملِه عليهم حتّى تبيّن لك معانيه، عن مجاهِد وقَتادة وعَطيّة وأبي مُسلم.

وثالثها: أنّ معناه ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه؛ لأنّه تعالى إنّما ينزّله بحسب المصلحة وقت الحاجة. (٤: ٣٢)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً... ﴾ الفرقان: ٣٢

---

١ ـ القيامة / ١٦.

معناه وقال الكفّار لرسول الله ﷺ: هل أتيتنا بالقرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة والإنجيل والزّبور جملةً واحدةً؟ قال الله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ﴾، أي نزّلناه كذلك متفرّقًا. ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي لنقوّي به قلبك فتزداد بصيرةً، وذلك أنّه إذا كان يأتيه الوحي متجدّدًا في كلّ حادثة وكلّ أمرٍ كان ذلك أقوىٰ لقلبه وأزيد في بصيرته.

وقيل: إنّما أُنزلت الكتب جملةً واحدةً؛ لأنّها نزلت على الأنبياء... [وذكر كما تقدّم عن الطّوسيّ]. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، أي بيّنّاه تبيينًا ورسّلناه ترسيلاً بعضه في أثر بعض، عن ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة.

وقيل: فصّلناه تفصيلاً، عن السُّدّيّ. وقيل: فرّقناه تفريقًا، عن النَّخَعيّ. وروي أنّ النّبيّ ﷺ قال: «يابن عبّاس! إذا قرأت القرآن فرتّله ترتيلاً قال: وما التّرتيل؟ قال: بيّنه تبيينًا، ولا تنثره نثر الدَّقَل، ولا تهذّه هذّا الشّعر، قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب ولا يكوننّ همّ أحدكم آخر السّورة». (٤: ١٦٩ ـ ١٧٠)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان / ٣

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي إنّا أنزلنا القرآن، واللّيلة المباركة هي ليلة القدر، عن ابن عبّاس وقَتادة وابن زيد؛ وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام.

وقيل: هي ليلة النّصف من شعبان، عن عِكرِمة. والأصحّ الأوّل، ويدلّ عليه قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2].

واختلف في كيفيّة إنزاله؛ فقيل: أُنزل إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ أُنزل نجومًا إلى النّبيّ ﷺ.

وقيل: إنّه كان ينزّل جميع ما يحتاج في كلّ سنةٍ في تلك اللّيلة، ثمّ كان ينزلها جبرائيل شيئًا فشيئًا وقت وقوع الحاجة إليه.

وقيل: كان بَدْء إنزاله في ليلة القدر. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: قد كلّم الله

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

جبرائيل في ليلة واحدة وهي ليلة القدر، فسمعه جبرائيل وحفظه بقلبه، وجاء به إلى السّماء الدّنيا إلى الكتبة وكتبوه، ثمّ نزّل على محمّد ﷺ بالنّجوم في ثلاث وعشرين سنة، وقيل: في عشرين سنة. (٥: ٦١)

﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ... ﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

...خاطب سبحانه نبيّه ﷺ فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾؛ قال ابن عبّاس: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه القرآن عجّل بتحريك لسانه؛ لحبّه إيّاه وحرصه على أخذه وضبطه مخافة أن ينساه، فنهاه الله عن ذلك.

وفي رواية سعيد بن جُبَير عنه أنّه ﷺ كان يعاجل من التّنزيل شدّة، وكان يشتدّ عليه حفظه، فكان يحرّك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل من قراءة الوحي، فقال سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ ﴾ أي بالوحي، أو بالقرآن ﴿ لِسَانَكَ ﴾، يعني بالقراءة، ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ أي لتأخذه. كما قال: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾[1] ﴿ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ في صدرك حتّى تحفظه، ﴿ وَقُرْاٰنَهُ ﴾ أي وتأليفه على ما نزل عليك، عن قَتادة.

وقيل: معناه ﴿ اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ ﴾ عليك حتّى تحفظه ويمكنك تلاوته، فلا تخف فوت شيء منه، عن ابن عبّاس والضّحّاك!.

﴿ فَاِذَا قَرَاْنَاهُ ﴾، أي قرأه جبريل عليك بأمرنا ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ﴾، أي قراءته، عن ابن عبّاس. والمعنى أقرأه إذا فرغ جبريل عن قراءته. قال: فكان النّبي ﷺ بعد هذا إذا نزل عليه جبريل ﷺ أطرق، فإذا ذهب قرأ.

وقيل: ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ ﴾، أي فاعمل بما فيه من الأحكام والحلال والحرام، عن قَتادة والضّحّاك.

وقال البَلْخيّ: الّذي اختاره أنّه لم يُرِد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكُتُبهم يوم القيامة. يدلّ على ذلك ما قبله وما بعده، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن، ولا شيء من أحكام الدّنيا، وفي ذلك تقريع للعبد وتوبيخ له حين لا تنفعه العجلة. يقول: لا تحرّك

---

١ ـ طه/١١٤.

لِسانك بما تقرأه من صحيفتك الّتي فيها أعمالك، يعني إقرأ كتابك ولا تعجل، فـإنّ هـذا الّذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيّئاته ضَجِر واستعجل، فيقال له توبيخًا: لا تـعجل وتثبّت؛ لتعلم الحجّة عليك فإنّا نجمعها لك، فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بـالانقياد لحكمه والاستسلام للتّبعة فيه، فإنّه لا يمكنك إنكاره. ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ لو أنكرت.

وقال الحسن: معناه ثمّ إنّ علينا بيان ما أنبأناك أنّا فاعلون في الآخرة وتحقيقَه.

وقيل: يريد إنّا نبيّن لك معناه إذا حفظته، عن قَتادة.

وقيل: معناه ثمّ إنّ علينا أن نحفظه عليك، حتّى تبيّن للنّاس بتلاوتك إيّاه عليهم.

وقيل: معناه علينا أن ننزّله قرآنًا عربيّاً فيه بيان للنّاس، عن الزَّجّاج.

وفي هذا دلالة على أنّه لا تعمية في القرآن ولا ألغاز ولا دلالة فيه على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة، وإنّما يدلّ على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب. (٥: ٣٩٧)

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ... ﴾ الواقعة / ٧٥ ـ ٧٨

واختلف في معنى مواقع النّجوم، فقيل: هي مطالع النّجوم ومساقطها، عن مـجاهد وقَتادة. وقيل: انكدارها، وهو انتشارها يوم القيامة، عن الحسن. وقيل: هي الأنواء الّتي كان أهل الجاهليّة إذا مُطروا قالوا: مُطرنا بنوءٍ كذا، فيكون المعنى فلا أُقسم بها.

وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام: «إنّ مواقع النّجوم رجومها للشّياطين، وكان المشركون يقسمون بها، فقال سبحانه: فلا أُقسم بها» وقيل: معناه أقسم بنزول القرآن، فإنّه نزل متفرّقًا قطعاً نجومًا، عن ابن عبّاس.

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾: قال الزَّجّاج والفَرّاء: وهذا يـدلّ عـلى أنّ المـراد بمواقع النّجوم نزول القرآن، والضّمير في ﴿ إِنَّـهُ ﴾ يـعود إلى القسـم، ودلّ عـليه قـوله: ﴿ أُقْسِمُ ﴾، والمعنى أنّ القسم بمواقع النّجوم لقسم عظيم لو تعلمون، ففصل بـين الصّـفة والموصوف بالجملة.

ثمّ ذكر المقسَم به فقال: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾، معناه إنّ الّذي تلوناه عـليك ﴿ لَـقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾، أي عامّ المنافع كثير الخير، ينال الأجر العظيم بتلاوته والعمل بما فيه.

وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ عند الله تعالى، أكرمه الله تعالى وأعزّه لأنّه كلامه، عن مقاتل.

وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ لأنّه كلام ربّ العزّة، ولأنّه محفوظ عن التّغيير والتّبديل، ولأنّه معجز، ولأنّه يشتمل على الأحكام والمواعظ وكلّ جليل خطير وعزيز فهو كريم. ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾، أي مستور من خلقه عند الله، وهو اللّوح المحفوظ أثبت الله فيه القرآن، عن ابن عبّاس. وقيل: هو المُصْحَف الّذي في أيدينا، عن مجاهد. (٥: ٢٢٦)

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ* مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ* بِأَيْدِي سَفَرَةٍ...﴾ عبس/١٣ – ١٧

أخبر سبحانه بجلالة قدر القرآن عنده فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾، أي هذا القرآن أو هذه التّذكرة في كتب معظّمة عند الله، وهي اللّوح المحفوظ، عن ابن عبّاس.

وقيل: يعني كُتُب الأنبياء المنزّلة عليهم، كقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَىٰ﴾[١].

﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السّماء السّابعة، وقيل: مرفوعة قد رفعها الله عن دَنَس الأنجاس.

﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: لا يمسّها إلّا المطهّرون.

وقيل: مصونة عن أن تنالها أيدي الكَفَرَة؛ لأنّها في أيدي الملائكة في أعزّ مكان، عن الجُبَّائيّ.

وقيل: مطهّرة من كلّ دنس، عن الحسن.

وقيل: مطهّرة من الشّكّ والشّبهة والتّناقض. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يعني الكتبة من الملائكة، عن ابن عبّاس ومجاهد.

وقيل: يعني السّفراء بالوحي بين الله تعالى وبين رسله، من السّفارة. وقال قَتادة: هم القرّاء يكتبونها ويقرأونها.

وروى فُضَيل بن يَسار عن الصّادق عليه السلام، قال: «الحافظ للقرآن، العامل به مع السّفرة الكرام البَرَرَة» ثمّ أثنىٰ عليهم، فقال: ﴿كِرَامٍ﴾ على ربّهم ﴿بَرَرَةٍ﴾ مطيعين.

وقيل: ﴿كِرَامٍ﴾ عن المعاصي يرفعون أنفسهم عنها ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي صالحين متّقين.

وقال مُقاتل: كان القرآن يَنزل من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر إلى

---

١ ـ الأعلى / ١٨.

الكتبة من الملائكة، ثمّ يَنزل به جبريل عليه السلام إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله . ثمّ ذكر سبحانه المكذّبين بالقرآن فقال: ﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَاأَكْفَرَهُ﴾. (٥: ٤٣٨)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ... ﴾ الأعلى / ٦-٧

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ ﴾، أي سنأخذ عليك قراءة القرآن فلا تَنسى ذلك.

وقيل: معناه سيقرأ عليك جبريل القرآن بأمرنا فتحفظه ولا تنساه. وقال ابن عبّاس: كان النّبيّ صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه جبرائيل عليه السلام بالوحي يقرأه؛ مخافة أن ينساه، فكان لا يفرغ جبرائيل عليه السلام من آخر الوحي حتّى يتكلّم هو بأوّله، فلمّا نزلت هذه الآية لم ينس بعد ذلك شيئًا. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينسيكه بنسخه من رفع حكمه وتلاوته، عن الحسن وقَتادة. وعلى هذا فالإنشاء نوع من النّسخ، وقد مرّ بيانه في سورة البقرة عند قوله: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَةٍ اَوْ نُنْسِهَا ﴾ الآية.

وقيل: معناه ﴿إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يؤخّر إنزاله عليك فلا تقرأه.

وقيل: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ كالاستثناء في الإيمان، وإن لم يقع منه مشيئة النّسيان.

قال الفرّاء: لم يشأ الله أن ينسىٰ عليه السلام شيئاً، فهو كقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّموَاتُ وَالاَرْضُ اِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾[1] ولا يشاء، وكقول القائل: «لأعطينّك كلّ ما سألتَ إلّا ما شئتُ، وإلّا أن أشاء أن أمنعك» والنّيّة أن لا يمنعه، ومثله الاستثناء في الإيمان. ففي الآية بيان لفضيلة النّبيّ صلى الله عليه وآله ، وإخبار أنّه مع كونه صلى الله عليه وآله أُمّيّاً كان يحفظ القرآن، وأنّ جبرائيل عليه السلام كان يقرأ عليه سورة طويلة فيحفظه بمرّةٍ واحدة ثمّ لا ينساه، وهذه دلالة على الإعجاز الدّالّ على نبوّته.

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ ﴾ معناه إنّ الله سبحانه يعلم العلانية والسّرّ والجهر: رفع الصّوت، ونقيضه الهمس، والمعنى أنّه سبحانه يحفظ عليك ما جهرت به، وما أخفيته ممّا تريد أن تعيه. ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ ﴾ اليُسرىٰ هي الفُعلىٰ من اليسر، وهو سهولة عمل الخير. والمعنى نوفّقك للشّريعة اليُسرىٰ، وهي الحنيفيّة، ونهوّن عليك الوحي ونسهّله، حتّى

---

١ ـ هود / ١٠٨.

تحفظه ولا تنساه ، وتعمل به ولا تخالفه ...(٥: ٤٧٥)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ القدر / ١

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾: الهاء كناية عن القرآن وإن لم يجرِ له ذكر؛ لأنّه لا يشتبه الحال فيه.

﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: قال ابن عبّاس: أنزل الله القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ كان ينزّله جبرئيل عليه السلام على محمّد صلى الله عليه وآله نجوماً، وكان من أوّله إلى آخره ثلاث وعشرون سنة.

وقال الشّعبيّ: معناه إنّا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر.

وقال مُقاتل: أنزله من اللّوح المحفوظ إلى السَّفَرة، وهم الكَتَبَةَ من الملائكة في السّماء الدّنيا، وكان يَنزل ليلة القدر من الوحي على قدر ما يَنزل به جبرائل على النّبيّ صلى الله عليه وآله في السّنة كلّها إلى مثلها من القابل. (٥: ٥١٨)

ونصّه أيضًا في «تفسير جوامع الجامع»

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ طه / ١١٤

لمّا ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد: وإذا لقّنك جبرئيل الوحي فـ ﴿لَا تَعْجَلْ﴾ بتلاوته قبل أن يفرغ من قراءته ولا تكن قراءتك مساوقةً لقراءته، ونحوه ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. وقيل: معناه لا تُقرئْهُ أصحابك حتّى يبيَّن لك ما كان مجملاً. واستَزِد من الله ـ سبحانه ـ علمًا إلى عِلمك ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ إلى علم. (٢: ٤٣٨)

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ الفرقان / ٣٢

﴿نُزِّلَ﴾ هنا بمعنى أُنزل كخُبِّر وأُخبر، أي هلّا أُنزل عليه القرآن دفعة... [وذكر كما تقدّم عن الكشّاف]. (٣: ١٣٦)

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِـهِ الرُّوحُ الاَمِـينُ عَـلىٰ قَـلْبِكَ لِـتَكُونَ مِـنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ الشّعراء / ١٩١ ـ ١٩٥

﴿وَإِنَّهُ﴾: الضّمير للقرآن، والمراد بالتّنزيل: المُنَزَّل. وقُرِىء: ﴿نَزَلَ بِهِ الْرُّوحُ الاَمِينُ﴾ و «نَزَّلَ بِهِ آلرُّوحَ»، والباء في كلتا القراءتين للتَّعدية، أي جعل الله الرّوح الأمين نازلاً به ﴿عَلىٰ قَلْبِكَ﴾، أي حفَّظك وفهّمك إيّاه، وأثبته في قلبك إثبات ما لا يُنسى، كقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾[1]. ﴿بِلِسَانٍ﴾ الباء يتعلّق بـ ﴿آلْمُنْذِرِينَ﴾ أي لتكون من الّذين أنذروا بهذا اللّسان، وهم خمسةٌ: هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ وإسماعيلُ ومحمّدٌ (صلوات الله عليهم أجمعين) أو يتعلّق بـ«نَزَّلَ» فيكون المعنى: نزّله باللّسان العربيّ لتُنذر به، لأنّه لو نزّله باللّسان الأعجميّ لقالوا: ما نصنع بمالا نَفْهَمُه فيتعذّر الإنذار به، وفي هذا الوجه أنّ تنزيله بالعربيّة الّتي هي لسانك ولسان قومك تنزيلٌ له على قلبك، لأنّك تَفْهَمُه وتُفَهِّمُه قومك، ولو كان أعجميًّا لكان نازلاً على سمعك دون قلبك، فكنت تَسمع أجراس وفِ لا تفهم معانيها، ولا تعيها. ﴿وَإِنَّهُ﴾ يعني: القرآن ﴿لَفِى زُبُرِ آلاَوَّلِينَ﴾ يعني ذكره مثبت في سائرالكتب السّماويّة على وجه البشارة به وبمحمّدﷺ. وقيل: إنّ معانيه من الدّعاء إلى التّوحيد وغيره فيها. (٣: ١٧٠ ـ ١٧١)

---

١ ـ الأعلى / ٧.

الفصل الثّالث عشر

نصّ ابن الجَوْزيّ (م: ٥٩٧ هـ) في كتابه:
«زاد المسير في علم التّفسير»

مدّة نزول القرآن

روى عِكرِمة عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً من اللَّوح المحفوظ في ليلة القدر إلى «بيت العزّة»، ثمّ أُنزل بعد ذلك في عشرين سنة.

وقال الشَّعبيّ: فرّق الله تنزيل القرآن، فكان بين أوّله وآخره عشرون سنة. وقال الحسن: ذكرلنا أنّه كان بين أوّله وآخره ثماني عشرة سنة، أُنزل عليه بمكّة ثماني سنين. (١: ٥)

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ ﴾ البقرة / ١٨٥

فيه ثلاثة أقوال؛

أحدها: أنّه أنزل القرآن فيه جملةً واحدةً، وذلك في ليلة القدر إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا، قاله ابن عبّاس.

والثّاني: أنّ معناه أُنزل القرآن بفرض صيامه، روي عن مجاهد والضّحّاك.

والثّالث: أنّ معناه إنّ القرآن ابتدىء بنزوله فيه على النّبيّ ﷺ قاله ابن إسحاق وأبو

سُليمان الدِّمشقيّ. (١: ١٨٧)

﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ... ﴾ طه / ١١٤

في سبب نزولها قولان؛

أحدهما: أنّ جبريل كان يأتي النّبيّ ﷺ بالسّورة والآي فيتلوها عليه، فلا يفرغ جبريل من آخرها حتّى يتكلّم رسول‌الله ﷺ بأوّلها مخافة أن ينساها، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عبّاس.

والثّاني: أنّ رجلاً لطم امرأته، فجاءت إلى رسول‌الله ﷺ تطلب القصاص، فجعل رسول الله ﷺ بينهما القصاص، فنزلت هذه الآية، فوقف رسول‌الله ﷺ حتّى نزل قوله تعالى: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾[١] قاله الحسن البَصْريّ.

قوله تعالى: ﴿ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾، وقرأ ابن مسعود والحسن ويعقوب: «نَقْضِيَ» بالنّون وكسر الضّاد وفتح الياء «وَحْيَه» بنصب الياء. وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال... [وذكركما تقدّم عن الطَّبِرسيّ] (٥: ٣٢٥ ـ ٣٢٦)

﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ... ﴾ الدّخان / ٣

﴿ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ ﴾: والهاء كناية عن الكتاب وهو القرآن. ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾، وفيها قولان؛

أحدهما: أنّها ليلة القدر، وهو قول الأكثرين.

وروى عِكرِمة عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن من عند الرّحمان ليلة القدر جملةً واحدةً، فوُضع في السّماء الدّنيا، ثمّ أُنزل نجومًا.

وقال مُقاتِل: نزل القرآن كلّه في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا.

والثّاني: أنّها ليلة النّصف من شعبان، قاله عِكرِمة. (٧: ٣٣٦)

﴿ فَلَا اُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ الواقعة / ٧٥

---

١ ـ النّساء / ٣٤.

وفي «النّجوم» قولان؛

أحدهما: نجوم السّماء، قاله: الأكثرون، فعلى هذا في مواقعها ثلاثة أقوالٍ. أحدها: انكدارها وانتثارها يوم القيامة، قاله الحسن. والثّاني: منازلها، قاله عَطاء وقَتادة. والثّالث: مغيبها في المغرب، قاله أبو عُبَيْدة.

والثّاني: أنّها نجوم القرآن، رواه ابن جُبَير عن ابن عبّاس. فعلى هذا سمّيت نجومًا لنزولها متفرّقة، ومواقعها: نزولها. (٨: ١٥١)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

[بعد أن حكى رواية سعيد بن جُبَير حسب ما تقدّم عن الطَّبرِسيّ، قال:]

ومعناه لا تحرّك بالقرآن لسانك لتعجل بأخذه. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾: قال ابن قُتَيْبة: أي ضمّه وجمعه في صدرك. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾، أي جمعناه. ﴿فَاتَّبِعْ قُرانَهُ﴾، أي جمعه. قال المفسّرون: يعني اقرأ إذا فرغ جبريل من قراءته. قال ابن عبّاس: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾ أي اعمل به. وقال قَتادة: فاتّبِع حلاله وحرامه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: فيه أربعة أقوال؛

أحدها: نبيّنه بلسانك، فتقرأه كما أقرأك جبريل. وكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب، قرأه كما وعده الله، قاله ابن عبّاس.

والثّاني: أنّ علينا أن نجزيَ به يوم القيامة بما فيه من وعد ووعيد، قاله الحسن.

والثّالث: أنّ علينا بيان ما فيه من الأحكام والحلال والحرام، قاله قَتادة.

والرّابع: علينا أن ننزّله قرآنًا عربيًّا فيه بيان للنّاس، قاله الزَّجّاج. (٨: ٤٢١ ـ ٤٢٢)

الفصل الرّابع عشر

نصّ الفخر الرّازيّ (م: ٦٠٦هـ) في «التّفسير الكبير»

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ البقرة / ٢٣

إنّما قال: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التّنزيل دون الإنزال لأنّ المراد... [وذكركما تقدّم مثله عن الزَّمَخشريّ، ثمّ قال:]

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[1]، والله سبحانه وتعالى ذكر هاهنا ما يدلّ على أنّ القرآن معجز مع ما يزيل هذه الشّبهة. وتقريره أنّ هذا القرآن النّازل على هذا التّدريج إمّا أن يكون من جنس مقدور البشر أو لا يكون، فإن كان الأوّل وجب إتيانهم بمثله أو بما يقرب منه على التّدريج، وإن كان الثّاني ثبت أنّه مع نزوله على التّدريج معجز. (٢: ١١٦)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾ البقرة / ١٨٥

اعلم أنّه تعالى لمّا خصّ هذا الشّهر بهذه العبادة بيّن العلّة لهذا التّخصيص، وذلك هو أنّ الله سبحانه خصّه بأعظم آيات الرّبوبيّة، وهو أنّه أنزل فيه القرآن، فلا يبعد أيضًا تخصيصه بنوع عظيم من آيات العبوديّة وهو الصّوم. وممّا يحقّق ذلك أنّ الأنوار الصّمديّة

---

١ ـ الفرقان / ٣١.

متجليّة أبدًا يمتنع عليها الاختفاء والاحتجاب، إلّا أنّ العلائق البشريّة مانعة من ظهورها في الأرواح البشريّة، والصّوم أقوى الأسباب في إزالة العلائق البشريّة، ولذلك فإنّ أرباب المكاشفات لا سبيل لهم إلى التّوصّل إليها إلّا بالصّوم، ولهذا قال (عليه الصّلاة والسّلام): «لولا أنّ الشّياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السّموات» فثبت أنّ بين الصّوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة، فلمّا كان هذا الشّهر مختصّاً بنزول القرآن وجب أن يكون مختصّاً بالصّوم، وفي هذا الموضع أسرار كثيرة، والقدر الّذي أشرنا إليه كافٍ ها هنا.

ثمّ ها هنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾ في تفسيره قولان: القول الأوّل: - وهو اختيار الجمهور - أنّ الله تعالى أنزل القرآن في رمضان. عن النّبيّ ﷺ «نزل صُحف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عن الطّبَريّ، ثمّ قال:]

وها هنا سؤالات:

السّؤال الأوّل: أنّ القرآن ما نزل على محمّد ﷺ دفعةً، وإنّما نزل عليه في مدّة ثلاث وعشرين سنة منجّمًا مبعّضًا، وكما نزل بعضه في رمضان نزل بعضه في سائر الشّهور، فما معنى تخصيص إنزاله برمضان؟

والجواب عنه من وجهين: الأوّل: أنّ القرآن أُنزل في ليلة القدر جملةً إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل إلى الأرض نجومًا، وإنّما جرت الحال على هذا الوجه لما علمه تعالى من المصلحة على هذا الوجه، فإنّه لا يبعد أن يكون للملائكة الّذين هم سُكّان سماء الدّنيا مصلحة في إنزال ذلك إليهم. أو كان في المعلوم أنّ في ذلك مصلحة للرّسول ﷺ في توقّع الوحي من أقرب الجهات. أو كان فيه مصلحة لجبريل ﷺ؛ لأنّه كان هو المأمور بإنزاله وتأديته، أمّا الحكمة في إنزال القرآن على الرّسول منجّمًا مفرّقًا، فقد شرحناها في سورة الفرقان في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١].

---

١ ـ الفرقان / ٣١.

الجواب الثّاني: عن هذا السّؤال؛ أنّ المراد منه أنّه ابتدىء إنزاله ليلة القدر من شهر رمضان، وهو قول محمّد بن إسحاق، وذلك لأنّ مبادىء الملل والدّول هي الّتي يؤرّخ بها، لكونها أشرف الأوقات، ولأنّها أيضًا أوقات مضبوطة معلومة.

واعلم أنّ الجواب الأوّل لا يحتاج فيه إلى تحمّل شيء من المجاز، وها هنا يحتاج، فإنّه لابدّ على هذا الجواب من حمل القرآن على بعضِ أجزائه وأقسامه.

السّؤال الثّاني: كيف الجمع بين هذه الآية على هذا القول، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وبين قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[2]؟

والجواب: روي أنّ ابن عمر استدلّ بهذه الآية وبقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أنّ ليلة القدر لابدّ وأن تكون في رمضان، وذلك لأنّ ليلة القدر إذا كانت في رمضان كان إنزاله في ليلة القدر إنزالًا له في رمضان، وهذا كمن يقول: لقيت فلانًا في هذا الشّهر، فيقال له: في أيّ يوم منه، فيقول: يوم كذا. فيكون ذلك تفسيرًا للكلام الأوّل، فكذا ها هنا.

السّؤال الثّالث: أنّ القرآن على هذا القول يحتمل أن يقال: إنّ الله تعالى أنزل كلّ القرآن من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ أنزله إلى محمّد ﷺ منجّمًا إلى آخر عمره، ويحتمل أيضًا أن يقال: أنّه سبحانه كان ينزّل من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا من القرآن ما يعلم أنّ محمّداً ﷺ وأُمّته يحتاجون إليه في تلك السّنة، ثمّ ينزّله على الرّسول على قدر الحاجة، ثمّ كذلك أبدًا ما دام، فأيّهما أقرب إلى الصّواب؟

الجواب: كلاهما محتمل، وذلك لأنّ قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه الشّخص، وهو رمضان معيّن، وأن يكون المراد منه النّوع، وإذا كان كلّ واحد منهما محتملًا صالحًا وجب التّوقّف.

القول الثّاني: في تفسير قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾، قال سُفيان بن عُيَيْنَة ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ معناه أُنزل في فضله القرآن، وهذا اختيار الحسين بن الفضل.

قال ابن الأنباريّ: أُنزل في إيجاب صومه على الخلق القرآن، كما يقول: أنزل الله في

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الدّخان / ٣.

الزّكاة كذا وكذا، يريدون في إيجابها، وأنزل في الخمر كذا، يريد في تحريمها.

المسألة الثّانية:... [ثمّ ذكر معنى القرآن والاختلاف في اشتقاقه، بما لا حاجة إلى ذكره هنا].

المسألة الثّالثة: قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ أنّ التّنزيل مختصّ بالنّزول على سبيل التّدريج، والإنزال مختصّ بما يكون النّزول فيه دفعةً واحدةً، ولهذا قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالإِنْجِيلَ﴾[1]. إذا ثبت هذا، فنقول: لمّا كان المراد هنا من قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إنزاله من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، لا جرم ذكره بلفظ الإنزال دون التّنزيل، وهذا يدلّ على أنّ هذا القول راجح على سائر الأقوال. (٥:٩٢ـ٩٥)

﴿وَقُرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ...﴾ الإسراء / ١٠٥

وفيه مباحث:

البحث الأوّل: أنّ القوم قالوا: هب إنّ هذا القرآن معجز، إلّا أنّه بتقدير أن يكون الأمر كذلك، فكان من الواجب أن ينزّله الله عليك دفعةً واحدةً؛ ليظهر فيه وجه الإعجاز، فجعلوا إتيان الرّسول بهذا القرآن متفرّقًا شبهة في أنّه يتفكّر في فصل فصل ويقرأه على النّاس، فأجاب الله عنه بأنّه إنّما فرّقه ليكون حفظه أسهل، ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل.

البحث الثّاني: قال سعيد بن جُبَير: نزل القرآن كلّه ليلة القدر من السّماء العليا إلى السّماء السّفلى، ثمّ فُصِل في السّنين الّتي نزل فيها. قال قَتادة: كان بين أوّله وآخره عشرون سنة. والمعنى قطعناه آية آية وسورة سورة ولم ننزّله جملة. ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ بالفتح والضّمّ: على مُهل وتُؤَدَةٍ، أي لا على فورة. قال الفَرّاء: يقال: مَكَثَ

---

١ ـ آل عمران / ٣.

ومَكَثَ يَمْكُثُ، والفتح قراءة عاصم في قوله: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾[١]. (٢١: ٦٨)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾ طه / ١١٤

فيه مسائل؛

المسألة الأُولى: في تعلّقه بما قبله وجهان؛

الوجه الأوّل: قال أبو مسلم: إنّ من قوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾[٢] إلى ها هنا يتمّ الكلام وينقطع. ثمّ قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ﴾ خطاب مستأنف، فكأنّه قال: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ﴾.

الوجه الثّاني: روي أنّه ﷺ كان يخاف من أن يفوته منه شيء، فيقرأ مع الملك، فأمره بأن يسكت حال قراءة الملك، ثمّ يأخذ بعد فراغه في القراءة، فكأنّه تعالى شرح كيفيّة نفع القرآن للمكلّفين، وبيّن أنّه سبحانه متعالٍ عن كلّ ما لا ينبغي، وأنّه موصوف بالإحسان والرّحمة، ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السّهو والنّسيان في أمر الوحي، وإذ حصل الأمان عن السّهو والنّسيان قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ﴾.

المسألة الثّانية: قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ﴾، ويحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك، ويحتمل أن لا تعجل في تأديته إلى غيرك، ويحتمل في اعتقاد ظاهره، ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره.

وأمّا قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك تمامه، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى إليك بيانه؛ لأنّ هذين الأمرين، لا يمكن تحصيلهما إلّا بالوحي، ومعلوم أنّه ﷺ لا يُنهىٰ عن قراءته؛ لكي يحفظه ويؤدّيه. فالمراد إذن أن لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتّى يتبيّن بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعًا؛ لأنّه يجب التّوقّف في معنى الكلام ما لم يأتِ عليه الفراغ لمّا يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصّصات. فهذا هو التّحقيق

---

١ ـ النّمل / ٢٢.

٢ ـ طه / ١٠٥.

في تفسير الآية. ولنذكر أقوال المفسّرين؛

أحدها: أنّ هذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[1]، وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام، فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النّسيان، فقيل له: لا تعجل إلى أن يستتمّ وحيه، فيكون أخذك إيّاه عن تثبُّت وسكون، والله تعالى يزيدك فهمًا وعلمًا، وهذا قول مُقاتل والسُّدّيّ، ورواه عَطاء عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما).

وثانيها: ولا تعجل بالقرآن، فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحىٰ إليك بيان معانيه، وهذا قول مُجاهد وقَتادة.

وثالثها: قال الضَّحَّاك: إنّ أهل مكّة وأُسقف نَجْران قالوا: يا محمّد أخبرنا عن كذا وكذا، وقد ضربنا لك أجلًا ثلاثة أيّام، فأبطأ الوحي عليه، وفشت المقالة بأنّ اليهود قد غلبوا محمّدًا، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾، أي بنزوله ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ من اللّوح المحفوظ إلى إسرافيل، ومنه إلى جبريل، ومنه إليك، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

ورابعها: روى الحسن أنّ امرأة أتت النّبيّ صلّى الله عليه وآله فقالت زوجي لطم وجهي، فقال بينكما القصاص، فنزل قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾، فأمسك رسول‌الله صلّى الله عليه وآله عن القصاص حتّى نزل قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[2]. وهذا بعيد، والاعتماد على التّفصيل الأوّل.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فالمعنى أنّه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه في زيادة العلم الّتي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه.

المسألة الثّالثة: الاستعجال الّذي نُهي عنه إن كان فعله بالوحي فكيف نُهي عنه؟

الجواب: لعلّه فعله بالاجتهاد، وكان الأوْلى تركه، فلهذا نُهي عنه. (٢٢: ١٢١)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣١

---

١ ـ القيامة / ١٦.

٢ ـ النّساء / ٣٤.

إعلم أنّ هذا هو الشّبهة الخامسة لمنكري النّبوّة، وإنّ أهل مكّة قالوا: أتزعم أنّك رسول من عند الله، أفلا تأتينا بالقرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة جملة على موسى والإنجيل على عيسى والزّبور على داود.

وعن ابن جُريح: بين أوّله وآخره اثنتان أو ثلاث وعشرون سنة، وأجاب الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وبيان هذا الجواب من وجوه؛

أحدها: أنّه ﷺ لم يكن من أهل القراءة والكتابة، فلو نزل عليه ذلك جملةً واحدةً كان لا يضبطه، ولجاز عليه الغلط والسّهو، وإنّما نزلت التّوراة جملةً لأنّها مكتوبة يقرأها موسى.

ثانيها: أنّ من كان الكتاب عنده فربّما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ، فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعةً واحدةً، بل كان ينزّل عليه وظيفة؛ ليكون حفظه له أكمل، فيكون أبعد له عن المساهلة وقلّة التّحصيل.

ثالثها: أنّه تعالى لو أنزل الكتاب جملةً واحدةً على الخلق لنزلت الشّرائع بأسرها دفعةً واحدةً على الخلق، فكان يثقل عليهم ذلك، أمّا لمّا نزل مفرّقًا منجّمًا لا جرم نزلت التّكاليف قليلًا قليلًا، فكان تحمّلها أسهل.

رابعها: أنّه إذا شاهد جبريل حالًا بعد حال يقوىٰ قلبه بمشاهدته، فكان أقوىٰ على أداء ما حمّل، وعلى الصّبر على عوارض النّبوّة، وعلى احتماله أذيّة قومه، وعلى الجهاد.

خامسها: أنّه لمّا تمّ شرط الإعجاز فيه مع كونه منجّمًا ثبت كونه معجزًا، فإنّه لو كان ذلك في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجّمًا مفرّقًا.

سادسها: كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة لهم، فكانوا يزدادون بصيرة؛ لأنّ بسبب ذلك كان ينضمّ إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب.

سابعها: أنّ القرآن لمّا نزل منجّمًا مفرّقًا وهو ﷺ كان يتحدّاهم من أوّل الأمر. فكأنّه تحدّاهم بكلّ واحد من نجوم القرآن، فلمّا عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكلّ أولى، فبهذا الطّريق ثبت في فؤاده أنّ القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة.

ثامنها: أنّ السّفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم،

فيحتمل أن يقال: إنّه تعالى لو أنزل القرآن على محمّد ﷺ دفعةً واحدةً لبطل ذلك المنصب على جبريل ﷺ، فلمّا أنزله مفرّقًا منجّمًا بقى ذلك المنصب العالي عليه، فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفرّقًا منجّمًا.

أمّا قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ففيه وجهان: الأوّل: أنّه من تمام كلام المشركين، أي جملةً واحدةً، ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي كالتّوراة والإنجيل. وعلى هذا لا يحتاج إلى إضمار في الآية، وهو أن يقول: أنزلناه مفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. الثّاني: أنّه كلام الله تعالى ذكره جوابًا لهم، أي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أنزلناه مفرّقًا.

فإن قيل: ذلك في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يجب أن يكون إشارة إلى شيءٍ تقدّمَهُ، والّذي تقدّم فهو إنزاله جملةً، فكيف فسّر به كذلك أنزلناه مفرّقًا؟ قلنا: لأنّ قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ معناه لِمَ نزّل مفرّقًا؟.

فذلك إشارة إليه. (٢٤: ٧٨ ـ ٧٩)

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان / ١ - ٦

[وبعد أن استعرض بعض المسائل حول هذه الآية، عقّب قائلًا:]

المسألة الثّالثة: يجوز أن يكون المراد بالكتاب ها هنا الكتب المتقدّمة الّتي أنزلها الله على أنبيائه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾[١]. ويجوز أن يكون المراد اللّوح المحفوظ، كما قال: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٢]. وقال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾[٣]. ويجوز أن يكون المراد به القرآن، وبهذا التّقدير فقد أقسم بالقرآن على أنّه أنزَل القرآن في ليلة مباركة، وهذا النّوع من الكلام يدلّ على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرّجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه: أستشفع بك إليك وأقسم بحقّك عليك. [إلى أن قال:].

---

١ ـ الحديد / ٢٥.

٢ ـ الرّعد / ٣٩.

٣ ـ الزّخرف / ٤.

المسألة الخامسة: اختلفوا في هذه اللّيلة المباركة، فقال الأكثرون: إنّها ليلة القدر، وقال عِكرِمة وطائفة آخرون: إنّها ليلة البراءة، وهي ليلة النّصف من شعبان. أمّا الأوّلون فقد احتجّوا على صحّة قولهم بوجوه؛

أوّلها: أنّه تعالى قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وها هنا قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، فوجب أن تكون هذه اللّيلة المباركة هي تلك المسمّاة بليلة القدر؛ لئلّا يلزم التّناقض.

ثانيها: أنّه تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]، فبيّن أنّ إنزال القرآن إنّما وقع في شهر رمضان، وقال ها هنا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فوجب أن تكون هذه اللّيلة المباركة واقعة في شهر رمضان، وكلّ من قال: إنّ هذه اللّيلة المباركة واقعة في شهر رمضان، قال: إنّها ليلة القدر، فثبت أنّها ليلة القدر.

ثالثها: أنّه تعالى قال في صفة ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ﴾، وقال أيضًا ها هنا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وهذا مناسب لقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾، وها هنا قال: ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾، وقال في تلك الآية: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، وقال ها هنا: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، وقال في تلك الآية: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾. وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول بأنّ إحدى اللّيلتين هي الأُخرى.

رابعها: نقل محمّد بن جَرير الطَّبَريّ في تفسيره عن قَتادة أنّه قال: نزلت صُحُف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عنه].

خامسها: أنّ ليلة القدر إنّما سميّت بهذا الإسم، لأنّ قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم أنّه ليس قدرها وشرفها لسبب ذلك الزّمان؛ لأنّ الزّمان شيء واحد في الذّات والصّفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته. فثبت أنّ شرفه وقدره بسبب أنّه حصل فيه أُمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة، ومعلوم أنّ منصب الدّين أعلى وأعظم من منصب الدّنيا، وأعلى الأشياء وأشرفها منصبًا في الدّين هو القرآن؛ لأجل أنّ به

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

ثبتت نبوّة محمّدﷺ وبه ظهر الفرق بين الحقّ والباطل في سائر كتب الله المنزّلة، كما قال في صفته: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]. وبه ظهرت درجات أرباب السّعادات، ودركات أرباب الشّقاوات. فعلى هذا لا شيء إلّا والقرآن أعظم قدرًا وأعلى ذكرًا وأعظم منصبًا منه، فلو كان نزوله إنّما وقع في ليلة أُخرى سوى ليلة القدر، لكانت ليلة القدر هي هذه الثّانية لا الأُولى، وحيث أطبقوا على أنّ ليلة القدر هي الّتي وقعت في رمضان، علمنا أنّ القرآن إنّما أُنزل في تلك اللّيلة. وأمّا القائلون بأنّ المراد من اللّيلة المباركة المذكورة في هذه الآية، هي ليلة النّصف من شعبان، فما رأيت لهم فيه دليلًا يعوّل عليه، وإنّما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض النّاس، فإن صحّ عن رسول الله ﷺ فيه كلام فلا مزيد عليه. وإلّا فالحقّ هو الأوّل، ثمّ إنّ هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أنّ ليلة النّصف من شعبان لها أربعة أسماء: اللّيلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَّكّ، وليلة الرّحمة. وقيل: إنّما سمّيت بليلة البراءة، وليلة الصَّكّ، لأنّ البَنْدار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عزّوجلّ يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه اللّيلة ... [إلى أن قال:]

المسألة السّادسة: روي أنّ عَطيّة الحَروريّ، سأل ابن عبّاس ﷺ عن قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، كيف يصحّ ذلك مع أنّ الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشُّهور؟ فقال ابن عبّاس ﷺ: يابن الأسود، لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه لهلكت، نزل القرآن جملة من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السّماء الدّنيا، ثمّ نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالًا فحالًا، والله أعلم.

المسألة السّابعة: في بيان نظم هذه الآيات، اعلم: أنّ المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه؛ أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته، الثّاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الّذي نزل فيه، والثّالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزله.

أمّا بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه؛

أحدها: أنّه تعالى أقسم به وذلك يدلّ على شرفه.

---

١ ـ مائده / ٤٨.

وثانيها: أنّه تعالى أقسم به على كونه نازلاً في ليلة مباركة، وقد ذكرنا أنّ القسم بالشّيء على حالةٍ من أحوال نفسه يدلّ على كونه في غاية الشّرف.

وثالثها: أنّه تعالى وصفه بكونه مبيّنًا، وذلك يدلّ أيضًا على شرفه في ذاته.

وأمّا النّوع الثّاني[1]: وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الّذي أنزل فيه، فهو قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وهذا تنبيه على أنّ نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته، ثمّ نقول: إنّ قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يقتضي أمرين؛ أحدهما: أنّه تعالى أنزله، والثّاني: كون تلك اللّيلة مباركة، فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجري مجرى البيان لكلّ واحد منهما. أمّا بيان أنّه تعالى لِمَ أنزله فهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السّورة أنّ إنذار الخلق لا يتمّ إلّا به، وأمّا بيان أنّ هذه اللّيلة، ليلة مباركة فهو أمران؛ أحدهما: أنّه تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكِيمٍ﴾، والثّاني: أنّ ذلك الأمر الحكيم يكون مخصوصًا بشرف أنّه إنّما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمرًا مِنْ عِنْدِنَا﴾.

وأمّا النّوع الثّالث[2]: فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. فبيّن أنّ ذلك الإنذار والإرسال إنّما حصل من الله تعالى، ثمّ بيّن أنّ ذلك الإرسال إنّما كان لأجل تكميل الرّحمة، وهو قوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. وكان الواجب أن يقال: رحمة منّا، إلّا أنّه وضع الظّاهر موضع المضمر إيذانًا بأنّ الرّبوبيّة تقتضي الرّحمة على المربوبين، ثمّ بيّن أنّ تلك الرّحمة وقعت على وفق حاجات المحتاجين؛ لأنّه تعالى يسمع تضرّعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم، فلهذا قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. فهذا ما خطر بالبال في كيفيّة تعلّق بعض هذه الآيات ببعض.

المسألة الثّامنة: في تفسير مفردات هذه الألفاظ، أمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ فقد قيل فيه: إنّه تعالى أنزل كلّيّة القرآن من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في هذه اللّيلة، ثمّ أنزل في كلّ وقت ما يحتاج إليه المكلّف. وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللّوح... [وذكر كما تقدّم عن الزّمخشريّ]. (٢٧: ٢٣٧ ـ ٢٤٠)

---

١ و ٢ـ أي الوجه الثّاني والثّالث من المسألة السّابعة.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ٢٠.

فيه مسائل:

المسألة الأُولى: زعم قوم من قدماء الرّوافض أنّ هذا القرآن قد غيّر وبدّل وزيد فيه ونقص عنه[١]، واحتجّوا عليه بأنّه لا مناسبة بين هذه الآية وبين ما قبلها، ولو كان هذا التّرتيب من الله تعالى لما كان الأمر كذلك. واعلم أنّ في بيان المناسبة وجوهًا:

أوّلها: يحتمل أن يكون الاستعجال المنهيّ عنه إنّما اتّفق للرّسول ﷺ عند إنزال هذه الآيات عليه، فلا جرم نهى عن ذلك الاستعجال في هذا الوقت، وقيل له: ﴿لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَك لِتَعْجَلَ بِهِ﴾. وهذا كما أنّ المدرّس إذا كان يلقى على تلميذه شيئًا، فأخذ التّلميذ يلتفت يمينًا وشمالًا، فيقول المدرّس في أثناء ذلك الدّرس: لا تلتفت يمينًا وشمالًا، ثمّ يعود إلى الدّرس، فإذا نقل ذلك الدّرس مع هذا الكلام في أثنائه، فمن لم يعرف السّبب يقول: إنّ وقوع تلك الكلمة في أثناء ذلك الدّرس غير مناسب، لكن من عرف الواقعة علم أنّه حسن التّرتيب.

ثانيها: أنّه تعالى نقل عن الكفّار أنّهم يحبّون السّعادة العاجلة، وذلك هو قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾[٢]. ثمّ بيّن أنّ التّعجيل مذموم مطلقًا حتّى التّعجيل في أُمور الدّين، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، وقال في آخر الآية: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾.

ثالثها: أنّه تعالى قال: ﴿بَلِ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾[٣]، فها هنا كان الرّسول ﷺ يظهر التّعجيل في القرائة مع جبريل، وكان يجعل العذر فيه خوف النّسيان. فكأنّه قيل له: إنّك إذا أتيت بهذا العذر – لكنّك تعلم أنّ الحفظ لا يحصل إلّا بتوفيق الله وإعانته – فاترك هذا التّعجيل واعتمد على هداية الله تعالى، وهذا هو المراد من

---

١ ـ إنّ القول في نقص القرآن وتبديله يرجع إلى بعض فرق الشّيعة المنقرضة من الغلاة وإلى بعض الأخباريّين منهم، وأمّا دعوى الزّيادة فإنّها باطلة؛ إذلم يذهب إليها أحدٌ من الشّيعة، كما يأتي في باب عدم تحريف القرآن. (م)

٢ ـ القيامة /٥.

٣ ـ القيامة /١٤و١٥.

قوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾.

رابعها: كأنّه تعالى قال: يا محمّد إنّ غرضك من هذا التّعجيل أن تحفظه وتبلّغه إليهم، لكن لا حاجة إلى هذا، فإنّ ﴿ الاِنْسَان عَلٰى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، وهم بقلوبهم يعلمون أنّ الّذي هم عليه من الكفر وعبادة الأوثان، وإنكار البعث منكر باطل. فإذا كان غرضك من هذا التّعجيل أن تعرّفهم قبح ما هم عليه، ثمّ إنّ هذه المعرفة حاصلة عندهم، فحينئذٍ لم يبق لهذا التّعجيل فائدة، فلا جرم قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾.

خامسها: أنّه تعالى حكى عن الكافر أنّه يقول: ﴿اَيْنَ الْمَفَرُّ﴾، ثمّ قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۞ اِلٰى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾[1]، فالكافر كأنّه كان يفرّ من الله تعالى إلى غيره، فقيل لمحمّد: إنّك في طلب حفظ القرآن، تستعين بالتّكرار، وهذا استعانة منك بغير الله، فاترك هذه الطّريقة، واستعن في هذا الأمر باللّه. فكأنّه قيل: إنّ الكافر يفرّ من الله إلى غيره، وأمّا أنت فكن كالمضادّ له، فيجب أن تفرّ من غير الله إلى الله، وأن تستعين في كلّ الأمور باللّه، حتّى يحصل لك المقصود على ما قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾، وقال في سورة اخرى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰـى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[2]، أي لا تستعن في طلب الحفظ بالتّكرار بل أطلبه من الله تعالى.

سادسها: ما ذكره القفّال، وهو أنّ قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ ليس خطابًا مع الرّسولﷺ بل هو خطاب مع الإنسان المذكور في قوله: ﴿يُنَبَّـؤُا الاِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَاَخَّرَ﴾[3]، فكان ذلك للإنسان حال ما ينبأ بقبائح أفعاله، وذلك بأن يعرض عليه كتابه، فيقال له: ﴿اِقْرَاْ كِتَابَكَ كَفٰى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[4] فإذا أخذ في القراءة تلجلج لسانه من شدّة الخوف وسرعة القراءة، فيقال له:﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، فإنّه يجب علينا بحكم الوعد أو بحكم الحكمة أن نجمع أعمالك عليك، وأن نقرأها عليك، فإذا قرأناه

---

١ ـ القيامة/١٠ ـ ١٢.

٢ ـ طه/١١٤.

٣ ـ القيامة/١٣.

٤ ـ الإسراء/١٤.

عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ بالإقرار بأنّك فعلت تلك الأفعال، ثمّ إنّ علينا بيان أمره وشرح مراتب عقوبته. وحاصل الأمر من تفسير هذه الآية أنّ المراد منه أنّه تعالى يقرأ على الكافر جميع أعماله على سبيل التّفصيل، وفيه أشدّ الوعيد في الدّنيا وأشدّ التّهويل في الآخرة، ثمّ قال القفّال: فهذا وجه حسن ليس في العقل ما يدفعه وإن كانت الآثار غير واردة به.

المسألة الثّانية: احتجّ من جوّز الذّنب على الأنبياء: بهذه الآية، فقال: إنّ ذلك الاستعجال إن كان بإذن الله تعالى فكيف نهاه عنه، وإن كان لا بإذن الله تعالى فقد صدر الذّنب عنه.

الجواب: لعلّ ذلك الاستعجال كان مأذونًا فيه إلى وقت النّهي عنه، ولا يبعد أن يكون الشّيء مأذونًا فيه في وقت ثمّ يصير منهيًّا عنه في وقت آخر، ولهذا السّبب قلنا يجوز النّسخ.

المسألة الثّالثة: روى سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول‌الله ﷺ يشتدّ عليه حفظ التّنزيل، وكان إذا نزل عليه الوحي يحرّك لسانه وشفتيه قبل فراغ جبريل مخافة أن لا يحفظ، فأنزل تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾، أي بالوحي والتّنزيل والقرآن. وإنّما جاز هذا الإضمار وإن لم يجرِ له ذكر لدلالة الحال عليه، كما أضمر في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[2]، وقوله: ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، أي لتعجل بأخذه.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ القيامة / ١٧

فيه مسألتان؛

المسألة الأُولى: كلمة «عَلَى» للوجوب، فقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ يدلّ على أنّ ذلك كالواجب على الله تعالى: أمّا على مذهبنا فذلك الوجوب بحكم الوعد، وأمّا على قول

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ طه / ١١٤.

المعتزلة فلأنّ المقصود من البعثة لا يتمّ إلّا إذا كان الوحي محفوظًا مبرأً عن النّسيان، فكان ذلك واجبًا نظرًا إلى الحكمة.

المسألة الثّانية: قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ معناه علينا جمعه في صدرك وحفظك، وقوله: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ فيه وجهان؛

أحدهما: أنّ المراد من القرآن بقراءة، وعلى هذا التّقدير ففيه احتمالان؛ أحدهما: أن يكون المراد جبريل عليه السلام، سيعيده عليك حتّى تحفظه. والثّاني: أن يكون المراد إنّا سنقرئك يا محمّد إلى أن تصير بحيث لا تنساه، وهو المراد من قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾[1]، فعلى هذا الوجه الأوّل القارىء جبريل عليه السلام، وعلى الوجه الثّاني القارىء محمّد صلى الله عليه وسلم.

والوجه الثّاني: أن يكون المراد من القرآن الجمع والتّأليف، من قولهم: ما قَرَأَت النّاقةُ سَلًا قطّ، أي ما جمعت، وبنت عمرو بن كلثوم لم تَقرأ جنينًا، وقد ذكرنا ذلك عند تفسير «القرء».

فإن قيل: فعلى هذا الوجه يكون الجمع والقرآن واحدًا فيلزم التّكرار.

قلنا: يحتمل أن يكون المراد من الجمع جمعه في نفسه ووجوده الخارجي، ومن القرآن جمعه في ذهنه وحفظه، وحينئذٍ يندفع التّكرار.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] فيه مسألتان؛

المسألة الأُولى: جعل قراءة جبريل عليه السلام قراءته، وهذا يدلّ على الشّرف العظيم لجبريل عليه السلام، ونظيره في حقّ محمّد صلى الله عليه وسلم ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[3].

المسألة الثّانية: قال ابن عبّاس: معناه فإذا قرأه جبريل ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، وفيه وجهان؛ الأوّل: قال قَتادة: فاتّبع حلاله وحرامه، والثّاني: فاتّبع قراءته، أي لا ينبغي أن تكون قراءتك مقارنة لقراءة جبريل، لكن يحب أن تسكت حتّى يتمّ جبريل عليه السلام القراءة، فإذا سكت جبريل فخذ أنت في القراءة. وهذا الوجه أولى؛ لأنّه صلى الله عليه وسلم أمر أن يدع القراءة ويستمع

١ ـ الأعلى/٦.

٢ ـ القيامة/١٨.

٣ ـ النّساء / ٨٠.

من جبريل ﷺ، حتّى إذا فرغ جبريل قرأه، وليس هذا موضع الأمر باتّباع ما فيه من الحلال والحرام. قال ابن عبّاس: فكان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بعد هذه الآية أطرق واستمع، فإذا ذهب قرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ فيه مسألتان؛

المسألة الأُولى: الآية تدلّ على أنّه ﷺ كان يقرأ مع قراءة جبريل ﷺ، وكان يسأل في أثناء قراءته عن مشكلاته ومعانيه لغاية حرصه على العلم، فنهى النّبيّ ﷺ عن الأمرين جميعًا، أمّا عن القراءة مع قراءة جبريل فبقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، وأمّا عن إلقاء الأسئلة في البيان فبقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

المسألة الثّانية: احتجّ من جوّز تأخير البيان عن وقت الخطاب بهذه الآية. وأجاب أبو الحسين عنه من وجهين؛

الأوّل: أنّ ظاهر الآية يقتضي وجوب تأخير البيان عن وقت الخطاب، وأنتم لا تقولون به.

الثّاني: أنّ عندنا الواجب أن يقرن باللّفظ؛ إشعارًا بأنّه ليس المراد من اللّفظ ما يقتضيه ظاهره، فأمّا البيان التّفصيليّ فيجوز تأخيره، فتحمل الآية على تأخير البيان التّفصيليّ. وذكر القفّال وجهًا ثالثًا، وهو أنّ قوله ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي ثمّ إنّا نخبرك بأنّ علينا بيانه، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1].

والجواب عن الأوّل: أنّ اللّفظ لا يقتضي وجوب تأخير البيان بل يقتضي تأخير وجوب البيان، وعندنا الأمر كذلك؛ لأنّ وجوب البيان لا يتحقّق إلّا عند الحاجة. وعن الثّاني: أنّ كلمة (ثُمّ) دخلت مطلق البيان، فيتناول البيان المجمل والمفصّل، وأمّا سؤال القفّال فضعيف أيضًا؛ لأنّه ترك للظّاهر من غير دليل.

المسألة الثّالثة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ يدلّ على أنّ بيان المجمل واجب على الله تعالى، أمّا عندنا فبالوعد والتّفضّل، وأمّا عند المعتزلة فبالحكمة. (٣٠: ٢٢٢ ـ ٢٢٥)

---

١ ـ البلد / ١٣ – ١٧.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ...﴾ عبس / ١٢ - ١٣

اعلم أنّه تعالى وصف تلك التّذكرة بأمرين؛

الأوّل: قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، أي هذه تذكرة بيّنة ظاهرة؛ بحيث لو أرادوا فهمها والاتّعاظ بها والعمل بموجبها، لقدروا عليه.

والثّاني: قوله: ﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾، أي تلك التّذكرة معدّة في هذه الصُّحُف المكرّمة. والمراد من ذلك تعظيم حال القرآن والتّنويه بذكره، والمعنى أنّ هذه التّذكرة مثبتة في صُحُف، وفي المراد من الصُّحُف قولان.

[القول] الأوّل: أنّها صُحُف منتسخة من اللّوح مكرّمة عند الله تعالى مرفوعة في السّماء السّابعة، أو مرفوعة المقدار مطهّرة عن أيدي الشّياطين، أو المراد مطهّرة بسبب أنّها لا يمسّها إلّا المطهّرون وهم الملائكة.

ثمّ قال تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾، وفيه مسألتان؛

المسألة الأُولى: أنّ الله تعالى وصف الملائكة بثلاثة أنواع من الصّفات؛

أوّلها: أنّهم ﴿سَفَرَةٍ﴾، وفيه قولان؛

الأوّل: قال ابن عبّاس ومجاهد ومُقاتل وقَتادة: هم الكتبة من الملائكة: قال الزّجّاج: السّفرة: الكتبة، واحدها سافر، مثل كتبة وكاتب، وإنّما قيل للكتبة سفرة وللكاتب سافر، لأنّ معناه أنّه الّذي يبيّن الشّيء ويوضّحه، يقال: سفرت المرأة، إذا كشفت عن وجهها.

القول الثّاني: وهو اختيار الفَرّاء؛ أنّ السّفرة ها هنا هم الملائكة الّذين يسفرون بالوحي بين الله وبين رسله، واحدها سافر، والعرب تقول: سفرت بين القوم، إذا أصلحت بينهم فجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله وتأديته، كالسّفير الّذي يصلح به بين القوم، وأنشدوا:

وَمَا أَدَعُ السَّفارةَ بَينَ قَومي ... وما أمشي بغشّ إن مَشَـيتُ

واعلم أنّ أصل السّفارة من الكشف، والكاتب إنّما يسمّى سافرًا لأنّه يكشف، والسّفير إنّما سمّي سفيرًا أيضًا لأنّه يكشف، وهؤلاء الملائكة لمّا كانوا وسائط بين الله وبين البشر في البيان والهداية والعلم، لا جرم سمّوا سفرة.

الصّفة الثّانية: لهؤلاء الملائكة أنّهم ﴿كِرَامٍ﴾؛ قال مُقاتل: كرام على ربّهم، وقال عَطاء: يريد أنّهم يتكرّمون أن يكونوا مع ابن آدم إذا خلا مع زوجته للجماع وعند قضاء الحاجة.

الصّفة الثّالثة أنّهم ﴿بَرَرَةٍ﴾؛ قال مَقاتل: مطيعين، و﴿بَرَرَةٍ﴾ جمع بارّ، قال الفَرّاء: لا يقولون: فَعَلَة للجمع، إلّا والواحد منه فاعل، مثل كافر وكَفَرة، وفاجر وفَجَرة.

القول الثّاني: في تفسير الصُّحُف، أنّها هي صُحُف الأنبياء؛ لقوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولىٰ﴾[1] يعني أنّ هذه التّذكرة هذه مثبتة في صُحُف الأنبياء المتقدّمين، والسّفرة الكرام البررة هم أصحاب رسول‌الله ﷺ، وقيل: هم القُرّاء.

المسألة الثّانية: قوله تعالى: ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ يقتضي أنّ طهارة تلك الصُّحُف إنّما حصلت بأيدي هؤلاء السّفرة، فقال القَفّال في تقريره: لمّا كان لا يمسّها إلّا الملائكة المطهّرون، أُضيف التّطهير إليها لطهارة من يمسّها. (٣١: ٥٨ ـ ٥٩)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ...﴾ الأعلى / ٦

إعلم أنّه تعالى لمّا أمر محمّدًا بالتّسبيح، فقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ﴾[2]، وعلّم محمّدًا ﷺ أنّ ذلك التّسبيح لا يتمّ ولا يكمل إلّا بقراءة ما أنزله الله تعالى عليه من القرآن؛ لما بيّنّا أنّ التّسبيح الّذي يليق به هو الّذي يرتضيه لنفسه، فلا جرم كان يتذكّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى، فأزال الله تعالى ذلك الخوف عن قلبه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾. وفيه مسائل؛

المسألة الأُولى: قال الواحديّ: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي سنجعلك قارئًا بأن نلهمك القراءة فلا تنسى ما تقرأه، والمعنى نجعلك قارئًا للقرآن تقرأه فلا تنساه. قال مُجاهد ومُقاتل والكَلْبيّ: كان ﷺ إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى، وكان جبريل لا يفرغ من آخر الوحي حتّى يتكلّم هو بأوّله مخافة النّسيان، فقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾، أي سنعلّمك هذا القرآن حتّى تحفظه، ونظيره قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرآنِ مِنْ قَبْلِ

---

١ ـ الأعلى /١٨.

٢ ـ الأعلى /١.

اَنْ يُقْضـٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[١]، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[٢]، ثمّ ذكروا في كيفيّة ذٰلك الاستقراء والتّعليم وجوهًا؛

أحدها: أنّ جبريل عليه السلام سيقرأ عليك القرآن مرّات حتّى تحفظه حفظًا لا تنساه.

وثانيها: أنّا نشرح صدرك ونقوّي خاطرك حتّى تحفظ بـالمرّة الواحـدة حـفظًا لا تنساه.

وثالثها: أنّه تعالى لمّا أمره في أوّل السّورة بالتّسبيح فكأنّه تعالى قال: واظِبْ على ذلك ودُمْ عليه، فإنّا سنقرئك القرآن الجامع لعلوم الأوّلين والآخرين ويكون فيه ذكرك وذكر قومك ونجمعه في قلبك، ونيسّرك لليُسرى والعمل به.

المسألة الثّانية: هذه الآية تدلّ على المعجزة من وجهين؛ الأوّل: أنّه كان رجلاً أُمّيًّا، فحفظه لهذا الكتاب المطوّل من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة خارق للـعادة، فـيكون معجزًا. الثّاني: أنّ هذه السّورة من أوائل ما نزل بمكّة، فهذا إخبار عن أمر عجيب غريب مخالف للعادة، سيقع في المستقبل، وقد وقع، فكان هذا إخبارًا عن الغيب فيكون معجزًا.

أمّا قوله: ﴿فَلَا تَنْسىٰ﴾ فقال بعضهم: ﴿فَلَا تَنْسىٰ﴾ معناه النّهي، والألف مزيدة للـفاصلة، كقوله: ﴿السَّبِيلَا﴾[٣] يعني فلا تغفل قراءته وتكريره فتنساه إلّا ما شـاء الله أن يـنسيكه. والقول المشهور أنّ هذا خبر، والمعنى سنقرئك إلى أن تصير بـحيث لا تـنسىٰ وتأمـن النّسيان، كقولك: سأكسوك فلا تعرىٰ، أي فتأمن العري. واحتجّ أصحاب هذا القول على ضعف القول الأوّل بأنّ ذلك القول لا يتمّ إلّا عند التزام مجازات في هذه الآية.

منها: أنّ النّسيان لا يقدر عليه إلّا اللّٰه تعالى، فلا يصحّ ورود الأمر والنّهي به، فلابدّ وأن يحمل ذلك على المواظبة على الأشياء الّتي تنافي النّسيان مثل الدّراسة وكثرة التّذكّر. وكلّ ذلك عدول عن ظاهر اللّفظ.

ومنها: أن تجعل الألف مزيدة للفاصلة، وهو أيضًا خلاف الأصل.

---

١ ـ طه / ١١٤.

٢ ـ القيامة / ١٦.

٣ ـ الأحزاب/٦٧.

ومنها: أنّا إذا جعلناه خبرًا كان معنى الآية بشارة الله إيّاه بأنّي أجعلك بحيث لا تنساه، وإذا جعلناه نهيًا كان معناه أنّ الله أمره بأن يواظب على الأسباب المانعة من النّسيان، وهي الدّراسة والقراءة، وهذا ليس في البشارة وتعظيم حاله مثل الأوّل، ولأنّه على خلاف قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾.

أمّا قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ففيه احتمالان؛

أحدهما: أن يقال: هذا الاستثناء غير حاصلٍ في الحقيقة وأنّه ﷺ لم ينسَ بعد ذلك شيئًا، قال الكَلْبيّ: إنّه ﷺ لم ينسَ بعد نزول هذه الآية شيئًا. وعلى هذا التّقدير يكون الغرض من قوله: ﴿إِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ﴾ أحد أمور؛

أحدها: التّبرّك بذكر هذه الكلمة على ما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1].

وكأنّه تعالى يقول: أنا مع أنّي عالم بجميع المعلومات وعالم بعواقب الأُمور على التّفصيل لا أخبر عن وقوع شيءٍ في المستقبل إلّا مع هذه الكلمة، فأنت وأُمّتك يا محمّد أولى بها.

وثانيها: قال الفَرّاء: إنّه تعالى ما شاء أن ينسىٰ محمّد ﷺ شيئًا، إلّا أنّ المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنّه تعالى لو أراد أن يصير ناسيًا لذلك لقدر عليه، كما قال: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[2]. ثمّ إنّا نقطع بأنّه تعالى ما شاء ذلك، وقال لمحمّدٍ ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[3]، مع أنّه ﷺ ما أشرك البتّة. وبالجملة ففائدة هذا الاستثناء أنّ الله تعالى يعرّفه قدرة ربّه حتّى يعلم أنّ عدم النّسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوّته.

وثالثها: أنّه تعالى لمّا ذكر هذا الاستثناء جوّز رسول الله ﷺ في كلّ ما ينزّل عليه من الوحي قليلًا كان أو كثيراً أن يكون ذلك هو المستثنى، فلا جرم كان يبالغ في التّثبّت والتّحفّظ والتّيقّظ في جميع المواضع، فكان المقصود من ذكر هذا الاستثناء بقاءه ﷺ على

---

١ ـ الكهف / ٢٣.

٢ ـ الإسراء / ٨٦.

٣ ـ الزّمر / ٦٥.

التّيقّظ في جميع الأحوال.

ورابعها: أن يكون الغرض من قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ نفي النّسيان رأساً، كما يقول الرّجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلّا فيما شاء الله، ولا يقصد استثناء شيء. ثانيهما: أنّ قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء في الحقيقة. وعلى هذا التّقدير تحتمل الآية وجوهًا؛

أحدها: قال الزّجّاج. إلّا ما شاء الله أن ينسىٰ، فإنّه ينسىٰ ثمّ يتذكّر بعد ذلك، فإذاً قد ينسىٰ، ولكنّه يتذكّر فلا ينسىٰ نسيانًا كلّيًّا دائمًا. روي أنّه أسقط آية في قراءته في الصّلاة، فحسب أُبيّ أنّها نسخت، فسأله، فقال: «نسيتها».

وثانيها: قال مُقاتِل: إلّا ما شاء الله أن ينسيه، ويكون المراد من الإنساء ها هنا نسخه، كما قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَةٍ اَوْ نُنْسِهَا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[1]، فيكون المعنى إلّا ما شاء الله أن تنساه على الأوقات كلّها، فيأمرك أن لا تقرأه ولا تصلّى به، فيصير ذلك سبباً لنسيانه. وزواله عن الصّدور.

وثالثها: أن يكون معنى قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ القلّة والنّدرة، ويشترط أن لا يكون ذلك القليل من واجبات الشّرع، بل من الآداب والسّنن، فإنّه لو نسي شيئاً من الواجبات ولم يتذكّره أدّىٰ ذلك إلى الخلل في الشّرع، وإنّه غير جائز.

أمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفٰى﴾[2] ففيه وجهان؛

أحدهما: أنّ المعنى أنّه سبحانه عالم بجهرك في القراءة مع قراءة جبريل عليه السلام، وعالم بالسّر الّذي في قلبك، وهو أنّك تخاف النّسيان. فلا تخف فأنا أكفيك مّا تخافه.

والثّاني: أن يكون المعنى فلا تنسىٰ إلّا ما شاء الله أن ينسخ، فإنّه أعلم بمصالح العبيد، فينسخ؛ حيث يعلم أنّ المصلحة في النّسخ.

أمّا قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرٰى﴾[3] ففيه مسائل؛

المسألة الأُولى: «اليُسرىٰ» هي أعمال الخير الّتي تؤدّي إلى اليسر، إذا عرفت هذا

---

١ ـ البقرة / ١٠٦.

٢ ـ الأعلى /٧.

٣ ـ الأعلى /٨.

المسألة الأُولى: «اليُسرىٰ» هي أعمال الخير الّتي تؤدّي إلى اليسر، إذا عرفت هذا فنقول: للمفسّرين فيه وجوه؛

أحدها: أنّ قوله: ﴿ونُيَسِّرُكَ﴾ معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ اعتراض، والتّقدير سنقرؤك فلا تنسىٰ، ونوّفقك للطّريقة الّتي هي أسهل وأيسر، يعني في حفظ القرآن.

وثانيها: قال ابن مسعود: اليُسرىٰ: الجنّة، والمعنى نيسّرك للعمل المؤدّي إليها.

وثالثها: نهوّن عليك الوحي حتّى تحفظه وتعلمه وتعمل به.

ورابعها: نوفّقك للشّريعة، وهي الحنيفيّة السّهلة السّمحة، والوجه الأوّل أقرب.

المسألة الثّانية: لسائل أن يسأل فيقول: العبارة المعتادة أن يقال: جعل الفعل الفلانيّ ميسّرًا لفلان، ولا يقال: جعل فلان ميسّرًا للفعل الفلانيّ، فما الفائدة فيه ها هنا؟

الجواب: أنّ هذه العبارة كما أنّها اختيار القرآن في هذا الموضع، وفي سورة اللّيل أيضاً، فكذا هي اختيار الرّسول في قوله ﷺ: «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له» وفيه لطيفة علميّة، وذلك لأنّ ذلك الفعل في نفسه ماهيّة ممكنة قابلة للوجود والعدم على السّويّة، فما دام القادر يبقى بالنّسبة إلى فعلها وتركها على السّويّة امتنع صدور الفعل عنه، فإذا ترجّح جانب الفاعليّة على جانب التّاركيّة، فحينئذٍ يحصل الفعل، فثبت أنّ الفعل ما لم يجب لم يوجد، وذلك الرّجحان هو المسمّى بالتّيسير، فثبت أنّ الأمر بالتّحقيق هو أنّ الفاعل يصير ميسّراً للفعل، لا أنّ الفعل يصير ميسّراً للفاعل، فسبحان من له تحت كلّ كلمة حكمة خفيّة وسرّ عجيب يبهر العقول.

المسألة الثّالثة: إنّما قال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ﴾ بنون التّعظيم لتكون عظمة المعطي دالّة على عظمة العطاء نظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾[1]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[2]، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[3]. دلّت هذه الآية على أنّه سبحانه فتح عليه من أبواب التّيسير والتّسهيل ما لم

---

١ ـ القدر/١.

٢ ـ الحجر / ٩.

٣ ـ الكوثر / ١.

تعالى جعله في أفعاله وأقواله قدوة للعالمين، وهادياً للخلق أجمعين. (٣١ / ١٤١ ـ ١٤٤)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ القدر / ١

وفيه مسائل؛

المسألة الأُولى: أجمع المفسّرون على أنّ المراد إنّا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، ولكنّه تعالى ترك التّصريح بالذّكر؛ لأنّ هذا التّركيب يدلّ على عظم القرآن من ثلاثة أوجه؛

أحدها: أنّه أسند إنزاله إليه وجعله مختصّاً به دون غيره.

والثّاني: أنّه جاء بضميره دون اسمه الظّاهر، شهادة له بالنّباهة والاستغناء عن التّصريح، ألا ترى أنّه في السّورة المتقدّمة لم يذكر اسم أبي جهل ولم يخفِ على أحد لاشتهاره، وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾[1] لم يذكر الموت لشهرته، فكذا ها هنا.

والثّالث: تعظيم الوقت الّذي أُنزل فيه.

المسألة الثّانية: أنّه تعالى قال في بعض المواضع: (إِنِّى)، كقوله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، وفي بعض المواضع ﴿إِنَّا﴾، كقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾[3]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾[4]، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[5]، واعلم أنّ قوله: ﴿إِنَّا﴾ تارةً يراد به التّعظيم، وحمله على الجمع محال؛ لأنّ الدّلائل دلّت على وحدة الصّانع، ولأنّه لو كان كلّ في الآلهة كثرة لانحطّت رتبة كلّ واحد منهم عن الإلهيّة؛ لأنّه لو كان كلّ واحدٍ منهم قادرًا على الكمال لاستغنى بكلّ واحد منهم عن كلّ واحد منهم، وكونه مستغنى عنه نقص في حقّه فيكون الكلّ ناقصًا، وإن لم يكن كلّ واحد منهم قادرًا على الكمال كان ناقصًا، فعلمنا أنّ قوله: ﴿إِنَّا﴾ محمول على التّعظيم لا على الجمع.

المسألة الثّالثة: إن قيل: ما معنى أنّه أُنزل في ليلة القدر، مع العلم بأنّه أُنزل نجومًا؟

---

١ ـ الواقعة / ٨٣.

٢ ـ البقرة / ٣٠.

٣ ـ الحُجر / ٩.

٤ ـ نوح / ١.

٥ ـ الكوثر / ١.

قلنا فيه وجوه؛

أحدها: قال الشّعبيّ: ابتدأ بإنزاله ليلة القدر؛ لأنّ البعث كان في رمضان.

والثّاني: قال ابن عبّاس: أُنزل إلى سماء الدّنيا جملة ليلة القدر، ثمّ إلى الأرض نجومًا، كما قال ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [١]، وقد ذكرنا هذه المسألة في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [٢]. لا يقال: فعلى هذا القول لِمَ لم يقل. أنزلناه إلى السّماء؟ لأنّ إطلاقه يوهم الإنزال إلى الأرض؛ لأنّا نقول: إنّ إنزاله إلى السّماء كإنزاله إلى الأرض، لأنّه لم يكن ليشرع في أمر ثمّ لا يتمّه، وهو كغائب جاء إلى نواحي البلد يقال: جاء فلان، أو يقال: الغرض من تقريبه وإنزاله إلى سماء الدّنيا أن يشوّقهم إلى نزوله، كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لوالده أو أُمّه، فإنّه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال:

وَأَبرحُ ما يَكونُ الشَّوقُ يومًا ... إذا دَنَت الدِّيار مـن الدِّيـارِ

وهذا لأنّ السّماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة، فهي لهم مسكن ولنا سقف وزينة، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ [٣]، فإنزاله القرآن هناك كإنزاله ها هنا.

والوجه الثّالث في الجواب: أنّ التّقدير أنزلنا هذا الذّكر ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، أي في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها.

المسألة الرّابعة: القدر: مصدر قدرت أقدر قدرًا، والمراد به ما يمضيه الله من الأُمور؛ قال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [٤] والقَدَر، والقَدْر واحد، إلّا أنّه بالتّسكين مصدر وبالفتح اسم؛ قال الواحديّ: القَدَر في اللّغة بمعنى التّقدير، وهو جعل الشّيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان.

واختلفوا في أنّه لِم سُمّيت هذه اللّيلة ليلة القدر، على وجوه؛

أحدها: أنّها ليلة تقدير الأُمور والأحكام، قال عَطاء، عن ابن عبّاس: إنّ الله قدّر ما

---

١ ـ الواقعة / ٧٥.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الأنبياء / ٣٢.

٤ ـ القمر/٤٩.

يكون في تلك السّنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه اللّيلة من السّنة الآتية، ونظيره قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١]. واعلم أنّ تقدير الله لا يحدث في تلك اللّيلة، فإنّه تعالى قدّر المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض في الأزل، بل المراد إظهار تلك المقادير للملائكة في تلك اللّيلة بأن يكتبها في اللّوح المحفوظ، وهذا القول اختيار عامّة العلماء.

الثّاني: نقل عن الزُّهريّ أنّه قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾: ليلة العظمة والشّرف، من قولهم: لفلان قَدْر عند فلان، أي منزلة وشرف، ويدلّ عليه قوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[٢]. ثمّ هذا يحتمل وجهين؛

أحدهما: أن يرجع ذلك إلى الفاعل، أي من أتى فيها بالطّاعَات صار ذا قدر وشرف.

وثانيهما: إلى الفعل، أي الطّاعات لها في تلك اللّيلة قدر زائد وشرف زائد، وعن أبي بكر الورّاق سُمّيت (ليلة القدر) لأنّه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان ملك ذي قدر، على أُمّة لها قدر، ولعلّ الله تعالى إنّما ذكر لفظة القدر في هذه السّورة ثلاث مرّات لهذا السّبب ... [إلى أن قال:]

المسألة السّابعة: هذه اللّيلة هل هي باقية؟ قال الخليل: من قال: إنّ فضلها لنزول القرآن فيها، يقول: انقطعت وكانت مرّةً، والجمهور على أنّها باقية. وعلى هذا هل هي مختصّة برمضان أم لا؟ روي عن ابن مسعود أنّه قال: من يقم الحول يُصِبها. وفسّرها عِكرِمة بليلة البراءة في قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٣]، والجمهور على أنّها مختصّة برمضان، واحتجّوا عليه بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٤]، وقاله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٥]. فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان؛ لئلّا يلزم التّناقض، وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية أقوال؛ فقال ابن رَزِين: ليلة القدر هي اللّيلة

---

١ ـ الدّخان / ٣

٢ ـ القدر/٣.

٣ ـ الدّخان/٣.

٤ ـ البقرة/١٨٥.

٥ ـ القدر/١.

الأُولى من رمضان، وقال الحسن البَصْريّ: السّابعة عشرة، وعن أنس مرفوعًا: التّاسعة عشرة، وقال محمّد بن إسحاق: الحادية والعشرون، وعن ابن عبّاس: الثّالثة والعشرون، وقال ابن مسعود: الرّابعة والعشرون، وقال أبوذر الغِفَاريّ: الخامسة والعشرون، وقال أُبيّ بن كعب وجماعة من الصّحابة: السّابعة والعشرون، وقال بعضهم: التّاسعة والعشرون.

أمّا الّذين قالوا: إنّها اللّيلة الأُولى فقد قالوا: روىٰ وَهْب أنّ صُحُف إبراهيم أُنزلت في اللّيلة الأُولى من رمضان، والتّوراة لستّ ليال مضين من رمضان بعد صُحُف إبراهيم بسبعمائة سنة، وأُنزل الزّبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التّوراة بخمسمائة عام، وأُنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزّبور بستّمائة عام وعشرين عامًا، وكان القرآن يُنزل على النّبيّ ﷺ في كلّ ليلة قدر من السّنة إلى السّنة، كان جبريل ﷺ ينزل به من بيت العزّة من السّماء السّابعة إلى سماء الدّنيا، فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهرًا في عشرين سنة، فلمّا كان هذا الشّهر هو الشّهر الّذي حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة. لاجرم كان في غاية الشّرف والقدر والرّتبة، فكانت اللّيلة الأُولى منه ليلة القدر. وأمّا الحسن البَصْريّ فإنّه قال: هي ليلة سبعة عشر؛ لأنّها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر، وأمّا التّاسعة عشرة فقد روىٰ أنس فيها خبرًا، وأمّا اللّيلة الحادية والعشرون فقد مال الشّافعيّ إليه لحديث الماء والطّين، والّذي عليه المعظم أنّها ليلة السّابع والعشرين.

وذكروا فيه أمارات ضعيفة؛ أحدها: حديث ابن عبّاس: أنّ السّورة ثلاثون كلمة، وقوله: (هِيَ) هي السّابعة والعشرون منها.

وثانيها: روي أنّ عمر سأل الصّحابة، ثمّ قال لابن عبّاس: غُص يا غوّاص، فقال زيد ابن ثابت: أحضرت أولاد المهاجرين وما أحضرت أولادنا. فقال عمر: لعلّك تقول: إنّ هذا غلام، ولكن عنده ماليس عندكم، فقال ابن عبّاس: أحبّ الأعداد إلى الله تعالى الوتر، وأحبّ الوتر إليه السّبعة. فذكر السّماوات السّبع والأرضين السّبع والأُسبوع ودركات النّار وعدد الطّواف والأعضاء السّبعة. فدلّ على أنّها السّابعة والعشرون.

وثالثها: نقل أيضًا عن ابن عبّاس، أنّه قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ تسعة أحرف، وهو مذكور

ثلاث مرّات ، فتكون السّابعة والعشرين.

ورابعها: أنّه كان لعُثمان بن أبي العاص غلام، فقال: يا مولاى إنّ البحر يَعذُب ماؤه ليلة من الشّهر ، قال: إذا كانت تلك اللّيلة، فأعلمني فإذا هي السّابعة والعشرون من رمضان. وأمّا من قال: إنّها اللّيلة الأخيرة، قال: لأنّها هي اللّيلة الّتي تنمو فيها طاعات هذا الشّهر، بل أوّل رمضان كآدم وآخره كمحمّد، ولذلك روي في الحديث، يعتق في آخر رمضان بعدد ما عتق من أوّل الشّهر، بل اللّيلة الأُولى كمن وُلد له ذكر، فهي ليلة شكر، والأخيرة ليلة الفراق. كمن مات له وَلَد، فهي ليلة صبر، وقد علمت فرق ما بين الصّبر والشّكر.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَا اَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ يعني ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهىٰ علوّ قدرها ...(٣٢: ٢٧ ـ ٣٠)

الفصل الخامس عشر

نصُّ أبي شامَة (م: ٦٦٥ هـ) في تفسيره: «المرشد الوجيز»

في البيان عن كيفيّة نزول القرآن ...

قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْانُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٢]، وقال جلّت قدرته: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣]. فليلة القدر هي اللّيلة المباركة، وهي في شهر رمضان جمعًا بين هؤلاء الآيات؛ إذ لا منافاة بينها، فقد دلّت الأحاديث الصّحيحة على أنّ ليلة القدر في شهر رمضان، وأمر النّبيّ ﷺ بالتماسها في العشرة الأخيرة[٤] منه؛ ولا ليلة أبرك من ليلةٍ، هي خير من ألف شهر. فتعيّن حمل قوله سبحانه: ﴿فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ على ليلة القدر. كيف وقد أرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[٥]، فهو موافق لمعنى تسميتها بليلة القدر؛ لأنّ معناه التّقدير، فإذا ثبت هذا، علمت أنّه قد أبعد من قال: اللّيلة المباركة هي ليلة النّصف من شعبان، وأنّ قوله

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الدّخان / ٣.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ صحيح البُخاريّ ٢: ٢٥٤؛ وسُنن أبي داود ٢: ٧٠ – ٧٢.

٥ ـ الدّخان / ٤.

تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1] معناه أُنزل في شأنه وفضل صيامه وبيان أحكامه، وأنّ ليلة القدر توجد في جميع السّنة لا تختصّ بشهر رمضان، بل هي منتقلة في الشُّهور على ممرّ السّنين، واتّفق أن وافقت زمن إنزال القرآن ليلة النّصف من شعبان.

وإبطال هذا القول متحقّق بالأحاديث الصّحيحة الواردة في بيان ليلة القدر وصفاتها وأحكامها على ما سنقرّره إن شاء الله تعالى في المسائل الفقهيّة بين كتابي الصّيام والاعتكاف.

وبما اخترناه من القول في الجمع بين الآيات الثّلاث، ورد الخبر عن ابن عبّاس ﷺ، وهو ابن عمّ رسول‌الله ﷺ المشهود له بأنّه حِبْر الأُمّة وترجمان القرآن.

أخرج الحافظ أبو بكر البَيْهقيّ في «كتاب الأسماء والصّفات»، من حديث السُّدّيّ، عن محمّد بن أبي المُجالد، عن مِقْسَم، عن ابن عبّاس ﷺ، قال: سأله عَطِيّة بن الأسود... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

قلت: رَسَلًا، أي رِفَقًا، وقوله: على مواقع النّجوم، أي على مثل مواقع النّجوم، ومواقعها: مساقطها. يريد أُنزل مفرّقًا يتلو بعضه بعضًا على تُؤَدَةٍ ورِفقٍ، فقوله: على مواقع النّجوم في موضع نصب على الحال، ورَسَلًا، أي ذا رَسَل، يريد مفرّقًا رافقًا.

ودلّ أيضًا على أنّ إنزال القرآن كان في شهر رمضان رواية قَتادة، عن أبي المُلَيح، عن واثِلَة بن الأسقع... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

هكذا أخرجه البَيْهَقيّ في كتاب «الأسماء والصّفات»[2] و «شُعَب الإيمان»[3] له، وذكره أيضًا الثَّعْلَبيّ في تفسيره[4] وغيره.

ووقع في «تفسير الماوَرْديّ»[5] وغيره: وأُنزل الزّبور لثِنْتي عشرة والإنجيل لثماني

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الأسماء والصّفات: ٢٣٤.

٣ ـ شعب الإيمان ١: ٣٧٠.

٤ ـ انظر: تفسير الثّعلبيّ ١: ١١٢.

٥ ـ تفسير الماوَرْديّ ١: ٨٥.

عشرة[١]، وكذلك هو في كتاب أبي عُبَيد.

وفي بعض التّفاسير عكس هذا: الإنجيل لثنتي عشرة والزّبور لثماني عشرة، واتّفقوا على أنّ صُحف إبراهيم عليه السلام لأوّل ليلة، والتّوراة لستّ مضين، والقرآن لأربع وعشرين خلت. قال أبو عبدالله الحَليميّ: يريد ليلة خمس وعشرين[٢].

وذكر أبو بكر ابن أبي شَيْبَة – وهو أحد شيوخ مُسلم – في «كتاب ثواب القرآن»[٣] عن أبي قِلابة، قال: أُنزلت الكُتُب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان. وعنه: أُنزلت التّوراة لستّ، والزّبور لثنتي عشرة، وفي رواية أُخرى: الزّبور في ستّ، يعني من رمضان[٤].

قال البَيْهَقيّ في معنى قوله: أُنزل القرآن لأربع وعشرين، إنّما أراد – والله أعلم – نزول الملك بالقرآن من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا[٥]. وقال في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٦]: يريد – والله أعلم – إنّا أسمعناه الملك وأفهمناه إيّاه وأنزلناه بما سمع، فيكون الملك منتقلًا به من عُلُوّ إلى سُفُل[٧].

قلت: هذا المعنى مطّرد في جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن أو إلى شيء منه، يحتاج إلى نحو هذا التّأويل أهل السّنّة المعتقدون قدم القرآن، وأنّه صفة قائمة بذات الله تعالى. وفي المقصود بالإنزال الخاصّ المضاف إلى ليلة القدر أقوال:

أحدها: أنّه ابتدىء إنزاله فيها.

والثّاني: أنّه أُنزل فيها جملةً واحدةً.

والثّالث: أنّه أُنزل في عشرين ليلة من عشرين سنة.

فنذكر ما حضرنا من الآثار في ذلك ومن أقوال المفسّرين.

---

١ ـ الّذي في تفسير الماوَرْديّ ١: ٦٢ هو «وأُنزل الإنجيل لثلاث عشرة» والله أعلم.

٢ ـ في كتابه المنهاج ٢: ١٠٣.

٣ ـ ثواب القرآن هو باب من أبواب مصنّف ابن أبي شَيْبة، وليس كتابًا مستقلاًّ كما يفهم من المتن.

٤ ـ المصنّف ٢: ١٦٢.

٥ ـ الأسماء والصّفات: ٢٣٤.

٦ ـ القدر / ١.

٧ ـ الأسماء والصّفات: ٢٢٩.

قال الإمام أبو عُبَيد القاسم بن سَلّام في كتاب «فضائل القرآن»: حدّثنا يزيد – يعني ابن هارون – عن داود بن أبي هند، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

أخرجه الحاكم أبو عبدالله في كتاب «المستدرك على الصّحيحين»، وقال في آخر: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ورواه عبد الأعلى، عن داود، وقال: فكان الله إذا أراد أن يوحي منه شيئًا أوحاه أو يُحدث في الأرض منه شيئًا أحدثه[1].

قال أبو عُبَيد: لا أدري كيف قرأه يزيد في حديثه، إلّا أنّه لا ينبغي أن يكون على هذا التّفسير إلّا «فرَّقناهُ» بالتّشديد.

قال أبو نصر ابن القُشَيْريّ في تفسيره: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي فصّلناه[2].

قال ابن جُبَير: نزل القرآن كلّه من السّماء العُليا إلى السّماء السُّفلى، ثمّ فُصِّل في السّماء السُّفلى في السّنين الّتي نزل فيها.

قال قَتادة: كان بين أوّله وآخره عشرون سنة، ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[3].

وقيل: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي جعلناه آية آية وسورة سورة، وقيل: فصّلناه أحكامًا، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[4]، أي يفصل. وقيل: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ بالتّشديد، أي أنزلناه مفرّقًا؛ ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تُؤَدَةٍ وترسُّلٍ، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، أي نجمًا بعد نجم. وقيل: جعلناه منازل ومراتب ينزل شيئًا بعد شيءٍ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

وأسند الحاكم أبو عبدالله في كتابه: «المستدرك» من حديث ابن أبي شَيْبة، حدّثنا

---

١ ـ الأسماء والصّفات: ٢٣٥.

٢ ـ تفسير القُشَيْريّ: ٣٤٠.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

٤ ـ الدّخان / ٤.

جَرير، عن منصور، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ...﴾[١]. [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ]. وأسنده البَيْهَقيّ في دلائله[٢] والواحِديّ في تفسيره.

وأسند البَيْهَقيّ في «كتاب الشُّعَب»، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

قلت: هو من قولهم: نَجَم عليه الدّية، أي قَطَّعَها، ومنه نجوم الكتابة، فلمّا قطّع الله سبحانه القرآن وأنزله مفرّقًا قيل لتفاريقه: نجوم ومواقعها: مساقطها، وهي أوقات نزولها، وقد قيل: إنّ المراد ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ مغارب نجوم السّماء، والله أعلم.

وقوله في الرّواية الأولى: وكان بموقع النّجوم، أي بمنزلة ذلك في تفرّقه وعدم تتابعه على وجه الاتّصال، وإنّما هو على حسب الوقائع والنّوازل، وكذا مواقع النّجوم بحساب أزمنة معلومة تمضي. وقرىء ﴿بِمَوَاقِعِ﴾ بالجمع، و(بِمَوقِعِ)بالإفراد[٣].

وقال أبو الحسن الواحِديّ المفسِّر، وقال مُقاتِل: أنزله الله من اللَّوح المحفوظ إلى السَّفَرة، وهم الكتبة من الملائكة في السّماء الدّنيا، فكان ينزل ليلة القدر من الوحي على قدر ما ينزل به جبريل عليه السلام على النّبيّ ﷺ في السّنة كلّها إلى مثلها من العام القابل، حتّى نزل القرآن كلّه في ليلة القدر، ونزل به جبريل عليه السلام على محمّد ﷺ في عشرين سنة[٤].

وفي «كتاب المِنهاج» لأبي عبدالله الحَليميّ: كان ينزل من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في كلّ ليلة، قدر ما ينزل على النّبيّ ﷺ إلى اللّيلة تليها[٥]، فينزل جبريل عليه السلام ذلك نجومًا بأمر الله تعالى فيما بين اللّيلتين من السّنة إلى أن ينزل القرآن كلّه من اللّوح المحفوظ في عشرين ليلة من عشرين سنة[٦].

---

١ ـ القدر/١.

٢ ـ يعني دلائل النّبوّة ٤: ١٧٦ وذكره أيضًا في كتاب الأسماء والصّفات: ٢٣٤.

٣ ـ قرأ حمزة والكسائي «بموقع» بإسكان الواو من غير ألف، والباقون بفتح الواو وألف بعدها (التّيسير: ٢٠٧).

٤ ـ الوسيط ٢: ٩٥٣، البسيط ٥: ٤٩٣.

٥ ـ أي ليلة القدر الّتي تليها.

٦ ـ المنهاج ٢ / ١٠٣.

قلت: فهذان قولان في كيفيّة إنزاله في ليلة القدر؛ أحدهما: أنّه نزل جملةً واحـدةً، والثّاني: أنّه نزل في عشرين ليلة من عشرين سنة.

وذكر أبو الحسن الماوَرْديّ في تفسيره، قال: نزل القرآن في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملةً واحدةً من عند الله تعالى من اللّوح المحفوظ إلى السّفَرة الكرام الكاتبين في السّماء الدّنيا، فنجّمته السَّفَرة على جبريل عليه السلام عشرين ليلة، ونجّمه جبريل على النّبيّ ﷺ عشرين سنة، فكان ينزل على مواقع النّجوم إرسالاً في الشّهور والأيّام[1].

ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]، قال: فيه قولان؛ أحدهما: ما روي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما ،فذكر ذلك، وكأنّه قول ثالث غير القولين المقدّمين، أو أراد الجمع بينهما، فإنّ قوله: نزل جملةً واحدةً، هو القول الأوّل، وقوله: فنجّمته السَّفرة على جبريل عشرين ليلة، هو القول الثّاني، كأنّه فسّر قول من قال: نزل في عشرين ليلة، بأنّ المراد بهذا الإنزال تنجيم السَّفَرة ذلك على جبريل؛ قال: والقول الثّاني: أنّ الله عزّ وجلّ ابتدأ بإنزاله في ليلة القدر. قال: وهذا قول الشَّعبيّ[3].

قلت: هو إشارة إلى ابتداء إنزال القرآن على النّبيّ ﷺ فإنّ ذلك كان وهو متحنّث بحراء في شهر رمضان، وقد بيّنت ذلك في «شرح حديث المبعث»[4] وغيره، وهذا وإن كان الأمر فيه كذلك إلاّ أنّ تفسير الآية به بعيد مع ما قد صحّ من الآثار عن ابن عبّاس، أنّه نزل جملةً إلى سماء الدّنيا، على ما تقدّم.

وفي الكتاب «المستدرك» أيضًا عن الأعمش، عن حَسّان بن حُرَيْث عن سعيد بن جُبَير... [وذكر كما تقدّم عن الحاكم].

وخرّجه أبو بكر بن أبي شَيْبَة في «كتاب ثواب القرآن» عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: رفع إلى جبريل في ليلة القدر جملةً، فرفع في بيت

---

١ ـ تفسير الماوَرْديّ ٦: ٣١١.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ انظر: المصدر السّابق والصّفحة المذكورة.

٤ ـ سمّاه المؤلّف في كتابه «الذّيل على الرّوضتين»: ٣٩: «شرح الحديث المقتفى في مبعث النّبيّ المصطفى».

العزّة، ثمّ جعل ينزل تنزيلًا[١].

وفي «تفسير الثّعْلَبيّ» عن ابن عبّاس قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان، فوُضع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، ثمّ نزل به جبريل على محمّد ﷺ نجومًا عشرين سنة، فذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[٢].

وقال أبو عُبَيد: حدّثنا ابن أبي عَديّ، عن داود بن أبي هند، قال: قلت للشّعبيّ: قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٣]، أما نزل عليه القرآن في سائر السّنة إلّا في شهر رمضان؟ قال: بلى، ولكن جبريل كان يعارض محمّدًا ﷺ بما ينزل عليه في سائر السّنة في شهر رمضان.

زاد الثّعْلَبيّ في تفسيره: فيحكُمُ الله ما يشاءُ ويُثبت ما يشاء ويَمحُو ما يشاء ويُنسيه ما يشاء[٤].

زاد غير الثّعلَبيّ: فلمّا كان في العام الّذي قُبض فيه عَرَضه عرضتين، فاستقرّ ما نسخ منه وبدّل.

وقال أبو القاسم البَغَويّ: حدّثنا الحسن بن سُفيان، حدّثنا أبو بكر ابن أبي شَيْبَة، حدّثنا ابن أبي عَدّي، عن داود بن أبي هند، عن الشّعبيّ: أنّ جبريل عليه السلام كان يعارض النّبيّ ﷺ بما أُنزل عليه في سائر السّنة في شهر رمضان.

وعن أبي عُبَيد، عن إسماعيل بن إبراهيم، عن أيّوب السَّختِيانيّ، عن محمّد بن سيرين، قال: نُبّئت أنّ القرآن كان يعرض على النّبيّ ﷺ كلّ عام مرّة في شهر رمضان، فلمّا كان العام الّذي توفّي فيه عرض عليه مرّتين. قال ابن سيرين: فيرون أو يرجون أن تكون قراءتنا هذه أحدث القراءات عهدًا بالعَرْضَة الأخيرة.

---

١ ـ المصنف ٢: ١٦٢.

٢ ـ الواقعة / ٧٥، انظر تفسير الثّعْلَبيّ ١: ١١١.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

٤ ـ تفسير الثّعلبيّ ١: ١١٢.

قال ابن أبي شَيْبَة: حدّثنا الحسين بن عليّ، عن أبيه، عن ابن جدعان، عن ابن سيرين، عن عُبَيدة السّلمانيّ، قال: القراءة الّتي عرضت على رسول‌الله ﷺ في العام الّذي قُبض فيه هي القراءة الّتي يقرأها النّاس اليوم[١].

ورأيت في بعض التّفاسير، قال: وقال جماعة من العُلماء: نزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى بيت يقال له بيت العزّة، فحفظه جبريل ﷷ، وغشي على أهل السّموات من هيبة كلام الله، فمرّ بهم جبريل وقد أفاقوا فقالوا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾[٢] يعني القرآن، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾[٣]، فأتى به جبريل إلى بيت العزّة، فأملاه جبريل على السّفرة الكتبة، يعني الملائكة، وهو قوله تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۞ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[٤]. نقلته من كتاب «شفاء القلوب»، وهو تفسير عليّ بن سَهْل النّيسابوريّ.

وما رواه داود عن الشّعبيّ يعدّ قولاً رابعاً في معنى قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٥]، وكأنّه نزل عَرْضه وإحكامه في رمضان من كلّ سنة منزلة إنزاله فيه، مع أنّه قد لا ينفكّ من إحداث إنزال ما لم ينزل أو تغيير بعض ما نزل بنسخ أو إباحة تغيير بعض ألفاظه على ما سيأتي، وإن ضمّ إلى ذلك كونه ابتدأ نزوله في شهر رمضان ظهرت قوّته.

وقد أوضحنا في كتاب «شرح حديث المبعث» أنّ أوّل ما نزل على النّبيّ ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[٦]، وذلك بحراء عند ابتداء نبوّته، ويجوز أن يكون قوله: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٧]، إشارة إلى كلّ ذلك، وهو كونه أُنزل جملةً إلى السّماء الدّنيا وأوّل نزوله إلى الأرض وعَرْضه وإحكامه في شهر رمضان، فقويت ملابسة شهر رمضان للقرآن، إنزالاً

---

١ ـ المصنّف ٢: ١٦٤.

٢ ـ سبأ / ٢٣.

٨ ـ سبأ / ٢٣.

٤ ـ عبس / ١٥ و ١٦.

٥ ـ البقرة / ١٨٥.

٦ ـ العلق / ١.

٧ ـ البقرة / ١٨٥.

جملةً وتفصيلًا وعَرْضاً وإحكاماً، فلم يكن شيء من الأزمان تحقّق له من الظّرفيّة للقرآن ما تحقّق لشهر رمضان، فلمجموع هذه المعاني قيل: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾.

فإن قلت: ما السّر في إنزاله جملةً إلى السّماء الدّنيا؟

قلت: فيه تفخيم لأمره وأمر من أُنزل عليه، وذلك بإعلام سُكّان السّموات السّبع أنّ هذا آخر الكُتُب، المنزل على خاتم الرّسل لأشرف الأُمم، قد قرّبناه إليهم لننزّله عليهم، ولولا أنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت وصوله إليهم منجّمًا بحسب الوقائع لم نهبط به إلى الأرض جملةً كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكنّ الله تعالى باين بينه وبينها فجمع له الأمرين: إنزاله جملةً ثمّ إنزاله مفرّقًا. وهذا من جملة ما شرّف به نبيّنا ﷺ كما شرّف بحيازة درجتي الغنيّ الشّاكر والفقير الصّابر، فأُوتي مفاتيح خزائن الأرض، فردّها واختار الفقر والإيثار بما فتح الله عليه من البلاد، فكان غنيًّا شاكرًا وفقيرًا صابرًا ﷺ.

فإن قلت: في أيّ زمان نزل جملةً إلى السّماء الدّنيا، أبعد ظهور نبوّة محمّد ﷺ أم قبلها؟

قلت: الظّاهر أنّه قبلها، وكلاهما محتمل، فإن كان بعدها، فالأمر على ما ذكرناه من التّفخيم له ولمن أُنزل عليه، وإن كان قبلها، ففائدته أظهر وأكثر، لأنّ فيه إعلام الملائكة بقرب ظهور أُمّة أحمد المرحومة الموصوفة في الكتب السّالفة، وإرسال نبيّهم خاتم الأنبياء، كما أعلم الله سبحانه وتعالى الملائكة قبل خلق آدم بأنّه ﴿جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1]، وكما أعلمهم أيضًا قبل إكمال خلق آدم ﷺ بأنّه يخرج من ذرّيته محمّد وهو سيّد ولده. وعلى ذلك حملنا قوله ﷺ: «كُنت نبيًّا وآدم بينَ الماء والطّين»[2]، على ما أوضحناه في كتاب «شرح المدائح النّبويّة»[3]، وكان العلم بذلك حاصلًا عند الملائكة. ألا ترى أنّ في حديث الإسراء[4] «لمّا كان جبريل يستفتح له السّموات سماء سماء كان يقال

---

١ ـ الإشارة إلى الآية رقم ٣٠ من سورة البقرة.

٢ ـ شرح المواهب ١: ٥٥.

٣ ـ هو شرح لأبي شامة على «القصائد النّبويّة» لعلم الدّين السّخاويّ المتوفّى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م، وهذا الشّرح أوّل مؤلّفاته.

٤ ـ انظر حديث الإسراء في البخاريّ ٤: ٢٤٧، ومسلم ١: ٩٩.

له: من هذا؟ فيقول: جبريل، فيقال: من معك؟ فيقول: محمّد، فيقال: وقد بعث إليه؟ فيقول: نعم». فهذا كلام من كان عنده علم بذلك قبل ذلك.

وقد تكلّم على فائدة إنزال القرآن جملةً شيخنا أبو الحسن؛ ببعض ما ذكرناه[١].

ووقفت على كلام حسن للحكيم التِّرمِذيّ أبي عبدالله محمّد بن عليّ في تفسيره، فقال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا تسليمًا منه للأُمّة ما كان أبرز لهم من الحظّ بمبعث محمّد ﷺ، وذلك أنّ بعثة محمّد ﷺ كانت رحمة، فلمّا خرجت الرّحمة بفتح الباب جاءت بمحمّد ﷺ وبالقرآن، فوضع القرآن ببيت العزّة في السّماء الدّنيا ليدخل في حدّ الدّنيا، ووضعت النّبوّة في قلب محمّد ﷺ وجاء جبريل عليه السلام بالرّسالة ثمّ الوحي. كأنّه أراد تبارك وتعالى أن يسلّم هذه الرّحمة الّتي كانت حظّ هذه الأُمّة من الله تعالى إلى الأُمّة. ثمّ أجرىٰ من السّماء الدّنيا الآية بعد الآية عند نزول النّوائب؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقال الشّيخ أبو الحسن في كتابه «جمال القرّاء...»: في ذلك تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله عزّ وجلّ بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر سبعين ألفًا من الملائكة لمّا أنزل سورة الأنعام أن تزفّها، وزاد سبحانه في هذا المعني بأنّ أمر جبريل عليه السلام بإملائه على السّفرة الكرام البررة عليهم السلام وإنساخهم إيّاه وتلاوتهم له... ثمّ ساق الكلام إلى آخره[٤].

فإن قلت: فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٥] من جملة القرآن الّذي نزل جملةً، أم لا؟ فإن لم يكن منه فما نزل جملةً، وإن كان منه فما وجه صحّة هذه العبارة؟

قلت: له وجهان؛

---

١ ـ جمال القرّاء: ٥.

٢ ـ الأنبياء / ١٠٧.

٣ ـ يونس / ٥٧.

٤ ـ جمال القرّاء: ٥.

٥ ـ القدر / ١.

أحدهما: أن يكون معنى الكلام إنّا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينا به، وقدّرناه في الأزل، وشئناه، وما أشبه ذلك.

والثّاني: أنّ لفظه لفظ الماضي، ومعناه الاستقبال، وله نظائر في القرآن وغيره، أي ننزّله جملةً في ليلةٍ مباركةٍ، هي ليلة القدر. واختير لفظ الماضي لأمرين؛ أحدهما: تحقّقه وكونه أمرًا لابدّ منه. والثّاني: أنّه حال اتّصاله بالمنزل عليه، يكون الماضي في معناه محقّقًا؛ لأنّ نزوله منجّمًا كان بعد نزوله جملةً واحدةً، وكلّ ذلك حسن واضح، والله أعلم.

فإن قلت: ما السّرّ في نزوله إلى الأرض منجّمًا، وهلّا أُنزل جملةً كسائر الكُتب؟

قلت: هذا سؤال قد تولّى الله سبحانه الجواب عنه، فقال في كتابه العزيز: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[1]، يعنون كما أُنزل على من كان قبله من الرّسل، فأجابهم الله تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي أنزلناه كذلك مفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي لنقوّي به قلبك، فإنّ الوحي إذا كان يتجدّد في كلّ حادثة كان أقوىٰ للقلب وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد له وبما معه من الرّسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز، فيحدث له من السُّرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام عليه فيه على ما سنذكره.

وقيل: معنى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[2]، أي لتحفظه، فيكون فؤادك ثابتًا به غير مضطرب. وكان النّبيّ صلى الله عليه وآله أُمّيًّا لا يكتب ولا يقرأ، ففرّق عليه القرآن ليتيسّر عليه حفظه، ولو نزل جملة لتعذّر عليه حفظه في وقت واحد على ما أجرى الله تعالى به عوائد خلقه، والتّوراة نزلت على موسى عليه السلام مكتوبة وكان كاتبًا قارئًا، وكذا كان غيره، والله أعلم.

فإن قلت: كان في القدرة إذا أنزله جملة أن يسهل عليه حفظه دفعةً واحدةً.

قلت: ما كلّ ممكن في القدرة بلازم وقوعه، فقد كان في قدرته تعالى أن يعلّمه الكتابة والقراءة في لحظة واحدة، وأن يلهمهم الإيمان به، ولكنّه لم يفعل، ولا معترض

---

١ ـ الفُرقان / ٣٢.

٢ ـ الفُرقان / ٣٢.

عليه في حكمه، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[١]، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[٢].

وأيضًا في القرآن ما هو جواب عن أُمور سألوه عنها، فهو سبب من أسباب تفريق النّزول، ولأنّ بعضه منسوخ وبعضه ناسخ، ولا يتأتّى ذلك إلّا فيما أُنزل مفرّقًا.

فهذه وجوه ومعانٍ حسنة في حكمة نزوله منجّمًا، وكان بين نزول أوّل القرآن وآخره عشرون أو ثلاث وعشرون أو خمس وعشرون سنة، وهو مبنيّ على الخلاف في مدّة إقامة النّبيّ ﷺ بمكّة بعد النّبوّة، فقيل: عشر، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة، ولم يختلف في مدّة إقامته بالمدينة أنّها عشر، والله أعلم.

وكان الله تعالى قد وعد نبيّه ﷺ حفظ القرآن وبيانه، وضمن له عدم نسيانه بقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[٣]، أي علينا أن نجمعه في صدرك فتقرأه فلا ينفلت عنك منه شيء، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾[٤]، أي غير ناسٍ له.

وفي الصّحيحين عن سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس ﵄، قال: كان النّبيّ ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن الطّبَريّ، ثمّ قال:]

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٥]، قال: أنزلناه فاستمع له، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٦]، أن نبيّنه بلسانك، فكان إذا أتاه جبريل ﵇ أطْرَق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله تعالى[٧].

[ثمّ ذكر رواية موسى بن إسماعيل بسنده عن ابن عبّاس كما تقدّم عن البُخاريّ، فقال:]

---

١ ـ الأنعام / ٣٥.

٢ ـ البقرة / ٢٥٣.

٣ ـ القيامة / ١٦ و ١٧.

٤ ـ الأعلى / ٦.

٥ ـ القيامة / ١٨.

٦ ـ القيامة / ١٩

٧ ـ البُخاريّ ٦: ٧٦ و ١١٢؛ مُسلم ٢: ٣٥.

وعن ابن شِهاب، قال: أخبرني أنس بن مالك أنّ الله تعالى تابع الوحي على رسوله قبل وفاته حتّى توفّاه أكثر ما كان الوحي، ثمّ توفّي رسول‌الله ﷺ بعد[1]. هذا لفظ البُخاريّ، ولمُسلم: إنّ الله عزّ وجلّ تابع الوحي على رسول الله ﷺ قبل وفاته حتّى توفّي، وأكثر ما كان الوحي يوم توفّي رسول‌الله ﷺ[2].

قلت: يعني عام وفاته أو حين وفاته، يريد أيّام مرضه كلّها، كما يقال: يوم الجَمَل ويوم صِفّين، وكانت أيّامًا، والله أعلم. (ص: ٩ ـ ٣١)

---

١ ـ البُخاريّ ٦: ٩٧.

٢ ـ مُسلم ٨: ٢٣٨.

الفصل السّادس عشر

نصّ القُرطُبيّ (م: ٦٧١ هـ) في تفسيره: «الجامع لأحكام القرآن»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْانُ﴾ البقرة / ١٨٥

نصّ في أنّ القرآن نزل في شهر رمضان، وهو يبيّن قوله عزّ وجلّ: ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1] يعني ليلة القدر، ولقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]. وفي هذا دليل على أنّ ليلة القدر، إنّما تكون في رمضان لا في غيره.

ولا خلاف أنّ القرآن أُنزل من اللّوح المحفوظ ليلة القدر – على ما بيّنّاه – جملةً واحدةً، فوضع في بيت العزّة في سماء الدّنيا، ثمّ كان جبريل عليه السلام ينزل به نجمًا نجمًا في الأوامر والنّواهي والأسباب، وذلك في عشرين سنة.

وقال ابن عبّاس: أُنزل القرآن من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً إلى الكتبة في سماء الدّنيا، ثمّ نزل به جبريل عليه السلام نجومًا، يعني الآية والآيتين في أوقات مختلفة في إحدىٰ وعشرين سنة.

وقال مُقاتِل في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى...﴾ قال: أُنزل من اللّوح المحفوظ كلّ عام في ليلة القدر إلى سماء الدّنيا ، ثمّ نزل إلى السّفَرة من اللّوح المحفوظ في عشرين

---

١ ـ الدّخان / ١ – ٣.

٢ ـ القدر / ١.

شهرًا، ونزل به جبريل في عشرين سنة.

قلت: وقول مُقاتِل هذا خلاف ما نقل من الإجماع أنّ القرآن أُنزل جملةً واحدةً، والله أعلم.... وروى واثِلَة بن أسْقَع عن النّبيّ ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن الطّبَريّ، ثمّ قال:]

قلت: وفي هذا الحديث دلالة على ما يقوله الحسن: إنّ ليلة القدر تكون ليلة أربع وعشرين. (٢: ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

﴿وَقُرانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ الإسراء / ١٠٥

مذهب سيبويه أنّ ﴿قُرانًا﴾ منصوب بفعل مضمر يفسّره الظّاهر، وقرأ جمهور النّاس ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بتخفيف الرّاء، ومعناه بيّناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحقّ والباطل؛ قاله الحسن. وقال ابن عبّاس: فصّلناه. وقرأ ابن عبّاس وعليّ وابن مسعود وأُبيّ بن كعب وقَتادة وأبو رَجاء والشَّعْبيّ «فَرَّقْنَاهُ» بالتّشديد، أي أنزلناه شيئًا بعد شيءٍ لا جملةً واحدةً، إلّا أنّ في قراءة ابن مسعود وأُبيّ «فَرَّقْنَاهُ عَلَيْكَ».

واختلف في كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل: في خمس وعشرين سنة، ابن عبّاس: في ثلاث وعشرين، أنس: في عشرين. وهذا بحسب الخلاف في سنّ رسول‌الله ﷺ، ولا خلاف أنّه نزل إلى السّماء الدّنيا جملةً واحدةً. وقد مضى هذا في «البقرة». ﴿عَلٰى مُكْثٍ﴾، أي تطاوُل في المدّة شيئًا بعد شيء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أي أنزلناه آيةً آية وسورةً سورة. وأمّا على القول الأوّل فيكون ﴿عَلٰى مُكْثٍ﴾ أي على ترسّل في التّلاوة وترتيل...

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾: مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدّم، أي أنزلناه نجمًا بعد نجمٍ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا. (١٠: ٣٣٩ ـ ٣٤٠)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُراٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤

علّم نبيّه كيف يتلقّى القرآن. قال ابن عبّاس: كان ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصًا على الحفظ، وشفقة على القرآن مخافة النّسيان، فنهاه الله

عن ذلك، وأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ﴾. وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ على ما يأتي، وروى ابن أبي نَجِيح عن مُجَاهِد قال: لا تتله قبل أن تتبيّنه. وقيل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ أي لا تسل إنزاله ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضَى اِلَيْكَ﴾، أي يأتيك ﴿وَحْيُهُ﴾. وقيل: المعنى لا تلقه إلى النّاس قبل أن يأتيك بيان تأويله. (١١: ٢٥٠)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣

اختلف في قا ئل ذلك على قولين؛

أحدهما: أنّهم كفّار قُريش، قاله ابن عبّاس.

والثّاني: أنّهم اليهود حين رأوا نزول القرآن مفرّقًا، قالوا: هلّا أُنزل عليه جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزّبور على داود. فقال الله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ﴾، أي فعلنا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: نقوّي به قلبك فتعيه وتحمله؛ لأنّ الكتب المتقدّمة أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون، والقرآن أُنزل على نبيّ أُميّ، ولأنّ من القرآن النّاسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن سأل عن أُمور، ففرّقناه ليكون أوعى للنّبيّ ﷺ، وأيسر على العامل به، فكان كلّما نزل وحي جديد زاده قوّة قلب.

قلت: فإن قيل: هلّا أُنزل القرآن دفعةً واحدةً وحفظه؛ إذا كان ذلك في قدرته؟ قيل: في قدرة الله أن يعلّمه الكتاب والقرآن في لحظةٍ واحدة، ولكنّه لم يفعل ولا معترض عليه في حكمه، وقد بيّنّا وجه الحكمة في ذلك. وقد قيل: إنّ قوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ من كلام المشركين، أي لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً كذلك، أي كالتّوراة والإنجيل، فيتمّ الوقف على ﴿كَذٰلِكَ﴾، ثمّ يبتدىء ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. ويجوز أن يكون الوقف على قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ ثمّ يبتدئ ﴿كَذٰلِك لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ على معنى أنزلناه عليك كذلك متفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

قال ابن الأنباريّ: والوجه الأوّل أجود وأحسن، والقول الثّاني قد جاء به التّفسير، حدّثنا محمّد بن عثمان الشّيبيّ، قال: حدّثنا مِنجاب، قال: حدّثنا بُشربن عمارة، عن أبي روق، عن الضّحّاك، عن ابن عبّاس، في قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ قال: أُنزل

القرآنِ جملة واحدة من عند الله عزّ وجلّ في اللّوح المحفوظ إلى السّفرة الكرام الكاتبين في السّماء، فنجّمه السّفرة الكرام على جبريل عشرين ليلة، ونجّمه جبريل عليه السلام على محمّد عشرين سنة. قال: فهو قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، يعني نجوم القرآن ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾[1]. قال: فلمّا لم ينزل على النّبيّ ﷺ جملةً واحدةً ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ يا محمّد. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول: ورسّلناه ترسيلًا؛ يقول: شيئًا بعد شيءٍ.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملةً واحدةً ثمّ سألوك لم يكن عندك ما تجيب به، ولكن نمسك عليك فإذا سألوك أجبت.

قال النّحّاس: وكان ذلك من علامات النّبوّة؛ لأنّهم لا يسألون عن شيءٍ إلّا أجيبوا عنه، وهذا لا يكون إلّا من نبيّ، فكان ذلك تثبيتًا لفؤاده وأفئدتهم، ويدلّ على هذا ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، ولو نزل جملة بما فيه من الفرائض لثقل عليهم، وعلم الله عزّ وجلّ أنّ الصّلاح في إنزاله متفرّقًا؛ لأنّهم ينبّهون به مرّة بعد مرّة، ولو نزل جملةً واحدةً لزال معني التّنبيه وفيه ناسخ ومنسوخ، فكانوا يتعبّدون بالشّيء إلى وقتٍ بعينه قد علم الله عزّ وجلّ فيه الصّلاح، ثمّ ينزل النّسخ بعد ذلك، فمحال أن ينزّل جملةً واحدةً: افعلوا كذا، ولا تفعلوا.

قال النّحّاس: والأولى أن يكون التّمام ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ لأنّه إذا وقف على ﴿كَذَٰلِكَ﴾ صار المعنى كالتّوراة والإنجيل والزّبور ولم يتقدّم لها ذكر. (١٣: ٢٨ ـ ٢٩)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

والهاء في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن... واللّيلة المباركة ليلة القدر. ويقال: ليلة النّصف من شعبان... وروى قَتَادة عن واثِلَة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

---

١ ـ الواقعة/ ٧٥ ـ ٧٧.

ثمّ قيل: أُنزل القرآن كلّه إلى سماء الدّنيا في هذه اللّيلة، ثمّ أُنزل نجمًا نجمًا في سائر الأيّام على حسب اتّفاق الأسباب.

وقيل: كان ينزّل في كلّ ليلة القدر ما ينزّل في سائر السّنة.

وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه اللّيلة.

وقال عِكرِمة: اللّيلة المباركة ههنا ليلة النّصف من شعبان.

والأوّل أصحّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

قال قَتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كلّه في ليلة القدر من أُمّ الكتاب إلى بيت العِزّة في سماء الدّنيا ، ثمّ أنزله الله على نبيّه ﷺ في اللّيالي والأيّام في ثلاث وعشرين سنة.

وهذا المعنى قد مضى في «البقرة» عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾، ويأتي آنفًا إن شاء الله تعالى. (١٦: ١٢٥ ـ ١٢٦)

﴿فَلَا اُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ...﴾ الواقعة / ٧٥ ـ ٧٧

قال ابن عبّاس: المراد بمواقع النّجوم نزول القرآن نجومًا، أنزله الله تعالى من اللّوح المحفوظ من السّماء العُليا إلى السّفَرة الكاتبين، فنجّمه السّفرة على جبريل عشرين ليلة، ونجّمه جبريل على محمّد عليهما الصّلاة والسّلام عشرين سنة، فهو ينزله على الأحداث من أُمّته، حكاه الماوَرْديّ عن ابن عبّاس، والسُّدّي. وقال أبو بكر الأنباريّ: حدّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدّثنا حَجّاج بن المِنهال ، حدّثنا هَمّام عن الكَلْبيّ، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن إلى سماء الدّنيا جملةً واحدةً، ثمّ نزل إلى الأرض نجومًا، وفرّق بعد ذلك خمس آيات وأقلّ وأكثر، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَلَا اُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَاِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * اِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ﴾. وحكى الفَرّاء عن ابن مسعود: أنّ مواقع النّجوم هو محكم القرآن. وقرأ حمزة والكِسائيّ «بِمَوْقِعِ» على التّوحيد، وهي قراءة عبدالله ابن مسعود والنّخَعيّ والأعمش وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب. الباقون على الجمع، فمن أفرد فلأنّه اسم جنس يؤدّي الواحد فيه عن الجمع، ومن جمع فلاختلاف أنواعه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ قيل: إنّ الهاء تعود على القرآن، أي إنّ القرآن لقسم عظيمٌ، قاله ابن عبّاس وغيره. وقيل: ما أقسم الله به عظيم ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ذكر المقسم عليه، أي أقسم بمواقع النّجوم إنّ هذا القرآن قرآن كريم، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترىً، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزة لنبيّه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنّه كلام ربّهم، وشفاء صُدورهم، كريم على أهل السّماء؛ لأنّه تنزيل ربّهم ووَحيُهُ. وقيل: ﴿كَرِيمٌ﴾ أي غير مخلوق. وقيل: (كَرِيمٌ) لما فيه من كريم الأخلاق ومعاني الأُمور. وقيل: لأنّه يُكرّم حافظه، ويُعظّم قارئه.

قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾: مصون عند الله تعالى. وقيل: مكنون محفوظ عن الباطل. والكتاب هنا: كتاب في السّماء، قاله ابن عبّاس. وقال جابر بن زيد وابن عبّاس أيضًا: هو اللَّوح المحفوظ. عِكرِمة: التّوراة والإنجيل فيهما ذكر القرآن ومن ينزّل عليه. السُّدّي: الزّبور. مُجاهِد وقَتادة: هو المُصحف الّذي في أيدينا. (١٧: ٢٢٤)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

في التِّرمِذيّ: عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن يحرّك به لسانه، يريد أن يحفظه، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، قال: فكان يحرّك به شفتيه، وحرّك سُفيان شفتيه. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

ولفظ مسلم عن ابن جُبَير عن ابن عبّاس قال: كان النّبيّ ﷺ يعالج... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

خرّجه البُخاريّ أيضًا. ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1]، وقد تقدّم. وقال عامر الشَّعبيّ: إنّما كان يَعْجل بذكره إذا نزل عليه من حُبّه له، وحلاوته في لسانه، فنُهي عن ذلك حتّى يجتمع؛ لأنّ بعضه مرتبط ببعض. وقيل: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي حرّك لسانه مع الوحي مخافة أن ينساه، فنزلت ﴿وَلَا

---

١ ـ طه/١١٤.

تَعْجَلْ بِالْقُرانِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، ونزل ﴿سَنقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾، ونزل ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ﴾، قاله ابن عبّاس.

﴿وَقُرْانَهُ﴾، أي وقراءته عليك. والقراءة والقرآن في قول الفَرّاء مصدران. وقال قَتادة: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْانَهُ﴾ أي فاتّبع شرائعه وأحكامه. وقوله: ﴿ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي تفسير ما فيه من الحدود والحلال والحرام، قاله قَتادة. وقيل: ثمّ إنّ علينا بيان ما فيه من الوعد والوعيد وتحقيقهما. وقيل: أي إنّ علينا أن نبيّنه بلسانك. (١٩: ١٠٤ ـ ١٠٥)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ * اِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ اِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ﴾ الأعلى / ٦ ـ ٧

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي القرآن يا محمّد، فنعلّمكه ﴿فَلَا تَنْسىٰ﴾، أي فتحفظ، رواه ابن وَهْب عن مالك. وهذه بُشرىٰ من الله تعالى بشّره بأن أعطاه آية بيّنة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أُمّيّ لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه. وعن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، قال: كان يتذكّر مخافة أن ينسى، فقيل: كَفَيتُكَه.

قال مُجاهد والكَلْبيّ: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالوحي، لم يفرغ جبريل من آخر الآية، حتّى يتكلّم للنّبيّ ﷺ بأوّلها، مخافة أن يَنساها، فنزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾ بعد ذلك شيئًا، فقد كَفَيتُكَه.

ووجه الاستثناء على هذا، ما قاله الفَرّاء: إلّا ما شاء الله، وهو لم يشأ أن تنسى شيئًا، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمٰوَاتُ والاَرْضُ اِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[1] ولا يشاء. ويقال في الكلام: لأُعطِيَنّك كلّ ما سألتَ إلّا ما شئتُ، وإلّا أن أشاء أن أمنعك، والنّيّة على ألّا يمنعه شيئًا. فعلى هذا مجاري الأيمان، يُسْتثنَى فيها، ونيّة الحالف التّمام. وفي رواية أبي صالح، عن ابن عبّاس: فلم ينس بعد نزول هذه الآية حتّى مات، ﴿اِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾. وعن سعيد، عن قَتادة، قال: كان رسول‌الله ﷺ لا يَنسى شيئًا، ﴿اِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾. وعلى هذه الأقوال قيل: إلّا ما شاء الله أن ينسى، ولكنّه لم ينس شيئًا منه بعد نزول هذه الآية.

وقيل: إلّا ما شاء الله أن ينسى، ثمّ يذكر بعد ذلك، فإذاً قد نسي، ولكنّه يتذكّر ولا

---

١ ـ هود / ١٠٨.

ينسىٰ نسيانًا كلّيًّا.

وقد رُوِي أنّه أسقط آية في قراءته في الصّلاة، فحسب أُبَيّ أنّها نُسِخت، فسأله فقال: «إنّي نسيتها».

وقيل: هو من النّسيان، أي إلّا ما شاء الله أن ينسيك. ثمّ قيل: هذا بمعنى النّسخ، أي إلّا ما شاء الله أن ينسخه. والاستثناء نوع من النّسخ. وقيل: النّسيان بمعنى التّرك، أي يعصمك من أن تترك العمل به، إلّا ما شاء الله أن تتركه لنسخه إيّاه. فهذا في نسخ العمل، والأوّل في نسخ القراءة.

قال الفَرغانيّ: كان يغشى مجلس الجُنَيد أهلُ البَسط من العلوم، وكان يغشاه ابن كَيسان النّحويّ، وكان رجلًا جليلًا، فقال يوماً: ما تقول يا أبا القاسم في قول الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾؟ فأجابه مسرعًا ـ كأنّه تقدّم له السّؤال قبل ذلك بأوقات: لا تَنسَى العملَ به. فقال ابن كَيْسان: لا يَفْضُضِ الله فاك! مثلُك من يُصْدَر عن رأيه. وقوله: ﴿فَلَا﴾ للنّفي لا للنّهي. وقيل: للنّهي، وإنّما أثبتت الياء[1] لأنّ رؤوس الآي على ذلك. والمعنى لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه، إلّا ما شاء الله أن ينسيكه برفع تلاوته للمصلحة. والأوّل هو المختار؛ لأنّ الإستثناء من النّهي لا يكاد يكون إلّا موقّتًا معلومًا. وأيضًا فإنّ الياء مثبتة في جميع المصاحف، وعليها القرّاء. وقيل: معناه إلّا ما شاء الله أن يؤخّر إنزاله. وقيل: المعنى ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوىٰ﴾[2] إلّا ما شاء الله أن يناله بنو آدم والبهائم، فإنّه لا يصير كذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾، أي الإعلان من القول والعمل. ﴿وَمَا يَخْفىٰ﴾ من السّرّ. وعن ابن عبّاس: ما في قلبك ونفسك. وقال محمّد بن حاتم: يعلم إعلان الصّدقة وإخفاءها. وقيل: الجهر: ما حفظته من القرآن في صدرك. ﴿وَمَا يَخْفىٰ﴾ هو ما نسخ من صدرك. ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾: معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ﴾ اعتراض. ومعنى ﴿لِلْيُسْرىٰ﴾، أي للطّريقة اليُسرىٰ، وهي عمل الخير. قال ابن عبّاس: نيسّرك لأن تعمل خيرًا. ابن مسعود: ﴿لِلْيُسْرىٰ﴾، أي للجنّة. وقيل. نوفّقك للشّريعة

---

١ ـ يريد الألف في (تنسى)، وأصلها الياء (نسي ينسى).

٢ ـ الأعلى/٥.

اليُسرىٰ، وهي الحنيفيّة السّمحة السّهلة، قال معناه الضَّحَّاك. وقيل: أي نهوّن عليك الوحي حتّى تحفظه وتعمل به. (٢٠: ١٨ ـ ١٩)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذكر في هذه السّورة؛ لأنّ المعنى معلوم، والقرآن كلّه كالسّورة الواحدة، وقد قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، يريد في ليلة القدر.

وقال الشَّعْبيّ: المعنى إنّا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر. وقيل: بل نزّل به جبريل جملةً واحدةً في ليلة القدر... [إلى أن قال:] وحكى الماوَرْديّ عن ابن عبّاس، قال:... [وذكر كما تقدّم عن الزَّمَخْشريّ وأبي شامَة، ثمّ قال:]

قال ابن العربيّ: وهذا باطل، ليس بين جبريل وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمّد عليه السلام واسطة. (٢٠: ١٢٩-١٣٠)

الفصل السّابع عشر

نصّ البَيْضاويّ (م: ٦٨٥ هـ) في تفسيره: «أنوار التّنزيل»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْانُ﴾ البقرة / ١٨٥

أي ابتدىء فيه إنزاله، وكان ذلك ليلة القدر، أو أنزل فيه جملةً إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل منجّمًا إلى الأرض، أو أنزل في شأنه القرآن، وهو قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾.

وعن النّبيّ ﷺ نزلت صُحُف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:] وفيه إشعار بأنّ الإنزال فيه سبب اختصاصه بوجوب الصّوم فيه. (١: ١٠١)

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ اِلَّا بِاَمْرِ رَبِّكَ...﴾ مريم / ٦٤

حكاية قول جبريل عليه السلام حين استبطأه رسول‌الله ﷺ لمّا سُئل عن قصّة أصحاب الكهف وذي القرنين والرّوح، ولم يدرِ ما يجيب، ورجا أن يوحىٰ إليه فيه، فأبطأ عليه خمسة عشر يومًا. وقيل: أربعين يومًا، حتّى قال المشركون: ودّعه ربّه وقلاه، ثمّ نزل ببيان ذلك. والتّنزّل: النّزول على مَهل؛ لأنّه مطاوع نزل، وقد يطلق التّنزّل بمعنى النّزول مطلقًا، كما يطلق نزّل بمعنى أنزل، والمعنى وما نتنزّل وقتًا غبّ إلّا بأمر الله على ما تقتضيه حكمته، وقرىء ﴿وَمَا يَتَنَزَّلُ﴾ بالياء، والضّمير للوحي. ﴿لَهُ مَا بَيْنَ اَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ﴾، وهو ما نحن فيه من الأماكن والأحايين، لا ننتقل من مكان إلى مكان، أو

لاتنزّل في زمان دون زمان إلّا بأمره ومشيّته. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: تاركًا لك، أي ما كان عدم التّزول إلّا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك وتوديعه إيّاك كما زعمت الكفرة، وإنّما كان لحكمة رآها فيه. (٢: ٣٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢

أي أنزل عليه، كخبَّر بمعنى أَخْبَرَ؛ لئلّا يناقض قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾: دفعةً واحدةً كالكُتب الثّلاثة. وهو اعتراض لا طائل تحته؛ لأنّ الإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً أو متفرّقًا، مع أنّ للتّفريق فوائد؛

منها: ما أشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي كذلك أنزلناه مفرّقًا، لنقوّي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه؛ لأنّ حاله يخالف حال موسى وداود وعيسى، حيث كان عليه الصّلاة والسّلام أُمّيًّا وكانوا يكتبون، فلو أُلقي إليه جملةً يعي بحفظه، ولعلّه لم يستتبّ، فإنّ التّلقّف لا يتأتّى شيئًا فشيئًا، ولأنّ نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة وغوص في المعنى، ولأنّه إذا نزل منجّمًا - وهو يتحدّىٰ بكلّ نجمٍ فيعجزون عن معارضته - زاد ذلك قوّة قلبه، ولأنّه إذا نزل به جبريل حالًا بعد حالٍ تثبّت به فؤاده.

منها: معرفة النّاسخ والمنسوخ.

منها: انضمام القرائن الحالية إلى الدّلالات اللّفظيّة، فإنّه يعين على البلاغة، و ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة مصدر محذوف، والإشارة إلى إنزاله مفرّقًا، فإنّه مدلول عليه بقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾. ويحتمل أن يكون من تمام كلام الكَفَرَة، ولذلك وقف عليه فيكون حالًا، والإشارة إلى الكُتب السّابقة، واللّام على الوجهين تتعلّق بمحذوف.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾: وقرأناه عليك شيئًا بعد شيءٍ على تُؤَدَة وتمهُّل في عشرين سنة أو ثلاث وعشرين.... (٢: ١٤٤)

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ الشّعراء / ١٩٢

تقرير لحقّيّة تلك القصص، وتنبيه على إعجاز القرآن ونبوّة محمّد ﷺ، فإنّ الإخبار

عنها ممّن لم يتعلّمها لا يكون إلّا وحيًا من الله عزّ وجلّ. والقلب إن أراد به الرّوح فذاك، وإن أراد به العضو فتخصيصه؛ لأنّ المعاني الرّوحانيّة إنّما تنزل أوّلًا على الرّوح، ثمّ تنتقل منه إلى القلب؛ لما بينهما من التّعلّق، ثمّ تتصعّد منه إلى الدّماغ، فينتقش بها لوح المتخيّلة والرّوح الأمين جبريل ﷺ، فإنّه أمين الله على وحيه. (٢: ١٦٦)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ...﴾ في ليلة القدر أو البراءة، ابتدىء فيها إنزاله أو أُنزل فيها جملةً إلى السّماء الدّنيا من اللّوح المحفوظ، ثمّ أُنزل على الرّسول ﷺ نجومًا، وبركتها لذلك، فإنّ نزول القرآن سبب المنافع الدّينيّة والدّنيويّة. أولما فيها من نزول الملائكة والرّحمة وإجابة الدّعوة وقسم النّعمة وفصل الأقضيّة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾: استئناف يبيّن المقتضي للإنزال، وكذلك قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، فإنّ كونها مُفرَق الأُمور المحكمة أو الملتبسة بالحكمة يستدعي أن ينزّل فيها القرآن الّذي هو من عظائمها. ويجوز أن يكون صفة ﴿لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، وما بينهما اعتراض، وهو يدلّ على أنّ اللّيلة ليلة القدر؛ لأنّ صفتها؛ لقوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ...﴾ [١].

وقُرىء ﴿يُفَرَّقُ﴾ بالتّشديد، و «يفرّق كلّ»، أي يفرّقه الله، و «نُفَرِّقُ» بالنّون. ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ أي أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا على مقتضى حكمتنا، وفيه مزيد تفخيم للأمر. (٢: ٣٧٣)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

وإنزاله فيها بأنّ ابتدأ بإنزاله، أو أنزله جملةً من اللّوح إلى السّماء الدّنيا على السَّفَرة، ثمّ كان جبريل عليه الصّلاة والسّلام ينزّله على رسول الله ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة. (٢: ٥٦٩)

---

١ ـ القدر / ٤.

الفصل الثّامن عشر

نصّ النّيسابوريّ (م: ٧٢٨هـ) في تفسيره: «غرائب القرآن»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْانُ...﴾ البقرة / ١٨٥

وفي إنزال القرآن في رمضان أقوال؛ فعن سُفيانِ بن عُيَينة: أُنزل في فضله القرآن، كما تقول: أُنزل في عليّ ﷺ كذا. وقال ابن الأنباريّ: أُنزل في إيجاب صومه على الخلق القرآن، كما تقول: أنزل الله في الزّكاة كذا، أي في إيجابها، وأنزل في الخمر كذا، أي في تحريمها. والقولان متقاربان، أو هما واحد، فإنّه لم ينزل سوى قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ الآيات.

واختيار الجمهور أنّ الله تعالى أنزل القرآن في رمضان؛ عن النّبيّ ﷺ «نزلتْ صحف إبراهيم...» [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

ثمّ إنّه لاشكّ أنّ القرآن قد نزل منجّمًا مفرّقًا على حسب المصالح والوقائع، فأُوِّلت الآية بأنّ المراد أنّه ابتدىء فيه إنزاله، وذلك ليلة القدر، ومبادىء الملل والدّول هي الّتي يؤرّخ بها لشرفها وانضباطها، هذا قول محمّد بن إسحاق، أو أنّه أُنزل جملة إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ نزل إلى الأرض نجومًا.

وليس يبعد أن يكون للملائكة الّذين هم سُكّان سماء الدّنيا مصلحة في إنزال ذلك إليهم، وفيه مصلحة للرّسول من حيث توقّع الوحي عن أقرب الجهات، ولعلّ فيه مصلحة

لجبريل المأمور بالإنزال والتّأدية، ولا سيّما على رأي الفلاسفة الّذين جبريل عندهم هو العقل الفعّال الأخير، الّذي يدبّر عالم الكون والفساد وخاصّة نوع الإنسان.

وعلى هذا القول يحتمل أن يقال: إنّ الله تعالى أنزل كلّ القرآن من الّلوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثمّ نزّله على محمّد ﷺ منجّمًا إلى آخر عمره.

ويحتمل أن يقال: إنّه سبحانه كان ينزّل إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر كلّ سنة ما يحتاجون إليه في تلك السّنة، وكذلك أبدًا إلى أن تمّ إنزاله. وعلى هذا يكون تعيّن رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن نوعيًّا لا شخصيًّا. (٢: ١٠٩)

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ...﴾ الإسراء / ١٠٥

ثمّ إنّ القوم كأنّهم من تعنّتهم طعنوا في القرآن من جهة أنّه لم ينزل دفعةً واحدةً، فأجاب عن شبهتهم بقوله: ﴿وَقُرْآنًا﴾، هو منصوب بفعل يفسّره. ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي جعلنا نزوله مفرّقًا منجّمًا.

عن ابن عبّاس، أنّه قرأ مشدّدًا، وقال: إنّه لم ينزّل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة، يعني أنّ «فَرَقَ» بالتّخفيف يدلّ على فصل مقارب.

وقال أبو عُبَيْدة: التّخفيف أعجب إليّ؛ لأنّ تفسيره بيّناه، وليس للتّشديد معنى إلّا أنّه نزل متفرّقًا، فالفرق يتضمّن التّبيين. ويؤكّده ما رواه ثَعْلَب عن ابن الأعرابيّ أنّه قال: فَرَقْتُ أفْرُقُ بين الكلام، وفرّقت بين الأجسام.

وأقول: إنّ ابن عبّاس اعتبر الفصل بين أوّل نزوله وبين آخره، فرأى التّشديد أولى، ولعلّ المراد الفصول المتقاربة الّتي فيما بين المدّة، بدليل قوله: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، أي على مَهْلٍ وتُؤَدَةٍ، ولقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، أي على حسب المصالح والحوادث. (١٥: ٩١ ـ ٩٢)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢

ثمّ حكى عنهم شُبهة خامسة، وهي قولهم: هلّا نزل عليه القرآن حال كونه جملةً

واحدةً أي مجتمعًا، ومعنى التّنزيل ها هنا التّعدية فقط بقرينة قوله: ﴿جُمْلَةً﴾، خلاف ما تقرّر في أكثر المواضع من إرادة التّكثير المفيد للتّدريج، كما مرّ في قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[١] والقائلون قُريش أو اليهود، فأجاب الله تعالى عن شبهتهم بقوله: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ...﴾ .

وتقريره من وجوه؛

أحدها: أنّ محمّدًا ﷺ لم يكن قارئًا كاتبًا بخلاف موسى وداود وعيسى، فلم يكن له بُدٌّ من التّلقُّن والتّحفُّظ، فأنزله الله عليه منجّمًا في عشرين سنة. وعن ابن جُرَيح: في ثلاث وعشرين؛ ليكون أقرب إلى الضّبط وأبعد عن النّسيان والسّهو.

وثانيها: أنّ الاعتماد على الحفظ أقرب إلى التّحصيل من الاعتماد على الكتابة، والحفظ لابدّ فيه من التّدرُّج.

وثالثها: أنّ نزول الشّرائع مدرّجة أسهل على المكلّف منها دفعةً.

ورابعها: أنّ نزول جبريل ساعة فساعة ممّا يقوّي قلبه ويعينه على تحمّل أعباء النّبوّة والرّسالة.

وخامسها: أنّ نزوله مفرّقًا يوجب وقوع التّحدّيّ على أبعاض القرآن وأجزائه، ونزوله جملةً يقتضي وقوع التّحدّيّ على مجموعه، ولا ريب في أنّ الأوّل أدخل في الإعجاز.

وسادسها: أنّ نزوله بحسب الوقائع والحوادث أوفق في باب التّكاليف والاستبصار، وأدلّ على الإخبار عن الحوادث في أوقاتها.

وسابعها: أنّ في تجديد منصب السّفارة في كلّ حين مزيد شرف لجبريل.

وللتّرتيل معان؛ منها: أنّه قدّره آية بَعْد آية ودفعة عقيب دفعة. ومنها: التّأنّي في القراءة. ومعنى ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾ أمرنا بترتيل قراءته. ومنه حديث عائشة... [ثمّ ذكر تفسير الآية كما تقدّم عن الزّمخشريّ]. (١٩: ١٢)

---

١ ـ آل عمران / ٣.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان / ٣

أقسم بالقرآن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾؛ لأنّ من شأننا الإنذار والتّخويف من العقاب، وإنّما أُنزل في هذه اللّيلة خصوصًا لأنّ إنزال القرآن أشرف الأُمور الحكميّة، وهذه اللّيلة يفرق فيها كلّ أمرٍ ذي حكمة، فالجملتان أعني قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ كالتّفسير لجواب القسم.

قال صاحب النّظم: ليس من عادتهم أن يقسموا بنفس الشّيء إذا أخبروا عنه، فجواب القسم ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾: اعتراض. والجمهور على الأوّل، ولابأس؛ لأنّ المعنى إنّا أنزلنا القرآن على محمّدٍ ﷺ ولم يتقوّله. ويحتمل أنّ القسم وقع على إنزاله في ليلةٍ مباركة.

وأكثر المفسّرين على أنّها ليلة القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وليلة القدر عند الأكثرين من رمضان.

ونقل محمّد بن جَرير الطَّبَريّ في تفسيره عن قَتادة أنّه قال: نزلت صُحُف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

واللّيلة المباركة هي ليلة القدر. وزعم بعضهم كعِكرِمة وغيره أنّها ليلة النّصف من شعبان، وما رأيت لهم دليلًا يعوّل عليه ... [إلى أن قال:]

وبعضهم أراد أن يجمع بين القولين، فقال: ابتدئ باستنساخ القرآن من اللّوح المحفوظ ليلة البراءة، ووقع الفراغ في ليلة القدر والمباركة: الكثيرة الخير، ولو لم يوجد فيها إلّا إنزال القرآن لكفى به بركة. (٢٥: ٦٤ ـ ٦٥)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

الضّمير في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن، إمّا لأنّ القرآن كلّه في حكم سورة واحدة، وإمّا لشهرته ومن نباهة شأنه، كأنّه مستغنٍ عن التّصريح بذكره.

وقد عظّم القرآن في الآية من وجوه أُخر، هي إسناد إنزاله إلى نفسه دون غيره كجبرائيل مثلًا، وصيغة الجمع الدّالة على عظم رتبة المنزل؛ إذ هو واحد في نفسه نقلًا

وعقلًا، والرّفع من مقدار الوقت الّذي أنزل فيه وهو ليلة القدر.

وها هنا مسائل؛

الأُولى: كيف حكم بأنّه أُنزل في هذه اللّيلة مع أنّه أُنزل نجومًا في نيف وعشرين؟ والجواب كما مرّ في البقرة في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾، أي أُنزل فيها من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا جملةً، ثمّ منها إلى الأرض نجومًا.

ووجه حسن المجاز أنّه أُنزل إلى السّماء الدّنيا فقد شارف النّزول إلى الأرض، فيكون من فوائد التّشويق، كما قيل:

وَأَبْرَحُ مَا يَكونَ الشَّوْقُ يَوْمًا　　إذا دَنَتِ الخِيامُ مِنَ الخِيامِ

وقال الشّعبيّ: ابتدىء بإنزاله في هذه اللّيلة لأنّ المبعث كان في رمضان. وقيل: أراد أنزلنا القرآن، يعني هذه السّورة في فضل ليلة القدر، والقدر بمعني التّقدير...(٣٠: ١٤٢)

الفصل التّاسع عشر

نصّ ابن جُزَيّ الكَلْبيّ (م: ٧٤١هـ) في تفسيره «التّسهيل لعلوم التّنزيل»

[مدّة نزول القرآن]

نزول القرآن على رسول‌الله ﷺ من أوّل ما بعثه الله بمكّة – وهو ابن أربعين سنة إلى أن هاجر إلى المدينة، ثمّ نزل عليه بالمدينة إلى أن توفّاه الله، فكانت مدّة نزوله عليه عشرون سنة. وقيل: كانت ثلاث وعشرين سنة على حسب الاختلاف في سنّه ﷺ يوم توفّي، هل كان ابن ستّين سنة، أو ثلاث وستّين سنة؟ وكان ربّما تنزّل عليه سورة كاملة، وربّما تنزّل عليه آيات مفترقات، فيضمّ ﷺ بعضها إلى بعض حتّى تكمل السّورة. (١:٤)

﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢

هذا من اعتراضات قُريش؛ لأنّهم قالُوا: لو كان القرآن من عند الله لنزل جملةً واحدةً كما نزلت التّوراة والإنجيل.

قوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، هذا جواب لهم، تقديره أنزلناه كذلك مفرّقًا؛ لنُثبِّت به فؤاد محمّد ﷺ لحفظه، ولو نزل جملةً واحدةً لتعذّر عليه حفظه؛ لأنّه أُميّ لا يقرأ، فحفظ المفرّق عليه أسهل، وأيضًا فإنّه نزل بأسباب مختلفة تقتضي أن ينزّل كلّ جزء منه عند

حدوث سببه، وأيضًا منه ناسخ ومنسوخ ولا يتأتّىٰ ذلك فيما ينزل جملةً واحدةً.

قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرتِيلًا﴾، أي فرّقناه تفريقًا، فإنّه نزل بطول عشرين سنة، وهذا الفعل معطوف على الفعل المقدّر الّذي يتعلّق به ﴿كَذٰلِكَ﴾ و«بِهِ» يتعلّق ﴿لِنُثَبِّتَ﴾. (٣: ٧٨)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

يعني ليلة القدر من رمضان. وكيفيّة إنزاله فيها، أنّه أُنزل إلى السّماء الدّنيا جملةً واحدةً، ثمّ نزل به جبريل على النّبيّ ﷺ شيئًا بعد شيء.

وقيل: معناه أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر.

وقيل: يعني باللّيلة المباركة ليلة النّصف من شعبان. وذلك باطلٌ؛ لقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، مع قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]. (٤: ٣٤)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

الضّمير في «بِهِ» يعود على القرآن، دلّت على ذلك قرينة الحال وسبب الآية أنّ رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يحرّك به شفتيه مخافة أن ينساه لحينه، فأمره الله أن ينصت ويستمع.

وقيل: كان يخاف أن ينسى القرآن، فكان يدرسه، حتّى غلب عليه ذلك وشقّ عليه، فنزلت الآية. والأوّل هو الصّحيح؛ لأنّه ورد في البُخاريّ وغيره.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾: ضَمِنَ الله له أن يجمعه في صدره، فلا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند نزوله. ويحتمل ﴿قُرْآنَهُ﴾ هنا وجهين؛

أحدهما: أن يكون بمعنى القراءة، فإنّ القرآن قد يكون مصدرًا من قَرَأْتُ،

والآخر: أن يكون معناه تأليفه في صدره، فهو مصدر من قولك: قَرَأْتُ الشّيء، أي جمعته. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي إذا قرأه جبريل فاجعل قراءة جبريل قراءة الله؛

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

لأنّها من عنده، ومعنى ﴿إِتَّبِعْ قُرآنَهُ﴾ إسمع قراءته واتّبعها بذهنك لتَحفَظَها. وقيل: اتّبع القرآن في الأوامر والنّواهي. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي علينا أن نبيّنه لك ونجعلك تحفظه. وقيل: علينا أن نبيّن معانيه وأحكامه. فإن قيل ما مناسبة قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ ـ الآية ـ لما قبلها؟ فالجواب: أنّه لعلّه نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النّزول. (٤: ١٦٥)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ الأعلى / ٧.

هذا خطاب للنّبيّ ﷺ وعده الله أن يقرئه القرآن فلا ينساه، وفي ذلك معجزة له عليه الصّلاة والسّلام؛ لأنّه كان أُمّيًّا لا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسىٰ ما أقرأه جبريل ﷺ من القرآن.

وقيل: معنى الآية كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...﴾ فإنّه عليه الصّلاة والسّلام كان يحرّك به لسانه إذا أقرأه جبريل؛ خوفًا أن ينساه، فضمن الله له أن لا ينساه.

وقيل: ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ نَهيٌ عن النّسيان، وقد علم الله أنّ تَرْك النّسيان ليس في قُدرة البشر، فالمراد الأمر بتعاهده حتّى لا ينساه، وهذا بعيد؛ لإثبات الألف في تنسىٰ.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنّ معناه لا تنسىٰ إلّا ما شاء الله أن تنساه، كقوله: ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾.

والآخر: إنّه لا ينسىٰ شيئًا، ولكن قال ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ تعظيمًا لِلّه بإسناد الأمر إليه، كقوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾[١]، على بعض الأقوال.

وعبّر الزَّمَخْشريّ عن هذا بأنّه من استعمال التّقليل في معنى النّفي.

فالأوّل أظهر، فإنّ النّسيان جائز على النّبيّ ﷺ فيما أراد الله أن يرفعه من القرآن، أو فيما قضى الله أن ينساه ثمّ يذكره. ومن هذا قول النّبيّ ﷺ حين سَمِع عبّاد بن بِشر: «لَقَدْ أذْكَرَني كذا وكذا آية كنتُ قد نسيتُها».

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ﴾: عطف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، ومعناه نوفّقك للأُمور المرضيّة الّتي

---

١ ـ الأنعام / ١٢٨.

توجب لك السّعادة.

وقيل: معناه للشّريعة اليُسرى، من قوله عليه الصّلاة والسّلام: «دين الله يُسْرٌ»، أي سَهْلٌ لا حرج فيه. (٤: ١٩٣ ـ ١٩٤)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ القدر / ١

الضّمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن، دلّ على ذلك سياق الكلام، و في ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه؛

أحدها: أنّه ذكر ضميره دون اسمه الظّاهر؛ دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته.

والثّاني: أنّه اختار لإنزاله أفضل الأوقات.

والثّالث: أنّ الله أسند إنزاله إلى نفسه، وفي كيفيّة إنزاله في ليلة القدر قولان؛

أحدهما: أنّه ابتدأ إنزاله فيها،

والآخر: أنّه أُنزل القرآن فيها جملةً واحدة إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل به جبريل إلى الأرض بطول عشرين سنة.

وقيل: المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وذكرها. وهذا ضعيف وسُمّيت ليلة القدر من تقدير الأُمور فيها، أو من القدر بمعنى الشّرف، ويترجّح الأوّل بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١]. (٤: ٢١٠)

---

١ ـ الدّخان / ٤.

الفصل العشرون

نصّ أبي حيّان (م: ٧٤٥هـ) في تفسيره: «البحر المحيط»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة / ١٨٥

إنّه ظرف لإنزال القرآن، والقرآن يعمّ الجميع ظاهرًا، ولم يبيّن محلّ الإنزال، فعن ابن عبّاس: أنّه أُنزل جميعه إلى سماء الدّنيا ليلة أربع وعشرين من رمضان، ثمّ أُنـزل عـلى رسول‌الله ﷺ منجّمًا.

وقيل: الإنزال هنا هو على رسول‌الله ﷺ، فيكون القرآن ممّا عبّر بكلّه عـن بـعضه، والمعنى بدىء بإنزاله فيه على رسول‌الله ﷺ، وذلك في الرّابع والعشرين من رمضان. أو تكون الألف واللّام فيه لتعريف الماهيّة، كما تقول: أكلت اللّحم، لا تريد استغراق الأفراد، إنّما تريد تعريف الماهيّة.

وقيل: معنى ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة].

وقيل: أُنزل في فرضيّة صومه القرآن وفي شأنه القرآن، كما تقول: أُنزل في عـائشة قرآن، والقرآن الّذي نزل هو قوله: ﴿يَاءَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[1]، قاله مجاهد والضّحّاك. وقال سُفيان بن عُيَيْنة: في فضله.

وقيل: المعنى ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، أي أُنزل من اللّوح المحفوظ إلى السّفرة في سماء

---

١ ـ البقرة / ١٨٣.

الدّنيا في ليلة القدر من عشرين شهر، أو نزل به جبريل في عشرين سنة، قاله مُقاتل.

وروى واثِلَة بن الأَسْقَع عن النّبيّ ﷺ... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وفي رواية أبي ذَرّ نزلت صُحُف إبراهيم في ثلاث مضين من رمضان، وإنجيل عيسى عليه السلام في ثمانية عشر.

والجمع بين الرّوايتين بأنّ رواية واثِلَة أخبر فيها عن ابتداء نزول الصُّحُف والإنجيل، ورواية أبي ذَرّ أخبر فيها عن انتهاء النّزول. (٢: ٣٩ ـ ٤٠)

﴿وَاَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالاِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ آل عمران / ٣ - ٤

قال الزَّمَخشريّ: فإن قلت: لِم قيل: نزّل الكتاب وأنزل التّوراة والإنجيل؟ قلت: لأنّ القرآن نزل منجّمًا، ونزل الكتابان جملةً.

وقد تقدّم الرّد على هذا القول، وأنّ التّعدية بالتّضعيف لا تدلّ على التّكثير ولا التّنجيم، وقد جاء في القرآن «نزّل» و«أنزل»؛ قال الله تعالى: ﴿وَاَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾[1] و﴿اَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[2]. ويدلّ على أنّهما بمعنى واحد قراءة من قرأ ما كان ممّن ينزّل مشدّدًا بالتّخفيف إلّا ما استثني، فلو كان أحدهما يدلّ على التّنجيم والآخر يدلّ على النّزول دفعةً واحدةً؛ لتناقض الأخبار، وهو محال. ٢: ٣٧٨

﴿وَقُرْاٰنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ الإسراء / ١٠٥

وقرأ الجمهور «فَرَقْنَاهُ» بتخفيف الرّاء، أي بيّنا حلاله وحرامه، قاله ابن عبّاس. وعن الحسن: فرقنا فيه بين الحقّ والباطل. وقال الفَرّاء: أحكمناه وفصّلناه، كقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ اَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[3].

وقرأ أُبيّ وعبدالله وعليّ وابن عبّاس وأبو رَجاء وقَتادة وشَعبيّ وحميد وعمرو بن

---

١ ـ النّحل / ٤٤.

٢ ـ آل عمران / ٧.

٣ ـ الدّخان / ٤

قائد وزيد بن عليّ وعُمَر بن ذَرّ وعِكرِمة والحسن بخلاف عنه بشدّ الرّاء، أي أنزلناه نجمًا بعد نجم، وفصّلناه في النّجوم.

وقال بعض من اختار ذلك: لم ينزل في يوم ولا يومين ولا شهر ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين. قال ابن عبّاس: كان بين أوّله وآخره عشرون سنة. هكذا قال الزَّمَخشريّ عن ابن عبّاس.

وحُكي عن ابن عبّاس في ثلاث وعشرين سنة. وقيل: في خمس وعشرين. وهذا الاختلاف مبنيّ على الاختلاف في سنّه ﷺ وعن الحسن: نزل في ثمانية عشر سنة. قال ابن عَطِيّة: وهذا قول مختلّ لا يصحّ عن الحسن.

وقيل: معنى «فرّقناه» بالتّشديد، فرّقنا آياته بين أمر ونهي وحكم وأحكام ومواعظ وأمثال وقصص وأخبار مغيبات أتت وتأتي. وانتصب ﴿قُرْآنًا﴾ على أضمار فعل يفسّره ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ أي وفرقنا قرآنًا فرقناه، فهو من باب الاشتغال. وحسّن النّصب ورجّحه على الرّفع كونه عطفًا على جملة فعليّة، وهي قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ ولابدّ من تقدير صفة لقوله: ﴿وَقُرْآنًا﴾ حتّى يصحّ كونه كان يجوز فيه الابتداء: لأنّه نكرة لا مسوّغ لها في الظّاهر للإبتداء بها، والتّقدير ﴿وَقُرْآنًا﴾ أي قرآن، أي عظيمًا جليلًا وعلى أنّه منصوب بإضمار فعل يفسّره الظّاهر بعده خرّجه الحَوْفيّ والزَّمَخشريّ. وقال ابن عَطِيّة: هو مذهب سيبَوَيْه.

وقال الفَرّاء: هو منصوب بأرسلناك، أي ما أرسلناك إلّا مبشّرًا ونذيرًا وقرآنًا، كما تقول: رحمةً؛ لأنّ القرآن رحمةٌ. وهذا إعراب متكلّف، وأكثر تكلّفًا منه قول ابن عَطِيّة. ويصحّ أن يكون معطوفًا على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ من حيث كان إرسال هذا أو إنزال هذا المعنى واحد.

وقرأ أُبيّ وعبدالله «فرقْناهُ عليك» بزيادةٍ «عَليك». و(لِتَقْرَأَهُ) متعلّق بفرقناه، والظّاهر تعلّق (عَلَىٰ مُكْثٍ) بقوله: (لِتَقْرَأَهُ) ولا يبالي بكون الفعل يتعلّق به حرفا جرٍّ من جنس واحدٍ؛ لأنّه اختلف معنى الحرفين، الأوّل في موضع المفعول به، والثّاني في موضع الحال، أي متمهّلًا مترسّلًا.

قال ابن عبّاس ومُجاهد وابن جُرَيْج: ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾: على ترسُّل في التّلاوة.

وقيل: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أي تطاول في المدّة شيئًا بعد شيءٍ.

وقال الحَوْفيّ: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ بدل من ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، وهذا لا يصحّ؛ لأنّ قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ هو من صفة الرّسول ﷺ وهو القارىء، أو صفات المقروء في المعنى وليس من صفات النّاس فيكون، بدلًا منهم.

وقيل: يتعلّق ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ بقوله: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾. ويقال: مُكْثٍ، بضمّ الميم وفتحها وكسرها. وقال ابن عَطِيّة: وأجمع القرّاء على ضمّ الميم من ﴿مُكْثٍ﴾. وقال الحَوْفيّ: والمُكث بالضّمّ والفتح لُغتان، وقد قُرىء بهما، وفيه لُغة أُخرى كسر الميم. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾: على حسب الحوادث من الأقوال والأفعال. (٦: ٨٧ ـ ٨٨)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان /٣٢

قال الزَّمَخشريّ: ﴿نُزِّلَ﴾ هاهنا بمعنى ﴿أُنْزِلَ﴾ لا غير، كخُبِّرَ بمعنى أُخْبِرَ وإلّا كان متدافعًا، انتهى.

وإنّما قال: إنّ ﴿نُزِّلَ﴾ بمعنى «أُنزِلَ» لأنّ ﴿نُزِّلَ﴾ عنده أصلها أن تكون للتّفريق، فلو أقَرّه على أصله عنده من الدّلالة على التّفريق تدافع هو.

وقوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وقد قرّرنا أنّ ﴿نُزِّلَ﴾ لا تقتضي التّفريق؛ لأنّ التّضعيف فيه عندنا مرادف للهمزة، وقد بيّـنّا ذلك في أوّل آل عمران. وقائل ذلك كفّار قُريش؛ قالُوا: لو كان هذا من عند الله لنزل جملة كما نزلت التّوراة والإنجيل.

وقيل: قالوا ذلك اليهود، وهذا قول لا طائل تحته؛ لأنّ أمر الاحتجاج به – والإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً واحدةً أو مفرّقًا – أظهر؛ إذ يطالبون بمعارضة سورة منه، فلو نزل جملةً واحدةً وطولِبُوا بمعارضته مثل ما نزل. لكانُوا أعجز منهم حين طولبُوا بمعارضة سورة منه فعجزوا، والمشار إليه غير مذكور فقيل: هو من كلام الكُفّار، وأشاروا إلى التّوراة والإنجيل، أي تنزيلًا مثل تنزيل تلك الكتب الإلهيّة جملةً واحدةً، ويبقى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ تعليلًا لمحذوف أي ﴿ فَرَقْنَاهُ﴾ في أوقات ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

وقيل: هو مستأنف من كلام الله تعالى لا من كلامهم، ولمّا تضمّن كلامهم معنى لِمَ

أُنزل مفرّقًا؟ أُشير بقوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ إلى التّفريق، أي كذلك أُنزل مفرّقًا. قال الزّمَخشريّ: والحكمة فيه أن نقوّي... [وذكر كما تقدّم عنه]. (٦: ٤٩٦)

﴿وَاِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ﴾ الشّعراء / ١٩١- ١٩٢

الضّمير في ﴿وَاِنَّهُ﴾ عائد على القرآن، أي إنّه ليس بكهانة ولا سحر، بل هو من عند الله، وكأنّه عاد أيضًا إلى ما افتتح به السّورة من إعراض المشركين عمّا يأتهم من الذّكر، ليتناسب المفتتح والمختتم.

وقرأ الحَرَميان وأبو عَمرو وحَفْص ﴿نَزَلَ﴾ مخفّفًا، و﴿الرُّوحُ الاَمِينُ﴾ مرفوعان، وباقي السّبعة بالتّشديد ونصبهما. والرّوح هنا جبريل ﷺ، وقد تقدّم في سورة «مريم» لِم أُطلق عليه الرّوح؟ وبه قال ابن عَطِيّة في موضع الحال، كقوله: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[١]، انتهى. والظّاهر تعلّق ﴿عَلٰى قَلْبِكَ﴾ و﴿لِتَكُونَ﴾ بـنزل. وخصّ القلب والمعنى عليك لأنّه محلّ الوعي والتّثبيت، وليعلم أنّ المنزل على قلبه ﷺ محفوظ لا يجوز عليه التّبديل ولا التّغيير، وليكون علّة في التّنزيل أو النّزول اقتصر عليها؛ لأنّ ذلك أزجر للسّامع، وإن كان القرآن نزل للإنذار والتّبشير. والظّاهر تعلّق ﴿بِلِسَانٍ﴾ بنزل، فكان يَسْمع من جبريل حروفًا عربيّة.

قال ابن عَطِيّة: وهو القول الصّحيح، وتكون صَلصَلة الجَرَس صفة لشدّة الصّوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وأغلاطه ويمكن أن يتعلّق بقوله: ﴿لِتَكُونَ﴾، وتمسّك بهذا من رأي النّبيّ ﷺ كان يسمع أحيانًا مثل صَلْصَلة الجَرَس يتفهّم له منه القرآن، وهو مردود، انتهى. (٧: ٤٠)

﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان /٣

قال قَتادة وابن زيد والحسن: اللّيلة المباركة: ليلة القدر، وقالوا: كتب الله كلّها إنّما نزلت في رمضان؛ التّوراة في أوّله، والإنجيل في وسطه، والزّبور في نحو ذلك، والقرآن في

١ ـ المائدة / ٦١.

آخره ﴿فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ويعني ابتداء نزوله كان في ليلة القدر.

وقيل: أُنزل جملةً ليلة القدر إلى البيت المعمور، ومن هناك كان جبريل يتلقّاه. وقال عِكرِمة وغيره: هي ليلة النّصف من شعبان، فقد أوردوا فيها أحاديث...

قال الزَّمَخْشريّ: فإن قلت: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ما موقع هاتين الجملتين؟ قلت:... [وذكر كما تقدّم عنه]. (٨: ٣٢ ـ ٣٣)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦

الظّاهر والمنصوص الصّحيح في سبب النّزول أنّه خطاب للرّسول ﷺ... [ثمّ ذكر قول القَفَّال ورواية ابن عبّاس، كما تقدّم عن الفخر الرّازيّ والبُخاريّ، ثمّ قال:]

وقال الضَّحَّاك: السّبب أنّه كأنّ عليه الصّلاة والسّلام كان يخاف أن ينسيَ القرآن، فكان يدرسه حتّى غلب ذلك عليه وشقّ، فنزلت.

وقال الشَّعْبيّ: كان لحرصه عليه الصّلاة والسّلام على أداء الرّسالة والاجتهاد في عبادة الله ربّما أراد النّطق ببعض ما أوحي إليه قبل كمال إيراد الوحي، فأمر أن لَا يَعْجل بالقُرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى والضّمير في «بِهِ» للقرآن دلّ عليه مساق الآية: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾، أي في صدرك، ﴿وَقُرْاٰنَهُ﴾، أي قراءتك إيّاه، والقرآن مصدر كالقراءة؛ قال الشّاعر:

ضَحُّوا بِأشْمَط عُنوان السُّجودِ بِـهِ   يُـقَطِّع اللَّـيْل تَسـبيحًا وقـرآنًـا

وقيل: ﴿وَقُرْاٰنَهُ﴾: وتأليفه في صدرك، فهو مصدر من قَرَأتُ، أي جَمَعْتُ. ومنه قولهم للمرأة الّتي لم تلد: ما قَرَأتِ سَلًا قط، وقال الشّاعر:

ذَراعَي بِكرة أدمـاء بِكـر   هِجان اللَّون لم تقرأ جنينًا

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾، أي الملك المبلّغ عنّا ﴿فَاتَّبِعْ﴾، أي بذهنك وفكرك، أي فاستمع قراءته، قاله ابن عبّاس. وقال أيضًا هو وقَتادة والضَّحَّاك: فاتّبع في الأوامر والنّواهي.

وفي كتاب ابن عَطِيّة: وقرأ أبو العالية «فَإِذَا قَرَتَه فَاتَّبِعْ قَرَتَهُ» بفتح القاف والرّاء والتّاء من غير همزة ولا ألف في الثّلاثة، ولم يتكلّم على توجيه هذه القراءة الشّاذّة. ووجّه

اللّفظ الأوّل أنّه مصدر، أي «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقَرَاءَتَهُ» فنقل حركة الهمزة إلى الرّاء السّاكنة وحذفها، فبقى «قَرَتَهُ» كما ترى. وأمّا الثّاني فإنّه فعل ماض أصله فإذا قرأته، أي أردت قراءته فسكّن الهمزة، فصار قرأته، ثمّ حذف الألف على جهة الشّذوذ، كما حذفت في قول العرب: ولو تر ما الصّبيان يريدون، ولو ترى ماالصّبيان وما زائدة. وأمّا اللّفظ الثّالث فتوجيهه توجيه اللّفظ الأوّل، أي فإذا قرأته – أي أردت قراءته – فاتّبع قراءته بالدّرس أو بالعمل.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: قال قَتادة وجماعة: أن نبيّنه لك ونحفظكه. وقيل: أن تبيّنه أنت. وقال قَتادة أيضًا: أن نبيّن حلاله وحرامه ومجمله ومفسّره.

وفي«التّحرير والتّحبير» قال ابن عبّاس: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾، أي حفظه في حياتك، وقراءته: تأليفه على لسانك. وقال الضَّحَّاك: نثبّته في قلبك بعد جمعه لك. وقيل: جمعه بإعادة جبريل عليك مرّةً أُخرى، إلى أن يثبت في صَدْرِك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾: قال ابن عبّاس: أنزلناه إليك، فاستمع قراءته. وعنه أيضًا: فإذا يتلى عليك فاتّبع ما فيه...

وقد نمّق الزَّمَخشَريّ بحسن إيراده تفسير هذه الآية، فقال: كان رسول الله ﷺ إذا لقّن الوحي نازع جبريل... [وذكر كما تقدّم عنه].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: إذا أشكل عليك شيءٌ من معانيه، كأنّه كان يعجل في الحفظ والسّؤال عن المعنى جميعًا، كما ترى بعض الحرّاص على العلم ونحوه، ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ...﴾ انتهى.

[ثمّ ذكر قول الفَخر الرّازيّ في طعن الّذين سُمُّوا بالرّافضة كما تقدّم عنه، فقال:]

ويظهر أنّ المناسبة بين هذه الآية وما قبلها أنّه تعالى لمّا ذكر منكر القيامة والبعث معرضًا عن آيات الله تعالى ومعجزاته وأنّه قاصر شهواته على الفُجُور غير مكترث بما يصدر منه ذكر حال من يثابر على تعلّم آيات الله وحفظها وتلقّفها والنّظر فيها وعرضها على من ينكرها رجاء قبوله إيّاها، فظهر بذلك تباين من يرغب في تحصيل آيات الله ومن يرغب عنها وبضدّها تتميّز الأشياء.

ولمّا كان ﷺ لمثابرته على ذلك كان يبادر للتّحفّظ بتحريك لسانه أخبره تعالى أنّه يجمعه له ويوضّحه. (٨: ٣٨٧ ـ ٣٨٨)

﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ...﴾ عبس / ١٣ - ١٤.

﴿فِى صُحُفٍ﴾: قيل: اللّوح المحفوظ، وقيل: صُحُف الأولياء المنزّلة، وقيل: صُحُف المسلمين. فيكون إخبارًا بمغيب؛ إذ لم يكتب القرآن في صُحُف زمان كونه ﷺ بمكّة ينزّل عليه القرآن. ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾: عند الله و﴿مَرْفُوعَةٍ﴾: في السّماء السّابعة، قاله يحي بن سلّام.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾: كتبة ينسخون الكُتب من اللّوح المحفوظ، قال ابن عبّاس: هم الملائكة كتبة.

وقال أيضًا: لأنّهم يسفرون بين الله تعالى وأنبيائه... وقال قَتادة: هم القُرّاء، وواحد السّفرة سافر.

وقال وَهْب: هم الصّحابة؛ لأنّ بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتّعليم والعلم. (٨ : ٤٢٨)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾: والضّمير عائد على ما دلّ عليه المعنى وهو ضمير القرآن.

قال ابن عبّاس وغيره: أنزله الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدّنيا جملةً، ثمّ نجّمه على محمّد ﷺ في عشرين سنة.

وقال الشّعبيّ وغيره: إنّا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك في ليلة القدر. ورُوي أنّ نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان.

وقيل: المعنى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في هذه السّورة في شأن ليلة القدر وفضلها، ولمّا كانت السّورة من القرآن، جاء الضّمير للقرآن تفخيمًا وتحسينًا، فليست ليلة القدر ظرفًا للنّزول بل على نحو قول عمر: لقد خشيت أن يُنزَل فيّ قرآن. وقول عائشة: لأنَا أحقَرُ في نفسي

من أن يُنزَل فيّ قرآن.

وقال الزَّمَخشَريّ: عظم من القرآن من إسناد إنزاله إليه مختصًّا به، ومن مجيئه بضميره دون اسمه الظّاهر شهادة له بالنّباهة والإستغناء عن التّنبيه عليه، وبالرّفع من مقدار الوقت الّذي أُنزل فيه، انتهى. (٨: ٤٩٦)

الفصل الحادي والعشرون

نصُّ ابن كثير (م: ٧٧٤ هـ) في «تفسيره»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥.

يمدح تعالى شهر الصّيام من بين سائر الشّهور بأنّ اختاره من بينهنّ لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصّه بذلك قد ورد الحديث بأنّه الشّهر الّذي كانت الكُتب الإلهيّة تُنزل فيه على الأنبياء؛ قال الإمام أحمد بن حَنبَل: حدّثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدّثنا عِمران أبو العَوّامّ، عن قَتادة، عن أبي المَليح، عن واثِلة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وقد روي من حديث جابر بن عبدالله، وفيه: أنّ الزّبور أُنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثماني عشرة، والباقي كما تقدّم، رواه ابن مَـرْدُوَيه. وأمّـا الصُّحُف والتّوراة والزّبور والإنجيل، فنزل كلّ منها على النّبيّ الّذي أُنزل عليه جملةً واحدةً، وأمّا القرآن فإنّما نزل جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، ثمّ نزل بعد مفرّقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ.

هكذا روي من غير وجه عن ابن عبّاس، كما قال إسرائيل عن السُّدّيّ، عن محمّد بن أبي المُجالد، عن مِقْسم، عن ابن عبّاس: أنّه سأل عَطِيّة بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشّكّ... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وفي رواية سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن في النّصف من شهر رمضان إلى سماء الدّنيا، فجُعِل في بيت العزّة، ثمّ أُنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة؛ لجواب كلام النّاس.

وفي رواية عِكرِمة عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، إلى هذه السّماء الدّنيا جملةً واحدةً، وكان الله يُحدِّث لنبيّه ما يشاء، ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلّا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ...﴾. (١: ٣٨٠)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢.

يقول تعالى مخبرًا عن كثرة اعتراض الكفّار وتعنّتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم؛ حيث قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي هلّا أُنزل عليه هذا الكتاب الّذي أوحي إليه جملةً واحدةً، كما نزلت الكُتب قبله جملةً واحدةً، كالتّوراة والإنجيل والزّبور وغيرها من الكتب الإلهيّة، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنّه إنّما نزل منجّمًا في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام؛ ليثبّت قُلوب المؤمنين به، كقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ الآية ولهذا قال: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال قَتادة: بيّنّاه تبيينًا. وقال ابن زيد: وفسّرناه تفسيرًا. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي بحجّة وشبهة، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أي ولا يقولون قولًا يعارضون به الحقّ، إلّا أجبناهم بما هو الحقّ في نفس الأمر، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم.

قال سعيد بن جُبَير عن ابن عبّاس: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، أي بما يلتمسون به عيب القرآن والرّسول، ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الآية، أي إلّا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم.

وما هذا إلّا اعتناء وكبير شرف للرّسول ﷺ حيث كان يأتيه الوحي من الله عزّ وجلّ بالقرآن صباحًا ومساءً، وليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا، وكلّ مرّة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب ممّا قبله من الكُتب المتقدّمة، فهذا المقام أعلى وأجلّ وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله،

ومحمّد ﷺ أعظم نبيّ أرسله الله تعالى. وقد جمع الله للقرآن الصّفتين معًا، ففي الملأ الأعلى أنزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، ثمّ أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجّمًا بحسب الوقائع والحوادث.

وروى النّسائيّ بإسناده عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ]. (٥: ١٥٠ ـ ١٥١)

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ...﴾ الواقعة / ٧٥.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، فقال حكيم بن جُبَير، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس: يعني نجوم القرآن، فإنّه نزل جملةً ليلة القدر من السّماء العُليا إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل مفرّقًا في السّنين بعد، ثمّ قرأ ابن عبّاس: هذه الآية.

[ثمّ ذكر رواية الضَّحَّاك عن ابن عبّاس، كما تقدّم عن القُرطُبيّ، فقال:]

وكذا قال عِكرِمة ومُجاهد والسُّدّيّ وأبو حزرة. وقال مجاهد أيضًا: مواقع النّجوم في السّماء، ويقال: مطالعها ومشارقها. (٦: ٥٣٥)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٧

هذا تعليم من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ في كيفيّة تلقّيه الوحي من الملك، فإنّه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته، فأمره الله إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له، وتكفّل الله له أن يجمعه في صدره، وأن يُيسّره لأدائه على الوجه الّذي ألقاه إليه وأن يبيّنه له ويفسّره ويوضّحه.

فالحالة الأُولى جمعه في صدره، والثّانية تلاوته، والثّالثة تفسيره وإيضاح معناه. ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، أي بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

﴿اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾ [ثمّ ذكر تفسير الآية كما تقدّم عن القُرطُبيّ، فقال:]

---

١ ـ طه/١١٤.

وقال ابن أبي حاتَم: حدّثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدّثنا أبو يحيى التّيميّ، حدّثنا موسى بن أبي عائشة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول‌الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقىٰ منه شدّة، وكان إذا نزل عليه عرف في تحريكه شفتيه يتلقّى أوّله ويحرّك به شفتيه؛ خشية أن ينسى أوّله قبل أن يفرغ من آخره، فأنزل الله تعالى ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...﴾.

وهكذا قال الشَّعبيّ والحسن البَصْريّ وقَتادة ومُجاهد والضَّحَّاك وغير واحد: إنّ هذه الآية نزلت في ذلك.

وقد روى ابن جَرير من طريق العَوفيّ عن ابن عبّاس ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ قال: كان لا يفتر من القرآن مخافة أن ينساه، فقال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ أن نجمعه لك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾: أن نقرئك فلا تنسى... (٧: ١٦٩ ـ ١٧٠)

«ونصّه أيضًا في «البداية والنّهاية»»

عمره ﷺ وقت بعثته وتأريخها:

قال الإمام أحمد حدّثنا محمّد بن أبي عَدِيّ، عن داود بن أبي هند، عن عامر الشَّعبيّ، أنّ رسول‌الله ﷺ نزلت عليه النّبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشّيء، ولم ينزل القرآن، فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشرًا بمكّة وعشرًا بالمدينة. فمات وهو ابن ثلاث وستّين سنة. فهذا إسناد صحيح إلى الشَّعبيّ، وهو يقتضي أنّ إسرافيل قرن معه بعد الأربعين ثلاث سنين ثمّ جاءه جبريل.

وأمّا الشّيخ شِهاب الدّين أبو شامَة فإنّه قد قال: وحديث عائشة لا ينافي هذا، فإنّه يجوز أن يكون أوّل أمره الرّؤيا. ثمّ وكّل به إسرافيل في تلك المدّة الّتي كان يخلو فيها بحراء، فكان يلقي إليه الكلمة بسُرعة ولا يقيم معه تدريجًا له وتمرينًا إلى أن جاءه

جبريل، فعلّمه بعد ما غطّه ثلاث مرّات، فحكت عائشة ما جرى له مع جبريل، ولم تحكِ ما جرى له مع إسرافيل اختصارًا للحديث، أو لم تكن وقفت على قصّة إسرافيل.

وقال الإمام أحمد: حدّثنا يحيى بن هِشام، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، أُنزِل على النّبيّ ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين، فمكث بمكّة عشرًا وبالمدينة عشرًا. ومات وهو ابن ثلاث وستّين. وهكذا روى يحيى بن سعيد بن المُسَيَّب، ثمّ روى أحمد عن غُندَر ويَزيد ابن هارون، كلاهما عن هِشام، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس، قال: بعث رسول‌الله ﷺ وأُنزل عليه القرآن، وهو ابن أربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين. ومات وهو ابن ثلاث وستّين سنة. وقال الإمام أحمد: حدّثنا عَفّان، حدّثنا حَمّاد بن سَلَمة، أنبأنا عَمّار بن أبي عَمّار، عن ابن عبّاس، قال: أقام النّبيّ ﷺ بمكّة خمس عشرة سنة، سبع سنين يرى الضّوء ويسمع الصّوت، وثماني سنين يوحى إليه، وأقام بالمدينة عشر سنين.

قال أبو شامَة: وقد كان رسول‌الله ﷺ يرى عجائب قبل بعثته، فمن ذلك ما في صحيح مُسلم، عن جابر بن سَمُرة قال: قال رسول‌الله ﷺ «إنّي لأعرفُ حَجَرًا بمكّة كان يسلّم عليّ قبل أن أُبعث، إنّي لأعرفه الآن» انتهى كلامه.

وإنّما كان رسول‌الله ﷺ يحبّ الخلاء والانفراد عن قومه؛ لمّا يراهم عليه من الضّلال المبين من عبادة الأوثان والسُّجود للأصنام، وقويت محبّته للخلوة عند مقاربة إيحاء الله إليه (صلوات الله وسلامه عليه). وقد ذكر محمّد بن إسحاق عن عبد الملك بن عبدالله بن أبي سُفيان بن العلاء بن حارثة – قال؛ وكان واعية – عن بعض أهل العلم، قال: وكان رسول‌الله ﷺ يخرج إلى حِراء في كلّ عام شهرًا من السّنة يتنسّك فيه. وكان من نُسُك قُريش في الجاهليّة، يطعم من جاءه من المساكين، حتّى إذا انصرف من مجاورته لم يدخل بيته حتّى يطوف بالكعبة. وهكذا روى عن وَهْب بن كَيْسان، أنّه سمع عُبيد بن عُمَير يحدث عبدالله بن الزُّبير مثل ذلك. وهذا يدلّ على أنّ هذا كان من عادة المتعبّدين في قُريش أنّهم يجاورون في حراء للعبادة، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته المشهورة:

وثورٍ ومَن أرْسَىٰ ثَبِيرًا مَكانَه … وراقٍ لِيَرْقىٰ في حِراءَ ونازِلِ

هكذا صوّبه على رواية هذا البيت، كما ذكره السُّهيليّ وأبو شامَة وشيخنا الحافظ أبو الحَجّاج المزّي ﷺ، وقد تصحّف على بعض الرّواة، فقال فيه: وراقٍ ليرقىٰ في حِراء ونازل، وهذا ركيك ومخالف للصّواب، والله أعلم.

وحِراء: يقصـر ويمـدّ ويصرّف ويمنع، وهو جبل بأعلى مكّة على ثلاثة أميال منها عن يسار المارّ إلى منىٰ، له قُلّة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية، ومـا أحسن ما قال رُؤْبة بن العَجَّاج:

فَلا ورَبِّ الآمِـناتِ القُـطَّنِ ورَبِّ رُكْنٍ مِن حِراءَ مُنْحني

وقوله في الحديث: والتّحنّث: التّعبّد، تفسير بالمعنى، وإلّا فحقيقة التّحنّث من حنث[١] البنية، فيما قاله السُّهَيليّ، الدّخول في الحنث، ولكن سمعت ألفاظ قليلة في اللُّغة معناها الخروج من ذلك الشّيء كحَنَثَ، أي خرج من الحنث، وتحوّب وتحرّج وتأثّم، وتهجّد هو: ترك الهجود، وهو النّوم للصّلاة، وتنجّس وتقذّر، أوردها أبو شامَة. وقد سئل ابن الأعرابيّ عن قوله: يتحنّث، أي يتعبّد، فقال: لا أعرف هذا، إنّما هو يتحنّف، مـن الحـنيفيّة ديـن إبراهيم عليه السلام. قال ابن هِشام: والعرب تقول: التّحنُّث والتّحنُّف، يبدّلون الفاء من الثّاء، كما قالوا: جدف وجذف، كما قال رؤبة: لو كان أحجاري مع الأجذاف. يريد الأجداث. قال: وحدّثني أبو عُبَيدة، أنّ العرب تقول: «فُمَّ» في موضع «ثُمَّ» قلت: ومن ذلك قول بـعض المفسّرين ﴿وَفُومِهَا﴾: إنّ المراد ثومها.

وقد اختلف العلماء في تعبّده ﷺ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ ومـا ذلك الشّرع؟ فقيل: شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوىٰ، وقيل: موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كلّ ما ثبت أنّه شرعٌ عنده اتّبعه وعمل به، ولبسط هذه الأقوال ومناسباتها مواضع أُخر في أُصول الفقه، والله أعلم.

وقوله: حتّى فجئه الحقّ وهو بغار حِراء، أي جاء بغتة على غير موعد، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو اَنْ يُلْقٰى اِلَيْكَ الْكِتَابُ اِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[٢] الآية. وقد كان نزول صدر

---

١ ـ كذا في المصدر ، لعلّ الصّحيح «من حيث البنية (م)

٢ ـ القصص / ٨٦.

هذه السّورة الكريمة، وهي ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1]. وهي أوّل ما نزل من القرآن كما قرّرنا ذلك في التّفسير، وكما سيأتي أيضًا في يوم الاثنين، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي قَتادة، أنّ رسول‌الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذلك يوم وُلدتُ فيه، ويوم أُنزل عليّ فيه». وقال ابن عبّاس: ولد نبيّكم محمّد ﷺ يوم الاثنين، ونبّىء يوم الاثنين. وهكذا قال عُبَيد بن عُمَير، وأبو جعفر الباقر، وغير واحد من العلماء: إنّه ﷺ أوحي إليه يوم الاثنين، وهذا ما لا خلاف فيه بينهم.

ثمّ قيل: كان ذلك في شهر ربيع الأوّل، كما تقدّم عن ابن عبّاس وجابر أنّه وُلِدَ ﷺ في الثّاني عشر من ربيع الأوّل. يوم الاثنين، وفيه بعث وفيه عرج به إلى السّماء، والمشهور أنّه بعث ﷺ في شهر رمضان، كما نصّ على ذلك عُبَيد بن عُمَير، ومحمّد بن إسحاق وغيرهما.

قال ابن إسحاق مستدلًّا على ذلك بما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ فقيل: في عشرة. وروى الواقِديّ بسنده عن أبي جعفر الباقر، أنّه قال: «كان ابتداء الوحي إلى رسول‌الله ﷺ يوم الاثنين، لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان» وقيل: في الرّابع والعشرين منه. قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدّثنا عمران أبو العَوّام، عن قَتادة، عن أبي المَليح، عن واثِلَة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، فقال:]

وروى ابن مَردُوَيْه في تفسيره عن جابر بن عبدالله مرفوعًا نحوه، ولهذا ذهب جماعة من الصَّحابة والتّابعين، إلى أنّ ليلة القدر ليلة أربع وعشرين. (٣: ٤ – ٦)

---

١ ـ العلق / ١ – ٥.

الفصل الثّاني والعشرون

نصّ الزَّركَشيّ (م: ٧٩٤هـ) في كتابه:

«البُرهان في علوم القرآن»

في كيفيّة إنزاله

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]. واختلف في كيفيّة الإنزال على ثلاثة أقوال؛

أحدها: أنّه نزل إلى سماء الدّنيا ليلة القدر جملةً واحدةً، ثمّ نزل بعد ذلك منجّمًا في عشرين سنة أو في ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، على حسب الاختلاف في مدّة إقامته بمكّة بعد النّبوّة.

والقول الثّاني: أنّه نزل إلى سماء الدّنيا في عشرين ليلة قدرٍ من عشرين سنة، وقيل: في ثلاث وعشرين ليلة قدرٍ من ثلاث وعشرين سنة، وقيل: في خمس وعشرين ليلة قدرٍ من خمس وعشرين سنة، في كلّ ليلةٍ ما يُقدّر الله سبحانه إنزاله في كلّ السّنة، ثمّ ينزل بعد ذلك منجّمًا في جميع السّنة على رسول‌الله ﷺ.

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

والقول الثّالث: أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّمًا في أوقات مختلفة من سائر الأوقات.

والقول الأوّل أشهر وأصحّ، وإليه ذهب الأكثرون، ويؤيّده ما رواه الحاكم في مستدركه عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك في عشرين سنة، قال الحاكم: صحيح على شرط الشّيخين.

وأخرج النّسائيّ في التّفسير من جهة حَسّان عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: فُصل القرآن من الذّكر، فوضع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ وإسناده صحيح، وحَسّان هو ابن أبي الأَشرَسْ، وثّقه النَّسائيّ وغيره.

وبالثّاني قال مُقاتل والإمام أبو عبدالله الحَليميّ في «المنهاج» والماوَرْديّ في «تفسيره». وبالثّالث قال الشَّعبيّ وغيره.

واعلم أنّه اتّفق أهلُ السُّنّة على أنَّ كلام الله منزّل، واختلفوا في معنى الإنزال، فقيل: معناه إظهار القرآن، وقيل: إنّ الله أفهم كلامه جبريل وهو في السّماء، وهو عالٍ من المكان وعلّمه قراءته، ثمّ جبريل أدّاه في الأرض وهو يهبط في المكان.

والتّنزيل له طريقان؛ أحدهما: أنّ رسول‌الله ﷺ انخلع من صورة البشريّة إلى صورة الملائكة وأخذه من جبريل. والثّاني: أنّ الملك انخلع إلى البشريّة حتّى يأخذ الرّسول منه، والأوّل أصعب الحالين.

ونقل بعضهم عن السَّمَرقَنديّ حكاية ثلاثة أقوال في المنزل على النّبيّ ﷺ ما هو؛

أحدها: أنّه اللّفظ والمعنى، وأنّ جبريل حَفِظ القرآن من اللَّوح المحفوظ ونزل به. وذكر بعضُهم أنّ أحرُف القرآن في اللَّوح المحفوظ، كلُّ حرف منها بقدر جَبَل قاف، وأنّ تحت كل حرفٍ معانٍ لا يحيط بها إلّا الله عزّ وجلّ، وهذا معنى قول الغَزاليّ: إنّ هذه الأحرف سترة لمعانيه.

والثّاني: أنّه إنّما نزل جبريل على النّبيّ ﷺ بالمعاني خاصّة، وأنّه ﷺ عَلِم تلك المعاني وعبّر عنها بلُغةِ العرب، وإنّما تمسّكوا بقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى

قَلْبِكَ﴾[١].

والثّالث: أنّ جبريل إنّما أُلقي عليه المعنى، وأنّه عبّر بهذه الألفاظ بلُغة العرب، وأنّ أهل السّماء يقرأونه بالعربيّة، ثمّ إنّه أنزل به كذلك بعد ذلك.

فإن قيل: ما السّرّ في إنزاله جملةً إلى السّماء؟ قيل... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:]. فإن قيل: في أيّ زمان نزل جملةً إلىٰ سماء الدّنيا، بعد ظهور نبوّة محمّد ﷺ أم قبلها؟ قلت: قال الشّيخ أبو شامَة: الظّاهر أنّه قبلها، وكلاهما محتمل، فإن كان بعدها فوجه التّفخيم منه ما ذكرناه، وإن كان قبلها ففائدته أظهر وأكثر.

فإن قلت: فقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، من جملة القرآن الّذي نَـزل جـملةً أم لا؟... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:]

وقال ابن فُورك: قيل: أُنزلت التّوراة جملةً؛ لأنّها نزلت على نبيٍّ يقرأ ويكتب – وهو موسى – وأُنزل القرآن مفرَّقًا؛ لأنّه أُنزل غير مكتوب على نبيٍّ أُميّ. وقيل: ممّا لم يَـنْزِل لأجله جملةً واحدةً أنّ منه النّاسخ والمنسوخ، ومنه ما هو جواب لمن يسأل عن أُمور، ومنه ما هو إنكارٌ لما كان، انتهى.

وكان بين أوّل نزول القرآن وآخره عشرون أو ثلاث وعشرون أو خمس وعشرون سنة، وهو مبنيٌّ على الخلاف في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد النّبوّة؛ فقيل: عشر، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة. ولم يختلف في مدّة إقامته بالمدينة أنّها عشر. وكان كلّما أُنزل عليه شيء من القرآن أمر بكتابته، ويقول: في مفترقات الآيات «ضعوا هذه في سورة كذا»، وكان يعرضه جبريل في شهر رمضان كلَّ عام مرّة، وعامَ مات مرّتين.

وفي صحيح البُخاريّ: قال مَسْروق، عن عائشة، عن فاطمة... [وذكر كما تقدّم عنه ثمّ قال:]

وأسنده البُخاريّ في مواضع. وقد كرّر النّبيّ ﷺ الاعتكاف، فاعتكف عشرين بعد أن كان يعتكف عشرًا. (١: ٢٢٩ ـ ٢٣٢)

---

١ ـ الشُّعراء / ١٩٣.

٢ ـ القدر / ١.

الفصل الثّالث والعشرون

نصُّ ابن حَجَر العَسْقَلانيّ (م: ٨٥٢هـ) في «فتح الباريّ بشرح صحيح البُخاريّ»

قوله: (باب كيف نَزَل الوحي؟ وأوّل ما نزل؟)

كذا لأبي ذرّ «نزل» بلفظ الفعل الماضي ولغيره: كيف نزول الوحي، بصيغة الجمع، وقد تقدّم البحث في كيفيّة نزوله في حديث عائشة: أنّ الحرث بن هِشام سأل النّبيّ ﷺ كيف يأتيك الوحي؟ في أوّل الصّحيح؛ وكذا أوّل نزوله، في حديثها: أوّل ما بدىء به رسول‌الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّادقة. لكن التّعبير بأوّل ما نزل أخصّ من التّعبير بأوّل ما بدىء؛ لأنّ النّزول يقتضي وجود من ينزل به، وأوّل ذلك مجيء الملك له عيانًا مبلّغًا عن الله بما شاء من الوحي، وإيحاء الوحي أعمّ من أن يكون بإنزال أو بإلهام، سواء وقع ذلك في النّوم أو في اليقظة. وأمّا انتزاع ذلك من أحاديث الباب فسأذكره إن شاء الله تعالى عند شرح كلّ حديث منها.

قوله: (قال ابن عبّاس: المهيمن الأمين: القرآن أمين على كلّ كتاب قبله)، تقدّم بيان هذا الأثر وذكر من وصله في تفسير سورة المائدة، وهو يتعلّق بأصل التّرجمة، وهي فضائل القرآن وتوجيه كلام ابن عبّاس أنّ القرآن تضمّن تصديق جميع ما أُنزل قبله، لأنّ

الأحكام الّتي فيه إمّا مقرّرة لما سبق وإمّا ناسخة وذلك يستدعي إثبات المنسوخ، وإمّا مجدّدة، وكلّ ذلك دالّ على تفضيل المجدّد. ثمّ ذكر المصنّف في الباب ستّة أحاديث، الأوّل والثّاني: حديثا ابن عبّاس وعائشة معًا.

قوله: (عن شَيْبان) هو ابن عبد الرّحمان، ويحيى هو ابن أبي كثير، وأبو سَلَمَة هو ابن عبد الرّحمان.

قوله: (لبث النّبيّ ﷺ بمكّة عشر سنين ينزل عليه القرآن وبالمدينة عشر سنين) كذا للكشميهنيّ ولغيره: وبالمدينة عشرًا بإبهام المعدود وهذا ظاهره أنّه ﷺ عاش ستّين سنة إذا انضمّ إلى المشهور أنّه بعث على رأس الأربعين، لكن يمكن أن يكون الرّاويّ ألغى الكسر كما تقدّم بيانه في الوفاة والنّبوّة، فإنّ كلّ من روى عنه أنّه عاش ستّين سنة أو أكثر من ثلاث وستّين، جاء عنه أنّه عاش ثلاثًا وستّين، فالمعتمد أنّه عاش ثلاثًا وستّين، وما يخالف ذلك إمّا أن يحمل على إلغاء الكسر في السّنين وإمّا على جبر الكسر في الشّهور.

وأمّا حديث الباب فيمكن أن يجمع بينه وبين المشهور بوجه آخر، وهو أنّه بعث على رأس الأربعين، فكانت مدّة وحي المنام ستّة أشهر إلى أن نزل عليه الملك في شهر رمضان من غير فترة، ثمّ فتر الوحي، ثمّ تواتر وتتابع، فكانت مدّة تواتره وتتابعه بمكّة عشر سنين من غير فترة، وأنّه على رأس الأربعين قرن به ميكائيل أو إسرافيل، فكان يلقي إليه الكلمة أو الشّيء مدّة ثلاث سنين كما جاء من وجه مرسل، ثمّ قرن به جبريل، فكان ينزل عليه بالقرآن مدّة عشر سنين بمكّة. ويؤخذ من هذا الحديث ممّا يتعلّق بالتّرجمة أنّه نزل مفرّقًا ولم ينزل جملةً واحدةً، ولعلّه أشار إلى ما أخرجه النّسائي وأبو عُبَيد والحاكم من وجه آخر عن ابن عبّاس، قال أنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ أنزل بعد ذلك في عشرين سنة. وقرأ ﴿وَقُرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾[1] الآية وفي رواية للحاكم والبَيهقيّ في «الدّلائل» فرّق في السّنين، وفي أُخرى صحيحة لابن أبي شَيبة والحاكم أيضًا وضع في بيت العزّة في السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ وإسناده صحيح.

---

١ ـ الإسراء / ١٠٥.

[ثمّ ذكر قول الحَليميّ نقلًا عن المنهاج وقول «الماوَرْديّ»، كما تقدّم عن أبي شامَة، فقال:]

وهذا أيضًا غريب، والمعتمد أنّ جبريل كان يعارض النّبيّ ﷺ في رمضان بما ينزل به عليه في طول السّنة.

كذا جزم به الشّعبيّ فيما أخرجه عنه أبو عُبَيد وإبن أبي شَيبة بإسناد صحيح، وسيأتي مزيد لذلك بعد ثلاثة أبواب. وقد تقدّم في بدء الوحي أنّ أوّل نزول جبريل بالقرآن كان في شهر رمضان وسيأتي في هذا الكتاب أنّ جبريل كان يعارض النّبيّ ﷺ بالقرآن في شهر رمضان، وفي ذلك حكمتان؛ إحداهما: تعاهده، والأُخرىٰ تبقية مالم ينسخ منه، ورفع ما نسخ، فكان رمضان ظرفًا لإنزاله جملةً وتفصيلًا وعرضًا وإحكامًا.

قد أخرج أحمد والبَيْهَقيّ في الشُّعَب عن واثِلَة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ. ثمّ قال:]

وهذا كلّه مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾[1] ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السّنة كانت تلك اللّيلة فأنزل فيها جملة إلى سماء الدّنيا، ثمّ أُنزل في اليوم الرّابع والعشرين إلى الأرض أوّل ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ويستفاد من حديث الباب أنّ القرآن نزل كلّه بمكّة والمدينة خاصّة، وهو كذلك، لكن نزل كثير منه في غير الحَرَمَين؛ حيث كان النّبيّ ﷺ في سفر حجّ أو عمرة أو غزاة، ولكن الاصطلاح أنّ كلّ ما نزل قبل الهجرة فهو مكّيٌّ، وما نزل بعد الهجرة فهو مدنيٌّ سواء نزل في البلد حال الإقامة أو في غيرها حال السّفر، وسيأتي مزيد لذلك في باب تأليف القرآن.

قوله: (إنّ الله تابع على رسوله ﷺ قبل وفاته)، كذا للأكثر، وفي رواية أبي ذَرّ: إنّ الله تابع على رسوله الوحي قبل وفاته، أي أكثر إنزاله قرب وفاته ﷺ والسّرّ في ذلك أنّ الوفود بعد فتح مكّة كثروا وكثر سؤالهم عن الأحكام، فكثر النّزول بسبب ذلك، ووقع لي سبب

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

تحديث أنس بذلك من رواية الدّراوَرْدي، عن الإماميّ، عن الزُّهريّ: سألت أنس بن مالك هل فتر الوحي عن النّبيّ ﷺ قبل أن يموت؟ قال: أكثر ما كان وأجَمّه. أورده ابن يونس في تاريخ مصر في ترجمة محمّد بن أبي سعيد بن أبي مريم.

قوله: (حتّى توفّاه أكثر ما كان الوحي)، أي الزّمان الّذي وقعت فيه وفاته كان نزول الوحي فيه أكثر من غيره من الأزمنة.

قوله: (ثمّ توفّي رسول‌الله ﷺ بعد)، فيه إظهار ما تضمّنته الغاية في قوله: حتّى توفّاه الله، وهذا الّذي وقع أخيرًا على خلاف ما وقع أوّلًا، فإنّ الوحي في أوّل البعثة فتر فترة ثمّ كثر، وفي أثناء النّزول بمكّة لم ينزل من السّوَر الطُّوال إلّا القليل، ثمّ بعد الهجرة نزلت السّور الطُّوال المشتملة على غالب الأحكام، إلّا أنّه كان الزّمن الأخير من الحياة النّبويّة أكثر الأزمنة نزولًا بالسّبب المتقدّم، وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للتّرجمة؛ لتضمّنه الإشارة إلى كيفيّة النّزول.

قوله: (حدّثنا سُفيان) هو الثّوريّ وقد تقدّم شرح الحديث قريبًا في سورة والضُّحىٰ، ووجه إيراده في هذا الباب الإشارة إلى أنّ تأخير النّزول أحيانًا إنّما كان يقع لحكمة تقتضي ذلك لا لقصد تركه أصلًا، فكان نزوله على أنحاء شتّىٰ تارةً يتتابع وتارةً يتراخىٰ. وفي إنزاله مفرّقًا وجوه من الحكمة:

منها: تسهيل حفظه، لأنّه لو نزل جملةً واحدةً على أُمّة أُمّيّة لا يقرأ غالبهم ولا يكتب لشقّ عليهم حفظه. وأشار سبحانه وتعالىٰ إلى ذلك بقوله ردًّا على الكفّار وَقَالُو: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾[1]، أي أنزلناه مفرّقًا لنثبّت به فؤادك، وبقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[2].

ومنها: ما يستلزمه من الشّرف له والعناية به؛ لكثرة تردّد رسول ربّه إليه يعلّمه بأحكام ما يقع له، وأجوبة ما يسئل عنه من الأحكام والحوادث.

ومنها أنّه أُنزل على سبعة أحرف، فناسب أن ينزّل مفرّقًا؛ إذ لو نزل دفعةً واحدةً لشقّ

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الإسراء / ١٠٥.

بيانها عادة.

ومنها: أنّ الله قدر أن ينسخ من أحكامه ما شاء، فكان إنزاله مفرّقًا لينفصل النّاسخ من المنسوخ أولىٰ من إنزالهما معًا. وقد ضبط النّقلة ترتيب نزول السُّور كما سيأتي في باب تأليف القرآن، ولم يضبطوا من ترتيب نزول الآيات إلّا قليلًا. وقد تقدّم في تفسير ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أنّها أوّل سورة نزلت، ومع ذلك فنزل من أوّلها أوّلًا خمس آيات، ثمّ نزل باقيها بعد ذلك، وكذلك سورة المدَّثِّر الّتي نزلت بعدها، نزل أوّلها أوّلًا ثمّ نزل سائرها بعد. وأوضح من ذلك ما أخرجه أصحاب السُّنن الثّلاثة، وصحّحه الحاكم وغيره من حديث ابن عبّاس عن عُثمان، قال: كان النّبيّ ﷺ ينزل عليه الآيات، فيقول: «ضعوها في السُّورة الّتي يذكر فيها كذا» إلى غير ذلك ممّا سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى. (٩: ٢ ـ ٧)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ – ١٩.

لم يختلف السّلف أنّ المخاطب بذلك النّبيّ ﷺ في شأن نزول الوحي، كما دلّ عليه حديث الباب. وحكى الفخر الرّازيّ: أنّ القفّال جوّز أنّها نزلت في الإنسان المذكور، قيل: ذلك في قوله تعالى... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾ ذكر فيه حديث ابن عبّاس المذكور من رواية إسرافيل عن موسى بن أبي عائشة أتمّ من رواية ابن عُيَيْنة، وقد استغربه الإسماعيليّ، فقال: كذا أخرجه عنْ عُبَيد الله بن موسى، ثمّ أخرجه هو من طريق أُخرىٰ عن عُبَيد الله المذكور، بلفظ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قال: كان يحرّك به لسانه مخافة أن ينفلت عنه، فيحتمل أن يكون ما بعد هذا من قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ إلى آخره معلّقًا عن ابن عبّاس بغير هذا الإسناد. وسيأتي الحديث في الباب الّذي بعده أتمّ سياقًا قوله: ﴿فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾: قال ابن عبّاس: ﴿قَرَاْنَاهُ﴾: بيّنّاه، ﴿فَاتَّبِعْ﴾: اعمل به. هذا التّفسير رواه عليّ بن أبي طَلْحَة عن ابن عبّاس، أخرجه ابن أبي حاتم.

قوله: (إذا نزل جبريل عليه) في رواية أبي عَوانة عن موسى بن أبي عائشة، كما تقدّم في بدء الوحي، كان يعالج من التّنزيل شدّة، وهذه الجملة توطئة لبيان السّبب في النّزول،

وكانت الشّدة تحصل له عند نزول الوحي، لثقل القول كما تقدّم في بدء الوحي من حديث عائشة، وتقدّم من حديثها في قصّة الإفك: فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء. وفي حديثها في بدء الوحي أيضًا وهو أشدّه عليّ لأنّه يقتضي الشّدّة في الحالتين المذكورتين، لكن إحداهما أشدّ من الأُخرى.

قوله: (وكان ممّا يحرّك به لسانه وشفتيه) اقتصر أبو عَوانة على ذكر الشّفتين، وكذلك إسرائيل، واقتصر سُفيان على ذكر اللّسان، والجميع مراد إمّا لأنّ التّحريكين متلازمان غالبا، أو المراد يحرّك فمّه المشتمل على الشّفتين واللّسان، لكن لمّا كان اللّسان هو الأصل في النّطق اقتصر في الآية عليه.

قوله: (فيشتدّ عليه) ظاهر هذا السّياق أنّ السّبب في المبادرة حصول المشقّة الّتي يجدها عند النّزول، فكان يتعجّل بأخذه؛ لتزول المشقّة سريعًا. وبيّن في رواية إسرائيل: أنّ ذلك كان خشية أن ينساه؛ حيث قال: فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ تخشى أن ينفلت.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق أبي رَجاء عن الحسن، كان يحرّك به لسانه يتذكّره، فقيل له: إنّا سنحفظه عليك. وللطَّبَريّ من طريق الشَّعْبيّ: كان إذا نزل عليه عَجِل يتكلّم به من حبّه إيّاه وظاهر أنّه كان يتكلّم بما يلقي إليه منه أوّلًا فأوّلًا من شدّة حبّه إيّاه، فأُمر أن يتأنّىٰ إلى أن ينقضي النّزول ولا يعدّ في تعدّد السّبب.

ووقع في رواية أبي عَوانة، قال ابن عبّاس: فأنا أُحرّكهما كما كان رسول الله ﷺ يحرّكهما، وقال سعيد: أنا أحرّكهما كما رأيت ابن عبّاس يحرّكهما. فأُطلق في خبر ابن عبّاس، وقيّد بالرّؤية في خبر سعيد؛ لأنّ ابن عبّاس لم ير النّبيّ ﷺ في تلك الحال: لأنّ الظّاهر أنّ ذلك كان في مبدأ المبعث النّبويّ، ولم يكن ابن عبّاس وُلِد حينئذٍ ولكن لا مانع أن يخبر النّبيّ ﷺ بذلك بعد فيراه ابن عبّاس حينئذٍ. وقد ورد ذلك صريحًا عند أبي داود الطَّيالِسيّ في مسنده عند أبي عَوانة بسنده بلفظ قال ابن عبّاس: فأنا أُحرّك لك شفتي كما رأيت رسول الله ﷺ وأفادت هذه الرّواية إبراز الضّمير في رواية البُخاريّ؛ حيث قال فيها: فأنا أحرّكهما، ولم يتقدّم للشّفتين ذكر، فعلمنا أنّ ذلك من تصرّف الرّواة.

قوله: (فأنزل الله) أي بسبب ذلك، واحتجّ بهذا من جوّز اجتهاد النّبيّ ﷺ وجوّز الفَخر

الرّازيّ أن يكون أذن له في الاستعجال إلى وقت ورود النّهي عن ذلك، فلا يلزم وقوع الاجتهاد في ذلك. والضّمير في (بِهِ) عائد على القرآن وإن لم يجر له ذكرٌ لكنّ القرآن يرشد إليه بل دلّ عليه سياق الآية.

قوله: ﴿عَلَيْنَا اَنْ نَجْمَعَهُ فِي صَدْرِكَ﴾ كذا فسّره ابن عبّاس وعبد الرّزّاق، عن مَعْمَرْ، عن قَتادة تفسير بالحفظ. ووقع في رواية أبي عَوانة جمعه لك في صدرك، ورواية جَرير أوضح. وأخرج الطَّبَريّ عن قَتادة أنّ معنى (جَمْعَهُ) تأليفه.

قوله: ﴿وَقُرْاٰنَهُ﴾ زاد في رواية إسرائيل أنّ تقرأه، أي أنت، ووقع في رواية الطَّبَريّ وتقرأه بعد. قوله: ﴿فَاِذا قَرَاْنَاهُ﴾، أي قرأه عليك الملك، ﴿فَاتَّبِعْ قُراٰنَهُ﴾ فإذا أنزلناه «فَاسْتَمِعْ» هذا تأويل آخر لابن عبّاس غير المنقول عنه في التّرجمة، وقد وقع في رواية ابن عُيَيْنة مثل رواية جَرير، وفي رواية إسرائيل نحو ذلك، وفي رواية أبي عَوانة فاستمع وأنصت، ولاشكّ أنّ الاستماع أخصّ من الإنصات؛ لأنّ الاستماع: الإصغاء، والإنصات: السُّكُوت، ولا يلزم من السُّكوت الإصغاء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَاَنْصِتُوا﴾[١]. والحاصل أنّ لابن عبّاس في تأويل قوله تعالى: ﴿اَنْزَلْنَاهُ﴾ وفي قوله: «فاستمع» قولين وعند الطَّبَريّ من طريق قَتادة في قوله: استمع: اتّبع حلاله واجتنب حرامه، ويؤيّد ما وقع في حديث الباب قوله في آخر الحديث: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه والضّمير في قوله ﴿فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾ لجبريل، والتّقدير فإذا انتهت قراءة جبريل فاقرأ أنت.

قوله: ﴿ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾: علينا أن نبيّنه بلسانك، في رواية إسرائيل على لسانك، وفي رواية أبي عَوانة: أن تقرأه، وهي بمَثنّاة فوقانيّة. واستدلّ به على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب. كما هو مذهب الجمهور من أهل السُنّة، ونصّ عليه الشّافعيّ؛ لما تقتضيه (ثمّ) من التّراخي. وأوّل من استدلّ لذلك بهذه الآية القاضي أبو بكر بن الطّيّب وتبعوه، وهذا لا يتمّ إلّا على تأويل البيان بتبيين المعنى، وإلّا فإذا حمل على أنّ المراد استمرار حفظه له وظهوره على لسانه فلا، قال الآمِديّ: يجوز أن يراد بالبيان الإظهار لا

---

١ ـ الأعراف / ٢٠٤.

بيان المجمل؛ يقال بأنّ الكوكب إذا ظهر قال. ويؤيّد ذلك أنّ المراد جميع القرآن، والمجمل إنّما هو بعضه ولا باختصاص لبعضه بالأمر المذكور دون بعض.

وقال أبو الحسين البَصْرىّ: يجوز أن يراد البيان التّفصيليّ، ولا يلزم منه جواز تأخير البيان الإجماليّ، فلا يتمّ الاستدلال وتعقّب باحتمال إرادة المعنيين الإظهار والتّفصيل وغير ذلك؛ لأنّ قوله: ﴿بَيَانَهُ﴾ جنس مضاف، فيعمّ جميع أصنافه من إظهاره وتبيين أحكامه وما يتعلّق بها من تخصيص وتقييد ونَسْخ وغير ذلك، وقد تقدّم كثير من مباحث هذا الحديث في بدء الوحي وأُعيد بعضه هنا استطرادًا. (٨: ٥٥٢ ـ ٥٥٥)

الفصل الرّابع والعشرون

نصّ السّيوطيّ (م: ٩١١ ﻫ) في تفسيره: «الدّرّ المنثور»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ...﴾ البقرة / ١٨٥.

أخرج أحمد وابن جَرير ومحمّد بن نصر وابن أبي حاتم والطَّبَرانيّ والبَيْهقيّ في «شُعَب الإيمان» والأصبَهانيّ في «التّرغيب» عن واثِلة بن الأسقع... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وأخرج أبو يعلىٰ وابن مَرْدُوَيْه عن جابر بن عبدالله، قال: أنزل الله صُحُف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان، وأنزل التّوراة على موسىٰ لستّ خلون من رمضان، وأنزل الزّبور على داوٗد لاثنتي عشرة خلت من رمضان، وأنزل الإنجيل على عيسى لثماني عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمّد ﷺ لأربع وعشرين خلت من رمضان.

وأخرج ابن الضُّرَيْس عن أبي الجلد، قال: أنزل الله صُحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان، وأنزل الإنجيل لثماني عشرة خلون من شهر رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان. وذكر لنا أنّ نبي الله ﷺ قال: «أُعطيت السّبع الطُّول مكان التّوراة، وأُعطيت المبيّن مكان الإنجيل، وأُعطيت المثاني مكان الزّبور، وفضّلت بالمفصّل»...

وأخرج ابن جَرير ومحمّد بن نصر في «كتاب الصّلاة» وابن أبي حاتم والطَّبَرانيّ

وابن مَردُوَيْه، والبَيْهقيّ في «الأسماء والصّفات» عن مِقْسَم، قال: سأل عَطيّة بن الأسود ابن عبّاس... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:].

وأخرج الفِريابيّ وابن جَرير ومحمّد بن نَصر والطَّبَرانيّ وابن مَردُوَيه والحاكم وصحّحه، والبَيْهقيّ والضّياء في «المختارة» عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن جملةً، وفي لفظ: فصل القرآن من الذّكر لأربعة وعشرين من رمضان، فوُضع في بيت العزّة في السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزّله على رسول‌الله ﷺ يرتّله ترتيلًا.

وأخرج ابن جَرير عن ابن عبّاس، قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾ واللّيلة المباركة... [إلى أن قال:] وأخرج ابن الضُّرَيْس والنّسائيّ ومحمّد بن نصر وابن جَرير والطَّبَرانيّ والحاكم وصحّحه وابن مَردُوَيه والبَيْهقيّ، عن ابن عبّاس... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وأخرج ابن الضُّرَيْس عن سعيد بن جُبَير، قال: نزل القرآن جملةً واحدةً... [وذكر كما تقدّم عن ابن كثير، ثمّ قال:].

وأخرج أبو يعلىٰ وابن عَساكر، عن الحسن بن عليّ، أنّه لمّا قُتل عليّ، قام خطيبًا، فقال: والله لقد قَتَلْتُمْ اللّيلة رجلًا في ليلة نُزل فيها القرآن، وفيها رُفع عيسى بن مريم، وفيها قُتل يوشَع بن نون، وفيها تيبَ على بني إسرائيل.

وأخرج ابن المُنذر وابن أبي حاتم عن ابن جُرَيج، قال: بلغني أنّه كان ينزل فيه من القرآن حتّى انقطع الوحي، وحتّى مات محمّد ﷺ فكان ينزّل من القرآن في ليلة القدر، وكلّ شيءٍ يُنزَل من القرآن في تلك السّنة فيَنزِل ذلك من السّماء السّابعة على جبريل في السّماء الدّنيا، فلا يُنزِل جبريل من ذلك على محمّد ﷺ إلّا بما أمره ربّه.

وأخرج عبد بن حَميد وابن الضُّرَيْس عن داود بن أبي هند، قال: قلت لعامر الشَّعْبيّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى...﴾ فهل كان نزل... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة]. (١: ١٨٩)

﴿وَقُرانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ الإسراء / ١٠٥

أخرج النّسائيّ وابن جَرير وابن أبي حاتِم والحاكم وصحّحه، وابن مَردُوَيه والبَيْهَقيّ عن ابن عبّاس أنّه قرأ (وَقُرْانًا فَرَّقْنَاهُ) مثقّلة، قال: نزل القرآن إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر

من رمضان جملةً واحدةً، فكان المشركون إذا أحدثوا شيئًا أحدثَ الله لهم جوابًا، ففرّقه الله في عشرين سنة.

وأخرج ابن أبي حاتِم ومحمّد بن نَصر وابن الأنباريّ في المصاحف من طريق الضَّحّاك عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن جُملةً واحدةً... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:].

فقال المشركون: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فقال الله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1]، أي أنزلناه عليك متفرّقًا؛ ليكون عندك جواب ما يسألونك عنه، ولو أنزلناه عليك جملةً واحدةً، ثمّ سألوك لم يكن عندك جواب ما يسألونك عنه.

وأخرج البَزّاز والطَّبَرانيّ عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً حتّى وُضع في بيت العزّة في السّماء الدّنيا، ونزّله جبريل على محمّد ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم.

وأخرج ابن شَيْبَة وابن جَرير وابن المُنذر من طريق أبي العالية عن ابن عبّاس، أنّه قرأها مثقّلة، يقول: أُنزل آية آية.

وأخرج البَيْهقيّ في «شُعب الإيمان» عن عُمر: قال: تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنّ جبريل كان ينزل بالقرآن على النّبيّ ﷺ خمسًا خمسًا.

وأخرج ابن عَساكِر من طريق أبي نَضْرة، قال: كان أبو سعيد الخُدريّ ﷺ يعلّمنا القرآن خمس آيات بالغداة وخمس آيات بالعشيّ، ويخبر أنّ جبريل نزل بالقرآن خمس آيات خمس آيات.

وأخرج ابن أبي شَيْبَة وابن جَرير وابن المُنذر عن أُبيّ بن كعب ﷺ أنّه قرأ ﴿وَقُرآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ مخفّفًا يعني بيّناه.

وأخرج ابن الضُّرَيْس، عن قَتادة، عن الحسن، قال: كان يقال؛ أُنزل القرآن على نبيّ الله ﷺ ثماني سنين بمكّة وعشرًا بعد ما هاجر. وكان قَتادة يقول: عشرًا بمكّة وعشرًا بالمدينة. (٤: ٢٠٥)

---

١ ـ الفرقان/ ٣٢.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤.

أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدّيّ، قال: كان رسول‌الله ﷺ إذا أنزل عليه جبريل بالقرآن أتعب نفسه في حفظه حتّى يشقّ على نفسه، يتخوّف أنْ يصعد جبريل ولم يحفظه، فينسى ما علّمه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾[1].

وأخرج ابن مَردُوَيه عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، يقول: لا تعجل حتّى نبيّنه لك.

وأخرج الفِرْيابيّ وابن جَرير وابن المُنذر وابن أبي حاتِم وابن مَردُوَيه عن الحسن، قال: لطم رجل امرأته، فجاءت إلى النّبيّ ﷺ تطلب قصاصًا، فجعل النّبيّ ﷺ بينهما القصاص، فأنزل الله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ...﴾، فوقف النّبيّ ﷺ حتّى نزلت ﴿اَلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ...﴾[2].

وأخرج عبد بن حَميد وابن المُنذر وابن أبي حاتم عن مُجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ...﴾، قال: لا تُمله على أحدٍ حتّى نتمّه لك. (٤: ٣٠٩)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُراٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ...﴾ الفرقان /٣٢ ـ ٣٣

أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه، وابن مَردُوَيه والضّياء في «المختارة» عن ابن عبّاس، قال: قال المشركون: إن كان محمّد كما يزعم نبيًّا فلم يعذّبه ربّه، ألّا ينزّل عليه القرآن جملةً واحدةً، ينزّل عليه الآية والآيتين والسّورة، فأنزل الله على نبيّه جواب ما قالُوا ﴿وَقَالَ الَّذِينِ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُراٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتِم، عن قَتادة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، يقولون: كما أُنزل على موسى وعلى عيسى ﷺ، قال الله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرتِيلًا﴾، قال: بيّناه تبيينًا.

---

١ ـ القيامة/١٦.

٢ ـ النّساء / ٣٤.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال: أحسن تفصيلًا.

وأخرج ابن أبي حاتِم وابن مَردُوَيه، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾، قال: لنَشدِد به فؤادك، ونَربِط على قلبك. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال: رسّلناه ترسيلًا، يقول: شيئًا بعد شيءٍ. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ...﴾، يقول: لو أنزلنا عليك القرآن جملةً واحدةً، ثمّ سألوك، لم يكن عندك ما تجيب، ولكنّا نمسك عليك، فإذا سألوك أجبت.

وأخرج ابن مَردُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: قالت قُريش: ما للقرآن لم ينزّل على النّبيّ ﷺ جملةً واحدةً، قال الله في كتابه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال: قليلًا قليلًا، كيما لا يجيئوك بمثل إلّا جئناك بما ينقض عليهم، فأنزلناه عليك تنزيلًا، قليلًا قليلًا، كلّما جاؤوا بشيءٍ جئناهم بما هو أحسن منه تفسيرًا.

وأخرج عبد الرَّزّاق وابن جَرير وابن المُنذر وابن أبي حاتِم، عن الحسن في قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال: كان ينزل عليه الآية والآيتان والآيات، كان ينزل عليه جوابًا لهم، إذا سألوا رسول الله ﷺ عن شيءٍ أنزل الله جوابًا لهم وردًّا عن النّبيّ ﷺ فيما تكلّموا به، وكان بين أوّله وآخره نحو من عشرين سنة.

وأخرج ابن جَرير وابن المُنذر وابن أبي حاتِم، عن إبراهيم النَّخَعيّ ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، يقول: أُنزل متفرّقًا. وأخرج ابن أبي حاتِم، عن السُّدِّيّ: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال: فصّلناه تفصيلًا.

وأخرج ابن أبي حاتِم، عن عَطاء في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال: تفصيلًا.

وأخرج ابن جَرير وابن أبي حاتِم، عن مُجاهد في قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، قال: بيانًا. (٥: ٧٠)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان /٣

أخرج ابن مَردُوَيه، عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر، ثمّ نزل به جبريل على رسول الله ﷺ نجومًا بجواب كلام النّاس.

وأخرج عبد الرَّزّاق وعَبد بن حميد، عن قَتادة ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، قال: هي ليلة القدر.

وأخرج عَبْد بن حَميد، عن أبي الجلد، قال: نزلت صُحُف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:].

وأخرج سعيد بن منصور، عن إبراهيم النَّخَعيّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، قال: نزل القرآن جملةً على جبريل، وكان جبريل يجيء به بعد إلى النّبيّ ﷺ.

وأخرج سَعيد بن منصور، عن سَعيد بن جُبَير، قال: نزل القرآن من السَّماء العُليا إلى السّماء الدّنيا جميعًا في ليلة القدر، ثمّ فصّل بعد ذلك في تلك السّنين. (٦: ٢٥)

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ الواقعة / ٧٥.

أخرج عبد بن حميد، عن عاصِم ﷺ، أنّه قرأ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ ممدودة، مرفوعة الألف، ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ على الجماع.

وأخرج عبد بن حميد وابن جَرير وابن المُنذر، عن مُجاهد في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، قال: نجوم السّماء.

وأخرج عبد بن حميد وابن جَرير، عن قَتادة ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، قال: بمساقطها. [إلى أن قال:]

وأخرج عبد بن حميد وابن جَرير ومحمّد بن نصر وابن المُنذر وابن أبي حاتِم والطَّبَرانيّ وابن مَردُوَيه، عن ابن عبّاس في قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، قال: القرآن، ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، قال: القرآن.

وأخرج النّسائيّ وابن جَرير ومحمّد بن نَصر والحاكم وصحّحه، وابن مَردُوَيه والبَيْهقيّ في «شُعَب الإيمان»، عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر من السَّماء العُليا إلى السَّماء الدّنيا جملةً واحدةً، ثمّ فرّق في السّنين. وفي لفظ: ثمّ نزل من السّماء الدّنيا إلى الأرض نجومًا، ثمّ قرأ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

وأخرج ابن مَرْدُوَيه، عن ابن عبّاس ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ بألف، قال: نُجوم

القرآن حين ينزل.

وأخرج ابن المنذر وابن الأنباريّ في كتاب المصاحف، وابن مَردُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن إلى السّماء الدّنيا جملةً واحدةً، ثمّ أُنزل إلى الأرض نجومًا ثلاث آيات وخمس آيات وأقلّ وأكثر، فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾.

وأخرج الفِرْيابيّ بسند صحيح عن المِنهال بن عمر، قال: قرأ عبدالله بن مسعود ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، قال: بمحكم القرآن، فكان ينزل على النّبيّ ﷺ نجومًا.

وأخرج ابن نَصر وابن الضُّرَيْس، عن مُجاهد ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾، قال: بمحكم القرآن. (٦: ١٦١)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ - ١٩

أخرج الطَّيالِسيّ وأحمد وعبد بن حَميد والبُخاريّ ومسلم والتِّرْمذيّ والنَّسائيّ وابن جَرير وابن المُنذر وابن أبي حاتِم وابن الأنباريّ في «المصاحف» والطَّبَرانيّ وابن مَرْدُوَيه وأبو نُعَيم والبَيْهَقيّ معًا في «الدّلائل» عن ابن عبّاس، قال: كان رسول‌الله ﷺ يعالج من التّنزيل... [وذكر كما تقدّم عن البُخاريّ].

وأخرج ابن المُنذر وابن مَرْدُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: كان النّبيّ ﷺ إذا نزل عليه القرآن تعجَّل بقراءته ليحفظه، فنزلت هذه الآية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾. وكان رسول‌الله ﷺ لا يعلّم ختم سورة حتّى يُنزَّل عليه ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وأخرج ابن جَرير وابن مَرْدُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: كان رسول‌الله ﷺ لا يفتر... [وذكر كما تقدّم عنه].

وأخرج عبد بن حَميد وابن جَرير وابن المُنذر، عن قَتادة ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، قال: كان النّبيّ ﷺ يحرّك لسانه بالقرآن مخافة النّسيان، فأنزل الله ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، يقول: إنّ علينا حفظه وتأليفه. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، يقول: اتّبع حلاله واجتنب حرامه. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، قال: بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته.

(٦: ٢٨٩)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعلى / ٦ ـ ٧

أخرج الفِريابيّ وعبد بن حميد وابن المُنذر وابن أبي حاتِم، عن مُجاهد في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾، قال: كان يتذكّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى.

وأخرج الطَّبَرانيّ وابن مَرْدُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: كان النّبيّ ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل من الوحي حتّى يزمّل من ثقل الوحي، حتّى يتكلّم النّبيّ ﷺ بأوّله مخافة أن يغشى عليه فينسىٰ، فقال له جبريل: لِم تفعل ذلك؟ قال: مخافة أن أنسى، فأنزل الله ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ...﴾. فإنّ النّبيّ ﷺ نسي آيات من القرآن ليس بحلالٍ ولا حرامٍ، ثمّ قال له جبريل: إنّه لم يُنزّل على نبيّ قبلك إلّا نسي وإلّا رفع بعضه. وذلك أنّ موسى أهبط الله عليه ثلاثة عشر سفرًا، فلمّا ألقى الألواح انكسرت، وكانت من زمرّد، فذهب أربعة أسفار وبقي تسعة.

وأخرج ابن مَرْدُوَيه، عن ابن عبّاس، قال: كان النّبيّ ﷺ يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له: كفيناك ذلك، ونزلت ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾. وأخرج الحاكم، عن سعد بن أبي وَقّاص نحوه.

وأخرج ابن المُنْذر وابن أبي حاتِم، عن ابن عبّاس ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، يقول: إلّا ما شئت أنا فأُنسيك.

وأخرج عبد الرَّزّاق وعبد بن حَميد وابن أبي حاتِم، عن قَتادة في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، قال: كان رسول اللّه ﷺ لا ينسىٰ شيئًا. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، قال: الوسوسة. ٦: ٣٣٩

ونصّه أيضًا في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»

في كيفيّة إنزاله

فيه مسائل؛

المسألة الأُولى: (في كيفيّة إنزاله من اللّوح المحفوظ)

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]. اختلف في كيفيّة إنزاله من اللّوح المحفوظ على ثلاثة أقوال؛

أحَدُها: وهو الأصحّ الأشهر أنّه نزل إلى سماء الدّنيا ليلة القدر جملة واحدة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّمًا في عشرين سنة، أو ثلاثة وعشرين، أو خمسة وعشرين، على حَسَبِ الخلاف في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد البعثة.

وأخرج الحاكم والبَيْهَقيّ وغيرهما من طريق منصور، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا، وكان بمواقع النّجوم، وكان الله يُنزله على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض.

وأخرج الحاكم والبَيْهَقيّ أيضًا والنّسائيّ من طريق داود بن أبي هند، عن عِكرِمة، عن ابن عبّاس ... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ].

وأخرجه ابن أبي حاتِم من هذا الوجه، وفي آخره: فكان المشركون إذا أحدثوا شيئًا أحدث الله لهم جوابًا.

وأخرج الحاكم وابن أبي شَيْبة من طريق حَسَّان بن حُرَيث، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: فُصِل القرآن من الذّكر، فوُضع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، فجعل

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ. أسانيدها كلّها صحيحة.

وأخرج الطَّبَرانيّ من وجه آخر، عن ابن عبّاس، قال: أنزل القرآن في ليلة القدر في شهر رمضان إلى سماء الدّنيا جملةً واحدةً، ثمّ أُنزل نجومًا.

وأخرج الطَّبَرانيّ والبَزّاز من وجه آخر عنه... [وذكر كما تقدّم آنفًا].

وأخرج ابن أبي شَيْبَة في «فضائل القرآن» من وجه آخر عنه: دفع إلى جبريل في ليلة القدر جملةً واحدةً، فوضعه في بيت العزّة، ثمّ جعل ينزّله تنزيلًا.

وأخرج ابن مَرْدُوَيه والبَيْهَقيّ في «الأسماء والصّفات» من طريق السُّدّيّ عن محمّد، عن ابن أبي المُجَالِد، عن مِقْسَم، عن ابن عبّاس، أنّه سأل عَطِيّة ابن الأسود... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ].

قال أبو شامَة: قوله: «رَسَلًا» أي رِفقًا، وعلى موقع النّجوم، أي على مثل مساقطها، يريد أُنزل مفرَّقًا يتلُو بعضه بعضًا، على تُؤَدَةٍ ورِفْق.

القول الثّاني: أنّه نزل إلى السّماء الدّنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين، في كلّ ليلة ما يقدّر الله إنزاله في كلّ السّنة. ثمّ نزل بعد ذلك منجّمًا في جميع السّنة.

وهذا القول ذكره الإمام فخر الدّين الرّازيّ بحثًا، فقال: يحتمل أنّه كان يُنزل في كلّ ليلة قدر ما يحتاج النّاس إلى إنزاله إلى مثلها من اللّوح إلى السّماء الدّنيا. ثمّ توقّف، هل هذا أولى أو الأوّل.

قال ابن كثير: وهذا الّذي جعله احتمالًا نقله القُرطُبيّ عن مُقاتل بن حَيّان، وحكى الإجماع على أنّه نزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا.

قلت: وممّن قال بقول مُقاتِل الحَليميّ والمَاوَرديّ، ويوافقه قول ابن شِهاب: آخرُ القرآن عهدًا بالعرش آية الدَّين.

القول الثّالث: أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّمًا في أوقات مختلفة، من سائر الأوقات، وبه قال الشّعبيّ.

قال ابن حَجَر في شرح البُخاريّ: والأوّل هو الصّحيح المعتمد، قال: وقد حكى

الماوَرْديّ قولًا رابعًا... [وذكر كما تقدّم عنه وعن أبي شامَة].

وقال أبو شامَة: كأنّ صاحب هذا القول أراد الجمع بين القولين الأوّل والثّاني.

قلت: هذا الّذي حكاه الماوَرْديّ أخرجه ابن أبي حاتِم من طريق الضَّحّاك، عن ابن عبّاس، قال ... [إلى أن قال:]

تنبيهات

الأوّل: قيل السّرّ في إنزاله جملة إلى السّماء... [إلى أن نقل قول التِّرمِذيّ والسَّخاويّ بحسب ما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:]

الثّاني: قال أبو شامَة أيضًا: الظّاهر أنّ نزوله جملة إلى السّماء الدّنيا قبل ظهور نبوّته ﷺ قال: ويحتمل أن يكون بعدها.

قلت: الظّاهر هو الثّاني، وسياق الآثار السّابقة عن ابن عبّاس صريح فيه. وقال ابن حَجَر في شرح البُخَاريّ: قد أخرج أحمد والبَيْهَقيّ في «الشُّعب» عن واثِلَة... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:].

قلت: لكن يُشكل على هذا ما اشتهر من أنّه ﷺ بُعث في شهر ربيع. ويجاب عن هذا بما ذكروه أنّه نُبِّيء أوّلًا بالرّؤيا في شهر مولِده، ثمّ كانت مدّتها ستّة أشهر، ثمّ أُوحي إليه في اليقظة، ذكره البَيهقيّ وغيره. نعم، يشكل على الحديث السّابق ما أخرجه ابن أبي شَيْبَه في فضائل القرآن عن أبي قلابة، قال: أُنزلت الكُتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان.

الثّالث: قال أبو شامَة أيضًا: فإن قيل: ما السّرّ في نزوله منجّمًا؟... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ نقل قول ابن فُورك كما تقدّم عن الزّركشيّ، فقال:].

وقد تقدّم ذلك في قول ابن عبّاس: ونزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم، وفسّر به قوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾[1].

أخرجه عنه ابن أبي حاتِم. فالحاصل أنّ الآية تضمّنت حكمتين لإنزاله مفرّقًا.

---

١ ـ الفرقان / ٣٢

تذنيب

ما تقدّم في كلام هؤلاء من أنّ سائر الكُتُب أُنزلت جملةً هو مشهور في كلام العلماء وعلى ألسنتهم، حتّى كاد يكون إجماعًا. وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك، وقال: إنّه لا دليل عليه، بل الصّواب أنّها نزلت مفرّقة كالقرآن.

وأقول: الصّواب الأوّل، ومن الأدلّة على ذلك آية الفرقان السّابقة.

أخرج ابن أبي حاتِم، من طريق سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: قالت اليهود: يا أبا القاسم، لولا أُنزِل هذا القرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة على موسى، فنزلت. وأخرجه من وجه آخر عنه بلفظ: قال المشركون، وأخرج نحوه عن قَتادة والسُّدّيّ.

فإن قلت: ليس في القرآن التّصريح بذلك، وإنّما هو على تقدير ثبوته قول الكفّار!

قلت: سكوته تعالى عن الردّ عليهم في ذلك وعدوله إلى بيان حكمته دليلٌ على صِحَّتِهِ، ولو كانت الكُتب كلُّها نزلت مفرّقة لكان يكفي في الردّ عليهم أن يقول: إنّ ذلك سنّة الله في الكتب الّتي أنزلها على الرّسل السّابقة، كما أجاب بمثل ذلك قولهم: ﴿وَ قَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَاْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْاَسْوَاقِ﴾[1] فقال: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ اِلَّا اِنَّهُمْ لَيَاْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْاَسْوَاقِ﴾[2]، وقولهم: ﴿اَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾[3]، فقال: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ اِلَّا رِجَالًا نُوحِى اِلَيْهِمْ﴾[4]، وقولهم: كيف يكون رسولًا ولا همّ له إلّا النّساء! فقال: ﴿وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ اَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً...﴾[5]، إلى غير ذلك.

ومن الأدلّة على ذلك أيضًا قوله تعالى في إنزال التّوراة على موسى يوم الصّعقة: ﴿فَخُذْ مَا اٰتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِين * وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْاَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا

---

١ ـ الفرقان / ٧.

٢ ـ الفرقان / ٢٠.

٣ ـ الإسراء / ٩٤.

٤ ـ يوسف / ١٠٩.

٥ ـ الرّعد / ٣٨.

لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[1]، ﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ﴾[2]، ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[3]، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾[4]، فهذه الآيات كلّها دالّة على إتيانه التّوراة جملةً.

وأخرج ابن أبي حاتِم من طريق سعيد بن جُبَير، عن ابن عبّاس، قال: أُعطي موسى التّوراة في سبعة ألواح من زَبَرجد، فيها تبيان لكلّ شيءٍ وموعظة. فلمّا جاء بها فرأى بني إسرائيل عُكوفًا على عبادة العِجل رمى بالتّوراة من يده فتحطّمت، فرفع الله منها ستّة أسباع وبقي منها سُبع.

وأخرج من طريق جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه، رفعه، قال: الألواح الّتي أُنزِلت على موسى كانت من سِدْرِ الجنّة، كان طول اللّوح اثني عشر ذراعًا.

وأخرج النّسائيّ وغيره عن ابن عبّاس، في حديث الفتون، قال: أخذ موسى الألواح بعدما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالّذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يُقرُّوا بها حتّى نَتقَ الله عليهم الجبل كأنّه ظُلَّةٌ، ودنا منهم حتّى خافوا أن يقع عليهم، فأقرّوا بها.

وأخرج ابن أبي حاتم، عن ثابت بن الحَجّاج، قال: جاءتهم التّوراة جملةً واحدةً، فكبُر عليهم، فأبَوْا أن يأخذوها حتّى ظلّل الله عليهم الجبل، فأخذوها عند ذلك.

فهذه آثار صحيحة صريحة في إنزال التّوراة جملةً. ويؤخذ من الأثر الأخير منها حكمة أُخرى لإنزال القرآن مفرّقًا، فإنّه أدعى إلى قبوله إذا نزل على التّدريج، بخلاف ما لو نزل جملةً واحدةً، فإنّه كان ينفر من قبوله كثير من النّاس؛ لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي.

ويوضح ذلك ما أخرجه البُخاريّ عن عائشة، قالت: إنّما نزل أوّل ما نزل منه سورة

---

١ ـ الأعراف / ١٤٤، ١٤٥.

٢ ـ الأعراف / ١٥٠.

٣ ـ الأعراف / ١٥٤.

٤ ـ الأعراف / ١٧١.

من المفصّل فيها ذكر الجنّة والنّار، حتّى إذا ثاب النّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيءٍ «لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ» لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزّنا أبدًا. ثمّ رأيت هذه الحكمة مصرّحًا بها في النّاسخ والمنسوخ المكيّ.

فرع

الّذي استُقْرِىء من الأحاديث الصّحيحة وغيرها أنّ القرآن كان ينزّل بحسب الحاجة خمس آيات وعشرًا وأكثر وأقلّ، وقد صحّ نزولُ العشر آيات في قصّة الإفْك جملة، وصحّ نزول عشر آيات من أوّل «المؤمنون» جملة، وصحّ نزول ﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾[1] وحدها؛ وهي بعض آية، وكذا قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً...﴾[2] إلى آخر الآية، نزلت بعد نزول أوّل الآية كما حرّرناه في أسباب النّزول، وذلك بعض آية.

وأخرج ابن أشته في كتاب «المصاحف» عن عِكرِمة في قوله: ﴿بِمَوَاقِعِ﴾[3] قال: أنزل الله القرآن نُجومًا ثلاث آيات، وأربع آيات، وخمس آيات.

وقال النّكزاويّ في كتاب «الوقف»: كان القرآن ينزِل مفرّقًا الآية والآيتين والثّلاث والأربع، وأكثر من ذلك.

[ثمّ ذكر رواية ابن عَساكِر من طريق أبي نَضرة ورواية البَيْهَقيّ في «الشُّعَب» من طريق أبي خَلدة ...، كما تقدّم آنفًا في «الدرّ المنثور» ثمّ قال:]

من طريق ضعيف عن عليّ، قال: أُنزل القرآن خمسًا خمسًا إلّا سورة الأنعام، ومن حفظ خمسًا خمسًا لم ينسه.

فالجواب: أنّ معناه – إن صحّ – إلقاؤه إلى النّبيّ ﷺ بهذا القدر حتّى يحفظه، ثمّ يلقي إليه الباقي، لا إنزاله بهذا القدر خاصّة. ويوضّح ذلك ما أخرجه البَيْهَقيّ أيضًا، عن خالد بن دينار، قال: قال لنا أبو العالية: تعلّموا القرآن خمس آيات، خمس آيات، فإنّ النّبيّ ﷺ

---

١ ـ النّساء / ٩٥.

٢ ـ التّوبة / ٢٨.

٣ ـ الواقعة / ٧٥

كان يأخذه من جبريل خمسًا خمسًا.

المسألة الثّانية: (في كيفيّة الإنزال والوحي)

قال الأصفهانيّ في أوائل تفسيره: اتّفق أهلُ السُّنّة والجماعة على أنّ كلام الله منزّل... [وذكر كما تقدّم عن الزّركشيّ].

وقال الطِّيبيّ: لعلّ نزول القرآن على النّبيّ ﷺ أن يتلقّفه المَلكُ من الله تعالى تلقُّفًا روحانيًّا، أو يحفظه من اللّوح المحفوظ، فينزل به إلى الرّسول ويلقيه عليه.

وقال القُطب الرّازيّ في «حواشي الكَشّاف»: الإنزال لغةً بمعنى الإيواء، بمعنى تحريك الشّيء من عُلوّ إلى أسفل، وكلاهما لا يتحقّق في الكلام، فهو مستعمَلٌ فيه في معنى مجازيّ، فمن قال: القرآن معنى قائم بذات الله تعالى، فإنزاله أن يوجد الكلمات والحروف الدّالّة على ذلك المعنى ويثبتها في اللّوح المحفوظ. ومن قال: القرآن هو الألفاظ: فإنزاله مجرّد إثباته في اللّوح المحفوظ، وهذا المعنى مناسب لكونه منقولًا عن المعنيين اللُّغويَّيْن. ويمكن أن يكون المراد بإنزاله إثباته في السّماء الدّنيا بعد الإثبات في اللّوح المحفوظ، وهذا مناسب للمعنى الثّاني، والمراد بإنزال الكتب على الرّسل أن يتلقّفها المَلَك من الله تلقُّفًا روحانيًّا أو يحفظها من اللّوح المحفوظ، وينزل بها فيلقيها عليهم، انتهى.

وقال غيره في المُنزَل على النّبيّ ﷺ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه اللّفظ والمعنى، وأنّ جبريل حفظ القرآن من اللّوح المحفوظ ونزل به. وذكر بعضهم أنّ أحرف القرآن في اللّوح المحفوظ، كلّ حرف منها بقدر جبل قاف، وأنّ تحت كلّ حرف منها معاني لا يحيط بها إلّا الله.

والثّاني: أنّ جبريل أنّما نزل بالمعاني خاصّة، وأنّه ﷺ علم تلك المعاني وعبّر عنها بلُغة العرب، وتمسّك قائل هذا بظاهر قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1].

والثّالث: أنّ جبريل ألقىٰ إليه المعنى، وأنّه عبّر بهذه الألفاظ بلغة العرب، وأنّ أهل السّماء يقرأونه بالعربيّة، ثمّ إنّه نزل به كذلك بعد ذلك.

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٣، ١٩٤.

وقال البَيْهَقيّ في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: يريد والله أعلم: إنّا أسمعنا الملك وأفهمناه إيّاه وأنزلناه بما سمع، فيكون الملك منتقِلًا به من عُلوٍّ إلى أسفل.

قال أبو شامَة: هذا المعنى مطَّرد في جميع ألفاظ الإنزال المضافة إلى القرآن، أو إلى شيءٍ منه يحتاج إليه أهل السّنَّة المعتقدون قِدَم القرآن وأنّه صفة قائمَة بذات الله تعالى.

قلت: ويؤيّد أنّ جبريل تلقَّفه سماعًا من الله تعالى ما أخرجه الطَّبَرانيّ من حديث النَّواس بن سَمعان مرفوعًا: إذا تكلَّم الله بالوحي أخذت السّماء رَجْفَة شديدة من خوف الله، فإذا سمع بذلك أهل السّماء صعقوا وخرُّوا سجَّدًا، فيكون أوّلهم يرفع رأسه جبريل فيكلِّمه الله من وَحْيِهِ بما أراد، فينتهي به على الملائكة، فكلَّما مرّ بسماء سأله أهلها: ماذا قال ربّنا؟ قال: الحقّ. فينتهي به حيث أمَرْ.

وأخرج ابن مَرْدُوَيه من حديث ابن مسعود رفعه: «إذا تكلَّم الله بالوحي سمع أهلُ السّموات صَلْصَلة كصَلْصَلةِ السّلسة على الصَّفوان، فيفزعون ويروْن أنّه من أمر السّاعة. وأصل الحديث في الصّحيح.

وفي تفسير عليّ بن سهل النّيسابوريّ: قال جماعة من العلماء... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:]

وقال: الجُوينيّ: كلام الله المنزَّل قسمان: قسم قال الله لجبريل: قل للنّبيّ الّذي أنت مرسل إليه: إنّ الله يقول: افعل كذا وكذا، وأمر بكذا وكذا، ففهِم جبريل ما قاله ربُّه، ثمّ نزل على ذلك النّبيّ وقال له ما قاله ربُّه، ولم تكن العبارة تلك العبارة، كما يقول الملك لمن يثق به: قل لفلان: يقول لك الملك: اجتهد في الخِدْمة، واجمع جندك للقتال، فإن قال الرّسول: يقول الملك: لا تتهاون في خدمتي ولا تترك الجند تتفرّق، وحثَّهم على المقاتلة، لا ينسب إلى كذب ولا تقصير في أداء الرّسالة. وقسم آخر قال الله لجبريل: اقرأ على النّبيّ هذا الكتاب، فنزل جبريل بكلمةٍ من الله من غير تغيير، كما يكتب الملك كتابًا ويسلّمه إلى أمين، ويقول: اقرأه على فلان، فهو لا يغيّر منه كلمة ولا حرفًا – انتهى.

قلت: القرآن هو القسم الثّاني، والقسم الأوّل هو السُّنَّة، كما ورد أنّ جبريل كان ينزل بالسُّنَّة كما ينزل بالقرآن. ومن هنا جاز رواية السّنة بالمعنى، إلّا أنّ جبريل أدّاه بالمعنى،

ولم تجز القراءة بالمعنى؛ لأنّ جبريل أدّاه باللّفظ، ولم يبح له إيحاءه بالمعنى، والسّرُّ في ذلك أنّ المقصود منه التّعبّد بلفظه والإعجاز به. فلا يقدر أحد أن يأتيَ بلفظ يقوم مقامه. وأنّ تحت كلّ حرف منه معانيَ لا يُحاط بها كثرة، فلا يقدر أحدٌ أن يأتي بدلَه بما يشتمل عليه. والتّخفيف على الأُمّة حيث جُعل المُنزل إليهم على قسمين: قسم يروونه بلفظه الموحَى به، وقسم يروونه بالمعنى، ولو جعل كلّه ممّا يروىٰ باللّفظ لشقَّ، أو بالمعنى لم يؤمَن التّبديل والتّحريف، فتأمّل.وقد رأيت عن السّلف ما يعضد كلام الجُوينيّ.

وأخرج ابن أبي حاتِم، من طريق عُقَيْل عن الزُّهْريّ، أنّه سُئل عن الوحي، فقال: الوحي: ما يوحى الله إلى نبيّ من الأنبياء، فيثبته في قلبه، فيتكلّم به ويكتبه، وهو كلام الله، ومنه ما لا يتكلّم به ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، ولكنّه يحدّث به النّاس حديثًا، ويبيّن لهم أنّ الله أمره أنْ يُبَيِّنَه للنّاس ويبلّغهم إيّاه. (١: ١٤٦ - ١٦٠)

المسألة الثّالثة: (في الأحرف السّبعة ...) سيجيىءُ بحثها في القسم الثّالث من هذا الكتاب.

الفصل الخامس والعشرون

نصّ القَسْطَلانيّ (م: ٩٢٣ هـ) في

«لطائف الإشارات لفنون القراءات»

وقد أخرج النّسائيّ والحاكم عن ابن عبّاس: أنزل القرآن... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:].

قال العلاّمة شيخ الحُفّاظ ابن حَجَر، وفي رواية للحاكم والبَيْهَقيّ في الدّلائل: فُرِّق في السّنين. وفي رواية لابن أبي شَيبة والحاكم أيضًا وضع في بيت العزّة، في السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ وإسناده صحيح. [ثمّ ذكر قول «الحَليميّ في المنهاج» كما تقدّم عن أبي شامَة، فقال:]

وهذا أورده ابن الأنباريّ من طريق ضعيفة ومنقطعة أيضًا. وما تقدّم - من أنّه نزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل بعد ذلك مفرّقًا - هو الصّحيح المعتمد. [ثمّ ذكر قول الماوَرْديّ كما تقدّم عن أبي شامَة، فقال:] وهذا أيضًا غريب، والمعتمد أنّ جبريل كان يعارض النّبيّ ﷺ في رمضان بما ينزل به عليه في طول السّنة. كذا جزم به الشَّعبيّ، فيما أخرجه عنه أبو عُبَيد، وابن أبي شَيْبة بإسناد صحيح.

وفي معارضة جبريل النّبيّ ﷺ بالقرآن في شهر رمضان حكمتان؛ إحداهما: تعاهُدُه، والثّانية: تبقيةُ ما لم ينسخ منه، ورَفع ما نُسِخ، فكان رمضان ظرفًا لإنزاله جملةً، وعرضًا

وإحكامًا.

وقد أخرج أحمد والبَيْهَقيّ في الشُّعَب عن واثِلَة... [وذكر كما عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وهذا كلّه مطابق لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[1] ولقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]. فيحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السّنة كانت تلك اللّيلة، فأُنزل فيها جملة إلى سماء الدّنيا، ثمّ أنزل في الرّابع والعشرين، إلى الأرض، أوّلُ: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾[3]. وفي إنزال القرآن مفرّقًا وجوهٌ من الحكمة.

منها: تسهيلُ حفظه، وتكريرُ لفظه؛ لأنّه لو نزل جملةً واحدةً، على أُمّةٍ أُمّيّةٍ، لا يقرأ غالبُهم، ولا يكتبُ، لشقّ عليهم حفظُه، وثقل لفظُه، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى بقوله ردًّا على الكفّار: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ﴾، أي أنزلناه مفرّقًا، ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[4]، أي لنقوّي بتفريقه فؤادك، حتّى تَعِيَهُ وتحفظه؛ لأنّ الملقّن إنّما يَقْوىٰ قلبُه على حفظ العلم شيئًا بعد شيءٍ، وجزءًا بعد جُزْءٍ، ولو أُلْقي عليه جملةً واحدةً لعجز عن حفظه. وبقوله تعالى: ﴿وَقُرْاٰنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[5]، أي على حسب الوقائع، فقد يَسَّرَه تعالى للذّكر، وإلّا فالطّاقة البشريّة تعجز قواها عن حفظه وحمله. ولقد شهد بذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا اَلْقُرْاٰنَ لِلذِّكْرِ﴾[6]، ﴿اَلرَّحْمٰنُ عَلَّمَ اَلْقُرْاٰنَ﴾[7]. وانظر إلى قوله سبحانه: ﴿لَوْ اَنْزَلْنَا هٰذَا اَلْقُرْاٰنَ عَلٰى جَبَلٍ لَرَاَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اَللّٰهِ﴾[8]، وقوله: ﴿وَلَوْ اَنَّ قُرْاٰنًا سُيِّرَتْ بِهِ اَلْجِبَالُ اَوْ

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ العلق / ١.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

٥ ـ الإسراء / ١٠٦.

٦ ـ القمر / ١٧، ٣٢، ٤٠.

٧ ـ الرّحمن / ١.

٨ ـ الحشر / ٢١.

قُطِّعَتْ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾[١]، أي لكان هذا القرآن الّذي أنزلناه إليك.

ومنها: ما يستلزم من الشّرف له ﷺ، والعناية به؛ لكونه تردّد به إليه، يعلّمه أحكام ما يقع له، وأجوبة ما يُسأل عنه من الأحكام والحوادث.

[ثمّ ذكر قول أبي شامَة وقول السَّخاويّ، كما تقدّم عن أبي شامَة، فقال:].

ومنها: أنّه أُنزِل على سبعة أحرفٍ، فناسب أن يَنْزل مفرَّقًا؛ إذ لو نزل دفعةً واحدةً لشَقّ بيانها عادةً.

وقد ضبط النّقل ترتيب نزول الآيات، إلّا قليلًا، وأوّل سورة نزلت ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[٢]. فنزل من أوّلها خمس آيات، ثمّ نزل باقيها بعد ذلك، وكذلك سورة المدّثّر، نزلت بعدها، نزل أوّلها، ثمّ نزل سائرُها بعد.

وقد أخرج أصحاب السُّنن الثّلاثة، وصحّحه الحاكم وغيره من حديث ابن عبّاس عن عُثمان، قال: كان رسول الله ﷺ تُنزّل عليه الآيات فيقول: «ضعوها في السّورة الّتي يذكر فيها كذا». (٢٢ - ٣٦)

---

١ ـ الرّعد / ٣١.

٢ ـ العلق / ١.

الفصل السّادس والعشرون

نصّ شيخ زاده (م: ٩٥٠هـ) في «حاشيته على تفسير البَيْضاويّ»

﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان / ١.

والإنزال والتّنزيل عبارتان عن تحريك الشّيء مبتدأ من الأعلى إلى الأسفل، وبينهما فرق من جهة أنّ التّنزيل يدلّ على النّزول تدريجًا، والإنزال يدلّ على النّزول دفعةً، وذلك لأنّ بناء التّفعيل للتّكثير، وكثرة النّزول إنّما يكون بكونه على سبيل التّدريج، ثمّ إنّ المتحرّك قسمان؛

أحدهما: متحيّز بالذّات كالجواهر المفردة وما يتركّب منها.

وثانيهما: متحيّز بالتّبع وهو الأعراض القائمة بموضوعاتها، فإنّ العرض تابع لموضوعه في التّحيّز سواءً كان قارًّا في الموضوع كالسّواد والبياض، أو سيّالًا مترتّب الأجزاء، ممتنع البقاء كالحركة والكلام اللّفظيّ. وكلّ واحدٍ من القسمين المذكورين تعرض له الحركة حقيقة، إلّا أنّ القسم الأوّل منهما تعرض له الحركة أصالة وبالذّات، بخلاف القسم الثّاني فإنّه لا يتحرّك أصالة؛ لاستحالة انتقال الأعراض عن موضوعاتها، وإنّما يتحرّك بتبعيّة محلّه ضرورة تحرّك الحال بحركة المحلّ، كالجسم الأسود المتحرّك إذا تحرّك بحركة تحرّك ما حلّ فيه من السّواد، والكلام تبعًا له.

ثمّ إنّ الكلام النّفسيّ الّذي هو صفة أزليّة قائمة بذاته تعالى، لا يتصوّر فيه الحركة

والنّزول لا بالذّات، وهو ظاهرٌ، لامتناع انتقال شيء من صفات الله تعالى عنه، ولا بتبعيّة موصوفه الّذي هو ذات الواجب تعالى وتقدّس؛ لاستحالة الحركة عليه حتّى تتحرّك صفاته تبعًا له. وإنّما المنزل هو الكلام اللّفظيّ الحادث المركّب من الألفاظ والحروف المؤلّفة من الآيات والسُّور، وهو القرآن المعجز المتحدّىٰ به؛ لكونه كلام الله حقيقة على أنّه مخلوق الله تعالى ليس من تأليف المخلوقين، لا على معنى أنّه صفة قائمة بذاته تعالى؛ لأنّه حادث ويمتنع قيام الحوادث به تعالى. ويجوز أن يخلق الله تعالى أصواتًا مقطّعة مؤلّفة على هذا النّظم المخصوص، فيأخذها جبريل عليه السلام، ويخلق له علمًا ضروريًّا أنّه هو العبارة المؤدّية لمعنى ذلك الكلام النّفسيّ القديم الّذي هو كلام الله على معنى أنّه صفة له قائمة به مع أنّ الأشاعرة يجوّزون أن يسمع كلامه تعالى الأزليّ بلا صوت وحرف، كما يرى ذاته تعالى في الآخرة بلا كمّ وكيف فعلى هذا يجوز أن يخلق الله تعالى لجبريل عليه السلام وهو في مقامه عند سدرة المنتهى؛ سماعًا لكلامه الأزليّ وإن لم يكن من جنس الحروف والأصوات، ثمّ يقدّره على عبارة يعبّر بها عن ذلك الكلام القديم.

وقيل: أظهر الله تعالى في اللّوح المحفوظ كتابة هذا النّظم المخصوص ونقشه، فقرأه جبريل عليه السلام وحفظه. وخلق الله تعالى فيه علمًا ضروريًّا بأنّه هو نفس العبارة المؤدّية للمعنى القديم، على أنّ إنزال الملك الكتاب السّماويّ لا يتوقّف على سماع اللّفظ، لجواز أن يتلقّفه الملك تلقّفًا روحانيًّا، أي لا جسمانيًّا، بأن يلهم الله تعالى الملك ذلك المعنى القديم، ويخلق فيه قدرة على التّعبير عنه، ويسمّى النّظم الصّادر عنه كلام الله تعالى باعتبار كونه عبارة عن الكلام النّفسيّ دالًّا عليه.

ثمّ إنّ الكلام النّفسيّ لكونه غير متحيّز بالذّات بل هو عرض قائم بالموضوع لا يكون إنزاله وتنزيله إلّا تبعًا لحامله ومبلّغه، فإنّه تعالى لمّا نزّل جبريل عليه السلام وحرّكه إلى أسفل وهو حاملٌ للقرآن بأن أمره بالحركة إلى أسفل، فتحرّك هو بأمره تعالى، فقد تحرّك القرآن القائم به تبعًا لحركته. فينبغي أن يكون قوله: ﴿نَزَّلَ الفُرقَانَ﴾ مجازًا على طريق إطلاق اسم العرض الحالّ على المحلّ الّذي هو ذلك الحامل، فإنّه هو المنزّل بالذّات والأصالة والقرآن منزّل تبعًا له. والمعنى نزّل القرآن بواسطة تنزيل جبريل عليه السلام ثمّ إنّ القرآن العظيم يصحّ أن

يوصف بأنّه منزل ومنزّل؛ لأنّه تعالى أنزله جملةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، وأمر السّفرة الكرام بانتساخه، ثم نزّله إلى الأرض إلى النّبيّ ﷺ منجّمًا موزّعًا على حسب المصالح ووقوع الحوادث، إلّا أنّ في إنزاله إلى السّماء الدّنيا قولين؛

أحدهما: ما روي عن عِكرِمة عن ابن عبّاس أنّه قال: أُنزل القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثمّ نزل إلى الأرض في عشرين سنة.

وثانيهما: أنّه أنزل من اللّوح إلى السّماء الدّنيا كلّ سنة مقدار ما يكون منزلًا في سنة واحدة بحسب المصالح.

فعلى هذا القول يقع الإنزال الدّفعيّ عشرين مرّة، وعلى القول الأوّل يقع مرّةً واحدةً: وإنّما حمد الله تعالى على التّنزيل دون الإنزال على أنّ التّنزيل أعمّ وأكمل نعمة في حقّنا بالنّسبة إلى الإنزال؛ إذ لا تظهر لنا فائدة في نزوله جملةً إلى السّماء الدّنيا. (١: ٢-٣)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥.

قوله: (أي ابتدأ فيه إنزاله) جواب عمّا يقال: إنّ القرآن نزل على محمّد ﷺ في مدّة ثلاث وعشرين سنة منجّمًا مبعّضًا، فما معنى تخصيص إنزاله بـرمضان؟ أجـاب بـثلاثة أوجه؛

الوجه الأوّل: أنّ ابتداء نزوله وقع في رمضان في ليلة القدر منه، وفيه مجاز حينئذٍ؛ لأنّه حمل لفظ القرآن على بعض أجزائه.

ورُوي عن عمر بن الخطّاب أنّه استدلّ بهذه الآية وبقوله: ﴿إِنَّـا اَنْـزَلْنَاهُ فِـى لَـيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] على أنّ ليلة القدر لا تكون إلّا في رمضان؛ لأنّ ليلة القدر إذا كانت في رمضان كان إنزاله في ليلة القدر إنزالًا في رمضان.

والوجه الثّاني: أنّ القرآن أُنزل في ليلة القدر جملةً إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزل نجومًا. روي عن ابن عبّاس ﷺ أنّه سئل عن قوله عزّ وجلّ: ﴿شَهْرُ رَمَـضَانُ الَّـذِى اُنْـزِلَ فِـيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقوله : ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ وقد نزل

---

١ ـ القدر / ١.

في سائر الشّهور. قال عزّ وجلّ: ﴿وَقُرْاٰنًا فَرَقْنَاهُ﴾[١]، فقال: أنزل القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا، ثمّ نزل به جبريل عليه السلام على رسول‌الله ﷺ نجومًا في عشرين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[٢].

والوجه الثّالث: أنّ قوله: ﴿اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ معناه أُنزل في فضل هذا الشّهر وإيجاب صومه على الخلق القرآن، كما تقول: أنزل الله في الزّكاة آية كذا، أي في إيجابها، وأنزل في الخمر آية كذا، أي في تحريمها.

وقوله: ﴿اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ يؤيّد الوجه الثّاني من الجواب، بناء على ما اشتهر من أنّ الإنزال مختصّ بما يكون النّزول فيه دفعةً واحدةً، وأنّ التّنزيل مختصّ بالنّزول على سبيل التّدريج، ولهذا قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَاَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالْاِنْجِيلَ﴾[٣]. (١: ٤٩٣)

﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان / ٣.

قوله: (ابتدىء فيها إنزاله) جواب عمّا يقال: ما معنى إنزال القرآن في هذه اللّيلة، مع أنّه تعالى أنزله في جميع الشّهور ولياليها وأيّامها؟

وروي أنّ عَطيّة الحَروريّ سأل ابن عبّاس... [وذكر كما تقدّم عن الفَخر الرّازيّ].

قال قَتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن في ليلة القدر من أُمّ الكتاب إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزل به جبريل على رسول‌الله ﷺ نجومًا في عشرين سنة. (٤: ٣٠٨ ـ ٣٠٩)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسٰى اِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ اِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَايَخْفٰى﴾ الأعلىٰ / ٦ ـ ٧

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الواقعة / ٧٥.

٣ ـ آل عمران / ٢.

قوله: (سنقرئك على لسان جبريل) أي سنُعلّمك بأن يقرأ عليك جبريل القرآن مرّات إلى أن تحفظ حفظًا لا تنساه بعد ذلك، أو سنجعلك قارئًا بإلهام القراءة، بأن نشرح صدرك ونقوّي خاطرك حتّى تحفظه بالمرّة الواحدة حفظًا لا تنساه. فيكون حفظه ﷺ لهذا الكتاب المطوّل من غير دراسة ولا تكرار ولا كتبة أمرًا خارقًا للعادة، ولا سيّما هو أُمّيّ فيكون معجزًا. وأيضًا إنّ هذه السّورة من أوائل ما نزل بمكّة، وقد أخبر الله أنّه سيظهر على يده أمرًا عجيبًا غريبًا مخالفًا للعادة، وهو أنّه تعالى سيقرئه وهو أمّيّ لا يكتب ولا يقرأ، فيحفظه ولا ينساه إلّا ما شاء الله أن ينساه، فيذهب به عن حفظه برفع حُكمه وتلاوته، كما قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾[1] فإنّ الإنسان نوع من النّسخ، وهذا إخبار عن الغيب، وقد وقع كما أخبر فيكون معجزًا. قيل: كان ﷺ إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسىٰ، وكان جبريل ﷺ لا يفرغ من آخر الوحي حتّى يتكلّم ﷺ بأوّله مخافة النّسيان، فأنزل الله سبحانه وتعالى :﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾ فلم ينسَ بعد ذلك شيئًا؛ لأنّه لا يخلف وعده ولا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ نافية، وعليه الجمهور، لا للنّهي؛ لأنّ الإنسان لا ينهىٰ عن النّسيان، لأنّه لا مدخل فيه للاختيار، فلا ينهىٰ عنه، فلذلك ثبت الألف في ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ في الخطّ والتّلفّظ. ومن جعله نهيًا عن النّسيان احتاج إلى التّكلّف في توجيه ورود النّهي عمّا ليس باختياريّ، فقال: إنّ النّهي وإن كان عن النّسيان صورة لكنّه في الحقيقة نهي عن سببه، وهو الغفلة عن دراسته وتكريره، فكأنّه قيل: لا تغفل عن قراءته وتكراره فتنساه واحتاج في توجيه ثبوت الألف إلى أن يقول: إنّها مزيدة رعاية لفواصل الآي كالّتي في ﴿الظُّنُونَا﴾[2] و﴿السَّبِيلَا﴾[3] وحمله على الخبر أولى؛ لعدم احتياجه إلى التّكلّف. وقوله: ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ أصلًا، أي لا بطريق النّسخ ولا بغيره، ذكره ليظهر كون الاستثناء متّصلًا.

قوله: (وقيل: المراد به القلّة) أي قلّة المنسيّ الّذي يعقبه التّذكّر، عطف من حيث

---

١ ـ البقرة / ١٠٦.

٢ ـ الأحزاب/ ١٠.

٣ ـ الأحزاب/ ٦٧.

المعنى على قوله: (بأن تنسخ تلاوته) فإنّ المراد بنسيان ما شاء الله نسيانه حينئذٍ النّسيان المستمرّ؛ بحيث لا يعقبه التّذكّر بعده، فإنّ النّسيان الّذي هو أحد طريقي النّسخ لابدّ أن يكون مستمرًّا وأمّا أنّ حمل الاستثناء على القلّة فحينئذٍ يكون المراد بالنّسيان، النّسيان المتعارف الّذي يعقبه التّذكّر بعده، ويكون المقصود من الاستثناء تقليل المنسيّ بهذا المعنى، فإنّه ﷺ قد عرض له النّسيان بهذا الوجه كما ذكره المصنّف. ووجه إفهام معنى القلّة من هذا الاستثناء أنّ المستثنىٰ هو المنسيّ الّذي تعلّقت المشيئة بنسيانه، ولاشكّ أنّ تعلُّق المشيئة بنسيان شيء منه غير معلوم؛ إذ يجوز أن لا تتعلّق بشيء منه أصلًا، وعلى تقدير تعلّقها بنسيان شيء منه فلاشكّ أنّ ما تعلّقت المشيئة بنسيانه أقلّ من الباقي بعد الاستثناء، فدار أمر المستثنى بين أن ينتفي رأسًا وبين القلّة والنّدرة، وما كان كذلك يكون في غاية القلّة، فهذا وجه من حمل الاستثناء على القلّة.

قوله: (أو نفي النّسيان) مرفوعٌ معطوفٌ على قوله: «القلّة والنّدرة» والنّسيان المنفيّ على القولين الأخيرين هو النّسيان الّذي يعقبه التّذكرّ، إلّا أنّه على القول الأوّل يقصد استثناء القليل منه، كأنّه قيل: فلا تنسىٰ شيئًا ممّا علّمناه لك وقرأناه عليك نسيانًا متعارفًا، وهو الّذي يعقبه التّذكّر بعد إلّا قليلًا منه. وعلى القول الثّاني لا يقصد استثناء شيء منه، ويكون قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لنفي النّسيان المتعارف رأسًا وكلّ واحد من القسمين قسيم لقوله: ﴿فَلَا تَنْسَىٰ﴾ شيئًا ممّا أقرأناك أصلًا إلّا ما شاء الله نسيانه بأن تنسخ تلاوته. ولمّا كان قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ممّا يدلّ على القلّة جاز أن يراد منه نفي النّسيان رأسًا، فإنّ استعمال القلّة بمعنى النّفي رأسًا وارد في كلامهم كما في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1]، فإنّ قضاء حقّ الشّكر بكماله غير مقدور للبشر.

قوله: (فَيعْلم ما فيه صلاحكم من إيقاء أو إنساء) تفريع على التّفسيرين، وأشار إلى أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ تعليل للحكم السّابق المشتمل على الاستثناء، بأن يجعل علمه تعالى بما ظهر من أحوال عباده وبما يخفىٰ منها، أو علمه بجهره ﷺ بالقرآن مع جبريل وبما يخفى في نفسه ممّا يدعوه إليه من مخافة النّسيان

---

١ ـ سبأ / ١٣.

مجازًا عن علمه بما فيه صلاح العباد، فلا ينسى ما أنساه من الوحي ولا يبقىٰ ما أبقاه إلّا لمصلحة تعود إليهم.

قوله: (ونعدّك للطّريقة اليُسرىٰ) ضمن قوله: ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ معنى الإعداد والتّوفيق بيانًا لوجه تعدية قوله: ﴿نُيَسِّرُكَ﴾ بدون اللّام. فإنّ العبارة الشّائعة أن يقال: جعل الفعل الفلانيّ ميسّرًا لفلان، ولا يقال: جعل فلان ميسّرًا للفعل الفلانيّ، فالظّاهر أن يقال: نيسّر اليُسرىٰ لك، إلّا أنّه جعل الفاعل ميسّرًا للفعل في هذا الموضع، وكذا في سورة اللّيل أيضًا وفي قوله ﷺ «اعملوا، فكلّ ميسّر لما خلق له» باعتبار التّضمين، أي معدّ وموفّق له. والمراد بالطّريقة اليُسرىٰ أعمال الخير، سميّت يُسرىٰ لكونها مؤدّية إلى اليسرىٰ والرّاحة.

وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ معطوف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾اعتراض، والتّقدير سنقرئك فلا تنسىٰ ونوفّقك للطّريقة الّتي هي أسهل وأيسر في حفظ القرآن، أو في باب التّديّن والطّاعة ... (٤: ٦٤٨ ـ ٦٤٩)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١.

قوله: (وإنزاله فيها) جواب عمّا يقال: القرآن إن لم ينزل جملةً واحدةً في وقت واحد، بل أنزل منجّمًا مفرّقًا في ثلاث وعشرين سنة، فما وجه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾؟ وأجاب عنه بثلاثة أوجه:

الأوّل: أنّ المراد ابتدأنا بإنزاله على طريق التّنجيم والتّفريق في ليلة القدر، بناء على أنّ البعثة كانت في رمضان.

والثّاني: أنّ السّؤال إنّما يرد أنْ لوكان المراد إنزاله إلى الأرض وإلى الرّسول ﷺ، فإنّه الّذي كان منجّمًا في ثلاث وعشرين سنة، وليس المراد ذلك، بل المراد والله أعلم ماروي عن ابن عبّاس ﵄ أنّ جبريل ﵇ نزل به جملةً واحدةً... [وذكر كما تقدّم عن الطّبرسيّ].

والثّالث: أنّ السّؤال إنّما يرد أن لو كان ليلة القدر ظرفًا لنفس الإنزال، على معنى أنّ الإنزال وقع في ذلك الزّمان المعيّن، وليس كذلك بل المعنى إنّا أنزلناه في حقّ فضل ليلة القدر وبيان شرفها وقدرها، وهذا المعنى لاينافي كون الإنزال مفرّقًا في ثلاث وعشرين سنة. (٤: ٦٧٩)

الفصل السّابع والعشرون

نصّ الخطيب الشّربينيّ (م: ٩٧٧ هـ) في «السّراج المنير»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾ البقرة / ١٨٥.

جُملةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثمّ تنزّل منجّمًا إلى الأرض. وقيل: ابتدىء فيه إنزاله وكان ذلك ليلة القدر، وقيل: أُنزل في شأنه القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [1].

وعن النّبيّ ﷺ: نزلت صحف إبراهيم... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

فائدة: قال ابن عادل: يروىٰ أنّ جبريل عليه السلام نزل على آدم اثنتي عشرة مرّة، وعلى إدريس أربع مرّات، وعلى إبراهيم إثنتين وأربعين مرّة، وعلى نوح خمسين مرّة، وعلى موسىٰ أربعمائة مرّة، وعلى عيسى عشر مرّات، وعلى محمّد ﷺأربعة وعشرين ألف مرّة. (١: ١٢٠)

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ الإسراء / ١٠٥.

---

١ ـ البقرة/١٨٣.

...ثمّ إنّ الله تعالى أخبر أنّ الحكمة في إنزال القرآن مفرّقًا بقوله: ﴿قُراٰنًا﴾، أي فصّلناه، أو أنزلنا قرآنًا. ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي أنزلناه منجّمًا في أوقات متطاولة. [ثمّ ذكر قول سعيد بن جُبَير، كما تقدّم عن الفَخْر الرّازيّ، فقال:]

﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾، أي عامّة. ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي مَهل وتُؤَدَةٍ ليفهموه. ﴿وَنَزَّلْنَاهُ﴾: من عندنا بمالنا من العظمة، ﴿تَنْزِيلًا﴾: بعضه إثر بعضٍ مفرّقًا بحسب الوقائع لأنّه أتقن في فصلها، وأعون على الفهم؛ لطول التّأمّل لما نزل من نجومه في مدّة ما بين التّجميين، لغزارة ما فيه من المعاني. (٢: ٣٤٣)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُراٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣١

الشُّبهة الخامسة لمنكري النّبوّة: ما حكاه الله تعالى عنهم لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي الّذين غطّوا عداوةً وحسدًا ما تشهد عقولهم بصحّته من أنّ القرآن كلام الله تعالى: لإعجازه لهم مفرّقًا، فضلًا عن كونه مجتمعًا. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُراٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي من أوّله إلى آخره، كما أُنزلت التّوراة على موسى ﷺ والإنجيل على عيسى ﷺ، والزّبور على داود ﷺ؛ لتحقّق أنّه من عند الله تعالى، ويزول عنّا ما نتوهّمه من أنّه الّذي يرتّبه قليلًا قليلًا.

وهذا الاعتراض في غاية السّقوط؛ لأنّ الإعجاز لا يتخلّف بنزوله جملةً أو متفرّقًا، مع أنّ للتّفريق فوائد؛ منها ما أشار بقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ ...﴾، [ثمّ ذكر تفسير الآية، كما تقدّم عن الزّمخشريّ]. (٢: ٦٥٩)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُراٰنَ تَنْزِيلًا﴾ الإنسان / ٢٣

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، أي على ما لنا من العظمة الّتي لا نهاية لها لا غيرنا. ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾: وأنت أعظم الخلق إنزالًا، استعلى حتّى صار المنزل خلقًا لك. ﴿الْقُراٰنُ﴾، أي الجامع لكلّ هُدى ﴿تَنْزِيلًا﴾. قال ابن عبّاس: متفرّقًا آية بعد آية، ولم ينزّل جملةً واحدةً.

قال الرّازيّ: والمقصود من هذه الآية تثبيت الرّسول ﷺ وشرح صدره فيما نسبوه إليه ﷺ من كهانةٍ وسحر، فذكر تعالى أنّ ذلك وحي من الله تعالى، فكأنّه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الكفّار يقولون: إنّ ذلك كهانة فأنا الله الملك الحقّ، أقول على سبيل التّأكيد: إنّ ذلك وحي حقّ، وتنزيل صدق من عندي. وفي ذلك فائدتان:

الأُولى: إزالة الوحشة الحاصلة بسبب طعن الكفّار؛ لأنّ الله تعالى عظّمه وصدّقه.

الثّانية: تقويته على تحمّل مشاقّ التّكليف، فكأنّه تعالى يقول له: إنّي ما نزّلت القرآن عليك متفرّقًا إلّا لحكمة بالغة، تقتضي تخصيص كلّ شيءٍ بوقت معيّن، وقد اقتضت تلك الحكمة تأخير الإذن في القتال. (٤: ٤٥٩)

الفصل الثّامن والعشرون

نصّ ملّا فتح الله الكاشانيّ (م: ٩٨٨ ه) في تفسيره: «مَنْهَج الصّادقين»[1]

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا...﴾ البقرة / ٢٣

ذكر ﴿نَزَّلْنَا﴾ دون «أنزلنا» لأنّ نزول القرآن وقع نجمًا فنجمًا ودفعةً بعد دفعةً على حسب الوقائع كما هو مفهوم ﴿نَزَّلْنَا﴾، لا دفعةً واحدةً كما هو منطوق ﴿أَنْزَلْنَا﴾. والحكمة تكون في تنزيل القرآن دون إنزاله، لأنّ نزوله على وجه التّدريج يوهمهم بأنّ القرآن من جنس كلام أهل الشّعر والخطابة، وأمّا القرآن فيكون ظهوره على طريق النّجوم بحسب وقائعهم، كما حكى الله تعالى عنهم فقال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[2]. وعلى هذا الوجه وجب تحدّيهم، لإزالة الشّبهة وإلزام الحجّة. (١: ١٢٤)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلُ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤

---

١ ـ قد ترجمنا هذا النّصّ من الفارسيّة.

٢ ـ الفرقان / ٣١.

كان هذا نهيًا عن الاستعجال في تلقّي الوحي من جبرئيل والمساوقة معه في القراءة، حتّى يتمّ الوحي. وكان هذا النّهي بعد ذكر نزول هذه الآية على سبيل الاستطراد، فالآية لا تستلزم أنّ التّلقّي والمساوقة قبل نزولها كان منهيّ عنه، وينافي عصمته ﷺ، قاله ابن عبّاس والحسن والجُبّائيّ.

أو بمعنى إن نزلت عليك آية وسورة مجملة لا تقرأ على أصحابك، ولا تملي عليهم حتّى ينزل بيانه إليك، ويبيّن لك معانيه، قاله مجاهد وقَتادة وعَطيّة وابن مُسلم.

أو أنّها تعني لا تسأل إنزال القرآن قبل أن يأتيك وحيه؛ لأنّ الله تعالى ينزّله بحسب المناسبة، قاله الماوَرْديّ. [ثمّ ذكر شأن نزول الآية نقلًا عن ابن الجَوْزيّ كما تقدّم عنه، ثمّ قال:] بناءً على هذا فمعنى هذه الآية أنّه لا تحكم بشيءٍ إلّا بعد نزول القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي زدني علمًا بالأحكام الشّرعيّة، أعني أكرمني منه علمًا بعد علم. أو زدني علم القرآن ومعانيه، أي علّمني نزول آية بعد آية وسورة بعد سورة، أو بيّن معناه. أو زدني علمًا بقصص الأنبياء وبمنازلهم. أو زدني في حفظي حتّى لا أنسىٰ بما توحي إليّ، والمقصود بدل الاستعجال في القراءة حتّى تسأل الزّيادة بما سيوحىٰ إليك ويصلك، وستحفظه في خاطرك. (٦: ٣٠)

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ...﴾ الشّعراء / ١٩٢

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، أي لقّنك جبرئيل على الوجه الّذي كان مأمورًا به، وتعلّمت منه، وحفظت في قلبك بلا تبديل وتغيير.

وتنزيل جبرئيل من جانب الله تعالى على قلب النّبيّ ﷺ كان على سبيل التّوسّع؛ لأنّ حقيقة المعنى هو أنّ الله تعالى أسمع القرآن لجبرئيل وكان هو يحفظه، فأنزله على النّبيّ ﷺ، وأقرأه عليه، وكان هو يحفظه أيضًا بقلبه، فكأنّ نفس جبرئيل نزلت مع القرآن على قلبه.

وقرأ حَفص بتخفيف ﴿نَزَلَ﴾، ورفع الحاء والنّون في ﴿بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، والباء في (بِهِ) للتّعدية، أي أنزله جبرئيل على قلبك. [ثمّ ذكر قول البَيْضاويّ حول كيفيّة نزوله على

قلب النّبيّ كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

قيل: ذكر القلب لكون النّبيّ ﷺ أُمّيًّا، وحينما كان جبرئيل يتلو عليه كان يتعلّم بقلبه. (٦: ٤٨٠)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسٰى اِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ﴾ الأعلى / ٦ـ ٧

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، أي سنقرأ عليك القرآن، يعني أنّ جبرئيل كان قد قرأ عليك بأمرنا، أو ألهمنا عليك القراءة.

﴿فَلَا تَنْسٰى﴾، أي فلا تنسى القرآن؛ لقوّة حافظتك الّتي أعطيناكها لحفظ هذه السّورة والآيات، وهذه علامة أُخرىٰ على نبوّتك، أو أنّ الإخبار بالمستقبل ووقوعه فيها كان أيضًا من الآيات الباهرة والمعجزات الظّاهرة على نبوّتك.

وقال بعضهم: ﴿لَا تَنْسٰى﴾ نهي، والألف للفاصلة كقوله تعالى: ﴿السَّبِيلَا﴾ [1]، وإنّ النّسيان من الأفعال الإختياريّة حتّى تعلّق به النّهي.

فعلى هذا كان المعنى هكذا، لا تغفل عن قراءة القرآن حتّى لا تنساه، والأوّل أصحّ القولين، ففي هذا كان بشارةٌ له ﷺ أنّ كلّ ما نقرأ عليك لا تنسىٰ.

﴿اِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾، أي لا تنساه إلّا بمشيّة الله، وذلك عند نسخ قراءته. وحينئذٍ يمحو الله سبحانه من صحيفة قلبك، كقوله تعالى: ﴿اَوْ نُنْسِهَا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا اَوْ مِثْلِهَا﴾ [2].

وقيل: المراد بالنّفي نسيان المطلق؛ لأنّ القلّة تستعمل للنّفي، كما يقول الرّجل لصاحبه: أنت سهيمي فيما أملك إلّا فيما شاء الله، فالمراد فيها ليس استثناءً، بل كان من قبيل الاستعمال بمعنى النّفي.

[ثمّ ذكر قول الفرّاء، كما تقدّم عن الطَّبرِسيّ، ثمّ قال:]

﴿اِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾، أي أنّه يعلم ما ظهر من أقوالكم وأفعالكم.

﴿وَمَا يَخْفٰى﴾، أي ما بطن من أطواركم وأحوالكم، أي هو يعلم ما كان فيه مصلحة

---

١ ـ الأحزاب/٦٧.

٢ ـ البقرة / ١٠٦.

دينكم ودنياكم. أو يعلم قراءتك مع جبرئيل جهرًا، وما يخفى في نفسك باعثه الجهر لخوف النّسيان. فلا تخف، إنّي حافظك من نسيان ما في بقائه في فكرك صلاح، ومُنسيك ما في نسيانه مصلحة.

﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ عطف على ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ جملةٌ معترضةٌ. ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي نسهّل لك ونوفّقك لسلوك الطّريقة الأيسر والأسهل، وأنّه حفظ الوحي، أو حفظ الشّريعة الّتي هي أيسر الشّرايع وأسهلها من ناحية الأخذ والتّعليم (١٠:٢١٧)

الفصل التّاسع والعشرون

نصّ الشّيخ على دَدَه (م: ١٠٠٧ هـ) في «حلّ الرّموز وكشف الكنوز»[١]

السّؤال الحادي والأربعون من خواتم الحكم

ما الحكمة والسّرّ في إنزال القرآن جملةً واحدة إلى السّماء الدّنيا في بيت العزّة؟

الجواب: ذكره الإمام العلّامة والأُستاذ... في الإتقان: السّرّ في نزول القرآن جملةً إلى السّماء تفخيم أمره وشأنه، وتعظيم حكمه وبرهانه، وتكريم أمر من نزل عليه، وتعظيم من أُرسل الوحي إليه، وهو سيّد المرسلين وخاتم النّبيّين ﷺ ونزولها في بيت العزّة إشارة إلى أنّه كتاب عزيز إلى رسولٍ كريم، لدعوة أعزّ الأُمم على الله تعالى على لسان أفضل الرّسل، وفيه إشارة إلى أنّه بيت العزّة، أشرف المقامات السّماوية بعد اللّوح المحفوظ لنزول القرآن منه إليها، ولذلك قيل: تفضّل السّماء الأُولى على أخواتها لأنّها مقرّ الوحي الرّبّاني ومعدن آياتها.

وقيل: السّماء السّابعة أفضل؛ لأنّها مقام لسدرة المنتهى ومهبط الأحكام والأنوار، وهو مقام جبرئيل الأمين، ذي قوّة عند ذي العرش مكين.

قيل: فضل المكان بالمكين، وبالنّسب المتعدّة والوجوه المختلفة يكون الفضل تارةً

---

١ ـ نقل كلام السّيوطيّ بتصرّفٍ، ولذا لم نحذف منه شيئًا.

أمرًا إضافيًّا أو نسبيًّا أو ذاتيًّا أو عرضيًّا، فافهم.

وذلك بإعلام مكان السّموات السّبع أنّ آخر الكتب المنزّلة هذا الكتاب المبين على خاتم الرّسل لأشرف الأُمم، قد قرّبناه إليهم لننزله عليه. ولولا أنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت وصوله إليهم منجّمًا بحسب الوقائع لأهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزّلة قبله، ولكن باين بينه وبينها، فجعل الأمرين إنزاله جملةً، ثمّ إنزاله مفرّقًا تشريفًا للمنزل عليه، كما ذكره أبو شامة في «المرشد الوجيز».

السّؤال الثّاني والأربعون من خواتم الحكم:

ما الحكمة في وضع القرآن بالسّماء الدّنيا ببيت العزّة دون غيرها من المقامات في السّموات؟

الجواب: أجاب الحكيم التّرمذيّ: أُنزل القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدّنيا تسليمًا للأُمّة ما كان أبرز لهم من الحظّ بمبعث محمّد ﷺ وبعثة محمّد ﷺ كانت رحمةً، فلمّا خرجت الرّحمة بفتح الباب جاءت بمحمّد ﷺ وبالقرآن، فوُضع القرآن ببيت العزّة في السّماء الدّنيا ليدخل في حدّ الدّنيا، ووضعت النّبوّة في قلب محمّد ﷺ وجاء جبريل عليه السلام بالرّسالة ثمّ الوحي، كأنّه أراد تعالى أن يسلّم هذه الرّحمة الّتي كانت حظّ هذه الأُمّة من الله تعالى إلى الأُمّة. وفي بيت العزّة إشارة أنّ قلب المؤمن أعزّ على الله تعالى من سائر المقامات؛ لأنّ القرآن نزل من اللّوح على القلب واستقرّ فيه إلى أبد الدّهر دنيًا وأُخرى. وفي نزوله إشارة إلى تعظيم الحضرة المحمّديّة بالتّدريج، كما تدخل الهدايا بالتّوسّط على أيدي الخدّام تعظيمًا للمهدىٰ إليه، فأفهم. [ثمّ ذكر قول الإمام السّخاويّ كما تقدّم عن أبي شامة والسّيوطيّ].

السّؤال الثّالث والأربعون من خواتم الحكم

ما الحكمة في نزوله منجّمًا، وهلّا نزل كسائر الكتب جملةً؟

الجواب: قال الإمام في الإتقان: هذا... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامة، ثمّ قال:]

(حكمة أُخرىٰ) لإنزال القرآن مفرّقًا، فإنّه أدعى إلى قبوله ﷺ إذا نزل على التّدريج، بخلاف ما لو نزل جملةً واحدةً، فإنّه ينفر من قبوله كثير من النّاس؛ لكثرة ما فيه من

الفرائض والمناهي.

(برهان جلّي) في إنزاله مفرّقًا، ما أخرجه البُخاريّ عن أُمّ المؤمنين رضي الله عنها قال: إنّما أُنزل ما نزل منه سورة من المفصّل... [وذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ].

السّؤال الخامس والأربعون من خواتم الحكم

ما الحكمة عند نزول الوحي في تقدّم صوت الملك مثل صَلْصَلة الجرس كما ورد في صحيح البُخاريّ؟

الجواب: قال الإمام: والحكمة في تقدّم الصّوت عند نزول الوحي على لسان روح القدس أن يقرع سمع نبيّه ﷺ بالوحي تنبيهًا أن لا يبقى فيه مكانًا لغيره. وفي الصّحيح هذه الحالة أشدّ حالات الوحي عليه.

وقيل: إنّه كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيدًا أو تهديدًا كما أشار في الخبر «فما من مرّة يوحى إليّ إلّا ظننت أن نفسي تقبض».

تحقيق للوحي طبقات:

إحداها: مجيء الملك كصلصلة الجرس.

وثانيها: كما قال ﷺ «إنّ روح القدس نفث في روعي».

وثالثها: كما ورد في الصّحيح يأتيه جبريل في صورة الرّجل فيكلّمه، وهو أهون طريق الوحي.

ورابعها: نزول الملك على قلبه في النّوم كما ورد في سورة الكوثر.

وخامسها: أن يكلّمه إمّا في اليقظة كما في ليلة الأسراء، وإمّا في النّوم كما في حديث مُعاذ: «أتاني ربّي، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى». وليس في القرآن من هذا شيء فيما أعلم، وتسمّى هذه الطّبقة بالكلمات القُدسيّة وحيًا أو إلهامًا.

سئل بعض المحقّقين عن الوحي، فقال: الوحي ما يوحي الله إلى نبيٍّ من أنبيائه، فيثبّته في قلبه ويتكلّم به ويكتب، وهو كلام الله تعالى، ومنه ما لا يتكلّم به ولا يكتبه لأحدٍ ولا يأمر بكتابته، ولكن يحدّث به النّاس، فيسمّى حديثًا قُدسيًّا، ويبيّن لهم إنّ الله تعالى أمره أن يبيّنه للنّاس ويبلّغهم إيّاه.

قال الإمام السّيوطيّ نقلاً عن بعض الأئمّة الأعلام، أنّه قال:

كلام الله المنزل قسمان: يسمّى بالسُّنّة والخبر القُدسيّ؛ لأنّ جبريل كان نزل بالسّنّة كما نزل بالقرآن، ومن هنا جاز رواية السّنّة بالمعنى؛ لأنّ جبريل أدّاه بالمعنى، ولم تجز القراءة بالمعنى؛ لأنّ جبريل أدّاه باللّفظ. والسّرّ في ذلك التّعبّد بلفظه والإعجاز به، فلا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه من الإعجاز لفظًا ومن الأسرار معنىً، فلا يقوم لفظ الغير مقام بعضه ولا حرف غيره مقام حرفه؛ لأنّ تحت كلّ حرف منه معانٍ لا يحاط بها كثرة، فيكون القرآن معجزًا من حيث اللّفظ والمعنى.

وذكر بعضهم في الخبر: أنّ أحرف القرآن في اللّوح المحفوظ، كلّ حرف منها بقدر جبل قاف، وأنّ تحت كلّ حرفٍ معانٍ لا يحيط بها إلّا الله تعالى.

السّؤال السّادس والأربعون من خواتم الحكم

ماالحكمة في إنزال القرآن على النّبيّ ﷺ وهو ابن أربعين سنة؟ وما السّرّ في قرن نبوّته بإسرافيل ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشّيء، ولم ينزّل عليه القرآن على لسانه، فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل، فنزل عليه القرآن على لسانه عشرين سنة؟

الجواب: وأمّا الحكمة في نزوله على رأس أربعين سنة؛

قيل: تستكمل القوّة الجسمانيّة والقوى الرّوحانيّة لقبول كمال الاستعداد بالفيض الأقدس، والتّجليّات الكلّية، والكمالات العليّة، والنّفحات القُدسيّة، وسيّد المرسلين وخاتم النّبيين مظهر الكمال الكلّيّ ومجمعها ومنبعها، فناسب مقامه مقام الأربعين من حيث الإحاطة والأسرار الأربعينيّة؛ لأنّه ظهر بأكمل الاستعداد، ومقام الأربعينيّة أكمل الاستعداد كما ظهر في حقّ موسى عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسىٰ ثَلٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1]. وأشار ﷺ في حقّ أُمّته بقوله: «مَنْ أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

---

١ ـ الأعراف / ١٤٢.

ولمقام الأربعينيّة أسرار وحكم في حقّه ﷺ وفي حقّ أخيه ﷺ وفي حقّ أُمّته ﷺ لا يحتملها أكثر العقول.

أمّا السّرّ في اقتران إسرافيل بنبوّته ﷺ ثلاث سنين ذكره الإمام السّيوطيّ في الإتقان، وقال نقلًا عن بعض الأئمّة: والحكمة في توكيل إسرافيل به أنّه الموكّل بالصّور الّذي فيه هلاك الخلق وقيام السّاعة، ونبوّته ﷺ مؤذّنة بقرب السّاعة وانقطاع الوحي، كما وكّل بذي القرنين رفائيل الّذي يطوي الأرض، وبخالد بن سِنان مالك خازن النّار.

وذكر بعض المحقّقين: إنّ في أمّ الكتاب كلّ شيءٍ هو كائن إلى يوم القيامة، فوكّل ثلاثة بحفظه من الملائكة، فوكّل جبريل بالكتب والوحي إلى الأنبياء، وبالنّصر عند الحروب والهلاكات، إذا أراد أن يهلك قومًا. ووكّل ميكائيل بالقطر والنّبات، ووكّل ملك الموت بقبض الأنفس فإذا كان يوم القيامة عارضوا بين حفظهم وبين ما كان في أُمّ الكتاب فيجدونه سواء، وأوّل من يحاسب جبريل؛ لأنّه كان أمين الله إلى رسله. ٢٢ – ٢٥

السّؤال الثّالث عشر بعد المائة من خواتم الحكم

ما الحكمة في إنزال القرآن العظيم متفرّقًا، بخلاف التّوراة وسائر الصُّحُف نزلت جملةً واحدةً؟

الجواب: قال أهل التّفسير: أنزل الله القرآن متفرّقًا لوجوه؛

أحدها: تفضيلًا لنبيّنا ﷺ أراد أن تكون الرّسالة متّصلة من عنده إليه، كلّ وقت يتجدّد الخطاب المستطاب، ويكون حبيبه على علمٍ وذوقٍ وخطابٍ وفيض كتاب في كلّ ساعة من حضرة المحبّ الحبيب المشتاق في كلّ آن.

والثّاني: لو أنزله مرّةً واحدةً لا يشتغل بحفظه وخاف على فواته، ألا ترىٰ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ﴾[1].

والثّالث: نزل بعض الآيات في النّاسخ والمنسوخ، فلو أنزله دفعةً واحدةً لفاتت فوائد النّسخ ومراعاة المصالح بحسب الأزمنة المتعاقبة، وفي النّسخ أسرار الدّعوة والتّدريج

---

١ ـ القيامة /١٧.

وجذب الأرواح، فانظر إلى تدريج حرمة الخمر أوّلًا بالنّهي عن الصّلاة بالسّكر، ثمّ بالنّهي مطلقًا حكمة ورحمة منه سبحانه وتعالى.

والرّابع: لو أنزله جملةً واحدةً لثقل عليهم استعمال ما فيه من التّكليف كما ثقل على قوم موسى، فأراد تعالى أن يكون يسيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[١].

والخامس: أراد تعالى أن يكون معجزة للنّبيّ ﷺ بالأخبار بالكوائن، فكلّما أرادوا شيئًا نزل جبريل ببيانه وأخبره عمّا يكون، فكان خبيرًا.

والسّادس: قضاء الحوائج وإجابة كلّ سائل، فكلّما سألوا منه شيئًا من الأحكام والحكم نزل جبريل بإجابة سؤالهم ليرتفع مرادهم، وأيضًا كيلا يقنطوا من حياته ﷺ ويعلموا أنّه باقٍ ما لم يتمّ القرآن ويتجدّد نزوله عليه ﷺ.

والسّابع: أنزله تعالى متفرّقًا؛ لئلّا يستوحش النّبيّ ﷺ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٢]، ويكون أنيسًا له في كلّ ساعة.

السّؤال الرّابع عشر بعد المائة من خواتم الحكم

ما الحكمة في نزول القرآن ليلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٤]؟

الجواب: أُجيب بوجوه؛ قيل: لأنّ أكثر الكرامات ونزول النّفحات والإسراء إلى السّماوات يكون باللّيل، وأكثر مناجاة الأخيار في اللّيل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[٥]. وفي اللّيل معارج الأرواح واستراحة الأشباح، وفي اللّيل سير الأُسراء إلى حضرة الكبرياء، وفي اللّيل فراغ القلوب بذكر حضرة المحبوب، اللّيل مقام المناجاة ومهبط النّفحات، اللّيل مشهد التّنزّلات ومظهر التّجلّيات، كما ورد في الخبر:

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ الدّخان / ١.

٥ ـ المزّمّل / ٦.

«ينزِّل ربّنا في الثّلثِ الأخير» الخ. وفي الخبر: «إذا جاء اللّيل، جاء خلق الله الأعـظم». واللّيل محلّ الرّاحة والسّبات، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[1]، ولذا قيل: اللّيل من الجنّة، فيه لحصول الاستراحة، والنّهار من النّار؛ لأنّ فيه المعاش والتّعب. وللـعرب العاربة لطائف مستغربة في تفضيل اللّيل على النّهار والنّهار على اللّيل، كما ذكر في كتاب نوادر العرب، وليس هذا محلّ التّفصيل بل المراد فنّ الحكمة والمعرفة.

السّؤال الخامس عشر بعد المائة من خواتم الحكم

ما الحكمة في أنّ الملائكة بأسرها صعقت ليلة نزول القـرآن مـن حـضرة اللّـوح المحفوظ إلى حضرة بيت العزّة في السّماء الدّنيا؟

الجواب ـ أقول: كان رسول‌الله ﷺ يتفقّأ عـرقًا عـند نـزول الوحـي، وتـحصل له الهميانات والجذبات من حضرة الوحي بـنزول الأسـرار والنّـفحات الإلهـيّة والمـعاني الحكميّة من العلوم اللّدُنّيّة والأحكام القدرية من حيث المطالع والبطون، وكان يقول: «إنّ للوحي أثقالاً تدكدك الجبال». وقد صعقت الرّجال من نفحات أسرار الوحي، فكيف من الوحي!

وقيل: صعقت الملائكة عند نزول القرآن لثلاثة أشياء؛ أوّلها: أنّ محمّدًا ﷺ عندهم من أشراط القيامة والقرآن كتابه، فنزوله دلّ على قيام السّاعة، فصعقوا هيبة منه، وإجلالاً لهيبة كلامه، وتعظيمًا لحضرة وعده ووعيده، وأمره ونهيه في كلامه المجيد.

وفي بعض الأخبار: «إنّ الله تعالى إذا تكـلّم بـالرّحمة تكـلّم بـالفارسيّة (المـراد بالفارسيّة لسان غير العرب سُريانيًّا كان أو عِبريًّا)[2]، وإذا تكلّم بالعذاب تكلّم بـالعربيّة المحمّديّة، ظنّوا أنّه عقاب فصعقُوا» وغاب عنهم أنّ النّبيّ العربيّ رحمةٌ للعالمين، فافهم سرّ العربيّة وجلالتها، ولذا قال ﷺ «بعثت بالسّيف». وقال ﷺ «أنا النّبيّ المـحمّديّ، جـعل رزقي تحت ظلّ رُمحي»، إلى غير ذلك من الأحاديث الّتي تدلّ على جلالة النّبيّ العربيّ ومهابة الملّة العربيّة، فافهم تفُز سراجًا جليًّا... (٧٠ - ٧٢)

---

١ ـ النّبأ / ٩.

٢ ـ لانرى وجهًا لهذا التّفسير.

الفصل الثّلاثون

نصّ صدر المتألّهين (م: ١٠٥٠ هـ) في «تفسيره»

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾ البقرة / ٢٣

وإنّما قيل: ﴿نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التّنزيل دون «الإنزال»؟ لأنّ المراد نزوله على نهج التّدريج والتّنجيم، وهو الحريّ بمكان التّحدّي؛ لأنّهم كانُوا يقولون: لو كان هذا من عند الله لم ينزّل هكذا نجومًا، سورة بعد سورة، وآيات غبّ آيات، على سُنن أهل الخطابة والشّعر؛ حيث صدر عنهم وسنح ببالهم مضامين الأشعار والخطب، حسب ما عنّ لهم من الأحوال وتجدّد عليهم سوانح الحاجات، ولم يلقِ النّاظم ديوان شعره دفعةً، ولم يرم الخطيب مجموع خطبه ورسائله ضربة، كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[١]. ثمّ بيّن الحكمة في ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٢]. (٢: ١٢٥)

مكاشفات سرّيّة ونفثات روعيّة

اعلم أنّ الفرق بين القرآن المجيد وسائر كتب الله المُنزلة على الأنبياء، بأنّ القرآن

---

١ و ٢ـ الفرقان / ٣١.

كلام الله وكتابه جميعًا وغيره كتاب فقط، وكلام الله أشرف من كتابه بوجوه:

أوّلها: أنّ كلامه تعالى قوله، وكتابه فعله، والقول أقرب من القائل من الكتاب إلى الكاتب، فكلام الله أشرف من كتابه.

وثانيها: أنّ الكلام والقول من عالم الأمر: ﴿إِنَّما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذا أَرَدْناهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١].

والكتاب من عالم الخلق، وعالم الأمر كلّه علوم عقليّة وحقائق معنويّة بخلاف عالم الخلق؛ لأنّ العلوم والمعاني زائدة فيه على صحائف مداركها وألواح مشاعرها.

وثالثها: أنّ كلام الله نزل على قلب الرّسول ﷺ وسرّه، وكتاب الله نزلت صورة ألفاظها على ألواح وقراطيس.

ورابعها: أنّ تلقّي الكلام وتعلّمه بأن يتجلّي حقيقته وتنوّر معناه على قلب من يشاء من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢]، ومن علّمه الله تعالى القرآن بهذا التّعليم كان عليه من الله فضلًا عَظِيمًا، كما قال لحبيبه بعد تعليمه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٣]. فتلقّيه ﷺ بالقرآن من حيث هو قرآن بأن يتخلّق به؛ إذ كان القرآن خُلقه، كما هو المرويّ عن بعض أزواجه حين سئلت عن خُلقه ﷺ فإنّ الله يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٤]، قالت: كان خُلقه القرآن[٥]. وأمّا تلقّي الكتاب وتعلّمه فبالدّراسة والقراءة والتّلاوة، فالأنبياء: يتدارسون الكتب؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾[٦].

وخامسها: أنّ تنزيل القرآن على قلب النّبيّ ﷺ ومكاشفة أسراره منه وتجلّي أنواره له أمر بينه وبين الله لا يطّلع عليه ملك مقرّب ولا نبيّ مُرسل، وأمّا إنزال الكُتب على سائر

---

١ ـ النّحل / ٤٠.

٢ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

٣ ـ النّساء / ١١٣.

٤ ـ القلم / ٤.

٥ ـ المسند: ٦: ١٩ و ١٦٣ عن عائشة.

٦ ـ سبأ / ٤٤.

الأنبياء فهي ممّا يقرأها كلّ قارىء.

وسادسها: أنّ سائر الكتب يستوي في هُداها الأنبياء والأُمم؛ لقوله في هذه الآية: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرائِيلَ﴾[١]، وقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٢]. وأمّا القرآن من حيث هو كلام فالرّسول ﷺ مخصوص بالهداية به عند تجلّي أنواره في التّنزيل على قلب الرّسول، كما قال: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣]، وقال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[٤]، أي خصّصك بهداه وعلمه.

وسابعها: أنّ الكتب المنزلة عليهم كانت تصرّف فيهم بأن يكون الكتاب مع أحدهم نورًا من الله يجيء به إلى قومه؛ ليكون هدىً لهم، كما قال: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسٰى نُورًا وَهُدًى﴾[٥]. وأمّا تنزيل القرآن على قلب الخاتم ﷺ فكان تصرّفه فيه بأن جعله نورًا من الله، يجيء ذلك النّور إلى الأُمّة ومعه القرآن، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللّهِ نُورٌ﴾[٦] وهو محمّد ﷺ ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[٧]. فشتّان بين نبيّ يجيء ويكون هو بذاته نورًا ومعه كتاب، وبين نبيّ يجيء ومعه نور من الكتاب.

وثامنها: قد فرّق الله بين ما شرّف النّبيّ الخاتم ﷺ بإنزال الكلام على قلبه، وبين ما شرّفوا به من إنزال الكتاب، فقال تعالى تشريفًا لموسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾[٨]. وقال تعالى تشريفًا لنبيّنا ﷺ: ﴿فَأَوْحىٰ إِلىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحىٰ﴾[٩]، أنظر وتدبّر كيف قال: ﴿أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[١٠]، فشتّان بين نبيّ تشرّف بكتابة

---

١ ـ السّجدة / ٢٣.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

٤ ـ النّساء / ١١٣.

٥ ـ الأنعام / ٩١.

٦ ـ المائدة / ١٥.

٧ ـ المائدة / ١٥.

٨ ـ الأعراف / ١٤٥.

٩ ـ النّجم / ١٠.

١٠ ـ المجادلة / ٢٢.

الموعظة له في الألواح، وبين نبيّ تشرّف أُمّته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم.

وتاسعها: أنّ من خصائص إنزال القرآن بما هو كلام الله أنّه متى نزل على قلب أحد صار خاشعًا متصدّعًا من خشية الله؛ لقوله سبحانه: ﴿لَوْ اَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرآنَ عَلـى جَبَلٍ لَرَاَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ﴾[1]. ولمّا نزل على قلب الرّسول صار قلبه خاشعًا خاضعًا من خشية الله، حتّى قال كما هو المرويّ عنه: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»[2]. وأمّا إنزال الكُتُب فليس من لوازمه الخضوع والخشوع والتّخلّق بأخلاق الله، ولذا قيل: لو كانت التّوراة أُنزلت على قلب موسى عليه‌السلام لا في الألواح، لعلّه ما ألقى الألواح في حال الغضب، وما احتاج إلى صُحبة خضر عليه‌السلام؛ لتعلّمه العلم، كما حكى الله تعالى عنه بقوله: ﴿هَلْ اَتَّبِعُكَ عَلـى اَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ اِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[3]. (٦: ١٢٣ ـ ١٢٥)

ونصّه أيضًا في «تفسير سورة الواقعة»

﴿لَا يَمَسُّهُ اِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ الواقعة / ٧٩

إنّ القرآن كالإنسان المنقسم إلى سرّ وعلن، ولكلّ منهما ظهر وبطن، ولبطنه بطن آخر - إلى أن يعلمه الله - ولعلنه علانية أُخرىٰ إلى أن يدركه الحواسّ وأهلها. أمّا ظاهر علنه فهو المُصحف المحسوس الملموس والرّقم المنقوش الممسوس. وأمّا باطن علنه فهو ما يدركه الحسّ الباطن ويستثبته القُرّاء والحُفّاظ في خزانة محفوظاتهم كالخيال ونحوه. والحسّ الباطن لا يدرك المعنى صرفًا، بل خلطًا مع عوارض جسمانيّة، إلّا أنّه يستثبته بعد زوال المحسوس، فإنّ التّخيّل والوهم أيضًا كالحسّ لا يحضران في الباطن المعنى الصّرف كالإنسانيّة المطلقة، بل نحو ما يدركه الحسّ من خارج مخلوطًا بزوائد وغواشٍ من كمٍّ وكيف ووضع وأين. فإذا حاول أحدهما أن يتمثّل له الصّورة المقيّدة بالعلائق المأخوذة

---

١ ـ الحشر / ٢١.

٢ ـ البُخاريّ ٨: ٣١، المسند ٢: ٤٥ و ١٨١ وفيهما «لأنا أعلمهم بالله عزّ وجلّ وأشدّهم له خشية».

٣ ـ الكهف / ٦٦ و ٦٧.

عن أيدي الحواسّ، وأنّ فارق المحسوس بخلاف الحسّ، فإنّه لا يمكنه ذلك. فهاتان المرتبتان من القرآن أوّليّتان دنيويّتان ممّا يدركه كلّ إنسان.

وأمّا باطنه وسرّه فهما مرتبتان أُخرويّتان لكلّ منهما درجات؛ فالأُولى: ممّا يدركه الرّوح الإنسانيّة الّتي يتمكّن من تصوّر المعنى بحدّه وحقيقته، منفوضًا عنه الّلواحق القريبة مأخوذاً من المبادىء الفعّالة، من حيث يشترك فيه الكثرة، ويجتمع عنده الأعداد في الوحدة، ويضمحلّ فيه التّخالف والتّضاد، ويتصالح عليه الآحاد.

ومثل هذا الأمر لا يدركه الرّوح الإنسانيّة ما لم يتجرّد عن مقام الخلق، ولم ينفض عنها الحواسّ، ولم يرتق إلى مقام الأمر متّصلة بالملأ الأعلى؛ إذ ليس من شأن المعقول من حيث هو معقول أن يحسّ، كما ليس من شأن المحسوس من حيث هو محسوس أن يعقل. ولن يستتمّ الإدراك العقليّ بآلة جسمانيّة، فإنّ المتصوّر فيها مخصوص مقيّد بوضع ومكان وزمان، والحقيقة الجامعة العقليّة لا يتقرّر في منقسم مشار إليه بالحسّ، بل الرّوح الإنسانيّة يتلقّى المعقولات بجوهر عقليّ من حيّز عالم الأمر، ليس بمتحيّز في جسم ولا متمكّن في حسّ، ولا داخل في وهم. ثمّ لمّا كان الحسّ تصرّفه فيما هو من عالم الخلق، والعقل تصرّفه فيما هو من عالم الأمر، فما هو فوق الخلق والأمر فهو محتجب عن الحسّ والعقل جميعًا. ولاشكّ أنّ كلام الله من حيث هو كلامه قبل نزوله إلى عالم الامر - وهو اللّوح المحفوظ - وقبل نزوله إلى عالم السّماء - وهو لوح المحو والإثبات وعالم الخلق - له مرتبة فوق مرتبة الخلق والأمر جميعًا، فلا يتلقّاه ولا يدركه أحد من الأنبياء إلّا في مقام الوحدة الإلهيّة عند تجرّده عن الكونين - الدّنيا والآخرة - وعروجه وخرقه العالمين - الخلق والامر -، كما قال أفضل الأنبياء: «لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرّب، ولا نبيّ مُرسل».

فإذا تقرّر هذا فثبت أنّ للقرآن منازل ومراتب، كما للإنسان درجات ومعارج، فلابدّ لمسّ القرآن في كلّ مرتبة ودرجة من طهارة وتجرّد عن بعض العلائق.

فالضّمير في ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إن كان عائدًا إلى المُصحف الّذي بأيدي النّاس، ويدركه جمهور أرباب الحواسّ فلا يجوز لغير المتطهّر من الأحداث والأنجاس - كالجنابة

والحيض والنّفاس - مسّ كتابته أو مسّ المُصحف، كما هو عند البعض، وروى عن محمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام، وعطاء وطاووس وسالم، وهو مذهب الشّافعيّ ومالك. ولا لغير المتطهّر من نجاسة كفر القالب بالإقرار بالشّهادتين، تلاوته وحفظ ألفاظه، فيكون ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ خبرًا بمعنى النّهي.

وإن كان عائدًا إلى ﴿كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾، وجعلت الجملة الفعليّة صفة له فالمعنى لا يمسّ اللّوح المحفوظ ولا يحمله بما فيه إلّا المجرّدون عن جلباب البشريّة من الإنسان، والملائكة الّذين وصفوا بالطّهارة من آثام الأجرام كجبرئيل حامل التّنزيل في مقام التّفصيل.

وإن كان عائدًا إلى القرآن الكريم من حيث يحمله القلم الأعلى في مقام الإجمال، حتّى تكون الجملة الإسميّة صفة له، والفعليّة صفة أُخرىٰ بعد صفة، وهما جميعًا صفتان له بعد صفة الكرامة، فيكون المعنى لا يمسّه إلّا المطهّرون عن نقائص الإمكان وإحداث الحدثان، وهم أعاظم الأنبياء المرسلين وأكابر الملائكة المقرّبين.

وبالجملة للقرآن درجات كما مرّ، وكذلك للإنسان بحسبها، ولكلّ درجة من درجاته حَمَلة يحملونه وحفَظَة يحفظونه، ولا يمسّونه إلّا بعد طهارتهم عن حدثهم وحدوثهم وتقدّسهم عن شواغل مكانهم وإمكانهم، وأدنى المنازل في القرآن ما في الجلد والغلاف - كما أنّ أدون الدّرجات للإنسان هو ما في الجلد والبشرة - ويجب أن لا يحمله الإنسان البشريّ إلّا بعد تطهير بشرته وغلافه من النّجاسة. وهذا كما ورد «أنّ الإيمان ليس بابًا واحدًا، بل هو نيف وسبعون بابًا، أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطّريق».

ومثاله قول القائل: ليس الإنسان موجودًا واحدًا، بل هو نيّف وسبعون موجودًا، أعلاها الرّوح، وأدناها إماطة الأذى عن البشرة، بأن يكون مقصوص الشّارب، مقلوم الأظفار، نقيّ البشرة عن الأخباث، حتّى يتميّز عن البهائم المُرسلة الملوّثة بأرواثها المستكرهة الصّور بطول مخالبها وأظلافها، فعلم من هذا أنّ الإنسان ومراتبه مثال مطابق للإيمان ومراتبه، وكذا حكم القرآن، وسيأتيك زيادة كشف وبيان.

﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الواقعة / ٨٠

هذه صفة رابعة للقرآن، أي منزَّل من عند ربّ العالمين إلى أهل هذا العالم، وإنّما وصف بالمصدر لأنّه من حيث هذا الوجود الكونيّ نزل منجّمًا بحسب الدّواعيّ الكونيّة والمصالح الخلقيّة في الأوقات المعيّنة، فكأنّه في نفسه تنزيل؛ لتعالي الباريّ القيّوم عن وصف التّغيّر والتّجدّد وكثرة الدّواعي والإرادات.

وأمّا كيفيّة هذا التّنزيل فنقول في بيانها: إنّ الذّات الأحديّة بحقيقته الصّمدانيّة ممّا لا سبيل لأحد إلى إدراكه – سواء كان من الملائكة أو من الأناس – وغاية السّبيل إليه لأهل الكونين إدراك أفعاله وآثاره، وكلامه وكتابه عندنا من جملة أفعاله وآثاره، إلّا أنّ أحدهما – وهو الكلام – من عالم أمره، بل هو الأمر كلّه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]، وأمره منزّه عن التّجدّد والتّضاد؛ لقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ﴾[٢]. وثانيهما – وهو الكتاب – من عالم خلقه، بل هو عالم خلقه؛ لاشتماله على التّجدّد والتّضاد، لقوله تعالى: ﴿لَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٣].

ولكلّ منهما منازل ومراتب، وكلّ واحدة من مراتب الكلام قضاء وكلّ واحدة من مراتب الكتاب قدر، وأعلى مراتب القضاء «قضاء محض» ليس فوقه قضاء، وهو الكلام الإلهيّ المبدع له بالحقيقة، وأدنىٰ مراتب القدر «قدر محض» لا قدر تحته، وهو الكتاب الكونيّ الّذي فيه كتابة أعمال أهل الشّمال.

وكما أنّ كلام الله مشتمل على الآيات، وهي آيات الله الكبرى الواقعة في المواقف العقليّة المثالية، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾[٤]، وكذلك كتابه المبين مشتمل على آيات – وهي الآفاق والأنفس – ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾[٥]. وكلّ كلام إذا نزل

---

١ ـ يس / ٨٢.

٢ ـ القمر / ٥٠.

٣ ـ الأنعام / ٥٩.

٤ ـ البقرة / ٢٥٢.

٥ ـ يونس / ١.

وتشخّص يصير كتابًا، كما أنّ الأمر إذا نزل صار فعلًا ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]. فالكتاب نائب الكلام، وأصل الكلام إنّما يراد لتصوير ما يتضمّنه باطن المتكلّم في باطن المخاطب فيصير مثله، فإذا عجز المخاطب عن مسّ باطن المتكلّم مسّ الخاتم للشّمعة؛ ليجعله مثل نفسه في نقشه ورقشه اتّخذ بين الباطنين سفيرًا من الظّاهرين، إمّا رسولًا هوائيًّا متكلّمًا به، أو رسالة سطحيّة ناطقة بما فيها. فإنّ الهواء بتموّجه الصّوتيّ على هيئاته الحرفيّة كتاب بالقياس إلى مافوقه وهو نفس المتكلّم، وهو بعينه كلام بالقياس إلى ما تحته، وهو صحيفة الرّسالة أو بسيط الصّماخ بهيئاتها الكتابيّة.

فعلى هذا كلّ واحدة من الذّوات المفارقة والملائكة العقليّة الّتي هي علوم إبداعيّة وصور مجرّدة، كلام الله باعتبار، وقلمه باعتبار. وكلّ واحد من الجواهر العقليّة والملائكة المدبّرة كتاب الله باعتبار، ولوحه باعتبار. وكذا الألواح القدريّة والصّحائف السّماويّة كلّ منها كتاب مشتمل على آيات الرّبوبيّة ودلائل القدرة، وهكذا صحيفة الأكوان وطومار حوادث الزّمان ودفتر الصُّور الجسمانيّة كتاب فيه آيات اللّيل والنّهار الّتي ينشر بعضها وينطوي بعض آخر ويظهر ويكمن، كما قال: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٢].

فعالم الكلام والقول فيه آيات أمريّة عقليّة علميّة، وعالم الكتاب والفعل فيه آيات خلقيّة كونيّة عمليّة، ليطالع الإنسان أوّلًا بمشاعر نفسه وبدنه هذه الآيات الفعليّة الكتابيّة الآفاقيّة والأنفسيّة ثمّ يترقّى بها ذاته من مقام الحسّ والنّفس إلى مقام القلب والرّوح، فيسمع ويفهم تلك الآيات القوليّة الكلاميّة حتّى يعرف بها الحقّ الأوّل، كما قال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٣].

فإذا علمت الفرق بين الكلام والكتاب فاعلم: أنّ هذا القرآن كلام الله وكتابه جميعًا، وهو بما هو كلام الله نور من أنوار الله المعنويّة نازل من لدنه ومنزله الأوّل قلب من يشاء

---

١ ـ يس / ٨٢.

٢ ـ يونس / ٦.

٣ ـ فصّلت / ٥٣.

من عباده المحبوبين؛ لقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١]، وقوله مخاطبًا لحبيبه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢]، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٣]. وهو بما هو كتاب نقوش وأرقام، فيها آيات أحكام نازلة من السّماء نجومًا على صحائف قلوب المحبّين وألواح نفوس السّالكين، وغيرهم يكتبونها بأيديهم في صحائفهم وألواحهم، بحيث يقرأها كلّ قارىء، ويعمل بأحكامها كلّ عامل، ويتساوىٰ في هداها الأنبياء والأُمم، كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾[٥].

وأمّا القرآن الكريم ففيه عظائم علم الله، كان يتعلّم به نبيّ الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٦].

وفيه عظائم أخلاق الله أن يتخلّق به خاتم الأنبياء؛ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٧].

فإذا تقرّر هذه المقدّمات وتبيّنت فنقول في كيفيّة تنزيل الكلام وإنزال الكتب: إنّ الرّوح الإنسانيّ كمرآة مَجلُوَّة، إذا صقلت بصقالة العقل النّظريّ، وزالت عنها غشاوة الطّبيعة ورين المعصية، فحينئذٍ لاح لها نور المعرفة والإيمان، وهو المسمّى عند أئمّة الحكمة بالعقل بالفعل، وبهذا النّور يترائى فيها حقائق الملكوت وخبايا الجبروت، كما يترائى الأشباح المثاليّة في المرايا الصّيقليّة، إذا لم تفسد صقالتها بطبع ورين؛ لقوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[٨]، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٩].

---

١ ـ الشّورى / ٥٢.
٢ ـ الشّعراء / ١٩٣.
٣ ـ الإسراء / ١٠٥.
٤ ـ آل عمران / ٣ و ٤.
٥ ـ المائدة / ٤٣.
٦ ـ النّساء / ١١٣.
٧ ـ القلم / ٤.
٨ ـ التوبة / ٨٧.

فإذا أعرضت عن البدن والاشتغال بما تحتها من الشّهوة والغضب والحسّ والتّخيّل، وتوجّهت وولّت بوجهها تلقاء عالم الملكوت الأعلى اتّصلت بالسّعادة القصوىٰ، ورأت عجائب الملكوت وآيات الله الكبرىٰ، كما في قوله: ﴿لَقَدْ رأىٰ مِنْ اٰيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾[١٠]. ثمّ إنّ هذا الرّوح إذا كانت قدسيّة شديدة القُوىٰ، قويّة الإنارة لما تحتها لا يشغلها جهة فوقها عن جهة تحتها، فيفي للجانبين وتضبط للطّرفين، لا يستغرقها لغاية قوّتها وشدّة تمكّنها حسّها الباطن عن حسّها الظّاهر، وليست كالأرواح العاميّة الضّعيفة، إذا مالت إلى الجانب الباطن غابت عن الجانب الظّاهر، وإذا رجعت إلى مطالعة الظّاهر غابت عن مطالعة الباطن، وإذا حضرت في شهود نشأة احتجبت عن النّشأة الأُخرىٰ، بل إذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن الآخر، وكذلك في القوى العمليّة، إذا اشتغلت بما تورده قوّة تعطّلت عمّا تورده قوّة أُخرىٰ، وكذلك البصر منها يخلّ بالسّمع، والخوف يشغلها عن الشّهوة، والشّهوة تصدّها عن الغضب، والفكر يعطّلها عن الفعل، والذّكر يصرفها عن الفكر. والرّوح القُدسيّة لايشغلها شأن عن شأن، ولا يحجبها نشأة عن نشأة. فإذا توجّهت إلى الأفق الأعلى وتلقّت المعارف بلا تعليم بشريّ من الله، أو من ملائكة الله يتعدّى تأثيرها إلى قواها، ويتمثّل صورة ما شاهدها في روحها البَشريّ، ومنها إلى أجسام العالم، فيذعن لها طبيعة الخلق الأكبر، وقواها من النّفوس الجزئيّة، كما يذعن للملائكة الأقربين لاتّصالها بهم، فيكون حكمها حكمهم عند اتّصالها بالأفق النّور الإلهيّ.

والملائكة القلميّة ذوات حقيقيّة، ولها ذوات مضافة إلى مادونها تنشأ منها الملائكة اللّوحيّة، وأمّا ذواتها الحقيقيّة فهي أمريّة كلاميّة قضائيّة، وذواتها الإضافية النّفسيّة فهي خلقيّة كتابيّة قدريّة.

وإنّما تلاقي الصّنف الأوّل للملائكة من القُوى البشريّة الرّوح القُدسيّة في اليقظة، فإذا اتّصلت الرّوح النّبويّة بعالمهم - عالم الوحي الإلهيّ - يسمع كلام الله، وهو إعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقيّة بينها وبينه؛ لكونها في مقام القرب ومقعد الصّدق. والوحي هو

---

٩ ـ المَطّففين / ١٤.

١٠ ـ النّجم / ١٨.

الكلام الحقيقيّ الإلهيّ كما مرّ. فكذلك يعاشر تلك الملائكة، ويخاطبهم، ويسمع صرير أقلامهم، كما حكاه النّبيّ ﷺ عن نفسه[١].

ثمّ إذا نزل إلى ساحة الملكوت السّماويّ يتمثّل له صورة ماشاهدها في لوح نفسه الواقعة في عالم الأرواح، ثمّ يتعدّى منه الأثر إلى الظّاهر، وحينئذٍ يقع للحواسّ الظّاهر شبه نوم ودَهْش؛ لما علمت أنّ الرّوح القُدسيّ لضبطه الجانبين يستعمل المشاعر الحسّية ويشغلها في سبيل معرفة الله وإطاعة الحقّ. فإذا خاطبه الله خطابًا بلا حجاب من الخلق بواسطة الملك أو بدونه واطّلع على آيات ربّه، وانطبع في فصّ نفسه النّاطقة نقش الملكوت وصورة اللاّهوت، وكان يتشبّح له مثال من الوحي وحامله إلى الحسّ الباطن فينجذب قوة الحسّ الظّاهر إلى فوق، ويتمثّل لها صورة الملك بحسب ما يحتملها، فيرىٰ ملكًا على غير صورته الّتي كانت في عالم الأمر، بل على صورته الخلقيّة القدريّة، ويسمع كلامه بعد ما كان وحيًا، أو يرىٰ لوحًا بيده مكتوبًا، فيكون الموحىٰ إليه يتّصل بالملك بباطنه وروحه، ويتلقّىٰ بروحه القُدسيّة منه المعارف الإلهيّة، ويشاهد آيات الله، ويسمع كلام الله الحقيقيّ العقليّ من الملك الّذي هو الرّوح الأعظم، ثمّ يتمثّل له الملك بصورة محسوسة، وكلامه بصورة أصوات وحروف منظومة مسموعة، وفعله وكتابه بصورة أرقام ونقوش مبصرة، فيكون كلّ من الوحي والملك تتأدّىٰ إلى مشاعره وقواه المدركة من وجهين، ويعرض للقُوى الحسّيّة شبه الدَّهْش، وللموحىٰ إليه شبه الغَشْي، ثمّ يرىٰ ويسمع ويقع الإنباء.

فهذا معنى تنزيل الكلام وإنزال الكتاب من ربّ العالمين، وعلم منه وجه ماقيل: إنّ الرّوح القدسيّة يخاطب الملائكة في اليقظة والرّوح النّبويّة يعاشرها في النّوم، ولكن يجب أن يفرّق بين نوم الأنبياء ونوم غيرهم، فإنّ نومهم عين اليقظة. (٢٠٨ ـ ٢١٤)

---

١ ـ البخاريّ: كتاب الصّلاة الباب الأوّل ١: ٩٨، المسند ٥: ١٤٤.

ونصّه أيضًا، في «أسرار الآيات»

[النّازل على الأنبياء هو الكتاب دون كلام الله]

وأعلم أنّ النّازل على أكثر الأنبياء:، من الله هو الكتاب دون كلام الله. وهذا القرآن الّذي أنزل على محمّد ﷺ كلام الله وكتابه جميعًا باعتبارين، وأمّا سائر الكتب السّماويّة المنزلة على سائر المرسلين، ﴿سلام الله عليهم أجمعين﴾، فإنّها ليست بكلام الله، بل كتب يدرسونها، ويكتبون بأيديهم. فهذا المنزل بما هو كلام الله نور من أنوار الله المعنويّة النّازل من عنده على قلب من يشاء من عباده المحبوبين ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[١]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٢]، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[٣]، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[٤].

وهو بما هو كتاب نقوش وأرقام وصور وألفاظ، وفيها آيات أحكام نازلة من السّماء نجومًا على صحائف قلوب المحبّين وألواح نفوس الطّالبين. وغيرهم يكتبونها في صحائفهم وألواحهم الحسّيّة، بحيث يتلوها كلّ تالٍ ويقرأها كلّ قارىء، ويتكلّم بها كلّ متكلّم، وبها يهتدون وبما فيها يعملون، ويتساوىٰ في هديها النّاس العوامّ والخواصّ والأنبياء والأُمم، كقوله: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالْإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرٰيةُ فِيهَا حُكْمُ اللّٰهِ﴾[٧].

---

١ ـ النّمل / ٦.
٢ ـ الشّورىٰ / ٥٢.
٣ ـ آل عمران / ٣.
٤ ـ الإسراء / ١٠٥.
٥ ـ البقرة / ١٨٥.
٦ ـ آل عمران / ٣ و ٤.
٧ ـ المائدة / ٤٣.

قاعدة

في وجوه الفرق بين إنزال كلام الله على قلب النّبيّ ﷺ وبين إنزال الكتب السّماويّة وتنزيلها إلى سائر الأنبياء عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1]، أي نزّل على قلبك حقائق القرآن وأنواره متجلّيّة بسرّك، لاصورة ألفاظ مسموعة أو مكتوبة على ألواح زمرّدية مقروءة لكلّ قارىء.

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[2] يعني نزل بالحقيقة لا بالتّصوير والحكاية. وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[3] يعني ما كنت تكتسب بالدّراية والفهم صورة ما في الكتب العلميّة، ولست تتعلّم الإيمان من معلّم غيرالله، ولكن جعل الله قلبك نورًا عقليًّا تتنوّر به حقائق الأشياء، ويهتدى بها إلى ملكوت الأرض والسّماء. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[4]. وقد وقعت الإشارة إلى أنّ تعليم القرآن من قبل الله بأن يتجلّىٰ بنور الحكمة الّذي هو حقيقة الكلام، ونور الإيمان على قلب من كان من عباده الكرام وأحبّائه العظام. وبالجملة، القرآن خلق النّبيّ ﷺ كما مرّ، وسائر الكتب ليست كذلك. وبالجملة من علمه الله القرآن بهذا التّعليم، كان عليه من الله فضلًا عظيمًا، كما قال لحبيبه ﷺ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[5].

بل نقول: التّعليم على ثلاثة أقسام: تعليم بشريّ، وتعليم ملكيّ، وتعليم إلهيّ. والأوّل، كما لسائر النّاس، والثّاني، كما لسائر الرّسل عليهم السلام، كان يمثّل لهم الملك ويعلّمهم الكتاب، والثّالث، كما لخواصّ الأنبياء وعظماء الأولياء عند عروجهم المعنويّ إلى الله.

---

١ ـ آل عمران / ٣.

٢ ـ الإسراء / ١٠٥.

٣ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

٤ ـ العنكبوت / ٤٨ و ٤٩.

٥ ـ النّساء / ١١٣.

وإلى هذه الاقسام الثّلاثة أشار بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللّٰهُ اِلَّا وَحْيًا اَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا﴾[١]. فالأوّل هو التّعليم الإلهيّ، والثّاني هو الملكيّ، والثّالث هو البشريّ، فافهم إن كنت من أهله. ولا يفهم هذه الرّموز إلّا من خرج طائر روحه الأمريّ من قالبه البشريّ ونفسه، فإنّه منطق الطّير، وأنت بعد بيضة محبوسة في القشر الصّوريّ، لست من السّيارين في أرض الملكوت ولا من الطّيّارين في جوّ الجبروت.

وجه آخر من الفرق، أنّه قال تعالى: ﴿وَاٰتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى اِسْرَائِيلَ﴾[٢]. وقال: ﴿وَاَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالاِنْجَيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٣]، وقال في حقّ القرآن: ﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾[٤]. والفرق ظاهر بين كتاب فيه هدىً للنّاس ويستوون في هداه الأنبياء والأُمم، وبين كتاب فيه هدى الأنبياء والمتّقين من هذه الأُمّة المخصوصين بالعناية، كما قال: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٥].

وجه آخر، قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الاَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾[٦]، وقال في حقّ القرآن: ﴿فَاَوْحَى اِلىٰ عَبْدِهِ مَا اَوْحىٰ﴾[٧]، وقال: ﴿يَاءَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَائَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَاَنْزَلْنَا اِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾[٨].

والفرق عظيم بين الكتابة والوحي وكذا بين الموعظة والبرهان ثمّ إنّه جعل الله تشريف سائر الأنبياء: مثل تشريف هذه الأُمّة المرحومة لمحمّد ﷺ، حيث قال لهذه

---

١ ـ الشّورىٰ / ٥١.
٢ ـ الإسراء / ٣.
٣ ـ آل عمران / ٣ و ٤.
٤ ـ الشّورى / ٥٢
٥ ـ الشّورىٰ / ٥٢.
٦ ـ الأعراف / ١٤٥.
٧ ـ النّجم / ١٠.
٨ ـ النّساء / ١٧٤.

الأُمّة: ﴿أُولٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾[١]، فشتّان بين نبيّ تشرّف بكتابة الموعظة له في الألواح، وبين نبيّ تشرّف أُمّته بكتابة الإيمان لهم في قلوبهم.

وجه آخر: القرآن تنزّل على قلب الرّسول، وسائر الكتب نازلة على صدر الأنبياء، وفرق بين تعلّمهم الكتاب وبين تعلّم نبيّنا الكتاب، فكانوا يتدارسون الكتب، وخاتمهم ﷺ كان متخلّقًا بالقرآن.

وجه آخر في الفرق بين ما أفادله ﷺ: تنزيل الكلام، وبين ما أفادلهم عليهم السلام إنـزال الكتب، فإن أفاد الإنزال لهم الحكمة، فقد أفادله ﷺ أن أُوتي جوامع الكلم، وبه فُضّل على الأنبياء: وبخمسة أُمور أُخرى، لقوله ﷺ: «فُضّلتُ على الأنبياء بستّ» وكذا تحقّق الفرق بين تصرّف تنزيل الكلام على قلبه وتصرّف الإنزال عليهم، فإن كان إنزال الكتب تصرّف فيهم بأن كان الكتاب مع أحدهم نورًا من الله يجيء به إلى أُمّته ليكون هدى لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ اَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسٰى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾[٢]، فـإنّ تـصرّف تنزيل القرآن على قلبه جعله نورًا من الله يجيء إلى الأُمّة ومعه الكتاب لقوله: ﴿قَدْ جَائَكُمْ مِنَ اللّٰهِ نُورٌ﴾[٣] وهو محمّد ﷺ وكتاب مبين، فشتّان بين نبيّ يجيء ويكون هو بذاته نورًا ومعه كتاب، وبين نبيّ يجيء ويكون معه نور من الكتاب.

هذا وقد انكشف عليك من تضاعيف ما ذكرناه لك أنّ الكـلام غـير الكـتاب وإنّ الحكمة والنّور والقرآن والكلام الإلهيّ يجري مجرى الألفاظ المترادفة في لسـان هـذا الكتاب، وإنّها جميعًا عبارة عن مرتبة العقل البسيط الّذي فيه حقايق الأشياء مجملة، وإنّ الكتاب عبارة عن مقام نفسيّ فيه صور العلوم التّفصيليّة ونسبة الأوّل إلى الثّاني كنسبة الكيميا إلى الدّنانير وكنسبة البذر إلى الشّجرة، بل كنسبة المبدء الفعّال إلى مجعولاته.

---

١ ـ المجادلة / ٢٢.

٢ ـ الأنعام / ٩١.

٣ ـ المائدة / ١٥.

قاعدة في تحقيق كلامه تعالى

اعتقادنا في الكلام أنّه ليس كما زعمته الأشاعرة، من أنّه معانٍ نفسيّة قائمة بذاته تعالى، وسمّوها الكلام النّفسيّ، ولا كما ذهب إليه المعتزلة، من أنّه خُلق أصوات وحروف دالّة على المعاني في جسم من الأجسام، وإلّا لكان كلّ كـلام كـلام الله، وهـو بـاطل. ولا يكفي تقييده على قصد إعلام الغير من قبل الله، أو على قصد الإلقاء من عـنده، ولو أُريد بغير واسطة فهو غير ممكن، وإلّا لم يكن أصواتًا وحروفًا، بل حقيقة التّكلّم إنشاء كلمات تامّات، وإنزال آيات محكمات، وأُخر متشابهات في كسوة الألفاظ والعبارات. والكلام قرآن، وهو العقل البسيط والعلم الإجماليّ، وفرقان، وهو المعقولات التّفصيليّة، وهما جميعًا غير الكتاب؛ لأنّهما من عالم الأمر وعالم القضاء، ومظهرهما وحاملهما القلم واللّوح المحفوظ. والكتاب من عالم الخلق والتّقدير، ومحلّه عالم القدر الذّهنيّ والقدر العينيّ، والأوّلان غير قابلين للنّسخ والتّبديل؛ لأنّهما فـوق الزّمـان والمكـان، بـخلاف الكتاب؛ لأنّه موجود زمانيّ، ومحلّه لوح قدريّ نفسانيّ، هو لوح المحو والإثبات، أو موادّ خارجيّ، وكلاهما متغيّران. والكتاب يدركه كلّ أحد، والقرآن لا يمسُّه إلّا المطهّرون من أدناس البشريّة.

وربّما يقال الكتاب للفرقان، فإنّه بالنّسبة إلى القرآن كتاب منزل، أو باعتبار أنّه منزل أيضًا في صورة مكتوبة في لوح القدر، بل الّذي بين أظهرنا كـلام مـنزل مـن عـند ربّ العالمين، منزل الأوّل: القلم الرّبانيّ، والثّاني: اللّوح المحفوظ، والثّالث: لوح القدر وسماء الدّنيا، والرّابع: لسان جبرئيل تلقّاه الرّسول الأمين ﷺ في جميع المقامات، تارةً أخذه من الله بلا واسطة ملك، كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى﴾[١].

وتارةً بواسطة جبرئيل ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾[٢].

---

١ ـ النّجم / ٨ ـ ١٢.

٢ ـ النّجم / ٣ ـ ٧.

وتارةً في مقام غير ذلك المقام الشّامخ الإلهيّ ﴿وَلَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً اُخْرٰى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهٰى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَاْوٰى * اِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشٰى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغٰى * لَقَدْ رَاٰى مِنْ اٰيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرٰى﴾[١].

وتارةً كان يسمع كلام الله في هذا العالم الحسّيّ ﴿وَاِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ * عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَاِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الاَوَّلِينَ﴾[٢]. ومن هذا المقام ما كان في أوّل البعثة في جبل حراء، أو في جبل فاران، فأتاه جبرئيل عليه السلام بصورة محسوسة وسمع منه ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[٣]، كما سمع موسى كلامه تعالى النّازل في طور سينا ﴿اِذْ رَاٰ نَارًا فَقَالَ لِاَهْلِهِ امْكُثُوا اِنِّى اٰنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى اٰتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ اَوْ اَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى * فَلَمَّا اَتٰيهَا نُودِيَ يَا مُوسٰى * اِنِّى اَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ اِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَاَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحٰى * اِنَّنِي اَنَا اللّٰهُ لَا اِلٰهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدْنِى﴾[٤]. ومن منازل كلام الله تعالى ما يدوّن في الكتب والقراطيس، يبدو لكلّ أحد، ويتكلّم به كلّ متكلّم، ويقرأه كلّ قارىء، ويسمعه كلّ مستمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَاِنْ اَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَاَجِرْهُ حَتّٰى يَسْمَعَ كَلَامَ اللّٰهِ﴾[٥]. ثمّ قد اختصّ محمّد صلى الله عليه وآله من بين سائر الأنبياء عليهم السلام بتلقّي الوحي والكتاب، بأن جاوز مقامات الأنبياء كلّها، وجاوز منازلهم كلّهم، في السّموات السّبع دون البلوغ إلى مقام الأُفق الأعلى أو أدنى. (١٦ـ٢٠)

---

١ ـ النّجم / ١٣ ـ ١٨.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٦.

٣ ـ العلق / ١ ـ ٥.

٤ ـ طه / ١٠ ـ ١٤.

٥ ـ التّوبة / ٦.

ونصّه أيضًا في «شرح أصول الكافي»

[حقيقة إنزال القرآن]

وأمّا قوله ﷺ: «لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وختم بنبيّكم الأنبياء» فوجه ذلك مع ما دلّ عليه من الشّواهد السّمعية والآيات القرآنيّة إنّ النّفوس والغرائز من زمن نزول آدم وابتداء خلق العالم في التّرقّي دائمًا، بحسب قابليّاتها واستعداداتها والارتقاء من حضيض النّقص إلى ذروة الكمال، والارتفاع من مهوى البعد وأرض السّفالة إلى بقاع الرّفعة وسماء القرب من المُبدِع المتعال.

وذلك ببعثة الأنبياء ونزول الملائكة بالكُتُب والصُّحف المنزلة عليهم من ملكوت السّماء؛ لتعليم الأُمم وهدايتهم، وتخليصهم عن القيود والتعلّقات، وتكميل نفوسهم بأنوار العلوم والمعارف والآيات، وكلّما زادوا في الاستعداد وصفت أذهانهم بالتّلطيف والتّأديب استعدّوا واستحقّوا لشريعة جديدة، وأحكام أُخرى ناسخة لما سبق من الأحكام، وهكذا إلى أن انتهت الشّرايع والأديان إلى شريعة لاأكمل منها، ودين لاأتمّ منه وهو الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[1] الآية. وبلغت الكُتب المنزلة إلى كتاب هو كلام الله النّازل بالحقّ على قلب عبده، كما قال: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[2]، وقال: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾[3]، أي نزّل حقائق القرآن وأنوار الكتاب على قلبك بالحقيقة؛ متجلّية بسرّك وروحك، لا صورة ألفاظ مكتوبة على ألواح أحجار مقروءة كلّ قارئ سُريانيّة أو عِبرانيّة، وكما قال: ﴿وَبِالْحَقِّ اَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[4]، يعني نزل بالحقيقة لا بالصّورة فقط.

---

١ ـ المائدة / ٣.

٢ ـ آل عمران / ٣.

٣ ـ البقرة / ٩٧.

٤ ـ الإسراء / ١٠٥.

ثمّ أخبر عن حقيقة الكتاب الّذي كلام الحقّ بقوله: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[١]، إشارة إلى أنّ تعليم القرآن بأن يتجلّى نور الكلام[٢] الّذي هو حقيقة القرآن على قلب من يشاء من عباده.

ومن علّمه الرّحمان القرآن[٣] بهذا التّعليم يكون عليه من الله فضلًا عظيمًا، كما قال بعد امتنانه على عباده ببعثة الرّسول، وتعليمه إيّاهم الكتاب والحكمة: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٤].

كما قال لحبيبه بعد تعليمه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٥].

فمن ذلك الفضل العظيم في حقّه أن نزّل على قلبه حقيقة القرآن قبل أن نزّل صورة الكتاب والكلام على سمعه، وصورة المتكلّم وهو الملك على بصره، وقال: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[٦]، يعني لاتظنّنّ يا محمّد! أنّ إنزال الكتب الأُخرى على الأنبياء كان كتنزيل القرآن بالحقّ والحقيقة على قلبك، فيكاشف عند تجلّي أنواره وحقائق أسراره الّتي بيني وبينك في مقام أو أدنى؛ حيث لا يطّلع عليه ملك مقرّب ولانبيّ مرسل.

وإنّما أُنزلت الكُتُب على الأنبياء عليهم السلام بالصّورة على ظواهرهم مكتوبة في صحائف وألواح، يقرأها كلّ قارىء، ويستوي في هداها الأنبياء والأُمم؛ لقوله: ﴿هُدًى

---

١ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

٢ ـ مرتبة الكلام مرتبة الصّنع، والصّنع صفة الصّانع، ومرتبة الكتاب مرتبة المصنوع، والمصنوع لايكون صفة للصّانع، إنّ الله لايوصف بخلقه.

٣ ـ فيه قال تعالى: (الرَّحْمٰنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) فإنّ الإنسان الكامل الختميّ صلى الله عليه وآله خُلِق ويُخلق بالقرآن، والقرآن هو البيان؛ لأنّه بيان كلّ شيء. وفي الآية النّشر على ترتيب اللّفّ، فيه سرّ عظيم، فتلطّف لئلّا يفوت عنك سرّ سيرة كريمة (وَمَا تَرٰى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ).

٤ ـ الجمعة / ٢ و ٣.

٥ ـ النّساء / ١١٣.

٦ ـ آل عمران / ٣ و ٤.

لِلنَّاسِ﴾ عمّهم فيه؛ لأنّ معظم ما في التّوراة الأحكام الظّاهرة، وكنت مخصوصًا بالهداية وأهل بيت نبوّتك عند تجلّي أنوار القرآن على قلبك، فينعكس منه على قلوبهم للقرابة والمناسبة المعنويّة والصّوريّة دون الصّوريّة فقط، كما قال: ﴿وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[1].

ثمّ قال مؤكّدًا لمعناه ومؤيّدًا لفحواه: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ...﴾[2]، سمّاه الفرقان كما سمّاه القرآن كلّ منهما من جهة أُخرى، فالقرآن للمقام الجمعيّ والعلم الإجماليّ، وهو المسمّى عندهم بالعقل النّفسانيّ المنبعث من العقل البسيط انبعاث القدر من القضاء، والقضاء من العناية؛ لأنّ العقل القرآنيّ كلّ الأشياء كما مرّت الإشارة إليه.

وأيضًا سمّي القرآن فرقانًا؛ لحصول الفرق بين تنزيله على قلب رسول الأُمّيّ وبين إنزال الكُتُب على ظاهر الأنبياء أو نفوسهم، وكذا الفرق متحقّق بين تعلّمه القرآن وبين تعلّمهم الكُتب، فإنّهم كانوا يتدارسون الكتب والنّبيّ ﷺ كان يتخلّق بالقرآن، فإن أفادلهم الحكمة فقد أفادله أن أوتي جوامع الكلم، وبه فُضّل على سائر الأنبياء وبخمس خصال أُخرىٰ؛ لقوله: «فُضّلت على الأنبياء بستّ» وعدّ من جملتها بقوله: «أُوتيت جوامع الكلم»، فإن كانت الكُتب يتصرّف فيهم، بأن يكون الكتاب مع أحدهم نورًا من الله يجيء به إلى قومه ليكون هدى لهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسىٰ نُورًا وَهُدًى﴾[3]. (٢: ٤٥٨ ـ ٤٦٠)

١ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

٢ ـ آل عمران / ٤.

٣ ـ الأنعام / ٩١.

الفصل الحادي والثّلاثون

نصّ ملّا صالح المازندرانيّ (م: ١٠٨١ هـ) في «شرح جامع الكافيّ، الأُصول والرّوضة»

﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ١-٣

والمراد بالكتاب المبين القرآن، وباللّيلة المباركة ليلة القدر، وبإنزاله فيها ابتداء إنزاله، أو إنزال كلّه فيها إلى السّماء الدّنيا، ثمّ إنزاله نجومًا إلى الأرض. وبالأمر الحكيم الأمر المحكم المشتمل على الحكمة، وبالإرسال إرسال الملائكة في ليلة القدر مادامت الدّنيا إلى من يتولّى أُمور الخلق، ويحكم بينهم بالعدل. (٥: ٤٠٠)

قوله: «لمّا أمر الله تعالى هذه الآيات أن يهبِطْن إلى الأرض، تعلّقن بالعرش»[١]، أي توسّلن بعلم الله تعالى بما يقع في دار الغُرور وعالم السُّرور، أو تعلّقن بالعرش الجسمانيّ الّذي هو مَطاف الملائكة المقرّبين، وقد مرّ أنّ القرآن يتصوّر بمثل جَسَدانيّ وهيكل إنسانيّ، فنسبة التّعلّق إليه صحيحة. وهنا شيء لابدّ في توضيحه من تقديم مقدّمة، وهي: أنّه روي أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً في أوّل ليلةٍ من شهر رمضان، وأنّه نزل إلى الأرض تدريجًا لا جملة واحدة، فقال السّيّد المحقّق ابن طاووس: إنّه نزل جملةً واحدة من بعض

---

١ ـ هذه العبارة ونظائرها الّتي تكون بين القوسين، شطر من روايات الكافي، المنقولة عن الإمام الصّادق (عليه السلام).

المقامات العالية بأمر الله جلّ شأنه إلى مقام آخر، ثمّ نزل من هذا المقام تدريجًا إلى الأرض، فلا منافاة بين نزوله جملة ونزوله تدريجًا.

...فنقول: يحتمل أن يراد بهبوط هذه الآيات هبوطها أوّل مرّة، وهو هبوطها في ضمن الكلّ. وقوله: (إلى الأرض) باعتبار أنّ هذا الهبوط آيل إلى هبوطها إلى الأرض بالآخرة وسبب له في الجملة، وحينئذٍ فالظّاهر من قوله: «يتلوكنّ» تلاوة مجموعها من حيث المجموع وترتّب الجزاء المذكور، أعني قوله: «نظرتُ إليه...» على تلاوة المجموع لا على تلاوة كلّ واحدة منها، ويحتمل أن يراد بهبوطها هبوطها مرّةً ثانيّةً إلى الأرض، وظاهر أنّ هذا الهبوط كان تدريجيًّا وأنّ هبوط هذه الآيات لم يكن دفعةً واحدةً، ولم ينقل أحد حينئذٍ، فالظّاهر أنّ الجزاء المذكور يترتّب على تلاوة كلّ واحدة على حِدة، إذ الظّاهر حينئذٍ أنّ زمان تعلّق كلّ واحدة بالعرش غير زمان تعلّق الأُخرى به، وكذلك الوحي إليها بذلك الجزاء غير الوحي إلى الأُخرى به، فليتأمّل. (١١: ٤٨)

قوله: «وإنّما أُنزل القرآن في عشرين سنة» الغرض منه بيان طولِ زمان النّزول لا تحديد زمانه بحسب الواقع، أو أُهمل ذكر الكسر بحسب المتعارف، وإلّا فهو أُنزل في ثلاث وعشرين سنة.

قوله: «وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان» هذا مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] دليل واضح على أنّ ليلة القدر ثلاث وعشرين من شهر رمضان، ويدلّ عليه روايات أُخر. (١١: ٦٢)

---

١ ـ القدر / ١.

الفصل الثّاني والثّلاثون

نصّ الطُّريحيّ (م: ١٠٨٥ ه) في «مجمع البحرين»

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوٰى...﴾ النّجم / ١

قيل: كان ينزل القرآن على رسول‌الله ﷺ نجومًا، أي نجمًا نجمًا، فأقسم الله بالنّجم إذا نزل. وقيل: هو قسم في النّجم إذا هوىٰ، أي سقط في الغرب. (٦: ١٧٣)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

قال الشّيخ أبو علي: الهاء كناية عن القرآن... [وذكركما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

﴿فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، أي ليلة الشّرف والخطر وعظم الشّأن، من قولهم: رجل له قدر عند النّاس، أي منزلة وشرف...

قيل: سميّت ليلة القدر لأنّه أُنزل فيها كتاب ذو قدر إلى رسول؛ لأجل أنّها ذات قدر، على يدي ملكٍ ذي قدر.

وقيل: لأنّ الله تعالى قدّر فيها إنزال القرآن.

وقيل: سميّت بذلك لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة، من قوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾[1]، وهو منقول عن الخليل بن أحمد.

---

١ ـ الطّلاق / ٧.

ثمّ قال: واختلفوا في تحقيق استمرارها وعدمه، فذهب قوم إلى أنّها إنّما كانت على عهد رسول الله ﷺ ثمّ رُفعت، وقال آخرون: لم ترفع، بل هي إلى يوم القيامة... [إلى أن قال]: وجمهور العلماء في أنّها في شهر رمضان في كلّ سنة.

وهذا هو الحقّ، يعلم ذلک من مذهب أهل البيت: بالضّرورة، ولاخلاف بين أصحابنا في انحصارها في ليلة تسعة[1]. (٣: ٤٤٨ ـ ٤٤٩)

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ القيامة / ١٧ ـ ١٩

﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي جمعه في صدرك وإثبات قراءته. ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ جعل قراءة جبرئيل قراءته. قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي فكُن مُقفِيًا له فيه، فهو مصدر مضاف إلى المفعول أي قراءتك إيّاه.

قوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾[2] الإقراء: الأخذ على القارىء بالاستماع لتقويم الزّلل، والقارىء: التّالي، وأصله الجمع؛ لأنّه يجمع الحروف، أي سنأخذ عليك قراءة القرآن فلا تنسى ذلك. ومعناه سيقرأ عليك جبرئيل بأمرنا فتحفظ فلا تنساه، والنّسيان: ذهاب المعنى عن النّفس، ونظيره السّهو، ونقيضه الذّكر، كذا ذكره الشّيخ أبوعليّ. (١: ٣٣٦)

---

١ ـ هكذا، ولعلّه يريد في ليلة تسع عشرة.

٢ ـ الأعلى / ٦.

الفصل الثّالث والثّلاثون

نصّ الفيض الكاشانيّ (م: ١٠٩١ ﻫ) في «تفسيره الصّافيّ»

نبذ ممّا جاء في زمان نزول القرآن وتحقيق ذلك

[بعد أن حكى روايات عديدة كما تقدّم عن الكُلَيْنيّ، قال:]

أقول: وذلك لأنّ في ليلة القدر ينزل كلّ سنة من تبيين القرآن وتفسيره ما يتعلّق بأُمور تلك السّنة إلى صاحب الأمر عليه السلام، فلو لم يكن ليلة القدر لم ينزّل من أحكام القرآن ما لابدّ منه في القضايا المتجدّدة، وإنّما لم ينزل ذلك إذا لم يكن من ينزل عليه. وإذا لم يكن من ينزّل عليه لم يكن قرآن؛ لأنّهما متصاحبان، لن يفترقا حتّى يردا على رسول الله صلى الله عليه وآله حوضه، كما ورد في الحديث المتّفق عليه، وقد مضىٰ معنى تصاحبهما.

والمستفاد من مجموع هذه الأخبار، وخبر إلياس الّذي أورده في الكافي في باب شأن ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] وتفسيرها من كتاب «الحجّة» أنّ القرآن نزل كلّه جملة واحدةً في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان إلى البيت المعمور، وكأنّه أُريد به نزول معناه على قلب النّبيّ صلى الله عليه وآله، كما قال الله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[2]، ثمّ نزل في طول عشرين سنة نجومًا من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه، كلّما أتاه جبرئيل عليه السلام بالوحي

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الشّعراء / ١٩١.

وقرأه عليه بألفاظه، وأنّ معنى إنزال القرآن في ليلة القدر في كلّ سنة إلى صاحب الوقت إنزال بيانه بتفصيل مجمله، وتأويل متشابهه، وتقييد مطلقه، وتفريق محكمه من متشابهه.

وبالجملة تتميم إنزاله بحيث يكون هدى للنّاس وبيّنات من الهدىٰ والفرقان، كما قال الله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، يعني في ليلة القدر منه، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[1]، تثنية لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي محكم ﴿أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[2]. فقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾، وقوله: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ معناهما واحد، فإنّ الفرقان هو المحكم الواجب العمل به، كما مضىٰ في الحديث. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، أي حين أنزلناه نجومًا، فإذا قرأناه عليك حينئذٍ ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي جملته ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[3] في ليلة القدر، بإنزال الملائكة والرّوح فيها عليك وعلى أهل بيتك من بعدك، بتفريق المحكم من المتشابه، وبتقدير الأشياء، وتبيين أحكام خصوص الوقائع الّتي تصيب الخلق في تلك السّنة إلى ليلة القدر الآتية.

قال في «الفقيه» تكامل نزول القرآن ليلة القدر، وكأنّه أراد به ما قلناه. وبهذا التّحقيق حصل التّوفيق بين نزوله تدريجًا ودفعةً، واسترحنا من تكلّفات المفسّرين. (١: ٥٦ ـ ٥٧)

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الدّخان / ٣ و ٤.

٣ ـ القيامة / ١٧.

الفصل الرّابع والثّلاثون

نصّ البَحرانيّ (م: ١١٠٧هـ) في تفسيره:
«البُرهان في تفسير القرآن»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥

محمّد بن يعقوب، عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن عبدالله بن المُغيرة، عن عمرو الشّاميّ، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «إنّ الشّهور عند الله إثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق السّموات والأرض، فغُرّة الشّهور شهر الله (عزّ ذكره)، وهو شهر رمضان،وقلب شهر رمضان ليلة القدر، ونزل القرآن في أوّل ليلة من شهر رمضان، فاستقبل الشّهر بالقرآن».

عنه عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه وعليّ بن محمّد، عن القاسم بن محمّد، عن سُليمان بن داود، عن حَفْص بن غِياث، عن أبي عبدالله عليه السلام... [وذكر كما تقدّم عن الكُلينيّ].

عنه عن عدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد، بن أبي نصر، عن هِشام بن سالم، عن سَعد، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: كنّا عنده ثمانية رجال، فذكر رمضان، فقال: «لا تقولوا هذا رمضان ولا ذهب رمضان ولا جاء رمضان، فإنّ رمضان اسم من أسماء الله عزّ وجلّ لا يجيء ولا يذهب، وإنّما يجيء ويذهب الزّائل، ولكن قولوا: شهر رمضان، فالشّهر

مضاف إلى الاسم، والاسم اسم الله (عزّ ذكره)، وهو الشّهر الّذي أُنزل فيه القرآن جعله مثلًا وعيدًا».

وعنه عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن سِنان وغيره عمّن ذكره، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان، أهما شيئان أو شيء واحد؟ فقال عليه السلام: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به».

الشّيخ في التّهذيب بإسناده عن الحسين بن سعيد، عن القاسم بن محمّد، عن عليّ، عن أبي بَصير، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «نزلت التّوراة في ستّ مضين من شهر رمضان، وأُنزل الإنجيل في اثنتي عشرة مضت من شهر رمضان، ونزل الزّبور في ثمان عشرة مضت من شهر رمضان، وأُنزل القرآن في ليلة القدر».

العَيّاشيّ، عن الحَرْث البَصْريّ، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: قال في آخر شعبان: «إنّ هذا الشّهر المبارك الّذي أُنزلت فيه القرآن، وجعلته هدى للنّاس وبيّنات من الهدى والفرقان، قد حضر فسلّمنا فيه، وسلّمه لنا، وسلّمه منّا في يسر منك وعافية».

عليّ بن إبراهيم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال سألته عن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾... [وذكر كما تقدّم عن الفيض الكاشانيّ].

أبو عليّ الطَّبْرِسيّ، قال: روى الثّعلَبيّ بإسناده عن أبي ذَرّ، عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله، قال. «أُنزلت صُحُف...» [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ].

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره قال: روي عن العالم عليه السلام أنّه قال: «نزلت صُحُف إبراهيم عليه السلام أوّل شهر رمضان ونزلت التّوراة لستّ خلون من شهر رمضان، ونزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ونزل القرآن لأربع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان. (١: ١٨٢ ـ ١٨٣)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ طه/١١٤.

عليّ بن إبراهيم... قال: كان رسول‌الله صلّى الله عليه وآله إذا نزل عليه القرآن يبدأ بقراءته قبل نزول تمام الآية والمعنى، فأنزل الله ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلُ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أي

يفرغ من قراءته، ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. (٣: ٤٥)

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الفرقان / ١

ابن بابَوَيْه بإسناده عن يزيد بن سَلّام، أنّه سأل رسول‌الله ﷺ، فقال له: لِم سُمّي الفرقان فُرقانًا؟ قال: «لأنّه متفرِّق الآيات والسُّور، نزلت في غير الألواح، وغيره من الصُّحُف والتّوراة والإنجيل والزّبور أنزلت كلّها جملةً في الألواح والورق».

المفيد في «الإختصاص» في حديث عبدالله بن سَلّام لرسول الله ﷺ، قال: فأخبرني هل أنزل الله عليك كتابًا؟ قال: نعم، قال: وأيّ كتاب هو؟ قال: «الفرقان»، قال: ولِمَ سمّاه ربّك فُرقانًا؟ قال: «لأنّهُ متفرّق الآيات والسُّور، أنزل في غير الألواح، وغيره من الصُّحُف والتّوراة والإنجيل والزّبور أُنزلت كلّها جملةً في الألواح والأوراق»، قال: صدّقت يا محمّد ﷺ. (٣: ١٥٥)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ الأعلى / ٦.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾، أي نعلّمك فلا تنسىٰ، ثمّ استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ لأنّه لايؤمن عليه النّسيان اللُّغويّ وهو التّرك، لأنّ الّذي لاينسى هو الله.

سعدبن عبدالله، عن أحمد بن محمّد بن عيسى ومحمّد بن الحسين بن أبي الخطّاب وغيرهما، عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر، عن هِشام بن سالم، عن سعد بن ظريف الخفّاف، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول فيمن أخذ، عنكم علمًا فنسيه؟ قال: «لاحجّة عليه، إنّما الحجّة على من سمع منّا حديثًا فأنكره، أو بلغه فلم يؤمن به فكفر، وأمّا النّسيان فهو موضوع عنكم، إنّ أوّل سورة نزلت على رسول‌الله ﷺ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[١] فنسيها، لم يلزمه حجّة في نسيانه، ولكنّ الله تعالى أمضى له ذلك، ثمّ قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾. (٤: ٤٥٠)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١.

---

١ ـ الأعلى / ١.

عن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عُمَير، عن عمرو بن أُذَيْنَة، عن الفُضَيْل وزُرارة ومحمّد بن مُسلم، عن حُمْران أنّه سأل أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1]، قال: «نعم ليلة القدر، وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر، فلم ينزل القرآن إلّا في ليلة القدر» ...

عن محمّد بن يحيى، عن محمّد بن أحمد، عن السَّيَّاريّ، عن بعض أصحابنا، عن داود بن فَرْقَد، قال: حدّثني يعقوب، قال: سمعت رجلًا يسأل أبا عبدالله عليه السلام عن ليلة القدر، فقال: أخبرني عن ليلة القدر، كانت أو تكون في كلّ عام؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام: لو رُفعت ليلة القدر لرُفع القرآن» . (٤: ٤٨٦)

---

١ ـ الدّخان/٣.

الفصل الخامس والثّلاثون

نصّ العلّامة المَجلِسيّ (م: ١١١١ هـ)[1] في «بحار الأنوار»

البعثة وتاريخه

ذكر عليّ بن إبراهيم: «وهو من أجَلّ رواة أصحابنا» أنّ النّبيّ ﷺ لمّا أتى له سبع وثلاثون سنة كان يرى في نومه كأنّ آتيًا أتاه [وذكر كما سيأتي عنه في الجزء الثّاني من هذا الكتاب ، باب بدء الوحي ، رقم الحديث : ٢]. (١٨ : ١٨٤)

عليّ، عن أبيه، عن القاسم، عن جدّه الحسن، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «لاتدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنّه اليوم الّذي نزلت فيه النّبوّة على محمّد ﷺ»[2].

سَهل، عن بعض أصحابنا، عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: «بعث الله عزّ وجلّ محمّدًا ﷺ رحمةً للعالمين في سبع وعشرين من رجب...»[3].

المفيد، عن ابن قُولَوَية، عن محمّد بن الحسن الجوهريّ، عن الأشعريّ، عن البَزَنطيّ، عن أبان بن عُثمان، عن كثير النّوا، عن أبي عبدالله عليه السلام: «في اليوم السّابع والعشرين من رجب نزلت النّبوّة على رسول‌الله ﷺ [4]».

عليّ بن محمّد رفعه، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «يوم سبعة وعشرين من رجب نُبِّيء

---

١ ـ وقيل: ١١١٠.

٢ ـ فروع الكافي ٤: ١٤٨.

٣ ـ المصدر السّابق.

٤ ـ أمالي ابن الشّيخ: ٢٨.

فيه رسول الله صلى الله عليه وآله» الحديث.

في علل الفضل عن الرّضا عليه السلام قال: «فإن قال: فلِمَ جعل الصّوم في شهر رمضان خاصّة دون سائر الشّهور؟ قيل: لأنّ شهر رمضان هو الشّهر الّذي أنزل الله تعالى فيه القرآن» إلى قوله عليه السلام: «وفيه نُبّىء محمّد صلى الله عليه وآله».[1]

هذا الخبر مخالف لسائر الأخبار المستفيضة، ولعلّ المراد به معنى آخر ساوق لنزول القرآن أو غيره من المعاني المجازيّة، أو يكون المراد بالنّبوّة في سائر الأخبار الرّسالة، وتكون النّبوّة فيه بمعنى نزول الوحي عليه صلى الله عليه وآله فيما يتعلّق بنفسه كما سيأتي تحقيقه، ويمكن حمله على التّقية، فإنّ العامّة قد اختلفوا في زمان بعثته صلى الله عليه وآله على خمسة أقوال؛

الأوّل: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.

الثّاني: لثمان عشرة خلت من رمضان.

الثّالث: لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان.

الرّابع: للثّاني عشر من ربيع الأوّل.

الخامس: لسبع وعشرين من رجب، وعلى الأخير اتّفاق الإماميّة.(١٨:١٨٩ - ١٩٠)

قرن إسرافيل برسول الله صلى الله عليه وآله ثلاث سنين يسمع الصّوت ولا يرى شيئًا، ثمّ قرن به جبرئيل عليه السلام عشرين سنة، وذلك حيث أوحى إليه فأقام بمكّة عشر سنين، ثمّ هاجر إلى المدينة، فأقام بها عشر سنين، وقبض صلى الله عليه وآله وهو ابن ثلاث وستّين سنة.[2] (١٨: ٢٣٢)

قال المفيد؛ في سوانح اليوم السّابع والعشرين: وهو يوم المبعث.

روي عن ابن عبّاس وأنس بن مالك أنّهما قالا: أوحى الله عزّ وجلّ إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله يوم الإثنين السّابع والعشرين من شهر رجب وله أربعون سنة.

وقال ابن مسعود: إحدى وأربعون سنة.

وقيل بعث في شهر رمضان، لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ﴾ أي ابتدأ إنزاله في السّابع عشر أو الثّامن عشر انتهى كلام المفيد؛. (٩٨: ٢٠٠)

---

١ ـ عيون أخبار الرّضا (ع): ٢٦١.

٢ ـ الاختصاص: ١٣٠.

ابن عبّاس ومجاهد في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُـزِّلَ عَـلَيْهِ الْـقُرْآنُ جُـمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كما أُنزلت التّوراة والإنجيل، فقال الله تـعالى: ﴿كَـذَٰلِكَ﴾ مـتفرّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِـهِ فُؤَادَكَ﴾[1] وذلك أنّه كان يوحى في كلّ حادثة، ولأنّها نزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤون والقرآن نزل على نبيّ أُمّيّ، ولأنّ فيه ناسخًا ومنسوخًا، وفيه ما هو جواب لمن سأله عن أُمور، وفيه ما هو إنكار لما كان، وفيه ماهو حكاية شيء جـرى، ولم يـزل ﷺ يـريهم الآيات ويخبرهم بالمغيبات فنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾[2] الآية، ومعناه لاتعجل بقراءته عليهم حتّى أُنزل عليك التّفسير في أوقاته كما أُنزل عليك التّلاوة. (١٨: ١٩٩)

أمّا نزول القرآن في شهر رمضان فيكفي في البرهان قول الله (جلّ جلاله): ﴿شَـهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[3].

وإنّما وردت في الحديث: أنّ نزوله كان في شهر الصّيام إلى السّماء الدّنيا، ثمّ نزل منها إلى النّبيّ ﷺ كما شاء جلّ جلاله في الأوقات والأزمان. (٩٨: ٥)

أقول: في خبر المفضّل بن عمر الّذي مـضى بـطوله فـي كـتاب الغـيبة أنّـه قـال الصّادق عليه السلام: يا مفضّل إنّ القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، والله يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[4] وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[5] وقال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[6].

قال المفضّل: يا مولاى فهذا تنزيله الّذي ذكره الله في كتابه، وكيف ظهر الوحي في ثلاث وعشرين سنة؟ قال: نعم يا مفضّل أعطاه الله القرآن في شهر رمضان وكان لا يبلّغه إلّا في وقت استحقاق الخطاب، ولا يؤدّيه إلّا في وقت أمر ونـهي فـهبط جـبرئيل عليه السلام

١ ـ الفرقان / ٣٢.
٢ ـ طه / ١١٥.
٣ ـ البقرة / ١٨٥.
٤ ـ البقرة / ١٨٥.
٥ ـ الدّخان / ٣ ـ ٥.
٦ ـ الفرقان / ٣٢.

بالوحي فبلّغ ما يؤمر به وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾[1] فقال المفضّل: أشهد أنّكم من علم الله علمتم، وبقدرته قدرتم وبحكمه نطقتم، وبأمره تعملون. (٩٢: ٣٨).

[الرّدّ على مااعترضه المفيد على قول الصّدوق]

[بعد أن حكى كلام الصّدوق والمفيد، حسب ما تقدّم، قال:]

وأقول: أمّا الاعتراض الأوّل الّذي أورده ﷺ على الصّدوق ﷺ فغير وارد؛ إذ ثبت بالأخبار المستفيضة أنّ جميع الكتُب الّتي أنزلها الله تعالى على أنبيائه أثبته في اللّوح المحفوظ قبل خلق السّماء والأرض، ثمّ ينزل منها بحسب المصالح في كلّ وقت وزمان. وأمّا انطباقها على الوقائع المتأخّرة فلا ينافي ذلك؛ لأنّ الله تعالى عالم بما يتكلّمون، ويصدر منهم ويقع بينهم بعد ذلك، فأثبت في القرآن المثبت في اللّوح جواب جميع ذلك على وفق علمه الّذي لايتخلّف. فالمضيّ إنّما يكون بالنّسبة إلى زمان التّبليغ إلى الخلق، فلا استبعاد في أن ينزل هذا الكتاب جملة على النّبيّ ﷺ ويأمره بأن لايقرأ على الأُمّة شيئًا منه إلّا بعد أن ينزل كلّ جزء منه في وقت معيّن يناسب تبليغه، وفي واقعة معيّنة يتعلّق بها.

وأمّا تشبيه صاحب هذا القول بالمشبّهة القائلين بقدم كلام الله فلا يخفى مافيه؛ لأنّ صاحب هذا القول لايقول بقدم القرآن المؤلّف من الحروف، ولا بكونه صفة قديمة لله، قائمة بذاته تعالى، فأيّ مفسدة تلزم عليه.

وأمّا المشابهة في أنّه يمكن نفي القولين بتلك الآيات ففيه: أنّ نفي هذا المذهب السّخيف أيضًا بتلك الآيات لايتمّ، بل ثبت بطلانه بسائر البراهين الموردة في محالّها.

وأمّا الاعتراضات الّتي أوردها على تفسير الصّدوق للآية الكريمة فلعلّها مبنيّة على الغفلة عن مراده، فإنّ الظاهر أنّ الصّدوق؛ أراد بذلك الجمع بين الآيات والرّوايات، ودفع ما يتوهّم من التّنافي بينها، لأنّه دلّت الآيات على نزول القرآن في ليلة القدر، والظّاهر

---

١ ـ القيامة / ١٨.

نزول جميعه فيها، ودلّت الآثار والأخبار على نزول القرآن في عشرين أو ثلاث وعشرين سنة، وورد في بعض الرّوايات أنّ القرآن نزل في أوّل ليلة من شهر رمضان، ودلّ بعضها على أنّ ابتداء نزوله في المبعث، فجمع بينها بأنّ في ليلة القدر نزل القرآن جملة من اللّوح إلى السّماء الرّابعة، لينزل من السّماء الرّابعة إلى الأرض بالتّدريج، ونزل في أوّل ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النّبيّ ﷺ ليعلم هو، لا ليتلوه على النّاس، ثمّ ابتداء نزوله آية آية وسورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه على النّاس، وهذا الجمع مؤيّد بالأخبار، ويمكن الجمع بوجوه أُخر سيأتي تحقيقها في باب ليلة القدر وغيره.

فقوله ﵀: إنّ الله تعالى أعطى نبيّه ﷺ العلم جملة لا يعني به أنّه أعطاه بمحض النّزول إلى البيت المعمور ليرد عليه ما أورده، ولا أنّ المراد بالنّزول إلى البيت المعمور أنّه علّمه النّبيّ ﷺ، وهذا منه؛ غريب، وأمّا اللّوح الّذي ذكره أوّلًا أنّه يضرب جبين إسرافيل ﵇ فيحتمل أن يكون المراد به اللّوح المحفوظ، ويكون ذلك عند أوّل النّزول إلى البيت المعمور، أو يكون المراد اللّوح الّذي ثبت فيه القرآن في السّماء الرّابعة، ولعلّه بعد نظر إسرافيل في اللّوح على الوجهين يجد فيه علامة يعرف بها مقدار ما يلزمه إنزالها، أو يكون لوحًا آخر ينقش فيه شيء فشيء عند إرادة الوحي، ولا ينافي انتقاش الأشياء فيه كونه ملكًا، كما اعترض عليه المفيد ﵀، وإن كان بعيدًا. (١٨: ٢٥٣)

ونصّه أيضًا في «الفرائد الطّريقة»

معنى نزول القرآن في ليلة القدر:

وقد نزل في ثلاث وعشرين سنة منجّمًا كما ذكره المفسّرون.

فقيل: المراد ابتداء نزوله.

وقيل: نزول جملته من اللّوح إلى السّفرة.

وقيل: إلى السّماء الدّنيا.

وقيل: كان ينزل مجموع ما ينزل في السّنة في ليلة القدر إلى السّفرة.

وقال الصّدوق (رحمه الله) في الفقيه: تكامل نزول القرآن في ليلة القدر[١].

أقول: ويحتمل نزول جملته على النّبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ كان ينزّل بحسب المصالح منجّمًا.

[ثمّ ذكر رواية حَفْص بن غياث عن الكُلَيْنيّ، كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

أقول: هذا الخبر أيضًا ممّا يدلّ على كون ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين. **(ص: ٧٣)**

---

١ ـ من لايحضره الفقيه ٢: ٩٩.

الفصل السّادس والثّلاثون

نصّ البُروسَويّ (م: ١١٣٧ ه) في تفسيره: «روح البيان»

ما الحكمة في تعدّد مواطن نزول القرآن؟

إن قلت: ما الحكمة في تعدّد مواطن نزول القرآن وتكرّر مَشاهِده؛ مكّيا مدنيًّا ليليًّا نهاريًّا سفريًّا حضريًّا صيفيًّا شتائيًّا نوميًّا برزخيًّا، يعني بين اللّيل والنّهار، أرضيًّا سماويًّا غاريًّا ما نزل في الغار، يعني تحت الأرض، برزخيًّا، ما نزل بين مكّة والمدينة، عـرشيًّا معراجيًّا، ما نزل ليلة المعراج آخر سورة البقرة؟

الجواب: الحكمة في ذلك تشريف مواطن الكون كلّها بنزول الوحي الإلهيّ فـيها، وحضور الحضرة المحمّديّة عندها، كما قيل: سرّ المعراج والإسراء به، وسير المصطفىٰ في مواطن الكون كلّها، كأنّ الكون والعرش والجنان يسأل كلّ موطن بلسان الحال أن يشرّفه الله تعالى بقدوم قدم حبيبه، وتكتحل أعين الأعيان والكبار بغبار نَعال قدم سيّد السّادات، ومفخر موجودات الولاة، ماشمّ الكَمُون رائحة الوجود، ومابدا من حضرة الكَمُون لَـمعة الشّهود، كما ورد بلسان القُدس «لولاك لما خلقت الأفلاك». **(١: ٢٧)**

﴿نَزَّلَ عَلَيكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...﴾ آل عمران / ٣

فإن قلت: لِم قيل: نزّل الكتاب، وأنزل التّوراة والإنجيل؟

قلت: لأنّ التّنزيل للتّكثير، والقرآن نزل منجّمًا، ونزل الكتابان جملة، وذكر في آخر

الآية الإنزال وأرادبه من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا جملةً في ليلة القدر في شهر رمضان، والمراد هنا هو تنزيله إلى الأرض، ففي القرآن جهة الإنزال والتّنزيل. (٢: ٣)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣١

فلولا: تحضيضية بمعنى «هلاّ»، والتّنزيل هنا مجرّد عن معنى التّدريج بمعنى أُنزل، كخبَّر بمعنى أخبَرَ؛ لئلاّ يناقض قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي دفعةً واحدةً كالكُتُب الثّلاثة، أي التّوراة والإنجيل والزّبور، حال من القرآن؛ إذهي في معنى مجتمعًا، وهذا اعتراض حَيْرة وبهت لاطائل تحته؛ لأنّ الإعجاز لايختلف بنزوله جملةً أو مفرّقًا، وقد تحدّوا بسورةٍ واحدةٍ فعجزوا عن ذلك حتّى أخلدوا إلى بذل المهج والأموال دون الإتيان بها، مع أنّ للتّفريق فوائد؛

منها: ما أشار إليه بقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، و «ذلك» إشارة إلى مايفهم من كلامهم، أي مثل ذلك التّنزيل المفرّق الّذي قدحُوا فيه نزّلناه لاتنزيلًا مغايرًا له؛ لنقوّي بذلك التّنزيل المفرّق ﴿فُؤَادَكَ﴾، أي قلبك، فإنّ فيه تيسيرًا لحفظ النّظم، وفهم المعنى، وضبط الأحكام والعمل بها.

ألا ترى أنّ التّوراة أُنزلت دفعةً فشقّ العمل على بني إسرائيل، ولأنّه كلّما نزل عليه وحي جديد في كلّ أمرٍ وحادثة ازداد هو قوّة قلب وبصيرة.

وبالجملة، إنزال القرآن منجّمًا فضيلة خصّ بها نبيّنا ﷺ من بين سائر النّبيّين، فإنّ المقصود من إنزاله أن يتخلّق قلبه المنير بخلق القرآن ويتقوّىٰ بنوره، ويتغذّىٰ بحقائقه وعلومه.

وهذه الفوائد إنّما تكمل بإنزاله مفرّقًا، ألا يرى أنّ الماء لو نزّل من السّماء جُملةً واحدةً؛ لما كانت تربية الزّروع به مثلها، إذا نزل مفرّقًا إلى أن يستوي الزّرع. (٦: ٢٠٨)

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلىٰ قَلْبِكَ﴾ الشّعراء / ١٩٢

واعلم أنّ القرآن كلام الله وصفته القائمة به، فكساه الألفاظ بالحروف العربيّة، ونزله

على جبرئيل، وجعله أمينًا عليه؛ لئلاّ يتصرّف في حقائقه، ثمّ نزل به جبرئيل كما هو على قلب محمّد ﷺ كما قال: ﴿عَلى قَلْبِكَ﴾، أي تلاه عليك يا محمّد حتّى وعيته بقلبك. فخصّ القلب بالذّكر لأنّه محلّ الوعي والتّثبيت، ومعدن الوحي والإلهام، وليس شيءٌ في وجود الإنسان يليق بالخطاب والفيض غيره، وهو ﷺ مختصّ بهذه الرّتبة العليّة والكرامة السّنيّة من بين سائر الأنبياء، فإنّ كتبهم منزلة في الألواح والصّحائف جملةً واحدةً على صورتهم لا على قلوبهم، كما في التّأويلات النّجمية.

قال في كشف الأسرار: الوحي إذا نزل بالمصطفى... [وذكر كما تقدّم عن المَيبُديّ].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ...﴾، ثمّ إذا انقطع ذاك، كان يقول: فينفصم عنّي وقد وعيته.

وفي «الفتاوى الزّينبيّة»: سئل عن السّيّد جبريل، كم نزل على النّبيّ ﷺ؟ أجاب: نزل عليه أربعة وعشرين ألف مرّة على المشهور، انتهى. وفي «مشكاة الأنوار»: نزل عليه سبعة وعشرين ألف مرّة، وعلى سائر الأنبياء لم ينزل أكثر من ثلاثة آلاف مرّة. (٦: ٣٠٦)

﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

(اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ) أي الكتاب المبين الّذي هو القرآن، وهو جواب القسم. (فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) هي ليلة القدر، فإنّه تعالى أنزل القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا دفعةً واحدة، وأملاه جبريل على السّفرة، ثمّ كان ينزّله على النّبيّ ﷺ نجومًا، أي متفرّقًا في ثلاث وعشرين سنة.

والظّاهر أنّ ابتداء تنزيله إلى النّبيّ ﷺ أيضًا كان في ليلة القدر؛ لأنّ ليلة القدر في الحقيقة ليلة افتتاح الوصلة، ولابدّ في الوصلة من الكلام والخطاب. والحكمة في نزوله ليلًا أنّ اللّيل زمان المناجاة، ومهبط النّفحات، ومشهد التّنزّلات، ومظهر التّجلّيات، ومورد الكرامات، ومحلّ الأسرار إلى حضرة الكبرياء. وفي اللّيل فراغ القلوب بذكر حضرة المحبوب، فهو أطيبُ من النّهار عند المقرّبين والأبرار. ووصف اللّيلة بالبركة لما أنّ نزول القرآن مستتبع للمنافع الدّينيّة والدّنيويّة بأجمعها، أو لما فيها من تنزّل الملائكة والرّحمة وإجابة الدّعوة ونحوها، وإلّا فأجزاء الزّمان متشابهة بحسب ذواتها وصفاتها، فيمتنع أن

يتميّز بعض أجزائه عن بعض بمزيد القدر والشّرف لنفس ذواتها، وعلى هذا فقِس شرف الأمكنة، فإنّه لعارض في ذاتها. (٨: ٤٠١)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

﴿لَاتُحَرِّكْ بِهِ﴾، أي بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ مادام جبريل يقرأ ويلقي عليك ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، أي بأخذه، أي لتأخذه على عجلة مخافة أن يتفلّت. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك بحكم الوعد، بحيث لايخفى عليك شيء من معانيه. ﴿وَقُرْاٰنَهُ﴾ بتقدير المضاف، أي إثبات قراءته في لسانك بحيث تقرأه متى شئت. فالقرآن مصدر بمعنى القراءة، كالغفران بمعنى المغفرة، مضاف إلى مفعوله. والقراءة ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في التّرتيل، وليس يقال ذلك لكل جمع؛ لايقال: قرأت القوم، إذا جمعتهم. ﴿فَاِذَا قَرَاْنَاهُ﴾، أي أتممنا قراءته عليك بلسان جبريل، وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التّأنّي. ﴿فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾، أي فاشرع فيه بعد فراغ جبريل منه بلا مهلة. وقال ابن عبّاس ﷺ: فإذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به. وقال الواسطيّ ﷺ: جمعه في السّرّ وقراءته في العلانيّة. ﴿ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه، وسمّي ما يشرح المجمل والمبهم من الكلام بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره. وفي ﴿ثُمَّ﴾ دليل على أنّه يجوز تأخير البيان عن وقت الخطاب لاعن وقت الحاجة إلى العمل؛ لأنّه تكليف بما لايطاق. قال أهل التّفسير: كان ﷺ إذا لقّن الوحي نازع جبريل القراءة، ولم يصبر إلى أن يتمّها؛ مسارعة إلى الحفظ وخوفًا من أن يفلت منه، فأمر بأن يستنصت له ملقيًا إليه قلبه وسمعه حتّى يقض إليه الوحي، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضَى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1]، ثمّ يقضيه بالدّراسة إلى أن يرسخ فيه. وعن بعض العارفين أنّه قال: فيه إشارة إلى صحّة الأخذ عن الله بواسطة، كأنّه تعالى يقول: خذه عن جبريل كأنّك ما علمته إلّا منه، ولا تسابق بما عندك منّا من غير واسطة. وأكابر المحقّقين يسمّون هذه الجهة الّتي هي عدم الوسائط بالوجه الخاصّ، والفلاسفة ينكرون هذا الوجه، ويقولون:

---

١ ـ طه/١٤٤.

لاارتباط بين الحقّ والموجودات إلّا من جهة الأسباب والوسائط، فليس عندهم أن يقول الإنسان: أخبرني ربّي، أي بلا واسطة، وهم مخطئون في هذا الحكم، فإنّه لمّا كان إرتباط كلّ ممكن بالحقّ من حيث الممكن من جهتين: جهة الوحدة وجهة الكـثرة، وجب أن تكون جهة الوحدة بلا واسطة وهو الوجه الخاصّ، وجهة الكثرة بواسطة وهو الوجه العامّ. ولمّا كان نبيّنا عليه السلام أكمل الخلق في جهة الوحدة؛ لكون أحكام كثرته وإمكانه مستهلكة بالكلّيّة في وحدة الحقّ وأحكام وجوبه، كان يأخذ عن الله بلا واسطة، أي مـن الوجـه الخاصّ، وكان ينطبع في قلبه ما يريد الحقّ أن يخبره به، فإذا جاءه الكـلام مـن جـهة الوسائط، أي من الوجه العامّ بصور الألفاظ والعبارات الّتي استدعتها أحوال المخاطبين كأن يبادر إليه بالنّطق به؛ لعلمه بمعناه بسبب تلقّيه إيّاه من حيث اللّاواسطة، لينفّس عن نفسه ما يجده من الكربة والشّدّة الّتي يلقاها مزاجه من التّنزّل الرّوحانيّ، فـإنّ الطّـبيعة تَنزَعِج من ذلك للمباينة الثّابتة بين المزاج وبين الرّوح الملكيّ. فعرف الحقّ نبيّنا عليه السلام أنّ القرآن وإن أخذته عنّا من حيث معناه بلا واسطة فإنّ إنزالنا إيّاه مرّةً أُخـرى مـن جـهة الوسائط يتضمّن فوائد زائدة منّا مراعاة إفهام المـخاطبين بـه؛ لأنّ الخـلق المـخاطبين بالقرآن حكم ارتباطهم بالحقّ إنّما هو من جهة سلسلة التّرتيب والوسائط كما هو الظّاهر بالنّسبة إلى أكثرهم، فلا يفهمون عن الله إلّا من تلك الجهة. ومنها معرفتك اكتساء تـلك المعاني العبارة الكاملة، وتَسْتَجْلي في مظاهرها من الحروف والكلمات، فـتجمع بـين كمالاته الباطنة والظّاهرة، فيتجلّىٰ بها روحانيّتك وجسمانيّتك، ثمّ يتعدّى الأمر منك إلى أُمّتك، فيأخذ كلّ منهم حصّته منه علمًاوعملًا.

ففي قوله تعالى: ﴿لَاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الخ: تعليم و تأديب، أمّا التّعليم فما أُشير إليه من أنّ باب جهةالوحدة مسدود على أكثر النّاس، فلا يفهمون عن الله إلّا من الجهة المناسبة لحالهم، وهي جهة الوسائط والكثرة الإمكانيّة. وأمّا التّأديب فإنّه لمّا كان الآتي بالوحي من الله جبريل فمتى بودر بذكر ما أتىٰ به كان كالتّعجيل له وإظهار الاستغناء عنه، وهذا خلل في الأدب بلاشكّ، سيّما مع المعلّم المرشد.

ومن هذا التّقرير عرف أنّ قوله تعالى: ﴿لَاتُحَرِّكْ بِهِ﴾ الخ واقع فـي البـين بـطريق

الاستطراد، فإنّه لمّا كان من شأنه ﷺ الإستعجال عند نزول كلّ وحي على ما سبق من الوجه، ولم ينه عنه إلى أن أوحى إليه هذه السّورة من أوّلها إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾[١] وعجل في ذلك كسائر المرّات نهي عنه بقوله: ﴿لَاتُحَرِّكْ﴾ الخ ثمّ عاد الكلام إلى تكملة ما ابتدىء به من خطاب النّاس. ونظيره مالو ألقى المدرّس على الطّالب مسألة، وتشاغل الطّالب بشيء لايليق بمجلس الدّرس، فقال: ألقِ إليّ بالك وتفهّم ما أقول، ثمّ كمّل المسألة. يقول الفقير (أيّده الله القدير): لاح لي في سرّ المناسبة وجه لطيف أيضًا، وهو أنّ الله تعالى بيّن قبل قوله: ﴿لَاتُحَرِّكْ بِهِ﴾ الخ جمع العظام ومتفرّقات العناصر الّتي هي أركان ظاهر الوجود، ثمّ انتقل إلى جمع القرآن وأجزائه الّتي هي أساس باطن الوجود، فقال بعد قوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[٢]، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾[٣]، فاجتمع الجمع بالجمع، والحمد لله تعالى...

وفي التّأويلات النّجميّة: إعلم أنّ كلّ ما استعدّ لإطلاق الشّيئية عليه فله ملك وملكوت؛ لقوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٤] والقرآن أشرف الأشياء وأكملها، فله أيضًا ملك وملكوت. فأمّا ملكه فهو الأحكام والشّرائع الظّاهرة الّتي تتعلّق بمصالح الأُمّة من العبادات الماليّة والبدنيّة والجنايات والوصايات وأمثالها. وأمّا ملكوته فهو الأسرار الإلهيّة والحقائق اللاّهوتيّة الّتي تتعلّق ببواطن خواصّ الأُمّة وأخصّ الخواصّ، بل بخلاصة أخصّ الخواصّ من المكاشفات والمشاهدات السّرّيّة والمعاينات الرّوحية، ولكلّ واحد من المُلك والملكوت مدركات يدرك بها لاغير؛ لأنّ الوجدانيّات والذّوقيّات لاتسعها ألسنة العبارات، لأنّها منقطع الإشارات. فقوله ﴿لَاتُحَرِّكْ﴾ الخ يشير إلى عدم تعبيره بلسان الظّاهر عن أسرار الباطن والحقائق الآبية عن تصرّف العبارات فيها بالتّعبير عنها، وأنّ مظهره الجامع جامع بين مُلك القرآن وملكوته، وهو ﷺ يتبع بظاهره مُلكه

---

١ ـ القيامة/ ١٥.

٢ ـ القيامة / ٣.

٣ ـ القيامة / ١٧.

٤ ـ المؤمنون / ٨٨.

وبباطنه ملكوته. نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المتّبعين للقرآن في كلّ زمان.

(١٠: ٢٤٧ - ٢٤٩)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

النّون للعظمة، أو للدّلالة على الذّات مع الصّفات والأسماء، والضّمير للقرآن؛ لأنّ شهرته تقوم مقام تصريحه باسمه وإرجاع الضّمير إليه، فكأنّه حاضر في جميع الأذهان، وعظّمه بأن أسند إنزاله إلى جنابه، مع أنّ نزوله إنّما يكون بواسطة الملك، وهو جبرائيل على طريقة القصر بتقديم الفاعل المعنويّ، إلّا أنّه اكتفى بذكر الأصل عن ذكر التّبع. قال في بعض التّفاسير: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ مبتدأ أو خبر في الأصل، بمعنى نحن أنزلناه فأدخل «إنّ» للتّحقيق، فاختير اتّصال الضّمير للتّخفيف. ومعنى صيغة الماضي إنّا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينابه وقدّرناه في الأزل.

ثمّ إنّ الإنزال يستعمل في الدّفعيّ، والقرآن لم ينزّل جملةً واحدةً بل أُنزل منجّمًا مفرّقًا في ثلاث وعشرين سنة، وهذه السّورة من جملة ما أُنزل. وجوابه: أنّ المراد أنّ جبرائيل نزل به جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، وأملاه على السّفرة، أي الملائكة الكاتبين في تلك السّماء، ثمّ كان ينزّل على النّبيّ ﷺ منجّمًا على حسب المصالح.

وكان ابتداء تنزيله أيضًا في تلك اللّيلة. وفيه إشارة إلى أنّ بيت العزّة أشرف المقامات السّماويّة بعد اللّوح المحفوظ؛ لنزول القرآن منه إليه، ولذلك قيل: بفضل السّماء الأُولى على أخواتها؛ لأنّها مقرّ الوحي الرّبانيّ. وقيل: لشرف المكان بالمكين، وكلّ منهما وجه، فإنّ السّلطان إنّما ينزل على أنزه مكان، ولو فرضنا نزوله على مَسْبخة لكفىٰ نزوله هناك شرفًا لها، فالمكان الشّريف يزداد شرفًا بالمكين الشّريف كما سبق في سورة البلد. ففي نزول القرآن بالتّدريج إشارة إلى تعظيم الجناب المحمّديّ، كما تدخل الهدايا شيئًا بعد شيء على أيدي الخُدّام تعظيمًا للمُهدىٰ إليه بعد التّسوية بينه وبين موسى عليه السلام بإنزاله جملةً إلى بيت العزّة. وفي التّدريج أيضًا تسهيل للحفظ وتثبيت لفؤاده كما قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1].

وكلام الله المنزل قسمان: القرآن والخبر القُدسيّ... [وذكركما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:]

ومن الأسرار معنى، فكيف يقوم لفظ الغير ومعناه مقام حرف القرآن، ثمّ إنّ اللّوح المحفوظ قلب هذا التّعيين، ولكن قلب الإنسان ألطف منه؛ لأنّه زبدته وأشرفه، لأنّ القرآن نزل به الرّوح الأمين على قلب النّبيّ المختار.

وهنا سؤال وهو: أنّ الملائكة بأسرهم صعقوا ليلة نزول القرآن من حضرة اللّوح المحفوظ إلى حضرة بيت العزّة، فما وجهه؟

والجواب: أنّ محمّدًاﷺ عندهم من أشراط القيامة، والقرآن كتابه، فنزوله دلّ على قيام السّاعة، فصعقوا هَيبة منه وإجلالاً لكلامه، وحضرة وعده ووعيده.

وفي بعض الأخبار: أنّ الله تعالى إذا تكلّم بالرّحمة تكلّم بالفارسيّة، والمراد بالفارسيّة لسان غير العرب سُريانيًّا كان أو عِبرانيًّا، وإذا تكلّم بالعذاب تكلّم بالعربيّة، فلمّا سمعوا العربيّة المحمّديّة ظنّوا أنّه عقاب، فصعقوا، وسيأتي معنى القدر. ثمّ القرآن كلامه القديم أنزله في شهر رمضان كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2] وهذا هو البيان الأوّل، ولم ندر نهارًا أُنزل فيه أم ليلًا؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[3]، وهذا هو البيان الثّاني، ولم ندرِ أيّ ليلة هي؟ فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ فهذا هو البيان الثّالث الّذي هو غاية البيان.

فالصّحيح أنّ اللّيلة الّتي ﴿يُفْرَقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[4] وينسخ فيها أمر السّنة وتدبير الأحكام إلى مثلها هي ليلة القدر، ولتقدير الأُمور فيها سمّيت ليلة القدر. ويشهد التّنزيل لما ذكرنا؛ إذ في أوّل الآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ثمّ وصفها فقال فيها: ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

---

١ ـ الفرقان / ٣١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الدّخان / ٣.

٤ ـ الدّخان/٤.

حَكِيمٍ﴾. والقرآن إنّما نزل في ليلة القدر، فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه اللّيلة مواطئة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. كذا في قوت القلوب للشّيخ أبي طالب المكّيّ ﵀.

فإن قلت: ما الحكمة في إنزال القرآن ليلًا؟ قلت: لأنّ أكثر الكرامات ونزول النّفحات والإسراء إلى السّموات يكون باللّيل، واللّيل من الجنّة؛ لأنّها محلّ الاستراحة، والنّهار من النّار؛ لأنّ فيه المعاش والتّعب، والنّهار حظّ اللّباس والفراق، واللّيل حظّ الفراش والوصال. وعبادة اللّيل أفضل من عبادة النّهار؛ لأنّ قلب الإنسان فيه أجمع، والمقصود هو حضور القلب، قال بعض العارفين: اعمل التّوحيد في النّهار، والاسم في اللّيل، حتّى تكون جامعًا بين الطّريقتين: الجلوتيّة (بالجيم) والخلوتيّة، ويكون التّوحيد والاسم جناحين لك.

(١٠: ٤٧٩ ـ ٤٨٠)

الفصل السّابع والثّلاثون

نصّ شُبَّر (م: ١٢٤٢ هـ) في تفسيره: «الجوهر الثَّمين»

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ﴾ البقرة / ١٨٥

﴿الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ﴾ جملة واحدة إلى البيت المعمور، ثمّ نزل في طول عشرين سنة، أو ابتدأ نزوله فيه، أو أُنزل في شأنه، أو نزل بيانه وتأويله في ليلة القدر. (١: ١٨٧)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرانِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضـى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤

القمّيّ: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه القرآن بادر بقراءته قبل نزول الآية أي قبل تمامها حرصًا عليه.

أقول: فالمعنى لاتعجل بقراءته قبل أن يفرغ جبرئيل من إبلاغه. قيل: لاتعجل في تبليغ ما كان مجملًا قبل أن يأتيك بيانه. (٤: ١٧٥)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ هلاّ ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرانُ﴾ أي أُنزل بقرينة ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ مجتمعًا كالكتب الثّلاثة، وهي شبهة واهية، إذ إعجازه لايختلف بنزوله جملةً ومفرّقًا مع أنّ من حكم التّفريق ما أفاده قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ﴾ نزل مفرّقًا. قوله تعالى:

﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ﴾ لنقوّي بتفريقه ﴿فُؤَادَكَ﴾ على حفظه وفهمه، ولأنّ نزول نزوله بحسب الحوادث يزيده بصيرة، ولأنّ نزول جبرئيل به حينًا بعد حين يقوّي قلبه. ومنها اقتضاء النّاسخ والمنسوخ. قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ نزّلناه شيئًا بعد شيءٍ بتمهُّلٍ في نحو عشرين سنة، أو أمرنا بترتيله أي تبيينه والتّأنيّ في قراءته. (٤: ٣٥٦)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ...﴾ الدّخان / ٣

ليلة القدر ابتدئ فيها إنزاله، أو أُنزل فيها جملة من اللّوح إلى سماء الدّنيا ثمّ أنزله على محمّد ﷺ نجومًا وكانت مباركة لذلك ولنزول الرّحمة وقسم النّعم وإجابة الدّعا فيها.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ فلذلك أنزلناه

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم أوذي حكمةً من الآجال والأرزاق وغيرها إلى السّنة القابلة ولذلك أُنزل فيها القرآن الحكيم.

وعن الباقر والصّادق عليهما السلام أي أنزلنا القرآن، واللّيلة المباركة هي: ليلة القدر. وعنهما وعن الكاظم عليه السلام «أنزل الله القرآن فيها إلى البيت المعمور جملةً واحدةً، ثمّ نزل من البيت المعمور على رسول الله ﷺ في طول عشرين سنة، فيها يفرق يعني في ليلة القدر، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي يقدّر الله كلّ أمرٍ من الحقّ والباطل وما يكون في تلك السّنة وله فيه البداء والمشيّة...» الخبر.

﴿أَمْرًا﴾...﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ على مقتضٰى حكمنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل من ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ أي أنزلنا القرآن لأنّ من شأننا إرسال الرّسل بالكُتُب إلى عبادنا. (٥: ٤٣٧ - ٤٣٨)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسٰى اِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ﴾ الأعلى / ٦ ـ ٧

﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ القرآن بقرائة جبرئيل

﴿فَلاَ تَنْسٰى﴾ ما تقرأه، وهذا إعجاز أيضًا لكونه أُمّيًّا ووقوعه كما أخبر إعجاز آخر.

رُوي أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا نزل عليه جبرئيل بالوحي يقرأه مخافة أن ينساه فكان لايفرغ

جبرئيل من آخر الوحي حتّى يتكلّم هو بأوّله، فلمّا نزلت هذه الآية لم ينس بعد ذلك شيئًا.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن ينساه بنسخ تلاوته، أو أُريد به التبرّك. والقمّيّ: أي نعلّمك فلاتنسى إلاّ ما شاء الله، ثمّ استثني لأنّه لا يؤمن عليه النّسيان فإنّ الّذي لا ينسى هو الله تعالى.

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفٰى) ما ظهر من أحوالكم وما بطن فيعلم ما فيه صلاحكم من نسخٍ وإبقاءٍ أو جهرك بقراءتك مع جبرئيل وما في نفسك من خوف النّسيان فلا تتعب بالجهر فإنّه يكفيك ما تخافه. (٦: ٣٩٦)

الفصل الثّامن والثّلاثون

نصّ الآلُوسيّ (م:١٢٧٠ هـ) في تفسيره: «روح المعاني»

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ الإسراء / ١٠٥

وقد أخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباريّ وغيرهما، عن ابن عبّاس، قال: نزل القرآن... إلى السّفرة الكرام... [وذكركما تقدّم عن السّيوطيّ].

وفي رواية أنّه أُنزلَ ليلة القدر في رمضان، ووضع في بيت العزّة في السّماء الدّنيا، ثمّ أُنزل نجومًا في عشرين وفي رواية في ثلاث وعشرين سنة، وفي أُخرىٰ خمس وعشرين، وهذا الاختلاف ـ على ما في البحر – مبنيّ على الاختلاف في سنّه ﷺ.

وأخرج ابن الضُّرَيس من طريق قَتادة، عن الحسن كان يقول: أنزل الله القرآن على نبيّ الله ﷺ في ثماني عشرة سنة، ثماني سنين بمكّة، وعشر بعدما هاجر.

وتعقّبه ابن عَطيّة بأنّه قول مختلّ لايصحّ عن الحسن، واعتمد جمع أنّ بين أوّله وآخره ثلاثًا وعشرين سنة، وكان ينزل به جبريل عليه السلام على ما قيل خمس آيات خمس آيات.

فقد أخرج البَيهقيّ في «الشُّعَب» عن عمر... وأخرج ابن عَساكِر من طريق أبي نَضْرة، قال :...[وذكركما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:]

وكان المراد في الغالب، فإنّه قد صحّ أنّه نزل بأكثر من ذلك وبأقلّ منه.

وقرأ أُبيّ وعبدالله ﴿فَرَقْنَاهُ عَلَيْكَ﴾، ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي تُؤدة وتأنٍّ، فإنّه أيسر للحفظ وأعون على الفهم، ورُوي ذلك عن ابن عبّاس ﷺ وقيل: أي تطاول في المدّة وتقضّيها شيئًا فشيئًا، والظّاهر تعلّق ﴿لِتَقْرَأَهُ﴾ بفرقناه، و﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بتقرأه، و ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ به أيضًا، إلّا أنّ فيه تعلّق حرفي جرّ بمعنى بمتعلّق واحد. وأُجيب بأنّ تعلّق الثّاني بعد اعتبار تعلّق الأوّل به فيختلف المتعلّق. وفي البحر: لايبالي بتعلّق هذين الحرفين بما ذكر لاختلاف معناهما؛ لأنّ الأوّل في موضع المفعول به والثّاني في موضع الحال، أي متمهّلًا وترسّلًا. ولمافي ذلك من القيل والقال، اختار بعضهم تعلّقه بفرقناه، وجوّز الخَفاجيّ تعلّقه بمحذوف، أي تفريقًا أو فرقًا ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أو قراءة ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ منك، كمكث تنزيله.

وجعله أبو البقاء في موضع الحال من الضّمير المنصوب في ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي متمكّثًا. ومن العجيب قول الحَوفيّ: أنّه بدل من ﴿عَلَى النَّاسِ﴾. وقد تعقّبه أبو حيّان بأنّه لايصحّ؛ لأنّ ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ من صفات القاريء أو من صفات المقروء، وليس من صفات النّاس ليكون بدلًا منهم، والمكث مثلّث الميم، وقريء بالضّمّ والفتح، ولم يقرأ بالكسر وهو لغة قليلة، وزعم ابن عَطيّة إجماع القرّاء على الضّمّ.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ على حسب الحوادث والمصالح، وذكر هذا بعد قوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ الخ مفيد، وذلك لأنّ الأوّل دالّ على تدريج نزوله، ليسهل حفظه وفهمه من غير نظر إلى مقتضٍ لذلك، وهذا أخصّ منه، فإنّه دالّ على تدريجه بحسب الاقتضاء.

(١٥: ١٨٨، ١٨٩)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

حكاية لنوع آخر من أباطيلهم، والمراد بهم المشركون، كما صحّ عن ابن عبّاس، وهم القائلون أوّلًا. والتّعبير عنهم بعنوان الكُفر لذمّهم به والإشعار بعلّة الحكم، وقيل: المراد بهم طائفة من اليهود.

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ﴾، أي أُنزل عليه، كخُبّر بمعنى أُخبر، فلاقصد فيه إلى التّدريج

لمكان ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فإنّه لو قصد ذلك لتدافعا؛إذ يكون المعنىٰ لولا فرّق القرآن جملةً واحدةً، والتّفريق ينافي الجمليّة. وقيل: عبّر بذلك للدّلالة على كثرة المُنزَل في نفسه، ونصب ﴿جُمْلَةً﴾ على الحال، و ﴿وَاحِدَةً﴾ على أنّه صفة مؤكّدة له، أي هلاّ أُنزل القرآن عليه ﷺ دفعةً غير مفرّق كما أُنزلت التّوراة والإنجيل والزّبور، على ما تدلّ عليه الأحاديث والآثار، حتّى كاد يكون إجماعًا، كما قال السّيوطيّ وردّ على من أنكر ذلك من فضلاء عصره. فقول ابن الكمال: إنّ التّوراة أُنزلت منجّمةً في ثماني عشرة سنة، ويدلّ عليه نصوص التّوراة، ولاقاطع بخلافه من الكتاب والسّنّة ناشىء من نقصان الاطّلاع.

وهذا الاعتراض ممّا لاطائل تحته؛ لأنّ الإعجاز ممّالا يختلف بنزوله جملةً أو مفرّقًا، مع أنّ للتّفريق فوائد، منها ما ذكره الله تعالى بعد. وقيل: إنّ شاهد صحّة القرآن إعجازه وذلك ببلاغته، وهي بمطابقته لمقتضى الحال في كلّ جملة منه، ولايتيسّر ذلك في نزوله دفعةً واحدةً، فلايقاس بسائر الكُتب، فإنّ شاهد صحّتها ليس الإعجاز.

وفيه أنّ قوله: ولايتيسّر الخ ممنوع، فإنّه يجوز أن ينزّل دفعةً واحدةً مع رعاية المطابقة المذكورة في كلّ جملة؛ لما يتجدّد من الحوادث الموافقة لها الدّالّة على أحكامها. وقد صحّ أنّه نزل كذلك إلى السّماء الدّنيا، فلولم يكن هذا لزم كونه غير معجز فيها، ولاقائل به، بل قد يقال: إنّ هذا أقوى في إعجازه، والبليغ يفهم من سياق الكلام ما يقتضيه المقام، فافهم.

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾: استئناف وارد من جهته تعالى؛ لردّ مقالتهم الباطلة، وبيان بعض الحكم في تنزيله تدريجًا، ومحلّ الكاف نصب على أنّها صفة لمصدر مؤكّد لمضمر معلّل بما بعده، وجوّز نصبها على الحالية، و﴿كَذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى مايفهم من كلامهم، أي تنزيلًا مثل ذلك التّنزيل الّذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه، نزّلناه لاتنزيلًا مغايرًا له، أو نزّلناه مماثلًا لذلك التّنزيل؛ لنقوّي به فؤادك، فإنّ في تنزيله مفرّقًا تيسيرًا لحفظ النّظم، وفهم المعاني، وضبط الكلام، والوقوف على تفاصيل ماروعي فيه من الحكم والمصالح، وتعدّد نزول جبريل ﷺ، وتجدّد إعجاز الطّاعنين فيه في كلّ جملة مقدار أقصر سورة تنزّل منه. ولذلك فوائد غير ما ذكر أيضًا؛

منها: معرفة النّاسخ المتأخّر نزوله من المنسوخ المتقدّم نزوله المخالف لحكمه.

ومنها: انضمام القرائن الحالية إلى الدّلالات اللّفظيّة، فإنّه يعين على معرفة البلاغة؛ لأنّه بالنّظر إلى الحال يتنبّه السّامع لما يطابقها ويوافقها إلى غير ذلك.

وقيل: قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ﴾ من تمام كلام الكفرة، والكاف نصب على الحال من القرآن، أو الصّفة لمصدر ﴿نُزِّلَ﴾ المذكور أو لجملة، والإشارة إلى تنزيل الكتب المتقدّمة، ولام ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ لام التّعليل، والمعلّل محذوف نحو ماسمعت أوّلًا، أي نزّلناه مفرّقًا لنثبّت الخ. وقال أبوحاتم: هي لام القسم، والتّقدير والله لنثبّتنّ، فحذف النّون وكسرت اللّام، وقد حكىٰ ذلك عنه أبو حَيّان. والظّاهر أنّها عنده كذلك على القولين في ﴿كَذٰلِكَ﴾. وتعقّبه بأنّه قول في غاية الضّعف، وكأنّه ينحو إلى مذهب الأخفش، إنّ جواب القسم يتلقّىٰ بلام «كي»، وجعل منه ﴿وَلِتَصْغىٰ اِلَيْهِ اَفْئِدَةُ﴾[1] الخ، وهو مذهب مرجوح. وقرأ عبدالله «لِيُثَبِّتَ» بالياء، أي ليثبّت الله تعالى. (١٩: ١٥)

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ عَلٰى قَلْبِكَ...﴾ الشُّعراء / ١٩٢

والمراد بالقلب إمّا الرّوح، وهو أحد إطلاقاته كما قال الرّاغب، وكون الإنزال عليه، على ما قال غير واحد؛ لأنّه المدرك والمكلّف دون الجسد. وقد يقال: لمّا كان له ﷺ جهتان: جهة ملكيّة يستفيض بها، وجهة بشريّة يفيض بها، جعل الإنزال على روحه ﷺ؛ لأنّها المتّصفة بالصّفات الملكيّة الّتي يستفيض بها من الرّوح الأمين.

وللإشارة إلى ذلك قيل: ﴿عَلٰى قَلْبِكَ﴾ دون «عليك» الأخصر. وقيل: إنّ هذا لأنّ القرآن لم ينزل في الصُّحُف كغيره من الكُتُب. وإمّا العضو المخصوص وهو الإطلاق المشهور. وتخصيصه بالإنزال عليه قيل: للإشارة إلى كمال تعقّله ﷺ وفهمه ذلك المنزل؛ حيث لم تعتبر واسطة في وصوله إلى القلب الّذي هو محلّ العقل، كما يقتضيه ظاهر كثير من الآيات والأحاديث. ويشهد له العقل على مالا يخفىٰ على من كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد. وقد أطال في الانتصار لذلك الإمام في تفسيره.

---

١ ـ الأنعام / ١١٣.

وردّ على من ذهب إلى أنّ الدّماغ محلّ العقل. وقيل: للإشارة إلى صلاح قـلبه ﷺ وتقدّسه؛ حيث كان منزلاً لكلامه تعالى؛ ليعلم منه حال سائر أجزائه ﷺ فإنّ القلب رئيس جميع الأعضاء ومَلِكها، ومتى صلح المَلِك صلحت الرّعيّة، وفي الحديث «ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب». وقد يقال: يجوز أن يكون التّخصيص لأنّ الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعًا مخصوصًا يسمع به ما ينزل عليه من القرآن تمييزًا لشأنه على سائر ما يسمعه ويعيه على حدّ ماقيل.

وذكره النّوَويّ في شرح صحيح مسلم في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[١]، من أنّ الله عزّ وجلّ جعل لفؤاده ﷺ بصرًا، فرآه به سبحانه ليلة المعراج. وهذا كلّه على القول بأنّ جبرائيل عليه السلام ينزل بالألفاظ القرآنيّة المحفوظة له بعد أن نزل القرآن جملةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة أو الّتي يحفظها من اللّوح عند الأمر بالإنزال، أو الّتي يوحي بها إليه، أو الّتي يسمعها منه سبحانه، على ما قاله بعض أجِلَّة السّلف، عنده فيلقيها إلى النّبيّ ﷺ على ماهي عليه من غير تغيير أصلًا. وكذا على القول بأنّ جبرائيل عليه السلام ألقىٰ عليه المعاني القرآنيّة، وأنّه عبّر عنها بهذه الألفاظ العربيّة، ثمّ نزل بها كذلك، فألقاها إلى النّبيّ ﷺ. وأمّا على القول بأنّه عليه السلام إنّما نزل بالمعاني خاصّة إلى النّبيّ ﷺ وأنّه عليه الصّلاة والسّلام علم تلك المعاني، وعبّر عنها بلغة العرب، فقيل: إنّ القلب بمعنى العضو المخصوص لاغير، وتخصيصه لأنّ المعاني إنّما تدرك بالقوّة المودعة فيه.

وقيل: يجوز أن يراد به الرّوح، وروحه عليه الصّلاة والسّلام لغاية تقدّسها وكمالها في نفسها تدرك المعاني من غير توسّط آلة. ومن النّاس من ذهب إلى هذا القول، وجعل الآية دليلًا له، وهو قول مرجوح. ومثله القول بأنّ جبرائيل عليه السلام ألقىٰ عليه المعاني فعبّر عنها بألفاظ، فنزل بما عبّر هو به. والقول الرّاجح أنّ الألفاظ منه عزّ وجلّ كالمعاني لا مدخل لجبرائيل عليه السلام فيها أصلًا.

وكان النّبيّ ﷺ يسمعها ويعيها بقوى إلهيّة قُدسيّة، لاكسماع البشر إيّاها منه عليه

---

١ ـ النّجم / ١١.

الصّلاة والسّلام وتنفعل عند ذلك قواه البشريّة، ولهذا يظهر على جسده الشّريف ﷺ ما يظهر، ويقال لذلك: بُرَحاء الوحي، يظنّ في بعض الأحايين أنّه أغمي عليه عليه الصّلاة السّلام. وقد يظنّ أنّه ﷺ أغفىٰ.

وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم، عن أنس، قال: بينا رسول‌الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفىٰ إغفاءة، ثمّ رفع رأسه متبسّمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول‌الله؟ فقال: أنزل عليّ آنفًا سورة فقرأ ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * اِنَّ شَانِئَكَ هو الاَبْتَرُ ﴾[١]. ولا يحتاج من قال: إنّ الأشبه أنّ القرآن كلّه نزل في اليقظة، إلى تأويل هذا الخبر بأنّه عليه الصّلاة والسّلام خطر له في تلك إلاغفاءة سورة الكوثر الّتي نزلت قبلها في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الّذي أُنزلت فيه السّورة فقرأها عليهم، ثمّ إنّه على ما قيل: من أنّ بعض القرآن نزل عليه عليه الصّلاة والسّلام وهو نائم، استدلالًا بهذا الخبر، يبقى ماقلناه من سماعه عليه الصّلاة والسّلام ما ينزل إليه ﷺ ووعيه إيّاه بقوى إلهيّة قُدسيّة، ونومه عليه الصّلاة والسّلام لا يمنع من ذلك، كيف وقد صحّ عنه ﷺ أنّه قال: «تنام عيني ولا ينام قلبي».

وقد ذكر بعض المتصدّرين في محافل الحكمة من المتأخّرين في بيان كيفيّة نزول الكلام، وهبوط الوحي من عندالله تعالى بواسطة الملك على قلب النّبيّ ﷺ: أنّ الرّوح الإنسانيّ إذا تجرّد عن البدن، وخرج عن وثاقه من بيت قالبه، وموطن طبعه مهاجرًا إلى ربّه سبحانه؛ لمشاهدة آياته الكُبرىٰ، وتطهّر عن درن المعاصي واللّذّات والشّهوات والوساوس العادية والمتعلّقات، لاح له نور المعرفة والإيمان بالله تعالى وملكوته الأعلى، وهذا النّور إذا تأكّد وتَجَوهَر كان جوهرًا قدسيًّا يسمّى في لسان الحكمة النّظريّة بالعقل الفعّال، وفي لسان الشّريعة النّبويّة بالرّوح القُدسيّ. وبهذا النّور الشّديد العقليّ يتلألأ فيه أسرار ما في الأرض والسّماء، ويتراءىٰ منه حقائق الأشياء كما يتراءىٰ بالنّور الحسّيّ البَصريّ الأشباح المثاليّة في قوّة البصر إذا لم يمنع حجاب، والحجاب هاهنا هو آثار الطّبيعة وشواغل هذه الأولىٰ، فإذا عريت النّفس عن دواعي الطّبيعة والاشتغال بما

---

١ ـ الكوثر / ١ - ٤.

تحتها من الشّهوة والغضب والحسّ والتّخيّل، وتوجّهت بوجهها شطر الحقّ وتلقاء عالم الملكوت الأعلى، اتّصلت بالسّعادة القصوى، فلاح لها سرّ الملكوت، وانعكس عليها قدس اللّاهوت، ورأت عجائب آيات الله تعالى الكُبرىٰ. ثمّ إنّ هذه الرّوح إذا كانت قدسيّة شديدة القوى قويّة الآثار؛ لقوّة اتّصالها بما فوقها فلا يشغلها شأن عن شأن، ولا يمنعها جهة فوقها عن جهة تحتها، فتضبط الطّرفين، وتسع قوّتها الجانبين؛ لشدّة تمكّنها في الحدّ المشترك بين المُلك والملكوت، كالأرواح الضّعيفة الّتي إذا مالت إلى جانب غاب عنها الجانب الآخر، وإذا ركنت إلى مشعر من المشاعر ذهلت عن المشعر الآخر، وإذا توجّهت هذه الرّوح القُدسيّة الّتي لايشغلها شأن عن شأن، ولاتصرفها نشأة عن نشاة، وتلقّت المعارف الإلهيّة بلا تعلّم بشريّ، بل من الله تعالى يتعدّى تأثيرها إلى قواها، ويتمثّل لروحه البشريّ صورة ما شاهده بروحه القُدسيّ، وتبرز منها إلى ظاهر الكون، فتتمثّل للحواسّ الظّاهرة سيّما السّمع والبصر؛ لكونهما أشرف الحواسّ الظّاهرة، فيرى ببصره شخصًا محسوسًا في غاية الحسن والصّباحة، ويسمع بسمعه كلامًا منظومًا في غاية الجودة والفصاحة، فالشّخص هو الملك النّازل بإذن الله تعالى الحامل للوحي الإلهيّ، والكلام هو كلام الله تعالى، وبيده لوح فيه كتاب هو كتاب الله تعالى، وهذا الأمر المتمثّل بما معه أو فيه ليس مجرّد صورة خياليّة، لاوجود لها في خارج الذّهن والتّخيّل، كما يقوله من لاحظّ له من علم الباطن، ولاقدم له في أسرار الوحي والكتاب، كبعض أتباع المشّائين، معاذ الله تعالى عن هذه العقيدة النّاشئة عن الجهل بكيفيّة الإنزال والتّنزيل.

ثمّ قال: إنارة قلبيّة وإشارة عقليّة، عليك أن تعلم أنّ للملائكة ذوات حقيقيّة، وذوات إضافيّة مضافة إلى مادونها إضافة النّفس إلى البدن الكائن في النّشاة الآخرة.

فأمّا ذواتها الحقيقيّة فإنّما هي أمريّة قضائيّة قوليّة، وأمّا ذواتها الإضافيّة فإنّما هي خلقية قدريّة تنشأ منها الملائكة اللّوحيّة، وأعظمهم إسرافيل عليه السلام، وهؤلاء الملائكة اللّوحيّة يأخذون الكلام الإلهيّ والعلوم اللّدنّيّة من الملائكة القلميّة، ويثبّتونها في صحائف ألواحهم القدرية الكتابية. وإنّما كان يلاقي النّبيّ صلى الله عليه وآله في معراجه الصّنف الأوّل من الملائكة، ويشاهد روح القُدس في اليقظة، فإذا اتّصلت الرّوح النّبويّة بعالمهم، عالم

الوحي الرّبانيّ، يسمع كلام الله تعالى، وهو إعلام الحقائق بالمكالمة الحقيقيّة، وهي الإفاضة والاستفاضة في مقام قاب قوسين أو أدنى، وهو مقام القرب ومقعد الصّدق ومعدن الوحي والإلهام. وكذا إذا عاشر النّبيّ الملائكة الأعلين يسمع صريف أقلامهم وإلقاء كلامهم، وهو كلام الله تعالى النّازل في محلّ معرفتهم، وهي ذواتهم وعقولهم؛ لكونهم في مقام القرب.

ثمّ إذا نزل ﷺ إلى ساحة الملكوت السّماويّ يتمثّل له صورة ما عقله وشاهده في لوح نفسه الواقعة في عالم الأرواح القدريّة السّماويّة، ثمّ يتعدّى منه الأثر إلى الظّاهر، وحينئذٍ يقع للحواسّ شبه دهش ونوم؛ لمّا أنّ الرّوح القُدسيّة لضبطها الجانبين تستعمل المشاعر الحسّيّة، لكن لافي الأغراض الحيوانيّة، بل في سبيل السُّلوك إلى الرّبّ سبحانه، فهي تشائع الرّوح في سبيل معرفته تعالى وطاعته، فلا جرم إذا خاطبه الله تعالى خطابًا من غير حجاب خارجي، سواءً كان الخطاب بلا واسطة أو بواسطة الملك، واطّلع على الغيب، فانطبع في فصّ نفسه النّبويّة نقش الملكوت وصورة الجبروت، تنجذب قوّة الحسّ الظّاهر إلى فوق، ويتمثّل لها صورة غير منفكّة عن معناها وروحها الحقيقيّ، لا كصورة الأحلام والخيالات العاطلة عن المعنى، فيتمثّل لها حقيقة الملك بصورته المحسوسة بحسب ما يحتملها، فيرى ملكًا على غير صورته الّتي كانت له في عالم الأمر؛ لأنّ الأمر إذا نزل صار خلقًا مقدّرًا، فيرىٰ صورته الخلقيّة القدريّة، ويسمع كلامًا مسموعًا بعد ما كان وحيًا معقولًا، أو يرىٰ لوحًا بيده مكتوبًا، فالموحىٰ إليه يتّصل بالملك أوّلًا بروحه العقليّ، ويتلقّى منه المعارف الإلهيّة، ويشاهد ببصره العقليّ آيات ربّه الكبرىٰ، ويسمع بسمعه العقليّ كلام ربّ العالمين من الرّوح الأعظم، ثمّ إذا نزل عن هذا المقام الشّامخ الإلهيّ يتمثّل له الملك بصورة محسوسة بحسبه، ثمّ ينحدر إلى حسّه الظّاهر، ثمّ إلى الهواء، وهكذا الكلام في كلامه، فيسمع أصواتًا وحروفًا منظومة مسموعة، يختصّ هو بسماعها دون غيره، فيكون كلّ من الملك وكلامه وكتابه قد تأدّى من غيبه إلى شهادته، ومن باطن سرّه إلى مشاعره، وهذه التّأدية ليست من قبيل الانتقال والحركة للملك الموحي من موطنه ومقامه؛ إذ كلّ له مقام معلوم لايتعدّاه ولا ينتقل عنه، بل مرجع ذلك إلى انبعاث

نفسي النّبيّ عليه الصّلاة السّلام من نشأة الغيب إلى نشأة الظّهور. ولهذا كان يعرض له شبه الدّهش والغشي، ثمّ يرى ويسمع، ثمّ يقع منه الإنباء والإخبار، فهذا معنى تنزيل الكتاب وإنزال الكلام من ربّ العالمين، انتهى.

وفيه ما تأباه الأصول الإسلاميّة ممّا لايخفى عليك. وقد صرّح غير واحد من المحدّثين والمفسّرين وغيرهم بانتقال الملك وهو جسم عندهم، ولم يؤوّل أحد منهم نزوله فيما نعلم، نعم أوّلوا نزول القرآن وإنزاله.

قال الأصفهانيّ في أوائل تفسيره: اتّفق أهل السّنة والجماعة... [وذكركما تقدّم عن الزّركشيّ، ثمّ حكى قول الطّيّبيّ والقُطب في «حواشي الكشّاف»، حسبما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:]

وفيه بحث لايخفى، وعندي أنّ إنزاله إظهاره في عالم الشّهادة بعد أن كان في عالم الغيب، ثمّ إنّ ظاهر الآية يقتضي أنّ جميع القرآن نزل به الرّوح الأمين على قلبه الشّريفﷺ، وهذا ينافي ما قيل: إنّ آخر سورة البقرة، كلّمه الله تعالى بها ليلة المعراج؛ حيث لا واسطة احتجاجًا بما أخرجه مُسلم، عن ابن مسعود: لما أُسري برسول الله ﷺ انتهى إلى سدرة النتهى، الحديث. وفيه: فأعطي رسول اللهﷺ الصّلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لايشرك من أمّته بالله تعالى شيئًا المقحمات. وأُجيب بعد تسليم أن يكون ما ذكر دليلًا لذلك، يجوز أن يكون قد نزل جبريل عليه السلام بما ذكر أيضًا تأكيدًا وتقريرًا أو نحو ذلك. وقد ثبت نزوله عليه السلام بالآية الواحدة مرّتين لما ذكر. وجوّز أن تكون الآية باعتبار الأغلب، واعتبر بعضهم كونها كذلك لأمر آخر، وهو أنّ من القرآن ما نزل به إسرافيل عليه السلام، وهو ما كان في أوّل النّبوّة، وفيه أنّ ذلك لم يثبت أصلًا.

وفي الإتقان: أخرج الإمام أحمد في تاريخه من طريق داود بن أبي هند، عن الشّعبيّ، قال: أُنزل على النّبيّﷺ النّبوّة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوّته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين، فكان يعلّمه الكلمة والشّيء، ولم ينزل عليه القرآن على لسانه. فلمّا مضت ثلاث سنين قرن بنبوّته جبريل عليه السلام، فنزل عليه القرآن على لسانه عشر سنين، انتهى، وهو صريح في خلاف ذلك، وإن كان فيه ما يخالف الصّحيح المشهور من أنّ جبريل عليه السلام هو

الّذي نزل عليه عليه الصّلاة والسّلام بالوحي من أوّل الأمر، إلّا أنّه نزل عليه ﷺ غيره عليه السلام من الملائكة أيضًا ببعض الأُمور، وكثيرًا ما ينزلون لتشييع الآيات القرآنيّة مع جبريل عليه وعليهم السّلام. ومن النّاس من اعتبر كونها باعتبار الأغلب؛ لأنّ إنزال جبريل عليه السلام قد لايكون على القلب بناءً على ما ذكره الشّيخ محيى الدّين ﷺ في الباب الرّابع عشر من الفتوحات، من قوله: إعلم أنّ الملك يأتي النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بالوحي على حالين: تارةً ينزل بالوحي على قلبه، وتارةً يأتيه في صورة جسديّة من خارج، فيلقي ما جاء به إلى ذلك النّبيّ على أُذنه فيسمعه، أو يلقيه على بصره فيبصره، فيحصل له من النّظر ما يحصل من السّمع سواء.

وتعقّب بأنّه لاحاجة إلى ما ذكر، وما نقل عن محيى الدّين ﷺ لايدلّ على أنّ نزول الوحي إلى كلّ نبيّ يكون على هذين الحالين، فيجوز أن يكون نزول الوحي إلى نبيّنا ﷺ على الحال الأُولى فقط سلّمنا دلالته على العموم، وأنّ نزول الوحي إلى نبيّنا عليه الصّلاة والسّلام قد يكون بتمثّل الملك بناءً على بعض الأخبار الصّحيحة في ذلك، لكن لانسلّم أنّه يدلّ على أنّ نزول الوحي إذا كان الموحى قرآنًا يكون على الحال الثّانية سلّمنا دلالته على ذلك، لكن لانسلّم صحّة جعله مبنيّ لتأويل الآية، وكيف يؤوّل كلام الله تعالى لكلام منافٍ لظاهره صدر من غير معصوم، ويكفي محيى الدّين ﷺ من علماء الشّريعة أن يؤوّلوا كلامه ليوافق كلام الله عزّ وجلّ فيسلم من الطّعن، ولعلّ من يؤوّل في مثل ذلك يحسن الظّن بمحيى الدّين ﷺ، ويقول: إنّه لم يقل ذلك إلّا لدليل شرعيّ، فقد قال ﷺ في الكلام على الإذن من الفتوحات: إعلم أنّي لم أقرّر بحمدالله تعالى في كتابي هذا ولاغيره قطّ أمرًا غير مشروع، وما خرجت عن الكتاب والسّنّة في شيء من تصانيفي، وقال في الباب السّادس والسّتّين وثلاثمائة من الكتاب المذكور: جميع ما أتكلّم به في مجالسي وتأليفي إنّما هو من حضرة القرآن العظيم، فإنّي أُعطيت مفاتيح العلم فيه، فلا أستمدّ قطّ في علم من العلوم إلّا منه كلّ ذلك، حتّى لا أخرج عن مجالسة الحقّ تعالى في مناجاته بكلامه، أو بما تضمّنه كلامه سبحانه، إلى غير ذلك. فالدّاعي للتّأويل في الحقيقة ذلك الدّليل، لانفس كلامه ﷺ، وهو اللائق بالمسلمين الكاملين. (١٩: ١٢٠ ـ ١٢٥)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان / ٣

والمراد بإنزاله في تلك اللّيلة إنزاله فيها جملة إلى السّماء الدّنيا من اللّوح، فالإنزال المنجّم في ثلاث وعشرين سنة أو أقلّ كان من السّماء الدّنيا، وروي هذا عن ابن جَرير وغيره، وذكر أنّ المحلّ الّذي أُنزل فيه من تلك السّماء البيت المعمور، وهو مسامت للكعبة؛ بحيث لو نزل لنزل عليها.

وأخرج سعيد بن منصور، عن إبراهيم النَّخَعيّ، أنّه قال: نزل القرآن جملةً على جَبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام يجيء به بعد إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله.

وقال غير واحد: المراد ابتداء إنزاله في تلك اللّيلة على التّجوّز في الظّرف أو النّسبة، واستشكل ذلك بأنّ ابتداء السّنة المحرّم أو شهر ربيع الأوّل؛ لأنّه ولد فيه صلى الله عليه وآله، ومنه اعتبر التّاريخ في حياته عليه الصّلاة والسّلام إلى خلافة عمر وهو الأصحّ. وقد كان الوحي إليه صلى الله عليه وآله على رأس الأربعين سنة من مدّة عُمْره عليه الصّلاة والسّلام على المشهور من عدّة أقوال، فكيف يكون ابتداء الإنزال في ليلة القدر من شهر رمضان أو في ليلة البراءة من شعبان؟

وأُجيب: بأنّ ابتداء الوحي كان منامًا في شهر ربيع الأوّل، ولم يكن بإنزال شيء من القرآن، والوحي يقظة مع الإنزال كان في يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وقيل: لسبع منه، وقيل: لأربع وعشرين ليلة منه، وأنت تعلم كثرة اختلاف الأقوال في هذا المقام، فمن يقول بابتداء إنزاله في شهر يلتزم منها مالا يأباه. (٢٥: ١٢٥ ـ ١١١)

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ...﴾ الواقعة / ٧٥ ـ ٧٧

وأخرج عبد الرّزّاق، وابن جَرير، عن قَتادة: أنّها منازلها ومجاريها، على أنّ الوقوع النّزول، كما يقال: على الخبير سقطت، وهو شائع، والتّخصيص لأنّ له تعالى في ذلك من الدّليل على عظيم قدرته، وكمال حكمته مالا يحيط به نطاق البيان، وقال جماعة منهم ابن عبّاس: النّجوم نجوم القرآن، ومواقعها: أوقات نزولها.

[ثمّ ذكر رواية النّسائيّ وابن جَرير و... والبَيهقيّ في «شُعَب الإيمان» عن ابن عبّاس

كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:]

وأيّد هذا القول بأنّ الضّمير في قوله تعالى بعد: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ يعود حينئذٍ على ما يفهم من مواقع النّجوم حتّى يكاد يعدّ كالمذكور صريحًا، ولا يحتاج إلى أن يقال: يفسّره السّياق، كما في سائر الأقوال، ووجه التّخصيص أظهر من أن يخفى. ولعلّ الكلام عليه من باب: وثناياك إنّها إغريض.

وقرأ ابن عبّاس وأهل المدينة وحَمزة والكسائيّ «بِمَوْقِعِ» مفردًا مرادًا به الجمع.

(٢٧: ١٥٣)

﴿فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ* مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ عبس / ١٣ - ١٤

(فِى صُحُفٍ) متعلّق بمضمر هو صفة لتذكرة أو خبر ثان؛ لأنّ أيّ كائنة أو مثبتة في صُحُفٍ، والمراد بها الصّحُف المنتسخة من اللّوح المحفوظ. وعن ابن عبّاس: هي اللّوح نفسه، وهو غير ظاهر. وقيل: الصُّحف المنزّلة على الأنبياء: كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِى زُبُرِ الأَوَّلِينَ﴾[1]، وقيل: صُحُف المسلمين، على أنّه إخبار بالغيب، فإنّ القرآن بمكّة لم يكن في الصُّحُف، وإنّما كان متفرّقًا في الدّفاف والجريد ونحوهما، وأوّل ما جمع في صحيفة في عهد أبيبكر الصّديق وهو كما ترى.

﴿مُكَرَّمَةٍ﴾: عندالله عزّ وجلّ ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾، أي في السّماء السّابعة، كما قال يحيى بن سَلّام، أو مرفوعة القدر كما قيل. ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾: منزّهة عن مساس أيدي الشّياطين أو عن كلّ دنس، على ما روي عن الحسن، وقيل: عن الشّبه والتّناقص. والأوّل قيل: مأخوذ من مقابلته بقوله تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، أي كتبة من الملائكة:، كما قال مجاهد وجماعة، فإنّهم ينسخون الكُتُب من اللّوح، وهو جمع سافر، أي كاتب، والمصدر السَّفْر كالضَّرب. وعن ابن عبّاس: هم الملائكة المتوسّطون بين الله تعالى وأنبيائه: على أنّه جمع سافر أيضًا بمعنى سفير، أي رسول وواسطة، والمشهور في مصدره بهذا المعني السّفارة بكسر السّين وفتحها، وجاء فيه السّفر أيضًا كما في القاموس.

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٦.

وقيل: هم الأنبياء عليهم السلام لأنّهم سفراء بين الله تعالى والأُمّة، أو لأنّهم يكتبون الوحي. ولايخفىٰ بعده، فإنّ الأنبياء عليهم السلام وظيفتهم التّلقّي من الوحي، لا الكتب لما يوحىٰ على أنّ خاتمهم صلى الله عليه وآله لم يكن يكتب القرآن، بل لم يكتب أصلًا على ما هو الشّائع، وقد مرّ تحقيقه. وكذا وظيفتهم إرشاد الأُمّة بالأمر والنّهي وتعليم الشّرايع والأحكام لامجرّد السّفارة إليهم.

وأخرج عبد بن حَميد وابن المُنذِر، عن وَهْب بن مُنبّه: أنّهم أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله، قيل: لأنّهم سفراء ووسائط بينه عليه الصّلاة والسّلام وبين سائر الأُمّة، وقيل: لأنّ بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتّعليم والتّعلّم، وفي رواية عن قَتادة: أنّهم القُرّاء. وكأنّ القولين ليس بالمعوّل عليه، وقد قالوا هذه اللّفظة مختصّة بالملائكة: لاتكاد تطلق على غيرهم وإن جاز الإطلاق بحسب اللّغة، ومادّتها موضوعة بجميع تراكيبها؛ لما يتضمّن الكشف، كسفرت المرأة، إذا كشفت القناع عن وجهها. والباء قيل: متعلّقة بمطهّرة، وقيل: بمضمر، هو صفة أُخرىٰ لصُحُفٍ... (٣٠: ٤٢)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ القدر / ١ ـ ٣

الضّمير عند الجمهور للقرآن، وادّعى الإمام فيه إجماع المفسّرين، وكأنّه لم يعتدّ بقول من قال منهم برجوعه لجبريل عليه السلام أو غيره لضعفه. قالوا: وفي التّعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدّم ذكره تعظيم له، أي تعظيم لما أنّه يشعر بأنّه لعلوّ شأنه كأنّه حاضر عند كلّ أحدٍ، فهو في قوّة المذكور، وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرّتين وتأكيد الجملة. وأشار الزّمَخشريّ إلى إفادة الجملة اختصاص الإنزال به سبحانه بناء على أنّها من باب، أنا سعيت في حاجتك، ممّا قدّم فيه الفاعل المعنويّ على الفعل. وتعقّب بأنّ ماذكروه في الضّمير المنفصل دون المتّصل كما في اسم «إنّ» هنا. نعم، الاختصاص يفهم من سياق الكلام، وفيه أنّهم لم يصرّحوا باشتراط ما ذكر. وكذا في تفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؛ لما فيه من الدّلالة. على أنّ علوّها خارج عن دائرة دراية الخلق، لايعلم ذلك ولايعلم به إلّا علّام الغيوب، كما يشعر به قوله سبحانه: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، فإنّ [هذا] بيان إجماليّ لشأنها أثر تشويقه عليه الصّلاة والسّلام

إلى درايتها، فإنّ ذلك معرب عن الوعد بإدرائها.

وعن سُفيان بن عُيَيْنَة: إنّ كلّ ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿مَا أَدْرٰيكَ﴾ أعلم الله تعالى به نبيّه ﷺ، وما فيه من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾[1] لم يعلّمه عزّ وجلّ به. وقد مرّ بيان كيفيّة إعراب الجملتين، وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التّعظيم والتّفخيم مالا يخفى.

والمراد بإنزاله فيها إنزاله كلّه جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا، صحّ عن ابن عبّاس أنّه قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا، وكان بمواقع النّجوم، وكان الله تعالى ينزّله على رسوله ﷺ بعضه في أثر بعض. وفي رواية بدل وكان بمواقع الخ، ثمّ نزل بعد ذلك في عشرين سنة،وفي رواية أُخرى عنه أيضًا: أُنزل القرآن جملةً واحدةً حتّى وُضِع في بيت العزّةِ في السّماء الدّنيا، ونزل به جبريل ؑ على محمّد ﷺ بجواب كلام العباد وأعمالهم. وفي أُخرىٰ: أنّه أُنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدةً، ثمّ أُنزل على مواقع النّجوم رسلًا في الشّهور والأيّام. وكون النّزول بعد في عشرين سنة قول لهم، وقال بعضهم وهو الأشهر: في ثلاث وعشرين، وقال آخر في خمس وعشرين. وهذا للخلاف في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد البعث.

وقال الشّعبيّ: المراد ابتدأنا بإنزاله فيها. والمشهور أنّ أوّل مانزل من الآيات ﴿إِقْرَأْ﴾، وأنّه كان نزولها بحراء نهارًا.

نعم، في «البحر» روى: أنّ نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان، فإن صحّ وكان المراد كان ليلًا فذاك، وإلّا فظاهر كلام الشّعبيّ غير مستقيم، اللّهم إلّا أن يقال: إنّه أراد ابتداء إنزاله إلى السّماء الدّنيا فيها، ولا يلزم أن يتّحد ذلك وابتداء إنزاله عليه ﷺ في الزّمان. ثمّ إنّ في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ على ما ذكر تجوّزًا في الإسناد؛ لأنّه أسند فيه ما للجزء إلى الكلّ، أو مجازًا الطّرف، أو تضمينًا.

وقيل: المراد إنزاله من اللّوح إلى السّماء الدّنيا مفرّقًا في ليالي قدر، على أنّ المراد بليلة الجنس، فقد قيل: إنّ القرآن أُنزل إلى السّماء الدّنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث

---

١ ـ الأحزاب/٦٣، الشّورى/١٧، عبس/٣.

وعشرين أو خمس وعشرين. وكان يُنزل في كلّ ليلة ما يقدّر الله تعالى إنزاله في كلّ السّنة، ثمّ ينزّله سبحانه منجّمًا في جميع السّنة، وهذا القول ذكره الإمام احتمالًا، ونقله القُرطُبيّ كما قال ابن كثير عن مُقاتِل، لكنّه ممّا لايعوّل عليه. والصّحيح المعتمد عليه كما قال ابن حَجَر في شرَح البُخاريّ: إنّه أُنزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، بل حكى بعضهم: الإجماع عليه. نعم، لايبعد القول بأنّ السّفرة هناك نجّموه لجبريل عليه السلام في اللّيالي المذكورة.

وأجاب السيّد عيسى الصّفويّ: بأنّه لامحذور في ذلك بناء على جواز مثل أتكلّم مخبرًا به عن التّكلّم بقولك: أتكلّم، وفي ذلك اختلاف بين الدّوانيّ وغيره، ذكره في رسالته الّتي ألّفها في الجواب عن مسألة الحذر الأصمّ. أو يقال: يرجع الضّمير للقرآن باعتبار جملته وقطع النّظر عن أجزائه، فيخبر عن الجملة بإنّا أنزلناه، وإن كان من جملته ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ المندرج في جملته ممّن غير نظير له بخصوصه، وقد ذكروا أنّ الجزء من حيث هو مستقلّ مغاير له من حيث هو في ضمن الكلّ.

وفي الإتقان عن أبي شامَة: فإن قلت: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ إن لم يكن من جملة القرآن الّذي نزل جملة، فما نزل جملةً؟ وإن كان من الجملة فما وجه هذه العبارة؟

قلت: لها وجهان؛ أحدهما: أن يكون المعنى إنّا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر، وقضينابه وقدّرناه في الأزل. والثّاني: أنّ لفظ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ ماضٍ ومعناه على الاستقبال، أي ننزّله جملةً في ليلة القدر، انتهى.

ولم يظهرلي في كلا وجهيه رحمه الله تعالى شامّة حسن، فأجّل في ذلك نظرًا، فلعلّك ترى. وقيل: المعنى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في فضل ليلة القدر أو في شأنها وحقّها فالكلام على تقدير مضاف، أو الظّرفية مجازيّة كما في قول عمر: خشيت أن ينزّل فيّ قرآن، وقول عائشة لأنا أحقر في نفسي من أن ينزّل فيّ قرآن، وجعل بعضهم «في» في ذلك للسّببيّة، والضّمير قيل للقرآن بالمعنى الدّائر بين الكلّ والجزء.

وقيل: بمعنى السّورة، ولا يأباهُ كون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ فيها لمامرّ آنفًا لاحاجة إلى أن يقال: المراد بها ماعدا ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

وقيل: يجوز أن يراد به المجموع؛ لإشتماله على ذلك وأيًّا ما كان، فحمل الآية على هذا المعنى غير معوّل عليه، وإنّما المعوّل عليه ما تقدّم.

والمراد بالإنزال إظهار القرآن من عالم الغيب إلى عالم الشّهادة، أو إثباته لدى السَّفَرة هناك، أو نحو ذلك ممّا لايشكل نسبته إلى القرآن. (٣٠: ١٨٩ ـ ١٩٠)

الفصل التّاسع والثّلاثون

نصّ البُروجرديّ (م: ١٢٧٧ ه‍) في تفسيره: «الصّراط المستقيم»

الإنزال والتّنزيل والفرق بينهما

قد سبق جملة من الكلام في تحقيق معنى التّنزيل والوحي والإلهام، والّذي ينبغي ذكره في المقام أنّ القرآن تارةً قد وصف بالإنزال وأُخرى بالتّنزيل، وهما وإن اشتركا في الحلول من عالٍ إلى أسفل، بل قال في القاموس: نزّله تنزيلًا، وأنزله إنزالًا ومُنْزَلًا كمُجْمَل، واستنزله بمعنى، إلّا أنّه قد يفرّق بين الأمرين باختصاص الأوّل بإحداث الفعل من غير تكثّر، بأن كان النّزول دفعةً واحدةً، والثّاني بإحداثه على وجه التّكثير والتّدريج، ولعلّه لما في معنى التّفعيل من الإشعار على تكثير الفعل أو الفاعل أو المفعول، والمقام من الأوّل؛ حيث أنّه قد أُنزل إلى السّماء الدّنيا، وإلى البيت المعمور في ليلة القدر، ثمّ أُنزل منجّمًا مفرّقًا إلى النّبيّ ﷺ في ثلاث وعشرين سنة، أو في عشرين سنة. بل يستفاد ذلك أيضًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]، بل من

---

١ ـ الدّخان / ٣.

٢ ـ القدر / ١.

قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١].سيّما بعد ملاحظة الأخبار الواردة في تفسيرها حسبما تسمع إنشاء الله تفصيل الكلام فيها. وفي قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[٢]، وغيره ممّا يدلّ على الأمرين، ولذا جاء بالفعل في الثّلاثة على صيغة الإفعال، والرّابعة على صيغة التّفعيل. بل نبّه سبحانه بجعله فرقانًا بعد كونه قرآنًا مجتمعًا في النّزول، أوفي صقع وجوده. وبالجملة هذا الفرق بين الفعلين وإن لم ينبّه عليه جمهور أهل اللّغة إلّا أنّه لابأس بعد مساعدة الأخبار ودلالتها على قسمي النّزول. ومناسبة الإطلاق لهما في خصوص الموارد.

[ثمّ ذكر رواية حَفْص بن غياث ورواية أبي بصير كما تقدّم عن الكُلينيّ، فقال:]

وعن بعض نسخ الفقيه: الفرقان بدل القرآن، ولا باس به، فإنّ الأوّل باعتبار النّزول الأوّل الجمعيّ. والأخير باعتبار ما يؤوّل إليه من النّزول المنجّم التّفريقيّ.

وفيهما عن حُمران بن أعْيَن، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٣]... [وذكركما تقدّم عن الكُلينيّ، ثمّ نقل رواية القميّ عن الإمام الباقر عليه السلام بحسب ما تقدّم عن الفيض الكاشانيّ، فقال:]

أقول: وصريح هذا الخبر كبعض ما مرّ أنّ القرآن وقد نزل جملةً واحدةً إلى البيت المعمور، والأخبار وإن اختلفت في تعيين موضعه، حيث أنّه قد ورد في العلويّ المذكور في الدرّ المنثور: إنّه الضُّراح[٤] بَيْتٌ فوقَ سَبْعِ سَمٰواتٍ تَحْتَ الْعَرْش، يَدخُلُه كُلَّ يَوْم سَبْعُونَ أَلْف مَلَك، ثُمَّ لايَعُودُونَ إِلَيْهُ إِلىٰ يَومِ الْقِيٰمَةِ[٥].

وفي علل ابن سِنان المرويّ عن مولانا الرّضا عليه السلام: «إِنَّهُ بَيْتٌ فِى السَّماءِ الْدُّنْيَا، بِحَذَاءِ الضُّراح، وَهُوَ بَيْتٌ فِى الرَّابِعَةِ بِحَذَاءِ الْعَرْشِ»[٦].

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

٣ ـ الدّخان / ٣.

٤ ـ الضُّراح بضمّ الضّاد بيت في السّماء الرّابعة حيال الكعبه، يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك.

٥ ـ بحار الأنوار ج ١٤: ١٠٥ ط القديم عن الدرّ المنثور.

٦ ـ في البحار ج ١٤: ١٠٤. عن العلل: فوضع في السّماء الرّابعة بيتًا بحذاء العرش يسمّى الضُّراح، ثمّ وضع في السّماء

بل قد ورد مثله في أخبار أخر، وعن بعضهم، أنّه هو الكعبة البيت الحرام؛ لكونه معمورًا بالحجّ والعُمرة، إلّا أنّ المستفاد من أكثر الرّوايات، وأشهرها وأظهرها أنّه بيت في السّماء الرّابعة وهو الضُّراح، حيث أنّ الملائكة لمّا رُدّوا على الله سبحانه في جعله في الأرض خليفةً، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[1]، فحجبهم عن نوره سبعة آلاف عام، فلاذوا بالعرش سبعة آلاف سنة إلى أن تاب عليهم، وجعل لهم البيت المعمور في السّماء الرّابعة بحذاء العرش مثابةً وأمنًا ومطافًا لهم وقبولًا لتوبتهم، وأمرهم ببناء بيت في الأرض بمثاله وقدره. بل[2] قد يقال: إنّ هذه الأخبار الأخيرة وإن كانت أشهر وأكثر، إلّا أنّ مقتضى الجمع بينها مع صحّة جميعها القول بتحقّق البيت في جميع تلك المواضع، والخطب فيه سهل. (١: ٤٠٨ ـ ٤١١)

→

الدّنيا بيتا يسمّى البيت المعمور بحذاء الضُّراح.

١ ـ البقرة / ٣٠.

٢ ـ كما في البحار ج ١٤: ١١٤. عن العلل عن الصّادق عليه السلام وعن الدرّ المنثور عن عليّ بن الحسين عليهما السلام.

الفصل الأربعون

نصّ الأصفهانيّ (م: ١٣٠٨هـ) في كتابه:

«مجد البيان في تفسير القرآن»

زمان نزول القرآن وما يتعلّق بذلك

قال الله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ﴾ [١]

وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [٢]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [٣]

[ثمّ ذكر رواية حَفص بن غياث، ورواية أبي بصير، ورواية حُمران، نقلًا عن الكافي كما تقدّم عن الفيض الكاشانيّ، فقال:]

أقول: لمّا كان جميع الحوادث الواقعة في السّنة مقدّرة متعيّنة الأحكام والحدود في

---

١ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ الدّخان / ٣ ـ ٦.

ليلة القدر على مايستفاد من الأخبار المستفيضة [١] لزم منه أن يكون الآيات الّتي نزل في كلّ سنة ثابتة متعيّنة في ليلة القدر الّتي تقع في تلك السّنة. و بهذا يصحّ القول بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر وفي شهر رمضان؛ لأنّها فيه على ما يستفاد من المستفيضة المعتضدة بالكتاب [٢]، لكنّ الظّاهر من تنكير اللّيلة الآية الثّالثة ورواية حَفص المتقدّمة، وذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره [٣] مضمون [٤] هذا الجزء منه، أعني قوله «نزل القرآن جملةً واحدةً» الخ، من دون إسناد إلى الإمام عليه السلام، لكنّ الظّاهر من حاله أخذه من رواياتهم، مع ما يشعر به سائر الرّوايات، أنّ القرآن نزل في ليلة واحدةً جملةً، وحينئذ فيمكن أن يقال: إنّ القرآن إنّما قرّر و ثبت كلّاً تبعًا لتقدير النّبوّة والرّسالة؛ لأنّه لمّا قدّر الرّسالة والإنذار قدّر المرسل به والمنذر به، لأنّه من متعلّقاته. ولمّا كان إعطاء منصب الرّسالة دفعيًّا، لزم منه تعيّن المرسل به، كما إذا قدّر وعيّن السّبب في آخر السّنة؛ بحيث لا ينفكّ عن تفرّع مسبّبه عليه، ترتّب عليه تقدير المسبّب في أوّل السّنة الآتية.

مراتب نزول القرآن

والذّي يقتضيه النّظر الدّقيق أنّ توقيت التّقديرات بليلة القدر إنّما هو في بعض المراتب النّازلة من مراتب القضاء والقدر، وفوقه مراتب أُخرى، إلى أن ينتهي إلى اللّوح المحفوظ الذّي رقّم فيه جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة قبل خلق العالم. ويشبه أن يكون هو أُمّ الكتاب [٥]، التّي يتولّد منها أحكام القضاء مرتبة بعد مرتبة، إلى أن ينتهي إلى تفصيل أحكام كلّ سنة في ليلة القدر منها.

---

١ كما في الخبر الأخير وسائر الأخبار الّتي أوردها الأعلام في كتبهم، وقد جمعها المَجلِسيّ (رض) في البحار ٩٧، باب ليلة القدر وفضلها، فراجع.

٢ ـ مراده (ره) الرّوايات الكثيرة المتواترة المنقولة في كتب الأخبار، منها ما ذكره المجلسيّ (ره) في البحار ٩٧، باب ليلة القدر وفضلها. وهي معتضدة بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ﴾.

٣ القمّيّ ١: ٦٦.

٤ في عبارة المؤلّف (قدس سرّه) هنا تشويش، وعبارته هي: «وذكر مضمون هذا الجزء منه، أعني قوله «نزل القرآن جملةً واحدةً ـ الخ» عليّ بن إبراهيم في تفسيره.

٥ ـ لقد ذهب إليه جمهور المفسّرين.

وحينئذ فنزول القرآن جملةً واحدةً يصحّ أن يكون من عالم اللّوح المحفوظ دفعةً إلى مرتبة تحتها، ثمّ نزوله منها في مرتبة ثالثة في كلّ سنة بقدرها، ثمّ نزوله في هذا العالم في أجزاء اللّياليّ والأيّام. ويشبه أن يكون المرتبة الثّانية هي البيت المعمور، أو باطنه وروحه وهو مظهره، كما روي.

وأمّا ما ذكره المحدّث الكاشانيّ بقوله: كأنّه أُريد به نزول معناه على قلب النّبيّ ﷺ[1]، فإن أراد به أنّ البيت المعمور هو قلبه ﷺ فهو فاسد؛ إذ هو من أجزاء العالم الكبير وقد ورد ذكره في الأخبار[2]، وللقرآن مراتب نزوليّة في العالم الكبير. وإن أراد به أنّه مساوق لمقام قلبه بحيث إذا نزل فيه اطّلع قلبه ﷺ عليه لاتّحادهما رتبةً، فهو ليس بذلك البعيد؛ إذ أُريد بالقلب ما يسمّىٰ به قلبًا باصطلاح جماعة من أهل المعرفة، إلّا أنّ ذلك المقام لا يأبىٰ عن الألفاظ حين ينزّل النّزول إلى المعاني، بل الألفاظ بنفسها ممّا يصّح نزولها فيه، وليس تنزيل نزول القرآن إلى نزول المعاني الصّرفة، إلاّ تأويلًا من دون سبب يقتضيه، فثبت.

كيفيّة نزول القرآن في ليلة القدر وتفصيله

ثمّ لمّا كان القرآن تبيان كلّ شيء على نهج كلّي إجماليّ مشتمل على تكليفيّات وتكوينيّات متعلّقة بموضوعات مستقلّة، تفصّل في ليلة القدر، وتتولّد منها أحكام و قضايا معيّنة مشخّصة جزئيّة بالنّسبة إلى ما كان عليه، صحّ أنّه: «لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن» كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام[3]؛ إذ لو لم ينزل تفصيله فيها وبقي على حاله الإجماليّ كان مرفوعًا عن هذا العالم.

وربّما يشهد لما ذكرناه معنى ما رواه الكافي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: قال الله عزّ وجلّ

---

١ ـ راجع الصّافي ١، المقدّمة التّاسعة: ٤٢.

٢ ـ راجع البحار ٥٨، باب البيت المعمور. وأنّه (ره) ذكر فيه روايات من الخاصّة والعامّة يستفاد منها: أنّ البيت المعمور هو في السّماء الرابّعة، وإنّه قد سمّي «الضُّراح».

٣ ـ رواه الكُلينيّ (ره) في الكافي، ج ٤، باب في ليلة القدر من كتاب «الصّيام» ١٥٨، ح ٧ عن داود بن فرقد، عن يعقوب، عنه (عليه السلام)؛ وأيضًا الصّدوق (ره) في «الفقيه» ٢: ١٠١، ح ٩، بهذا الإسناد؛ ونقله الفيض (ره)في الصّافي المقدّمة التّاسعة: ٤٢.

في ليلة القدر: ﴿فيهَا يُفرَقُ كُلُّ اَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ يقول: ينزل فيها كلّ أمر حكيم، والمحكم ليس بشيئين، إنّما هو شيء واحد، فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله عزّ وجلّ، ومن حكم بأمر فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب، فقد حكم بحكم الطّاغوت. إنّه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأُمور سنةً سنةً، يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا وكذا، وفي أمر النّاس بكذا وكذا، وإنّه ليحدث لأُولي الأمر سوى ذلك كلّ يوم علم الله الخاصّ، والمكنون العجيب المخزون، مثل ما ينزل في تلك اللّيلة من الأمر، ثمّ قرأ﴿وَلَوْ اَنَّ مَا فِى الاَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اَقْلاٰم﴾[١]. (١٤٧ ـ ١٥٢)

مراتب وجود القرآن في النّزول والصّعود

أقول: يمكن أن يقال: القرآن له وجود كتبّي بين الدّفّتين، و وجود لفظيّ للقارىء منّا ومن المعصومين: ومن الملائكة كجبرئيل عليه السلام، و وجود علميّ في لوح النّفس مكتسب من المرتبتين الأُوليين، و وجود علميّ من إلقاء الرّوح الّذي في عالم الأمر إيّاه في القلب بأمر الله سبحانه؛ كما لعلّه يرشد إليه قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِيْنُ * عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِيْنَ.﴾[٢] أو من انتقاش الألفاظ الغيبيّة في لوح القلب عند مواجهته لها ومقابلته إيّاه. ولعلّه يومىء إليه قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ اٰيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ اُوتُوا العِلْمَ﴾.[٣]

ووجود غيبيّ كتبّي في لوح غيبّي هو المبدأ لهذه النّقوش الواقعة في لوح القلب، وبه يصير القلب مُصحفًا لوجه أوراقه وتلك النّقوش كتابته. ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اِنَّهُ لَقُرْاٰنٌ كَرِيْمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ اِلاَّ المُطَهَّرُونَ.﴾ [٤]

ووجود لفظيّ غيبيّ هو كلام الله سبحانه، الّذي أوجده وأسمعه من شاء من عباده من الملك والنّبيّ. ولعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اَللّٰهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ الحَدِيثِ﴾ [٥].

---

١ ـ الكافي ١: باب في شأن ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ﴾ وتفسيرها: ٢٤٨، ح٣؛ والصّافي ٢: ٥٤٠. والآية الأخيرة، لقمان / ٢٧.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٣ ـ ١٩٤.

٣ ـ العنكبوت / ٤٩.

٤ ـ الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩.

٥ ـ الزّمر / ٢٣.

وله وجود إجماليّ قبل التّفصيل. لعلّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[١]

وهو الأصل، والباقي تنزّلاته ومراتبه وشؤونه بمنزلة أصل الشّجرة بالنّسبة إلى ساقه وأعضائه. ولعلّ إلى هذه المقامات الإشارة بإطلاق الإنزال والتّنزيل على القرآن في مواضع كثيرة.

ثّم إنّ له صعودًا أيضًا، فإنّ القرآن اللّفظيّ الصّادر عنّا يتمثّل بمثال ويتشكّل بصورة جوهريّ في عالم أرفع من هذا العالم على ما تحقّق وثبت في محلّه بالآيات والأخبار الكثيرة الواردة في الموارد الكثيرة، المعتضدة بالاستبصارات العقليّة وغيرها، من أنّ الأعمال الحسنة والسّيّئة تتجسّم وتتمثّل وتبقى في عالم البرزخ مع الميّت، وقراءة القرآن منها، بل من أولى أفرادها بهذا الحكم، وكتابة القرآن عمل يتجسّم كذلك.

وحينئذ يتحقّق في القرآن قوسان؛ قوس نزول ينتهي إلى وجوده اللّفظيّ والكتبيّ الواقع في هذه النّشأة، وقوس صعود واقع في عالم البرزخ، كما هو الحال في حقيقة الإنسان.

ثمّ إنّ حقيقة القرآن ليس مقصورًا على عالم الألفاظ والنّقوش الواقعة في عالم المُلك والملكوت، بل مداليل الكلمات القرآنيّة أحقّ بالدّخول في حقيقة القرآن منها، ولها وجود في عالمها المعنويّة، فهي أيضًا يصحّ أن تعدّ مقامًا آخر له، ومراتبه المتعدّدة تنتهي إلى حقيقة الإسم الإلهيّ، الّذي هو المبدأ للقرآن. ويشبه أن يكون هو حقيقة اسم الهاديّ والنّور الّذي ربّما أُطلق اسمه على القرآن في مواضع. (١٦٠ ـ ١٦١)

---

١ ـ هود / ١.

الفصل الحادي والأربعون

نصّ السّيّد رشيد رضا (م: ١٣٥٤ هـ) في تفسيره: «المنار»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥

وأمّا معنى إنزال القرآن في رمضان مع أنّ المعروف باليقين أنّ القرآن نـزل مـنجّمًا متفرّقًا في مدّة البعثة كلّها، فهو أنّ ابتداء نزوله كان في رمضان، وذلك في ليلة منه، سمّيت ليلة القدر، أي الشّرف، واللّيلة المباركة، كما في آيات أُخرى، وهـذا المـعنى ظـاهر لا إشكال فيه، على أنّ لفظ القرآن يطلق على هذا الكتاب كلّه، ويطلق على بعضه. وقد ظنّ الّذين تصدّوا للتّفسير منذ عصر الرّواية أنّ الآية مشكلة،ورووا فـي حـلّ الإشكـال أنّ القرآن نزل في ليلة القدر من رمضان إلى سماء الدّنيا وكان في اللّوح المحفوظ فوق سبع سماوات، ثمّ نزل على النّبيّ منجّمًا بالتّدريج، وظاهر قولهم هذا أنّه لم ينزل على النّبيّ في رمضان منه شيء، خلافًا لظاهر الآيات، ولا تظهر المنّة عـلينا ولا الحكـمة فـي جـعل رمضان شهر الصّوم على قولهم هذا؛ لأنّ وجود القرآن في سماء الدّنيا كوجوده في غيرها من السّماوات أو اللّوح المحفوظ، من حيث أنّه لم يكن هداية لنا، ولا تظهر لنا فائدة في هذا الإنزال ولا في الإخبار به، وقد زادوا على هذا روايـات فـي كـون جـميع الكـتب السّماويّة أُنزلت في رمضان، كما قالوا: إنّ الأُمم السّابقة كلّفت صيام رمضان، قال الأُستاذ

الإمام: ولم يصحّ من هذه الأقوال والرّوايات شيء[١]،وإنّما هي حواشٍ أضافوها لتعظيم رمضان، ولا حاجة لنا بها؛ إذ يكفينا أنّ الله تعالى انزل فيه هدايتنا، وجعله من شعائر ديننا ومواسم عبادتنا، ولم يقل تعالى إنّه أنزل القرآن جملةً واحدةً في رمضان، ولا أنّه أنزله من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا، بل قال بعد إنزاله ﴿هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوْظٍ﴾ فهو محفوظ في لوح بعد نزوله قطعًا. وأمّا اللّوح المحفوظ الّذي ذكروا أنّه فوق السّماوات السّبع، وأنّ مساحته كذا، وأنّه كتب فيه كلّ ما علم الله تعالى، فلا ذكر له في القرآن.

وهو من عالم الغيب، فالإيمان به إيمان بالغيب، يجب أن يوقف فيه عند النّصوص الثّابتة بلا زيادة ولا نقص ولا تفصيل، وليس عندنا في هذا المقام نصّ يجب الإيمان به. (٢: ١٦١ ـ ١٦٢)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ..﴾ آل عمران / ٣

أي أُوحي إليك هذا القرآن المكتوب بالتّدريج متّصفًا بالحقّ ملتبسًا به، وإنّما عبّر عن الوحي بالتّنزيل وبالإنزال، كما في آيات أُخرىٰ؛ للإشعار بعلوّ مرتبة الموحي على الموحىٰ إليه. ويصّح التّعبير بالإنزال عن كلّ عطاء منه تعالى كما قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ وأمّا التّدريج فقد استفيد من صيغة التّنزيل، وكذلك كان، فقد نزل القرآن نجومًا متفرّقةً بحسب الأحوال والوقائع. (٣: ١٥٥)

---

١ ـ حديث واثِلة مرفوعًا عند أحمد وابن جَرير وغيرهما، وهو غير صحيح.

الفصل الثّاني والأربعون

نصّ ابن باديس (م: ١٣٥٩ هـ) في «تفسيره»

تثبيت القلوب بالقرآن العظيم

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً..﴾ الفرقان /٣٢

المناسبة

هذا اعتراض آخر من اعتراضاتهم الباطلة، نسقه مع ما تقدّم منها ليجاب عنه، ويبيّن خطأهم فيه، كما فعل بما تقدّمه.

المفردات

(لَوْلَا): مع المضارع للتّحضيض، نحو ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ [1]. ومع الماضي للّوم والتّوبيخ، نحو ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [2]. وهي هنا مع الماضي، فتكون للّوم على عدم حصول المذكور وحصول ضدّه، والمقصود من اللّوم هنا الاعتراض على عدم نزوله جملةً واحدةً، ونزوله مفرّقًا، فالمعترض عليه هو نزوله مفرّقًا.

(نُزِّلَ): يأتي مرادفًا لأنزل، والتّضعيف أخو الهمزة، ويأتي مفيدًا للتّكثير، فيفيد تكرّر

---

١ ـ النّمل / ٤٦.

٢ ـ النّور / ١٣.

النّزول وتجديده.

وخرّج على هذا قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ﴾ [1]

وأمّا هنا فلا يصحّ حمله على التّكثير المفيد للتّدريج؛ لئلاّ يناقض قولهم، (جُمْلَةً وَاحِدَةً)، فيكون من التّضعيف المرادف للهمزة.

وعندي إنّ (نَزّلَ) المضاعف يرد لكثرة الفعل ولقوّته، فجاء لكثرته في آية آل عمران المتقدّمة، وجاء لقوّته في هذه الآية؛ لأنّ إنزال الجملة مرّةً واحدةً أقوى من إنزال كلّ جزء من الأجزاء بمفرده.

(كَذَٰلِكَ) الإشارة للإنزال المفّرق، المفهوم من قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً﴾ لأنّه في المعنى لِمُه نزّل عليه جملةً، ولم ينزّل عليه مفرّقًا؟

التّثْبيت: ثبات الشّيء إقامته ورسوخه دون اضطراب، وذلك من قوّته، كما أنّ اضطراب المضطرب من ضعفه. فتفسير تثبيت الفؤاد هنا بتقويته تفسير بلازم معناه، على أنّه مراد منه أيضًا أصل المعنى، وهو السّكون وعدم الاضطراب. فتثبيته ـ إذن ـ هو تسكينه وتقويته.

التّرتيل: مادّة (ر ت ل) كلّها ترجع إلى تناسق الشّيء وحسن تنضيده، منه ثغرٌ رَتَل (بالتّحريك)، أي مفلج بين الأسنان فرج لا يركب بعضها بعضًا.

وترتيل القرآن في التّلاوة هو إلقاء حروفه حرفًا حرفًا، وكلماته كلمة كلمة، وآياته آية آية، على تُؤَدَة ومَهْل، حتّى يتبيّن للقارىء وللسّامع، ولا يخفى عليه شيء منه.

وأمّا ترتيله في نزوله ـ وهو المراد هنا ـ فإنّه إنزاله آية وآيتين وآيات، مفرّقًا نجومًا على حسب الوقائع.

التّراكيب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وصل؛ لأنّه قيل من أقوالهم، فعطف على ما تقدّم من مثله.

---

١ ـ آل عمران / ٣.

﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ﴾ الأصل أنزلناه كذلك، فأوجز بحذف المتعلّق لوجود ما يدلّ عليه من اعتراضهم، وفَصَل لأنّه جواب عن اعتراضهم.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾: وصل؛ لأنّه معطوف على أنزلناه المحذوف. والتّنوين في ﴿تَـرْتِيْلًا﴾ تنوين تنويع وتعظيم، أي نوعًا من التّرتيل عظيمًا.

المعنى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيْنَ كَفَرُوا﴾ ـ وهم قريش، أو اليهود أو الجميع، وهو الظّاهر؛ لأنّ قريشًا واليهود كان يتّصل بينهم الكلام في شأن النّبيّ ﷺ وشأن القرآن ـ قالوا معترضين ومقترحين: لِمَ لم ينزّل عليه القرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة وغيرها، ونزّل عليه مفرّقًا؟

فقال الله تعالى جوابًا لهم: أنزلناه كذلك الإنزال مفرّقًا؛ لنثّبت به قلبك فيسكن ويطمئنّ، ونقوّيه فيصبر ويتحمّل.

وأنزلناه مرتّلاً ومفرّقًا تفريقًا مرتّبًا، منزلاً كلّ قسم منه في الوقت المناسب لإنزاله والحالة الدّاعية إليه اللّائقة به.

مزيد بيان للاعتراض والجواب

أمّا اعتراضهم، فكان لأنّهم سمعوا القرآن يذكر أنّ الكتاب أُنزل على النّبيّ ﷺ كما أُنزلت الكتب على الأنبياء: من قبل بمثل قوله تعالى:﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [١].

فقالوا: لماذا نزّل هذا الكتاب مفرّقًا، ولم ينزّل مثل تلك الكتب جملةً واحدةً؟!

وهم لمّا عجزوا عن معارضة أقصر سورة منه، أخذوا يباهتون بالباطل، ويعترضون بمثل هذا الاعتراض.

وأمّا الجواب، فكان ببيان حكمتين في إنزاله مفرّقًا؛ الحكمة الأُولى: تثبيت قلبه ﷺ. والحكمة الثّانية: تفريقه مرتّبًا على الواقع. وكان في تينك الحكمتين مزيّتان عظيمتان للقرآن العظيم على غيره من كتب الله تعالى؛ فكان ما اعترضوا به أنّه نقص فيه عنهاهو كمال له عليها.

---

١ ـ العنكبوت / ٤٧.

شرح الحكمة الأُولى

كان كلّ نجم ينزل من القرآن العظيم ـ والنّجم القسم الّذي ينزل معًا آية أو آيتين أو أكثر ـ يزداد به عجزهم وعنادهم ظهورًا وتزداد حجّة النّبيّ ﷺ وصدقه وضوحًا،فيزداد بذلك سكون قلبه وطمأنينته بظهور أمره على عدوّه، وعلوّ كلمة الحقّ على كلمة الباطل.

وفي ذلك تقوية له، وأيّ تقوية! لا عن شكّ كان في قلبه أو تردّد ولكنّ البراهين المتوالية، والحجج المتتالية، تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقودًا من أوّل أمره على اليقين. فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرّقات في النّزول.

وقد كان كلّ نجم من نجوم القرآن ينزل بشيء من العلم والعرفان، ممّا يرجع إلى العقائد أو الأخلاق أو الأحكام، أو التّذكير بالأُمم الماضية أو أخبار الرّسل المتقدّمين،أو باليوم الآخر أو بسنّة الله في المكذّبين، إلى غير ذلك من علوم القرآن، فيقوىٰ قلبه عند نزول كلّ نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرّسالة ما تضعف عن تحمّله القوى البشريّة. فإذا نزل عليه القرآن، واتّصل بالملك الرّوحانيّ النّورانيّ، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآنيّ، تقوّىٰ قلبه على تحمله أعباء الرّسالة ومشاقّ التّبليغ. ولمّا كان البلاء والعناء في سبيل التّبليغ متكرّرًا متجدّدًا، كان محتاجًا إلى تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضيًا لتفريق نزول الآي عليه، فهذه ثلاثة وجوه من التّثبيت.

حظّنا من العمل بهذه الحكمة

حاجتنا إلى تجديد التّلاوة والتّدبير: قلوبنا معرضة لخطرات الوسواس، بل للأوهام والشّكوك، فالّذي يثبّتها، ويدفع عنها الاضطراب، ويربطها باليقين هو القرآن العظيم.

ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم [1] ومُماحكات المتكلّمين

١ ـ لا شكّ أنّ تشكيكات الفلاسفة وافتراضاتهم، أضرّت وشكّكت؛ لأنّها من عمل البشر النّاقص المضطرب، غير أنّها ←

ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلّا شكًّا، وما ازدادت قلوبهم إلّا مرضًا، حتّى رجع كثير منهم في أواخر أيّامهم إلى عقائد القرآن وأدلّة القرآن، فشفوا بعدما كادوا، كإمام الحرمين والفخر الرّازيّ.

وقلوبنا معرضة لِرَين المعصية الّتي تظلم منها القلوب وتقسو، حتّى تحجب عنها الحقائق، وتطمس أمامها سبل العرفان. فالّذي يجلو عنها ذلك الرّين، ويزيل منها تلك القسوة، ويكشف لها حقائق العلم، ويوضّح لها سبل المعرفة هو القرآن العظيم. فقُرّاؤه المتفقّهون فيه، قلوبهم نيّرة، مستعدّة لتلقّي العلوم والمعارف، مستعدّة لسماع الحقّ وقبوله، لها من نور القرآن فرقان تفرّق بين الحق والباطل، وتميز بين الهدىٰ والضّلال.

وقلوبنا معرضة للضّعف عن القيام بأعباء التّكليف، وما نحن مطالبون به من الأعمال، والّذي يجدّد لنا فيها القوّة، ويبعث فيها الهمّة هو القرآن العظيم. فحاجتنا إلى تجديد تلاوته وتدبيره، أكيدة جدًّا؛ لتقوية قلوبنا باليقين وبالعلم و بالهمّة والنّشاط، للقيام بالعمل.

شرح الحكمة الثّانية

من محاسن هذه الشّريعة المطهّرة أنّها نزلت بالتّدريج المناسب وكما كان في تحريم الخمر، وكما كان في العدد المفروض عليه الثّبات للعدو في آيات الأنفال [١]. وكما كان في مشروعيّة قيام اللّيل في آيات سورة المزّمّل [٢]. وما كان ليكون هذا التّدريج بغير تفريق الآيات في التّنزيل. ومن محاسنها نسخ الحكم، عند انتهاء المصلحة التّي اقتضت تشريعه، وانقضاء زمنها لحكم آخر، أنسب منه للبقاء في الأزمان. كما كان في آيتي المتوفّى عنها في سورة البقرة .وما كان ذلك ليأتي إلّا بتفريق الآيات في الإنزال.

→

أحيانا أفادت في طرق البحث والاستنباط والسّير على المنهج العلميّ، ونحن ـ ولا شكّ ـ محتاجون إليها، خاصّة في وجوهها الحسنة، وخاصّة في أيّامنا هذه؛ لأنّ الشّباب المثقّف اليوم لا يقنع إلّا بالدّليل، وقرع الحجّة بالحجّة على أساس علميّ، ولا خوف على قرآننا من ذلك، وإنّما المشكلة هي كيف نجد الدّاعي الّذي يقوم بذلك.

١ ـ في قوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِيْنَ عَلَى القِتَالِ......مَعَ الصَّابِرِيْنَ﴾ الأنفال / ٦٥ و ٦٦.

٢ ـ في قوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ....رَحِيْمٍ﴾، الآية / ٢٠ من سورة المدّثّر

وكانت الوقائع تقع، والحوادث تحدث، والشّبه تعرض، والاعتراضات ترد.. فكانت الآيات تنزل بما تتطلّبه تلك الوقائع من بيان، وما تقتضيه تلك الحوادث من أحكام، وما تستدعيه تلك الشّبه من ردّ، وتلك الاعتراضات من إبطال، إلى غير ما ذكرنا من مقتضيات نزول الآيات المعروفة بأسباب النّزول.

وفي بيان الواقعة عند وقوعها، وذكر حكم الحادثة عند حدوثها، وردّ الشّبه عند عروضها، وإبطال الاعتراض عند وروده ـ ما فيه من تأثير في النّفوس، ووقع في القلوب، ورسوخ في العقول، وجلاء في البيان، وبلاغة في التّطبيق، واستيلاء على السّامعين.

وما كان هذا كلّه ليأتي لولا تفريق الآيات في التّنزيل، وترتيلها وتنضيدها هذا التّرتيل العجيب، وهذا التّنضيد الغريب، الّذي بلغ الغاية من الحسن والمنفعة، حتّى أنّه ليصحّ أن يعدّ وحده وجهًا من وجوه الإعجاز. (ص: ٢٨٩ ـ ٢٩٤)

الفصل الثّالث والأربعون

نصّ الزّنجانيّ (م: ١٣٦٠ ﻫ) في «تاريخ القرآن»

ابتداء نزول الوحي

ابتدأ نزول القرآن في ليلة القدر، وهي بنصّ القرآن في رمضان للسّنة الحادية والأربعين من ميلاده الشّريف؛ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [١]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [٢]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [٣] وهو الشّهر الّذي كان محمّد ﷺ يعتكف فيه بغار حِراء [٤]، ويعتزل فيه النّاس للصّوم والعبادة.

أمّا نفس اللّيلة الّتي ابتدأ فيها الوحي ففيها خلاف كثير. وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [٥]، إشارة إلى أنّ ابتداء الوحي كان في السّابع عشر من رمضان؛ لأنّ التقاء الجمعين في (١٧) رمضان سنة (٢)

---

١ ـ سورة القدر / ١.

٢ ـ سورة الدّخان / ٣ ـ ٥.

٣ ـ سورة البقرة / ١٨٥.

٤ ـ حِراء بالكسر والتّخفيف والمدّ: جبل من جبال مكّة على ثلاثة أميال، وكان النّبيّ ﷺ قبل أن يأتيه الوحي يتعبّد في غار من حِراء.

٥ ـ الأنفال / ٤١.

للهجرة، والمراد بالجمعين هم المسلمون والمشركون ببدر. فالآية تشير إلى يومين عظيمين رفيعين شرّف الله تعالى فيهما محمّدًا ﷺ بالرّسالة، وأعزّ المسلمين بنصره، روى أبو جعفر بن جَرير الطَّبريّ في تفسيره بسنده عن الإمام حسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام قال: «كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان لسبع عشر من شهر رمضان».(ص: ٧)

الفصل الرّابع والأربعون

نصّ النّهاونديّ (م: ١٣٦٩ هـ) في «خزينة الجواهر» [١]

المنازل الأربعة عشر للقرآن الكريم

إنّ هذا القرآن هو أوّل كتاب سماويّ، وله منازل عديدة ونزولات متعدّدة؛

الأوّل: القرآن وهو أشرفها، ونزل بالمشيئة الإلهيّة، وتجلّى للبشر بنور محمّد ﷺ أوّل خليقتة و وعاء مشيئته. والمراد بالنّور المقدّس ذلك العقل الأوّل الّذي قال له الباريء بعد خلقه: أقبل، فأقبل، ثمّ قال له: أدبر، فأدبر.

وكان نبيًّا في ذلك المقام النّورانيّ كما قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطّين» بل أنّه خلق نبيًّا وكان متّصفًا بمقام الرّسالة، وإعطاء الحكم والنّبوّة والرّسالة في أوّل الخلقة، كما أنّ قاعدة إمكان الأشرف شاهدة على ذلك، وأنّ سائر الأنبياء يستضيئون بضوئه، ويستنيرون بنوره.

الثّاني: القرآن المكتوب على جبهة إسرافيل وجبهته مورده ومنزله كما أفاد غير واحد من الأخبار.

الثّالث: هو عالم الأسماء والأشباح الّذي أطلق عليه عالم النّور ونور النّور وعالم

---

١ ـ تُرجِم هذا النّص من الفارسيّة. والنّهاونديّ هذا هو الشّيخ علي أكبر صاحب المؤلّفات الكثيرة باللّغة الفارسيّة، غير النّهاونديّ صاحب التّفسير الآتي «نفحات الرّحمان».

المثال والتّمثال.

الرّابع: اللّوح المحفوظ الّذي أخبر عنه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* لاَيَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ [١].

الخامس: سدرة المنتهى، وهو المقام الّذي يتلقّى جبرئيل منه الوحي.

السّادس: اللّوح الموجود في عرش الرّحمان، إذ قد ورد في كثير من التّفاسير كتفسير القمّيّ والعيّاشيّ والبرهان ونور الثّقلين عند تفسير الآية المباركة ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [٢]، أنّ الإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام قال: «في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البرّ والبحر»، وهذا العموم يشمل القرآن أيضًا على وجه أعلى وأشرف.

السّابع: نزول القرآن على الرّسول دفعةً واحدةً ليلة المعراج بدون توسّط جبرئيل حسبما يستفاد من الأخبار والآثار إمّا تصريحًا أو تلويحًا.

الثّامن: عالم المشيئة الإلهيّة؛ لأنّ القرآن مخلوق وحادث، خلافًا للأشاعرة القائلين بالكلام النّفسيّ وبقدم القرآن. فهو موجود ـ إذًا ـ في المشيئة الإلهيّة، كما تشير كلمة «كُنْ» إلى ذلك المقام في بعض الرّوايات؛ حيث ناجىٰ موسى ربّه قائلًا: ربِّ أرني خزائنك! قال الله تعالى: «إنّما خزائني إذا أردت لشيءٍ أن أقول له: كن، فيكون».

التّاسع: البيت المعمور، استنادًا إلى بعض الأحاديث.

العاشر: قلب خاتم الأنبياء في ليلة القدر، طبق أخبار كثيرة أنّ القرآن نزل على قلب النّبيّ جملةً واحدةً في ليلة القدر.

الحادي عشر: البيت المعمور في اللّيلة الثّالثة والعشرين من شهر رمضان، ونزول معناه على قلب الرّسول مدّة عشرين سنة، كما قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [٣].

الثّاني عشر: نفس القرآن الموجود بين النّاس، الثّابت بين الدّفّتين، والّذي قرنه النّبيّ

---

١ ـ الواقعة / ٧٦ ـ ٧٨.

٢ ـ الحِجر / ٢١.

٣ ـ الشّعراء / ١٩٣.

بالعترة في الحديث المعروف «إنّي تاركٌ فيكم الثّقَلَين كتاب الله وعترتي» وهو نفس القرآن الّذي جرىٰ على لسان الرّسول والأئمّة:، ونفسه الّذي نزل على سيّد المرسلين بواسطة الرّوح الأمين.

الثّالث عشر: وجوده اللّفظيّ وكسوته الكلاميّة في ألسنة القرّاء وأفواههم.

الرّابع عشر: بعثه يوم القيامة بصورته الحسنة وشفاعته لقارئيه، كما جاء ذلك في حديث طويل برواية سعد الخفّاف نقلًا عن الإمام الباقر عليه‌السلام. وقد أشار العالم الجليل والأُستاذ النّبيل المرحوم الشّيخ جعفر الشّوشتريّ في كتاب «الخصائص الحسينيّة» إلى بعض هذه المنازل والمقامات، وكذا فعل العالم الجليل المتّقيّ الشّيخ محمّد تقي الأصفهاني المعاصر، المعروف بآقانجفي في كتاب «العنايات الرّضويّة».

إشارة: إعلم أنّ المراد من قول الإمام العسكريّ عليه‌السلام: «إنّ روح القُدُس في الجنان الصّاقورة ذاق عن حدائقنا الباكورة» على ما نقله عنه في «السّابع عشر» من بحار الأنوار، و رواية تعليم أمير المؤمنين عليه‌السلام لجبرئيل عليه‌السلام في عالم الأشباح والأنوار، ليس نزول جبرئيل على خاتم الأنبياء صلى‌الله‌عليه‌وآله، ونزول الكتاب عليه، بل هو تلقّيه من باطن محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله، وإنزال القرآن على ظاهره، وهذا شرف لجبرئيل، وليس افتقار النّبيّ واحتياجه إليه.

ولنعم ما قال في هذا المقام بعض الأعلام، وحريّ بنا أن ننقل كلامه تشييدًا للمرام، قال: إعلم أنّ نزول جبرئيل على الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله إنّما كان على حسب الحكمة البالغة الرّبانيّة، ولعلّه من جهة تشرّف جبرئيل بهذه الخدمة، فإنّه صلى‌الله‌عليه‌وآله معدن الرّحمة الواسعة، وهو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهذا تفضّل من الله ورسوله بالنّسبة إلى جبرائيل، لا من جهة افتقار الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله في تعلّمه الوحي إلى جبرئيل، أو جهله بالقرآن قبل نزول جبرئيل عليه، بل كان عالمًا بذلك من أوّل الخلقة وقبل أن يخلق جبرئيل. فقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾ [١] معناه أعطاه العلم، ولا يلزمه نسبة الجهل إلى الرّسول صلى‌الله‌عليه‌وآله. إلى آخر ما قال من هذا النّمط من المقال [٢]. (ص ٤٣٣ – ٤٣٥)

---

١ ـ النّجم / ٥.

٢ ـ وفي بعض هذا الكلام نظر من أجل أنّه لايوافق ظاهر القرآن.

الفصل الخامس والأربعون

نصّ النّهاونديّ (م: ١٣٧١ هـ) في تفسيره: «نفحات الرّحمان»

في بيان سرّ نزول القرآن جملةً إلى البيت المعمور في ليلة القدر

قد اتّفقت الأُمّة من الخاصّة والعامّة، وتظافرت بل تواترت نصوصهم على أنّ الكتاب العزيز نزل أوّلًا في ليلة القدر و مجموعًا من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور الّذي يكون في السّماء الرّابعة، أو إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا إلى السَّفرةالكرام البررة، ثمّ نزل به جبرئيل نجومًا على خاتم النّبيين ﷺ في مدّة عشرين أو ثلاث عشرين أو خمس وعشرين سنة، على حسب اختلاف العلماء في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد بعثته وقبل هجرته.

وقيل: في سرّ إنزاله جملةً أوّلاً إلى سماء الدّنيا ...[وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة].

وقيل: إنّ السّرّ هو تسليمه تبارك وتعالى لهذه الأُمّة ما كان أبرز لهم من الحظّ من الرّحمة الّتي استحقّوها لأجل مبعث محمّد ﷺ، وذلك أنّ بعثة محمّد ﷺ كانت رحمة، فلمّا خرجت الرّحمة وفتح بابها جاءت بمحمّد ﷺ وبالقرآن معًا، فوضع القرآن ببيت العزّة في السّماء الدّنيا ليدخل في حدّ الدّنيا، ووضعت النّبوّة في قلب محمّد ﷺ، وجاء جبرئيل عليه السلام بالرّسالة ثمّ بالوحي، كأنّه تعالى أراد أن يسلّم إلى الأُمّة الرّحمة الّتي كانت

حظّها من الله.

وقيل: إنّ السرّ في نزوله جملة إلى سماء الدّنيا تكريم بني آدم، وتعظيم شأنهم عند الملائكة، وتعريفهم عناية الله بهم ورحمته لهم، ولهذا المعنى أمر الله سبعين ألف ملك أن يشيّعوا سورة الأنعام، وزاد سبحانه في هذا المعنى بأن أمر جبرئيل بإملائه على السّفرة الكرام وإنساخهم إيّاه وتلاوتهم له. وفيه أيضًا التّسوية بين نبيّنا ﷺ وبين موسى بن عمران وعيسى بن مريم عليهما السلام في إنزاله كتابه جملة، كما أُنزل كتابيهما جملتين، والتّفصيل لمحمّد ﷺ في إنزاله عليه منجّمًا؛ لحكم كثيرة لا يعلمها إلاّ الله.

أقول: يمكن أن يكون السّرّ تكميل عالم الملكوت، ووجود الرّوحانيّين بإيجاد الكتاب الكريم فيهم. وتقريره أن يقال: المراد من إنزاله إلى سماء الدّنيا وإلى البيت المعمور هو إبداعه تعالى وإيجاده كتابه الكريم بوجوده الجوهريّ، وصورته النّوريّة في ملكوت السّماء وعالم الأنوار وبعد وجوده في مكنون علمه المعبّر عنه بالعرش تارةً وباللّوح المحفوظ أُخرى، ولمّا كان وجود خاتم النّبيّين ﷺ رحمة للعالمين حصل ببركة استعداد الكمال لجميع العوالم الملكيّة والملكوتيّة، وكما كان للكتاب العظيم تأثير عظيم بوجوده اللّفظيّ والكتبيّ في تكميل النّفوس المستعدّة في عالم الملك، كان لوجوده الجوهريّ النّوريّ في عالم الملكوت تأثير في تكميل وجود الذّوات المستعدّة الملكوتيّة والملكيّة. وبحصول مرتبة من الكمال الوجوديّ لعالم الوجود صار مستحقًّا لتزيينه بوجود خاتم النّبيّين وتكميله ببعثته، فشملته هذه الرّحمة العظيمة وبعثه الله فيه. ثمّ بعد هذا الفيض حصل له استعداد قبول فيض آخر، واستحقاق رحمة أتمّ من إنزال كتابه الكريم الّذي هو تجلّيٰ صفاته التّامّة في العوالم. وكان إيجاد الكتاب الكريم في عالم الملكوت تكميل الرّحمة على جميع الموجودات الملكيّة والملكوتيّة ببركة وجود نبيّ الرّحمة وإرساله رحمةً للعالمين.

لعلّ هذا الوجه الّذي ذكرناه أوجه في الواقع وأقرب إلى الأذهان من الوجه الّذي ذكره الفيض، في «مقدّمات الصّافي» فإنّه بعد نقل الرّوايات الدّالّة على نزول القرآن جملةً إلى البيت المعمور في ليلة القدر... [ثمّ ذكر كما تقدّم عنه فقال:]

مع أنّه ليس فيما ذكرناه حمل الرّوايّات على خلاف ظاهرها؛ إذ من الواضح أنّه ليس المراد من القرآن الّذي نزل في البيت المعمور الأصوات المعتمدة على المخارج المعبّر عنها بالحروف والكلمات، ولا النّقوش المنطبعة في الأوراق والصّفحات، بل له صورة في عالم الملكوت مغايرة لصورته في هذا العالم، واستعمال لفظ الإنزال في معنى الايجاد غير عزيز، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [١]، أي أوجد لكم.

نعم، في خبر المفضّل إشعار بتوجيهه ﷺ حيث قال: قال الصّادق عليه السلام: يا مفضّل، أنّ القرآن نزل... [وذكر كما تقدّم عن العلاّمة المَجلِسيّ، ثمّ قال:]

ويمكن حمله على ما ذكرنا من الوجه، أو إبقائه على ظاهره إن كان له ظهور فيما ذكره ﷺ من التّوجيه والقول بنزوله في البيت المعمور وفي قلب النّبيّ ﷺ، ولا منافاة بينهما.

في بيان أسرار نزول القرآن العظيم نجومًا على النّبيّ ﷺ

وأمّا سرّ نزوله نجومًا فكثير، منه: أنّه ﷺ بنزوله نجومًا كان يتحدّىٰ بكلّ نجم من آية أو سورة تنزّل عليه، ومن الواضح أنّ عجز الفُصحاء من إلاتيان بمثل كلّ واحد من النّجوم أظهر في الإعجاز من عجزهم من إتيان مثل المجموع إذا كان نزوله جملةً واحدةً، إذا كان تحدّىٰ به.

ومنه: إنّ في إنزاله نجومًا كان لطفًا على المؤمنين؛ حيث أنّه كان بنزول نجم يزداد فرحهم ويقينهم كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٢].

وأيضًا: كان بنزول الآيات في مواقع الجهاد يزداد نشاطهم ورغبتهم وجدّهم فيه، وإذا نزلت بهم بليّة ثمّ نزلت في شأنهم آية كان يهوّن عليهم تلك البليّة، وإذا وقعُوا في تعبٍ وعِناء كان نزول الآيات يزيل تعبهم وعنائهم بتكميل بصيرتهم ويقينهم.

---

١ ـ الزّمر / ٦.

٢ ـ التّوبة / ١٢٤.

ومنه: أنّ مناسبة الواقع وخصوصيّات المقامات وانضمام القرائن الحالية كانت موجبة لزيادة البلاغة.

ومنه: أنّ نزول بعض الآيات ردًّا على الكفّار في مواقع معارضتهم، أو إلقاء شبهاتهم، أو تهديدًا لهم عند صدور استهزاءاتهم والطّعون منهم على الإسلام والمسلمين، أو زجرًا لهم عند إرادتهم الفساد في الدّين، كان أشدّ تأثيرًا في تبكيتهم وتقريعهم وردعهم وزجرهم وهدايتهم وتبعهم إلى الإيمان والانقياد إلى الحقّ.

ومنه: أنّ نزوله مفرّقًا أدعىٰ لقبوله وتحمّل إطاعة أحكامه، بخلاف ما لو نزل جملةً واحدةً، فإنّه كان يثقل قبوله على كثير من النّاس؛ لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي.

روي عن عائشه أنّها قالت: إنّما نزل أوّل ما أنزل منه سور من المفّصل، فيها ذكر الجنّة والنّار، حتّى إذا ثاب النّاس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أوّل شيء «لا تشربوا الخمر» لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل «لا تزنوا» لقالوا: لا ندع الزّنى أبدًا.

وعن الباقر عليه السلام قال: «ليس أحدٍ أرفق من الله تعالى من رفقه تبارك وتعالى أنّه ينقلهم من خصلةٍ إلى خصلة، ولو حمل عليهم جملةً واحدةً لهلكوا». وفي رواية عنهم عليهم السلام «إنّ الله تعالى إذا أراد أن يفرض فريضة أنزلها شيئًا بعد شيءٍ، حتّى يوطّن النّاس أنفسهم عليها، ويسكنوا إلى أمر الله ونهيه، وكان ذلك من التّدبير فيهم أصوب وأقرب لهم إلى الأخذ بها، وأقل لنفارهم منها».

أقول: ولعلّه إلى جميع الوجوه المذكورة أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[1].

روي عن ابن عبّاس رضي الله عنه قال: أخذ موسى الألواح بعد ما سكن عنه الغضب؛ فأمرهم بالّذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف فثقلت عليهم، فأبوا أن يقرّوا بها، حتّى نتق الله عليهم الجبل كأنّه ظلّة، ودنا منهم حتّى خافوا أن يقع عليهم فأقرّوا بها.

أقول: لعلّه من الإصار الّتي كانت على بني إسرائيل أنّه نزلت التّوراة على موسى دفعةً، وحُمّل عليهم جميع التّكاليف بُدُوًّا، فصار ثقيلًا عليهم، فأبوا عن قبولها. (١: ٦ ـ ٨)

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ...﴾ البقرة / ١٨٥

﴿ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: ابتداءه أو بيانه أو تأويله أو جميعه دفعةً إلى البيت المعمور في ليلة القدر منه.

روي عن الكافي، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: سألته عن قول الله شهر رمضان... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

وقد تظافرت الرّوايات بأنّها ليلة القدر، فتوصيف هذا الشّهر بذلك الوصف لبيان أنّ هذا الشّهر لفضيلته وشرافته الذّاتية خصّ بنزول الرّحمة ووفور البركات الّتي أتمّها نزول القرآن، الّذي وصفه بكونه ﴿هُدًى﴾ ودليلًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ إلى الحقّ القويم والصّراط المستقيم بما فيه من الإعجاز.

﴿وَبَيِّنَاتٍ﴾ قيل: يعني آياته موضحات ﴿مِنَ الْهُدٰى﴾ الّذي يكون في سائر الكتب السّماويّة، وكاشفات عن مبهمات سائر الصُّحُف الّتي نزلت لهداية النّاس، ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾الّذي يكون فيها.

والحاصل أنّ جميع الكتب السّماويّة وإن كان هاديًا إلى الخير ومفرّقًا بين الحقّ والباطل، إلاّ أنّه لا يتمّ هدايتها وتفريقها إلاّ بتوضيحات من القرآن، فالقرآن بيّن بنفسه ومبيّن لغيره من الكتب، فلذا كان أهدى و أفضل وأشرف من سائر الكتب، وهذا الشّهر صار أفضل وأشرف بسبب نزول القرآن فيه، فحقّ على العباد أن يشكرو الله فيه ويعبدوه. (١: ١٣٦ ـ ١٣٧)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرٰيةَ وَالاِنْجِيْلَ...﴾ آل عمران / ٣ ـ ٤

استدلّ سبحانه على انحصار استحقاق العبادة فيه بنعمه العظام الّتي أهمّها إنزال الكتب السّماويّة لهداية البشر إلى العقائد الحقّة، والمحسنات العقليّة والمصالح الدّنيويّة بقوله: مخبرًا عن ذاته المقدّسة بأنّه ﴿نَزَّلَ﴾ نجومًاو تدريجًا، ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمّد لهداية الخلق إلى يوم القيمة، ﴿الْكِتَابَ﴾ المجيد والقرآن الحميد... [إلى أن قال:]

ثمّ استدلّ سبحانه بنعمه السّابقة على الأُمم السّالفة بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ سبحانه دفعةً ﴿التَّوْرٰيةَ﴾ على موسى بن عمران ﴿وَالْاِنْجِيلَ﴾ على عيسى بن مريم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السّابقة على نزول القرآن؛ لأجل أن يكون كلّ واحدٍ منهما ﴿هُدًى﴾ ودليلًا مرشدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ المكلّفين باتّباعهما إلى الحقّ والرّشاد.

ولا يذهب عليك أنّه ظهر من تفسيرنا الفرق بين التّنزيل والإنزال، وإنّ التّنزيل متضمّن للكثرة والتّدرّج في النّزول دون الإنزال، ولمّا كان القرآن جامعًا بين الجهتين، باعتبار نزوله دفعةً إلى البيت المعمور وتدريجًا إلى الأرض أسند إليه التّنزيل في أوّل الآية، ثمّ للدّلالة على كونه أعظم شأنًا وأتمّ نعمة من غيره، أعاد ذكره بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ الكتاب الّذي جعله ﴿الْفُرْقَانَ﴾ بين الحقّ والباطل، والمائز بين الضّلال والرّشاد، والمبيّن لمشتبهات سائر الكتب السّماويّة والمهيمن عليها.

عن الصّادق عليه السلام: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به». وفي رواية: «الفرقان كلّ آية محكمة».

وعن النّبيّ صلى الله عليه وآله: «سُمّي القرآن فرقانًا لأنّه متفرّق الآيات والسّور، أُنزلت في غير الألواح وغير الصّحُف، والتّوراة والزّبور أُنزلت كلّها جملةً في الألواح والأوراق».

أقول: لا منافاة بين هذه الأخبار؛ لإمكان إطلاق هذا الوصف عليه بكلا الاعتبارين، فتحصّل من الآيات أنّ من كان كمال قدرته وسعة لطفه ورحمته ووفور نعمته بهذه المرتّبة كان هو المعبود بالاستحقاق دون عيسى وغيره من الخلق. (١: ٢٠٢)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ...﴾ طه / ١١٤

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾ ولا تسرع إلى قراءته وحفظه خوفًا من النّسيان والانفلات، ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ ويتّم جبرئيل قراءته عليك.

﴿وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ بالقرآن، وفهمًا لحقائقه، وتنوّرًا بأنواره. [ثمّ ذكر قول ابن عبّاس ومجاهد والضّحّاك كما تقدّم عن الفخر الرّازيّ]. (٣: ٩٥)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

ثمّ حكىٰ سبحانه اعتراض المشركين على القرآن بنزوله نجومًا بقوله:﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قُريش طعنًا على القرآن ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كتوراة موسى وإنجيل عيسى، على ما قاله أهل الكتاب فأجاب سبحانه عنه بقوله ﴿كَذٰلِكَ﴾ التّفريق فرقناه؛ ﴿لِنُثَبِّتَ﴾ ولنقوّي به ﴿فُؤَادَكَ﴾ وقلبك في التّبليغ؛ لكون كلّ آية في حادثة وواقعة معجزة ظاهرة مستقلّة، فعجزهم عن إتيان مثلها دليل واضح على صدرك، فيكون القرآن معجزات كثيرة بحسب كثرة آياته، فلو نزل جملةً واحدةً لعدّ جميعه معجزة واحدة. ولكون نزوله على حسب أسئلة النّاس والوقائع موجب لازدياد بصيرتهم؛ لانضمام فصاحته بالأخبار المغيبة، مع أنّ في نزوله مفرّقًا رفق بالعباد وتسهيل للعمل بالأحكام قليلًا قليلًا، فلو نزلت الأحكام جملةً واحدةً لثقلت عليهم وخرجوا من الدّين، ففي ثباتهم عليه ما استلزم التّفريق من رؤية جبرئيل وقتًا بعد وقت وحالًا بعد حال تقوية لقلبك الشّريف.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾: وقرأناه عليك شيئًا فشيئًا وعلى تُؤدَةٍ ومَهل، ﴿تَرْتِيلًا﴾ حسنًا موجبًا لتيسّر فهمه وحفظه والالتفات إلى جهات إعجازه. (٣: ٢٢٨ ـ ٢٣١)

الفصل السّادس والأربعون

نصّ المَراغي في «تفسيره»

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان /٣٢

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي وقال اليهود: هلاّ أُنزل القرآن على محمّد دفعةً واحدةً كما أُنزلت الكتب السّالفة على الأنبياء كذلك. وهذا زعم باطل، ودعوى داحضة، فإنّ هذه الكتب نزلت متفرّقة، فقد أُنزلت التّوراة منجّمة في ثماني عشرة سنة كما تدلّ على ذلك نصوص التّوراة، وليس هناك دليل قاطع على خلاف ذلك من كتاب أو سنّة كما نزل القرآن، لكنّهم معاندون أو جاهلون لا يدرون كيف نزلت كتب الله على أنبيائه، وهو اعتراض بما لاطائل تحته، لأنّ الإعجاز لا يختلف بنزوله جملةً أو متفرّقاً.

فردّ الله عليهم ما قالوا، وأشار إلى السّبب الّذي لأجله نزل منجّماً فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي أنزلناه كذلك لنقوّي قَلبكَ به بإعادته وحفظه كما قال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾.

وخلاصة تلك الفوائد:... [وذكر ما تقدّم نحوه عن الفَخر الرّازيّ، ثمّ قال:]

إنّ بعض أحكام الشّريعة جاء في بدء التّنزيل وفق حال القوم الّذين أُنزلت عليهم، وبحسب العادات الّتي كانوا يألفونها، فلمّا أضاء الله بصائرهم بهدى رسوله تغيّرت بعض

أحوالهم واستعدّت أنفسهم لتشريع يزيدهم طهراً على طهر، ويذهب عنهم رجس الجاهليّة الّذي كانوا فيه، فجاء ذلك التّشريع الجديد الكامل المناسب لتلك الحال الجديدة، ولو نزل القرآن جملةً لم يتسنّ شيء من هذا.

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، أي أنزلناه عليك هكذا على مَهل، وقرأناه بلسان جبريل شيئاً فشيئاً في ثلاث وعشرين سنة. (١٩: ١٢ ـ ١٣)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ القدر / ١

«تَقدِمة تبيّن ميقات» أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله ﷺ في أربعة مواضع من كتابه الكريم، «والقرآن يفسّر بعضه بعضًا»:

(١) في سورة القدر: ١ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

(٢) في سورة الدّخان: ١ـ٦ ﴿حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

(٣) في سورة البقرة: ١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾.

(٤) في سورة الأنفال: ٤١ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فآية القدر صريحة في أنّ إنزال القرآن كان في ليلة القدر، وآية الدّخان تؤكّد ذلك وتبيّن أنّ النّزول كان في ليلة مباركة، وآية البقرة ترشد إلى أنّ نزول القرآن كان في شهر رمضان، وآية الأنفال تدلّ على أنّ إنزال القرآن على رسوله كان في ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين في غزوة بدر، الّتي فرّق الله فيها بين الحقّ والباطل، ونصر حزب الرّحمان على حزب الشّيطان، ومن ذلك يتّضح أنّ هذه اللّيلة هي ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي إنّا بدأنا ننزّل الكتاب الكريم في ليلة الشّرف، ثمّ أنزلناه بعد ذلك منجّماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث الّتي كانت تدعو إلى نزول شيء منه، تبياناً لما أُشكل من الفتوى فيها، أو عبرة بما يقصّ فيه من القصص وزواجر. ولا شكّ أنّ البشر كان في حاجة إلى دستور يبيّن لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم، ويوضّح لهم أمر النّشأة الأُولى وأمر النّشأة الآخرة، لأنّهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقّة حتّى يسنّوا لأنفسهم من النّظم ما يُغنيهم عن الدّين والتّديّن وحوادث الكون الّتي نراها رأي العين كفيلة بأن تُبيّن وجه الحقّ في ذلك، فإنّ النّاس من بدء الخليقة يُبدئون ويعيدون، ويصحّحون ويراجعون في قوانينهم الوضعيّة، ثمّ يستبين لهم بعد قليل من الزّمن أنّها لا تكفي لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرّشاد، وتمنعه من الوقوع في مهاوي الزّلل ومن ثمّ قيل: لا غنى للبشر عن الدّين ولا عن وازع روحيّ يضع لهم مقاييس الأشياء وقِيَمَها، بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصّها، كما لا غنى له عن الاعتقاد في قوّة غيبيّة يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشّكّ، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها. (۳۰: ۲۰۶ ـ ۲۰۸)

الفصل السّابع والأربعون

نصّ سيّد قطب (م: ١٣٨٥ ﻫ) في تفسيره: «في ظلال القرآن»

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ...﴾ الدّخان /٣

واللّيلة المباركة الّتي أُنزل فيها القرآن هي ـ والله أعلم ـ اللّيلة الّتي بدأ فيها نزوله، وهي إحدى ليالي رمضان الّذي قيل فيه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[1]، والقرآن لم ينزل كلّه في تلك اللّيلة، كما أنّه لم ينزل كلّه في رمضان، ولكنّه بدأ يتصّل بهذه الأرض، وكانت هذه اللّيلة موعد هذا الاتّصال المبارك، وهذا يكفي في تفسير إنزاله في اللّيلة المباركة.

وإنّها لمباركة حقّاً تلك اللّيلة الّتي يفتح فيها ذلك الفتح على البشريّة، والّتي يبدأ فيها استقرار هذا المنهج الإلهيّ في حياة البشر، والّتي يتّصل فيها النّاس بالنّواميس الكونيّة الكبرىٰ مترجمة في هذا القرآن ترجمة يسيرة، تستجيب لها الفطرة وتلبّيها في هوادة، وتقيم على أساسها عالماً إنسانيّاً مستقرّاً على قواعد الفطرة واستجاباتها، متناسقاً مع الكون الّذي يعيش فيه، طاهراً نظيفاً كريماً بلا تعمّل ولا تكلّف، يعيش فيه الإنسان على الأرض موصولاً بالسّماء في كلّ حين.

ولقد عاش الّذين أُنزل القرآن لهم أوّل مرّة فترة عجيبة في كنف السّماء، موصولين

---

١ ـ البقرة/١٨٥.

مباشرة بالله، يطلعهم أوّلاً بأوّل على ما في نفوسهم، ويشعرهم أوّلاً بأوّل بأنّ عينه عليهم، ويحسبون هم حساب هذه الرّقابة، وحساب هذه الرّعاية، في كلّ حركة وكلّ هاجسة تخطر في ضمائرهم، ويلجأون إليه أوّل ما يلجأون، واثقين أنّه قريب مجيب.

ومضىٰ ذلك الجيل وبقي بعده القرآن كتاباً مفتوحاً موصولاً بالقلب البشريّ، يصنع به حين يتفتّح له ما لا يصنعه السّحر، ويحوّل مشاعره بصورة تحسب أحياناً في الأساطير!.

وبقي هذا القرآن منهجاً واضحاً كاملاً صالحاً لإنشاء حياة إنسانيّة نموذجيّة في كلّ بيئة وفي كلّ زمان، حياة إنسانيّة تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهيّ المتميّز الطّابع، بكلّ خصائصه دون تحريف، وهذه سمة المنهج الإلهيّ وحده، وهي سمة كلّ ما يخرج من يد القدرة الإلهيّة.

إنّ البشر يصنعون ما يغني مثلهم، وما يصلح لفترة من الزّمان، ولظرف خاصّ من الحياة، فأمّا صُنعة الله فتحمل طابع الدّوام والكمال، والصّلاحيّة المستمرّة وتلبية الحاجات في كلّ ظرف وفي كلّ حين، جامعة بين ثبات الحقيقة وتشكّل الصّورة في اتّساق عجيب.

أنزل الله هذا القرآن في هذه اللّيلة المباركة أوّلاً للإنذار والتّحذير ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ فالله يعلم غفلة هذا الإنسان ونسيانه وحاجته إلى الإنذار والتّنبيه. وهذه اللّيلة المباركة بنزول هذا القرآن كانت فيصلاً وفارقاً بهذا التّنزيل. (٥: ٣٢٠٨)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

كان الرّسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئاً ممّا يوحى إليه، فكان حرصه على التّحرّز من النّسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقّيه، وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه. فجاءه هذا التّعليم ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾..

جاءه هذا التّعليم ليطمئنّه إلى أنّ أمر هذا الوحي، وحفظ هذا القرآن وجمعه وبيان مقاصده.. كلّ أُولئك موكول إلى صاحبه. ودوره هو، هو التّلقّي والبلاغ، فليطمئنّ بالاً،

وليتلقّ الوحي كاملاً، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً، وهكذا كان فأمّا هذا التّعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل، أليس من قول الله تعالى؟ وقول الله ثابت في أيّ غرض كان؟ ولأيّ أمر أراد؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقيّة الكتاب، ودلالة إثباة هذه الآيات في موضعها هذا من السّورة دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كلّ كلمات الله في أيّ إتّجاه، وفي شأن هذا القرآن وتضمّنه لكلّ كلمات الله الّتي أُوحي بها إلى الرّسول ﷺ لم يُخرم منها حرف، ولم تندِ منها عبارة، فهو الحقّ والصّدق والتّحرّج والوقار!

ثمّ تجيء الآيات الأربع الخاصّة بتوجيه الرّسول ﷺ في شأن الوحي وتلقّي هذا القرآن ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ و بالإضافة إلى ما قلناه في مقدّمة السّورة عن هذه الآيات، فإنّ الإيحاء الّذي تتركه في النّفس هو تكفّل الله المطلق بشأن هذا القرآن، وحياً وحفظاً وجمعاً وبياناً، وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليّته. ليس للرّسول ﷺ من أمره الإّحمله وتبليغه، ثمّ لهفة الرّسول ﷺ وشدّة حرصه على استيعاب ما يوحىٰ إليه، وأخذه مأخذ الجدّ الخالص، وخشيته أن ينسىٰ منه عبارة أو كلمة، ممّا كان يدعوه إلى متابعة جبريل عليه السلام في التّلاوة آية آية وكلمة كلمة، يستوثق منها أنّ شيئاً لم يفته، ويتثبّت من حفظه له فيما بعد!.

وتسجيل هذا الحادث في القرآن المتلوّ له قيمته في تعميق هذه الإيحاءات الّتي ذكرناها هنا وفي مقدّمة السّورة بهذا الخصوص.

ثمّ يمضي سياق السّورة في عرض مشاهد القيامة وما يكون فيها من شأن النّفس اللّوّامة. فيذكّرهم بحقيقة نفوسهم وما يعتلج فيها من حبّ للدّنيا وانشغال، ومن إهمال للآخرة وقلّة احتفال، ويواجههم بموقفهم في الآخرة بعد هذا وما ينتهي إليه حالهم فيها. ويعرض لهم هذا الموقف في مشهد حيّ قويّ الإيحاء عميق الإيقاع:

﴿كَلَّا* بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ* وَتَذَرُونَ الْاٰخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * اِلٰى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ اَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾[1].

---

١ ـ القيامة / ٢٠ ـ ٢٥.

وأوّل ما يلحظ من ناحية التّناسق في السّياق هو تسمية الدّنيا بالعاجلة في هذا الموضع، ففضلاً عن إيحاء اللّفظ بقصر هذه الحياة وسرعة انقضائها ـ وهو الإيحاء المقصود ـ فإنّ هناك تناسقاً بين ظلّ اللّفظ وظلّ الموقف السّابق المعترض في السّياق، وقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ فهذا التّحريك وهذه العجلة هي أحد ظلال السّمة البشريّة في الحياة الدّنيا، وهو تناسق في الحسّ لطيف دقيق، يلحظه التّعبير القرآنيّ في الطّريق! (٦: ٣٧٦٧)

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ اِلاَّ مَاشَاءَ اللهُ اِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَايَخْفٰى﴾ الأعلىٰ / ٦ ـ ٧

بعدئذ يجيء بتلك البُشرىٰ العظيمة لرسول الله ﷺ وأُمّته من ورائه، وتبدأ البُشرىٰ برفع عناء الحفظ لهذا القرآن والكدّ في إمساكه عن عاتق الرّسول ﷺ ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾ فعليه القراءة يتلقّاها عن ربّه، وربّه هو المتكفّل بعد ذلك بقلبه، فلا ينسىٰ ما يقرئه ربّه.

وهي بُشرىٰ للنّبيّ ﷺ تريحه وتطمئنّه على هذا القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه الّذي كان يندفع بعاطفة الحبّ له وبشعور الحرص عليه، وبإحساس التّبعة العظمىٰ فيه، إلى ترديده آية آية وجبريل يحمله إليه، وتحريك لسانه به خيفة أن ينسىٰ حرفاً منه. حتّى جاءته هذه البشائر المطمئنّة بأنّ ربّه سيتكفّل بهذا الأمر عنه.

وهي بُشرىٰ لأُمّته من ورائه، تطمئنّ بها إلى أصل هذه العقيدة، فهي من الله، والله كافلها وحافظها في قلب نبيّها. وهذا من رعايته سبحانه، ومن كرامة هذا الدّين عنده، وعظمة هذا الأمر في ميزانه.

وفي هذا الموضع كما في كلّ موضع يرد فيه وعد جازم، أو ناموس دائم، يرد ما يفيد طلاقة المشيئة الإلهيّة من وراء ذلك، وعدم تقيّدها بقيد ما، ولو كان هذا القيد نابعاً من وعدها وناموسها. فهي طليقة وراء الوعد والنّاموس. ويحرص القرآن على تقرير هذه الحقيقة في كلّ موضع ـ كما سبق أنّ مثّلنا لهذا في الظّلال ـ ومن ذلك ما جاء هنا.

﴿إِلاَّ مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾، فهو الاحتراس الّذي يقرّر طلاقة المشيئة الإلهيّة، بعد الوعد

الصّادق بأنّه لا ينسىٰ ليظلّ الأمر في إطار المشيئة الكبرىٰ، ويظلّ التّطلّع دائماً إلى هذه المشيئة حتّى فيما سلف فيه وعد منها، ويظلّ القلب معلّقاً بمشيئة الله حيّاً بهذا التّعلّق أبداً..

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، وكان هذا تعليل لما مرّ في هذا المقطع من القرار والحفظ والاستثناء. فكلّها ترجع إلى حكمة يعلمها من يعلم الجهر وما يخفى، ويطّلع على الأمر من جوانبه جميعاً، فيقرّر فيه ما تقتضيه حكمته المستندة إلى علمه بأطراف الأمر جميعاً. (٦: ٣٨٨٩)

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾ القدر / ١ ـ ٥

الحديث في هذه السّورة عن تلك اللّيلة الموعودة المشهودة الّتي سجّلها الوجود كلّه في فرح وغبطة وابتهال، ليلة الاتّصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى. ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمّد ﷺ ليلة ذلك الحدث العظيم الّذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته وفي دلالته وفي آثاره في حياة البشريّة جميعاً، العظمة الّتي لا يحيط بها الإدراك البشريّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ القَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

النّصوص القرآنيّة الّتي تذكر هذا الحدث تكاد ترفّ وتنير. بل هي تفيض بالنّور الهادىء السّاريّ الرّائق الودود، نور الله المشرق في قرآنه،: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ونور الملائكة والرّوح وهم في غدوّهم ورواحهم طوال اللّيلة بين الأرض والملأ الأعلى.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلمَلائِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، ونور الفجر الّذي تعرضه النّصوص متناسقاً مع نور الوحي ونور الملائكة، وروح السّلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السّارية في هذا الوجود: ﴿سَلاٰمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

واللّيلة الّتي تتحدّث عنها السّورة هي اللّيلة الّتي جاء ذكرها في سورة الدّخان ٣ـ٦ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيْهَا يُفْرَقُ كَلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا

كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِكَ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ﴾.

والمعروف أنّها ليلة من ليالي رمضان، كما في سورة البقرة: ١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلقُرْآن هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلهُدى وَٱلفُرْقَانِ﴾ أي التّي بدء فيها نزول القرآن على قلب الرّسول ﷺ ليبلّغه على النّاس. وفي رواية ابن إسحاق: أنّ أوّل الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان، ورسول‌الله ﷺ يتحنّث في غار حِراء. (٦: ٣٩٤٤)

الفصل الثّامن والأربعون

نصّ الزُّرقانيّ في «مناهل العرفان»

النّزول

هذا مبحث مهمّ في علوم القرآن، بل هو أهمّ مباحثه جميعاً؛ لأنّ العلم بنزول القرآن أساس للإيمان بالقرآن، وأساس للتّصديق بنبوّة الرّسول ﷺ وأنّ الإسلام حقّ، ثمّ هو أصل لسائر المباحث الآتية بعد في علوم القرآن. فلا جرم أن يتصدّرها جمعاء؛ ليكون من تقريره، وتحقيقه سبيل إلى تقريرها وتحقيقها، وإلّا فكيف يقوم البناء على غير أساس ودعام؟

ولأجل الإحاطة بهذا المطلب العزيز نتكلّم إنشاء الله على نزول القرآن، ثمّ على مرّات هذا النّزول ودليل كلّ نزول، وكيفيّته وحكمته، ثمّ على الوحي وأدلّته العقليّة والعلميّة، مع دفع الشّبهات الواردة في ذلك المقام.

١ - معنى نزول القرآن

جاء التّعبير بمادّة نزول القرآن وما تصرّف منها في الكتاب والسّنّة، ومن أمثلته قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[١].

---

١ ـ الإسراء / ١٠٥.

وقوله ﷺ «إنّ هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف». وهو حديث مشهور، بل قيل فيه بالتّواتر كما سيأتي.

لكنّ النّزول في استعمال اللّغة يطلق ويراد به الحلول في مكان والأوِيُّ به، ومنه قولهم: نزل الأمير المدينة. والمتعدّي منه وهو الإنزال يكون معناه إحلال الغير في مكان وإيواءه به، ومنه قوله جلّ ذكره: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[١]. ويطلق النّزول إطلاقاً آخر في اللّغة على إنحدار الشّيء من عُلْو إلى سُفْل، نحو «نزل فلان من الجبل» والمتعدّي منه يكون معناه تحريك الشّيء من عُلْو إلى سُفْل، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٢].

ولا ريب أنّ كلا هذين المعنيين لا يليق إرادته هنا في إنزال الله للقرآن، ولا في نزول القرآن من الله؛ لما يلزم هذين المعنيين من المكانيّة والجسميّة. والقرآن ليس جسماً حتّى يحلّ في مكان أو ينحدر من عُلْو إلى سُفْل، سواء أردنا به الصّفة القديمة المتعلّقة بالكلمات الغيبيّة الأزليّة، أم أردنا به نفس تلك الكلمات، أم أردنا به اللّفظ المعجز؛ لما علمت من تنزُّه الصّفة القديمة ومتعلّقها، وهو الكلمات الغيبيّة عن الحوادث وأعراض الحوادث، ولما تعرفه من أنّ الألفاظ أعراض سيّالة تنقضي بمجرّد النّطق بها، كما يقولون.

إذن فنحن بحاجة إلى التّجوّز، والمجاز بابه واسع وميدانه فسيح. وليكن المعنى المجازيّ لإنزال القرآن هو الإعلام في جميع إطلاقاته. أمّا على أنّ المراد بالقرآن الصّفة القديمة أو متعلّقها، فإنزاله الإعلام به بواسطة ما يدلّ عليه من النّقوش بالنّسبة لإنزاله في اللّوح المحفوظ وفي بيت العزّة من السّماء الدّنيا، وبواسطة ما يدلّ عليه من الألفاظ الحقيقيّة بالنّسبة لإنزاله على قلب النّبيّ ﷺ والعلاقة بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازيّ هو اللّزوم؛ لأنّ إنزال شيء إلى شيء يستلزم إعلام من أُنزل إليه ذلك الشّيء به إن كان عاقلاً، ويستلزم إعلام من يطلّع عليه من الخلق به مطلقاً، وإذن فالمجاز مرسل.

وأمّا على أنّ المراد بالقرآن اللّفظ المعجز، فمعنى إنزاله الإعلام به أيضاً، ولكن

---

١ ـ المؤمنون / ٢٩.

٢ ـ البقرة / ٢٢.

بوساطة إثباته هو أو إثبات دالّه، فإثباته هو بالنّسبة لإنزاله على قلب النّبيّ ﷺ إثبات دالّه بالنّسبة إلى اللّوح المحفوظ وبيت العزّة، والعلاقة اللّزوم كذلك، والمجاز مرسل كسابقه.

ويمكن أن يكون هذا التّجوّز من قبيل الاستعارة التّصريحيّة الأصليّة، بأن يُشبَّه إعلام السّيد لعبده بإنزال الشّيء من عُلْو إلى سُفْل، بجامع أنّ في كلٍّ من طرفي التّشبيه صدوراً من جانب أعلى إلى جانب أسفل، وإن كان العُلْو والسُّفْل في وجه الشّبه حسّيًّا بالنّسبة إلى المشبّه به، ومعنويّاً بالنّسبة إلى المشبّه.

وأنت خبير بأن النّزول مطاوع الإنزال، فما يجري من التّجوّز في أحدهما يجري نظيره في الآخر، وقلّ مثل ذلك في التّنزيل والتّنزّل.

وكأنّ وجه اختيار التّعبير بمادّة الإنزال وما تصرّف منها أو التّقى معها هو التّنويه بشرف ذلك الكتاب، نظراً إلى ما تشير إليه هذه المّادة من علوٍّ صاحب هذا الكتاب المنزل علوّاً كبيراً، كما قال تعالى في فاتحة سورة الزّخرف ٢ـ٤:﴿وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

ثمّ إنّ تأويل الإنزال بالإعلام على مارأيت هو الأقرب والأوفق بالمقام، وذلك من وجوه ثلاثة؛

أحدها: أنّ تعلّق الكلام تعلّق دلالة وإفهام، ولا ريب أنّ القرآن كلام، فتأويل إنزاله بالإعلام رجوع إلى ما هو معلوم من تعلّقه، ومفوم من تحقّقه.

ثانيها: أنّ المقصود من ثبوت القرآن في اللّوح وفي سماء الدّنيا وفي قلب النّبيّ ﷺ هو إعلام الخلق في العالَمَين العُلويّ والسُّفليّ بما شاء الله دلالة البشر عليه من هذا الحقّ.

ثالثها: أنّ تفسير الإنزال بالإعلام ينسجم مع القرآن بأيّ إطلاق من إطلاقاته، وعلى أيّ تنزُّل من تنزّلاته.

٢ ـ تنزّلات القرآن

شرّف الله هذا القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزّلات:

أ: التّنزّل الأوّل إلى اللّوح المحفوظ، ودليله قول الله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِى

لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[١]. وكان هذا الوجود في اللّوح بطريقة وفي وقت لا يعلمها إلّا الله تعالى ومن أطلعه على غيبه. وكان جملةً لا مفرّقاً؛ لأنّه الظّاهر من اللّفظ عند الإطلاق، ولا صارف عنه، ولأنّ أسرار تنجيم القرآن على النّبيّ ﷺ لا يعقل تحقّقها في هذا التّنزّل.

وحكمة هذا النّزول ترجع إلى الحكمة العامّة من وجود اللّوح نفسه، وإقامته سجلاً جامعاً لكلّ ما قضى الله وقدّر، وكلّ ما كان وما يكون من عوالم الإيجاد والتّكوين. فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر الدّالّة على عظمة الله وعلمه وإرادته وحكمته وواسع سلطانه وقدرته. ولا ريب أنّ الإيمان به يقوّي إيمان العبد بربّه من هذه النّواحي، ويبعث الطّمأنينةإلى نفسه، والثّقة بكلّ ما يظهره الله لخلقه، من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه، وسائر أقضيته وشؤونه في عباده، كما يحمل النّاس على السّكون والرّضا، تحت سلطان القدر والقضاء، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها وسرّائها، كما قال جلّ شأنه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَ لَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا * إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[٢]. وللإيمان باللّوح وبالكتابة فيه أثر صالح في استقامة المؤمن على الجادّة، وتفانيه في طاعة الله ومراضيه، وبعده عن مساخطه ومعاصيه؛ لاعتقاده أنّها مسطورة عند الله في لوحه، مسجّلة لديه في كتابه كما قال جلّ ذكره: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[٣].

ب: التّنزّل الثّاني للقرآن، كان هذا التّنزّل الثّاني إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، والدّليل عليه قوله تعالى في سورة الدّخان ٣: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وفي سورة القدر ١: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وفي سورة البقرة ١٨٥: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ﴾.

دلّت هذه الآيات الثّلاثة على أنّ القرآن أنزل في ليلة واحدةٍ، توصف بأنّها مباركة

---

١ ـ البروج / ٢٢.

٢ ـ الحديد / ٢٢ ـ ٢٣.

٣ ـ القمر / ٥٣.

أخذاً من آية الدّخان، وتسمّى ليلة القدر أخذاً من آية سورة القدر، وهي من ليالي شهر رمضان أخذاً من آية البقرة. وإنّما قلنا ذلك جمعاً بين هذه النّصوص في العمل بها، ودفعاً للتّعارض فيما بينها. ومعلوم بالأدلّة القاطعة ـ كما يأتي ـ أنّ القرآن أُنزل على النّبيّ ﷺ مفرّقاً لا في ليلة واحدة، بل في مدىً سنين عدداً، فتعيّن أن يكون هذا النّزول الّذي نوّهت به هذه الآيات الثّلاثة نزولاً آخر غير النّزول على النّبيّ ﷺ وقد جاءت الأخبار الصّحيحة مبيّنة لمكان هذا النّزول، وأنّه في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، كما تدلّ الرّوايات الآتية:

[ثمّ نقل الرّوايات نقلاً عن الحَاكم والنَّسائيّ والبَيهقيّ وابن مرْدُوَيه بـإسنادهم إلى ابـن عبّاس،كما تقدّم عن أبي شامَة، فقال:]

هذه أحاديث أربعة من جملة أحاديث ذكرت في هذا الباب، وكلّها صحيحة كما قال السّيوطيّ، وهي أحاديث موقوفة على ابن عبّاس، غير أنّ لها حكم المرفوع إلى النّبيّ ﷺ، لما هو مقرّر من قول أنّ الصّحابيّ مـالا مـجال للـرّأي فـيه، ولم يـعرف بـالأخذ عـن الإسرائيليّات، حكمه حكم المرفوع. ولاريب أنّ نزول القرآن إلى بيت العزّة مـن أنـبَاء الغيب الّتي لاتُعرف إلّا من المعصوم، وابن عبّاس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائـيليّات، فثبت الاحتجاج بها.

وكان هذا النّزول جملةً واحدةً في ليلة واحدة هي ليلة القدر كـما عـلمت؛ لأنّـه المتبادر من نصوص الآيات الثّلاث السّابقة وللتّنصيص على ذلك في الأحاديث الّـتي عرضناها عليك. بل ذكر السّيوطيّ: أنّ القرطبيّ نقل حكاية الإجماع على نزول القرآن جملةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا.

وهناك قول ثانٍ بنزول القرآن إلى السّماء الدّنيا في عشرين ليـلة قـدر، أو ثـلاث وعشرين،أو خمس وعشرين ينزل في كلّ ليلة قدر منها ما يقدّر الله إنزالَه في كلّ السّنة، ثمّ ينزل بعد ذلك منجّماً في جميع السّنة على النّبيّ ﷺ.

وثَمَّةَ قول ثالث، أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة من سائر الأزمان على النّبيّ ﷺ وكأنّ صاحب هذا القول ينفي النّزول جملةً إلى بيت العزّة في ليلة القدر.

وذكروا قولاً رابعاً أيضاً، هو أنّه نزل من اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً، وأنّ الحفظة نجّمته على جبريل في عشرين ليلة وأنّ جبريل نجّمه على النّبيّ ﷺ في عشرين سنة.

ولكنّ هذه الأقوال الثّلاثة الأخيرة بمعزل عن التّحقيق، وهي محجوجة بالأدلّة الّتي سُقناها بين يديك تأييداً للقول الأوّل.

والحكمة في هذا النّزول، على ما ذكره السّيوطيّ نقلاً عن أبي شامَة هي تفخيم... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

وذكر بعضهم: أنّ النّزول إلى السّماء الدّنيا إلهاباً لشوق النّبيّ ﷺ إليه، على حدّ قول القائل:

وأعظم ما يكونُ الشّوقُ يوماً   إذا دنَت الخِيامُ من الخِيام

أقول: وفي تعدّد النّزول وأماكنه، مرّةً في اللّوح وأخرى في بيت العزّة وثالثة على قلب النّبيّ ﷺ فيذلك التّعدّد مبالغة في نفي الشّكّ عن القرآن، وزيادة للإيمان به، وباعث على الثّقة فيه، لأنّ الكلام إذا سُجّل في سجِلّات متعدّدة، وصحّت له وجودات كثيرة، كان ذلك أنفىٰ للرّيب عنه، وأدعىٰ إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيقان به، ممّا لو سُجّل في سجِلٍّ واحد، أو كان له وجود واحد.

ج: التّنزُّل الثّالث للقرآن، هذا هو واسطة عقد التّنزّلات، لأنّه المرحلة الأخيرة الّتي منها شعّ النّور على العالم، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النّزّول بوساطة أمين الوحي جبريل يهبط به على قلب النّبيّ ﷺ ودليله قول الله تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الاَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

كيفيّة أخذ جبريل للقرآن وعمّن أخذ

هذا من أنباء الغيب، فلا يطمئنّ الإنسان إلى رأي فيه، إلّا إن ورد بدليل صحيح عن المعصوم، وكلّ ما عثرنا عليه أقوال منثورة هنا وهناك، نجمعها لك فيما يأتي مع إبداء رأينا في كلّ منه:

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٣ ـ ١٩٥.

أوّلها: قال الطّيبيّ: لعّل نزول القرآن على الملك أن يتلقّفه تلقُّفاً روحانيّاً، أو يحفظه من اللّوح المحفوظ، فينزل به على النّبيّ ﷺ فيلقيه إليه.

وأنت خبير بأنّ كلمة «لعلّ» هنا لا تشفي غليلاً، ولا تهدينا إلى المقصود سبيلاً، ولا نستطيع أن نأخذ منها دليلاً.

ثانيها: حكى الماوَرديّ أنّ الحفظة نجّمت القرآن على جبريل في عشرين ليلة، وأنّ جبريل نجّمه على النّبيّ ﷺ في عشرين سنة. ومعنى هذا أنّ جبريل أخذ القرآن عن الحفظة نجوماً عشرين. ولكنّا لا نعرف لصاحب هذا الرّأي دليلاً ولا شبه دليل.

ثالثها: قال البَيْهقيّ في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] يريد ـ والله أعلم ـ إنّا أسمعنا الملك وأفهمناه إيّاه وأنزلناه بما سمع. ومعنى هذا أنّ جبريل أخذ القرآن عن الله سماعاً. وذلك فيما أرىٰ أمثل الأقوال من ناحية أخذه جبريل عن الله، لامن ناحية تأويل النّزول في الآية بابتداء النّزول. ويؤيّده ما أخرجه الطّبرانيّ من حديث النّواس بن سَمعان مرفوعاً إلى النّبيّ ﷺ: «إذا تكلّم الله بالوحي أخذت السّماء رجفةٌ شديدة من خوف الله، فإذا سمع أهل السّماء صعقوا وخرُّوا سجّداً، فيكون أوّلهم يرفع رأسه جبريل، فيكلّمه الله بوحيه بما أراد، فينتهي به إلى الملائكة، فكلّما مرَّ بسماء سأله أهلها ماذا قال ربّنا؟ قال: الحقّ، فينتهي به حيث أمر».

وأيّاً ما تكن هذه الأقوال، فإنّ هذا الموضوع لا يتعلّق به كبير غرض، ما دمنا نقطع بأنّ مرجع التّنزيل هو الله تعالى وحده.

ماالّذي نزل به جبريل؟

ولتعلم في هذا المقام، أنّ الّذي نزل به جبريل على النّبيّ ﷺ هو القرآن، باعتبار أنّه الألفاظ الحقيقيّة المعجزة من أوّل الفاتحة إلى آخر سورة النّاس. وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده، لا دخل لجبريل ولا لمحمّد في إنشائها وترتيبها، بل الّذي رتّبهاأوّلاً هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك تنسب له دون سواه، وإن نطق بها جبريل ومحمّد وملايين الخلق

١ ـ القدر / ١.

من بعد جبريل ومحمّد ﷺ من لدن نزول القرآن إلى يوم السّاعة. وذلك كما ينسب الكلام البشريّ إلى من أنشأه ورتّبه في نفسه أوّلاً دون غيره، ولو نطق به الآف الخلائق في الآف الأيّام والسّنين إلى يوم يقوم النّاس لربّ العالمين.

فاللّه ـ جلّت حكمته ـ هو الّذي أبرز ألفاظ القرآن وكلماته مرتّبةً على وفق ترتيب كلماته النّفسيّة لأجل التّفهيم والتّفهّم، كما نبرز نحن كلامنا اللّفظيّ على وفق كلامنا النّفسيّ لأجل التّفهيم والتّفهّم، ولا ينسب الكلام بحال إلّا إلى من رتّبه في نفسه أوّلاً، دون من اقتصر على حكايته وقراءته، ولذلك لا يجوز إضافة القرآن على سبيل الإنشاء إلى جبريل أو محمّد، ولا غير جبريل ومحمّد، كما لا يجوز نسبة كلام أنشأه شخص ورتّبه في نفسه أوّلاً إلى شخص آخر حكاه وقرأه حين اطّلع عليه أو سمعه.

وقد أسَفَّ بعض النّاس، فزعم أنّ جبريل كان ينزل على النّبيّ ﷺ بمعاني القرآن، والرّسول يعبّر عنها بلغة العرب. وزعم آخرون أنّ اللّفظ لجبريل، وأنّ الله كان يوحي إليه المعنى فقط. وكلاهما قول باطل أثيم، مصادم لصريح الكتاب والسّنّة والإجماع، ولا يساوي قيمة المداد الّذي يكتب به. وعقيدتي أنّه مدسوس على المسلمين في كتبهم. وإلّا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزاً واللّفظ لمحمّد أو لجبريل؟ ثمّ كيف تصحّ نسبته إلى الله واللّفظ ليس للّه؟ مع أنّ الله يقول: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ﴾[١]، إلى غير ذلك ممّا يطول بنا تفصيله.

والحقّ أنّه ليس لجبريل في هذا القرآن سوى حكايته للرّسول وإيحائه إليه، وليس للرّسول ﷺ في هذا القرآن سوى وعيه وحفظه، ثمّ حكايته وتبليغه، ثمّ بيانه وتفسيره، ثمّ تطبيقه وتنفيذه، نقرأ في القرآن نفسه أنّه ليس من إنشاء جبريل ولا محمّد نحو ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٢]، ونحو ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾[٣]، ونحو ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا

---

١ ـ التّوبة / ٦.

٢ ـ النّمل / ٦.

٣ ـ الأعراف / ٢٠٣.

يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، ونحو ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[2].

ثمّ ما ذكرناه هو تحقيق ما نزل على النّبيّ ﷺ من القرآن، وإن كان قد نزل عليه أيضاً غير القرآن. نقل السّيوطيّ عن الجُوَينيّ أنّه قال: كلام الله المنزل قسمان... [وذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:].

أقول:وهذا كلام نفيس، بيد أنّه لا دليل أمامنا على أنّ جبريل كان يتصرّف في الألفاظ الموحاة إليه في غير القرآن. وما ذكره الجُوينيّ فهو احتمال عقليّ لا يكفي في هذا الباب. ثمّ إنّ هذا التّقسيم خلا من قسيم ثلاث للكتاب والسّنّة، وهو الحديث القدسيّ الّذي قاله الرّسول ﷺ حاكياً عن الله تعالى، فهو كلام الله أيضاً، غير أنّه ليست فيه خصائص القرآن الّتي امتاز بها عن كلّ ما سواه. ولله تعالى حكمة في أن يجعل من كلامه المنزل معجزاً وغير معجز، لمثل ما سبق في حكمة التّقسيم الآنف، من إقامة حجّة للرّسول ولدين الحقّ بكلام الله المعجز، ومن التّخفيف على الأُمّة بغير المعجز؛ لأنّه تصحّ روايته بالمعنى، وقراءة الجنب وحمله له ومسّه إيّاه، إلى غير ذلك.

وصفوة القول في هذا المقام أنّ القرآن أُوحيت ألفاظه من الله اتّفاقاً، وأنّ الحديث القدسيّ أُوحيت ألفاظه من الله على المشهور، والحديث النّبويّ أُوحيت معانيه في غير ما اجتهد فيه الرّسول والألفاظ من الرّسول ﷺ بيد أنّ القرآن له خصائصه من الإعجاز والتّعبّد به، ووجوب المحافظه على ادائه بلفظه ونحو ذلك، وليس للحديث القدسيّ والنّبويّ شيء من هذه الخصائص. والحكمة في هذا التّفريق أنّ الإعجاز منوط بألفاظ القرآن، فلو أُبيح اداؤه بالمعنى لذهب إعجازه، وكان مظنّة للتّغيير والتّبديل، واختلاف النّاس في أصل التّشريع والتّنزيل.

---

١ ـ يونس / ١٥.

٢ ـ الحاقّة / ٤٤ ـ ٤٧.

أمّا الحديث القدسيّ والحديث النّبويّ فليست ألفاظهما مناط إعجاز، ولهذا أباح الله روايتهما بالمعنى، ولم يمنحهما تلك الخصائص والقداسة الممتازة الّتي منحها القرآن الكريم تخفيفاً على الأُمّة، ورعاية لمصالح الخلق في الحالين من مَنْحٍ ومَنْعٍ، ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[1]

مدّة هذا النّزول

وابتدأ هذا الإنزال من مبعثه ﷺ وانتهى بقرب انتهاء حياته الشّريفة، وتقدّر هذه المدّة بعشرين أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف في مدّة إقامته ﷺ في مكّة بعد البعثة، أكانت عشر سنين أم ثلاثة عشر أم خمس عشرة سنة، أمّا مدّة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتّفاقاً، كذلك قال السّيوطيّ.

ولكن بعض محقّقي تاريخ التّشريع الإسلاميّ يذكر أنّ مدّة مقامه ﷺ بمكّة اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً، من «١٧» رمضان سنة «٤١» من مولده الشّريف إلى أوّل ربيع الأوّل سنة «٥٤» منه. أمّا مدّة إقامته في المدينة بعد الهجرة فهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيّام من أوّل ربيع الأوّل سنة «٥٤» من مولده إلى تاسع ذي‌الحجة سنة «٦٣» منه، ويوافق ذلك سنة عشر من الهجرة. وهذا التّحقيق قريب من القول بأنّ مدّة إقامته ﷺ في مكّة ثلاث عشرة سنة وفي المدينة عشر سنين، وأنّ مدّة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً.

لكنّ هذا التّحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة؛ ذلك لأنّه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرّؤيا الصّادقة ستّة أشهر، على حين أنّها ثابتة في الصّحيح. ثمّ جرى فيه على أنّ ابتداء نزول القرآن كان ليلة السّابع عشر من رمضان، وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنّه يخالف المشهور الّذي يؤيّده الصّحيح. ثمّ ذهب فيه مذهب القائلين بأنّ آخر ما نزل من القرآن هو آية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[2]، وذلك في

---

١ ـ البقرة / ١٤٣.

٢ ـ المائدة / ٣.

تاسع ذي‌الحجّة سنة عشر من الهجرة، وسترىٰ في مبحث (آخر ما نزل من القرآن) أنّ هذا المذهب غير صحيح.

دليل تنجيم هذا النّزول

والدّليل على تفرّق هذا النّزول وتنجيمه قول الله تعالت حكمته في سورة الإسراء ١٠٦: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، وقوله في سورة الفرقان ٣٢: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الآية روي أنّ الكفّار من يهود و مشركين عابوا على النّبيّ ﷺ نزول القرآن مفرّقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم، وهذا الرّدّ يدلّ على أمرين؛

أحدهما: أنّ القرآن نزل مفرّقاً على النّبيّ ﷺ. الثّاني: أنّ الكُتب السّماويّة من قبله نزلت جملةً، كما اشتهر ذلك بين جمهور العلماء حتّى كاد يكون إجماعاً.

ووجه الدّلالة على هذين الأمرين؛ أنّ الله تعالى لم يكذّبهم فيما ادّعوا من نزول الكتب السّماوية جملةً، بل أجابهم ببيان الحكمة في نزول القرآن مفرّقاً، ولو كان نزول الكتب السّماوية مفرّقاً كالقرآن لردّ عليهم بالتّكذيب، وبإعلان أنّ التّنجيم هو سنّة الله فيما أُنزل على الأنبياء من قبل، كما ردّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[1]، حين طعنوا على الرّسول وقالوا: ﴿مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[2]؟

الحكم والأسرار في تنجيم القرآن

لتنجيم نزول القرآن الكريم أسرار عدّةٌ وحِكَمٌ كثيرة، نستطيع أن نُجمِلها في أربعة حكم رئيسيّة:

---

١ ـ الفرقان / ٢٠.

٢ ـ الفرقان /٧.

الحكمة الأُولى

تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ وتقوية قلبه، وذلك من وجوه خمسة:

الوجه الأوّل: أنّ في تجدّد الوحي، وتكرار نزول الملك به من جانب الحقّ إلى رسوله ﷺ، سروراً يملأ قلب الرّسول، وغبطة تشرح صدره، وكلاهما يتجدّد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهيّة، وتعهّد مولاه إيّاه في كلّ نوبةٍ من نوباتِ هذا النّزول.

الوجه الثّاني: أنّ في التّنجيم تيسيراً عليه من الله في حفظه وفهمه، ومعرفة أحكامه وحِكَمِه، وذلك مطمئنّ له على وَعْيٍّ ما يوحىٰ إليه حفظاً وفهماً وأحكاماً وحِكَماً، كما أنّ فيه تقويةً لنفسه الشّريفه على ضبط ذلك كلّه.

الوجه الثّالث: أنّ في كلّ نوبة من نوبات هذا النّزول المنجّم معجزةً جديداً غالباً؛ حيث تحدّاهم كلّ مرّة أن يأتوا بمثل نوبة من نُوب التّنزيل، فظهر عجزهم عن المعارضة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولا شكّ أنّ المعجزة تشدّ أزرَه وتُرهِف عزمه، باعتبارها مؤيّدةً له ولحزبه، خاذلةً لأعدائه ولخصمه.

الوجه الرّابع: أنّ في تأييد حقّه ودحض باطل عدوه ـ المرّة بعد الأُخرى ـ تكراراً للذّة فوزه وفلَجه بالحقّ والصّواب. وشهوده لضحايا الباطل في كلّ مهبطٍ للوحي والكتاب. وإن كلّ ذلك إلّا مشجّع للنّفس مقوٍّ للقلب والفؤاد.

والفرق بين هذا الوجه والّذي قبله هو الفرق بين الشّيء وأثره، أو الملزوم ولازمه، فالمعجزة من حيث أنّها قوّة للرّسول ومؤيّدة له مطمئنّة له ومثبّتة لفؤاده، بقطع النّظر عن أثر انتصاره وهزيمة خصمه بها. ثمّ إنّ هذا الأثر العظيم وحده مطمئنّ لقلبه الكريم ومثبّت لفؤاده أيضاً، أشبه شيء بالسّلاح، وجوده في يد الإنسان مطمئنّ له ولو لم يستعمله في خصمه، ثمّ انتصار الإنسان وهزيمة خصمه به إذا أعمله فيه مطمئنّ للفؤاد مريح للقلب مرّةً أُخرى.

الوجه الخامس: تعهُّد الله إيّاه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يُهوِّن عليه هذه الشّدائد. ولا ريب أنّ تلك الشّدائد كانت تحدث في أوقات متعدّده، فلا جرم كانت التّسلية تحدث هي الأُخرى في مرّات متكافئة. فكلّما أحرجه خصمه سلاّه ربّه. وتجيء

تلك التّسلية تارةً عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين، الّتي لها في القرآن عَرْضٌ طويل، وفيها يقول الله: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١] وتارةً تجيء التّسلية عن طريق وعد الله لرسوله بالنّصر والتّأييد والحفظ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٣]ونحو ما في سورتي الضُّحى وألم نشرح من الوعود الكريمة والعطايا العظيمة. وطوراً تأتيه التّسلية عن طريق إيعاد أعدائه وإنذارهم، نحو قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٥]. وطوراً آخر ترد التّسلية في صورة الأمر الصّريح بالصّبر، نحو قوله جلّ شأنه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٦]، أو في صورة النّهي عن التّفجُّع عليهم والحزن منهم، نحو قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[٧]، ونحو قوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٨].

ومن موارد تسلية الله لرسوله أن يخوّفه عواقب حزنه من كفر أعدائه، نحو ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونوا مُؤْمِنِينَ﴾[٩] ومنها أن يُؤيِسه منهم ليستريح ويتسلّى عنهم، نحو: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلأرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَاءِ فَتَأتِيَهُمْ بِآيَةٍ * وَلَو شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[١٠]

---

١ ـ هود / ١٢٠.

٢ ـ الطّور / ٤٨.

٣ ـ المائدة / ٦٧.

٤ ـ القمر / ٤٥.

٥ ـ فصّلت / ١٣.

٦ ـ الأحقاف / ١٣.

٧ ـ فاطر / ٨.

٨ ـ النّحل / ١٢٧.

٩ ـ الشّعراء / ٣.

١٠ ـ الأنعام / ٣٥ ـ ٣٦.

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة بوجوهها الخمسة تحت قول الله في بيان الحكمة من تنجيم القرآن ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١].

الحكمة الثّانية:

التّدرّج في تربية هذه الأُمّة النّاشئة علماً وعملاً، وينضوي تحت هذا الإجمال خمسة أيضاً:

أوّلها: تيسير حفظ القرآن على الأُمّة العربيّة، وهي كما علمت كانت أُمّة أُمّيّة. وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، وكانت مشتغلة بمصالحها المعاشية، وبالدّفاع عن دينها الجديد بالحديد والدّم، فلو نزل القرآن جملةً واحدةً لعجزوا عن حفظه، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرّقاً ليسهل عليهم حفظه ويتهيّأ لهم استظهاره.

ثانيها: تسهيل فهمه عليهم كذلك، مثل ما سبق في توجيه التّيسير في حفظه.

ثالثها: التّمهيد لكمال تخلّيهم عن عقائدهم الباطلة، وعباداتهم الفاسدة، وعاداتهم المرذولة. وذلك بأن يراضوا على هذا التّخلّي شيئاً فشيئاً، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئاً فشيئاً، فكلّما نجح الإسلام معهم في هدم الباطل، انتقل بهم إلى هدم آخر، وهكذا يبدأ بالأهمّ ثمّ بالمهمّ، حتّى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلّها، فطهّرهم منها وهم لا يشعرون بعنتٍ ولا حرج، وفطمهم عنها دون أن يرتكسوا في سابق فتنةٍ أو عادة. وكانت هذه سياسةً رشيدة، لا بدّ منها في تربية هذه الأُمّة المجيدة، لا سيّما أنّها كانت أبيّة معاندة، تتحمّس لموروثاتها وتستميت في الدّفاع عمّا تعتقده من شرفها، وتتهوّر في سفك الدّماء وشنّ الغارات لأتفه الأسباب.

رابعها: التّمهيد لكمال تحلّيهم بالعقائد الحقّة، والعبادات الصّحيحة، والأخلاق الفاضلة، بمثل تلك السّياسة الرّشيدة السّابقة. ولهذا بدأ الإسلام بفطامهم عن الشّرك والإباحة، وإحياء قلوبهم بعقائد التّوحيد والجزاء، من جرّاء مافتح عيونهم عليه من أدلّة

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

التّوحيد، وبراهين البعث بعد الموت، وحجج الحساب والمسئوليّة والجزاء.

ثمّ انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات فبدأهم بفريضة الصّلاة قبل الهجرة، وثنّىٰ بالزّكاة وبالصّوم في السّنة الثّانية من الهجرة، وختم بالحجّ في السّنة السّادسة منها. وكذلك كان الشّأن في العادات، زجرهم عن الكبائر وشدّد النّكير عليهم فيها. ثمّ نهاهم عن الصّغائر في شيء من الرّفق، وتدرّج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً فيهم كالخمر، تدرُّجاً حكيماً حقّق الغاية، وأنقذهم من كابوسها في النّهاية. وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطّة المُثلىٰ أبعد نظراً، وأهدىٰ سبيلاً، وأنجح تشريعاً، وأنجح سياسةً، من تلكم الأُمم المتمدّنة المتحضّرة الّتي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس، وفشلت أمَرّ فشَلٍ، وما عهد إمريكا في مهزلة تحريمها الخمر ببعيد.

أليس ذلك إعجازاً للإسلام في سياسة الشّعوب، وتهذيب الجماعات، وتربية الأُمم؟ بلى، والتّاريخ على ذلك من الشّاهدين.

خامسها: تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصّبر واليقين، بسبب ما كان يقصّه القرآن عليهم الفَيْنَة بعد الفَينة والحينَ بعد الحين، من قصص الأنبياء والمرسلين وما كان لهم ولأتباعهم مع الأعداء والمخالفين، وما وعد الله به عباده الصّالحين، من النّصر والأجر والتّأييد والتّمكين. والآيات في ذلك كثيرة، حسبك منها قول العليّ الكبير: ﴿وَعَدَ اللّٰهُ الَّذِينَ اٰمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْاَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضٰى لَهُمْ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذٰلِكَ فَاُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[١]. وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[٢].

ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثّانية بما انضوى تحتها في قول الله تعالى: ﴿وَقُرْاٰنًا

---

١ ـ النّور / ٥٥.

٢ ـ الأنعام / ٤٥.

فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ﴾[١]، كما يمكن أن يفسّر بها قوله تعالى في بيان أسرار التّنجيم: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٢]، باعتبار أنّ التّنوين للتّعظيم إشارةً إلى المعاني المنطوية تحت هذا التّرتيل.

الحكمة الثّالثة:

مُسايرة الحوادث والطّوارىء في تجدّدها وتفرّقها، فكلّما جدّ منهم جديد، نزل من القرآن ما يناسبه، وفصّل الله لهم من أحكامه ما يوافقه. وتنتظم هذه الحكمة أُموراً أربعة:

أوّلها: إجابة السّائلين على أسئلتهم عند ما يوجّهونها إلى الرّسول ﷺ سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التّثبُّت من رسالته، كما قال الله في جواب سؤال أعدائه إيّاه: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلعِلْمِ اِلاَّ قَلِيلًا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى ٱلقَرْنَيْنِ قُلْ سَاَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[٤].أم كانت لغرض التّنوّر ومعرفة حكم الله، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[٥]، ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱليَتَامَى قُلْ اِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَاِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ﴾[٦].

ولا ريب أنّ تلك الأسئلة كانت ترفع إلى النّبيّ ﷺ في أوقات مختلفة، وعلى نوبات متعدّدة، حاكيةً أنّهم سألوا ولايزالون يسألون، فلا بدع أن ينزل الجواب عليها كذلك في أوقاتها المختلفة و نوباتها المتعدّدة.

ثانيها: مُجاراة الأقضيّة والوقائع في حينها ببيان حُكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها. ومعلوم أنّ تلك الأقضيّة والوقائع لم تقع جملةً، بل وقعت تفصيلاً وتدريجاً. فلا مناص إذن من فَصل الله فيها بنزول القرآن على طبقها تفصيلاً وتدريجاً. والأمثلة على هذا

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٣.

٣ ـ الإسراء / ٨٥.

٤ ـ الكهف / ٨٣.

٥ ـ البقرة / ٢١٩.

٦ ـ البقرة / ٢٢٠.

كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾[١] إلى قوله سبحانه: ﴿أُولئِكَ مُبَرَّؤُنَ مِمَّا يَقُولوْنَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، وهنّ عشر آيات نزلن في حادث من أروع الحوادث، هو اتّهام السّيّدة الجليلة أُمّ المؤمنين عائشة بالإفك. وفيها دروس اجتماعيّة لا تزال تُقرأ على النّاس، كما لا تزال تُسَجّل براءة هذه الحصان الطّاهرة من فوق سبع سماوات.

ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٣]. وهنّ ثلاث آيات نزلن عندما رفعت خولة بنت ثَعلَبة شكواها إلى رسول‌الله ﷺ من أنّ زوجها أوس بن الصّامِت ظَاهَر منها، وجادلت الرّسول بأنّ معها صبيّةً صغاراً إن ضَمَّتهم إلى زوجها ضاعوا، وإن ضَمَّتهم إليها جاعوا.

ثالثها: لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم الّتي يخطئون فيها، وإرشادهم إلى شاكلة الصّواب في الوقت نفسه. ولا ريب أنّ تلك الأغلاط كانت في أزمانٍ متفرّقة، فمن الحكمة أن يكون القرآن النّازل في إصلاحها متكافئاً معها في زمانها. اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة آل عمران ١٢١: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ إلى آيات كثيرة بعدها، وكلّها نزلت في غزوة أحد إرشاداً للمسلمين إلى مواضع أخطائهم في هذا الموقف الرّهيب والمأزق العصيب. وكذلك اقرأ قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤]. وهي آياتٌ تردَع المؤمنين عن رذيلة الإعجاز والاغترار في يوم

---

١ ـ النّور / ١١.

٢ ـ النّور / ٢٦.

٣ ـ المجادلة / ١ ـ ٤.

٤ ـ التّوبة / ٢٥ ـ ٢٧.

من أيّام الله، وتلفت نظرهم إلى مقدار تدارك الله لهم في شدّتهم، وإلى وجوب أن يثوبوا إلى رشدهم، ويتوبوا إلى ربّهم.

رابعها: كشف حال أعداء الله المنافقين، وهتك أستارهم وسرائرهم للنّبيّ والمسلمين، كيما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرّهم، وحتّى يتوب من شاء منهم. اقرأ ـ إن شئت ـ قوله تعالى في سورة البقرة / ٨٠: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهنّ ثلاثَ عشرةَ آيةً فضحت المنافقين، كما فضحتهم سورة التّوبة في كثير من الآيات، وكما كشف القرآن أستارهم في كثير من المناسبات. ويمكن أن تندرج هذه الحكمة الثّالثة بمضامينها الأربعة في قول الله تعالى في تلك الآية: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[١].

الحكمة الرّابعة:

الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنّه كلام الله وحده، وأنّه لايمكن أن يكون كلامه ﷺ ولا كلام مخلوق سواه.

وبيان ذلك أنّ القرآن الكريم تقرأه من أوّله إلى آخره، فإذا هو مُحكم السّرد، دقيق السّبك، متين الأُسلوب، قويّ الاتّصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دمُ الإعجاز فيه كلّه من ألفه إلى يائه كأنّه سبيكةٌ واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكّكٌ ولا تخاذلٌ كأنّه حَلقةٌ مُفْرَغةٌ! أو كأنّه سِمْطٌ وحيد وعقد فريدٌ يأخذ بالأبصار، نُظِّمت حروفه وكلماته، ونُسِّقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوّله، وبدا أوّله مواتياً لآخره!!

وهنا نتساءل: كيف اتّسق للقرآن هذا التّآلف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التّناسق المدهش؟ على حين أنّه يتنزّل جملةً واحدةً، بل تنزّل آحاداً مفرّقةً تفرّق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاماً!!.

الجواب: أنّنا نلمح هنا سرّاً جديداً من أسرار الإعجاز، ويشهد سِمةً فذّةً من سِمات

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

الرّبوبيّة، ونقرأ دليلاً ساطعاً على مصدر القرآن، وأنّه كلام الواحد الدّيّان، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1].

وإلاّ فحدّثني ـ بربّك ـ كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعاً أن يأتوا بكتاب محكم الاتّصال والتّرابط، متعيّن النّسج والسّرد، متآلف البدايات والنّهايات، مع خضوعه في التّأليف لعوامل خارجةٍ عن مقدور البشر، وهي وقائع الزّمن وإحداثه الّتي يجيء كلّ جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعاً لها، ومتحدّثاً عنها، سبباً بعد سبب، وداعية إثرَ داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدّواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التّأليف، وتطاول آماد هذه النّجوم، إلى أكثر من عشرين عاماً.

لا ريب أنّ هذاالأنفصال الزّمانيّ، وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدّواعي، يستلزمان في مجرى العادة التّفكُّك والانحلال، ولا يدعان مجالاً للارتباط والاتّصال بين نجوم هذا الكلام.

أمّا القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه النّاحية أيضاً، نزل مفرّقاً منجّماً، ولكنّه تمَّ مترابطاً محكماً، وتفرّقت نجومه تفرّق الأسباب، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب. ولم يتكامل نزوله إلاّ بعد عشرين عاماً، ولكن تكامل انسجامه بدايةً وختاماً!!.

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنّه كلام خالق القوىٰ والقدر، ومالك الأسباب والمسبّبات، ومدبّر الخلق والكائنات، وقيّوم الأرض والسّماوات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزّمان وما يحدث فيه من شئون؟

لاحظ فوق ماأسلفنا أنّ رسول‌الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية أو آيات، قال: «ضعوها في مكان كذا من سورة كذا». وهو بشرٌ لا يدري طبعاً ما ستجيء به الأيّام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزّمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدّواعي والأحداث فضلاً عمّا سينزل من الله فيها. وهكذا يمضي العمر الطّويل والرّسول على هذا العهد، يأتيه الوحي بالقرآن نجماً بعد نجم،.وإذا القرآن كلّه بعد هذا العمر الطّويل يكمل ويتمّ، وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنىٰ تخاذل ولاتفاوت، بل يُعجزُ الخلق طرّاً بما فيه من

---

١ ـ النّساء / ٨٢.

انسجام ووحدةٍ وترابطٍ، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [١].

وإنّه ليستبين لك سرّ هذا الإعجاز، إذا ما علمت أنّ محاولة مثل هذا الاتّساق والانسجام لن يمكن أن يأتي على هذا النّمط الّذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النّمط، لا في كلام الرّسول ﷺ ولا كلام غيره من البلغاء وغير البلغاء.

خذ مثلاً حديث النّبيّ ﷺ، وهو ما هو في روعته وبلاغته، وطهره وسموّه، لقد قاله الرّسول ﷺ في مناسبات مختلفة لدواع متباينة، في أزمان متطاولة. فهل في مُكنتك ومُكنة البشر معك أن ينظّموا من هذا السّرد الشّتيت وحده كتاباً واحداً يصقله الاسترسال والوحدة، من غير أن ينقصوا منه أو يتزيّدوا عليه أو يتصرّفوا فيه؟

ذلك ما لن يكون، ولا يمكن أن يكون، ومن حاول ذلك فإنّما يحاول العبث، ويخرج للنّاس بثوب مرقّع، وكلام ملفّق ينقصه التّرابط والانسجام، وتُعوِزُه الوحدة والاسترسال، وتمجُّه الأسماع والأفهام.

إذن فالقرآن الكريم ينطق نزوله منجّماً بأنّه كلام الله وحده. وتلك حكمة جليلة الشّأن، تدلّ الخلق على الحقّ في مصدر القرآن، ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [٢]. (١: ٣٣ - ٥٥)

---

١ ـ هود / ١.

٢ ـ الفرقان / ٦.

الفصل التّاسع والأربعون

نصّ عزّة دَرْوَزَة (١٣٠٥ ـ..) في «التّفسير الحديث»

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

احتوت الآيات تقريراً تذكيريّاً بإنزال القرآن في ليلة القدر، وتنبيهاً تنويهيّاً بهذه اللّيلة وعظم شأنها وخيرها وشمولها ببركة الله وسلامه، وتنزّل الملائكة والرّوح فيها بأوامره وتبليغاته. والآيات لم تذكر القرآن، غير أنّ جمهور المفسّرين على أنّ ضمير الغائب في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد إليه، وروح الآية تلهم ذلك، كما أنّ آيات سورة الدّخان: ١ـ٣ ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ تؤيّد ذلك.

تعليق على روايات نزول القرآن جملةً واحدةً

ولقد أورد المفسّرون في سياق هذه السّورة رواياتاً وأقوالاً تتضمّن فيما تتضمّنه أنّ القرآن نزل دفعةً واحدةً إلى سماء الدّنيا ثمّ أخذ ينزّل منجّماً، أي مفرّقاً، وأنّ ما عَنَته هذه السّورة هو هذا، حيث قصدت جميع القرآن. وقد رویٰ بعضهم عن الشّعبيّ أنّ الآية الأُولى تعني أنّ ابتدأنا بإنزاله في ليلة القدر، والنّفس تطمئنّ بقول الشّعبيّ هذا، وبأنّ هذه السّورة وآيات سورة الدّخان الّتي أوردناها آنفاً وآية سورة البقرة: ١٨٥ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ قد عنت بدء نزول القرآن، وبأنّ

سورة القدر قد احتوت تنويهاً بعظم حادث بدء نزول القرآن وجلالة قـدره، وبـخطورة اللّيلة الّتي شرّف الله قدرها، بحدوث هذا الحادث العظيم فيها. أمّا إنزال القرآن جـميعه دفعةً واحدةً إلى سماء الدّنيا فليس عليه دليل من القرآن أو من الحديث الصّـحيح. ولا يبدو له حكمة، كما لا يبدو أنّه منسجم مع طبيعة الأشياء؛ حيث احتوت معظم فـصول القرآن صور السّيرة النّبويّة المتنوّعة في مكّة أوّلاً ثمّ في المدينة وأحداثها أو نزلت فـي مناسباتها. (١: ٢٤١)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

احتوت الآيات حكاية قول آخر من أقوال الكفّار؛ حيث قالوا على سبيل التّحدّي: هلّا أُنزل القرآن على النّبيّ ﷺ دفعةً واحدةً، وقد ردّت عليهم ردًّا قويّاً فيه تثبيت وتوضيح وإنذار. فاللّه تعالى إنّما أنزل القرآن مرتّلاً قسماً بعد قسم، لتثبيت قلب النّبيّ ﷺ ودعوته، وجعل النّاس يحسنون استيعابه، وأنّ الكفّار لا يأتون بمثل أو حجّة يظنّون فيها تعجيزاً أو إشكالاً أو إحراجاً إلّا أنزل الله في صدده ما فيه الحقّ والتّفسير الأفضل والحجّة الدّامغة المفحمة، وإنّ الّذين يظلّون على كفرهم ومكابرتهم بعد ذلك سيحشرون إلى جهنّم على وجوههم، وسيعلمون حينئذٍ أنّهم الأضلّ سبيلًا والأسوأ مصيراً. والزّيادة الّتي ذكرناها في صدد تنزيل القرآن مقسّماً مستمدّة من آية الإسراء: ١٠٦ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِـتَقْرَأَهُ عَـلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

والآيات استمرار في السّياق الّذي احتوى منذ أوّل السّورة فصولاً مماثلة من حيث حكاية مواقف الكفّار وأقوالهم والرّدّ عليهم وإنذارهم.

تعليق على تحدّي الكفّار بإنزال القرآن جملةً واحدةً

وقد قال المفسّرون في سياق الآيات: إنّ الكفّار كانوا يتحدّون النّبيّ ﷺ بإنزال القرآن جملةً واحدةً، كما أُنزلت الكتب السّماويّة التّوراة والإنجيل والزّبور جملةً واحدةً. وعلّلوا نزول القرآن على النّبيّ ﷺ مفرّقاً بأنّه كان أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، فكان لابدّ له من التّلقين

والحفظ الّلذَين يقتضيان إنزال القرآن مفرّقاً، في حين كان الأنبياء الأوّلون يقرأون ويكتبون، فنزلت عليهم جملةً واحدةً ومكتوبة.

وقد يكون ما قاله المفسّرون عن سبب تحدّي الكفّار صحيحاً، وأن يكون هؤلاء سمعوا من الكتابيّين أنّ التّوراة والإنجيل والزّبور نزلت على موسى وعيسى وداود: جملةً واحدةً. غير أنّنا لا نستطيع موافقتهم على أخذهم ذلك كقضيّة مسلّم بها، وتعليلهم إيّاه بأُميّة النّبيّ ﷺ. فباستثناء الألواح الّتي ذكرت آية الأعراف: ١٤٥، إنّ الله أنزلها مكتوبة على موسى لم يرد في القرآن صراحة أنّ الله أنزل الكتب الأُخرى مكتوبةً ودفعةً واحدةً. والأسفار المنسوبة إلى موسى والعائدة إلى عهده وحياته تذكر إنّ الله إنّما أمر موسى بإحضار لوحين. وتفيد الأسفار أنّ معظم ما احتوته من تعليمات وتشريعات نزل مفرّقاً وفي فترات ومناسبات عديدة وفق سير الظّروف بالنّسبة لموسى ﵇ وبالنّسبة لبني إسرائيل. والزّبور الّذي هو على الأرجح سفر المزامير مقاطع متتالية فيها تسبيح وتقديس وابتهال بلسان داود ﵇. ويتبادر منها أنّها لم توحَ إلى داود مرّةً واحدةً. وليس في اليد إنجيل منسوبٌ إلى عيسى ﵇، ولم يروِ أحد أنّه أطلع على مثل ذلك. والأناجيل المتداولة هي ترجمة لحياته، تضمّنت كثيراً من أقواله وتعاليمه الّتي عليها سمة الوحي. غير أنّها كانت تمثّل وقائع ومجالس مختلفة، فلا يمكن أن تكون نزلت دفعةً واحدةً. وكلّ هذا هو شأن القرآن بطبيعة الحال.

هذا، ومع أنّ تعبير «القرآن» أصبح علماً على جميع ما أوحى الله تعالى للنّبيّ ﷺ من الفصول والمجموعات القرآنيّة المحكمة والمتشابهة، فإنّ هذه الآية وأمثالها ممّا تكرّر في القرآن، ومن ذلك الآية السّابقة: ٣١، تؤيّد ما قلناه في سياق تفسير سورة المزّمّل من أنّ أصل مفهوم القرآن هو السّور والفصول المحكمة الّتي احتوت مبادىء الدّعوة وتدعيماتها الرّئيسيّة، كما تؤيّد أنّ هذا هو الّذي فهمه العرب، وأنّ ماجاء في سياق التّدعيم والتّأييد من قصص وأمثال وحجج وجدل وردود وحملات وحكاية أقوال الكفّار وتحدّياتهم ومشاهد الآخرة ممّا يصحّ أن يسمّى من المتشابهات، لم يكن في الأصل ممّا عناه التّعبير وفهمه العرب، وأنّ شمول التّعبير لكلّ ما احتواه المصحف من ذلك أيضاً إنّما كان بسبب.

أنّه من وحي الله وتنزيله مثل ذلك الأصل، وهو ما عَنَته آية آل عمران ٧: ﴿هُوَ الَّذِى اَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ اٰيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ اُمُّ الْكِتَابِ وَاُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾. (٢: ٢٦١ ٢٦٢)

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥

وقد قالوا ورووا في صدد جملة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْاٰنُ﴾: إنّ القرآن أُنزل جملةً واحدةً في شهر رمضان أو في أواخره إلى سماء الدّنيا، ثمّ أخذ ينزل منجّماً على النّبيّ، وأنّ هذا ما عناه التّعبير. وهذا القول لا يبعث الطّمأنينة، كما أنّه غير مؤيّد بسند وثيق ولا يفهم له آية حكمة.

وقد قيل في سياق سورة القدر وفي سياق الآيات الأُولى من سورة الدّخان. وعلّقنا على ذلك بما فيه الكفاية في تفسير السّورتين. والمجمع عليه تقريباً المؤيّد بحديث رواه البخاريّ عن عائشة، وأوردناه في سياق تفسير سورة العلق، إنّ الآيات الخمس الأُولى من هذه السّورة هي أوّل مانزل على النّبيّ ﷺ في ليلة القدر إحدى ليالي أواخر رمضان، على ما شرحناه في تفسير سورة القدر. والّذي يتبادر لنا أنّ الآية الّتي نحن في صددها قد قصدت ذلك؛ للتّنويه ببركة شهر رمضان وفضله، لأنّه كان فيه أعظم الأحداث الإسلاميّة وأكثرها بركةً وخيراً، وهو إعلان النّبيّ نبّوته واتّصال الوحي الرّبانيّ به، وتلقّيه عنه أولى آيات القرآن الّذي فيه الهدى والبّينات، والفرقان الّذي يفرق بين الحقّ والباطل.

والمتبادر أنّ فرض صيام هذا الشّهر المبارك على المسلمين متّصل من ناحية ما بذلك الحادث العظيم؛ حيث اقتضت حكمة التّنزيل فرض صيامه عليهم، ليكون لهم شهر عبادة خالصة للّه تعالى، يؤدّونها في مشارق الأرض ومغاربها سنويّاً إلى ما شاء الله لهذه الدّنيا أن يدوم فيها معنى الشّكر وواجبه على رحمة الله ونعمته، وفيها معنى التّذكير المتجدّد بهذه الرّحمة والنّعمة.

ونستطرد إلى القول في صدد شهر رمضان فنقول: إنّنا ذكرنا في سياق تفسير سورة القدر أنّ النّبيّ ﷺ كان يعتكف اعتكافاته الرّوحية في غار حِراء في شهر رمضان قبل نزول الوحي عليه، وأنّ التّحنّث ـ أي التّعبد والاعتكاف في شهر رمضان ـ كان ممارساً من قبل

بعض الورعين المتّقين في مكّة [١]. فيسوغ القول والحالة هذه أنّه كان لشهر رمضان خصوصية وإن لم يعرف كنهها بجزم فاقتضت الحكمة الرّبّانيّة اختصاصه بنزول القرآن، والوحي على النّبيّ ﷺ لأوّل مرّة، ثمّ بفرض صيامه على المسلمين. (٧: ٢٨٤ ـ ٢٨٥)

ونصّه أيضاً، في كتابه: [تاريخ] القرآن المجيد

روايات نزول القرآن جملةً واحدةً وأثرها

فأوّلاً: من ذلك الآثار المرويّة بأنّ القرآن قد نزل جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا، ثمّ صار ينزل على النّبيّ خلال مدّة حياته بعد بعثته. فالّذي يبدو لنا أنّه كان لهذه الآثار أثر قليل أو كثير في بعض الثّغرات الّتي ذكرناها أو بالأحرى في أكثرها، بحيث صارت عاملاً بين حين وآخر، وبقصد وغير قصد في أغفال صلة الفصول القرآنيّة بالسّيرة والبيئة النّبويّة، ومفهوم الأساليب الخطابيّة العربيّة ومدارك سامعي القرآن ومألوفاتهم ومتداولاتهم، وعاملاً كذلك في إسباغ معانٍ خاصّة أو مستقلّة على الألفاظ والأساليب القرآنيّة، واستخراج معان خاصّة منها تباعد بينها وبين نزول القرآن وجوّ البيئة النّبويّة الّتي تتّصل بالقرآن ونزوله وأساليبه وألفاظه اتّصالاً مباشراً ووثيقاً على ما شرحناه في مناسبة سابقة.

ومع أنّ من العلماء من توقّف في التّسليم بمدىٰ هذه الآثار ورأىٰ فيها تعارضاً مع ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ وجدل، وقال: أنّ القرآن كان ينزل على قلب النّبيّ من عند الله منجّماً حسب الحوادث، فإنّ كثيراً منهم أخذوا بها، كما يبدو من التّدقيق في مختلف الكتب والتّفاسير القديمة الّتي كانت عماد كتب التّفسير التّالية قليلاً أو كثيراً، ومنهم من جمع بين الأخذ بها وبين القول بنزول القرآن حسب الحوادث معاً. وجلّ هذه الآثار ـ إن لم يكن كلّها ـ منسوب إلى ابن عبّاس مع اختلاف في النّصوص والطّرق. [ثمّ ذكر روايات

---

١ ـ تاريخ الطَّبَريّ / ٢: ٤٨.

عن ابن عبّاس نقلاً عن الحاكم الطَّبَرانيّ وابن أبي شَيْبة كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:].

وقد سبقت هذه الرّوايات في سياق هذه الآيات:

١ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١].

٢ـ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[٢].

٣ـ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣].

ووردت متقاربة المدىٰ مع بعض التّباين في الصّيغة في التّفسير المنسوب إلى ابن عبّاس، وفي تفاسير عديدة مثل الطَّبَريّ والكشّاف والخازن وأبي السّعود والبَـيْضَاويّ، جرياً على العادة من اتّخاذ المفسّرين الرّوايات الواردة في أغلب الأحيان عماداً للتّفسير مهما كان أمرها ورواتها على ما شرحناه في مناسبة سابقة.

ولم يقتصر الأمر على الرّوايات المعزُوَّة إلى ابن عبّاس، فإنّ بـعض العـلماء رووا روايات وقالوا أقوالاً أُخرى في الموضوع، فقال أبو شامَة ـ وهو مـن عُـلماء القـرآن ـ باحتمال أن يكون القرآن قد أُنزل إلى السّماء قبل نبوّة النّبيّ. ورُوي عن عِكرِمة أنّه قال: إنّ آية ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾[٤] يعني نزول القرآن منجّماً من السّماء الأُولى.

وعلّق بعض العلماء والمفّسرين على مـا تـضمّنته الرّوايـات تـعليقات تـطبيقيّة وتوفيقيّة على اعتبار أنّها قضيّة مسلّمة، فقال أبو شامَة: أنّ السّرّ في إنـزاله إلى السّـماء تفخيم أمره.. [إلى آخر ما تقدّم عنه ثمّ قال:]

وجاء في تفسير الخازن في سياق سورة القدر وبعد إيراد الرّوايات المذكورة سابقاً: قيل: إنّما أنزله إلى السّماء الدّنيا لشرف الملائكة بذلك، ولأنّها كـالمشترك بـيننا وبـين الملائكة، فهي لهم سكن ولنا سقف وزينة.

جاءت في سياق مشهد من مشاهد الآخرة، وفيه إنذار وتنديد بالكفّار، وحكي فيه

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الدّخان / ٣.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ الواقعة / ٧٥.

موقف من مواقف الجدل بينهم وبين النّبيّ، ولا صلة قطّ بينه وبين المعنى أو المشهد الّذي أورده النّيسابوريّ. وفي هذا مثل آخر لأخذ المفسّرين الآيات آية أو جملة من آية وعدم ملاحظتهم السّياق الّذي جاءت فيه... ومنهم من ناقش ما إذا كانت جملة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [1] من جملة القرآن الّذي نزل جملةً واحدةً أم لا؛ لأنّها تتضمّن إخباراً؛ وتوهّم التّعارض، ثمّ خرجوها بأنّ معنى ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ في الجملة قضيناه وقدّرناه [2].

كلّ هذا في حين أنّ هذه الأقوال ـ وخاصّة المعزُوَّة إلى ابن عبّاس وهي الأصل فيها ـ ليست مرفوعة إلى النّبيّ، وهي إخبار عن غيب متّصل بعلم الله وسرّ ملكوته ووجوده لا يمكن العلم بها إلّا عن طريق النّبيّ، وهو ما لم يثبت فيما اطّلعنا عليه، ونستبعد صدورها عن ابن عبّاس؛ لما فيها من تخمين في أمر لا يصحّ أن يلقى الكلام فيه جزافاً ومن غير سند نبويّ ثابت أو صراحة قرآنيّة.

وفي الرّوايات الوثيقة الواردة: أنّ الوحي نزل لأوّل مرّة على النّبيّ بأوّل آيات القرآن في ليلة من ليالي رمضان، وهو معتكف في غار حِراء على عادته من الاعتكاف في هذا الشّهر، وما احتوته آيات البقرة والدّخان والقدر هو فيما نعتقد إشارة إلى هذا الحادث، وقد جاءت كلمة القرآن في أوائل سورة المزّمّل الّتي هي من أوائل القرآن نزولاً، ثمّ ظلّت تكرّر في السّور المكّيّة والمدنيّة، وكانت تعني بطبيعة الحال الجزء الّذي تمّ نزوله على قلب النّبيّ. وفي هذا دليل على أنّ تعبير ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في آيتي الدّخان والقدر وجملة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ في آية البقرة لاتقتضي أن تكون قصدت جميع القرآن ممّا يمكن أن يكون محلّ إشكاله، أُريد تخريجه على الوجه الّذي خرج به.

ولقد أورد السّيوطيّ في إتقانه حديثاً نبويّاً برواية واثِلَة ابن الأسقع.. [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

وسيق هذا الحديث في معرض تلك الآيات والرّوايات والأقوال، ومهما يكن من أمره فليس من شأنه على فرض صحّته أن يؤيّد تلك الأقوال والرّوايات، لأنّه ليس في

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الأقوال الّتي أوردناها قد ورد جلّها في الإتقان للسّيوطيّ.

صراحتها، وليس من المستبعد أن يكون أُريد به الإشارة إلى أوّل نزول الكتب السّماويّة بما فيها القرآن ما هو الواقع المرويّ في الأحاديث الصّحيحة بالنّسبة إلى القرآن.

ومن الظّريف أنّ بعض المعلّقين استنبط على ما ذكره السّيوطيّ من عدم الرّدّ على الكفّار فيما تحدّوه من إنزال القرآن جملةً واحدةً صحّة ما قيل من أنّ الكتب السّماويّة نزلت جملةً واحدةً، وقال إنّها لو لم تكن نزلت جملةً واحدةً لكان القرآن ردّ على المتحدّين.

وإذا كان بعض العلماء توقّف في ما إذا كانت جملة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ هي من جملة القرآن الّذي نزل جملةً واحدةً أم لا، لأنّها تتضمّن أخباراً وتوهم التّعارض، فكم بالأحرى الآيات الكثيرة المماثلة ثمّ الفصول الكثيرة جدّاً الواردة في مختلف السّور والّتي تحكي حِجاج الكفّار وجدلهم في القرآن وتحدّيه، أو تحكي مواقف الكفّار من الدّعوة النّبويّة ومن إنذارات القرآن وتبشيراته باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه، وهزؤهم بالنّبي وتحدّيه بإحداث المعجزات وإنزال الملائكة الخ، ثمّ الّتي تحكي وقع السّيرة الجهاديّة والتّشريعيّة، ثمّ الّتي تندّد بالكفّار وتصوّر عنادهم وتحتّم لهم الخلود بالنّار، وتلك الّتي تذكر إسلام كثير منهم، وتوبة الله عليهم وانتقالهم من صفّ الكفّار إلى صفّ المسلمين ومن مصير الخلود في النّار إلى الخلود في الجنّة وأمثال ذلك ممّا كان يقع نتيجة لسير الدّعوة وظروفها الطّارئة، وممّا يغلب عليه طابع الوسائل التّدعيميّة لأهداف القرآن وأُسُسه ودعوته. ولا ندري كيف سوّغ القائلون لأنفسهم بعد هذا أن يقولوا: إنّ القرآن ـ وهو يعنون جميع ما بين الدّفّتين من أسس ووسائل ـ قد نزل جملة واحدة يوم بعثة النّبيّ أو قبله.

وعلى كلّ حال فإنّ ما ساقه القائلون في حكمة إنزال القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء عند بدء النّبوّة أو قبلها، وكذلك ما علّقوابه من تعليقات هي الأُخرى أقوال تخمينيّة، وفيها من التّكلّف والتّزيّد بل والتّهافت ما يستطيع أن يلمسه المدقّق الّذي ينعم النّظر، وأنّ القول في أصله يظلّ غير مفهوم الحكمة، وغير متّسق مع طبائع الأُمور وحقائق الأشياء، ولقد غاب عنهم فيما يتراءىٰ لنا أنّ القرآن بصفته وحي الله قد تحقّقت فيه جميع

معاني التّعظيم والتّفخيم والتّكريم، وإنّه ليس في حاجة إلى المزيد بمثل هذه المظاهر، كما غاب عنهم، أنّهم يقرّرون ماهيات مادّية عن السّماء الأُولى وبيت العزّة والحفظة والسّفرة والتّوزيع على جبريل وتلقّي جبريل عنهم، ويصفون مشاهد أبصاريّة لا يصحّ إلقاء الكلام فيها جزافاً، وليس عندهم أيّ دليل نقليّ ثابت وصحيح صادر عن النّبيّ الّذي هو وحده صاحب الحقّ في الأخبار عن الغيبيّات.

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الأقوال تدلّ على أنّ كثيراً من النّاظرين في القرآن وعلمائه ومفسّريه اعتبروا، أو يقع الوهم بأنّهم اعتبروا القرآن ـ ومن جملته الفصول الوسائليّة والتّدعيميّة والوقائع الجهاديّة والأسئلة والأجوبة ومواقف التّحدّي والجدل والحِجاج المتقابلة ـ مستقلّاً في أصله عن الأحداث الّتي نزل بمناسباتها، وكون هذه الأحداث ليست إلاّ ظروفاً عابرة لنزوله حتّى مع قولهم: إنّ القرآن قد نزل منجّماً حسب الحوادث ـ لأنّ هذا يبدو غريباً إزاء القول: إنّ القرآن نزل في بدء نبوّة النّبيّ أو قبلها جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا ـ فقالوا ما قالوه وولعوا بما ولعوا به من أسرار القرآن، واستقراء حروفه ورموزه ومغيّباته، واستغرقوا في ماهيّات ما جاء فيه من مشاهد كونيّة وقصص تاريخيّة، وحاولوا أن يستخرجوا حقائق ما كان ويكون من الوقائع والعلوم ونظرياتها، وفي هذا ما فيه من التّكلّف والتّجاوز والتّشويش وتعريض القرآن للمغامز والمطاعن، في حين أنّه لا طائل من ورائه ولا ضرورة له ولا إسناد وثيقة تدعمه.

روايات نزول القرآن بالمعنى وأثرها

ثانيًا: ومن ذلك ما قاله بعض العلماء من نزول القرآن على قلب النّبيّ بالمعنى لا باللّفظ. فقد ذكر صاحب الإتقان هذا الموضوع في فصل كيفيّة نزول القرآن على قلب النّبيّ بالمعنى لا باللّفظ، وقال: إنّ هناك أربعة أقوال... [وذكر كما تقدّم عنه، ولكنّه أضاف قولاً رابعاً، لم يذكره السّيوطيّ وهو:]

إنّ الوحي نزل باللّفظ حيناً وبالمعنى حيناً، فما نزل باللّفظ فهو القرآن، وما نزل بالمعنى فهو السّنّة، أي أنّ الأحاديث النّبويّة هي أيضاً وحي ربّانيّ، ولكنّها نزلت بالمعنى.

وعلّل أصحاب هذا القول إنّه كان يقصد التّخيف عن الأُمّة، ولذلك جازت رواية الأحاديث النّبويّة بالمعنى.

ويلاحظ أنّ هذه الأقوال تخمينيّة، ولم يورد قائلوها أسناداً موثّقة لها، في حين أنّ الموضوع متّصل بسرّ وحي الله وسرّ النّبوّة كذلك، فهو أمر غيبيّ إيمانيّ لا يصحّ قول شيء فيه إلّا بنصٍّ صريح من قرآنٍ أو حديث ثابت عن النّبيّ ﷺ، وما دام أنّه لم يرد شيء من ذلك، وأنّ النّبيّ قد بلّغ القرآن الموحى به إليه بألفاظه العربيّة الّتي دوّنت وحفظت عنه بالتّواتر اليقينيّ، فليس من محلّ للقول: إنّ القرآن أوحي إليه بالمعنى، كما أنّه ليس من ورائه طائل، وأنّ الحقّ في هذا هو ما يتّسق مع الواقع وحسب، وهو أنّ ما بلّغه النّبيّ من ألفاظ القرآن هو مانزل الوحي به على قلبه، وأنّه لايصّحّ أن يعدل عن هذا إلى غيره بالظّن والتّخمين.

على أنّ النّصوص القرآنيّة هي في جانب ما نقول أيضاً أكثر منها في الجانب الآخر أو في جانب السّكوت. فآيات يوسف / ٢، والزّخرف / ٣، والزّمر / ٢٨، وفصّلت / ٣ و ٤٤، الّتي تذكر تنزيل القرآن عربيًّا وجعله عربيّاً ـ وقد نقلناها في مناسبات سابقة ـ تحتوي قرائن بل دلائل قويّة على قصد تقرير كون الألفاظ العربيّة الّتي بلّغها النّبيّ هي ما نزل الوحي به على قلبه.

ومن الغريب أنّ القائلين بنزول القرآن بالمعنى استندوا إلى آيتي الشّعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤ اللّتين نقلناهما وغفلوا عن ما بعدها ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ١٩٥، كما هي العادة من أخذ آية دون آية ودون سياق؛ للتّدليل بهما على رأي مّا، في حين أنّ بعدهما ـ أي الآية: ١٩٥ ـ تحتوي ما ينقض ذلك بصراحة، ومن الغريب أكثر أن لا يحتجّ القائلون بنزول القرآن بألفاظه بهذا النّص القرآنيّ الصّريح القاطع.

وممّا يجدر التّنبيه عليه في هذه المناسبة أنّ القول بأنّ الأحاديث النّبويّة ممّا كان ينزل به الوحي بالمعنى على إطلاقه لا يتّسق مع الواقع والنّصوص القرآنيّة. فقد احتوت آيات عديدة عتاباً للنّبيّ على بعض الحوادث والوقائع والمواقف والأقوال الّتي صدرت منه، بل وعلى بعض الأفكار والخطرات الّتي دارت في ذهنه في العهد المكّيّ والعهد

المدنيّ على السّواء، ممّا تشير إليه آيات سورة عبس / ١ ـ ١٠، والإسراء / ٧٣ ـ ٧٥، وهود / ١٢، والأنفال / ٦٧ ـ ٦٨، والتّوبة / ٤٣ و ١١٣ ـ ١١٧، والأحزاب / ٣٧، والتّحريم / ١ ـ ٢، والنّساء / ١٠٥ ـ ١١٣، فلو كان كلّ ما قاله النّبيّ وفعله وفكّر فيه وحياً على إطلاق القول لما كان محلّ لمعاتبته. ولقد أثر عن النّبيّ حوادث وأخبار وأحاديث كثيرة ووثيقة في تقرير كونه بشراً قد يخطىء ويصيب في اجتهاداته في أُمور الدّنيا وسياستها، وفي ما يبدو له من ظواهر الأُمور الّتي لا يكون مطّلعاً على بواطنها وملابساتها، وأنّه لا يحلف على شيء فيرى ما هو خير إلّا كفّر عن يمينه[1] وأتى الّذي هو خير الخ.

ولقد استند القائلون بالوحي العامّ الشّامل إلى آيتي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ﴾[2]، مع أنّ روح الآيات وسياقها هما في صدد توكيد صحّة ما أخبر به النّبيّ عن اتّصال وحي الله به بصورة عامّة كما هو المتبادر منها، وهو ما تكرّرت في صدده الآيات واستهدفته، وإنّ من التّجوّز تشميل مداها لكلّ قول صدر عن النّبيّ، لتعارض ذلك مع الوقائع والنّصوص.

ونريد أن ننبّه على نقطة هامّة، فنحن لا نعني بما نقرّره أن لا يكون النّبيّ في كثير ممّا قاله وفَعَله وأمر به ونهىٰ عنه، وخاصّة ممّا لم ينزل فيه قرآن ناقض أو معدِّل أو معاتب ملهماً به من الله ، ففي القرآن دلائل عديدة، على أنّ كثيراً ممّا وقع من النّبيّ قبل نزول القرآن به قد وقع بإلهام ربّانيّ، وأنّ القرآن الّذي نزل بذلك جاء مؤيّداً له فيه، كما أنّ جميع ما ثبت عن النّبيّ من سنن قوليّة وفعليّة، وأوامر ونواهٍ مات عنها دون أن ينقضها هو أو القرآن هو تشريع واجب الاتّباع بنصّ القرآن، وإنّما الّذي نعنيه التّعليق على القول بأنّ جميع ما صدر عنه من قول وفعل إطلاقاً، وبأنّ جميع السّنن النّبويّة القوليّة والفعليّة وحي من جنس الوحي القرآنيّ مع فارق واحد وهو أنّ هذا باللّفظ وذاك بالمعنى، ممّا لم يرد ما يؤيّده من حديث نبويّ ثابت أو نصّ قرآنيّ صريح، وممّا لا يجوز الكلام فيه بالظّنّ

---

١ ـ هذا لايصحّ على مذهبنا وعند المعتزلة أيضا.

٢ ـ النّجم / ٢ ـ ٤.

والتّخمين والاجتهاد. وفي القرآن مشاهد كثيرة تدلّ على أنّ النّبيّ كان يجتهد في أمر، فينزل القرآن مؤيّداً له ومثبتاً فيه ومندداً بالّذين وقفوا منه موقف المخالفة أو التّردّد أو التّمرّد، فلو كان ذلك وحياً من جنس الوحي القرآنيّ مع ذلك الفارق لكان يقتضي أن ينصّ عليه حين صدوره عن النّبيّ، أو حين تثبيت النّبيّ فيه قرآنيّاً بعد صدوره أنّه كان وحياً ربّانيّاً، وهذا لم يقع.

ولقد استهدف بعض الّذين قالوا ذلك تقرير العصمة النّبويّة. وننبّه على أنّ ما نقرّره لا يمسّ هذه العصمة، عدا أنّه قائم على براهين حكمة قرآنيّة وواقعيّة. فالعصمة النّبويّة تتناول ما يبلّغه النّبيّ عن الله، وآيتا النّجم مصوّبتان على هذا المعنى، والمبلّغ عن الله بصراحة هو القرآن فقط. ثمّ تتناول امتناع النّبيّ عن اقتراف إثم أو جريمة أو فاحشة أو مخالفة للقرآن قولاً وفعلاً، ولا تتناول فيما تعتقد الأقوال والأفعال والمواقف الاجتهاديّة والعادية الّتي لم تؤيّد بقرآن وليس فيها نيّة الإثم والضّرر والشّرّ والمخالفة، والّتي قد يكون فيها الخطأ والصّواب وخلاف الأولى الّذي في علم الله والّذي لا ينكشف للنّبيّ إلّا بوحي. وفي القرآن مشاهد عديدة تدلّ على أنّ النّبيّ كان يجتهد في أمر، فيصدر عنه قولاً أو فعلاً فينزل القرآن معاتباً حيناً، ومنبّهاً أو مذكّراً حيناً بما هو الأولى، كمشاهد أسرىٰ بدر، وتحريم النّبيّ على نفسه زوجاته، واستغفاره لأقاربه من المشركين، وإذنه للمعتذرين عن الانضمام لحملة تبوك، وزواجه بمطلّقة متبنّيه، وحادث الأعمى، وخطرات نفسه في التّساهل مع المشركين، ممّا احتوت الإشارات إليه سورة الأنفال والتّحريم والتّوبة والأحزاب وعَبَسَ والإسراء، ممّا لا يمكن أن يحتمل القول معه أنّ ذلك كان إلهاماً ربّانيّاً في معنى الوحي البتّة. ونحن من المؤمنين بالعصمة النّبويّة، ولكن لا على ذلك المعنى الّذي يجعل النّبيّ يمتنع عليه أن يصدر منه أيّ اجتهاد في خلاف الأولى المغيّب عنه علمه، أو أي خطأ مرئيّ، ممّا لايمكن أن ينتفي عن الطّبيعة البشريّة النّبويّة المقرّرة في القرآن، وممّا تنعدم به حكمة الثّناء العظيم الّذي أثناه الله في القرآن على أخلاقه، وحكمة اختصاصه من دون النّاس بالرّسالة، ولكن على المعنى الّذي يتحقّق في الكمال النّبويّ خلقاً وروحاً وعقلاً والّذي لم يصل النّبيّ إلى درجة الاصطفاء الرّبانيّ إلّا بعد أن وصل إليه

فصار من سموّ الأخلاق وصفاء الرّوح وعظم القلب ورجاحة العقل إلى ما يرتفع به عن كلّ ما يشين، ثمّ على معنى عصمته من أيّ خطأ في تبليغ ما أوحي إليه والتزامه له بكلّ دقّة وأمانة وصدق واستغراق.

ومهما يكن من أمر، ومع أنّ كثيراً من العلماء على رأي أنّ القرآن نزل بألفاظ عربيّة، وأنّ ما بلّغه النّبيّ من ألفاظه هو ما ألقي إليه من الوحي، فالّذي يتبادر لنا أنّ لتلك الأقوال أثراً في الرّوايات الكثيرة عن خلافيّات القراءة، وخاصّة الخلافيّات اللّفظيّة والنّظميّة من بدل كلمة بكلمة ومن تقديم وتأخير، ممّا أوردنا أمثلة عديدة عنه في مناسبة سابقة، أو أنّ الّذين تداولوا أو دوّنوا هذه الخلافيّات دون تمحيص ونقد قد تأثّروا بهذه الأقوال، أو أنّ الّذين اخترعوا ودسّوا هذه الخلافيّات أو بعضها بقصد التّشكيك قد استغلّوا وروّجوا هذا الأقوال، أو أنّ كلّ هذا قد وقع معاً، كما أنّه ممّا يتبادر لنا أن تكون هذه الأقوال قد أثّرت أو تأثّرت بأحاديث الأحرف السّبعة وتأويلاتها العجيبة الّتي ذكرنابعضها سابقاً، وخاصّة ما ورد في بعض وجوهها من أنّها بقصد تقرير أنّ القرآن فد نزل بمعانٍ متّسق مفهومها، مختلف مسموعها، حيث يجوز التّغاير إذا لم تبدّل كلمة «عذاب» بكلمة «رحمة».

ولعلّ ما عُزي إلى أبي حنيفة من تجويزه الصّلاة بقراءة القرآن بالتّرجمة الفارسيّة، وتقريره أنّ المهم في القرآن هو المعنى متّصل بهذه الأقوال.

وقد ذكر الزَّمَخشريّ: أنّ أبا حنيفة استند إلى ما روي عن ابن مسعود من إجازته لقارىء بقراءة «طَعَامُ الفَاجِرِ» بدلاً من «طعام الأثيمِ[1]»، على شرط أن تؤدّي التّرجمة المعاني على كمالها. وعلّق الزَّمَخشريّ على هذا بقوله: إنّ هذا الشّرط بمثابة المنع، لأنّ في كلام العرب ـ وخصوصاً القرآن الّذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والأعراض مالا يستقلّ بأدائه لسان من فارسيّة وغيرها، ولم يكن أبو حنيفة يحسن الفارسيّة، فلم يكن ذلك التّقرير منه عن تحقيق وتبصّر، ثمّ قال: إنّ صاحبَي أبي حنيفة أنكرا جواز الصّلاة بالقراءة الفارسيّة، وأنّ عليَّ بن الجَعْد روى عن أبي يوسف: أنّ أبا حنيفة هو على رأي صاحبيه في الإنكار.

---

١ ـ الدّخان / ٤٤.

ونُنبّه على أنّنا لسنا هنا في معرض منع ترجمة القرآن أو عدم جوازه، بل إنّنا نرى هذا مفيداً جدّاً وواجباً لازماً في سبيل نشر الدّعوة الإسلاميّة القرآنيّة العظمى، كما أنّ عموم الرّسالة النّبويّة وعموم الخطاب القرآنيّ لجميع النّاس من الدّلائل على هذا الوجوب، على أن يقوم بها الأكفاء في فهم القرآن ولغته ولغة ترجمته، وعلى أن يكون القصد منها النّشر والدّعوة والتّبشير لا الصّلاة بها، حيث نعتقد بصواب رأي أبي يوسف والحسن صاحبَي أبا حنيفةَ في إنكار الصّلاة بها، وعدم جوازها إلّا بالألفاظ القرآنيّة العربيّة الّتي نزل القرآن بها؛ لأنّ القرآن قد وصف فيه بأنّه قرآن عربيّ ولا يمكن أن يعتبر قرآناً تصحّ به صلاة إلّا بهذا الوصف. (ص: ٢٨١ - ٢٩٤)

الفصل الخمسون

نصّ الشّعرانيّ (م: ١٣٩٣) في «نثر طوبى»

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان /٦٢

هذا اعتراض من الكفّار على النّبيّ ﷺ فردّه الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. هو إشارة إلى نهج التّعليم، فكما هو معروف أنّ من أراد أن يتعلّم علماً يأخذه تدريجاً؛ لكي يبقى في ذاكرته، ولكن إذا أخذه دفعةً واحدةً، وفي مدّة قصيرة، فلا يَسبِر غوره، ولا يدرك سرّه، ولا يثبت في فكره. وكان طالب العلم قديماً يكرّر ما تعلّمه عدّة مرّات ويتأنّى فيه، ليحيط به تماماً. فالعلم الّذي يتطلّب تحصيله عشر سنوات بدقّة وإحاطة لا يمكن لمن يطلبه أن يكون مدركاً له ومجتهداً فيه.

وأرد الله من النّبيّ ﷺ أن يعلّم النّاس القرآن تدريجاً، وأن يكرّر ما يلقي إليهم عدّة مرّات حتّى يرسخ في أذهانهم، فهو تعليم وتمرين، وكان الخطاب للنّبيّ، والنّاس هم المعنون به، والله العالم. (١: ١٣٦)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦.

كان النّبيّ حينما ينزل عليه الوحي يردّد ما يوحى إليه بلسانه؛ لحرصه على حفظ ما سمعه من كلمات، فوعده الله بتحفيظه القرآن، وعدم نسيانه لشيء منه، وهذه معجزة من

معاجز القرآن؛ لأنّ النّبيّ ما كان يعدّ القرآن في خلوته وفراغه، ولم يحضره، وما كان تنزّل السّور والآيات تناسباً مع الأوقات والأحوال كغزوة بدر أو أُحد أو غيرهما من الأُمور الّتي تحدث، إذ كانت الآيات توحى إليه طبق تلك الأوقات، وإنّ كلّ كاتب ومؤلّف وشاعر لا يمكنه حفظ ما كتبه من الكلام إلّا بكتابته وتكراره. فكان النّبيّ لم يكتب ولم ينقل أحد من الصّحابه أو ممّن رآه بأنّه كان يحفظ القرآن طبق ما كتبه الآخرون، بل كان يقرأ السّور الطّوال بعد نزولها كسورة الأنعام والمائدة، وكان الكتبة يكتبونها، ثمّ يقرأ مرّةً أُخرى في الصّلاة كما قرأها أوّل مرّة.

أجل إنّ حال النّبيّ ﷺ والقرآن وحفظه تعدّ من أغرب المعجزات، كما قال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾[1] (١: ١٦٧)

ونصّه أيضاً في «هامش تفسير أبي الفتوح الرّازيّ»

﴿الَّذِى أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْاٰنُ﴾ البقرة / ١٨٥.

أنّ القرآن كلام الله، وهو يدلّ على معانٍ خاصّة، وأنّ من نزل عليه القرآن من بيت العزّة إلى سماء الدّنيا هو مخلوق عاقل يدرك ألفاظه ومعانيه، وإنّه لملك في سماء الدّنيا، وهذه السّماء قريبة من العالم المّاديّ المحسوس؛ لأنّ السّماوات كثيرة، وأنّ أقربها إلى عالمنا هذا هي سماء الدّنيا، وفيها ألقي القرآن إلى ذلك المُلك دفعةً واحدةً، ومنها أخذ يتنزّل على النّبيّ ﷺ نجماً نجماً، أي بصورة تدريجيّة حسب الحاجة.

ولكن ما هو السّرّ في نزوله أوّل الأمر في سماء الدّنيا؟ ولِمَ لَم ينزل من اللّوح المحفوظ على النّبيّ ﷺ مباشرةً؟ هذا ما لا نستطيع الخوض فيه، سوى الاحتمال أنّ قطع العالم الكائن بين العالم المادّيّ وعالم الملأ الأعلى لا يتأتّى إلّا لكلّ مخلوق من سكّان ذلك العالم. وهذا لا يعني بالضّرورة أن يكون مُلك سماء الدّنيا أفضل من خاتم

---

١ ـ الأعلىٰ / ٦.

الأنبياءﷺ؛ لأنّ الإنسان الكامل هو خليفة الله، وهو أفضل المخلوقات قاطبةً، وما الملائكة إلّا أياديه في الملكوت. (٢: ٦٣)

سورة البراءة

[قال مشيراً إلى قول المبرّد نقلاً عن سُفيان بن عُيَينة حول سبب عدم كتابة البَسْمَلة في أوّل سورة البراءة كما نقله أبو الفتوح:] وهذه نكتة لطيفة، لولا أنّ كثيراً من السّور الأُخرى تفتتح بالتّهديد والوعيد ولكنّها تزدان بالبَسملة، كسورة القارعة والحاقّة وسأل سائل.

ونرىٰ أنّ عدم ذكر البَسْمَلة في هذه السّورة هو تعبّد، ودليل على أنّ القرآن لم تمسّه يد التّحريف، وأنّ الكتّاب كانوا يمتثلون لأوامر الرّسول، ولم ينزعوا إلى القياس والاجتهاد، فلم تلحق البَسْمَلة بهذه السّورة بالرّغم من كونها مستقلّة عن سورة الأنفال.

وما يزعمه بعض بقوله: أنّ ترتيب سور القرآن وآياته المتفرّقة وتسمية سوره كان من فعل الصّحابة، لهو قول مجانب للصّواب؛ إذ أنّ النّبيّ هو الّذي رتّب السّور ووضع في أوائلها البَسْمَلة عدا هذه السّورة، كما وضع الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور ولم يضعها في بعض، ووضع أسماء لكلّ منها، كما قال الله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[1] و ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[2]، وكقولهﷺ: من قرأ سورة كذا، فله من الأجر كذا وكذا، ومثل ذلك كثير، ممّا يدلّ على أنّ السّور قد رتّبت ووضع لها أسماء في زمان النّبيّﷺ. (٥: ٤٤٧)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَيهُ...﴾ الفرقان / ٤.

إنّ هذا القول طبقاً لقرائن تدلّ على ذلك تعسّف في الحقّ ولا طائل تحته. فمن المحال مثلاً أن يطلب كاتب من خطيب أو شاعرٍ أن يعيدا ما تفوّها به من نثرٍ أو شعرٍ دون

١ ـ البقرة / ٢٣.

٢ ـ هود / ١٣.

زيادة أو نقصان طبق ما دوّنه عنهما؛ لأنّهما لا يستطيعان تكرار ما قالاه في المرّة الأُولى.

وقد قرأ النّبيّ ﷺ آيات كثيرة ومتّسقة بحسب ما يقتضيه المقام، كما في واقعتي بدر وأُحد، فدوّن كُتّاب الوحي ماتلاه. وكان يتلو عليهم أحياناً سوراً طوالاً كسورتي الأنعام والمائدة، فيدوّنها الكُتّاب، ثمّ يقرأها مرّةً أُخرى على ظهر قلب، كما كان يقرأ السّور الطّوال كالبقرة والأنعام في صلاة الآيات.

ولا يمكن القول أبداً بأنّ هذه السّورة قد أُعدّت وحُرّرت وحفظت قبل قراءتها بمدّة ؛ لأنّها تناسب المقام غالباً، وتطابق شأن نزولها. ولم يؤثر عن أحد الصّحابة أو عن كافرٍ أو منافقٍ أنّ النّبيّ عيّن وقتاً لحفظ القرآن واختلاقه، أو كان يستعين بالكتبة لحفظه. بل كان جبريل ينزّل عليه سورة كالأنعام، فتثبت في فؤاده كماء يثبت النّقش على الحجر، علاوة على سماع جميع ألفاظها. وحينما يريد تلاوتها يستذكرها من فؤاده كما لو كانت مرتسمة أمامه. وهذا الأمر لايتأتّى لغيره، فكان ﷺ يحفظ جميع القرآن دون أن يرجع إلى نصٍّ مكتوب. (٨: ٢٥٢)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان /٣٢.

عندما كانت الآيات تنزّل على الرّسول الأكرم فإنّها تبقى راسخة في خاطره، ثمّ يتلوها بعد الوحي على أصحابه لفظاً بلفظٍ، وتعدّ هذه معجزة من معاجزه ﷺ، علاوة على معجزة ثبوتها في ذهنه دائماً حتّى آخر عمره، وكان مؤيّد بالوحي طيلة نزوله عليه؛ لربط روحه بعالم الغيب.

وكان الكفّار يقولون تارةً: لِمَ لَمْ ينزل عليه القرآن دفعةً واحدةً؟ وقالوا تارةً أُخرى حينما تأخّر عنه الوحي: لقد تركه ربّه وقلاه، لقد انقطع عنه الوحي. فنزل عليه الوحي بقوله تعالى: ﴿وَمَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[1]. ولو أُنزل عليه القرآن دفعةً واحدةً لقالوا: لِمَ لَمْ ينزل عليه القرآن نجوماً؟ وما دام نزول الوحي مستمرّاً، وما دام القرآن كتاب الله فلا شكّ أنّهم يعترضون عليه أيضاً. (٨: ٢٧٠)

---

١ ـ الضّحىٰ / ٣.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ...﴾ القيامة / ١٦.

كان النّبيّ يسمع القرآن بلفظه حينما كان ينزل عليه الوحي، وكان يتلو ما يسمعه، وهذا دليل على أنّ القرآن نزل بلفظه ومعناه معاً. ويعتبر حفظه للآيات والسّور الطّوال معجزة عظيمة، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. (١١: ٣٢٩)

ونصّه أيضاً في «هامش شرح جامع الكافي الأصول والرّوضة»

قوله ﷺ: (كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطّين)

كونه نبيّاً في تلك الحالة بل وقبل ذلك لا ينافي نزول جبريل والوحي إليه تدريجاً وإظهاره ﷺ عدم العلم بأُمور قبل نزول الوحي عليه، فإنّ العلم البسيط الإجماليّ الثّابت للإنسان كالملكة مبدء للعلوم التّفصيليّة، ولا ينافي تقدّم الأوّل حدوث الثّاني. ويعلم العارف البصير أنّه لولا العلم البسيط الإجماليّ لم ينفع تلقين العلوم التّفصيليّة واحداً واحداً، فلو نزل جبريل بالوحي على بعض الأعراب البدويّ وقرأ عليه آيات القرآن لم يكن في استعداد هذا البدويّ أن يتلقّى إلّا ألفاظاً لا يعرف حقائقها ولا يقدر على شرحها وتفصيلها وبيانها للنّاس، والدّفاع عنها وترويجها بين الأنام ولم يكن قُرّاء القرآن في عصره ﷺ مع حفظهم جميع القرآن مساوين له، ولو لم يكن للنّبيّ ﷺ غير ما يتلقّى من ألفاظ الوحي كما توهّمه القاصرون لم يكن فرق بينه وبين أُبيّ بن كعب وعبدالله بن مسعود. لأنّ الواسطة الواحدة لا يؤثّر في العلم شيئاً.

وبالجملة، العلم الأوّل البسيط الكائن معه منذ أنّ خلقه الله شيء والعلم التّفصيليّ الثّاني النّازل عليه تدريجاً شيء آخر، ولا ينافي ذلك أيضاً كونه نبيّاً في عالم الأرواح قبل خلقه الجسمانيّ واستفادة أرواح الأنبياء من روحه، ونعم ما قال البُوصيريّ:

وكُلُّ آي أتَى الرُّسُلَ الكِرامُ بِها　　فإنَّما اتَّصَلَتْ مِن نُورِهِ بِهِمُ
فإنَّه شَمْسُ فَضْلٍ هُم كَواكِبُها　　يُظهِرن أنوارَها لِلنَّاس في الظُّلَمِ

(٧: ١٥٨)

الفصل الحادي والخمسون

نصّ مالك بن نبيّ (١٣٢٣ ـ ١٣٩٣) في كتابه: «الظّاهرة القرآنيّة»

الخصائص الظّاهريّة للوحي

الوحي من حيث كونه ظاهرة تمتدّ في حدود الزّمن يتميّز بخاصّتين ظاهريّتين هامّتين، وذلك بصرف النّظر عن طبيعته في ذاته، وعن حامله النّفسيّ خلال الذّات المحمّديّة، هاتان الخاصّتان هما:

أ ـ تنجيم الوحي.

ب ـ وحدته الكميّة.

التّنجيم

يضمّ الوحي في مجموعه ثلاثة وعشرين عاماً، فهو لا يكون ظاهرة مؤقّتة أو خاطفة. ولقد نزلت الآيات منجّمة بين كلّ وحي وما يليه مدّة انقطاع تتفاوت طولاً وقصراً.

ولقد ينقطع الوحي مدّة أطول ممّا ينتظره النّبيّ، وبخاصّة عندما يلزمه أن يتّخذ قراراً يعتقد أنّ من الواجب ألّا يصدره قبل تصديق السّماء عليه. وأوضح مثال على ذلك موقفه إزاء قرار الهجرة، فلقد غادر أصحابه مكّة فارّين بدينهم، بينما كان يعتقد أنّه لابدّ ـ فيما

يتعلّق بشخصه ـ أن ينتظر أمراً صريحاً من الوحي.

ومثال آخر عندما كان الأمر بالنّسبة له يحتّم اتّخاذ قرار في موقف محيّر مريب، بينما ينتظر ـ على أحرّ من الجّمر ـ وحي الله الحاسم. ولقد تعرّض النّبيّ ﷺ لمثل هذه الحيرة في حادثة الإفك، الّتي لم يفصل فيها الوحي إلّا بعد شهر من الانتظار على مضض. كان هذا يبدو ـ في الظّاهر ـ تورّطاً وحرجاً لم يلبث المستهزئون أن وجّهوا من أجـلهما نـقدهم الجارح إلى النّبيّ، وكان هو يتألّم لذلك أحياناً.

وعليه فمهما كان الافتراض الّذي يوضع عن طبيعة القرآن، فإنّ هناك سؤالاً كـبيراً يتردّد حول هذا الموضوع، ألم يكن من الممكن أن يتدفّق جملةً واحدةً مـن العـبقريّة الإنسانيّة الّتي ربّما يكون قد صدر عنها؟

ولكنّا برجوعنا خلال الزّمن نستطيع أن نحكم بأهميّة هذا التّنجيم الفذّ للوحي، أهميّة قصوى لنجاح الدّعوة.

إذ بماذا كنّا نفسّر من الوجهات التّاريخيّة والاجتماعيّة والأدبيّة قرآناً يهبط كأنّما هو برق خاطف في ظلمات الجاهليّة؟

وماذا يعني هذا بالنّسبة لتاريخ النّبيّ، لو أنّه كان قد تلقّى وحياً كلّيّاً فجائيّاً، لو أنّه تلقّاه كوثيقة، أي نوعاً من صحف التّفويض لدى بني الإنسان؟

أي أمل كان يمكن أن يلتمسه عنده قبيل بدر مثلاً، لو أنّه ـ بدلاً من أن يتوّقع إمداد الملائكة ـ ظلّ يكرّر آية سبق أن حفظها عن ظهر قلب؟

إنّنا ببحثنا مسألة تجزئة الوحي في ضوء هذه النّظرات نستطيع أن ندرك أوّلاً قيمته التّربويّة.

فتلك في الواقع هي الطّريقة التّربويّة الوحيدة الممكنة في حُقبة تتّسم بميلاد دين وبزوغ حضارة.

وسيهدي الوحي خلال ثلاثة وعشرين عاماً سير النّبيّ وأصحابه خطوة خطوة نحو هذا الهدف البعيد، وهو يحوطهم في كلّ لحظة بالعناية الإلهيّة المناسبة. فهو يعزّز جهودهم العظيمة، ويدفع أرواحهم وإرادتهم نحو هدف الملحمة الفريد في التّاريخ، فـيكرم بآيـة

صريحة قضاء شهيد أو استشهاد بطل.

كيف كان القرآن يؤدّي دوره حيال طبيعة الإنسان الّتي جاء يصوغها في ذلك العصر، لو أنّه سبق بنزوله أحداث حُنين وأُحد؟ وماذا كان يكون، لو أنّه لم يأت لكلّ ألم بعزائه العاجل، ولو أنّه لم ينزل لكلّ تضحية جزاءها، ولكلّ هزيمة أملها ولكلّ نصر درسه في الاحتشام، ولكلّ عقبة إشارة إلى ما تقتضيه من جهد، ولكلّ خطر أدبيّ أو مادّي روح التّشجيع اللّازم لمواجهته؟ وكلّما كان الإسلام ينتشر في رُبى الحجاز ونَجْد، كان الوحي يتنزّل بالدّرس الضّروريّ في المثابرة والصّبر، والإقدام والإخلاص، يلقّنه أُولئك الأبطال الأُسطوريّين، أبطال الملحمة الخارقة.

فهل كان لدرسه أن يجد طريقه إلى قلوبهم وضمائرهم لو لم يكن نزوله تبعاً لأمثلة الحياة نفسها، والواقع المحيط بهم؟

ولو أنّ القرآن كان قد نزل جملةً واحدةً لتحوّل سريعاً إلى كلمة مقدّسة خامدة، وإلى فكرة ميتة، وإلى مجرّد وثيقة دينيّة لا مصدراً يبعث الحياة في حضارة وليدة.

فالحركة التّاريخيّة والاجتماعيّة والرّوحيّة الّتي نهض بأعبائها الإسلام لا سرّ لها إلّا في هذا التّنجيم.

والقرآن يبرز هذه الخاصّة الخفيّة وهو يخاطب النّبيّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[1].

فنزول القرآن على نجوم، وقد كان في اعتبار الجاهليّين نقصاً شاذّاً، يتجلّى لنا بمراجعتنا الزّمن والأحداث شرطاً أساسيّاً ضروريّاً لانتصار الدّعوة المحمّديّة.

ولن يشقّ علينا أن نجد في هذا النّهج التّربويّ ـ الّذي أثار سخريّة القوم، وأزاغ النّقد السّطحيّ في عصرنا عن الجادّة ـ طابع العلم العلويّ الّذي أملى «كلمة الله» بطريقة التّنجيم.

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

الوحدة الكمّيّة

الوحي ظاهرة منجّمة، فهو في أساسه متفاصل، شأن مجموعة عدديّة، أي أنّه متكوّن من وحدات متتالية هي الآيات، وهذه الخاصية توحي إلينا بفكرة الوحدة الكمّيّة، فكلّ وحي مستقلّ يضمّ وحدة جديدة إلى المجموعة القرآنيّة. بيد أنّ هذه الوحدة القرآنيّة ليست ثابتة، فهي لا تماثل الوحدة الّتي تزيد في مجموعة الأعداد حين يضاف واحد إلى ثلاثة أو أربعة أو خمسة؛ ليؤدّي إلى الوحدة العددية التّاليّة.

فإنّ للوحي مقياساً متغيّراً هو كمّيّته أو سعته، تلك السّعة الّتي تتراوح بين حدّ أدنى هو الآية ، وحدّ أقصى هو السّورة.

وتأمّل هذه الوحدة يتيح لنا بعض الملاحضات المفيدة عن العلاقة بين الذّات المحمّديّة والظّاهرة القرآنيّة؛ إذ هي تتناسب في الزّمن مع الحالة الخاصّة الّتي سمّيناها «حالة التّلقّي» عند النّبيّ ﷺ

ولقد رأينا ـ بصفة خاصّة ـ أنّ إرادته تنعدم مؤقّتاً؛ إذ هو عاجز في تلك اللّحظات عن أن يغطّي وجهه المحتقن، المتفصّد عرقاً فعن هذه الذّات العاجزة فجأة ـ وللحظات ـ تصدر وحدة التّنزيل، وعلى هذه الذّات الخارقة في حالة لا شعوريّة تقريباً يطبع الوحي فجأة فقراته الوجيزة.

تلك هي وحدة «الظّاهرة القرآنيّة» من ناحية الكم، وهي الّتي ندرسها بالنّسبة لهذه الذّات العاجزة مؤقّتاً، والّتي هي «حامل الوحي».

هذه الوحدة تؤدّي بالضّرورة فكرة واحدة، وأحياناً مجموعة من الفكر المنتظمة في أُسلوب منطقيّ يمكننا ملاحظته في آيات القرآن، ودراسة هذه الفكر في ذاتها، وفي علاقتها ببقيّة حلقات السّلسلة، تكشف عن قدرة خالقة ومنظّمة، لا يمكن أن تنطوي عليها الذّات المحمّديّة في تلك الظّروف النّفسيّة الخاصّة بحالة تلقّيها الوحي، بل حتّى في ظروفها الطّبيعيّة، بشرط أن نقرّ نتائج المقياس الأوّل.

وحقيقة، ماذا نقول في فكرة لدى إنسان لم يفكّر فيها، ولا يمكنه أن يفكّر فيها في الحالة الخاصّة الّتي يعانيها؟

وماذا نقول في هذا النّسق المتّصل لتعاليم تؤدّيها هذه الفكرة، حين لا يتأسّس هذا النّسق على إرادة وتفكير منظّم؟

إنّ من الجليّ أنّنا لا يمكن أن نتصّور ذلك في النّظرة الأُولى، وفضلاً عن ذلك، فلو افترضنا أنّ التّفكير يمكن أن يحدث لا شعوريّاً ولا إراديًّا لدى فرد ما، فإنّ النّبيّ رغم هذا لم يكن لديه الزّمن المادّيّ كيما يتصوّر وينظّم تعاليمه في البرهة الخاطفة للوحي. ولسوف نرى أنّ هذه التّعاليم تعبّر أحياناً عن أفكار خارج حدود الفكر تماماً في العصر المحمّديّ، بل لا يمكن أن تخطر في فكر إنسانيّ، وسنورد نحن لذلك أمثلة فيما بعد في فصل «موضوعات ومواقف قرآنيّة».

أمّا الآن، فنحن نكوّن مقياساً لنحكم على صلة وحدة الوحي بالذّات المحمّديّة. ولسنا للأسف مطمئنّين إلى أنّ الأمثلة الّتي درسناها هنا تمثّل تماماً هذه الوحدة أو شطراً منها.

ولكن من المستطاع أن نتخلّص من هذه الصّعوبة، حين نجعل وحدة التّنزيل مجموع الآيات المتتابعة الّتي تسهم في اكتمال فكرة واحدة، وهذا العدد يمكن أن يهبط إلى الحدّ الأدنى في آية واحدة، ويمكن أن يرتفع إلى الحدّ الأقصى في سورة كاملة.

(ص: ١٧٣ - ١٧٧)

الفصل الثّاني والخمسون

نصّ الشّيخ أبي زُهرة في «المعجزة الكبرى»

نزول القرآن

أوّل آية نزلت كانت الخطاب من الله تعالى بالتّكليف الّذي كلّفه تعالى لنبيّه عليه الصّلاة والسّلام بحمل الرّسالة إلى خلقه. فقد نزلت أوّل آية، وهي ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الاِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فكان هذا إيذاناً بأنّ دين العلم قد وجب تبليغه، وأنّ كتاب العلم قد ثبت تنزيله، وأنّ أعلاء شأن الفكر قد جاء به خاتم النّبيّين وسيّد المرسلين، وفيه إيماء إلى أنّ الإسلام والعلم يجتمعان، ولا يتناقضان أبداً.

توالى نزول القرآن منجّماً في مدّة الرّسالة المحمّديّة الّتي استمرّت ثلاثاً وعشرين سنة، يدعو فيها بالحقّ وإلى صراطٍ مستقيم، ينير السّبيل ويهدي للّتي هي أقوم.

فكانت الآيات القرآنيّة تنزل وقتاً بعد آخر، وكان التّحدّي بما نزل، وإن لم يكن ما نزل كلّ القرآن، لأنّ كلّ جزء منه ينطبق عليه إسم الكتاب، بل القرآن، إذ أنّ التّحدّي يقع به، والمعجزة تتحقّق فيه، فقد تحدّى أهل مكّة أن يأتوا بمثله، ولم يكن قد نزل كلّه، فقد

---

١ ـ العلق / ١ ـ ٥.

قال تعالى في سورة يونس: ١٦ و١٧، وهي مكّية: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ فَإِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وجاء التّحدّي في هذه السّورة أيضاً فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ * وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]. وجاء في سورة هود: ١٣، وهي مكّية: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

ومن هذا كلّه يتبيّن أنّ بعض القرآن قرآن يتحدّى فيه، فهو الكتاب الكامل في كلّه، والكامل في جزئه، وهو معجز في أجزائه، كما هو معجز في ذاته، وإن شئت فقل: إنّه معجزات متضافرة، وإذا كان لموسى تسع آيات بيّنات فلمحمّد مئات من المعجزات البيّنات.

حكمة نزوله منجّماً

وقد يسأل سائل: لماذا نزل القرآن منجّماً، ولم ينزل دفعةً واحدةً، كما نزلت الألواح العشر على موسى (عليه السلام)، وكما نزل الزّبور على داوود وإنّ مثل هذا السّؤال جاء على ألسنة المشركين معترضين، متّخذين منه سبيلاً للجاجتهم، وقد نقل القرآن الكريم عنهم ذلك وردّه، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2].

ونرى أنّ النّص الكريم قد نقل اعتراض المشركين، وردّه سبحانه تعالى عليهم، وقد تضمّن الرّدّ ثلاثة أمور تومىء إلى السّبب في نزوله منجّماً:

أوّلها: تثبيت فؤاد الرّسول بموالاة الوحي بالقرآن، فإنّ موالاته فيها أُنس للنّبيّ ﷺ

---

١ ـ يونس / ٣٧ و ٣٨.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

وتثبيت لعزيمته، وتأييد مستمرّ له فيقوم بحقّ الدّعوة بالجهاد في سبيلها، وإذا كان المرء يستأنس بوليّه إذا والى الاتّصال به فكيف لا يستأنس رسول‌الله تعالى بلقاء الرّوح الأمين الّذي يجيئه بكلام ربّ العالمين، في موالاة مستمرّة.

ثانيها: أنّ تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءاً جزءاً، ذلك أنّ هذا القرآن نزل ليحفظ في الأجيال كلّها جيلاً بعد جيلٍ، وما يحفظ في الصّدور لا يعتريه التّغيير ولا التّبديل، وما يكتب في السّطور قد يعتريه المحو والإثبات والتّحريف والتّصحيف، ولأنّ الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ، كان يحفظ جزءاً جزءاً، وكان ينزل مجزّءاً ليسهل ذلك الحفظ، وكان النّبيّ ﷺ حريصاً على أن يحفظه عند نزوله، فكان يردّد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجّل حفظه وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيّه في ذلك: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1]. وترى من هذا النّص حرص النّبيّ ﷺ على أن يحفظ ما يوحى إليه، فيحرّك به لسانه، مستعجلاً الحفظ فينبّهه الله تعالى إلى أنّه يتولّى جمعه وإقراءه له، وأنّه بينّه وحافظه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

الأمر الثّالث: هو ترتيل القرآن، بتعليم تلاوته، وإنّ هذا النّص يستفاد منه أنّ تلاوة القرآن وطريق ترتيله هي من تعليم الله تعالى، إذ أنّه سبحانه وتعالى ينسب التّرتيل إليه تعالت قدرته وكلماته، وعظم بيانه. فنحن بقرائتنا وترتيلنا إن أحكمناه، إنّما نتّبع ما علّم الله تعالى نبّيه من ترتيل محكم، جاء به التّنزيل، وأُمر به النّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[3]، وما كان تعليم هذا التّرتيل المنزّل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجّماً، فلو نزل جملةً واحدةً ما تمكّن النّبيّ ﷺ من تعلّم التّرتيل، ولو علّمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان في الإمكان أن يعلّمه قومه، وهم حملته إلى الأجيال من بعده.

هذا ما يستفاد من النّص الكريم المتلوّ، وعبارته السّامية فيه واضحة بيّنة تشرق

١ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

٢ ـ الحِجر / ٩.

٣ ـ المزّمّل / ٤.

بمعانيه العالية الهادية الموجّهة المرشدة. وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجّماً نلمسه من حال العرب ومن شؤونهم، ذلك أنّ العرب كانوا أُمّة أُمّيّة، والكتابة فيهم ليست رائجة، بل يندر فيهم من يعرفها، وأندر منه من يتقنها، فما كان في استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كلّه إذا نزل جملةً واحدةً؛ إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه، وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتّصحيف والتّحريف.

ولقد كان من فائدة إنزال القرآن منجّماً أنّه كان ينزل لمناسبات ولأحداث، فيكون في هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه، والمبيّن الأوّل هو النّبيّ ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1]. (ص: ٢١ ـ ٢٤)

---

١ ـ النّحل / ٤٤.

الفصل الثّالث والخمسون

نصّ العلّامة الطّباطبائيّ (م: ١٤٠٢) في «تفسير الميزان»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة / ١٨٥

والنّزول هو الورود على المحلّ من العلوّ، والفرق بين الإنزال والتّنزيل أنّ الإنـزال دفعيّ والتّنزيل تدريجيّ. والقرآن: اسم للكتاب المنزّل على نبيّه محمّد ﷺ باعتبار كونه مقروءاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١]، ويطلق على مجموع الكتاب وعلى أبعاضه.

والآية تدلّ على نزول القرآن في شهر رمضان، وقد قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[٢]. وهو ظاهر في نزوله تدريجاً في مجموع مدّة الدّعوة، وهي ثلاث وعشرون سنة تقريباً، والمتواتر من التّاريخ يدلّ على ذلك، ولذلك ربّما استشكل عليه بالتّنافي بين الآيتين.

وربّما أُجيب عنه: بأنّه نزل دفعةً على سماء الدّنيا في شهر رمضان، ثمّ نزل عـلى رسول الله ﷺ نجوماً، وعلى مكثٍ في مدّة ثلاث وعشرين سنة ـ مجموع مدّة الدّعوة ـ وهذا جواب مأخوذ من الرّوايات الّتي سننقل بعضها في البحث عن الرّوايات وقد أُورد

---

١ ـ الزّخرف / ٣.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

عليه بأنّ تعقيب قوله تعالى: أُنزل فيه القرآن بقوله: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ لا يساعد على ذلك؛ إذ لا معنى لبقائه على وصف الهداية والفرقان في السّماء مدّة سنين.

وأُجيب: بأنّ كونه هادياً من شأنه أن يهدي من يحتاج إلى هدايته من الضّلال، وفارقاً إذا التبس حقّ بباطل لاينافي بقائه مدّة على حال الشّأنية من غير فعلية التّأثير حتّى يحلّ أجله ويحين حينه، ولهذا نظائر وأمثال في القوانين المدنيّة المنتظمة الّتي كلّما حان حين مادّة من موادّها أُجرِيت وأُخرِجت من القوّة إلى الفعل.

والحقّ أنّ حكم القوانين والدّساتير غير حكم الخطبات الّتي لا يستقيم أن تتقدّم على مقام التّخاطب ولو زماناً يسيراً، وفي القرآن آيات كثيرة من هذا القبيل كقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾[3]، على أنّ القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ولامعنى لاجتماعهما في زمان بحسب النّزول.

وربّما أُجيب عن الإشكال: أنّ المراد من نزول القرآن في شهر رمضان أنّ أوّل ما نزل منه نزل فيه، ويرد عليه أنّ المشهور عندهم أنّ النّبيّ ﷺ إنّما بعث بالقرآن، وقد بعث في اليوم السّابع والعشرين من شهر رجب، وبينه وبين رمضان أكثر من ثلاثين يوماً، وكيف يخلو البعثة في هذه المدّة من نزول القرآن؟ على أنّ أوّل سورة ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يشهد على أنّها أوّل سورة نزلت، وأنّها نزلت بمصاحبة البعثة، وكذا سورة المدّثر تشهد أنّها نزلت في أوّل الدّعوة، وكيف كان فمن المستبعد جدًّا أن تكون أوّل آية نزلت في شهر رمضان، على أنّ قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ غير صحيح الدّلالة على أنّ المراد بالقرآن أوّل نازل منه، ولا قرينة تدلّ عليه في الكلام، فحمله عليه تفسير من غير دليل. ونظير هذه

---

١ ـ المجادلة / ١.

٢ ـ الجمعة / ١١.

٣ ـ الأحزاب / ٢٣.

الآية قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]. فإنّ ظاهر هذه الآيات لايلائم كون المراد من إنزال القرآن أوّل إنزاله أو إنزال أوّل بعض من أبعاضه، ولا قرينة في الكلام تدلّ على ذلك.

والّذي يعطيه التّدبّر في آيات الكتاب أمر آخر، فإنّ الآيات النّاطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنّما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدّالّ على الدّفعة دون التّنزيل، كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. واعتبار الدّفعة إمّا بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب أو البعض النّازل منه، كقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[٤]، فإنّ المطر إنّما ينزل تدريجاً، لكنّ النّظر هاهنا معطوف إلى أخذه مجموعاً واحداً، ولذلك عبّر عنه بالإنزال دون التّنزيل، وكقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[٥]، وإمّا لكون الكتاب ذا حقيقة أُخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الّذي يقتضي فيه بالتّفرّق والتّفصيل والانبساط والتّدريج هو المصحّح؛ لكونه واحداً غير تدريجيّ ونازلاً بالإنزال دون التّنزيل. وهذا الاحتمال الثّاني هو اللّائح من الآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٦]. فإنّ هذاالإحكام مقابل التّفصيل، والتّفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وقطعةً قطعةً، فالإحكام كونه بحيث لايتفصّل فيه جزء من جزء ولا يتميّز بعض من بعض؛ لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء ولا فصول فيه، والآية ناطقة بأنّ هذا التّفصيل المشاهد في القرآن إنّما طرء عليه بعد كونه محكماً غير مفصّل.

وأوضح منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

---

١ ـ الدّخان / ٢ ـ ٣.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

٤ ـ يونس / ٢٣.

٥ ـ ص / ٢٩.

٦ ـ هود / ١.

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تأوِيلَهُ يَوْمَ يأتِي تأويلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذا القُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يَحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[٢].

فإنّ الآيات الشّريفة وخاصّة ما في سورة يونس ظاهرة الدّلالة على أنّ التّفصيل أمر طارئ على الكتاب، فنفس الكتاب شيءٌ والتّفصيل الّذي يعرضه شيء آخر، وإنّهم إنّما كذّبوا بالتّفصيل من الكتاب، لكونهم ناسين لشيء يؤول إليه هذا التّفصيل وغافلين عنه، وسيظهر لهم يوم القيامة ويضطرّون إلى علمه، فلا ينفعهم النّدم ولات حين مناصٍ، وفيها إشعار بأنّ أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب.

وأوضح منه قوله تعالى: ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٣]. فإنّه ظاهر في أنّ هناك كتاباً مبيناً عرض عليه جعله مقروءً عربيّاً، وإنّما أُلبس لباس القراءة والعربيّة ليعقله النّاس، وإلّا فإنّه ـ وهو في أُمّ الكتاب ـ عند الله عليّ لا يصعد إليه العقول، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل. وفي الآية تعريف للكتاب المبين، وأنّه أصل القرآن العربّي المبين، وفي هذا المساق أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لَا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]، فإنّه ظاهر في أنّ للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون، لا يمسّه هناك أحد إلّا المطهّرون من عباد الله، وأنّ التّنزيل بعده، وأمّا قبل التّنزيل فله موقع في كتابٍ مكنون عن الأغيار، وهو الّذي عبّر عنه في آيات الزّخرف بأُمّ الكتاب، وفي سورة البروج باللّوح المحفوظ؛ حيث قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٥]، وهذا اللّوح إنّما كان محفوظاً؛ لحفظه من ورود

---

١ ـ الأعراف / ٥٢ ـ ٥٣.

٢ ـ يونس / ٣٧ ـ ٣٩.

٣ ـ الزّخرف / ١ ـ ٤.

٤ ـ الواقعة / ٧٥ ـ ٨٠.

٥ ـ البروج / ٢٢.

التّغيّر عليه، ومن المعلوم أنّ القرآن المنزّل تدريجاً لا يخلو عن ناسخ ومنسوخ، وعن التّدريج الّذي هو نحو من التّبدّل، فالكتاب المبين الّذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التّفصيل أمر وراء هذا المنزّل، وإنّما هذا بمنزلة اللّباس لذاك.

ثمّ إنّ هذا المعنى، أعني كون القرآن في مرتبة التّنزيل بالنّسبة إلى الكتاب المبين ـ ونحن نسمّيه بحقيقة الكتاب ـ بمنزلة اللّباس من المتلبّس، وبمنزلة المثال من الحقيقة وبمنزلة المثل من الغرض المقصود بالكلام هو المصحّح؛ لأن يطلق القرآن أحياناً على أصل الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْاٰنٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، إلى غير ذلك. وهذا الّذي ذكرنا هو الموجب لأن يحمل قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْاٰنُ﴾، وقوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقوله: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ على إنزال حقيقة الكتاب والكتاب المبين إلى قلب رسول‌الله ﷺ دفعة، كما أُنزل القرآن المفصّل على قلبه تدريجاً في مدّة الدّعوة النّبويّة.

وهذا هو الّذي يلوح من نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ * فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ * ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2].

فإنّ الآيات ظاهرة في أنّ رسول‌الله ﷺ كان له علم بما سينزل عليه، فنُهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي.

وبالجملة فإنّ المتدبّر في الآيات القرآنيّة لا يجد مناصاً عن الاعتراف بدلالتها على كون هذا القرآن المنزّل على النّبيّ ﷺ تدريجاً متّكئاً على حقيقة متعالية عن أن تدركها أبصار العقول العامّة، أو يتناولها أيدي الأفكار المتلوّثة بألواث الهوسات وقذارات المادّة، وأنّ تلك الحقيقة أُنزلت على النّبيّ إنزالاً، فعلّمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه.

فهذا ما يهدي إليه التدبّر ويدلّ عليه الآيات، نعم، أرباب الحديث ـ والغالب من المتكلّمين والحسّيون من باحثي هذا العصر ـ لمّا أنكروا إصالة ما وراء المادّة المحسوسة

---

١ ـ طه / ١١٤.

٢ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

اضطرّوا إلى حمل هذه الآيات ونظائرها كالدّالّة على كون القرآن هدىً ورحمةً ونوراً وروحاً ومواقع النّجوم وكتاباً مبيناً، وفي لوح محفوظ، ونازلاً من عند الله، وفي صحف مطهّرة، إلى غير ذلك من الحقائق على أقسام الاستعارة والمجاز، فعاد بذلك القرآن شعراً منثوراً.

ولبعض الباحثين كلام في معنى نزول القرآن في شهر رمضان؛ قال ما محصّله: إنّه لا ريب أنّ بعثة النّبيّ ﷺ كان مقارناً لنزول أوّل ما نزل من القرآن وأمره ﷺ بالتّبليغ والإنذار، ولاريب أنّ هذه الواقعة إنّما وقعت باللّيل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[1]، ولا ريب أنّ اللّيلة كانت من ليالي شهر رمضان؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2].

وجملة القرآن وإن لم تنزّل في تلك اللّيلة لكن لمّا نزلت سورة الحمد فيها ـ وهي تشتمل على جُلّ معارف القرآن ـ فكان كأنّ القرآن نزل فيها جميعاً، فيصحّ أن يقال: أنزلناه في ليلة، على أنّ القرآن يطلق على البعض كما يطلق على الكلّ، بل يطلق القرآن على سائر الكتب السّماويّة أيضاً، كالتّوراة والإنجيل والزّبور باصطلاح القرآن.

قال: وذلك أنّ أوّل ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾الخ، نزل ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان نزل، والنّبيّ ﷺ قاصد دار خديجة في وسط الواديّ يشاهد جبريل، فأوحى إليه قوله تعالى: ﴿اِقْرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ الخ. ولمّا تلقّى الوحي خطر بباله أن يسأله: كيف يذكر اسم ربّه، فتراءى له وعلّمه بقوله: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر سورة الحمد، ثمّ علّمه كيفيّة الصّلاة، ثمّ غاب عن نظره، فصحا النّبيّ ﷺ ولم يجد ممّا كان يشاهده أثراً، إلّا ما كان عليه من التّعب الّذي عرضه من ضَغْطة جبريل حين الوحي، فأخذ في طريقه وهو لا يعلم أنّه رسول من الله إلى النّاس، مأمور بهدايتهم، ثمّ لمّا دخل البيت نام ليلته من شدّة التّعب، فعاد

---

١ ـ الدّخان / ٣.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

إليه ملك الوحي صبيحة تلك اللّيلة، وأوحىٰ إليه قوله تعالى: ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[١] الآيات.

قال: فهذا هو معنى نزول القرآن في شهر رمضان ومصادفة بعثته لليلة القدر، وأمّا ما يوجد في بعض كتب الشّيعة من أنّ البعثة كانت يوم السّابع والعشرين من شهر رجب، فهذه الأخبار على كونها لا توجد إلّا في بعض كُتب الشّيعة الّتي لا يسبق تاريخ تأليفها أوائل القرن الرّابع من الهجرة، مخالفة للكتاب كما عرفت.

قال: وهناك روايات أُخرى في تأييد هذه الأخبار، تدلّ على أنّ معنى نزول القرآن في شهر رمضان، أنّه نزل فيه قبل بعثة النّبيّ من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وأملاه جبريل هناك على الملائكة حتّى ينزل بعد البعثة على رسول‌الله، وهذه أوهام خرافيّة دسّت في الأخبار، مردودة أوّلاً: بمخالفة الكتاب. وثانياً: أنّ مراد القرآن باللّوح المحفوظ هو عالم الطّبيعة، وبالبيت المعمور هو كرة الأرض؛ لعمرانه بسكون الإنسان فيه، انتهى ملخّصاً.

ولست أدري أيّ جملة من جمل كلامه ـ على فساده بتمام أجزائه ـ تقبل الإصلاح حتّى تنطبق على الحقّ والحقّيّة بوجه؟ فقد اتّسع الخرق على الرّاتق ففيه:

أوّلا: أنّ هذا التّقوّل العجيب الّذي تقوّله في البعثة ونزول القرآن أوّل ما نزل، وأنّه ﷺ نزل عليه ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وهو في الطّريق، ثمّ نزلت عليه سورة الحمد، ثمّ عُلّم الصّلاة، ثمّ دخل البيت ونام تعباناً، ثمّ نزلت عليه سورة المدّثّر صبيحة اللّيلة فأُمر بالتّبليغ، كلّ ذلك تقوّل لا دليل عليه لا آية محكمة ولا سنّة قائمة، وإنّما هي قصّة تخيّليّة لا توافق الكتاب ولا النّقل.

وثانياً: أنّه ذكر أنّ من المسلّم أنّ البعثة ونزول القرآن والأمر بالتّبليغ مقارنة زماناً، ثمّ فسّر ذلك بأنّ النّبوّة ابتدأت بنزول القرآن، وكان النّبيّ ﷺ نبيّاً غير رسول ليلة واحدة فقط، ثمّ في صبيحة اللّيلة أعطي الرّسالة بنزول سورة المدّثّر، ولا يسعه أن يستند في ذلك إلى كتاب ولا سنّة، وليس من المسلّم ذلك. أمّا السّنّة فلأنّ لازم ما طعن به في جوامع

---

١ ـ المدّثر / ١ ـ ٢.

الشّيعة بتأخّر تأليفها عن وقوع الواقعة عدم الاعتماد على شيء من جوامع الحديث مطلقاً؛ إذ لا شيء من كتب الحديث ممّا ألّفته العامّة أو الخاصّة إلّا وتأليفه متأخّر عن عصر النّبيّ ﷺ قرنين فصاعداً، فهذا في السّنّة، والتّاريخ ـ على خلوّه من هذه التّفاصيل ـ حاله أسوأ والدّس الّذي رمي به الحديث متطرّق إليه أيضاً.

وأمّا الكتاب فقصور دلالته على ما ذكره أوضح وأجلى، بل دلالته على خلاف ماذكره وتكذيب ما تقوّله ظاهرة، فإنّ سورة ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ـ وهي أوّل سورة نزلت على النّبيّ ﷺ على ما ذكره أهل النّقل، ويشهد به الآيات الخمس الّتي في صدرها، ولم يذكر أحد أنّها نزلت قطعات، ولا أقلّ من احتمال نزولها دفعةً ـ مشتملة على أنّه ﷺ كان يصلّي بمرأىً من القوم، وأنّه كان منهم من ينهاه عن الصّلاة، ويذكر أمره في نادي القوم ولا ندري كيف كانت هذه الصّلاة الّتي كان ﷺ يتقرّب بها إلى ربّه في بادىء أمره، إلّا ما تشتمل عليه هذه السّورة من أمر السّجدة؛ قال تعالى فيها: ﴿اَرَاَيْتَ الَّذِى يَنْهٰى عَبْدًا اِذَا صَلّٰى * اَرَاَيْتَ اِنْ كَانَ عَلَى الْهُدٰى * اَوْ اَمَرَ بِالتَّقْوٰى * اَرَاَيْتَ اِنْ كَذَّبَ وَتَوَلّٰى * اَلَمْ يَعْلَمْ بِاَنَّ اللّٰهَ يَرٰى * كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾[1].

فالآيات كما ترى ظاهرة في أنّه كان هناك من ينهى مصلّياً عن الصّلاة، ويذكر أمره في النّادي، ولا ينتهي عن فعاله، وقد كان هذا المصلّي هو النّبيّ ﷺ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾.

فقد دلّت السّورة على أنّ النّبيّ ﷺ كان يصلّي قبل نزول أوّل سورة من القرآن، وقد كان على الهدى، وربّما أمر بالتّقوى، وهذا هو النّبوّة، ولم يسمّ أمره ذلك إنذاراً، فكان ﷺ نبيّاً، وكان يصلّي ولمّا ينزل عليه قرآن، ولا نزلت بعد عليه سورة الحمد، ولمّا يؤمر بالتّبليغ.

وأمّا سورة الحمد فإنّها نزلت بعد ذلك بزمان، ولو كان نزولها عقيب نزول سورة العلق بلا فصل عن خطور في قلب رسول الله ﷺ، كما ذكره هذا الباحث لكان حقّ الكلام أن

---

١ ـ العلق / ٩ ـ ١٨.

يقال: (قل بسم الله الرّحمٰن الرّحيم. الحمد للّٰه ربّ العالمين، إلخ، أو يقال: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم. قل: الحمد للّٰه ربّ العالمين، إلخ) ولكان من الواجب أن يختم الكلام في قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ﴾؛ لخروج بقيّة الآيات عن الغرض، كما هو الأليق ببلاغة القرآن الشّريف.

نعم، وقع في سورة الحِجر ـ وهي من السّور المكّيّة كما تدلّ عليه مضامين آياتها، وسيجيء بيانه ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[1] والمراد بالسّبع المثاني سورة الحمد، وقد قوبل بها القرآن العظيم، وفيه تمام التّجليل لشأنها والتّعظيم لخطرها، لكنّها لم تعدّ قرآناً بل سبعاً من آيات القرآن وجزأً منه، بدليل قوله تعالى: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾[2].

ومع ذلك فاشتمال السّورة على ذكر سورة الحمد يدلّ على سبق نزولها نزول سورة الحِجر، والسّورة مشتملة أيضاً على قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[3] الآيات. ويدلّ ذلك على أنّ رسول الله ﷺ كان قد كفّ عن الإنذار مدّة، ثمّ أمر به ثانياً بقوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ﴾.

وأمّا سورة المدّثّر وما تشتمل عليه من قوله: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، فإن كانت السّورة نازلة بتمامها دفعة، كان حال هذه الآية ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ حال قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ﴾ الآية، لاشتمال هذه السّورة أيضاً على قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى آخر الآيات[4]، وهي قريبة المضمون من قوله في سورة الحِجر: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ إلخ، وإن كانت السّورة نازلة نجوماً فظاهر السّياق أنّ صدرها قد نزل في بدء الرّسالة.

وثالثاً: أنّ قوله: إنّ الرّوايات الدّالّة على نزول القرآن في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى البيت المعمور جملةً واحدةً قبل البعثة، ثمّ نزول الآيات نجوماً على

---

١ ـ الحِجر / ٨٧.
٢ ـ الزّمر / ٢٣.
٣ ـ الحِجر / ٩٤ ـ ٩٥.
٤ ـ المدّثّر / ١١.

رسول‌الله أخبار مجعولة خرافيّة؛ لمخالفتها الكتاب وعدم استقامة مضمونها، وأنّ المراد باللّوح المحفوظ هو عالم الطّبيعة، والبيت المعمور كرة الأرض، خطأ وفرية.

أمّا أوّلاً: فلأنّه لا شيء من ظاهر الكتاب يخالف هذه الأخبار على ما عرفت.

وأمّا ثانياً: فلأنّ الأخبار خالية عن كون النّزول الجمليّ قبل البعثة، بل الكلمة ممّا إضافها هو إلى مضمونها من غير تثبّت.

وأمّا ثالثاً: فلأنّ قوله: إنّ اللّوح المحفوظ هو عالم الطّبيعة، تفسير شنيع، وإنّه أُضحوكة، وليت شعري ما هو الوجه المصحّح ـ على قوله ـ لتسمية عالم الطّبيعة في كلامه تعالى لوحاً محفوظاً؟ أذلك لكون هذا العالم محفوظاً عن التّغيّر والتّحوّل؟ فهو عالم الحركات، سيّال الذّات، متغيّر الصّفات! أو لكونه محفوظاً عن الفساد تكويناً أو تشريعاً؟ فالواقع خلافه! أو لكونه محفوظاً عن اطّلاع غير أهله عليه؟ كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾[١]، فإدراك المدركين فيه على السّواء!

وبعد اللّتيا والّتي، لم يأت هذا الباحث في توجيه نزول القرآن في شهر رمضان بوجه محصّل يقبله لفظ الآية، فإنّ حاصل توجيهه أنّ معنى ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٢] كأنّما أُنزل فيه القرآن، ومعنى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣] كأنّا أنزلناه في ليلة القدر، وهذا شيء لا يحتمله اللّغة والعرف لهذا السّياق! ولو جاز لقائل أن يقول: نزل القرآن ليلة القدر على رسول‌الله ﷺ؛ لنزول سورة الفاتحة المشتملة على جمل معارف القرآن، جاز أن يقال: إنّ معنى نزول القرآن نزوله جملةً واحدةً، أي نزول إجمال معارفه على قلب رسول‌الله من غير مانع يمنع، كما مرّ بيانه سابقاً. وفي كلامه جهات أُخرى من الفساد تركنا البحث عنها؛ لخروجه عن غرضنا في المقام. (٢: ١٥ ـ ٣٢)

---

١ ـ الواقعة / ٧٧ ـ ٧٩.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ القدر / ١.

﴿الرٰ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ هود / ١.

المقابلة بين الإحكام والتّفصيل الّذي هو إيجاد الفصل بين أجزاء الشّيء المتّصل بعضها ببعض، والتّفرقة بين الأُمور المندمجة كلّ منها في آخر تدلّ على أنّ المراد بالإحكام ربط بعض الشّيء ببعضه الآخر، وإرجاع طرف منه إلى طرف آخر؛ بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذي أجزاء وأبعاض.

ومن المعلوم أنّ الكتاب إذا اتّصف بالإحكام والتّفصيل بهذا المعنى الّذي مرّ فإنّما يتّصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون، لا من جهة ألفاظه أو غير ذلك، وأنّ حال المعاني في الإحكام والتّفصيل والاتّحاد والاختلاف غير حال الأعيان، فالمعاني المتكثّرة إذا رجعت إلى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع، وهو بعينه على إجماله هذه التّفاصيل، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال، وهذا كلّه ظاهر لا ريب فيه.

وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة أوّلاً، ثمّ مفصّلة ثانياً، معناه أنّ الآيات الكريمة القرآنيّة على اختلاف مضامينها وتشتّت مقاصدها وأغراضها ترجع إلى معنى واحد بسيط، وغرض فارد أصليّ لاتكثّر فيه ولاتشتّت، بحيث لاتروم آية من الآيات الكريمة مقصداً من المقاصد، ولاترمي إلى هدف إلّا والغرض الأصليّ هو الرّوح السّاري في جُثمانه والحقيقة المطلوبة منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتّت آياته وتفرّق أبعاضه إلّا غرض واحد متوحّد، إذا فصّل كان في مورد أصلاً دينيّاً، وفي آخر أمراً خلقيّاً، وفي ثالث حكماً شرعيّاً، وهكذا كلّما تنزّل من الأُصول إلى فروعها، ومن الفروع إلى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، ولا يخطىء غرضه، فهذا الأصل الواحد بتركّبه يصير كلّ واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد والأخلاق والأعمال، وهي بتحليلها وإرجاعها إلى الرّوح السّاري فيها الحاكم على أجسادها تعود إلى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزّه وكبريائه مثلاً في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفي مقام الأخلاق هو التّخلّق بالأخلاق الكريمة من

الرّضا والتّسليم والشّجاعة والعفّة والسّخاء، ونحو ذلك، والاجتناب عن الصّفات الرّذيلة، وفي مقام الأعمال والأفعال الإتيان بالأعمال الصّالحة والورع عن محارم الله.

وإن شئت فقل: إنّ التّوحيد الخالص يوجب في كلّ من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يبيّنه الكتاب الإلهيّ من ذلك، كما أنّ كلًّا من هذه المراتب وكذلك أجزاؤها لا تتمّ من دون توحيد خالص.

فقد تبيّن أنّ الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف والشّرائع القرآنيّة إلى أصل واحد، هو بحيث إذا ركّب في كلّ مورد من موارد العقائد والأوصاف والأعمال مع خصوصيّة ذلك المورد أُنتج حكماً يخصّه من الأحكام القرآنيّة، وبذلك يظهر.

أوّلاً: أنّ قوله: ﴿كِتَابٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، والتّقدير هذا كتاب، والمراد بالكتاب هو ما بأيدينا من القرآن المقسّم إلى السّور والآيات. ولا ينافي ذلك ما ربّما يذكر أنّ المراد بالكتاب اللّوح المحفوظ، أو القرآن بما هو في اللّوح، فإنّ هذا الكتاب المقروء متّحد مع ما في اللّوح اتّحاد التّنزيل مع التّأويل.

وثانياً: أنّ لفظة (ثمّ) في قوله ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ إلخ، لإفادة التّراخيّ بحسب ترتيب الكلام دون التّراخيّ الزّمانيّ؛ إذ لا معنى للتّقدّم والتّأخّر الزّمانيّ بين المعاني المختلفة بحسب الأصليّة والفرعيّة، أو بالإجمال والتّفصيل.

ويظهر أيضاً ما في بعض ما ذكره أرباب التّفاسير في معنى الآية، كقول بعضهم: إنّ معناها ﴿أُحْكِمَتْ اٰيَاتُهُ﴾، فلم تنسخ منها كما نسخت الكتب و الشّرائع، ثمّ فصّلت ببيان الحلال والحرام وسائر الأحكام.

وفيه: أنّ الواجب على هذا المعنى أن يقيّد عدم النّسخ بعدم النّسخ بكتاب غير القرآن، ينسخ القرآن بعده كما نسخ القرآن غيره، فإنّ وجود النّسخ بين الآيات القرآنيّة نفسها ممّا لا ينبغي الارتياب فيه. والتّقييد المذكور لا دلالة عليه من جهة لفظ الآية.

وكقول بعضهم: إنّ المراد ﴿أُحْكِمَتْ اٰيَاتُهُ﴾ بالأمر والنّهي، ثمّ فصّلت بالوعد والوعيد والثّواب والعقاب. وفيه أنّه تحكّم لا دليل عليه أصلاً.

وكقول بعضهم: إنّ المراد إحكام لفظها بجعلها على أبلغ وجوه الفصاحة حتّى صار

معجزًا ، وتفصيلها بالشّرح والبيان. والكلام في هذا الوجه كسابقه.

وكقول بعضهم: المراد بإحكام آياته جعلها محكمة متقنة لا خلل فيها ولا باطل، والمراد بتفصيلها جعلها متتابعة بعضها إثر بعض. وفيه: أنّ التّفصيل بهذا المعنى غير معهود لغة، إلّا أن يفسّر بمعنى التّفرقة والتّكثير، ويرجع حينئذ إلى ما قدّمناه من المعنى.

وكقول بعضهم: إنّ المراد ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ جملة، ثمّ فرقت في الإنزال آية بعد آية؛ ليكون المكلّف أمكن من النّظر والتّأمّل. وفيه: أنّ الأحرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[٢] وما في هذا المعنى من الآيات ممّا يدلّ على أنّ للقرآن مرتبة عند الله هي أعلى من سطح الأفهام، ثمّ نزل إلى مرتبة تقبل التّفهّم والتّفقّه، رعاية لحال الأفهام العادية، كما يشير إليه أيضاً قوله: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٣]

وأمّا آيتنا الّتي نحن فيها ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ إلخ، فقد علّق فيها الإحكام والتّفصيل معاً على الآيات، وليس ذلك إلّا من جهة معانيها، فتفيد أنّ الإحكام والتّفصيل هما في معاني هذه الآيات المتكثّرة، فلها جهة وحدة وبساطة وجهة كثرة وتركّب، وينطبق على ما قدّمناه من المعنى لاعلى ما ذكره الرّاجع إلى مسألة التّأويل والتّنزيل، فافهم ذلك.

وكقول بعضهم: إنّ المراد بالإحكام والتّفصيل إجمال بعض الآيات وتبيين البعض الآخر، وقد مثّل لذلك بقوله تعالى في هذه السّورة[٤] ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾، فإنّه مجمل محكم يتبيّن بما ورد فيها من قصّة نوح وهود وصالح، وهكذا.

---

١ ـ الدّخان / ٣.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

٣ ـ الزّخرف / ٢-٤.

٤ ـ أي سورة هود/٢٤.

وفيه: أنّ ظاهر الآية أنّ الإحكام والتّفصيل متّحدان من حيث المورد، بمعنى أنّ الآيات الّتي ورد عليها الإحكام بعينها هي الّتي ورد عليها التّفصيل، لا أنّ الإحكام وصف لبعض آياته والتّفصيل وصف بعضها الآخر، كما هو لازم ما ذكره.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الحكيم: من أسمائه الحسنى الفعليّة، يدلّ على إتقان الصّنع، وكذا الخبير: من أسمائه الحسنى، يدلّ على علمه بجزئيّات أحوال الأُمور الكائنة ومصالحها، وإسناد إحكام الآيات وتفصيلها إلى كونه تعالى حكيماً خبيراً، لما بينهما من النّسبة. (١٠: ١٣٦ - ١٣٩)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ آل عمران / ٣

قد مرّ أنّ التّنزيل يدلّ على التّدريج كما أنّ النّزول يدلّ على الدّفعة.

وربّما ينقض ذلك بقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[١]، وبقوله تعالى: ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾[٢]، وقوله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً﴾[٤]، ولذلك ذكر بعض المفسّرين: أنّ الأولى أن يقال: أنّ معنى ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أنزله إنزالاً بعد إنزال، دفعاً للنّقض.

والجواب: أنّ المراد بالتّدريج في النّزول ليس هو تخلّل زمان معتدّ به بين نزول كلّ جزء من أجزاء الشّيء وبين جزئه الآخر، بل الأشياء المركّبة الّتي توجد بوجود أجزائها؛ لوجودها نسبة إلى مجموع الأجزاء، وبذلك يصير الشّيء أمراً واحداً غير منقسم. والتّعبير عنه من هذه الجهة بالنزّول كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[٥]، وهو الغيث، ونسبته من حيث وجوده بوجود أجزائه واحداً بعد واحد، سواء تخلّل بينهما زمان معتدّ به أو لم

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ المائدة / ١١٢.

٣ ـ الأنعام / ٣٧.

٤ ـ الأنعام / ٣٧.

٥ ـ الرّعد / ١٧.

يتخلّل، وهو التّدريج، والتّعبير عنه بالتّنزيل كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾[١].

ومن هنا يظهر أنّ الآيات المذكورة للنّقض غير ناقضة، فإنّ المراد بقوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[٢] الآية، أن ينزّل عليه القرآن آية بعد آية في زمان متّصل واحد، من غير تخلّل زمان معتدّ به، كما كان عليه الأمر في نزول القرآن في الشّؤون والحوادث والأوقات المختلفة، وبذلك يظهر الجواب عن بقيّة الآيات المذكورة.

وأمّا ما ذكره البعض المزبور فهو على أنّه استحسان غير جائز في اللّغة ألبتّة، لا يدفع شيئاً من النّقض بالآيات المذكورة، بل هي بحالها وهو ظاهر. وقد جرى كلامه تعالى أن يعبّر عن إفاضة الكتاب على النّبيّ ﷺ بالتّنزيل والنّزول، والنّزول يستلزم مقاماً أو مكاناً عالياً رفيعاً يخرج منه الشّيء نوعاً من الخروج، ويقصد مقاماً أو مكاناً آخر أسفل فيستقرّ فيه، وقد وصف نفسه تعالت ذاته بالعلوّ ورفعة الدّرجات، وقد وصف كتابه أنّه من عنده، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾[٤]، فيصحّ بذلك استعمال لفظ النّزول في موارد استقرار الوحي في قلب رسول الله ﷺ. (٣: ٧ ـ ٨)

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الإسراء/١٠٥

لمّا فرغ من التّنظير رجع إلى ما كان عليه من بيان حال القرآن وذكر أوصافه، فذكر أنّه أنزله إنزالاً مصاحباً للحقّ، وقد نزل هو من عنده نزولاً مصاحباً للحقّ، فهو مصون من الباطل من جهة من أنزله، فليس من لغو القول وهذره، ولا داخله شيء يمكن أن يفسده يوماً، ولا شاركه فيه أحد حتّى ينسخه في وقت من الأوقات، وليس النّبيّ ﷺ إلّا رسولاً منه تعالى يبشّر به وينذر، وليس له أن يتصرّف فيه بزيادة أو نقيصة، أو بتركه كلاًّ أو بعضاً

١ ـ الشّورى / ٢٨.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

٣ ـ الشّورى / ٥١.

٤ ـ البقرة / ٨٩.

باقتراح من النّاس أو هوى من نفسه، أو يعرض عنه فيسأل الله آية أُخرى فيها هـواه أو هوى النّاس، أو يداهنهم فيه، أو يسامحهم في شيء من معارفه وأحكامه، كلّ ذلك لأنّه حقّ صادر عن مصدر حقّ، وماذا بعد الحقّ إلّا الضّلال.

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلخ متمّم للكلام السّابق، ومحصّله: أنّ القرآن آية حقّة، ليس لأحد أن يتصرّف فيه شيئاً من التّصرّف، والنّبيّ وغيره في ذلك سواء.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [١]

معطوف على ما قبله، أي أنزلناه بالحقّ وفرقناه قرآناً. قال في المجمع: معنى ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ فصّلناه ونزّلناه آية آية وسورة سورة، ويدلّ عليه قوله: ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، والمُكث - بضمّ الميم - والمَكث - بفتحها - لغتان، انتهى.

فاللّفظ بحسب نفسه يعمّ نزول المعارف القرآنيّة الّتي هي عند الله في قالب الألفاظ والعبارات الّتي لا تتلقّى إلّا بالتّدريج، ولا تتعاطى إلّا بالمُكث والتُّؤَدة؛ ليسهل على النّاس تعقّله وحفظه، على حدّ قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [٢]

ونزول الآيات القرآنيّة نجوماً مفرّقة سورة سورة وآية آية، بحسب بلوغ النّاس في استعداد تلقّي المعارف الأصليّة للاعتقاد، والأحكام الفرعيّة للعمل، واقتضاء المصالح ذلك ليقارن العلم العمل، ولا يجمح عنه طباع النّاس بأخذ معارفه وأحكامه واحداً بعد واحد كما لو نزل دفعة، وقد نزلت التّوراة دفعة، فلم يتلقّها اليهود بالقبول إلّا بعد نتق الجبل فوقهم كأنّه ظلّة.

لكنّ الأوفق بسياق الآيات السّابقة وفيها مثل قولهم المحكيّ: ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [٣] الظّاهر في اقتراح نزول القرآن دفعة هو أن يكون المراد بتفريق القرآن إنزاله سورة سورة وآية آية، حسب تحقّق أسباب النّزول تدريجاً، وقد تكرّر من النّاس اقتراح

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الزّخرف / ٣ - ٤.

٣ ـ الإسراء / ٩٣.

أن ينزّل القرآن جملةً واحدةً كما في: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[١] وقوله حكاية عن أهل الكتاب: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾[٢].

ويؤيّده تذييل الآية بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾، فإنّ التّنزيل ـ وهو إنزال الشّيء تدريجاً ـ أمس بالاعتبار الثّاني منه بالأوّل.

ومع ذلك فالاعتبار الثّاني – وهو تفصيل القرآن وتفريقه بحسب النّزول بإنزال بعضه بعد بعض من دون أن ينزل جملةً واحدةً – يستلزم الاعتبار الأوّل، وهو تفصيله وتفريقه إلى معارف وأحكام متبوعة مختلفة، بعدما كان الجميع مندمجة في حقيقة واحدة، منطوية مجتمعة الأعراق في أصل واحد فارد.

ولذلك فصّل الله سبحانه، كتابه سوراً وآياتٍ بعدما ألبسه لباس اللّفظ العربيّ، ليسهل على النّاس فهمه، كما قال:﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ثمّ نوّعها أنواعًا ورتّبها ترتيباً فنزّلها واحدة بعد واحدة عند قيام الحاجة إلى ذلك، وعلى حسب حصول استعدادات النّاس المختلفة، وتمام قابليّتهم بكلّ واحد منها، وذلك في تمام ثلاث وعشرين سنة، ليشفع التّعليم بالتّربية،ويقرن العلم بالعمل . (١٣: ٢٢٠ ـ ٢٢١)

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ طه / ١١٤

السّياق يشهد بأنّ في الكلام تعرّضاً لتلقّي النّبيّ ﷺ وحي القرآن، فضمير ﴿وَحْيُهُ﴾ للقرآن، وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ نهي عن العجل بقراءته، ومعنى قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ من قبل أن يتمّ وحيه من ملك الوحي.

فيفيد أنّ النّبيّ ﷺ كان إذا جاءه الوحي بالقرآن يعجل بقراءة ما يوحى إليه قبل أن يتمّ الوحي، فنُهي عن أن يعجل في قراءته قبل انقضاء الوحي وتمامه، فيكون الآية في معنى قوله تعالى في موضع آخر: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ النّساء / ١٥٣.

وَقُرْآنَهُ* فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ١

ويؤيّد هذا المعنى قوله بعد: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، فإنّ سياق قوله: ﴿لَا تَعْجَلْ بِهِ﴾ و ﴿قُلْ رَبِّ زِدْنِي﴾ يفيد أنّ المراد هو الاستبدال، أي بدل الاستعجال في قراءة ما لم ينزل بعد، طلبك زيادة العلم، ويؤول المعنى إلى أنّك تعجل بقراءة ما لم ينزل بعد، لأنّ عندك علماً به في الجملة، لكن لا تكتف به، واطلب من الله علماً جديداً بالصّبر واستماع بقيّة الوحي.

وهذه الآية ممّا يؤيّد ما ورد من الرّوايات أنّ للقرآن نزولاً دفعةً واحدةً غير نزوله نجوماً على النّبيّ ﷺ، فلولا علم ما منه بالقرآن قبل ذلك لم يكن لعجله بقراءة ما لم ينزل منه بعد معنى.

وقيل: المراد بالآية ولا تعجل بقراءة القرآن لأصحابك وإملائه عليهم من قبل أن يتبيّن لك معانيه، وأنت خبير بأنّ لفظ الآية لا تعلّق له بهذا المعنى.

وقيل: المراد ولا تسأل إنزال القرآن قبل أن يقضي الله وحيه إليك، وهو كسابقه غير منطبق على لفظ الآية. (١٤: ٢١٤)

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً..﴾ الفرقان / ٣٢

قد تقدّم أنّ الإنزال والتّنزيل إنّما يفترقان في أنّ الإنزال يفيد الدّفعة، والتّنزيل يفيد التّدريج، لكن ذكر بعضهم: أنّ التّنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التّدريج، لأدائه إلى التّدافع، إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التّدريج لولا فرّق القرآن جملةً واحدةً، والتّفريق ينافي الجمليّة، بل المعنى هلاّ أُنزل القرآن عليه دفعة غير مفرّق كما أُنزل التّوراة والإنجيل والزّبور.

لكن ينبغي أن يعلم أنّ نزول التّوراة مثلاً كما هو الظّاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح، والقرآن إنّما كان ينزل على النّبيّ ﷺ بالتّلقّي من عند الله بتوسّط الرّوح الأمين، كما يتلقّى السّامع الكلام من المتكلّم، والدّفعة في إيتاء كتاب

---

١ ـ القيامة / ١٦ – ١٨.

مكتوب وتلقيه تستلزم المعيّة بين أوّله وآخره، لكنّه إذا كان بقراءة وسماع لم ينافِ التّدريج بين أجزائه وأبعاضه، بل من الضّروريّ أن يؤتاه القارىء ويتلقّاه السّامع آخذاً من أوّله إلى آخره شيئاً فشيئاً.

وهؤلاء إنّما كانوا يقترحون نزول القرآن جملةً واحدةً على ما كانوا يشاهدون، أو يسمعون من كيفيّة نزول الوحي على النّبيّ ﷺ، وهو تلقّي الآيات بألفاظها من لسان ملك الوحي، فكان اقتراحهم أنّ الّذي يتلوه ملك الوحي على النّبيّ ﷺ سورة بعد سورة وآية بعد آية، ويتلقّاه هو كذلك، فليقرأ جميع ذلك مرّةً واحدةً، وليتلقّه هو مرّةً واحدةً، ولو دامت القراءة والتّلقّي مدّة من الزّمان، وهذا المعنى أوفق بالتّنزيل الدّال على التّدريج.

وأمّا كون مرادهم من اقتراح نزوله جملةً واحدةً أن ينزل كتاباً مكتوباً دفعةً كما نزلت التّوراة، وكذا الإنجيل والزّبور على ما هو المعروف عندهم، فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك، على أنّهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السّماويّة حتّى يسلموا نزولها دفعة.

وكيف كان، فقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله، يريدون به أنّه ليس بكتاب سماويّ نازل من عند الله سبحانه، إذ لو كان كتاباً سماويّاً متضمّناً لدين سماويّ يريده الله من النّاس، وقد بعث رسولاً يبلغه النّاس لكان الدّين المضمّن فيه المراد من النّاس ديناً تامّة أجزاؤه، معلومة أُصوله وفروعه، مجموعة فرائضه وسننه، وكان الكتاب المشتمل عليه منظّمة أجزاؤه، مركّبة بعضه على بعض.

وليس كذلك، بل هو أقوال متفرّقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشتّة، ربّما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به، يسمّى جملها المنضودة آيات إلهيّة ينسبها إلى الله، ويدّعي أنّها قرآن منزّل إليه من عند الله سبحانه، وليس إلّا أنّه يتعمّل حيناً بعد حين عند وقوع وقائع، فيختلق قولاً يفتريه على الله، وليس إلّا رجلاً صابئاً ضلّ عن السّبيل هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا* وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ

بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ الثّبات: ضدّ الزّوال، والإثبات والتّثبيت بمعنى واحد. والفرق بينهما بالدّفعة والتّدريج، والفؤاد: القلب، والمراد به كما مرّ غير مرّة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه، والتّرتيل: - كما قالوا - التّرسيل والإتيان بالشّيء عقيب الشّيء، والتّفسير - كما قال الرّاغب - المبالغة في إظهار المعنى المعقول، كما أنّ الفَسْر - بالفتح فالسّكون - إظهار المعنى المعقول.

وظاهر السّياق أنّ قوله: ﴿كَذٰلِكَ﴾ متعلّق بفعل مقدّر يعلّله قوله: ﴿لِنُثَبِّتَ﴾، ويعطف عليه قوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ﴾، والتّقدير نزّلناه - أي القرآن - أي نجوماً متفرّقة لا جملةً واحدةً؛ لنثبّت به فؤادك، وقول بعضهم: إنّ ﴿كَذٰلِكَ﴾ من تمام قول الّذين كفروا، سخيف جدّاً.

فقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ بيان تامّ لسبب تنزيل القرآن نجوماً متفرّقة، وبيان ذلك أنّ تعليم علم من العلوم - وخاصّة ما كان منها مرتبطاً بالعمل بإلقاء المعلّم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلّم حتّى تتمّ فصوله وأبوابه - إنّما يفيد حصولاً ما لصور مسائله عند المتعلّم، وكونها مذخورة بوجه ما عنده، يراجعها عند مسيس الحاجة إليها، وأمّا استقرارها في النّفس بحيث تنمو النّفس عليها وتترتّب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته. ففرق بين أن يلقي الطّبيب المعلّم مثلاً مسألة طبّيّة إلى متعلّم الطّبّ إلقاء فحسب، وبين أن يلقيها إليه وعنده مريض مبتلى بما يبحث عنه من الدّاء وهو يعالجه، فيطابق بين ما يقول وما يفعل.

ومن هنا يظهر أنّ إلقاء أي نظرة علميّة عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النّفس، وأوقع في القلب، وأشدّ استقراراً، وأكمل رسوخاً في الذّهن، وخاصّة فيالمعارف الّتي تهدي إليها الفطرة، فإنّ الفطرة إنّما تستعدّ للقبول، وتتهيّأ للإذعان إذا أحسّت بالحاجة.

ثمّ إنّ المعارف الّتي تتضمّنها الدّعوة الإسلاميّة النّاطق بها القرآن إنّما هي شرائع وأحكام عمليّة وقوانين فرديّة واجتماعيّة، تسعد الحياة الإنسانيّة مبنيّة على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلّيّة الإلهيّة الّتي تنتهي بالتّحليل إلى التّوحيد، كما أنّ التّوحيد ينتهي بالتّركيب إليها، ثمّ إلى الأخلاق والأحكام العمليّة.

فأحسن التّعليم وأكمل التّربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتّدريج موزّعة على الحوادث الواقعة المتضمّنة لمساس أنواع الحاجات، مبيّنة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحقّ والخلق الفاضل، والحكم العمليّ المشروع مع ما يتعلّق بها من أسباب الاعتبار، والاتّعاظ بين قصص الماضين وعاقبة أمر المسرفين وعتوّ الطّاغين والمستكبرين.

وهذه سبيل البيانات القرآنيّة المودعة في آياته النّازلة، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[1]، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، والله أعلم.

نعم، يبقى عليه شيء، وهو أنّ تفرّق أجزاء التّعليم وإلقاءها إلى المتعلّم على التّمهّل والتُّؤَدَة يفسد غرض التّعليم؛ لانقطاع أثر السّابق إلى أن يلحق به اللّاحق، وسقوط الهمّة والعزيمة عن ضبط المطالب، ففي اتّصال أجزاء العلم الواحد بعضها ببعض إمداد للذّهن، وتهيئة للفهم على التّفقّه، والضّبط لا يحصل بدونه ألبتّة.

وقد أجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، فمعناه على ما يعطيه السّياق أنّ هذه التّعليمات على نزولها نجوماً متفرّقة عقّبنا بعضهابعض، ونزّلنا بعضها إثر بعض؛ بحيث لاتبطل الرّوابط ولا تنقطع آثار الأبعاض، فلا يفسد بذلك غرض التّعليم، بل هي سور وآيات نازلة بعضها إثر بعض مترتّبةً مرتّلةً.

على أنّ هناك أمر آخر، وهو أنّ القرآن كتاب بيان واحتجاج يحتجّ على المؤالف والمخالف فيما أشكل عليهم، أو استشكلوه على الحقّ والحقيقة بالتّشكيك والاعتراض، ويبيّن لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعةفي الملل والأديان السّابقة، وما فسّرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه، كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجنّ وقدّيسي البشر، وما وقع في العهدين من أخبار الأنبياء وما بثّوه من معارف المبدء والمعاد، إلى ما بيّنه القرآن في ذلك.

وهذا النّوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفي حقّه إلّا بالتّنزيل التّدريجيّ على حسب ما كان يبدو من شبههم، ويرد على النّبيّ ﷺ من مسائلهم تدريجاً، ويورد على

---

[1] ـ الإسراء / ١٠٦.

المؤمنين أو على قومهم من تسويلاتهم شيئاً بعد شيءٍ وحيناً بعد حينٍ.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[1]، والمثل: الوصف، أي لا يأتونك بوصف فيك أو في غيرك حادوا به عن الحقّ، أو أساؤا تفسيره إلّا جئناك بما هو الحقّ فيه، أو ما هو أحسن الوجوه في تفسيره، فإنّ ما أتوا به إمّا باطل محض، فالحقّ يدفعه، أو حقّ محرّف عن موضعه، فالتّفسير الأحسن يردّه إلى مستواه ويقوّمه.

فتبيّن بما تقدّم أنّ قوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ جواب عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، بوجهين؛

أحدهما: بيان السّبب الرّاجع إلى النّبيّ ﷺ، وهو تثبيت فؤاده بالتّنزيل التّدريجيّ.

وثانيهما: بيان السّبب الرّاجع إلى النّاس، وهو بيان الحقّ فيما يوردون على النّبيّ ﷺ من المثل والوصف الباطل، والتّفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحقّ المغيّر عن وجهه المحرّف عن موضعه.

ويلحق بهذا الجواب قوله تلواً: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2]، فهو كالمتمّم للجواب على ما سيجيء بيانه.

وتبيّن أيضاً أنّ الآيات الثّلاث مسوّقة جميعاً لغرض واحد، وهو الجواب عمّا أوردوه من القدح في القرآن هذا، والمفسّرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثّلاث، فجعلوا قوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ جواباً عن قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ خبراً عن ترسيله في النّزول، أو في القراءة على النّبيّ ﷺ، من غير ارتباط بما تقدّمه.

وجعلوا قوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ الخ، كالبيان لقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، وأيضاحاً لكيفيّة تثبيت فؤاده ﷺ، وجعله بعضهم ناظراً إلى خصوص المثل الّذي ضربوه للنّبيّ ﷺ، وأنّ الله بيّن الحقّ فيه وجاء بأحسن التّفسير، وقيل غير ذلك، وجعلوا قوله:

---

١ ـ الفرقان / ٣٣.

٢ ـ الفرقان / ٣٤.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ﴾ الآية أجنبيّاً عن غرض الآيتين السّابقتين بالكلّية.

والتّأمّل فيما قدّمناه في توجيه مضمون الآيتين الأوّليين وما سيأتي من معنى الآية الثّالثة يوضح فساد جميع ذلك، ويظهر أنّ الآيات الثّلاث جميعاً ذات غرض واحد، وهو الجواب عمّا أوردوه من الطّعن في القرآن من جهة نزوله التّدريجيّ.

وذكروا أيضاً أنّ الجواب عن قدحهم واقتراحهم بقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ جواب بذكر بعض مالتفريق النّزول من الفوائد، وأنّ هناك فوائد أُخرى غير ماذكره الله تعالى، وقد أوردوا فوائد أُخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية؛

منها: أنّ الكتب السّماويّة السّابقة على القرآن إنّما أُنزلت جملةً واحدةً، لأنّها أُنزلت على أنبياء يكتبون ويقرأون، فنزلت عليهم جملةً واحدةً مكتوبةً، والقرآن إنّما نزل على نبيٍّ أُمّيّ لا يكتب ولا يقرأ، ولذلك نزل متفرّقاً.

ومنها: أنّ الكتب المتقدّمة لم يكن لها شاهد صحّتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها، وأمّا القرآن فبيّنة صحّته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مرّ الدّهور المتحقّق في كلّ جزءٍ من أجزائه المقدّر بمقدار أقصر السّور حسبما وقع به التّحدّي.

ولا ريب أنّ مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورة تجدّدها تجدّد ما يطابقها.

ومنها: أنّ في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ولا يتيسّر الجمع بينهما، لمكان المضادّة والمنافاة، وفيه ما هو جواب لمسائل سألوا النّبيّ ﷺ عنها، وفيه ما هو إنكار لبعض ما كان، وفيه ما هو حكاية لبعض ما جرى، وفيه إخبار عمّا سيأتي في زمن النّبيّ ﷺ كالإخبار عن فتح مكّة ودخول المسجد الحرام، والإخبار عن غلبة الرّوم على الفرس، إلى غير ذلك من الفوائد، فاقتضت الحكمة تنزيله متفرّقاً. وهذه وجوه ضعيفة لا تقتضي امتناع النّزول جملةً واحدةً.

أمّا الوجه الأوّل: فكون النّبيّ ﷺ أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب لا يمنع النّزول جملةً واحدةً، وقد كان معه من يكتبه ويحفظه. على أنّ الله سبحانه وعده أن يعصمه من النّسيان

ويحفظ الذّكر النّازل عليه، كما قال ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾[١]، وقال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾[٣] وقدرته تعالى على حفظ كتابه مع نزوله دفعةً أو تدريجاً سواء.

وأمّا الوّجه الثّاني: فكما أنّ الكلام المفرّق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه أُموراً إن اشتمل عليها الكلام كان بليغاً وإلّا فلا، كذلك الكلام الجملي وإن كان كتاباً يقارنه بحسب فصوله وأجزائه أحوال لها اقتضاءات، إن طابقها كان بليغاً وإلّا فلا. فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النّازل دفعةً والكلام المجموع جملةً واحدةً.

وأمّا الوجه الثّالث: فالنّسخ ليس إبطالاً للحكم السّابق، وإنّما هو بيان انتهاء أمده، فمن الممكن الجمع بين الحكمين والمنسوخ والنّاسخ بالإشارة إلى أنّ الحكم الأوّل محدود موقّت إن اقتضت المصلحة ذلك.

ومن الممكن أيضاً أن يقدّم بيان المسائل الّتي سيسألون عنها حتّى لا يحتاجوا فيها إلى سؤال، ولو سألوا عن شيء منها ارجعوا إلى سابق البيان، وكذا من الممكن أن يقدّم ذكر ما هو إنكار لما كان، أو حكاية لما جرى، أو إخبار عن بعض المغيبات، فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر.

على أنّ تفريق النّزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد، فليست هذه الوجوه المذكورة وجوها على حدتها. فالحقّ أنّ البيان الواقع في الآية بيان تامّ جامع لا حاجة معه إلى شيء من هذه الوجوه البتّة. (١٥: ٢٠٩-٢١٤)

---

١ ـ الأعلىٰ / ٦.

٢ ـ الحِجر / ٩.

٣ ـ السّجدة / ٤٢.

[الفرق بين الإنزال والتّنزيل]

التّنزيل والإنزال بمعنى واحد، غير أنّ الغالب على باب الإفعال الدّفعة، وعلى باب التّفعيل التّدريج، وأصل النّزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عالٍ إلى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه.

وتنزيله تعالى إخراجه الشّيء من عنده إلى موطن الخلق والتّقدير، وقد سمّى نفسه بالعليّ العظيم، والكبير المتعال، ورفيع الدّرجات، والقاهر فوق عباده، فيكون خروج الشّيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتّقدير – وإن شئت فقل: إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشّهادة – تنزيلًا منه تعالى له.

وقد استعمل الإنزال والتّنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية، كقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْآتِكُمْ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿وَاَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الاَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ اَزْوَاجٍ﴾ [2] وقوله: ﴿وَاَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَاْسٌ شَدِيدٌ﴾ [3] وقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ اَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ اَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [4]، وقد أطلق القول في قوله: ﴿وَاِنْ مِنْ شَيْءٍ اِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ اِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [5]

ومن الآيات الدّالّة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى: ﴿اِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَاِنَّهُ فِى اُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [6]

وقد أضيف التّنزيل إلى ربّ العالمين للدّلالة على توحيد الرّبّ تعالى؛ لما تكرّر مراراً أنّ المشركين إنّما كانوا يعترفون به تعالى بما أنّه ربّ الأرباب، ولا يرون أنّه ربّ العالمين. **(١٥: ٣١٦)**

---

١ ـ الأعراف / ٢٦.

٢ ـ الزّمر / ٦.

٣ ـ الحديد / ٢٥.

٤ ـ البقرة / ١٠٥.

٥ ـ الحجر / ٢١.

٦ ـ الزّخرف / ٣ – ٤.

وظاهر اللّفظ أنّها إحدى اللّيالي الّتي تدور على الأرض، وظاهر قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾الدّال على الاستمرار أنّها تتكرّر، وظاهر قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، أنّها تتكرّر بتكرّر شهر رمضان، فهي تتكرّر بتكرّر السّنين القمريّة، وتقع في كلّ سنة قمريّة مرّةً واحدةً في شهر رمضان. وأمّا أنّها أيّ ليلة هي؟ فلا إشعار في كلامه تعالى بذلك.

والمراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة على ما هو ظاهر قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[١]، وقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾[٢]، أنّ النّازل هو القرآن كلّه.

ولا يدفع ذلك قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[٣]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٤]، الظّاهرين في نزوله تدريجاً، ويؤيّد ذلك آيات أُخر كقوله: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾[٥]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلٰى بَعْضٍ﴾[٦] وغير ذلك، ويؤيّد ذلك أيضاً ما لا يحصى من الأخبار المتضمّنة لأسباب النّزول.

وذلك أنّه يمكن أن يحمل على نزول القرآن مرّتين: مرّةً مجموعاً وجملة في ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان، ومرّةً تدريجاً ونجوماً في مدّة ثلاث وعشرين سنة، وهي مدّة دعوته صلى الله عليه وآله.

لكنّ الّذي لا ينبغي الارتياب فيه أنّ هذا القرآن المؤلّف من السّور والآيات بما فيه من السّياقات المختلفة المنطبقة على موارد النّزول المختلفة الشّخصيّة لا يقبل النّزول دفعة، فإنّ الآيات النّازلة في وقائع شخصيّة وحوادث جزئيّة مرتبطة بأزمنة وأمكنة

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

٥ ـ محمّد / ٢٠.

٦ ـ التّوبة / ١٢٧.

وأشخاص وأحوال خاصّة لا تصدق إلّا مع تحقّق مواردها المتفرّقة زماناً ومكاناً وغير ذلك، بحيث لو اجتمعت زماناً ومكاناً وغير ذلك انقلبت عن تلك الموارد وصارت غيرها، فلا يمكن احتمال نزول القرآن وهو على هيئته وحاله بعينها مرّةً جملةً ومرّةً نجوماً. فلو قيل بنزوله مرّتين كان من الواجب أن يفرّق بين المرّتين بالإجمال والتّفصيل، فيكون نازلاً مرّةً إجمالاً ومرّةً تفصيلاً، ونعني بهذا الإجمال والتّفصيل ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ اٰيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1] وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ* وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2]

وقد مرّ الكلام في معنى الإحكام والتّفصيل في تفسير سورتي هود والزُّخرف.

وقيل: المراد بنزول الكتاب في ليلة مباركة افتتاح نزوله التّدريجيّ في ليلة القدر من شهر رمضان، فأوّل ما نزل من آيات القرآن – وهو سورة العلق أو سورة الحمد – نزل في ليلة القدر.

وهذا القول مبنيّ على استشعار منافاة نزول الكتاب كلّه في ليلة، ونزوله التّدريجيّ الّذي تدلّ عليه الآيات السّابقة، وقد عرفت أن لا منافاة بين الآيات. على أنّك خبير بأنّه خلاف ظاهر الآيات.

وقيل: إنّه نزل أوّلاً جملة على السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ نزل من السّماء الدّنيا على الأرض تدريجاً في ثلاث وعشرين سنة مدّة الدّعوة النّبويّة.

وهذا القول مأخوذ من الأخبار الواردة في تفسير الآيات الظّاهرة في نزوله جملةً.

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ واقع موقع التّعليل، وهو يدلّ على استمرار الإنذار منه تعالى قبل هذا الإنذار، فيدلّ على أنّ نزول القرآن من عنده تعالى ليس ببدع، فإنّما هو إنذار، والإنذار سنّة جارية له تعالى لم تزل تجري في السّابقين من طريق الوحي إلى الأنبياء والرّسل وبعثهم لإنذار النّاس.

قوله تعالى: ﴿فِيْهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ ضمير ﴿فِيْهَا﴾ لليلة، والفرق: فصل الشّيء

---

١ ـ هود/ ١.

٢ ـ الزُّخرف / ٣ ـ ٤.

من الشّيء بحيث يتمايزان، ويقابله الإحكام، فالأمر الحكيم مالا يتميّز بعض أجزائه من بعض، ولا يتعيّن خصوصيّاته وأحواله، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[1].

فللأُمور بحسب القضاء الإلهيّ مرحلتان: مرحلة الإجمال والإبهام ومرحلة التّفصيل، وليلة القدر – على ما يدلّ عليه قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ – ليلة يخرج فيها الأُمور من مرحلة الإحكام إلى مرحلة الفرق والتّفصيل، وقد نزل فيها القرآن، وهو أمر من الأُمور المحكمة فرق في ليلة القدر. ولعلّ الله سبحانه اطّلع نبيّه على جزئيّات الحوادث الّتي ستقع في زمان دعوته، وما يقارن منها نزول كلّ آية أو آيات أو سورة من كتابه، فيستدعي نزولها واطّلعه على ما ينزل منها، فيكون القرآن نازلاً عليه دفعة وجملة قبل نزوله تدريجاً ومفرّقاً.

ومآل هذا الوجه اطّلاع النّبيّ ﷺ على القرآن في مرحلة نزوله إلى القضاء التّفصيليّ قبل نزوله على الأرض واستقراره في مرحلة العين، وعلى هذا الوجه لا حاجة إلى تفريق المرّتين بالإجمال والتّفصيل كما تقدّم في الوجه الأوّل.

وظاهر كلام بعضهم أنّ المراد بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ تفصيل الأُمور المبيّنة في القرآن من معارف و أحكام وغير ذلك. ويدفعه أنّ ظاهر قوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾الاستمرار، والّذي يستمرّ في هذه اللّيلة بتكرّرها تفصيل الأُمور الكونيّة بعد إحكامها، وأمّا المعارف والأحكام الإلهيّة فلا استمرار في تفصيلها، فلو كان المراد فرقها كان الأنسب أن يقال: فيها فُرِق.

وقيل: المراد بكون الأمر حكيماً إحكامه بعد الفرق، لا الإحكام الّذي قبل التّفصيل، والمعنى يقضى في اللّيلة كلّ أمر محكم لا يتغيّر بزيادة أو نقصان أو غير ذلك. هذا، وإلّا ظهر ما قدّمناه من المعنى. (١٨: ١٣٠ ـ ١٣٢)

---

١ ـ الحِجر / ٢١.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾ القيامة / ١٦ ـ ١٩

الّذي يعطيه سياق الآيات الأربع بما يحفّها من الآيات المتقدّمة والمتأخّرة الواصفة ليوم القيامة أنّها معترضة، متضمّن أدباً إلهيّاً كلّف النّبيّ ﷺ أن يتأدّب به حينما يتلقّى ما يوحى إليه من القرآن الكريم، فلا يبادر إلى قراءة ما لم يقرىء بعد، ولا يحرّك به لسانه، وينصت حتّى يتّم الوحي.

فالآيات الأربع في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَـيْكَ وَحْيُهُ﴾[1].

فالكلام في هذه الآيات يجري مجرى قول المتكلّم منّا أثناء حديثه لمخاطبه إذا بادر إلى تتميم بعض كلام المتكلّم باللّفظة واللّفظتين قبل أن يلفظ بها المتكلّم، وذلك يشغله عن التّجرّد للإنصات، فيقطع المتكلّم حديثه ويعترض ويقول: لا تعجل بكلامي، وانصت لتفقّه ما أقول لك، ثمّ يمضي في حديثه.

فقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ الخطاب فيه للنّبيّ ﷺ، والضّميران للقرآن الّذي يوحى إليه أو للوحي، والمعنى لا تحرّك بالوحي لسانك لتأخذه عاجلاً، فتسبقنا إلى قراءة ما لم نقرئ بعد، فهو كما مرّ في معنى قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾ القرآن هاهنا: مصدر كالفرقان والرّجحان، والضّميران للوحي، والمعنى لا تعجل به؛ إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك بضمّ بعض أجزائه إلى بعض وقراءته عليك، فلا يفوتنا شيءٌ منه حتّى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى القراءة مالم نوحِه بعد.

وقيل: المعنى إنّ علينا أن نجمعه في صدرك؛ بحيث لا يذهب عليك شيء من معانيه، وأن نثبّت قراءته في لسانك، بحيث تقرأه متى شئت، ولا يخلو من بعد.

وقوله: ﴿فإذا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾، أي فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً فاتّبع قراءتنا

---

١ ـ طه / ١١٤.

له واقرأ بعد تمامها.

وقيل: المراد باتّباع قرآنه اتّباعه ذهناً، بالإنصات والتّوجّه التّام إليه، وهو معنى لا بأس به.

وقيل المراد فاتّبع في الأوامر والنّواهي قرآنه، وقيل: المراد اتّباع قراءته بالتّكرار حتّى يرسخ في الذّهن، وهما معنيان بعيدان.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي علينا إيضاحه عليك بعد ما كان علينا جمعه وقرآنه، فثمّ للتّأخير الرّتبيّ؛ لأنّ البيان مترتّب على الجمع، والقراءة رتبة.

وقيل: المعنى ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ للنّاس بلسانك، تحفظه في ذهنك عن التّغيّر والزّوال حتّى تقرأه على النّاس.

وقال بعضهم في معنى هذه الآيات: إنّ النّبيّ ﷺ كان يحرّك لسانه عند الوحي بما أُلقي إليه من القرآن مخافة أن ينساه، فنُهي عن ذلك بالآيات، وأُمِر بالإنصات حتّى يتمّ الوحي، فضمير ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ للقرآن أو الوحي، باعتبار ما قرىء عليه منه، لا عتبار مالم يقرأ بعد.

وفيه أنّه لا يلائم سياق الآيات تلك الملاءمة؛ نظراً إلى ما فيها من النّهي عن العجل، والأمر باتّباع قرآنه تعالى بعد ماقرأ، وكذا قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، فذلك كلّه أظهر فيما تقدّم منها في هذا المعنى.

وعن بعضهم في معنى هذه الآيات: الّذي اختاره أنّه لم يرد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، يدلّ على ذلك ما قبله وما بعده، وليس في شيء يدلّ على أنّه القرآن، ولا شيء من أحكام الدّنيا.

وفي ذلك تقريع وتوبيخ له، حين لا تنفعه العجلة يقول: لا تحرّك لسانك بما تقرأه من صحيفتك الّتي فيها أعمالك، يعني اقرأ كتابك. لاتعجل، فإنّ هذا الّذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى سيّئاته ضجر واستعجل، فيقال له توبيخاً: لا تعجل وتثبّت؛ لتعلم الحجّة عليك، فإنّا نجمعها لك، فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه والاستسلام للتّبعة فيه، فإنّه لا يمكنك إنكاره، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لو أنكرت، انتهى.

ويدفعه أنّ المعترضة لا تحتاج في تمام معناها إلى دلالة ممّا قبلها وما بعدها عليه، على أنّ مشاكلة قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ في سياقه لهذه الآيات تؤيّد مشاكلتها له في المعنى.

وعن بعضهم: إنّ الآيات الأربع متّصلة بما تقدّم من حديث يوم القيامة، وخطاب ﴿لَاتُحَرِّكْ﴾ للنّبي ﷺ، وضمير ﴿بِهِ﴾ ليوم القيامة، والمعنى لا تتفوّه بالسّؤال عن وقت القيامة أصلاً، ولو كنت غير مكذّب ولا مستهزيء ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي بالعلم به، ﴿اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾ أي من الواجب في الحكمة أن نجمع من نجمعه فيه، ونوحي شرح وصفه إليك في القرآن، ﴿فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ﴾، أي إذا قرأنا ما يتعلّق به فاتّبع ذلك بالعمل بما يقتضيه من الاستعداد له، ﴿ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي إظهار ذلك بالنّفخ في الصّور، انتهى ملخّصاً، وهو كما ترى.

وقد تقدّم في تفسير قوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾ أنّ هذا النّهي عن العجل بالقرآن يؤيّد ما ورد في الرّوايات إنّ للقرآن نزولاً على النّبيّ ﷺ دفعة غير نزوله تدريجاً. (٢٠:١٠٩ ـ ١١١)

﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر /١

ضمير ﴿اَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن، وظاهره جملة الكتاب العزيز لا بعض آياته، ويؤيّده التّعبير بالإنزال الظّاهر في اعتبار الدّفعة دون التّنزيل الظّاهر في التّدريج.

وفي معنى الآية قوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِيْنِ* اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1] وظاهره الإقسام بجملة الكتاب المبين، ثمّ الإخبار عن إنزال ما أقسم به جملة.

فمدلول الآيات أنّ للقرآن نزولاً جملياً على النّبيّ ﷺ غير نزوله التّدريجيّ الّذي تمّ في مدّة ثلاث وعشرين سنة، كما يشير إليه قوله: ﴿وَقُرْاٰنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً

---

١ ـ الدّخان / ٣ - ٤.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[١]

فلا يعبأ بما قيل: إنّ معنى قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ ابتدائنا بإنزاله، والمراد إنزال بعض القرآن.

وليس في كلامه تعالى ما يبيّن أنّ اللّيلة أيّة ليلة؟ هي غير ما في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[٢].

فإنّ الآية بانضمامها إلى آية القدر تدلّ على أنّ اللّيلة من ليالي شهر رمضان. وأمّا تعيينها أزيد من ذلك فمستفاد من الأخبار. (٢٠: ٣٣٠)

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

الفصل الرّابع والخمسون

نصّ الشّهيد مطهّريّ (م: ١٣٩٩) في «دروس من القرآن»

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة / ١٨٥

فهو يصف شهر رمضان الّذي أنزل فيه القرآن. إذن ليلة القدر هي إحدى ليالي شهر رمضان، بدلالة الآية الأُولى من سورة القدر، وهذه الآية من سورة البقرة.

هنالك آية أُخرى من سورة الدّخان، فيها توضيح آخر للّيلة الّتي نزل فيها القرآن، وتلك الآية هي:

﴿حٰـم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ...﴾[١] أي أنّ ليلة نزول القرآن ليلة مباركة، وإنّنا نحذّر وننذر بالخطر، وهي ليلة تحدث فيها أُمور.

وعليه فإنّ اللّيلة الّتي نزل فيها القرآن – بحسب آية سورة البقرة – هي من ليالي شهر رمضان، وبحسب هذه الآية هي ليلة مباركة تجري فيها أُمور. أي أنّها ليلة التّقدير، ليلة توضع فيها سلسلة من التّقديرات. وبأخذ آية ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾[٢] بهذا الخصوص يتّضح أنّ اللّيلة من ليالي الله الّتي تجري فيها الأُمور.

---

١ ـ الدّخان / ١ – ٤.

٢ ـ القدر / ٤.

ويتبادر إلى الذّهن هنا سؤال، فإذا كان نزول القرآن في ليلة القدر، وليلة القدر من ليالي شهر رمضان، أفلا يعني هذا أنّ النّبيّ ﷺ قد بعث في ليلة القدر؟ فلماذا نحتفل بالمبعث في يوم السّابع والعشرين من رجب، مع أنّ القرآن يصرّح بنزوله في رمضان؟

هنا لابدّ أن نشير إلى موضوع، وإن لم يكن جواباً على هذا السّؤال، إلّا أنّنا لابدّ أن نشير إليه ، وهو أنّ للقرآن نزولين: النّزول الإجماليّ، والنّزول التّدريجيّ أو التّفصيليّ. فالنّزول الإجماليّ هو النّزول غير الزّمانيّ، والنّزول التّدريجيّ هو النّزول التّفصيليّ الزّمانيّ.

وكلمة «نزول» بحسب اللّغة العربيّة ترد في موضعين اثنين؛ الأوّل: من باب الإفعال (إنزال) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، والآخر: من باب تفعيل «تنزيل». علماء اللّغة العربيّة يقولون: إنّ هناك فرقاً بين هاتين الصّيغتين من حيث المعنى، فأنزلناه ترد حيث يقصد النّزول الكلّيّ دفعةً واحدةً، وتنزيل ترد حيث يكون التّنزيل تدريجيًّا. فالقرآن إذن إنزال وتنزيل.

ففي هذه الآيات: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ و ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ يأتي الفعل من إفعال، وهي كلّها تشير إلى نزول إجماليّ دفعةً واحدةً غير مشروط بزمان، نزل على محمّد ﷺ قبل تنزيله عليه بهيئة روح، لا بهيئة آيات وكلمات وألفاظ وسور. وبعد أن استقرّت تلك الرّوح في الرّسول الكريم، وهي روح القرآن، نزل القرآن مرّةً أُخرى بهيئة ألفاظ وكلمات وسور هذه المرّة.

إنّ لدينا بهذا الشّأن روايات كثيرة، فقد ورد عن الأئمّة الأطهار مراراً أنّ القرآن قد نزل على الرّسول الكريم بهيئتين: بهيئة إجماليّة واسعة ودفعة واحدة، وبهيئة تفصيليّة تدريجيّة زمانيّة. فذالك النّزول الإجماليّ الّذي نزل على الرّسول دفعةً واحدةً هو النّزول الّذي حدث في شهر رمضان. في ذلك الوقت لم يكن الرّسول قد بعث بعد، بعثة الرّسول تبدأ منذ أن نزل جبريل يحمل إلى الرّسول القرآن والرّوح والحقيقة في صورة ألفاظ وكلمات. ذلك هو زمان بعثة الرّسول ﷺ، وهو ما حصل في شهر رجب، ودام ٢٣ سنة.

هنالك لفظتان لكتاب الله: القرآن والفرقان، كما جاء في سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي

نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[١] الفرقان: من مادّة «فرق» أي الفصل والتّفريق. والمقصود هنا أنّنا أنزلنا القرآن مفرّقاً مجزّأً؛ لكي تقرأه على النّاس تدريجيّاً.

يرى بعضهم أنّ لفظة «قرآن» تطلق على كتاب الله مجموعاً، وتطلق عليه لفظة «فرقان» إذا قصدت أجزاؤه وتفاصيله، كما نزلت آياته وسوره. إنّ ما ذكرناه يتعلّق بنزول القرآن، إن كان في شهر رمضان أم في شهر رجب. (ص: ٣٤ ـ ٣٥)

ونصّه أيضاً في «تفسير سورة الفجر والقيامة»[٢]

إنزال القرآن على قسمين:

أُنزل القرآن على النّبيّ ﷺ في مرحلتين؛

إحداهما: بصورة إجماليّة وكلّيّة، فكان جملةً واحدةً، أُنزل في ليلة القدر من شهر رمضان، وقد أصبح النّبيّ ﷺ في حالة روحيّة خاصّة، وإنّ تلك الحالة الرّوحيّة في الواقع هي نفس الحقيقة القرآنيّة، فالقرآن نزل بنحو الإجمال ابتداءً لا بصورة آية آية أو كلمة كلمة حتّى استقرّ في الرّوح المقدّسة للنّبيّ الأكرم ﷺ.

وثانيهما: مرحلة الانفتاح، وهي نزوله آية آية، طيلة ثلاث وعشرين سنة، وكان هذا بمثابة نزول تفصيليّ. فلذلك كان النّبيّ ﷺ له القدرة أحياناً على بيان جملةً واحدةً ممّا يوحى إليه قبل نزوله؛ لأنّ القرآن كان موجوداً في روحه وحافظته بصورة إجماليّة من قبل، إذ كان نازلاً إليه، فلذا قال الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾[٣]، أي تأدّب ولا تحرّك لسانك متعجّلاً عند أخذ الوحي، حتّى لا يأتي على لسانك ممّا لم يوح إليك بعد، وهذا كلّه ناشيء عن اضطرابه في أن يفوته شيء من الوحي، والأمر ليس كذلك، فلا تخف أنّ هذا في عهدتنا ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، أي جمع ما أُنزل بصورةٍ متفرّقة ومتشتّتة، هو علينا، وقراءته أيضاً كلّه علينا وما أنت إلّا آخذ. تمهّل حتّى نقرأ عليك أوّلاً،

---

١ ـ الفرقان / ١.

٢ ـ تُرجِم من الفارسيّة.

٣ ـ القيامة / ١٦.

ثمّ تقرأ أنت بعدنا. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، أي توضيحه وتفسيره علينا، فإنّا نبيّن عليك هذه الحقائق، وأنت تبيّنها للنّاس بعد ذلك

﴿لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ...﴾ القيامة/١٦ ـ ١٩

جاءت أربع آيات مستأنفة من هذه السّورة[١]، كأنّها جمل معترضة كما يصطلح عليها المفسّرون ، والجملة المعترضة هي جملة تأتي في جميع الكلام، فمثلًا يتحدّث رجل بحديث، وكان ينبغي عليه الاسترسال فيه، إلّا أنّه يتفوّه ببضع جمل تتعلّق بموضوع آخر ، لأنّ الضّرورة تقتضي ذلك.

وهب أنّ خطيبًا يتكلّم وفي أثناء الكلام أيقن أنّ قولًا خارج نطاق البحث ينبغي ذكره، فيقول مثلًا: ياهذا! أنجز هذا الأمر على هذا المنوال، ثمّ يواصل حديثه السّابق ثانية.

لقد أوعز الله تعالى إلى النّبيّ ﷺ في أواسط هذه السّورة في كيفيّة تلقّي الوحي، وقد وردت ثلاث آيات حول ذلك، وهي تدلّ على أنّ رسول الله ﷺ يعتريه الارتباك والقَلَق حين يتلقّى قلبه الوحي، خوفًا من أن يتلقّاه ناقصًا فيردّده بسرعة، يردّد مايلقي إليه الوحي فورًا، ليتلقّاه جيّدًا، حتّى لاتفوته كلمة منه.

قال في سورة الأعلى/ ٦ : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسٰى﴾ ، فقد تكفّل القرآن الكريم ذلك قائلًا: إنّ ذلك لايعنيك، فنحن لاندعه ينسى، وجمعه منوط بنا، وماعليك إلّا أن تتأهّب لتلقّي الوحي.

وقال في سورة طه/ ١١٤: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي لاتعجل بالقراءة قبل انتهاء الوحي.

هب أنّ أحدًا يملي عليك كلامًا وأنت تريد أن تعيه بدقّة، فإنّك تخطر أوّله في بالك أو تردّده في لسانك وهو لم يتمّ كلامه بعد. وقال هنا ـ في سورة القيامة ـ أيضًا: ﴿لاتُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ أي لاتحرّك لسانك أثناء الوحي لتعجل به، وهي كأنّها جملة معترضة ، وقد قلنا سابقًا: إنّ الله أوعز إلى النّبيّ في كيفيّة تلقّي الوحي وسط سورة القيامة.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ﴾ أي أنّ جمع مايوحى إليك وقراءته منوط بنا.

---

١ ـ أي سورة القيامة.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي دعنا نقرأه عليك أوّلًا، ثمّ اقرأه أنت.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ أي ثمّ إنّ بيان الوحي وتفسيره منوط بنا.

[ماهي تلك العجلة في أثناء الوحي؟]

ولكن ماهي تلك العجلة الّتي كان يتّصف النّبيّ ﷺ أثناء تلقّي الوحي؟ للمفسّرين هنا قولان:

[١] فبعض قال: يوحى إليه أحيانًا سورة بكاملها، أو خمس آيات أو ستّ أو عشر آيات متوالية، فتنزّل على قلب رسول الله ﷺ، فيردّدها مبتدئًا بأوّلها، والوحي لازال نازلًا.

[٢] وقال بعض آخر كصاحب تفسير الميزان في هذا المضمار: لم يكن النّبيّ ﷺ يردّد الآيات من أوّلها بينه وبين نفسه والوحي لازال نازلًا، بل كأنّه ينزل عليه الوحي وباله مشغول بالتّكرار والوحي لازال نازلًا عليه.

وخلاصة كلامهم؛ أنّ النّبيّ ﷺ نتيجة أُنسه بالوحي وشدّة تلقّيه منه، وكذلك نزول الآيات عليه تدريجيًّا، كان كثيرًا ماأُوحي إليه بعض الكلام إلّا أنّه لتعلّق قلبه بالوحي وولعه به يذكره قبل أن يتفوّه به جبرئيل ويلقيه إليه، ولم يزل بعض آخر لم ينزّله على قلبه فيذكره. ولذا قيل له: لاتفعل ذلك، دع الملك يلقي إليك الوحي أوّلًا، ثمّ اذكره بعد ذلك.

ولا يخفى أنّ القرآن أُوحي إلى النّبيّ ﷺ بنمطين؛ الأوّل إجماليّ، والثّاني تفصيليّ، فالإجماليّ قد أُنزل دفعةً واحدةً وفي ليلة واحدة، والتّفصيليّ أنّه قد أُعطيت للنّبيّ ﷺ حالة روحيّة وكانت في الحقيقة بمنزلة حقيقة القرآن بشكل خفيّ، وليس بشكل آية آية وسورة سورة.

وقد نزل الوحي الثّانويّ الّذي كان على شكل آية آية وسورة سورة مدّة ثلاث وعشرين سنة، وهو وحي تفصيليّ أيضًا. فالعلّة إذًا في أنّ النّبيّ ﷺ كان يستطيع أحيانًا ترديد جملة لازال جبرئيل لم يتفوّه بها، وقد أُوحيت إليه لأوّل مرّة بنحو تفصيليّ، هي أنّها كانت بنحو إجماليّ في روحه وحافظته سابقًا. (ص: ٦٥ ـ ٦٨)

الفصل الخامس والخمسون

نصّ السُّبكي في «رياض القرآن»

تنزيله

كان محمّد بن عبدالله ﷺ يجنح في بعض أحيانه إلى الخلوة بنفسه بعيداً عن النّاس، بل بعيداً عن الأماكن الآهِلة.

وكانت خلوته هذه تكثر في رمضان، وفي غار برأس جبل حِراء على بعد من مكّة؛ إذ كان رمضان شهراً يعظّمه العرب قديماً، ويكثرون فيه من المكارم المحمودة، نظراً لما كان لهذا الشّهر من خصوصيّة في الشّرائع الأُولى، فطاب لمحمّد أن يكثر من الخلوة الّتي يتجرّد فيها للتّفكير والاهتداء بعقله، إلى ما يستطيع الاطمئنان إليه من مظاهر الوجود فيستأذن زوجه خديجة ويأخذ زاده، ويمكث هناك اللّيالي والأيّام؛ يفكّر في عجائب هذا الكون، وفي قدرة خالقه، ويلتمس بعقله ما يهتدي إليه من حكم الله، ويهيم بما وراء هذا الإبداع من معالم الحقيقة المكنونة، ومن أسرار في ملكوت الله الّتي لا يحيط بها غير الله.

وكان هذا الاتّجاه نفسه تجاوباً مع ما تكنّه الأقدار من سرّ يتعلّق بمحمّد بالذّات، وهو لا يدري في دخيلة نفسه أنّ وراء هذا الاتّجاه ما وراءه من تدبير الله.

وإنّما هي أحداث تتوارد، وتجري لمستقرّها، ثمّ تلتقي في حينهاعلى ما شاء الله

وقدره.

وقد شاءت حكمة الله أن تفصح عن هذا كلّه في ليلة من ليالي رمضان في السّنة الأربعين من عمر محمّد ﷺ، وهي ليلة القدر؛ إذ نزل عليه جبريل ملك الوحي لأوّل مرّة في اليقظة، يخاطبه بما أمره الله: ﴿اِقْرَأ﴾. وكيف يقرأ إنسان أُمّيّ لا يقرأ، ولم يتعلّم القراءة؟

هذا تكليف مهيب، يقابل بالاعتذار من جانب محمّد: «ما أنا بقارىء»، يتكرّر الأمر، ويتكرّر الاعتذار ثلاث مرّات، كما أثبت ذلك السّنّة الصّحيحة فيما تحدّث به الرّسول بعد، وأخيراً يقرأ جبريل أمامه، ويقرأ هو بعده: ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَاْ وَرَبُّكَ الاَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الاِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

وكيف تكون الرّوعة لهذه المفاجأة!

أوّل إشراقة حيّة من إشراقات الوحي في حياتنا الجديدة، وعلى غير أُلف بمثلها، إلّا ما كان من أحلام صادقة يراها محمّد في منامه، وتتحقّق يقظة كما رآها، فيكون فيها بعض الاستئناس، بأنّ للّه توجيهاً خاصّاً يعلم الله مداه وسيكون.

أوّل إشراقة يتلقّاها فتأخذ مأخذها من نفسه رهبة وإجلالاً، ويهتزّ لها وجدانه خشيةً وإيماناً، وتبتهج لها روحه تعلّقاً بما أُوحي إليه. وتستأثر بمشاعره تقديراً لما يناط به، وتتهيّأ عزيمته لحمل ما يلقى عليه.

وفي هذه الإشراقة الأُولى توجيه إلى أنّ رسالة محمّد – منذ بدايتها وفي أخصّ ملامحها – رسالة العلم والتّعليم في الجانب الرّوحيّ، ورسالة البحث في جوانب الحياة كلّها.

وتوجيه كذلك إلى أنّ الحياة الجديدة حياة العقل والمعرفة و الاهتداء، أكثر من أن تكون حياة المُلذّات والمُتعة بالشّهوات.

أو هي حياة الوعي، وحسن الاختيار. أو هي في خلاصتها حياة الإسلام وكفى.

حكمة التّكرار للأمر والاعتذار

أثبتت لنا السّنّة الصّحيحة الّتي تحدّث بها الرّسول لأُمّته، أنّ الأمر بالقراءة، والاعتذار

---

١ ـ العلق / ١ – ٣.

تكرّر ثلاث مرّات

وهل يكون تكرار الأمر من جبريل، وتكرار الاعتذار من محمّد ممّا يحصل اعتباطًا وصدفةً؟

أمّا الاعتذار فكان طبيعيّاً؛ لأنّه الاعتذار بالأمر الواقع، وجبريل يعرف – لا محالة – إنّ محمّداً أُمّي، وأنّه يكرّر عليه الأمر عالماً بعجزه القراءة.

ثمّ هو في أمره أوّلاً وثانياً وثالثاً لم يعيّن له ما يقرأه، كما عيّنه في الرّابعة أخيراً، وتلا أمامه. الّذي أفهمه من ذلك التّكرار حكمة، إذا فهمت على وجهها لا يقال: إنّ ذلك كان تكليفاً بما لا يطاق، ولا يقال: كيف تطلب القراءة ممّن لا يقرأ؟ ولا يقال: كيف قرأ من لم يتعلّم؟.

تلك الحكمة

١ – ليركز – منذ البداية – في وعي محمّد أنّ هذه رسالة حتميّة، لا مفرّ عن تحمّلها.

٢ – وليزيد في وعيه أن ينتبه لتلقّيها، ويفتح قلبه لها، ويطمئنّ إلى اختياره لتبليغها، وأهليّته للقيام عليها.

وإنّ شأناً خطيراً كشأن الرّسالة ليحتاج عقلاً إلى المزيد في التّنبيه عليه، وعلى التّفرّغ له، وليكون المختار للرّسالة على بيّنة ممّا عهد الله إليه، وعلى يقظة دائمة نحو صلته الخاصّة باللّه، إلى أن ينتهي من تبليغ رسالته، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً. فيكون التّهيّب من جانب الرّسول طبيعة إنسانيّة.

ويكون تكرار الأمر من جبريل وسيلة للمزيد في التّنبيه، والحرص على شأن قدسيّ جدير بذلك. على أنّ رهبة محمّد لنزول الوحي في فرصته الأُولى، لم تزايله بانصراف الوحي عنه الآن.

بل يرجع إلى زوجه خديجة مأخوذاً بتلك المشاعر الّتي تغمره، ويقصّ عليها مالقيه في عزلته، ويتدثّر في فراشه، ويأخذ مضجعه ليستقرّ من روعه.

ثمّ كان بعد ذلك ما كان من شؤون متتابعة، تسير في أفقها المرسوم، إلى أن انتهى

الرّسول من تبليغ رسالته، وانتهت حياته بعد تمام ثلاثةوستّين عامًا (عليه الصّلاة والسّلام).

إنزال القرآن وتنزيله

في القرآن آيات صريحة في أنّه أُنزل في رمضان، وأنّ إنزاله كان في ليلة مباركة، وأنّه أُنزل في ليلة القدر.

وتلك النّصوص على ترتيبها في المصحف رقم (١٨٥) من سورة (٢) البقرة، ورقم (٢) من سورة (١٢) يوسف، ورقم (٤٤) من سورة (١٦) النّحل، ورقم (١) من سورة (٢٠) طه، ورقم (٣) من سورة (٤٤) الدّخان، ورقم (١) من سورة (٩٧) القدر.

والتّعبير في هذه المواطن ونحوها بلفظ أنزلنا، يفيد في اللّغة أنّ القرآن هبط به جبريل على النّبيّ ﷺ جملةً واحدةً، لا نجوماً مقسّطة. وفي القرآن كذلك آيات كثيرة صريحة التّعبير في أنّه كان تنزيلاً، والتّنزيل يفيد في اللّغة، أنّه كان مفرّقاً على أقساط في نزوله على الرّسول ﷺ.

منها آية (١٩٦) سورة (٧) الأعراف، وآية (٩) من سورة (١٥) الحِجر، وآية (٤٤) من سورة (١٦) النّحل، فقد ذكر فيها الإنزال والتّنزيل، كما صرّحت بمثل ذلك آية (١٠٦) سورة (١٧) الإسراء، بل منها تصريح بالتّفريق.

فنحن أمام آيات قطيعة الثّبوت والدّلالة على أنّ نزول القرآن موصوف بالإنزال وبالتّنزيل، وكلا الوصفين حقّ، ولا تعارض بينهما. فإنّه أُنزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا في اللّيلة المباركة من شهر رمضان وهي ليلة القدر، كما هو مصرّح به في آية البقرة والدّخان والقدر.

ثمّ نزل بعد ذلك مفرّقاً على محمّد (صلوات الله عليه) وفي أوقات متعدّدة منذ ابتدأ نزوله في غار حِراء، وفي ليلة القدر من رمضان، وهي أوّل عهد الرّسالة، مبدوءاً بسورة العلق.

وبهذا تتلاقى الآيات كلّها في وضح من الحقّ على أنّ القرآن أُنزل جملة، ثمّ كان

تنزيله إلى الدّنيا مفرّقاً طول عهد الرّسالة في ثلاث وعشرين سنة. ومع أنّ التّوراة أُنزلت دفعةً واحدةً في ألواح مكتوبة، وأنّ الإنجيل أُنزل كذلك دفعةً واحدةً من طريق الوحي على عيسى عليه السلام فقد شاء الله أن يجمع للقرآن بين صفتي الإنزال جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا، والتّنزيل مفرّقاً على رسوله صلى الله عليه وآله. وحكمة التّفريق في تنزيله مقسطاً تتّضح من وجوه:

١ - أن يتمشّى - غالباً - مع المناسبات الدّاعية إلى التّنزيل، كحادثة تحتاج إلى بيان الحكم الشّرعيّ فيها، أو سؤال يتقدّم به بعض النّاس إلى الرّسول عن أمر ما، فيكون التّنزيل عند المقتضي أوقع في النّفس.

٢ - أن يكون تفصيله في نجومه أخفّ على الأفهام في وعيه وحفظه، والله سبحانه يريد للقرآن أن يكون ميسّراً على عباده من جهة التّنزيل ومن جهة الوعي، والإلمام لقوم أُمّيّين.

٣ - أن يكون تقسيطه وسيلة رتيبة، في تربية بيئة تحتاج إلى تدرّج في العلاج، كما يحتاج المريض إلى الدّواء شيئاً فشيئاً فإنّ العلّة لا تستأصل دفعةً واحدةً، وأنّ العافية لا تعاود البدن مرّةً واحدةً، فيكون التّدرّج مسايراً للفطرة.

٤ - وأن يكون التّقسيط سبيلاً إلى التّدرّج في تشريع الأحكام شيئاً فشيئاً، وإذا كانت نفوس العرب طليقة في دنياها، وسائبة في جهالتها، يكون التّدرّج معهم في التّشريع أجدىٰ عليهم من التّكليف جملةً واحدةً، وهذا ما نحسّه نحن في أساليب تربيتنا.

على أنّ في تقسيط القرآن نجوماً متفرّقة فرصة تتيح للنّاس يومذاك أن يتفقّدوا ما في الآيات من مقاصد، وأن يأخذوا بها عن فهم وموازنة، وخاصّة العرب. فهم من بداو تهم أُمّة منطق وحِجاج بلاغيّ، والتّريُّث في التّنزيل يساعد الجميع على النّقاش، وعرض الشّبه وسماع البيان، ويحبّب إلى العقلاء أخذهم بهذا الدّين البيّن عن اختيار منهم، وعن إيمان به يقتضيهم الغيرة عليه والدّفاع عنه. والعربيّ معروف بالوفاء بعهده، وبالتّضحية في سبيل ما يلتزمه، فكيف إذا كان ديناً؟

وكيف إذا كان هذا الدّين يراد للخلود والاستقرار، وجمع النّاس تحت رايته إن

حسن اختيارهم لأنفسهم واستجابوا؟

لهذه المقاصد السّالفة كان نزول القرآن مفرّقاً من تمام الحكمة فيه، ومن مباهج ميزاته ومحاسنه، ومن مجاراة الطّبائع في التَّرَيُّث عند الإقدام على شيء جديد لم يألفوه من قبل.

شبهة أُولى

هذا ورُبّ سائل تخالجه شبهات يقول:

إذا كان التّدرّج في نزول الكتاب مقسطاً رحمة بالنّاس، وتسهيلاً عليهم، فلماذا كانت الكتب السّالفة كالتّوراة والإنجيل تنزل دفعةً واحدةً، ولم تكن تفريقاً؟ ويجاب عن هذا بما ننقله عن بعض العلماء، وبمانستنتجه نحن من جوّ الموضوع.

فأوّلاً – كانت تلك الأُمم الكتابية على شيء من تعلّم، فيكون استعدادهم للمعرفة أرجح ممّا كان عليه العرب حين واجههم القرآن قبل سواهم. فحاجة هؤلاء العرب إلى التّدرّج أوضح، وأنت تعلم أنّ أهل الكتاب يقرّرون ذلك، ويعيّرون العرب بأنّهم أُمّيّون وليسوا على علم.

وثانياً – تلك أُمم يعلم الله من أمرها مع صلتها بالعلم وبالرّسالات من قبل أنّها سوف لا تقلع أكثريّتها عمّا ألفت، وسوف يكون شأنها إزاء كتبها مذبذباً، وستمدّ يدها إلى كتبها بتصرّفات من عندها؛ ليطابق أهواءهم.ولن يتغيّر حالهم عن ذلك بتنزيل الكتاب عليهم مفرّقاً، أو جملةً واحدةً.

فكأنّهم في تقدير الله – سبحانه – وفي قصارىٰ أمرهم سيظلّون جامحين، لا يحتكمون إلى عقل ولا موازنة، وإنّما يصطنعون محاولات زائفة؛ ليبرّروا دائماً ما هم عليه.

فخصائص الشّعوب لها اعتبار في رعاية التّشريع، وقد روعيت في تفريق القرآن خصائص العرب الّتي يمتازون بها في الجملة، والّتي يشاركهم في بعضها سواهم، من ملائمة التَّرَيُّث، والإمهال، لإقناعهم بالقرآن، وليدخلوا في حوزته على بصيرة وتعقّل، كما يدعوهم القرآن نفسه.

وكذلك روعيت خصائص أهل الكتاب في المراوغة والتّفلّت من الحقّ على نحو ما نراهم إلى اليوم، فنزلت كتبهم جملةً واحدةً؛ لاستواء الوجهين في شأنهم الدّينيّ، ولئن كان من عيوب العرب تقليد الكثير منهم لما كان عليه آباؤهم، فأهل الكتاب أشدّ منهم تقليداً وتشبّثاً حتّى مع العلم بالحقّ، وحاضرهم يشهد عليهم بذلك مع ما بلغوا من حضارة.

ثمّ تنعكس الشّبهة منهم، فيتمدّحون بأنّ كتبهم نزلت جملةً، وهذا عندهم أمارة على صدقها من عند الله، ولو كان القرآن حقّاً مثلها لما تغيّرت صفة تنزيله عن إنزال كتبهم جملةً واحدةً، هذا زعمهم!.

ومع ما سبق لنا في تعليل ذلك التّفريق، نرى أنّ القرآن نفسه يبيّن الحكمة المعقولة، ويحتاج تلك الشّبهة الهزيلة منهم في سورة الإسراء رقم (١٧) آية (١٠٦)، وفي سورة الفرقان (٢٥) آية (٣٢)[١].

ففي المقامين تصريح بالقصد من التّفريق، وتلويح واضح بأنّه كتاب خالد يراد به التّمهّل، والمُكث في تبليغه، وتلاوته على النّاس، ويراد تثبيت قلب النّبيّ وتمكينه من وعيه، والإحاطة بما فيه، وكذا بالنّسبة لأُمّته.

وإلى جانب هذين المقصدين تصريح بأنّ كلّ شبهة يعرضونها، وكلّ مثل يضربونه لتعزيز الشّبهة – كمسألة التّنزيل – فاللّه تعالى كفيل في ذلك كلّه ببيان الحقّ، وتفسير الحكمة وتعزيز القرآن بما يحبط شبهاتهم، فلو كانت وجهتهم إلى الحقّ في ذاته لآمنوا بكتاب لا تَعلَق به شبهة إلّا بطلت، وهو لا يناقض كتبهم فيما عرفوا عنها من أُصول أخلاقيّة أو أعتقاديّة صحيحة لم تشبها الأراجيف، ولا مسّتها نزعة الابتداع، ولا دعاهم لغير الله، ولا جردهم من العقليّة وحقّ المناقشة، ولا رضي لأتباعه الاستسلام للتّقليد.

كما وافق كتبهم في بعض آياتها، وفي كثير من أحكامها البريئة عن التّحوير، كما شهد كثير من علمائهم، وهو كتاب أنصفهم، فاعترف بموافقته لتلك الكتب في شيء من

---

١ ـ ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾. ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾.

آياتها، آية (١٨﴾ و (١٩) من سورة الأعلى (٨٧)[١]، فلو كان الحقّ رائدهم لما أطالوا في اللّجاج على أنفسهم.

شبهة ثانية

ونعرض شبهة علميّة – لا اعتقاديّة – لبعض الكتّاب؛ إذ يقولون: إنّ القرآن نزل على النّبيّ ﷺ في أوّل الأمر مناماً لا يقظة.

ومنشأ هذه الشّبهة، أنّ بعض الأحاديث جاءت صريحة في نزول القرآن عليه مناماً، فانقدح في أذهانهم أنّ سورة العلق – وهي أوّل ما نزل – كانت مناماً لا يقظة.

والتّحقيق العلميّ في ذلك أنّ بدء الوحي عامّة كان من طريق المنام قبل نزول القرآن بعدّة أشهر سابقة على رمضان الّذي نزل فيه القرآن علانية.

فما كان النّبيّ ﷺ يرى مناماً إلّا تحقّق على وفق ما رآه، وليس هذا كثيراً على من شاء الله إعداده لرسالته الخاتمة، ونشأ نشأة محمّد خاصّة، فضلاً عن أنّها سنّة الله مع أنبيائه، فإنّ رؤياهم وحي،كما حدث لإبراهيم في ذبح ولده إسماعيل عليه السلام، ثمّ قام بالتّنفيذ وهمّ به، لولا أنّ الله تعالى فدىٰ إسماعيل بذبح من الضّأن، وحقّق حكمته في اختبار إبراهيم.

فلمّا قرب نزول القرآن كانت للنّبيّ تباشير تصادفه، وهو لا يدري ما وراءها، كالمناداة عليه وهو سائر في طريقه، ثمّ لا يرى أحداً، كما تحدّث بذلك التّاريخ، وكاعتزاله النّاس على غير ما عهد بينهم، وكاندفاعه في لهفة إلى إطالة الخلوة بعيداً عن النّاس مُمعِناً في تفكيره في هذا الملكوت الرّبانيّ الواسع.

وكان من هذه التّباشير أن رأى الرّؤيا المنامية بما نزل عليه بعد من سورة العلق، وذلك من رفق الله به؛ ليدرّبه على استقبال رسالته ولقاء جبريل بها، ثمّ نزل عليه الوحي عياناً في ليلة القدر تحقيقاً لما مرّ به من رؤيا منامية.

فلمّا نزل القرآن الكريم، وورث النّاس عن النّبيّ أحاديثه في هذا وفي كلّ شأن من

---

١ ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

شؤون الرّسالة، وحفظ النّاس ما رووه منثوراً بينهم، وجاء عهد الجمع والتّدوين الواسع للسّنّة النّبويّة في آخر القرن الأوّل الهجريّ، لم يكن من الصّحابة إلّا الرّواية للأحاديث على ما ثبت لديهم، ولم يتردّدوا في الأخذ بها مطمئنّين إلى صحيحها، وفاهمين لتوجيهها، والتّوفيق بين ما يبدو من ظاهرها متعارضاً. ففهم البعض فيما بعد أنّ نزول القرآن كان مناماً.

ومن البعيد في نظر العقل أن يكون المنام مع التّصديق به وتحقّقه واعتباره وحياً صادقاً، مصدر نزول القرآن الّذي قصد به أن يكون دستور الحياة إلى نهايتها، وقصد به أن تكون تلاوته عبادة مشروعة، وأن يكون التّدبّر فيه كذلك عبادة، وقصد به مع هذا كلّه تحدّي خصومه، أن يأتوا بسورة مثله.

بعيد في نظر العقل، أن يكون المنام مصدراً لكلام أخّاذ يتأثّر به غلاظ القلوب، بل يتأثّر به الجنّ ويؤمنون، ويعلنون لقومهم إعجابهم بما سمعوا منه، ويدعونهم إلى التّصديق به مطمئنّين إلى أنّه كلام الله ولا جرم.

وفي ذلك آيات كثيرة لم تَعلَق بواحدة منها شبهة. آية ٢٩ – ٣٢ سورة الأحقاف، وآية ١ – ٢ سورة الجنّ.

وعجيب هذا؛ لأنّنا لم نسمع عن رسول سابق أنّه تلقّى رسالته مناماً، وكثيراً ما يصرّح القرآن بأنّ سنّة الله في إرسال رسله واحدةً، ولكنّ النّاس في شبهاتهم يجادلون في الأمر العياني المشاهد، وإذا كانوا يجحدون المعجزة المشاهدة لهم، فهل كان يقنعهم المنام مهما كان أكيداً؟.

وما كانت حكمة الله تأذن ببعث رسله مناماً؛ ليفتح بها باب المنازعة والشّبهة على أنبيائه المبعوثين ليقرعوا الباطل بالحقّ الصّراح؟ لم يبق غير أنّها شبهة واهية، نشأت من أساليب الرّواية للأحاديث، وعدم تمحيصها بعقول المجادلين.

ثمّ هي لا تستحقّ أن تكون رأياً نركن إليه، أو نقيم له أيّ اعتبار.

على أنّ الله سبحانه أعفانا من نِقاشها بما بيّنه في آيات كثيرة من إنزاله في ليلة كذا وفي شهر كذا على نحو ما سلف.

شبهة ثالثة

زعم قائلون: أنّ القرآن نزل بمعناه لا بلفظه، وأنّ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام عبّر عن المعنى بلفظ من عنده.

وكلّ ماقامت عليه تلك الشّبهة العمياء جملةً واحدةً نزلت في القرآن تـفيد نـزول جبريل بالقرآن على قلب محمّد صلوات الله عليه وسلامه آية ١٩٣ - ١٩٥ الشّعراء [١].

فهم يقولون: إنّ النّزول على القلب لا يعدو أن يكون وحياً بالمعنى لا باللّفظ، مع أنّ الآية نفسها تصرّح بأنّ النّزول كان بلسان عربيّ مبينٍ، فعجيب أن يتلمّسواالشّـبهة فـي جملة محتملة لا نصّاً، ثمّ يتعاموا عن بقيّة الآية، وعن عشرات مـن الآيـات الأُخـرى الصّريحة في التّنصيص القطعيّ على أنّه قرآن عربيّ بلسان عربيّ. الخ.

فهل اللّسان معنى نزل به الوحي على القلب؟ أو هل اللّغة الّتي تجري على جارحة اللّسان في منطقه؟

كثرت الآيات النّاطقة بعربيّة القرآن في أُسلوبه المنزل به حتّى بلغت عشر آيات أو أكثر، وأكثر ما ترى هذا الوصف في فواتح السّور.

ولعلّ حكمة الإكثار منه في الفواتح تنبيه القارئ والسّامع والنّاس جميعاً عند البدء في تلاوة السّورة على نزول القرآن بلفظه المعجز، كماتلاه عليهم الرّسول وبلّغه، وتواتر عنه تواتراً لم يدع أثارة للاشتباه في ذلك. وممّا يعزّز هذا الفهم أنّ تلك الفواتح مـقرونة بذكر الكتاب، أو القرآن غالباً للإشادة به.

ولولا وضوحها وكثرتها في أوائل السّور وفـي ثـنايا القـرآن، لذكـرنا شـيئاً مـنها للاستشهاد به، ولكن هذا شأن بلغ من الوضوح واليقين مبلغ ما تراه العين وتلمسه اليد.

أمّا نزول القرآن على قلب محمّد فمعناه تمكينه من وعيه ومن تعقّله، والتّثبّت عليه لا مجرّد إخبار به، ثمّ تركه للنّسيان، كما هو الشّأن غالباً في أحوال الإنسان.

وفي القرآن نفسه ما يقرّر هذا التّوجيه في سورة الفرقان رقم (٢٥) آية (٣٢) ثمّ في

---

١ - ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ﴾.

سورة الأعلى رقم (٨٧) آية (٦)[١].

ولو كانت هذه الشّبهة من غير المسلمين لقلنا: أنّها نفثة الحقد والخصومة، ولكنّ العجيب أنّ المتحدّثين بها أفراد منّا، يقرأون القرآن ولا يعجبهم إلّا أن يطالعونا بالجديد الغريب تقليداً للملاحدة.

أمّا نزول الوحي على قلب محمّد، وتعبيره عنه بلفظه هو، فذلك شأن السّنّة فقط، ونعني بها الأحاديث النّبويّة، فإنّها وحي لا ينطق فيها النّبيّ عن الهوى والتّعبير من عنده، ولذلك لم تكن ألفاظها للتّلاوة كألفاظ القرآن، ولذلك أيضاً جازت رواية الحديث بمعناه لا بلفظه. وهذا غير جائز في القرآن، فإنّ لفظه لا يروىٰ إلّا بنصّه القرآنيّ، وطبعاً هذا بالنّسبة لعباراته، أمّا في معانيه وتفسيراته فلا مانع إطلاقاً من سوقها بكلام من عندنا؛ لأنّ ذلك غير قرآن.

وهناك أحاديث قدسيّة – وهي ما ينزل بها الوحي عن الله بلفظها ومعناها – فالتّعبير عنها كذلك لا يكون بلفظ النّبيّ ﷺ، بل بلفظها النّازل عن طريق الوحي، ومن أجل هذا ميّزوها باسمها الخاصّ «أحاديث قدسيّة»، ومثالها: «ياعبادي إنّي قد حرّمت الظّلم على نفسي، فلا تظالموا...».

وفوق ما تقدّم لو كان القرآن بلفظ النّبيّ ﷺ لما تكرّر وصفه بأنّه آيات مفصّلات وآيات بيّنات، ولا وقع العجز من خصومه عن مضاهاته ولو بقليل مثله، فإنّ محمّداً عربيّ منهم، وإذا عجز بعضهم لأمكن لجمع منهم أن يتضافروا على شيء ليسقطوا حجّته عليهم، ويشفوا أنفسهم بالقليل ممّا أتوا به.

ولكنّ العجز لازمهم قديماً وحديثاً، حتّى شهدت الدّنيا في عصورها المترادفة، بأنّ القرآن لا يزال معجزاً لقومه، وذلك حجّة عليهم وعلى سواهم ستظلّ قائمة.

وسيظلّ كذلك كما تحدّث الله وقرّر سبحانه، أنّ الإنس والجنّ عاجزون عن مضاهاته ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وكما بلغ القرآن شأوَه في الكمال في أُسلوبه وموضوعاته، كان مبلغه من القوّة

---

١ ـ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾.

والرّوعة في التّحدّي؛ إذ لم يستغرق التّحدّي سورة مطوّلة من سوره، ولم يكن في مقام فسيح من آياته، بل تحدّاهم في أربعة مواضع موجزة:

الأوّل: في سورة الإسراء آية (٨٨): ﴿قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْاٰنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

لم تكن هذه آخر آية نزلت من القرآن، حتّى يكون التّحدّي بالقرآن كلّه، فضلاً عن كون السّورة مكّيّة، والتّحدّي بها كان في عنفوان الخصومة من قريش في مكّة، فيكون ظاهراً أنّ المراد من القرآن في هذا الأوان هو ما كان قد نزل وتسامعوا به لا كلّه.

فإذا لوحظ أنّ هذا التّحدّي مقصود منه التّحدّي بشيء من جنس هذا القرآن الّذي ينزل، وبهذا القدر المحدود الّذي نزل، وأنّه كان موجّهاً إلى الإنس والجنّ متعاونين في تضامن مفروض، تبيّن ماهنا من شموخ للقرآن، واستهانة بخصومه، وازدراء بقولهم. وتركهم أمام هذه السّخريّة الفاضحة لشأنهم.

الثّاني: في سورة هود عليه السلام آية (١٣): ﴿اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾، تكون أشبه به في خصائصه الّتي تسمعونها، وتدركونها بفطرتكم العربيّة.

ولكم أن تستعينوا في محاولتكم بمن يتاح لكم جمعه من خلق الله جميعاً. وهو لم يشترط عليهم سوراً طوالاً تشبه بالقرآن، وحسبهم أن يأتوا بسور ولو من قصاره؛ لتصدق دعواهم أنّه من عمل محمّد.

وواضح أنّ التّحدّي هنا شديد؛ لأنّه اقتصد في العدد إلى عشر سور فقط، ولم يجعله متعلّقاً بأكثر، ولأنّه أفسح مجال الاستعانة بكلّ مخلوق من إنس وجنّ وسواهما، وكان في الأوّل يتحدّى الإنس والجنّ فقط.

الثّالث: في سورة يونس عليه السلام آية (٣٨): ﴿اَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ..﴾ وهذا أشدّ من سابقه؛ لأنّه نزل في العدد إلى سورة واحدة ولو قصيرة، ويترك لهم الفسحة في الاستعانة بمن يستطيعون كذلك من خلق الله جميعاً، ولو من غير الإنس والجنّ من عجماوات وجماد، ممّن لم يتعلّق بهم تكليف إن فرض ذلك.

الرّابع: في سورة البقرة آية (٢٣): ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.وكان هذا الأخير في المدينة، وفيه إيحاء بأنّ عجزهم دائم، فإنّهم لم يستطيعوا ذلك أيّام صولتهم في مكّة، فهل يطمعون في ذلك بعد أن وهنت قواهم، وساورهم اليأس من مغالبة الدّعوة، وقد أصبح لها في المدينة أنصار أقوياء وأوفياء بالعهد للّه ولرسوله؟ ولئن كان في المدينة من يكذّب من أهل الكتاب والمنافقين، فإنّ التّحدّي يواجههم كذلك؛ إذ عجزت قريش صاحبة اللّسان العربيّ الّذي نزل به القرآن، فهل يطمع في ذلك من دونهم لساناً وصلابة في العناد؟

ثمّ إنّ الإيحاء بالعجز الدّائم يجيء صريحاً في الآية ناعياً عليهم ما مضى، ومُؤيِساً لهم ممّا يأتي، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[١]، أي لم تفعلوا من قبل، ولن تستطيعوا أن تفعلوا بعد فمصيركم إلى خلود في النّار.

ويلاحظ أنّ التّحدّي أوّلاً كان على لسان محمّد ﷺ ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾. أمّا في البقرة فإنّه من جانب الله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾، فانظر إلى التّعبير ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ فهذا غاية التّأييد لمحمّد وكتابه، وغاية التّحقير والإقناط لأولئك: ﴿وَلَنْ يَفْعَلُوا﴾، وبهذا تمّت كلمة ربّك في التّحدّي، وصدق الله وعده.

ولقد اشتمل القرآن كذلك في سياقه العام للتّحدّي على كلمات قصار لم يفهمها أهل اللّغة وفحولها، وهي من صميم الحروف الّتي تدين لألسنتهم وبلاغتهم، ولديك أوائل السّور ﴿الم﴾، ﴿طسم﴾،﴿حم﴾ وهكذا.

فلو كان القرآن من تعبير محمّد لكان فهم هذا المتشابه في مقدورهم، ولكنّهم عجزوا عن مجرّد الفهم، كما عجزوا عن الإتيان بشيء مثله. ومع هذا كلّه يطلع علينا – ومن بيننا – من يسفّه بأنّ القرآن من لفظ محمّد وتعبيره، وهو إرجاف أشبه بقول الكافرين:إنّ القرآن كلّه من وضع محمّد، أو يقول نفر منهم: إنّ محمّداً تعلّم القرآن من ذلك الصّانع اليهوديّ أو النّصرانيّ، الّذي كان محمّد في صباه يقف أحياناً لدى مصنعه؛ ليرى صناعته للسّلاح في

---

١ ـ البقرة / ٢٤.

مكّة، وهي الشّبهة الّتي حكاها القرآن عن قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ ثمّ نفاها الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[١].

فإن يكن هذا من الكافرين تكذيباً صراحاً لسماويّة القرآن، فقريب منه وأشبه بـه ذلك التّشكيك الّذي لا يلوكه لسان يتحرّج من الخطأ والافتراء على الله وكتابه ورسوله.

شبهة رابعة

تعلّقت حكمة الله بالقرآن أن يكون بلسان عربيّ، وأن تكون الدّعوة به للنّاس كافّة.

وقديماً تحدّث فريق من المعاندين لدعوة الإسلام، فـقالوا: كـيف تكـون دعـوة الإسلام عامّة، وتكون لغة القرآن عربيّة فقط، من أنّ في النّاس جماهير لا يعرفون لغته، ولا يمكنهم أن يعرفوا دعوة الإسلام إلّا إذا كان القرآن بلغة أعجميّة؟

والله تعالى يدحض هذه الشّبهة، ويكشف لأولئك المعارضين ما يعلمه من خباياهم، فيقول سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾؟ يعني لو نزل القرآن بلغة أعجميّة لاعترض هؤلاء العرب المعترضون، وقالوا: ليته نزل بآيات مفصّلة على لغتنا لنستطيع فهمه حقّاً. فالضّلالة عالقة بهم، سواء أكان القرآن بلغته العربيّة كما جاء مفصّلاً أم كان بلغة أعجميّة أُخرى، كما يتعلّلون في إعراضهم عنه.

وهذا شأن يعلمه الله في خلقه المعاندين، وإن لم يعلموه عن أنفسهم، أو يـعلمونه ويحاولون تجاهله والتّستّر بالمعاذير المكشوفة. فضلاً عن أنّـه لا يـتأتّىٰ فـي تـنسيق الحكمة الإلهيّة، ولا يكون مستساغاً عقلاً، ولا ممكناً عادة، أن يكـون الرّسـول عـربيّاً وكتابه بلغة أعجميّة غير لغته ولغة قومه المبعوث فيهم أوّلاً.

ثمّ لو جاز في تقدير الله أن يكون القرآن أو بعضه أعجميّاً لكانت لهم محاولة جدليّة أُخرى وهي قولهم: (أأعجميّ وعربيّ)، يعني أيكـون القـرآن أعـجميّ اللّـغة والرّسـول المبعوث به عربيّاً؟

وهذا فضلاً عن استحالته، فإنّ مجرّد تصوّره ولو فرضاً مخالف لسنن الله في رسالاته

١ ـ النّمل / ١٠٣.

الأُولى، ولما تقضي به الفطرة من تمام التّجانس بين الرّسول وقومه؛ ليتوافر الألف، وليكون الرّسول معروف المناقب فيهم أكثر ممّا لو كان غريباً عليهم. كما أنّ الله لم يجعل الملائكة رسلاً إلى النّاس؛ لعدم التّجانس بين الجانبين.

فالمسألة من جانبهم مسألة معارضة، وما كانت معارضتهم مقطوعة لو نزل القرآن أعجميّاً، كما أعلمنا الله من شأنهم.

ثمّ ماهي اللّغة الأعجميّة الّتي كان يختارها الله للقرآن مفردة، أو مع العربيّة؟ اللّغات الأعجميّة لا حصر لها، وهي متباينة في مفاهيمها وضوابطها، فأيّة لغة تكون أولى من سواها مع الاضطراب بينها جميعاً؟

هذا تفنيد لما يدور، وهو متوقّع من أباطيلهم، أو من أباطيل غيرهم بعد، فالقرآن عربيّ، وحكمة الله لا تخضع لأمانيّ النّاس وتخيّلاتهم. وإنّما النّاس هم المأخوذون بالاقتناع، والاطمئنان إلى الحقّ إن أرادوا بأنفسهم خيراً ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[1].

وعروبة القرآن في لفظه لا تمنع من بلوغ دعوته بأيّ لسان آخر، كما عاش النّاس على التّفاهم بالوسائط الأُخرى في تجارتهم وتجاورهم، وفي شؤونهم الاجتماعيّة عامّة.

ولغة العرب ليست شرطاً للدّخول في الإسلام، وقد دخلته أُمم غير عربيّة دون أن تعوقها لغة، وبقيت وستبقى لغة الكتاب واحدة؛ ليجمع النّاس تحت رايته في عقيدة واحدة، ولتكون وحدة اللّغة هاتفة بالمسلمين أن يتكتّلوا حول القرآن الّذي هو إمامهم جميعاً، ومنبع حياتهم وعبادتهم دون تعريضه لهزات عنصريّة. وسنعرض لهذا التّوجيه عند الكلام على التّرجمة أخيراً.

وفي الحقّ، أنّ هذه الشّبهات كان يتّخذها الحانقون على الإسلام معاول في هدمه أو الخدش من بنيانه الشّامخ الّذي يتصاعد يوماً فيوماً. وما ندري سبباً جدّيّاً يحمل نفراً من المعاصرين المنتمين لهذا الدّين في عداد أهله، على إثارة هذه الشّبهات باسم البحث العلميّ. وما هي – في اعتبارنا – إلّا محاولات يتقرّبون بها إلى جهات معادية لدين الله

---

١ ـ المؤمنون / ٧١.

الحقّ. وكأنّ في يدها من العطاء ما يرضي أصحاب الشّهوات والأهـواء عـلى حسـاب القرآن.

ولكن يشاء ربّك أنّ كلّ بادرة من بوادر العداء للإسلام وكتابه ورسوله تكون فـي نهايتها وسيلة من وسائل الهزيمة على أصحابها، وتكون في حقيقتها سلاحاً في أيـدي المؤمنين يهدمون به باطل المبطلين. وستظلّ راية الإسلام خـفّاقة، ورسـالته مـحرجـة لصدور أعدائها، وسيدوم القرآن في سلطانه مزعجاً لهم، ولو كانوا أصحاب قوّة ماديّة.

وحكمة الله قائمة على أنّ الباطل يخدم الحقّ عن غير قصد ولا رغبة، بـل عـلى النّقيض من رغبته وقصده، ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾[1].

والقرآن بعد ذلك كلّه في غير حاجة إلى تنويهنا عنه، أو الإشادة به، فقد تكفّل الله بصيانته وغلبته، وجعل قوته من ذاته وحقيقته، لا من دفاعنا عنه - وإن كان الّدفاع فرضاً - وسيبقى القرآن شاهداً لنفسه بأنّه كتاب الله الحقّ ﴿لَا يَاتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

تهافت النّبيّ ﷺ على نزول القرآن وعلى تلقّيه حين الوحي

١- كان النّبيّ (صلوات الله عليه وسلامه) يتشوّق كثيراً إلى نزول القرآن فـي غـير إمهال؛ لما يشوّقه من الصّلة بربّه، ومن تجلّيات فضله على عبده، ولما يزداد به من علم وهداية، حتّى أنّ الوحي بعد نزوله بسورة العلق تريّث في النّزول مدّة استطالها النّـبيّ، وخشي من طول انقطاعه، خصوصاً أنّ قريشاً شمتت فيه، وزعمت أنّ إله محمّد الّـذي أوحى إليه قد هجره.

فكان لله تعالى توجيه لرسوله إزاء ما يخشاه من فترة الوحي، وردّ على قريش في شماتتها؛ إذ أنزل الله على عبده سورة الضّحى يقسم الله فيها لرسوله بأنّ ربّه ما ودعه ولا

---

١ ـ الصّف / ٨.

٢ ـ فصّلت / ٤٢.

هجره، وأنزل عليه في سورة أُخرى أن يتأنىّ في انتظار الوحي، ولا يخشى تريّثه، لأنّ إنزاله منوط بحكمة الله في اختيار المناسبة والزّمن وما يشاء الله تنزيله من آيات، وغرس فيه الأمل بأنّ الوحي موصول إلى مداه، وكلّفه أن يدعو ربّه؛ ليزيده من العلم [١].

٢ - كذلك كان النّبيّ (عليه الصّلاة والسّلام) يحرص الحرص الشّديد على تـلقّي الوحي بسرعة من جبريل حين يتلوه عليه، مخافة أن يفلت منه شيء لا يعيه، أو ينساه إذا تريّث، أو ينسى ترتيبه في النّسق، خصوصاً أنّه يعتمد على السّماع والحفظ دون كتابة.

فعلّمه الله كذلك أن يظلّ مصغياً إلى نهاية جبريل من تبليغه ما يبلغه، ووعده الله أن يثبّته على الحفظ، وأنّه سيجمع له القرآن إلى بعضه دون تشتيت لشيءٍ منه، وأمره أن يقرأ بعد قراءة جبريل.

ووعده بجانب ذلك كلّه أن يبيّن له ما في الكتاب من أحكام وتوجيهات [٢]

وفي التّوجيه إلى التّأنّي في انتظار الوحي، وفي التّلاوة بعد جبريل ملاءمة لما رسم الله في نزول القرآن على نجوم متفرّقة، لا دفعة واحدة، ولما رسم الله في تدرّج التّشريع رويداً رويداً.

فضلاً عن تكفّل الله لرسوله بأنّه سيجمع له القرآن إلى بعضه، دون إجهاد لنفسه، ففي ذلك تعزيز لمقام الرّسول أمام خصومه، وتأييد له في كلّ ما هو بسبيله. ولعلّ فـي ذلك التّوجيه كلّه تعليماً لنا أن نأخذ الأمر بالحكمة، وإلّانتعجّل القدر في شؤوننا.

هذا، وقد صدق الله وعده لرسوله فجمع له القرآن، وثبّـته عـلى حـفظه، وبـيّن له أحكامه، والله تعالى لا يخلف وعده. (ص: ٢١ ـ ٤٢)

---

١ ـ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤.

٢ ـ ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ❀ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ❀ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ❀ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ القيامة: ١٦ - ١٩.

الفصل السّادس والخمسون

نصّ الأُشَيْقِر في «لمحات من تاريخ القرآن»

نزول القرآن

نزل القرآن الكريم على الرّسول ﷺ نجوماً «منجّماً» في مدّة (٢٣) سنة؛ استناداً على بقاء وإقامة الرّسول ﷺ في مكّة قبل البعثة مدّة (١٣) سنة [١]، وإقامته بالمدينة (١٠) سنوات. وقيل نزل في أقلّ من ذلك، وفي مدّة (٢٢) سنة و(٦) أشهر و (٢٢) يوم [٢]... [إلى أن قال:]

أشرنا في مطلع هذا الفصل إلى أنّ القرآن نزل نجومًا ، أي متفرّقًا ودفعةً ، فكيف يمكن ياتُرى أن نوفّق بين ذلك القول وبين ماجاء بقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [٣]، وقوله سبحانه : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [٤]؟

---

١ ـ وفي هذا المعنى قال الشّاعر:

ثَوىٰ في قُرَيْش بِضْعَ عَشْرَةَ حُجَّةً يذكُرلو يَلْقى صَدِيقاًمُواتِياً

٢ ـ «الإتقان في علوم القرآن» - جلال الدّين السّيوطيّ.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

٤ ـ القدر / ١.

إنّ الجواب على هذا التّساؤل هو أنّ المقصود من الآيات الكريمة المتقدّمة الذّكر هو أنّ الله سبحانه كان قد أُنزل القرآن جملةً واحدةً وفي ليلة القدر من شهر رمضان المبارك. أنزله من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا، ثمّ نزلت الآيات من المكان الأخير تباعاً ومتفرّقة على صدر الرّسول ﷺ، وبحسب الحاجة والطّلب وطيلة مدّة بعثته ﷺ، وبالكيفيّة الّتي سنشير إليها في الأسطر التّالية.

قلنا آنفاً ونكرّره هنا بإسهاب بأنّ القرآن الكريم لم ينزّل على الرّسول ﷺ من السّماء الدّنيا جملةً واحدةً ودفعةً واحدةً، لأنّه لو فرضنا جدلاً أنّه نزّل على هذا الشّكل (جملةً واحدةً) لتحوّل عاجلاً إلى كلمة مقدّسة ساكنة، وفكرة هادئة ومجرّد وثيقة دينيّة، وليس مصدر وسبب لبعث الأمل والحياة في الفكرة النّاشئة والدّعوة الجديدة.

أجل، لم ينزّل القرآن جملةً واحدةً على صدر الرّسول ﷺ، وإنّما نزوله هذا كان متفرّقاً ودفعةً دفعةً؛ لأسباب عديدة سنشير إليها بالتّعاقب، منها تسهيل حفظ القرآن، وليكون أقرب للفهم والقبول، وكان نزوله نجوماً حسب مقتضيات حوادث المجتمع الإسلاميّ، لذا سمّيت هذه الحوادث بأسباب النّزول [١]، نحو جواب على بعض الأسئلة والاستفسارات الّتي يسأل عنها الرّسول الأمين، أو بيان لأنواع التّكاليف الدّينيّة، والإخبار عن الحوادث والأحداث السّابقة، أو الإشعار عن المغيبات والوقائع القادمة،مضاف إلى ذلك أنّ نزوله كان يراعى فيه الحاجات المتجدّدة، ووفق النّموّ المطّرد في الأفكار والتّصوّرات، والنّموّ المطّرد في المجتمع والحياة، ووفق المشكلات العمليّة الّتي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعيّة.[٢] فضلاً عن أنّ نزوله بهذا الطّريق كان يبتغي منه العزاء العاجل لكلّ ألم أو مصيبة تلمّ بالرّسول وآله وأصحابه، والجزاء لكلّ تضحية، والأمل لكلّ هزيمة، والدّرس لكلّ نصر، والجهد لكلّ عقبة، وأسباب التّشجيع لكلّ خطر أو عقبة.

ونشير هنا إلى أنّ قليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة بغير سؤال من أحد المسلمين،

---

١ ـ تاريخ التّشريع الإسلاميّ – الشّيخ محمّد الخِضريّ.

٢ ـ معالم في الطّريق – سيّد قطب.

أمّا الأحكام الّتي أنزلت بدون حادث أو سؤال فهي آيات تقلّ كثيراً جدّاً عمّا جاء إجابات على أسئلة متّصلة بأحداث معيّنة.

هذا ولولا أنّ الحكمة الإلهيّة والرّغبة الرّبانيّة آثرت نزول القرآن إلى الأرض منجّماً بحسب الوقائع والمناسبات، لاهْبَطَهُ الله على الرّسول ﷺ جملةً واحدةً كأغلب الكُتب الدّينيّة المنزلة من قبل، ولكنّ الله تعالى اختص وميّز القرآن عنها، فجعل له الحسنيين في إنزاله جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا، ثمّ إنزاله من الأخيرة إلى الأرض مفرّقاً، وكلّ ذلك تشريفاً وتكريماً منه تعالى للمنزّل عليه والمنزّل به.

ويمكّننا بعد كلّ هذا من إجمال وحصر كافّة الأسباب الحقيقة في نزول القرآن منجّماً على الرّسول ﷺ في نقاط معدودة؛ ليتاح للقُرّاء حفظهما عند اللّزوم، وهذه الأسباب هي:

١ - إنّ نزول القرآن منجّماً هو من أجل أن يُقوىٰ قلب النّبيّ ﷺ عند محاجّة قومه وتحدّيهم بأن يأتوا بمثله؛ لأنّ الوحي إذا كان يتجدّد في كلّ حادثة وفي كلّ واقعة كان أقوى وأثبت للقلب، وأشدّ عناية ورعاية بالمرسل إليه.

٢ - إنّ نزوله مفرّقاً وشيئاً فشيئاً هو أقرب وأسهل للحفظ والاستظهار والتّدوين فيما إذ أهبط جملةً واحدةً.

٣ - آثر الله سبحانه أن يكون هناك ناسخ ومنسوخ، ولا يمكن أن يتصوّر وجود وحصول هذا الشّيء بدون أن ينزّل القرآن متفرّقاً.

٤ - تطلّبت الحكمة وأساليب الدّعوة بأن يكون من القرآن أجوبة لاستفسارات، وبيان لحوادث ووقائع، وإنكار على قول؛ ليكون أقرب للقبول وأبعث لليقين، ولا يكون ذلك إلّا إذا جاء القرآن دفعةً دفعةً، وأثر كلّ استفسار، وبعد كلّ قول وطلب.

٥ - إنّ في التّفريق رحمةً ولطفاً بالعباد، فلو نزل القرآن دفعةً واحدةً لثقلت عليهم التّكاليف والأعباء، فتنفرُ لذلك قلوبهم، وترفض نفوسهم عن قبول كافّة الأوامر والنّواهي في آنٍ واحد ودفعةً واحدةً؛ لذا جاء التّشريع متدرّجاً تبعاً لنزول القرآن وهبوطه متفرّقاً ونجوماً.

وبصدد عدد وكمّية الآيات الّتي كانت تنزل في كلّ دفعة على الرّسول ﷺ فالحقّ أنّها كانت تنزل نجوماً الآية الواحدة والاثنان والأكثر، وتارةً قد تنزل سورة بجملتها كما في سورة الفاتحة والمدّثّر والأنعام، والأخيرة يقال عنها: إنّها نزلت كلّها في مكّة دفعةً واحدةً، عدا ثلاث آيات منها نزلت في المدينة المنوّرة.

والقاعدة العامّة هنا بخصوص نزول السّور كاملة هو أنّ كلّ سورة يتّحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعياً كبيراً، ويستلزم فيها فسق معيّن، فيرجح أنّها نزلت جملةً واحدةً، بينما نجد أنّ السّور الّتي تختلف موضوعاتها وتتباعد ولا تتداعى، ولا تلتزم بآياتها نسق معيّن فيرجح نزولها منجّمةً.

وسور القرآن بالنّظر إلى اختلاف عدد آياتها ثلاثة أقسام:[١]

١ – قسم لم يختلف فيه إجمالاً ولا تفصيلاً.

٢ – قسم اختلف فيه تفصيلاً لا إجمالاً.

٣ – قسم اختلف فيه تفصيلاً وإجمالاً.

كما وقيل بصدد عدد وكمّيّة الآيات المنزلة أنّه صحّ نزول بعض آية على الرّسول ﷺ[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾[٣]، وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[٤]

وهكذا على التّرتيب المتقدّم كان نزول الآيات على الرّسول ﷺ، حتّى كملت الشّريعة الغرّاء بتمام نزول القرآن.

وقد استعمل القرآن في أُسلوبه وبيانه الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتّقييد، والتّصريح والكناية، والإيجاز والإسهاب، على نمط العرب في لغتهم، مع علوّه على اللّغة العربيّة بفنونه وبلاغته وعلومه وقصصه. (ص: ٤٣و٤٩ ـ ٥٣)

---

١ ـ تاريخ القرآن – إبراهيم الأبياريّ.

٢ ـ مباحث في علوم القرآن – الدّكتور صبحي الصّالح.

٣ ـ النّساء / ٩٥.

٤ ـ التّوبة / ٢٨.

الفصل السّابع والخمسون

نصّ الشّيخ خليل ياسين (م: ١٤٠٥ هـ) في «أضواء على متشابهات القرآن»

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا...﴾ البقرة / ٢٣

لماذا قال ﴿نَزَّلْنَا﴾ ولم يقل «أَنْزَلْنَا»؟

لأنّ المراد نزوله تدريجاً ونجوماً؛ لأنّهم كانوا يقولون: لو كان هذا من عند الله مخالفاً لما يكون من عند النّاس، لم ينزّل هكذا نجوماً، سورة بعد سورة وآيات بعد آيات؟ والإنزال إنّما يكون جملةً واحدةً، والمقصود منه إنزاله عن مقرّه الأُولي من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزّله على الرّسول ﷺ نجوماً ودفعات ولذا قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، معناه أنزلناه دفعةً واحدةً لا نجوماً. (١: ٣١)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

هلّا أُنزل القرآن الكريم جملةً واحدةً ودفعةً واحدةً كما أُنزل التّوراة والإنجيل والزّبور؟

إذا كان الوحي يأتي متجدّداً في كلّ حادثة وكلّ أمرٍ وكلّ مناسبة، كان ذلك أقوى لقلب الرّسول ﷺ وأزيد في بصيرته، وذلك معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. وأيضاً

فإنّ في القرآن النّاسخ والمنسوخ، وفيه ما هو جواب لمن سأله عن أمور، وفيه ما هو إنكار لما كان، وفيه ما هو حكاية شيء جرى، فاقتضت الحكمة إنزاله متفرّقاً.

كيف تقول نزل متفرّقاً تبعاً للظّروف والمناسبات، وآية ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ تكذّب ذلك، فإنّها يظهر منها أنّه نزل جملةً واحدةً؛ لأنّ الهاء في قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ كناية عن القرآن؟

أنزل الله سبحانه القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، وتسلّمته الكَتبة من الملائكة في السّماء، ثمّ أخذ ينزّله جبرئيل على محمّد ﷺ نجوماً ومدّة إنزاله نجوماً ثلاث وعشرون سنة.

ما معنى قوله تعالى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أكان يخشى الله على قلب الرّسول ﷺ أن يدخله الرّيب والشّك، فأنزل القرآن متفرّقاً ليزول ذلك عن قلبه؟

معنى ذلك لتزداد تثبيتاً واعتقاداً، فإنّك تقول للرّجل الصّالح: أصلحك الله، وللمهتدي: هداك الله، أي زادك صلاحاً وزادك هدىً. (٢: ٦٧)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ..﴾ الدّخان: ٢

كيف أُنزل القرآن الكريم؟

أُنزل جملةً واحدةً من السّماء السّابعة إلى السّماء الدّنيا، وأُمر السّفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر، وكان جبرئيل ينزّله على الرّسول ﷺ نجوماً نجوماً. (٢: ٢٠٠)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر:١

هذه الآية تدلّ على أنّ القرآن أُنزل جملةً واحدةً، إلّا أنّ الآية (٣٢) من سورة الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ تدلّ على أنّه لم ينزل جملةً واحدةً.

يراجع كلامنا المفصّل حول الآية (٣٢) من سورة الفرقان، [نقلناه آنفاً].

كيف كان ينزّل القرآن؟ ولماذا أُنزل في ليلة القدر دون غيرها؟

أنزل الله القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الرّابعة في ليلة القدر، ثمّ كان ينزّله جبرئيل إلى البيت المعمور على الرّسول ﷺ نجوماً، وكانت مدّة إنزاله ثلاثاً وعشرين سنة. وفي الحديث الصّحيح أنّه نزل القرآن جملةً واحدةً إلى السّماء الرّابعة، ثمّ نزل في طوال ثلاث وعشرين سنة، وأُنزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان، وأُنزلت التّوراة لستّ مضين من شهر رمضان، وأُنزلت الزّبور لثماني عشرة خلون من شهر رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة منه، وأُنزل القرآن ليلة ثلاث وعشرين منه. وإنّما أُنزل في ليلة القدر، إظهاراً لشأنها بإنزاله فيها، وإعلامه منه سبحانه بما لها عنده من مكانة، وللعاملين فيها من كرامة. (٢: ٣٣٠)

الفصل الثّامن والخمسون

نصّ الدّكتور صبحيّ الصّالح (م: ١٤٠٧ ﻫ) في كتابه: «مباحث في علوم القرآن»

تنجيم القرآن وأسراره

لقد شاءت الحكمة الإلهيّة أن يظلّ الوحي متجاوباً مع الرّسول ﷺ يعلّمه كلّ يوم شيئاً جديداً، ويرشده ويهديه، ويثبّته ويزيده اطمئناناً، ومتجاوباً مع الصّحابة يربّيهم ويصلح عاداتهم ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته،

فكان مظهر هذا التّجاوب نزوله منجّماً «بحسب الحاجة»: خمس آيات، وعشر آيات وأكثر وأقلّ[1]. وقد صحّ نزوله عشر آيات في قصّة الإفك[2] جملة، وصحّ نزوله عشر

---

١ ـ ويقتصر بعضهم - كما يفهم من الرّوايات شتّى - على نزول القرآن نجوماً خمس آيات خمس آيات، لتيسير حفظه على المؤمنين في كلّ جيل، أخرج البيهقيّ عن خالد بن دينار، قال: قال لنا أبو العالية: تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنّ النّبيّ ﷺ كان يأخذه من جبريل خمساً خمساً. ويقرب من هذا ما أخرجه ابن عساكر من طريق أبي نَضرة. بل ينسب إلى عليّ (كرّم الله وجهه) أنّه كان يقول: «أُنزل القرآن خمساً خمساً إلّا سورة الأنعام، ومن حفظ خمساً خمساً لم ينسه». لكنّ السّيوطيّ يصف القول الأخير بضعف طريقه، ويرى أنّ معناه - إن صحّ - إلقاؤه إلى النّبيّ ﷺ هذا القدر حتّى يحفظه، ثمّ يلقي إليه الباقي، لا إنزاله بهذا القدر خاصّة، النّبيّ. (الإتقان ١: ٧٣)

٢ ـ هذه الآيات العشر في سورة النّور: ١١ - ٢١ وقصّة الإفك مشهورة في كتب السّيرة والتّفسير.

آيات من أوّل المؤمنين [١] جملة، وصحّ نزول ﴿غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ﴾ [٢] وحدها، – وهي بعض آية – وكذا قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ [٣] إلى آخر الآية، نزلت بعد نزول أوّل الآية [٤].

على هذا المنوال ظلّ القرآن ينزّل نجوماً؛ ليقرأه النّبيّ ﷺ على مُكث، ويقرأه الصّحابة شيئاً بعد شيء، يتدرّج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفرديّة والاجتماعيّة الّتي تعاقبت في حياة الرّسول ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً على الأصّح، تبعاً للقول بأنّ مدّة إقامته عليه السلام في مكّة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، أمّا إقامته بالمدينة فهي عشر سنين اتّفاقاً، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثمّ أُمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستّين [٥]. وقدّر بعضهم مدّة نزول القرآن بعشرين سنة، وبعضهم بخمس وعشرين، وبنوا هذا على أنّ إقامته عليه السلام بمكّة بعد البعثة كانت عشر سنين أو خمس عشرة سنة [٦].

وقد بدء نزول القرآن – كما قال الشّعبيّ: – في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات [٧]. والشّعبيّ يجمع في هذا الرّأي بين قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [٨]، وقوله: ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾ [٩]، وهو فهم سديد لا يتضارب مع إخبار الله بإنزال كتابه في ليلة مباركة، وفي شهر رمضان؛ إذ يكون المراد أنّه تعالى ابتدأ إنزاله في ﴿لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [١٠]، ووصف هذه اللّيلة بأنّها ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، وهي إحدى ليالي رمضان، كما في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ

---

١ ـ من أوّل قوله: ﴿قَدْ اَفْلَحَ الْمُؤْمِنُوْنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المؤمنون: ١ – ١١.

٢ ـ النّساء: ٩٥، وأوّل الآية: ﴿لَا يَسْتَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُوْلِى الضَّرَرِ وَالمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّٰهِ﴾.

٣ ـ التّوبة: ٢٨، وأوّل الآية: ﴿يَا ءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾.

٤ ـ الإتقان ١: ٧٣.

٥ ـ صحيح البخاريّ ٥٧:٤.

٦ ـ قارن بين «البرهان ١: ٢٣٢» و «الإتقان ١: ٦٨».

٧ ـ البرهان ١: ٢٢٨.

٨ ـ القدر / ١.

٩ ـ الإسراء / ١٠٦.

١٠ ـ الدّخان / ٣.

هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّـنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾ [١]، ثمّ استمرّ نزوله نجوماً بعد ذلك، متدرّجاً مع الوقائع والأحداث.

ولسنا نميل إلى الرّأي القائل: إنّ للقرآن تنزلّات ثلاثة؛ الأوّل: إلى اللّوح المحفوظ، والثّاني: إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، والثّالث: تفريقه منجّماً بحسب الحـوادث، وإن كانت أسانيد هذا الرّأي كلّها صحيحة [٢]؛ لأنّ هذه التّنزلّات المذكورة من عالم الغيب الّذي لا يؤخذ فيه إلّا بما تواتر يقيناً في الكتاب والسّنّة، فصحّة الأسانيد في هذا القول لا تكفي وحدها لوجوب اعتقاده، فكيف وقد نطق القرآن بـخلافه؟ إنّ كـتاب الله لم يـصرّح إلّا بتفريق الوحي وتنجيمه، ومنه يفهم بوضوح أنّ هذا التّدرّج كان مثار اعتراض المشركين الّذين ألفوا أنْ تلقى القصيدة جملةً واحدةً، وسمع بعضهم من اليهود أنّ التّوراة نزلت جملةً واحدةً، فأخذوا يتساءلون عن نزول القرآن نجوماً، وودّوا لو ينزّل كلّه مرّةً واحدةً. وقد ذكر الله اعتراضهم في سورة الفرقان، وردّ عليه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٣]

على أنّ القائلين بتنزيلات القرآن الثّلاثة لا يفوتهم – بعد بيان حكمة هذا التّعدّد في أماكن النّزول [٤] – أن يشيروا إلى أسرار تنزّله الثّالث الأخير منجّماً بحسب الوقائع. وهذه الأسرار قد بـلغت مـن الوضـوح حـدّاً لا تـخفى مـعه عـلى أحـد، ولولا أنّ الحكـمة الإلهيّة... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامة، ثمّ قال:].

---

١ ـ سورة البقرة / ١٨٥.

٢ ـ انظر الإتقان ١: ٦٨. ويظهر أنّ الجمهور كان يجنح إلى هذا الرّأي، فالزّركشيّ في البرهان (١: ٢٢٩) يقول في هذا الرّأي: أنّه أشهر وأصحّ، وإليه ذهب الأكثرون. وابن حَجَر في «فتح الباريّ» يصفه بالرّأي «الصّحيح المعتمد». ونحن مع ذلك لم نأخذ به؛ لمخالفته صريح القرآن، كما أوضحناه أعلاه.

٣ ـ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣.

٤ ـ وخلاصة هذه الحكمة أنّ في تعدّد النّزول وأماكنه مبالغة في نفي الشّك عن القرآن، وزيادة للإيمان به وباعثاً على الثّقة فيه؛ لأنّ الكلام إذا سجّل في سجلّات متعدّدة، وصحّت له وجودات كثيرة كان ذلك أنفى للرّيب عنه وأدعى إلى تسليم ثبوته، وأدنى إلى وفرة الإيمان به ممّا لو سجّل في سجلّ واحد أو كان له وجود واحد. الزُّرقانيّ: مناهل العرفان (١: ٣٩ – ٤٠).

ويعنينا من أقوالهم تطلّعهم إلى أسرار التّدرّج في نزول القرآن، فقد أوشكوا عند بلوغ هذه النّاحية من البحث ألّا يتركوا مجالاً لقائل بعدهم؛ إذ لاحظوا في التّدرّج الحكمتَين اللّتين أشرنا إليهما، وهما تجاوب الوحي مع الرّسول ﷺ وتجاوبه مع المؤمنين، وإن كان تعبيرهم عن ذلك يختلف قليلاً عن تعبيرنا.

ولتجاوب الوحي مع الرّسول ﷺ صورتان؛ إحداهما: تثبيت فؤاده بما يتجدّد نزوله من القرآن بعد كلّ حادثة، والثّانية: تيسير حفظ القرآن عليه. وقد أشار إلى الصّورة الأُولى أبو شامَة في قوله: فإن قيل: ما السّرّ في نزوله منجّماً؟... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

ولقد راع القرآن خيال العرب وأخذ أسماعهم بما فيه من أنباء الرّسل مع أقوامهم، تتكرّر بصور مختلفة، وأساليب متنوّعة، فتزداد حلاوة كلّما تكرّرت، ولا غرض لها في أكثر المواطن الّتي ذكرت فيها إلّا تثبيت قلب الرّسول ﷺ وقلوب المؤمنين. ونطق القرآن بذلك فقال: ﴿وكُلّاً نَّقصُّ عَلَيْكَ مِنْ اَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُـثَـبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١]، ففي ذكر قصص الرّسل وتفريقه وتنويعه تقوية لقلب الرّسول ﷺ وعزاء له على ما يلقاه من أذى قومه، وما كان محمّد بدعاً من الرّسل، فهم جميعاً عُذّبوا وكُذبوا واضطهدوا ﴿حَتّٰى يَقُولَ الرَّسُوْلُ وَالَّذِينَ اٰمَنُوا مَعَهُ مَتٰى نَصْرُ اللّٰهِ﴾[٢].

وهكذا ما انفكّ القرآن يتجدّد نزوله مهوّناً على الرّسول ﷺ الشّدائد، مسلّياً له مرّةً بعد مرّةٍ، محبّباً إليه التّأسّي بمن قبله من الرّسل، يأمره تارةً بالصّبر أمراً صريحاً فيقول: ﴿وَاصْبِرْ عَلٰى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[٣]، ويقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُـوا العَـزْمِ مِـنْ الرُّسُلِ﴾[٤]؛

وينهاه تارةً أُخرى عن الحزن نهياً صريحاً، كما في قوله: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ اِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّوْنَ وَمَا يُعْلِنُوْنَ﴾[٥].

---

١ ـ هود / ١٢٠.

٢ ـ البقرة / ٢١٤.

٣ ـ المزّمّل / ١٠.

٤ ـ الأحقاف / ٣٥.

٥ ـ يس / ٧٥.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١]. ويعلّمه أحياناً أنّ الكافرين لا يجرحون شخصه في نفسه، ولا يتّهمونه بالكذب لذاته، وإنّما يعاندون الحقّ بغياً من عند أنفسهم؛ لأنّهم شرذمة من الجاحدين تكرّر في كلّ عصر وجيل، كما في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢]. وفي تفسير هذه الآية يقول الحافظ ابن كثير: يقول تعالى مسلّياً لنبيّه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إيّاه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنْكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾، أي قد احطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسّفك عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾[٣]، كما قال تعالى في الآية الأُخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٤]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً﴾[٥]. وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي لا يتّهمونك بالكذب في نفس الأمر، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي ولكنّهم يعاندون الحقّ ويدفعونه بصدورهم[٦].

وتكرار نزول هذه الآيات المسلّية المعزّية المرشدة إلى الصّبر الجميل والأُسوة الحسنة، هو الحكمة المقصودة من إيراد أنباء الرّسل وقصّ قصصهم. ولو استمرّ اضطهاد المشركين لرسول الله ﷺ وانقطع عنه الوحي المثبّت لقلبه، فلم يتجدّد نزول الآيات المسلّية له، لشعَر ﷺ بما يشعر به البشر في هذه الحالات من استيلاء الحزن على قلبه، واستبداد اليأس بنفسه، والله لم ينهه عن الحزن والحسرات وبخع النّفس وضيق الصدر ـ كما رأينا ـ إلّا لأنّه بشر مثل سائر البشر، في طبيعته استعداد لجميع هذه الانفعالات النّفسيّة، وقد انتبه إلى هذا المعنى السّيد رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ

١ ـ يونس / ٦٥. وقد ينهى الله رسوله عن الحزن على الكافرين؛ لجحودهم وعدم إيمانهم، فيقول له: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ كما في سورة الحِجر / ٨٨ والنّحل / ١٢٦ والنّمل / ٧٢.

٢ ـ الأنعام / ٣٣.

٣ ـ فاطر /٨.

٤ ـ الشّعراء /٣.

٥ ـ الكهف /٦.

٦ ـ ابن كثير ٢: ١٢٩. وقد ذكر هذه العبارة السّيد رشيد رضا في تفسير المنار /٧: ٧٢م.

رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلٰى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتّٰى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[1]، فقال: والآية تسلية للرّسول ﷺ بعد تسلية، وإرشاد إلى سنّته تعالى في الرّسل والأمم، أو هي تذكير بهذه السّنّة وما تتضمّنه من حسن الأسوة؛ إذ لم تكن هذه الآية أوّل ما نزل في هذا المعنى. ثمّ زاد هذه الفكرة وضوحاً بقوله: ولولا أنّ دفع الأسى بالأسى من مقتضى الطّبع البشريّ لما ظهرت حكمة تكرار التّسلية بأمثال هذه الآية، فإنّ النّبي ﷺ كان يتلو القرآن في الصّلاة ولا سيّما صلاة اللّيل، فربّما يقرأ السّورة ولا يعود إليها إلّا بعد أيّام يفرغ فيها من قراءة ما نزل من سائر السّور، فاحتيج إلى تكرار تسليته وأمره بالصّبر المرّة بعد المرّة؛ لأنّ الحزن والأسف اللّذين كانا يعرضان له ﷺ من شأنهما أن يتكرّرا بتكرّر سببهما وبتذكّره عند تلاوة الآيات الواردة في بيان حال الكفّار ومحاجّتهم وإنذارهم [2].

والصّورة الثّانية لتجاوب الوحي مع الرّسول ﷺ هي - كما ذكرنا - تيسير حفظ القرآن عليه. ومن العلماء من يرى أنّ « تثبيت فؤاده» المذكور في آية الفرقان السّابقة لا يراد منه إلّا جمع القرآن حفظاً في قلبه، فإنّه ﷺ كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب، ففرّق عليه ليبسّر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنّه كان كاتباً قارئاً، فيمكنه حفظ الجميع إذا نزل جملةً... [ثمّ ذكر قول ابن فَورَك كما تقدّم عن الزَّركَشيّ، فقال:]

وأمّا تجاوب الوحي مع المؤمنين على عهد رسول‌الله ﷺ ففي القرآن منه صور متنوّعة، وألوان متباينة، تلتقي كلّها عند غاية واحدة، وهي رعاية حال المخاطبين، وتلبية حاجاتهم في مجتمعهم الجديد الآخذ في الازدهار، وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات وأخلاق لا عهد لهم بمثلها، وقد أشار إلى هذا مكّيّ [3] في «النّاسخ والمنسوخ»، حين لاحظ أنّ نزول القرآن أدعى إلى قبوله إذا نزل على التّدريج، بخلاف ما لو نزل جملةً واحدةً، فإنّه كان ينفر من قبوله كثير من النّاس؛ لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي.

---

١ ـ سورة الأنعام / ٣٤.

٢ ـ تفسير المنار ٧: ٣٧٧ - ٣٧٨.

٣ ـ هو مكيّ بن أبي طالب حموش بن محمّد القيسيّ المقرىء، وأصله من القيروان ،سكن قُرطُبة ، كثير التّأليف في علوم القرآن والعربيّة. وتوفّي سنة ٤٣٧، ينسب إليه السّيوطيّ كتابًا في «النّاسخ والمنسوخ». (م)

ويوضّح ذلك ما أخرجه البخاريّ عن عائشة قالت: إنّما نزل أوّل ما نزل ... [وذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

وظاهر كلام عائشة في قولها هذا أنّها جمعت بين تحريم الخمر وتحريم الزّنى بالتّدريج، فيخيّل إلى السّامع أنّ تحريم الزّنى لم يتمّ إلّا على مراحل كالخمر، وليس ذلك بصحيح ولا هو مراد بنت الصّديق، فإنّها كانت تعلم أنّ الزّنى حرّم دفعةً واحدةً، في خطوة واحدة جازمة بمثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[1]، وإنّما أرادت بيان أوائل ما نزل من القرآن، وأنّ تلك الأوائل ما كانت بمقتضى حكمة الله لتتناول الحلال والحرام، بل تناولت أُصول الإيمان باللّـه واليوم الآخر. فعدم تحريم الزّنى في أوّل ما نزل من الوحي لا يعني أنّ هذا التّحريم تأخّر كثيراً؛ إذ وقع تحريمه في مكّة على كلّ حال، وهو لا يعني تدرّج هذا التّحريم على مراحل؛ إذ لم نعلم في كتاب الله ولا سنّة رسوله إثبات منفعة للزّنى إلى جانب إثمه الكبير كما علمناه في تحريم الخمر والميسر، ولم نرَ لوناً من الألوان الزّنى والسّفاح يقرّ في الإسلام بأيّة صورة، وإنّما الّذي عرفناه أنّ الإسلام أمضى أمره بتحريم الزّنى بأُسلوب صارم ولهجة قاطعة، كما حرّم سائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحقّ.

وما من ريب في أنّ الإسلام فرّق بين الأعماق والسّطحيات في أنفس الأفراد والمجتمعات، فكلّ قضيّة عميقة الجذور في نفس الفرد اتّخذت شكل عادة شعوريّة، وكلّ قضيّة عميقة الجذور في نفس المجتمع اتّخذت شكل تقليد اجتماعي أو عرف دوليّ، فللإسلام فيها موقف المتمهّل المتريّث الّذي يؤمن بأنّ البطء مع التّنظيم خير من العجلة مع الفوضى.

وكلّ قضيّة سطحيّة تنزلق إلى نفس الفرد أو إلى نفس الجماعة فتفسد عليها فطرتها الزّكيّة النّقيّة، فهي جريمة في الحياة الإنسانيّة لا يجوز السّكوت عنها، فليقطع الإسلام فيها برأيه، ولتكن حدوده فيها غير قابلة للنّقاش، فما يناقش في أمر هذه الحدود إلّا

١ ـ الإسراء / ٣٢.

الخارج على مقتضى الفطرة، المنسلخ من الكرامة الإنسانيّة[١].

وفي ضوء هذه التّفرقة بين الأعماق والسّطحيات في الأنفس والآفاق، وفي الأفراد والمجتمعات، نظر الإسلام إلى القتل والسّرقة والغصب وأكل أموال النّاس بالباطل ومختلف ضروب الغشّ في المعاملات نظرته إلى الزّنى، فحرّمها مرّةً واحدةً تحريماً قاطعاً لا تساهل فيه. وإذا صحّ أنّ التّعبير عن تحريم أكثر هذه الأشياء إنّما ورد في الكتاب متأخّراً، وأنّ أكثرها وقع تحريمه في المدينة بعد هجرة الرّسول ﷺ إليها، فلا يصحّ القول - على وجه الإطلاق والتّعميم - بتدرّج التّحريم على مراحل في هذه الشّؤون، فكما حرّم الله الزّنى في لهجة قاطعة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنٰى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٢] حرّم القتل في خطوة جازمة فقال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا وَ غَضَبَ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَاَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾[٣]، وحرّم السّرقة يوم قضت حكمته أن يعبّر عن تحريمها في أُسلوب صارم فقال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا اَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللّٰهِ﴾[٤].

وبمثل هذه الصّرامة حرّم اغتصاب أموال النّاس بغير حقّ فقال: ﴿وَلَا تَاْكُلُوا اَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا اِلَى الحُكَّامِ لِتَاْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ اَمْوالِ النَّاسِ بِالْاِثْمِ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٥]. وكلّ لون من ألوان الغشّ في المعاملات إنّما جاء تحريمه في الكتاب بهذه الصّيغ الجازمة، فإن لم يكن في الكتاب ففي السّنة المطهّرة.

والإسلام مهما يَبْدو حريصاً على تدرّج التّشريع وتنجيم النّوازل القرآنيّة لا يسمح قطّ بالخلط بين تأخير البيان لوقت الحاجة وبين تدرّج التّشريع، فلقد أخّر الله بيان أحكام كثيرة من حلال وحرام، ومن أوامر ونواهٍ، ولكنّه حين أراد بيانها أمضى أمره فيها مرّةً واحدةً، ولم يدع فيها للتّدريج مجالاً، وعلّم المؤمنين بهذا سرعة الاستجابة للأوامر

---

١ ـ قارن بظلال القرآن ٢: ٦٠ - ٦١.

٢ ـ الإسراء/٣٢.

٣ ـ النّساء / ٩٢.

٤ ـ المائدة / ٣٨.

٥ ـ البقرة / ١٨٨.

الدّينيّة وأعدّهم به لتحمّل التّكاليف الشّرعيّة، ففي أوّل أمرهم كلّفهم بالصّلاة والصّدقة والصّيام، إلّا أنّ الصّلاة كانت في البداية صلاة مطلقة بالغداة والعشيّ، فما فرضت عليهم بعددها في اليوم واللّيلة وركعاتها وأشكالها إلّا قبل الهجرة بسنة. وعرف المسلمون في أوّل أمرهم أنواعاً من الصّدقة والصّيام، ولكن مقادير الزّكاة وشروط الصّيام لم تفرض إلّا بعد الهجرة بسنة، فهذا كلّه من مرانة الإسلام ويسره وسماحته، إذ قال الله: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١]، وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٢]، فما يريد الله أن يشقّ على عباده وإنّما يأخذهم بالرّفق، وينهاهم عن كثرة السّؤال، لئلّا يبدوا لهم ما يكرهون من جديد التّكاليف ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾[٣].

وإذا سلك هذا كلّه في باب تأخير البيان لوقت الحاجة ولم يكن من التّدريج في شيء، فإنّ انطباق هذا الحكم على السّطحيات المنزلقة إلى أنفس الأفراد أو إلى أنفس المجتمعات أولى وأجدر. ومن هنا لم يدع داعٍ إلى التّدرّج في تحريم الزّنى ولا القتل ولا السّرقة ولا أكل أموال النّاس بالباطل.

إنّما يكون التّدرّج في النّوازل القرآنيّة إذن في مثل الخمر والميسر من العادات الشّعوريّة أو الأمراض النّفسيّة، وفي مثل استرقاق الأسرى من التّقاليد الاجتماعيّة والأعراف الدّوليّة.

وحسبنا – على سبيل المثال – أن نمرّ مروراً خاطفاً بالتّحريم القرآنيّ المتدرّج للعادة الشّعوريّة الخطيرة المسمّاة بإدمان المسكرات، فقد نزل في أمرها أوّل ما نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٤]، فوجّه أنظار السّكارى إلى أنّ الحرمة إنّما تقوم على غلبة الشّرّ، فمهما يكن في

---

١ ـ الحج / ٧٨.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ المائدة / ١٠١. وقارن بأسباب النّزول للواحديّ: ١٥٧.

٤ ـ البقرة/٢١٩ .وانظر في تفسير المنار ٢: ٢١٩ و ٤٩، الحكمة في تحريم الخمر على مراحل.

الخمر من منافع اقتصاديّة في المتاجرة بها، ومن منافع ظاهريّة في حُمرة الخدّ الّتي توهم الصّحة الحسنة، ومن منافع اجتماعيّة فيما تدفع إليه من السّخاء والجود في حالة السّكر والعربدة، أو من الشّجاعة الّتي تبلغ أحياناً حدّ التّهوّر في ساحة الحرب، فإنّ إثمها أكبر من نفعها، فتلك علّة كافية لتحريمها. فكانت الخطوة الأُولى تحريكاً للمنطق التّشريعيّ في نفوس المسلمين، ثمّ تبعتها الخطوة الثّانية بقوله تعالى: ﴿يَا ءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلٰواةَ وَاَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتّٰى تَعْلَمُوا مَاتَقُولُونَ﴾[١]. فضيّق عليهم الفُرصة لمزاولة السّكر؛ لأنّ الصّلوات الخمس كانت قد شرّعت في أوقات متقاربة لا يكفي ما بينها للإفاقة من نشوة الخمر، حتّى إذا أصبحت فُرص السّكر نادرة بطبيعة الحال حرّم الله عليهم الخمر في لهجة قاطعة جازمة فقال: ﴿يَا ءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ والاَنْصَابُ وَالاَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ اِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ اَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَعَنِ الصَّلٰواةِ فَهَلْ اَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[٢]، فقالوا: انتهينا، وانتهوا حقيقة، وأصبحوا ينتظرون حدود الله في شارب الخمر، ويخجلون أن يصل الأمر بأحد المسلمين إلى أن تقام عليه هذه الحدود.

وهكذا تدرّج الوحي مع النّبيّ يربّيه ويعلّمه ويهديه حتّى «كان خُلقه القرآن» كما تقول عائشة أُمّ المؤمنين، وتدرّج في تربية المؤمنين، فلم يزيّن قلوبهم بحِليّة الإيمان الصّادق، والعبادة الخالصة، والخلق السَّمِح، إلّا بعد أن مهّد لذلك بتقبيح تقاليدهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة شيئاً فشيئاً، وساعدهم نزوله المنجّم على حفظ آياته في الصّدور، كما قوّى من عزائمهم في الشّدائد، فكان دستور حياتهم علماً وعملاً، وكان المدرسة الصّالحة الّتي جعلت منهم رجالاً وأبطالاً. ولعلّ ابن عبّاس في قوله: نزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم[٣]، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَاْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾[٤]، إنّما كان

---

١ ـ سورة النّساء / ٤٢.

٢ ـ المائدة / ٩١.

٣ ـ أخرجه الطَّبَرانيّ والبزار من وجه، وابن أبي حاتم من وجه آخر. انظر الإتقان ١: ١٨ و ١: ٧١.

٤ ـ الفرقان / ٣٣.

يومىء إلى هذا النّوع من التّربية السّامية الّتي أتاحها للمؤمنين نزول كتابهم منجّماً بحسب الحاجة، متدرّجاً مع الوقائع والأحداث.

أراد القرآن مثلاً – على الصّعيد التّربويّ ـ أن يحطّم العصبيّة الجاهليّة الرّعناء، وأن يستبدل التّقوى بتفاخرها بالآباء، فمهّد لذلك برفع العبيد الأرِقّاء إلى مقام السّادة الأحرار، إنّ بلالاً الحبشيّ الأسود ليرقى ظهر الكعبة، ويؤذّن يوم الفتح، فيقول المشركون مستنكرين: أهذا العبد الأسود يؤذّن على ظهر الكعبة؟ فتنزل على قلب النّبيّ آية تضع الموازين القسط للأشخاص والقِيَم والأشياء: ﴿يَا ءَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَيكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [١]

وعلى الصّعيد الاجتماعيّ أراد الإسلام أن يحفظ على هذه الأُمّة اعتدالها وتوازنها، وأن يجعلها وسطاً في عقائدها وأخلاقها وعباداتها ومعاملاتها، فمهّد لذلك بتصحيح مقاييسها ودعوتها إلى ما يحييها. فلمّا اتّفقت جماعة من الصّحابة على أن يجبّوا أنفسهم، ويعتزلوا النّساء، ولا يأكلوا لحماً ولا دسماً، ويلبسوا المسوح، ولا يأكلوا من الطّعام إلّا قوتاً، ويسيحوا في الأرض كهيئة الرّهبان أنزل الله لتقويم هذا الانحراف عن دواعي الفطرة قوله الكريم: ﴿يَا ءَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [٢]. ومن عجائب الإيحاء التّعبيريّ في القرآن أنّ انحراف أُولئك الصّحابة شبّه في الآية بالاعتداء والعدوان!.

أمّا الصّعيد النّفسيّ فيكاد القرآن فيه يخاطب كلّ نفس على حدة، متناولاً بنظرته الشّاملة أسرارها كلّها وخفاياها، وإنّما نجتزىء هنا بتنزّل قرآنيّ واحد على سبيل المثال، لقد كلّف الله الصّحابة الأوّلين ضروب المشقّات وألوانها فتحمّلوها مختارين، ولكنّه في آية واحدة حمّل عليهم إصراً كبيراً، وحمّلهم ما لا طاقة لهم به، حتّى جثوا على ركبهم دهشة وذهولاً، حين أُنزل قوله الكريم: ﴿وَإِنْ تُبْدُو مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ

---

١ ـ الحُجُرات / ١٣. وقارن بأسباب النّزول للسّيوطيّ / ١٢٢.

٢ ـ المائدة / ٨٧ – ٨٨. وقارن بأسباب النّزول: ٥٧.

اللّهُ﴾[١]. فعجبوا كيف يحاسبهم اللّه على ما همّت به أنفسهم ولم يعملوه، وأتوا رسول اللّه يقولون: قد أنزل الله عليك هذه الآية ولا نطيقها. وإذا الوحي يتنزّل بالتّخفيف والتّيسير، ويعلن مبدأه السّمِح الصّريح: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[٢].

وبعد، لئن كان تصوير الوحي لشخص الرّسول دليلاً وجدانيّاً على صدقه ﷺ، لعمري إنّه في تدرّج نزوله برهان منطقيّ دامغ على أنّ هذا الكتاب المجيد كلام الله العليم الحكيم، أنزله على رسوله هدىً وموعظةً وتبياناً لكلّ شيءٍ.(ص: ٤٩ ـ ٦٢)

---

١ ـ البقرة / ٢٨٤.

٢ ـ البقرة / ٢٨٦. وقارن بأسباب النّزول: ٢٦. وقد ظنّ السّيوطيّ هنا أنّ هذه الآية نسخت الآية السّابقة. وإنّما نعدّ هذا ضرباً من تزيّد العلماء في باب النّسخ. وسنوضّح في فصل «النّاسخ والمنسوخ» بعض ما أقحمه المفسّرون فيه.

الفصل التّاسع والخمسون

نصّ الدّكتور حجازيّ (ت: ١٣٣٨ه) في كتابه:

«الوحدة الموضوعيّة»

للقرآن الكريم تنزّلات ثلاثة

(أ) مسجّل في اللّوح المحفوظ.

(ب) أُنزل إلى السّماء الدّنيا في ليلة مباركة من ليالي شهر رمضان.

(ج) أُنزل منجّماً على النّبيّ محمّد ﷺ في ثلاث وعشرين سنة.

اقتضت حكمة الله جلّ جلاله أن يكون لهذا الوجود سجلّ عامّ يسجّل فيه كلّ ما كان وما سيكون، والقرآن المجيد وهو دستور الشّريعة المحمّديّة شريعة الحقّ والعدل، الشّريعة الخالدة الصّالحة لكلّ زمان ومكان، وهو مصدّق لكلّ كتاب، وبيان لكلّ تنزيل أولى بأن يسجّل في هذا السّجل.

ويدلّنا على ذلك قول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[1]. على أنّ اللّوح المحفوظ نؤمن به كما أخبر الحقّ، وليس علينا أن نبحث أين هو؟ ولا متى كتب فيه، ولا كيف سجّل؟ ولا بأيّ لغة كان؟ فذلك من أسرار الغيب الّتي لم يطّلعنا الله

---

١ ـ البروج / ٢٢.

عليها، وستظلّ كذلك في أستار الغيب.

ويعجبني قول أبي حيّان في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾: اللّوح المحفوظ هو الّذي فيه جميع الأشياء. وقول الآلوسيّ في هذا الموضع: ونحن نؤمن به، ولا يلزمنا البحث عن ماهيّته وكيفيّة كتابته ونحو ذلك وممّن ذهب مذهب التّأويل في ذلك بعض العلماء في تفسيره اللّوح المحفوظ بأنّه لوح الوجود والحقّ. ولكنّ الأولى عدم التّأويل، وتفويض علم ذلك للّه. والظّاهر أنّ القرآن أثبت في اللّوح المحفوظ جملةً واحدةً، ولم يكن مفرّقاً حيث لا داعي إلى ذلك. تلك هي المرحلة الأُولى، ويلاحظ أنّه لم يستخدم فيها كلمة (النّزول) أصلاً.

المرحلة الثّانية: أو النّزول الثّاني [1]: من الحقّ أنّ ما ليس في دائرة علمنا، وما لا يقع

---

١ ـ بحث نزول القرآن في اللّغة: من مفردات الرّاغب الأصبهانيّ. النّزول في الأصل هو انحطاط من علوّ؛ يقال: نزل عن دابّته، ونزل في المكان: حطّ رحله فيه، وأنزله غيره، ونزل بكذا، وأنزله بمعنى. وعليه ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ الكهف / ١، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ الحديد / ٢٥، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الحديد ٢٥، ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ الزّمر / ٦، والفرق بين الإنزال والتّنزيل بالنّسبة للقرآن أنّ التّنزيل يختصّ بالموضع الّذي يشير إليه إنزاله مفرّقاً مرّةً بعد أُخرى، والإنزال عامّ، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ الحجر / ٩، ﴿ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ الإسراء / ١٠٦، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الشّعراء / ١٩٨.

وحكى الله عن المنافقين: ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ محمّد / ٢٠، ذكر في الأُولى نزّل وفي الثّانية أنزل؛ تنبيهاً إلى أنّ المنافقين يقترحون أن ينزّل شيئاً فشيئاً من الحثّ على القتال ليتولّوه، وإذا أُمروا بذلك مرّةً واحدةً تحاشوا منه، وعليه جاء قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ الدّخان /٣، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر ١؛ لأنّه نزل جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا، والنّزول بمعنى الهبوط من علوّ إلى أسفل، والانتقال من مكان إلى مكان، لا يتأتّيان في جانب القرآن؛ لأنّهما يستلزمان الحركة والجسميّة، والقرآن ليس كذلك؛ إذ هو بالمعنى الشّرعيّ العامّ يطلق على الكلام المعجز المنزّل على النّبيّ محمّد ﷺ، وهو في عرف المتكلّمين يطلق على الصّفة القديمة، باعتبار تعلّقها بالكلمات النّفسيّة القديمة من أوّل سورة الحمد إلى آخر سورة النّاس، ويطلق على تلك الكلمات أيضاً. وليس شيءٌ من هذه المعاني يجسّم حتّى يهبط من أعلى إلى أسفل، أو ينتقل من مكان ويحلّ في آخر، لذلك كان وصف القرآن بالنّزول وصفاً مجازيّاً باعتبار المعاني:

(أ) هو الصّفة القديمة باعتبار تعلّقها بالكلام النّفسيّ.

(ب) هو الكلام النّفسيّ القديم. فالمراد بالإنزال إيجاد ما يدلّ عليه، وإن أُريد به الألفاظ المنزلة فإنزاله هو الإيصال و الإعلام، ونزوله وصوله والعلم به، فإنّ من أُنزل شيئاً إلى مكان فقد أوصله إليه وأعلم به كلّ من يراه.

تحت حسّنا من الأُمور الدّينيّة، إنّما نستقي معلوماتنا من مصدرين لا ثالث لهما: الكتاب والسّنّة. أمّا الاستنباط أو القياس أو استخدام الفروض والظّنون فتلك من باب الحدس والتّخمين، وضرب من قصور العقل والتّفكير. ومسألتنا هذه وهي نزول القرآن إلى سماء الدّنيا في بيت العزّة ترى ماذا قال عنها القرآن؟ وماذا قالت السّنّة الصّحيحة؟

يقول الله تعالى:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[1].

يقول الله تعالى:﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[2].

يقول الله تعالى:﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا اَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾[3]

هذه الآيات الثّلاث –كما هو أساس بحثنا الموضعي في القرآن – تفيد معنى: أنّ الله جلّ جلاله أنزل القرآن في ليلة مباركة هي ليلة القدر الّتي هي خير من ألف شهر، وهي إحدى ليالي رمضان. ولقد صرّح القرآن الكريم بأنّه أُنزل في تلك اللّيلة المباركة من رمضان. فالأقرب إلى الصّواب أن نفهم أنّه كلّه أُنزل جملةً واحدةً في هذه اللّيلة، وهذا هو الرّأي الصّحيح السّليم. ويرى بعضهم خروجاً من تصادم حقيقة نزول القرآن منجّماً مع هذه الآيات، فيؤوّل أنّه بدى نزوله في تلك اللّيلة، ثمّ تتابع نزوله في ثلاث وعشرين سنة. ويرى فريق ثالث أنّه كان ينزل جملةً، أي ما خصّص من القرآن في السّنة ينزل في ليلة القدر منها. أليس هذا تعسّفاً وتأويلاً وارتكاب شطط؟ ولماذا؟ الله يقول: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فكيف نقول ابتدأ نزوله، أي نزلت آية منه – على الرّأي الثّاني – في تلك اللّيلة المباركة. وكيف نقول: لم ينزل بعضه في ليلة قدر واحدة، بل في كلّ ليلة من ليالي القدر في مدّة ثلاث وعشرين سنة؟ الحقّ أحقّ بالاتّباع، والرّأي الأوّل هو السّديد، وأنا أرجع عمّا كتبته في التّفسير الواضح، فإنّي كنت أُرجّح الرّأي الثّاني، هدانا الله إلى الصّواب دائماً.[ثمّ ذكر روايتي ابن عبّاس نقلاً عن الحاكم والنّسائيّ كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:]

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الدّخان / ٣.

٣ ـ القدر / ١ ـ ٢.

ولقد أيّد الرّأي الأوّل العلّامة الزّركشيّ بعد أن ذكر الرّأيين الأخيرين، وكذلك فعل السّيوطيّ في الإتقان، وأيّد الرّأي الأوّل بهاتين الرّوايتين وزاد رواية أُخرى عن ابن عبّاس.

والحقّ أنّ ذلك سرّ من أسرار الغيب، وإن جاز لنا أن نفهم شيئاً فإنّا نقول: مسألة الاحتفاء به، والعناية بشأنه، ويتّبع ذلك تفخيم المنزل عليه وتكريمه، أو أنّ للملائكة الّذين هم سكّان السّماء الدّنيا مصلحة، أو للرّسول ﷺ مصلحة في توقّع الوحي من أقرب الجهات، أو كان فيه مصلحة لجبريل عليه السلام، ذلك كلام لا يشفي الغليل وإنّني أرى أنّ المسألة أعلى من ذلك كلّه وأدقّ، فإنّا قد قلنا: إنّ هناك سرّاً يعجز عن تحقيقه قوى البشر جميعاً، هذه السّر يدور حول ترتيب القرآن في النّزول، وترتيبه في المُصحف، ثمّ ظهور الدّقّة الكاملة والأحكام الإلهيّ الواسع في النّزول وترتيب المُصحف.

أظنّ أنّ نزول القرآن جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى سماء الدّنيا؛ حيث ينظره جبريل وهو على ترتيب المُصحف، ثمّ يتنزّل بآياته تباعاً على حسب الحوادث، فتوضع كلّ آية في مكانها لا تختلّ أبداً قيد شَعرة، فكأنّ جبريل ينقل من سجلّ ثابت، بُيّن فيه كلّ شيء. وأظنّ هذا من باب تقريب الفهم للبشر، وتحقيق ما أراد الله لهذا القرآن من الضّخامة والإعجاز حتّى في كتابته في المصحف، فكان نزوله إلى سماء الدّنيا جملة. قلت قبل هذا: إن هذا سرّ، وإنّما نحن نطوف حوله، والله يهدي من يشاء إلى صراطه، وهو أعلم بكتابه.

هل نزل القرآن على النّبيّ ﷺ بلفظه ومعناه؟

نزول القرآن على النّبيّ ﷺ بواسطة جبريل الرّوح الأمين ثبت بالتّواتر الّذي لا يقبل شكّاً ولا جدلاً، اللّهمّ إلّا ممّن أُلغيت عقولهم وضلّ رشدهم، وهؤلاء لا حساب لهم. ولكن هل نزل جبريل على النّبيّ ﷺ باللّفظ والمعنى من عند الله، أو بالمعنى فقط واللّفظ من عنده، أو من عند النّبيّ ﷺ؟

كما قلت: يجب أن نضع أمام أعيننا قبل الحكم دعائم البحث من الكتاب والسّنّة، ولقد جاء القرآن في هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ [١]

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [٢]

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [٣]

فهذه الآيات الثّلاث تفيد كلّها أنّ القرآن وآياته شيء يقرأ ويسمع ويتلى، ولا شكّ أنّ هذه أغراض الألفاظ لا المعاني، فإنّ ما يسمع ويتلى ويقرأ إنّما هو اللّفظ لا المعنى وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [٤] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٥] والكتاب الّذي يكتب هو اللّفظ، والمقروء العربيّ هو اللّفظ.وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٦].

فدلّت هذه النّصوص كلّها على أنّ القرآن يتلى ويسمع ويكتب وهو بلسان عربيّ مبين، ثمّ هذا كلّه إنّما يتلقّى ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.

أظنّ بعد هذه النّصوص لا يمكن أن تقول: إنّ القرآن نزل من عند الله بالمعنى فقط، وأمّا اللّفظ فمن جبريل أو من محمّد ﷺ ومن العجيب أنّ الإمام الزّركشيّ حكى القولين الآخرين، وبيّن أنّ الرّأي الأوّل قائل بأنّ التّنزيل نزل باللّفظ والمعنى، وأنّه حفظه من اللّوح المحفوظ، ونزل به أو هو تلقّاه مشافهة من الله أو تلقّاه كذلك من بيت العزّة، وهو الرّاجح عندي كما قلنا. ولقد ذكر كذلك السّيوطيّ، إلّا أنّه لم يرجّح ولم يبيّن أنّ الرّأيين الآخرين خطأ، وإذا كان كذلك فما خطأهما؟

بعد نقل الآيات السّابقة الدّالّة صراحة على أنّ القرآن نزل باللّفظ والمعنى لا يمكن أن نقول إلّا بالتّناقض بين هذا الرّأي وبين تلك النّصوص القرآنيّة. وإذا قلنا بما قالوا فكيف تتحقّق المعجزة وهي الأمر الخارق للعادة، وكانت من أحسن صنع الله؟ الآن وقفنا على

---

١ ـ الإسراء / ٤٧.

٢ ـ الجاثية / ٧ ـ ٨.

٣ ـ البراءة / ٦.

٤ ـ الكهف / ١.

٥ ـ يوسف / ٢.

٦ ـ النّمل / ٦.

خطأهما، ولكن أليس لهما سند أم أنّ هذا كلام بلا سند؟

أمّا من يقول: إنّ المعنى من الله، واللّفظ من عند جبريل، فلا سند له، وإنّما هو هَوَس وتخريف، وكان يجب على أئمّة علوم القرآن كالزّركَشيّ والسّيوطيّ ألّا يذكرا هذا الرّأي، وإن ذكرا لابدّ من التّعقيب عليه بما يدحضه حتّى لا يغترّ بذكره أحد. أمّا من يقول: إنّ اللّفظ من عند محمّد، فيستدلّ على كلامه بقوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

فالقرآن نزل على قلب النّبيّ ﷺ وما ينزل على القلب إنّما هو معنى لا اللّفظ، وعلى ذلك فالمعنى من الله واللّفظ من عند محمّد. والّذي دفعهم إلى ذلك أنّه لم يستطع أن يفهم كيف نزل اللّفظ على قلب النّبيّ ﷺ ولكن ألا يعلم أنّ السّفير ملك؟ وأنّ المنزل عليه قلب النّبيّ محمّد ﷺ؟

والله أعلم حيث يجعل رسالته، فهذا المحيط الّذي فيه عمل الملائكة الأبرار مع قلب النّبيّ ﷺ وهو سيّد الأخيار يجب أن نقف عند ذلك ونؤمن بما قال القرآن.

فهذه بعض مظاهر العلم عندنا اليوم: الحديث بالرّادار، وبالتّلفزيون، لا يعرفه إلّا المتخصّصون الدّارسون وهو خافٍ على غيرهم. على أنّ العقل المجرّد لا يحيل هذا اللّون من تلقّي القلب للّفظ والمعنى.

وهناك آية أُخرى ترفع عنّا هذا الحرج، هي قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[2]، أي إنّ علينا جمعه في قلبك وقراءته على لسانك، جمع القرآن في القلب، والقرآن هو اللّفظ والمعنى، ثمّ تقرأه بعد ذلك بلسانك على أنّ نفس الآية الّتي استدلّوا بها لا تشهد لهم، فإنّ قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ متعلّق بـ(نَزَل)، وقدّم عليها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ للاهتمام بهذا التّعليم، وإلّا لو جعلنا قوله ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ متعلّقاًبقوله ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾ لكان المعنى لتكون من المنذرين الّذين أُنذروا ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ كهود وصالح

١ ـ الشّعراء / ١٩٣ – ١٩٥.

٢ ـ القيامة / ١٦ – ١٩.

معي في أنّ الآية أوسع من هذا بكثير على أنّ الآلوسيّ في تفسيره عندما ذكر هذا الرّأي تعلّق قوله: ﴿بِلِسَانٍ﴾ بقوله ﴿الْمُنْذِرِينَ﴾؛ قال: إنّه غير سديد. وتعقّب بأنّه يؤدّي إلى أنّ غاية الإنذار كونه ﷺ من جملة المنذرين باللّغة العربيّة فقط من هود وصالح وشعيب، ولا يخفى فساد هذا الرّأي.

على أنّ هناك آية لنا هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[1].

فقد ردّ النّبيّ ﷺ أنّه لا يملك فيه تغييراً كلّيّاً ولا جزئيّاً، أمّا التّغيير الكلّيّ فظاهر لم يرد عليه، وأمّا التّغيير الجزئيّ فقال عنه: أنّه لا يملك فيه تبديلاً ولا تعديلاً، ﴿وَمَا أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ...﴾ فهذا دليل صريح على أنّ اللّفظ موحىً به من عند الله، ولا يملك فيه النّبيّ ﷺ تغييراً ولا تبديلاً.

السّرّ في نزول القرآن منجّماً

نزل القرآن الكريم على رسول‌الله ﷺ في بضع وعشرين سنة، وكان هذا التّفريق في النّزول والتّنجيم على دفعات لحكم وأسرار إلهيّة؛

١ـ الحكمة الأولى: تثبيت قلب النّبيّ ﷺ ليتحمّل ثقل الدّعوة وأعباء الرّسالة، ولقد صرّح بهذا القرآن الكريم، حيث قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[2]. أمّا مظاهر هذا التّثبيت فكان في:

(أ) إنّ لقاء الحبيب المصطفى مع الرّوح الأمين كلّما ادلهمّ الأمر، أو نزل الخطب ممّا يثلج النّفس، ويشرح الصّدر، ويقوّي العزم، ويجدّد الأمل، ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

(ب) وفي التّنجيم والتّفريق ما يساعد على الحفظ، ويعين على الإدراك والفهم، ويعمّق في نفس النّبيّ ﷺ وصحبه الألفاظ مصحوبة بمعانيها مشروحة بأحداثها، ولا شكّ أنّ هذا ممّا يثبّت فؤاد النّبيّ ﷺ والمسلمين، فتنقش في قلوبهم الآيات وأحداثها وأبعادها.

---

١ ـ يونس / ١٥.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

(جـ) إنّ هذا اللّقاء، لقاء الرّوح الأمين جبريل بمحمّد ﷺ حاملاً القرآن الكريم، المعجزة الباقية الدّالّة على صدق الرّسول على دفعات ونجوم ممّا يقوّي القلب ويدعم الحقّ، ويشدّ الأزر.

(د) وكثرة النّزول بدفعات التّحدّي والإعجاز، ثمّ ظهور العجز والقصور ممّا يجدّد اللّذّة، ويبعث الهمّة، وينكي الأعداء، ويردّ كيدهم في نحورهم المرّة بعد المرّة.

(هـ) وكأنّ جبريل واقف بالمرصاد يشرع سهم القرآن في صدور المشركين، كلّما جمعوا أمرهم، وألقوا سؤالهم، أو أظهروا عنتهم أو أفتنوا في ضرب الأمثال للّدد والخصام، فيقولون: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[1]، وكلّما جئنا بمثل جاءنا بردّه وتفسيره، وهكذا كانوا مع النّبيّ ﷺ كلّما تحزّبوا ضدّه وأجمعوا أمرهم لكيده أتتهم الصّاعقة تلو الصّاعقة، ممّا جعلهم يجعلون أصابعهم في آذانهم.

وأمّا النّبيّ ﷺ فيرى أنّ الله ما ودّعه وما قلاه، فهو إذن بلا شكّ يقبل على عمله ثابتاً ثبوت الجبال أمام العواصف الهوج؛ مقتدياً بإخوانه من الأنبياء والرّسل في قصصهم، وفي وعد القرآن بالنّصر لأوليائه، ووعيده بهزيمة الشّرك وأنصاره ولقد صدق الله ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[2]

٢- الحكمة الثّانية: تعهّد هذه الأمّة الّتي أُنزل عليها القرآن وتربيتها تربية سليمة صحيحة، وقد ترجم عنها القرآن، فقال ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[3]. أمّا مظاهر تلك الحكمة وهذه العناية والتّربية فتظهر في:

(أ) تيسير حفظه: فهم أمّة أُمّيّة، أساليب الكتابة فيها والتّدوين غير ميسّرة، لم تكن بمعنى الكلمة إلّا بعد الإسلام. ولهذا اعتمدت على الذّاكرة القويّة والحفظ السّريع، وهم مع ذلك قوم تشغلهم الحروب وأُمور المعيشة في السّلم، وهم بعد الإسلام قد شغلوا بالمحافظة على الدّعوة الجديدة، وتثبيت أركان الدّين، فكانت حروب ومنازعات

---

١ ـ الكهف / ٤٩.

٢ ـ الفرقان / ٣٣.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

للدّفاع عن عقيدتهم الجديدة.

فأنت تراهم قوماً أُمّيّين مشغولين في السّلم والحرب، فكانت العناية الإلهيّة ترعاهم وتتعهّدهم، فأنزل الله قرآنه مفرّقاً منجّماً؛ ليقرأه الرّسول عليهم على مُكث وتمهُّل، كلّ حادثة مع ما نزل فيها من قرآن. ولا شكّ أنّ هذا أدعى للحفظ الواعي والفهم الرّاسخ، وصدق الله ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾.

(ب) وفي هذا التّنجيم والتّفريق مع المعاونة على الحفظ تيسير الفهم للأحداث وآياتها، وللأسئلة وإجاباتها، و للاعتراضات ودفع شبهها بالقرآن الكريم.

(ج) هذه الأُمّة العربيّة الّتي تلقّت القرآن أوّلاً أُمّة كانت لها عقائد راسخة، وعادات متأصّلة، وأخلاق موروثة، وصفات مأثورة، ثمّ هي مع ذلك تعتزّ بها وتدين، وترى أنّها من مفاخرها ودين آبائها وأجدادها، فليس انتزاعها بالأمر السّهل. الهيِّن.

لهذا سلك القرآن معها مسلك الحكيم العليم، ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوّٰى وَقَدَّرَ فَهَدٰى﴾[1] ﴿الَّذِى اَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ﴾[2] سلك معها مسلك التّدرّج، والانتقال من حال إلى حال مع التّمهّل واليسر، حتّى استطاع الإسلام أن يزحزحهم عن عقائدهم، وأن يجعلهم يتخلّون عن عاداتهم شيئاً فشيئاً. كلّ هذا بما أُنزل عليهم من القرآن بالتّنجيم والتّفريق، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾. انظر إلى مسلك القرآن في تحريم الخمر والرّبا أو الحثّ على الإنفاق والبذل، فأنت ترى أنّ الحكمة الأُولى ترجع إلى النّبيّ ﷺ والثّانية ترجع إلى أُمّته.

٣- الحكمة الثّالثة: وهي ترجع إلى تسجيل الأحداث والوقائع الّتي وقعت متفرّقة مع رأي القرآن فيها، ومظاهر هذه الحكمة تظهر في ما يأتي:

(أ) لقد سأل النّاس أسئلة كثيرة، أسئلة بريئة وأُخرى غير بريئة، فمثلاً سألوا عن الرّوح، عن ذي القرنين، عن السّاعة، عن الفتية الّذين آمنوا، سألوا عن النّفقة، عن الأهلّة، عن الخمر، عن الحيض، وغير ذلك كثير.

---

١ ـ الأعلى / ٢ - ٣.

٢ ـ السّجدة / ٧.

ولا شكّ أنّ الأسئلة لم تكن في وقت واحد بل كانت في أوقات متعدّدة مختلفة، وكانت الإجابة عن كلّ سؤال بما يوافقه ثمّ يوضع في السّورة الّتي يتلائم مع هدفها العامّ.

(ب) متابعة الأقضية والوقائع وأحداثها في وقتها ببيان حكم الله فيها. وهذا طبعاً يكون في أوقات متعدّدة. انظر في حادثة الإفك وظروفها وما تبعها، آيات اللّعان، حكم الزّنى، الظّهار، المواريث، العدّة.

(جـ) لم يكن أبداً من الممكن أن يتحدّث القرآن مرّةً واحدةً عن أشياء لابدّ منها في الدّين وستقع في ظروف مستقبلة. وكان من الحكمة التّعليق عليها وشرحها وبيان أسبابها ونتائجها، وبيان مادبّر للمسلمين في الخفاء، وإظهار العدوّ من الصّديق ساعة وقوعها؛ لتتمّ الفائدة المرجوّة، وفي هذا نزل الكثير من القرآن. ولنتتبّع غزوات النّبيّ ﷺ غزوة بدر، أحد، تبوك، حُنين، الأحداث الّتي وقعت لسرايا الرّسول. فلو لم يكشف ستر المنافقين ساعة ما دبّروا بليل ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ...﴾[1]

وحادثة طُعْمَة بن أُبَيْرِق، وصدق الله ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾[2]، وقال: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾[3]

٤- **الحكمة الرّابعة:** نزول القرآن منجّماً ثمّ ترتيبه في المُصحف على خلاف مانزل، وأنت إذا نظرت إلى القرآن الكريم في المُصحف، كيف بدئت السّورة المكّيّة وكيف انتهت، وكيف بدئت السّورة المدنيّة وكيف انتهت، ورأيت أنّ لكلّ أُسلوب خاصّية تميّزه، وما في كلّ من الآيات والأحكام، والأحداث والقصص والمواعظ والزّواجر، إذا نظرت إلى القرآن المجموع في المُصحف وأنت تعلم أنّه نزل مفرّقاً تبعاً لأحداث لم تأت تباعاً، ولم تكن على ترتيب أو نظام لعلمت علم اليقين أنّ هذا القرآن لايمكن أن يكون من وضع محمّد ﷺ فضلاً عن كونه من وضع غيره من البشر ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَوَاتِ

---

١ ـ النّساء / ٨١.

٢ ـ النّساء / ١٠٥.

٣ ـ الإسراء / ١٠٥.

وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[١]. فهذا النّسق البياني، وتلك الصّورة الرّائعة الدّقيقة، وهذا التّصوير الدّقيق المحكم، وتلك المناسبات القويّة المحكمة بين كلّ آية وآية، كلّ هذا دليل على أنّه تنزيل من حكيم عليم، وصدق الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾[٢].

ياعجباً كلّ العجب من كتاب نزل مرتبطاً بالأحداث والحوادث منجّماً تبعاً للظّروف والأحوال، ثمّ هو يجمع مرّةً ثانيةً على شكل آخر وبوضع آخر، وفي السّورة المقروءة تجد المدهش المعجز في بيانه وتصويره، وتجد الرّباط المحكم في سوره وآياته.

أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنّه كلام خالق القوى والقدر، إليه يرجع الأمر كلّه؟ انظر معي إلى حديث رسول الله ﷺ، وهو كما تعرف آية في البلاغة والرّوعة، ولقد قاله في مناسبات عدّة لدواعٍ متباينة في أزمان متطاولة، فهل في الإمكان لو اجتمع الإنس والجانّ على أن يصوغوا منه كتاباً مرتّباً محكماً ذا بيان وقوّة وسلطان يملك عليك قلبك، ويجبر الخصم الألدّ على أن يقول: والله إنّ أعلاه لمُثمِر وإنّ أسفله لمُغدِق، وما هو بقول البشر. أظنّ ذلك ليس في الإمكان بل ولا في الحسبان، ولقد كان معذوراً ذلك العربيّ الجاهليّ الّذي سجد لبلاغة القرآن وروعته، ونحن لا نقول فيه إلّا ما قاله الله فيه: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣].

لقد تكلّمت عن تنزّلات القرآن الأوّل إلى اللّوح المحفوظ، والثّاني إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا، والثّالث نزوله منجّماً على النّبيّ ﷺ ولقد ذكرت الحكمة في كلّ بالإجمال تارةً وبالتّفصيل تارةً أخرى.

هذا صحيح، ولكن ما علاقة هذا بتلك الدّعامة «ذكر الموضوع غير تامّ في السّورة» إنّ هذا يذكّرني بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٤]

---

١ ـ الفرقان / ٦.

٢ ـ النّساء / ٨٢.

٣ ـ هود / ١.

٤ ـ الرّعد / ١٧.

فاللّه جعله قرآناً مجيداً وجعله في لوح محفوظ، ثمّ أنزله إلى سماء الدّنيا في ليلة مباركة من ليالي رمضان هي ليلة القدر ثمّ أنزله على عبده ورسوله منجّماً في ثلاث وعشرين سنة تبعاً للأحداث والحوادث؛ لحكم وأسرار بيّنّا بعضها، والله أعلم بأسرار كتابه، وصدق الله ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا...﴾.

فالحكمة تقتضي تنزيله مفرّقاً على هذا الوضع المناسب للأحداث، لا ينقص فيما قدّره الله أو يزاد؛ لأنّه أنزله بالحقّ وبالحقّ نزل، فذكر الموضوع غير تامّ في السّورة بتقدير العزيز العليم، إذ كلّ شيء عنده بمقدار، ولكي نفهم لماذا لم يذكر الموضوع تامّاً في السّورة، لا بدّ أن نقف على تنزّلات القرآن، ونحاول أن نفهم بعض الحكم والأسرار، وألصق شيء بتلك الدّعامة الوقوف على تنزّلات القرآن.

لماذا لم يذكر الموضوع الواحد تامّاً في سورة واحدة؟

الوحي الإلهيّ المنزّل على النّبيّ ﷺ باعتباره ظاهرة تمتدّ في حدود الزّمن وتؤثّر فيه تمتاز بخصيصتين هامّتين بقطع النّظر عن طبيعته الذّاتية، هاتان الخصيصتان هما:

١ – تنجيم الوحي في ثلاث وعشرين سنة.

٢ – وحدته الكاملة في التّاريخ والتّشريع والتّربية السّليمة.

أمّا تنجيم الوحي وأنّه ضرورة محكمة له فظاهر، وله دواعٍ وحكم قد تعرّضنا لبعضها بما يشفي صدور القوم المؤمنين، وبما يلقم الأحجار في أفواه الجاحدين المعترضين، أمّا وحدته التّامة في كلّ شيء فهذا ما نعرض له الآن، وقد نصل فيه بعون الله إلى ما نريد.

لقد بدأ الوحي في غار حِراء بهذا الحوار المسموع الّذي دقّ سمع الوجود، ففتح قلبه لكلّ ما يأتي. لقد بدأ ﴿اِقْرأْ﴾.. «ما أنابقارئ» وهذا يدلّ من أوّل الأمر على أنّ ذلك الوحي ليس من باب الهذيان أو الاختلاط، فقد تقرّر بالقراءة مع الضّمّ ثلاث مرّات في حوار جادٍّ ليس بالهازل، وهذا ممّا لايمكن أن يكون بعد هذه الصّدمات الصّوتيّة، والحركات العنيفة في الضّمّ الّذي بلغ منه ﷺ الجهد أن يقال: إنّ هذا من باب الهذيان أو الاختلاط، ولقد بلغ الجهد من النّبيّ ﷺ مبلغه حتّى رجع إلى خديجة زوجه الطّاهرة الحنون يرجف فؤاده خوفاً ممّا لاقى. فتقوم الملاك الطّاهر، وتأخذ بيديه، وتهدّئ من روعه، وتبشّره بالخير، ثمّ

تذهب به إلى وَرَقَة بن نَوفَل، وكان امرءاً قد تنصّر في الجاهليّة، وقرأ من الكتاب ماشاء الله له أن يقرأ.

لقد استغرق نزول الوحي هذا – الّذي ذكرنا بدءه – بضعاً وعشرين سنة. ولكنّ الوحي مع النّبيّ ﷺ كان عجيباً حقّاً، إذ قد يأتي تباعاً من غير انتظار، وقد ينقطع عن النّبيّ ﷺ مدّة رغم انتظاره له، وطلبه بإلحاح ليدفع عنه الحرج الّذي هو فيه، والّذي دعا بعضهم لأن يقول: إنّ ربّ محمّد قد ودّعه وقلاه. أما ترى إلى النّبيّ ﷺ وقد اشتدّ عليه إيذاء المشركين بعد موت عمّه أبي طالب وزوجه خديجة، وقد بقي وحيداً فريداً. والنّبيّ لهذا يأمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، أمّا هو فبقي منتظراً الوحي مع شدّة الحاجة إليه، وقد كان كذلك في المدينة في حادثة الإفك، يتطلّع إلى السّماء، ويترقّب الوحي الّذي يقطع همّه ويفرّج كربه. ويبرىء أهله، ويقطع ألسنة المنافقين، وقد كان ألمه كثيراً من هذا. ومع كلّ هذا فقد ظلّ الوحي شهراً كاملاً أمضاه الرّسول على أحرّ من الجمر، ولكنّه وحي السّماء ينزل حيث أراد الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ اِلَّا بِاَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ اَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذٰلِكَ وَمَاكَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[1].

وهنا يبرز سؤال هامّ: ألم يكن من الممكن أن ينزّل القرآن مرّةً واحدةً كما نزّل غيره من الكتب، أو على الأقلّ كلّ موضوع قرآنيّ ينزل دفعةً واحدةً؟

ذلك سؤال قديم قاله الجاهليّون المشركون قديماً، وردّده الملاحدة المحدّثون على أنّه مطعن في الوحي وقصور في القرآن، وقد سجّل القرآن هذا في قوله: ﴿وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2].

ولكنّ الواقع التّاريخيّ والواقع الحقيقيّ لتلك الرّسالة الخالدة، مع ذلك الكتاب الّذي أنزله عالم السّرّ والنّجوى في السّماوات والأرض، يؤيّد هذا التّنجيم في النّزول، والتّنجيم في الموضوع الواحد بصورة قاطعة كما ستعرف الآن.

بل أصبح لهذا التّنجيم أهمّية قصوى في نجاح هذه الدّعوة؛ إذ بماذا كنّا نفسّر من

---

١ ـ مريم / ٦٤.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

الوجهة التّاريخيّة والاجتماعيّة والتّشريعيّة قرآناً يقود العالم كلّه من الظّلمات إلى النّور، ومن الشّر إلى الخير، ومن الضّلال إلى الصّراط المستقيم، ثمّ كان هذا القرآن يهبط كأنّما هو برق خاطف؟ ثمّ يصبح أشبه بالوثيقة الّتي تُلقى إلى الإنسان، أو التّفويض له من جهة أُخرى، ثمّ تراه يتحوّل سريعاً إلى كلمة مقدّسة خالدة.

ولقد تحدّث العالم الجزائريّ مالك بن نبيّ عن تنجيم الوحي، فقال في كتابه «الظّاهرة القرآنيّة»: إنّنا نبحث مسألة تجزئة الوحي في ضوء هذه النّظرات، ونستطيع أن ندرك أوّلاً قيمته التّربويّة، فتلك في الواقع هي الطّريقة التّربويّة الوحيدة الممكنة في حقبة تتّسم بميلاد دين وبزوغ حضارة. (ص: ١٦٦)

أنا أُطالب كلّ من يدور بخلده مثل هذا السّؤال أن يتصوّر الحال لو أُنزلت آيات القتال دفعةً واحدةً، وهي في موضوع واحد بلا شكّ، بماذا كان يفهم قوله تعالى: ﴿اِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ اَحْسَنُ﴾[١]، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينٌ﴾[٢]، ﴿يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اِصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾[٣]. مع قوله تعالى: ﴿يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[٤]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّٰهِ﴾[٥]، ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَاَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ اَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ اَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾[٦]، ﴿اِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُونَ مِائَتَيْنِ﴾[٧]، مع قوله: ﴿اَلْئٰنَ خَفَّفَ اللّٰهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ اَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَاِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾[٨].

فلو لم يكن تنجيم وترتيب في النّزول، ودراسة تاريخيّة لكلّ آية لكان ذلك من

---

١ ـ المؤمنون / ٩٦.

٢ ـ الكافرون / ٦.

٣ ـ آل عمران / ٢٠٠.

٤ ـ التّوبة / ١٢٣.

٥ ـ الأنفال / ٣٩.

٦ ـ البقرة / ١٩١.

٧ ـ الأنفال / ٦٥.

٨ ـ الأنفال / ٦٦.

التّناقض الّذي يتنزّه عنه كلّ كتاب بشريّ فما بالكم بالكتاب المحكم؟

ودراسة آيات التّشريع في الخمر والرّبا وغيرهما على ما سندرسه ترشدنا إلى أنّ التّنجيم في القرآن ظاهرة لا يمكن أن يسير بدونها، واجتماع مراحل التّشريع في آيات متلاحقة يعطيك فكرة أنّ هذا القرآن لا يصدر إلّا من حكيم عليم. والقصّة وما أدراك ما القصّة، إنّ أمرها في التّنجيم عجيب! وأيّ عجب؛ إذ ذكرت في أماكن متعدّدة وبأساليب مختلفة، وصورت المشهد الواحد عدّة صور، أترى لو أنّها جمعت في مكان واحد أكانت تعطي أيّ مبدأ من مبادىء الإعجاز في البيان؟ لا أنّها كانت مدعاة للسّأم والمَلَل.

فإن قيل: يكفينا صورة واحدة كاملة بأُسلوب واحد وتصوير واحد، هذا كلام من لم يدرس القصّة في القرآن، ولم يعلم أنّ المصوّر إذا أراد أن يعطيك الصّورة الكاملة لشيء لابدّ أن يصوّره في عدّة أوضاع، وفي عدد من الاتّجاهات حتّى تستطيع أن تدركه، إذاً التّكرار لازم وتنجيمه ألزم، وسبحان من هذا كلامه.

وإذا اتّجهت إلى الكلام على العقيدة هل يتصوّر أن ينزع كتاب أيًّا كان عقيدة خالطت الدّم والعقل بجرّة قلم، بدقّة واحدة، بلغة واحدة، بدليل واحد، بخطّة واحدة، بتشريع واحد، بتصوير واحد، كلّ هذا لا يمكن أبداً. فلا بدّ من التّنجيم والتّنويع واختلاف المكان والزّمان.

انظر إلى حادثة بدر أو أُحد، كيف كان الحال لو نزل القرآن كلّه مرّةً واحدةً عن هاتين الحادثتين دفعةً واحدةً قبلها أو بعدها؟ أمّا قبلها فلا وقع له في النّفوس، وأمّا ما بعدها فسيكون حديثاً عمّا مضى حديثاً باهتاً لا قوّة فيه. ولكن انظر إلى القرآن وهو يتتبّع الحوادث أوّلاً بأوّل، ولا يدع فرصة إلّا تكلّم عنها، ولا يدع موقفاً متأزّماً إلّا قال كلمته فيه. اقرأ معي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلٰثَةِ الٰافٍ مِنَ الْمَلٰئِكَةِ مُنْزَلِينَ* بَلٰى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَاْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ الٰافٍ مِنَ الْمَلٰئِكَةِ مُسَوِّمِينَ* وَمَا جَعَلَهُ اللّٰهُ اِلَّا بُشْرٰى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ اِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[1].

١ ـ آل عمران / ١٢٤ - ١٢٦.

تدبّر هذه الآيات وتعمّق في الصّورة الّتي رسمها التّنزيل للأزمنة العنيفة، والحيرة الشّديدة الّتي كان فيها المسلمون، ثمّ هذه البشارة وكيف كان وقعها على الجيش المحارب، ثمّ إذا تحقّق شرطها – الصّبر والتّقوى ومهاجمة الأعداء – تدرك عند ذلك كيف كانت البُشرىٰ والبشارة، وكيف كان وقع النّصر والظّفر على قلوب المسلمين وقلوب الكافرين؟ وصدق الله وعده ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

أرأيت لو أنّ القرآن تكلّم عن غزوة بدر مرّةً واحدةً في سورة واحدة، أكان ذلك يعطينا تلك الصّورة الرّائعة؟ لقد كان تسلسل الوحي في النّزول العامّ للقرآن الكريم، والنّزول الجزئيّ في الموضوع الواحد خلال ثلاثة وعشرين سنة يبيّن لنا بياناً شافياً سيرة النّبيّ ﷺ وصحبه خطوة خطوة، وهو يحوطهم بالعناية والرّعاية، ويشدّ عزمهم، ويثبّت أقدامهم، وينفي القذى عن أعينهم، ويزيح الدّخان من أمامهم. ثمّ هو يكرّم شهداءهم، وينذر أعداءهم، ثمّ هو يراقبهم بعين مفتوحة واعية، فإذا ما بيّتوا أمراً بليل فضحهم الله في الصّباح الباكر؛ ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾[2].

وهكذا القرآن الكريم لا يترك حادثة وقعت بلا تعقيب عليها وتوجيه سليم من أجلها، ولذلك تراه واقفاً للمنافقين بالمرصاد، يكشف سترهم حتّى يعرفهم الرّسول، وقد كانوا من قبل في غمار القوم غير معروفين؛ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾[3]. أرأيت إلى الوحي الكريم في تنجيمه وتوقيته كان يقوم بدور المعلّم المرشد، والهادي إلى الّتي هي أقوم؟ أرأيت إلى القرآن الكريم وهو يأخذ في دعوته وتشريعه وقصصه وأحكامه مأخذ التّدرّج والتّطوّر؟ أرأيت لو أنّ القرآن سلك غير هذا السّبيل فجاء في دعوته وتشريعه وقصصه بكلّ ماعنده من بيان وتفصيل دفعةً واحدةً

---

١ ـ الرّوم / ٤٧.

٢ ـ التّوبة / ٦٤.

٣ ـ التّوبة / ١٠١.

وكان يقع من النّاس هذا الموقع؟ وماذا كان الأمر لولم يأت لكلّ ألم بعزاء، ولكلّ تضحية بجزاء، ولكلّ هزيمة بسبب وعلاج، ولكلّ عقبة في الطّريق بتوجيه حاسم؟ إن لم يكن كذلك لما كان لقوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾[1] موقع. ألست معي في أنّ القرآن وقد تنزّل منجّماً كتاب محكم الآيات؟ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾[2].

فتنجيمه قد ظنّه الجاهلون عيباً، فإذا هو أقصى ما يتصوّر في الدّقة والحكمة والبلوغ إلى الهدف الأعلى، عرفنا أنّ القرآن نزل منجّماً، وكلّ وحدة في النّزول ضمّت لأخواتها في مجموعة واحدة (السّور القرآنيّة)، هذه الوحدة إذا ضمّت إلى وحدات أُخرى لم تكن كالوحدة الحسابيّة إذا ضمّت لزميلتها، وإنّما هي وحدة ضمّت إلى وحدة كما يضّم العضو في الجسم إلى العضو الآخر. أرأيت إلى السّاق وقد يضمّ إلى الذّراع؟ إن كنت درست علم الطّب أو التّشريح تدرك تماماً كيف يكون الرّباط القويّ المحكم، إنّ الّذي ربط هذه الأعضاء بهذه القوّة حتّى كان منها جسم كامل هو ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى وَقَدَّرَ فَهَدَى﴾[3]، هو الّذي ربط الآيات، الوحدة في النّزول مع الوحدات الأُخرى في السّورة، ﴿وَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4]. وأعجب العجب أنّ هذه الوحدة الّتي نزلت في موضوع خاصّ؛ إذا أخذتها وضممتها إلى الوحدات الأُخرى الّتي نزلت في هذا الموضوع نفسه لرأيت العجب، تماسكاً وتكاملاً وارتباطاً ووحدة في الموضوع! وهذا هو الهدف الأوّل للرّسالة.(ص:٦٨-٩١)

---

١ ـ الأنعام ٣٨.

٢ ـ العنكبوت / ٤٩.

٣ ـ الأعلى / ٢ - ٣.

٤ ـ المؤمنون / ١٤.

ونصّه أيضاً في «التّفسير الواضح»

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ..﴾ الدّخان: ٣

أقسم ربّك بالقرآن الكريم الّذي هو الكتاب المبين على أنّه أنزل القرآن في ليلة مباركة كثيرة الخيرات، وهذا النّسق من الكلام يدلّ على أنّ الله يعظّم القرآن غاية التّعظيم؛ حيث أقسم به على أنّه أنزل في ليلة مباركة، وهذا شبيه بقولك لصديق لك: أقسم بحقّك عليك.

والله سبحانه يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1] ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ...﴾[2] ويقول هنا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾. ومن هذه النّصوص الصّريحة يتبيّن لنا أنّ القرآن نزل في ليلة مباركة هي ليلة القدر، وهذه اللّيلة إحدى ليالي شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن، حتّى تتوافق جميع النّصوص القرآنيّة، ولعلّ إبهامها ليترقّبها النّاس في ثلاثين ليلة، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إنّا أنزلنا هذا القرآن في ليلة مباركة – هي ليلة القدر لا ليلة نصف شعبان كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء – ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ النّاس بهذا القرآن. والقرآن الكريم نزل منجّماً تبعاً للحوادث في ثلاث وعشرين سنة بين مكّة والمدينة المنوّرة. والمعروف أنّ بدء نزوله كان في ليلة القدر الّتي هي اللّيلة المباركة، وقيل: إنّ معنى نزوله فيها أنّه نزل إلى السّماء الدّنيا في تلك اللّيلة، والله أعلم بذلك. (٢٥:٥٤)

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

الفصل السّتّون

نصّ الخطيب في «التّفسير القرآنيّ للقرآن»

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾ النّحل / ١٠٢

وهذه الظّاهرة في القرآن الكريم، من تبادل الآيات أماكنها خلال الفترة الّتي نـزل فيها، تقابلها ظاهرة أُخرى، وهي نزول القرآن منجّماً خلال ثلاث وعشرين سنة؛ حيث لم ينزّل جملةً واحدةً، وإنّما نزل آيةً آيةً وآياتٍ آياتٍ، حتّى كمل وتمّ بناؤه على الصّورة الّتي أراده عليها سبحانه وتعالى، كما تلقّاه النّبيّ الكريم من جبريل في العَرضة الأخيرة الّتي كانت بينهما، بعد أن تمّ نزول القرآن قُبيل وفاة النّبيّ بزمن قليل. فهناك إذن عمليّتان قام عليهما بناء القرآن الكريم، وهما:

أوّلاً: نزوله منجّماً، أي مفرّقاً.

وثانياً: نزوله غير مرتّب الآيات في السّور. وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن السّبب الّذي من أجله كان بناء القرآن على هذا الأُسلوب.

أمّا عن نزول القرآن مفرّقاً، فاللّـه سبحانه وتعالى يقول ردّاً على المشركين الّذين أنكروا أن يجيء القرآن على هذا الأُسلوب: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

وأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[1]. فتثبيت فؤاد النّبيّ هو من بعض ما في نزول القرآن على تلك الصّورة من حكمة.

وأمّا عن نزول القرآن غير مرتّب الآي، فقد رأينا أنّ من حكمته تثبيت قلوب المؤمنين، بما تحمل إليهم الآيات الّتي تسبق سورها من بشريّات، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ففي هذا التّدبير، من نزول القرآن الكريم غير مرتّب الآي، - في هذا ما يسمح بنزول بعض الآيات متقدّمة زمناً على سورها الّتي ستلتقي بها، وتأخذ مكانها فيها، بعد أن يتمّ نزول القرآن كلّه.

وفي هذه الآيات الّتي كانت تنزل متقدّمةً زمناً على سورها، تثبيت لقلوب المؤمنين، وهدىً لهم، وبشرى بالمستقبل المسعد الّذي ينتظر الإسلام، وينتظرهم معه.

ولو كان معنى قوله تعالى:﴿إِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ نسخ آية بآيةٍ، لما كان من المناسب أن يكون التّعقيب على ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾،إذ أنّ النّسخ للآيات القرآنيّة، ليس من شأنه أن يثبت قلوب المؤمنين، بل أنّه يكون داعية من دواعي الإزعاج النّفسيّ، بسبب تلك الآيات الّتي يعيش معها المسلمون زمناً، ثمّ يتخلّون عنها. ثمّ أنّه من جهة أُخرى لا يحمل النّسخ على إطلاقه بُشرياتٍ للمسلمين، إذ أنّ أكثر ماوقع النّسخ - كما يقول القائلون به - على أحكام مخفّفة نسخت بغيرها، ممّا هو أثقل منها، كما يقال في الآيات المنسوخة في الخمر و في الرّبا، وفي حدّ الزّنى.

ثمّ - قبل هذا كلّه - إنّ هذه الآية: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ هي مكّية النّزول، بل من أوائل القرآن المكّي؛ حيث لم تكن قد شرّعت

---

١ ـ الفرقان / ٣٢ - ٣٣.

٢ ـ النّحل / ١٠١ - ١٠٢.

الأحكام بعد، في العبادات والمعاملات وفي القتال، وما يتّصل به من غنائم وأسرى، وغير ذلك ممّا يمكن أن يرد عليه النّسخ، إن كان هناك نسخ، إذ أنّ النّسخ إنّما تناول الأحكام الشّرعيّة وحدها. هذا، وقد استدّل القائلون بالنّسخ في القرآن بآية أُخرى، هي قوله تعالى: ﴿وَمَا اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ اِلَّا اِذَا تَمَنّٰى اَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى اُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللّٰهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللّٰهُ اٰيَاتِهِ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَاِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[١].

وسنعرض لهذه الآية في موضعها إن شاء الله، وحسبنا أن نقول هنا: إنّ النّسخ وارد على ما يلقي الشّيطان، لا على آيات الله، وأنّ الله سبحانه وتعالى يحكم آياته ولا ينسخها، وإذن فلا نسخ في آيات الله.

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٢] هذا ما يشير إلى شيء من هذا التّدبير السّماويّ في نزول القرآن غير مرتّب الآي؛ إذ ربّما كان ﷺ تتنزّل عليه الآية من القرآن، غير منسوبة إلى سورة من السّور الّتي نزلت، فيبادر إلى وصلها بما سبقها أو لحقها، حتّى لا تظّل في عزلة بين سور القرآن الّتي تتلى في الصّلاة، أو ترتّل في غير الصّلاة، فجاء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾ ليدفع عن النّبيّ هذا الشّعور من القلق على تلك الآيات المفردة أن ينظر إليها غير تلك النّظرة الّتي للقرآن الّذي جُمعت آياته وتمّت سوره! فتلك دعوة للنّبيّ إلّا يعجل ببناء القرآن قبل أن يتمّ وحيه إليه به، إذ ما زال هناك قرآن كثير لم ينزل بعد، وفي هذا القرآن الّذي سينزل علم كثير، يزداد به النّبيّ علماً إلى علم.

ويؤنسنا في هذا الفهم لتلك الآية الكريمة مانجده في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ* فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْاٰنَهُ * ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٣].

---

١ ـ الحجّ / ٥٢ - ٥٣.

٢ ـ طه / ١١٤.

٣ ـ القيامة / ١٦ - ١٧.

ففي هذه الآيات ما يكشف عن مشاعر النّبيّ نحو تلك الآيات الّتي كانت تتنزّل مفردة غير منسوبة إلى سورة من السّور، وإشفاقه من أن تُفلت منه، حيث لم ترتبط بغيرها من آيات القرآن والسّورة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ تطمين للنّبيّ بهذا الوعد الكريم من الله سبحانه، بأنّه جلّ شأنه هو الّذي سيتولّى جمع هذا القرآن المفرّق، وبناءه على الصّورة الّتي أراده الله سبحانه أن يقرأ عليها. وذلك ماكان بعد أن تمّ نزول القرآن وانقطع الوحي، فكان القرآن على تلك الصّورة الّتي تلقّاها النّبيّ من جبريل في العَرضة الأخيرة للقرآن، ثمّ تلقّاها من النّبيّ الصّحابة وكُتّاب الوحي، ثمّ تلقّاها المسلمون جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا وإلى يوم الدّين. (٧: ٣٦٧ ـ ٣٧١)

﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ..﴾ الإسراء/ ١٠٦

والواو في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً﴾ هي واو العطف، وما بعدها معطوف على الآية قبلها. ليثبت وصفاً آخر للقرآن، فكما أنّه نزل بالحقّ، وبالحقّ استقرّ وثبت، ولم يلحقه تبديل أو تحريف، هو كذلك نزل قرآناً منجّماً، ولم ينزل مرّةً واحدةً. وفي تنكير ﴿قُرْآناً﴾ تنويه به، ورفع لقدمه، وأنّه لتفرّده بهذا الوصف مستغنٍ عن كلّ تعريف، إذ كان هو وحده المستأهل لأن يُقرأ، وأن يُؤْثَر بالقراءة من كلّ قارىء.

و﴿فَرَقْنَاهُ﴾، أي نزّلناه مفرّقاً، ولم ينزّل كلاًّ واحداً، كما نزلت الكتب قبله، وأصله من الفرْق، وهو الفصل بين الشّيئين، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[١] أي أنّ موسى حين ضرب البحر بعصاه انفلق وانشقّ، فكان كلّ فِرْق، أي جانب، كالجبل العظيم. وقد قُرىء (فَرَّقْنَاهُ) بتشديد الرّاء، وهذا يؤيّد المعنى الّذي أشرنا إليه، كما يؤيّده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾. فهذا تعليل للسّبب الّذي من أجله أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾، أي على زمن متطاول، فنزّل منجّماً، أي مفرّقاً في نحو ثلاث وعشرين سنة وذلك ليعيش النّبيّ والمؤمنون معه على هذا

---

١ ـ الشّعراء / ٦٣.

الزّاد الكريم المختلف الألوان والطُّعوم، طوال تلك المدّة الّتي كان القرآن يتنزّل فيها، وهم يرصدون مطلع كلّ آية، ويشهدون بزوغ كلّ كلمة. وبهذا ظَلّ النّبيّ والمؤمنون معه خلال هذه السّنين الثّلاث والعشرين في مقام الانتظار لهذا الضّيف العظيم، تطلع عليهم مواكبه موكباً موكباً، وتلقاهم أضواؤه شعاعة شعاعة، حتّى إذا كان آخر كوكبة في مواكبه، وآخر ضوءة بين السّماء والأرض أذّن مؤذّن الحقّ: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْاِسْلَامَ دِيناً﴾[١].

وعندها صافح النّبيّ هذا الوافد الكريم في موكبه الحافل، وسَنَاهُ المشرق، ثمّ ودّعه؛ لينتقل هو ﷺ إلى الرّفيق الأعلى، وليقيم القرآن في النّاس مقامه، حيث يجتمع عليه المسلمون، ويستقبلون من آياته وكلماته إشارات الهدى، إلى حيث الفلاح والنّجاة في الدّنيا والآخرة جميعاً.

وفي قوله تعالى: ﴿لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ﴾، وفي تعدية الفعل «قرأ» بحرف الجرّ (عَلٰى): ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ بدلاً من اللّام: (لِلنَّاسِ) إشارة إلى علوّ هذا القرآن، وأنّه بحيث يشرف عليهم من عليائه، فيملأ وجودهم نوراً وألَقاً، وبحيث يكشف لهم كلّ خفيّةٍ، إذا هم جعلوا أبصارهم إليه، ووجّهوا عقولهم وقلوبهم له، فلا تعمى عليهم المسالك، ولا تتفرّق بهم السّبل، وفي هذا يقول الرّسول الكريم:«تركت فيكم ما إن تمسكّتم به لن تضلّوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنّتي ».

وفي قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ بيان للأُسلوب الّذي نزل به القرآن خلال هذا الزّمن الّذي نزل فيه، وأنّه نُزِّل تنزيلاً، أي نَزَلَ شيئاً فشيئاً، وهذا يعني أنّ القرآن الكريم وإن تلقّاه النّبيّ آية آية وآيات آيات وسورة سورة فإنّه في جميع أحواله تلك هو القرآن الكريم كلّه. ففي الآية الواحدة أو الآيات يُعرف القرآن الكريم، ويُعرف أنّه كلام ربّ العالمين، وأنّه المعجزة القاهرة المتحدّية الّتي تَقصُرُ دونها أيدي البلغاء، وتخضع لجلالها رقاب الفحول من الشّعراء والخطباء!

فالآيات القليلة الّتي تلقّاها النّبيّ في صدر دعوته، كانت صورة مصغّرة للقرآن

---

١ ـ المائدة / ٣.

الكريم كلّه، بها تحدّى قريشاً، وبها أفحمهم وأعجزهم! وإذا كان لنا أن نمثّل الصّورة الّتي تنزّل بها القرآن، فإنّه يمكن أن نرى في القمر وفي مطالعه ومنازله أقرب صورة له، حيث القمر هو القمر في جميع مطالعه، وإن لم ينكشف من وجهه هلالاً، ما انكشف منه بدراً. إنّه في جميع أحواله آية من آيات الله، وإنّ آية لمعة بارقة منه هي إشارة مبيّنة عنه، ونبأ عظيم يحدّث عن بهائه وجلاله وروعته ومع هذا، فإنّ العيون الكليلة لا تنبهر به، والقلوب المريضة لا يروعها ما يروع القلوب من هذا الجلال والجمال المطلّ به على الوجود، تماماً كالقرآن الكريم الّذي لم تتفتّح له قلوب المستكبرين الضّالّين، حتّى بعد أن تمّ وكمل، على حين انجذب إليه المهتدون المؤمنون مع أوّل آية من آياته، ولأوّل إشارة من إشاراته .

(٨: ٥٦٧ ـ ٥٦٩)

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ الفرقان / ٣٢

وهذه مقولة أُخرى من مقولات المشركين في القرآن، ومن مماحكاتهم

الغثّة الباردة حوله. لقد أخزاهم قولهم فيه: ﴿إِنْ هٰذَا اِلَّا اِفْكٌ افْتَرَاهُ وَاَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ اٰخَرُونَ﴾، وقولهم: ﴿اَسَاطِيرُ الْاَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَاَصِيلاً﴾[١]. لقد أخزاهم هذا القول، ولم يجدوا له بينهم أذناً تسمع، أو إنساناً يصدّق، فجاءوا إلى ما حول القرآن، لا إلى القرآن نفسه، إذ لم يجدوا للزّور فيه مقالاً، وبدا لهم أنّ الصّورة الّتي ينزل عليها القرآن ، يمكن أن ينظروا إليها على أنّها دليل على العجز والقصور، وعلى معاودة النّظر ومعاناة البحث، حتّى يقع النّبيّ على الكلمات المناسبة والظّرف المناسب، ثمّ يطلع على النّاس بها، هذا، وإلّا لماذا جاء هذا القرآن منجّماً هكذا، تتنزّل آياته قطراتٍ قطرات، ولا تنزّل جملةً واحدةً؟ إنّه لو كان هذا القرآن من عند الله لأنزله الله جملةً واحدةً؛ إذ أنّ قدرة الله لا يكون منها هذا العجز البادي في نزول القرآن قطعاً متناثرة! هكذا فكّروا وهكذا قدّروا، وإنّه لبئس التّفكير ولبئس التّقدير! وفي قولهم: ﴿نُزِّلَ﴾ بدل أُنزل، الّذي يناسب قولهم:

---

١ ـ الفرقان / ٤ - ٥.

﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾؛ لأنّ ﴿نُزِّلَ﴾ يفيد تقطيع الفعل، ووقوع النّزول حالاً بعد حال، في قولهم هذا تعريض بالتّهمة الّتي يتّهم بها القرآن عندهم، وهو أنّه نُزّل لا أُنـزل، فـهم يـحكون الصّورة الّتي نزل عليها القرآن، ثمّ ينكرونها بقولهم: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾.

وقد ردّ سبحانه وتعالى عليهم هذا الإنكار، مبيّناً الحكمة من نزول القرآن مـنجّماً، على هذا الأُسلوب، بقوله سبحانه: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَـبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾.

فقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصّورة الّتي نزل عليها القرآن، أي أنزلناه على هذا الأسلوب المنجّم: ﴿لِنُثَـبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، وذلك التّثبيت هو بهذا الاتّصال الدّائم بالسّماء، وبتلقّي ما ينزل منها حالاً بعد حال، على مدي ثلاث وعشرين سنة، تنتظم مسيرة الدّعوة، من مبدأ الرّسالة إلى خاتمتها، فعلى كلّ خطوة في هذه المسيرة، وعند كلّ مـوقف مـن مواقفها، كان الرّسول ﷺ يتلقّى إمداد السّماء، ويفتح قلبه وسمعه لنداء الحقّ جلّ وعلا، فيما يحمل إليه الملك من كلمات ربّه، فـيجد الرَّوحَ لرُوحــه، والأُنس لنـفسه، والعـزاء الجميل لكلّ مايلقى من ضرّ وأذى، ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَـبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. ولو نزّل القرآن جـملةً واحدةً، لما وجد الرّسول هذا الّذي كان يجده منه، من أُنس دائم، ومدد ممتدّ من تـلك الثّمرات الطّيّبة، الّتي ينال غذاءه الرّوحيّ منها كلّما أحسّ جوعاً، وَهَفَت روحه إلى زاد من مائدة السّماء!.

إنّه لو نزّل القرآن جملةً واحدةً، لكان على النّبيّ أن يحمل هذا الزّاد الكثير معه على كاهله، ثمّ كان عليه - كلّما أحسّ جوعاً - أن يتخيّر من هذا الزّاد طعامه، ثمّ كان عليه أن يعدّ هذا الطّعام، وأن يهيّـئه، ثمّ كان عليه أيضاً أن يحدّد القدر المناسب لحاجته، وهذه كلّها عمليّات تستنفد جهداً كبيراًمن النّبيّ، وتذهب بكثير من طاقاته الرّوحيّة في البحث والإعداد، وهذاعلى خلاف نزول القرآن منجّماً حسب الحاجة، وعند الظّروف الدّاعية؛ حيث يجد النّبيّ في تلك الحال وجوده كلّه مع آيات الله المنزلة عليه، فتشتمل عـليه، وتنسكب في مشاعره ووجدانه، وتملأ عقله، وتلبس روحه، وشتّان بين طعام محفوظ في عُلب، وبين هذا الطّعام المجتنى من مغارسه لساعته!.(١٠: ١٦ ـ ١٨)

ونصّه أيضاً في «إعجاز القرآن»

﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ...﴾ الفرقان / ٣٢

فهذه ثلاثة أُمور اقتضتها حكمة الحكيم العليم لمجيء القرآن منجّماً على تلك المدّة الّتي نزل فيها. وننظر فيها واحداً واحداً.

تثبيت فؤاد النّبيّ

وهذا الأمر بالمقام الأوّل، فإنّ النّبيّ هو حامل هذا المشعل السّماويّ، فلا بدّ من حساب وتقدير معه، ليظلّ قويّاً قادراً محتفظاً بقوّته وقدرته على حمل هذا المشعل الّذي بين يديه، فإنّ أيّ ضعف أو وهن يعرض لحامل هذا المشعل يجعل الشُّعلة تهتزّ في يده، فلا تأخذ الوجه الّذي ينبغي أن تأخذه بين النّاس.

وننظر فيما يكون لو نزل القرآن الكريم على النّبيّ جملةً واحدةً، كما كان هو المقترح من الكفّار.

فأوّلاً: النّبيّ –كبشر– لا يستطيع أن يحتفظ بالقرآن في صدره لو أنّه استمع إليه مرّةً واحدةً، ولو تحمّله عن هذا الاستماع لتفلّت كثير منه من صدره؛ إذ القرآن على قربه من القلوب، ومخالطته للنّفوس شديدُ التّفلّت من الصّدور، أشبه بالنّور يملأ العين مادامت مفتوحة، فإذا غمضت امتلأتَ ظلاماً، وقد وصف النّبيّ الكريم هذه الحال من القرآن فقال: «استذكروا القرآن فهو أشدّ تَفَصِّيًا[1] من صدور الرّجال من النَّعَم بعُقُلِها» [2].

وقد يعترض هنا معترض فيقول: أليس في قدرة الله أن يحمل عن النّبيّ عبءَ الحفظ، فيلقي إليه القرآن في صدره، ويقذفه في قلبه، ويقيمه فيه كلّه في لحظة خاطفة، فلا يفلت منه شيء بعد هذا أبداً؟

---

١ ـ تَفَصِّياً، أي تفلّتاً، والنَّعَم: الإبل، العقل: جمع عِقال، وهو ما تُمسك به النّاقة في مركبها.

٢ ـ صحيح مسلم: ١: ١٩١.

ونقول: إنّ قدرة الله لا يعجزها شيء، ولو كان هذا الأمر المقترح وقع على تلك الصّورة لما كان للنّبيّ جهاده وبلاؤه، ولما كان له فضل ذاتيّ يضاف إلى حسابه، ويجزى به الجزاء الأوفى. ولقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يهيّيء نفسه لحمل هذا العبئ، وأن يلقاه صابراً فيقول له: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلاً﴾[1]، ويقول له سبحانه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾[2].

وثانياً: لو نزّل القرآن جملةً واحدةً بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وإرشاداته ونصائحه وجدله وزواجره، وغير ذلك من مقاصد الكتاب العزيز. فكيف كان يمسك النّبيّ بكلّ هذه الاتّجاهات؟ وكيف كان يستقيم عليها خَطْوُه ويجتمع إليها رأيه؟ وماذا كان يقدّم منها أو يؤخّر؟

لقد رأينا في المبحث السّابق في باب «القرآن في منطق الأحداث» أنّ القرآن كان يدير المعركة الممتدّة بينه وبين كفّار قريش في مكّة، ثمّ بينه وبينهم، ومعهم اليهود في المدينة، كان يدير هذه المعركة في سلسلة من المعارك، يدخل في كلّ معركة منها بالسّلاح المناسب لظروفها وأحوالها، وبهذا غلب وانتصر!

وانظر كيف كان الأمر لو أنّ القرآن المدنيّ نزل في مكّة قبل الهجرة، وواجه به النّبيّ قريشاً، ثمّ لمّا هاجر إلى المدينة واجههم بالقرآن المكّيّ؟ هذه جزئيّة صغيرة من جزئيّات الموقف؛ لأنّها تقسم القرآن قسمين، فكيف يكون الحال لو تغايرت الآيات كلّها واختلط بعضها ببعض، ثمّ كان على النّبيّ أن يتخيّر ما يشاء منها؟ أكان ذلك يجيء على الوجه الّذي نزل عليه القرآن؟ ثمّ لو كان ذلك ممكناً، أكان للنّبيّ أن يمسك بعض الآيات ويرسل بعضها إلى أجل مسمّى؟ وإذن فهو التّنجيم الّذي يُعترض عليه من الكفّار، ومن في قلوبهم مرض.

وإذن فقد كان على النّبيّ أن يبلّغ هذا القرآن الّذي نزل عليه، وأن يؤذّن به في النّاس مرّةً واحدةً، وبغير هذه الصّورة يظلّ على هذا الاعتراض – السّفيه – قائماً. واذكر هنا كفّار قريش، واستحضر أبا جهل وأبا لهب وأُميّة بن خَلْف، وغيرهم من رؤس الكفر، وانظر

---

١ ـ المزّمّل / ٥.

٢ ـ الفرقان / ٥٢.

كيف يكون الحال لو تُلي عليهم القرآن هكذا مرّةً واحدةً في يوم أو يومين مثلاً؟ وانظر بأيّ قلوب، وبأيّة آذان كانوا يستمعون إلى ما في القرآن عن بدر وأُحد والأحزاب وحُنين؟ ماذا يكون قول القرآن في تلك الأحداث الّتي لم تقع بعد؟ وماذا كان يمكن أن يقول في حديث الإفك مثلاً؟ أو في تلك الأحداث الّتي أمسك بها بعد أن وقعت، وناقشها مناقشة كاشفة، وحاسب أصحابها حساب العليم الحكيم العادل؟ ماذا كان يمكن أن يقول القرآن في هذا ونحوه؟ كان لا بدّ أن يكون القرآن المقترح غير هذا القرآن، حتّى يجد من يسمع له، ولو مجرّد سماع! إنّ نزول القرآن نجوماً على تلك الصّفة الّتي نزل بها قد مكّن له من أن يظلّ دائماً على أحداث دعوته، مدافعاً عنها، فاضحاً أعداءه حين يضبطهم متلبّسين بما يدبّرون من زور وبهتان، وبما يبيّتون مالا يرضى من القول! وفي هذا ما فيه من مؤانسة للنّبيّ، وتثبيت لقلبه، وتطييب لخاطره، وإنعاش لروحه كلّما نسم أنسام السّماء، ووجد شميمها في غدوات جبريل وروحاته إليه. فعندئذ تتقشّع من نفسه سحب الهمّ والضّيق الّتي كانت تسوقها إليه قريش، وغير قريش من المشركين والمنافقين، بما يدبّرون من مكايد، وما يبيّتون من ضرّ وأذى. كما أنّه كان النّاس دائماً في ترقّب لما سينزل من قرآن يفضح ما في الصّدور، ويكشف ما في النّفوس من مضمرات السّوء.

ترتيل القرآن ترتيلاً:

وثاني الأمرين اللّذين كشف فيهما القرآن عن السّبب في نزوله منجّماً هو ترتيل القرآن نفسه، فهذا التّرتيل ممّا أوجب الله تلاوة القرآن عليه وصحبته به، فقال تعالى مخاطباً نبيّه – وهو خطاب لأصحاب القرآن جميعاً ـ: ﴿يَا ءَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ اِلَّا قَليلًا * نِصْفَهُ اَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَليلاً * اَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْاٰنَ تَرْتيلاً﴾[1]

وقال سبحانه: ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزيلاً﴾[2].

فهذا التّرتيل يقتضي زمناً طويلاً ليتلى فيه القرآن ﴿عَلٰى مُكْثٍ﴾، ولهذا فقد نزّله الله تنزيلاً، أي شيئاً شيئاً، وحالاً بعد حالٍ، كأنّما ينزل كلمة كلمة، أو قطرة قطرة!

---

١ ـ المزّمّل / ١ – ٤

٢ ـ الإسراء / ١٠٦

وتدبّر قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾، تجد في هذا النّغم المتقطّع مراحل زمنيّة، يأخذ القرآن فيها طريقه من السّماء إلى الرّسول الكريم، وإلى النّاس، وأنّ هذه المراحل بعضها طويل، وبعضها قصير، وبعضها أقصر، وهكذا، كما يشهد لذلك تاريخ القرآن، وكما تلمح هذا في مقاطع هاتين الفاصلتين.

ولعلّ لعلم الموسيقى وعلمائها نظر في مقاطع هاتين الفاصلتين، وقياس المسافات الزّمنيّة فيها، ثمّ مراجعة ذلك على تاريخ النّزول القرآنيّ!

نقول هذا لا للبحث العلميّ وتقرير النّظريّات، وإنّما لمطالعة وجه من وجوه الرّوعة والجلال في القرآن، فإن استبان لنا أخذنا حظّ النّفس والرّوح من جلاله وروعته وجماله، وإلّا وجّهنا أنظارنا إلى آفاق أُخرى من القرآن الكريم، نطالع فيها وجوه الجمال والجلال والرّوعة من قريب!

ونعود إلى ما كنّا فيه من النّظر في قوله تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ لماذا يرتّل القرآن ترتيلاً؟ وماذا لو سُرد سرداً؟ أيُنقص ذلك من معانيه؟ أو يذهب ببعض الدّلالات والمفاهيم لما فيه؟

والجواب على هذه الأسئلة يحتاج إلى أن ننظر إلى أكثر من اتّجاه.

فأوّلاً: القرآن الكريم ليس كتاب علم يقرّر الحقائق الّتي حملها إلى النّاس تقريراً علميّاً، ولو كان ذلك من مقاصده لما طال هذا الطّول، ولما امتدّ هذا الامتداد، ولكان في الإمكان عرض حقائقه كلّها في آيات قليلة، لاتتجاوز سورة من سور المفصّل، أو من طوال السّور على أكثر تقدير.

ولكنّ القرآن كتاب تربية وتهذيب قبل كلّ شيء، فهو يمهّد الطّريق إلى العقول والقلوب، قبل أن يغرس فيها ما يغرس من حقائق، شأن المربّي الّذي يقدّم وسائل الايضاح بين يدي الحقائق الّتي يريد عرضها على الطّالبين.

إنّ أكثر الحقائق القرآنيّة معروفة للنّاس قبل أن ينزل القرآن بها، قد جاءت بها الأديان السّماويّة وغير السّماويّة ممّا اهتدى إليه النّاس بفطرتهم وبتجربتهم. وإنّما الّذي في القرآن هو هذا الأُسلوب المعجز في عرضها وتجليتها، وتأليف العقول والقلوب لها،

وخلط النّفوس والأرواح بها.

وترتيل القرآن داعية من أقوى الدّواعي لشرح الصّدور له، وتأليف القلوب علـيه، وجذب النّفوس إلى تقبّل الحقائق الّتي حملها والأخذ بها والتّجاوب معها. ذلك أنّ هذا التّرتيل يعرض الحقائق عرضاً مشبعاً بالجوّ العاطفيّ المناسب لها، فـتجد مسـاربها إلى العقول والقلوب، وتنفذ إليها في تدفّق وقوّة، فيستيقظ لها الكيان الإنسانيّ كلّه، وتصحو لها المشاعر والمدارك، وتتلقّاها في نشوة غامرة، وفي روح وراحة ورضىً.

إنّ هذا التّرتيل هو الموسيقى السّماويّة الّتي صحبت القرآن؛ كي تؤدّي بها الحقائق القرآنيّة لتبلغ غايتها المقدّرة لها من التّأثير والإقناع، وبغير هذا التّـرتيل تـتعرّى هـذه الحقائق من تلك الهزّة الرّوحيّة الّتي تلمس قرارة النّفس، وتمسّ صميم الوجدان. ومن أجل هذا كان هذا التّوجيه الالهيّ الّذي حمل إلى النّبيّ الكريم في صورة الأمر: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾.

وقد امتثل النّبيّ هذا الأمر، وأخذ نفسه بهذا التّوجيه الحكيم في قراءة القرآن، ودعا أصحابه ومن دخل في دعوته أن يتابعوه فيه، وفي هذا يقول ﷺ «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ يتغنّى بالقرآن». ويقول النّبيّ الكريم أيضاً: «زيّنوا القرآن بأصواتكم».

هذا والنّغم الموسيقى الّذي يُشِعّ من تلاوة القرآن نغم مصفّى من كلّ شائبة من تلك الشّوائب الّتي تصحب بعض الألحان الّتي تثير الغرائز الخسيسة، أو تهيج المشاعر النّازلة، وإنّما هو الجلال المهيب، والرّوعة الآخذة، تحفّان بتلاوة القرآن، وتستوليان على كلّ من هو بمحضر أو مسمع من مجلس تلاوته.

وثانياً: من حساب النّاس مع كلّ طيّب، من قول أو عمل، ومن كلّ مادّي أو معنويّ من شؤونهم أن يحرصوا على طول صحبتهم له، وأن يتوسّلوا بكلّ وسيلة تبقى على هذه الصّحبة أطول زمن ممكن.

والقرآن الكريم خير ما وقع للنّاس في هذه الحياة من طيّبات، تنعم بـها الأرواح، وتسعد في ظلّها القلوب. ولهذا فقد كان من تمام هذه النّعمة الكريمة الّتي أنعم بها على نبيّه وعلى الإنسانيّة كلّها أن ينزل القرآن منجّماً مرتّلاً. وبهذا يتضاعف الفضل، وتتزاوج النّعمة

على النّبيّ وعلى أتباع النّبيّ جميعاً؛ إذ يظلّ هذا الخير الغدق غادياً على النّـبيّ وعـلى صحابته ثلاثاوعشرين سنة، يتلقّون كلّ وقت جديداً من النّعم ومزيداً من الخير، حتّى إذا تمّ تمامه، وكمل بدره صحبوه على أُسلوب أشبه بهذا الأُسلوب الّذي نزل به، فرتّلوه هذا التّرتيل الّذي يطيل صحبتهم لكلماته وآياته، فلا يقطعون ما بين عبريه إلّا في أضعاف الزّمن الّذي يعبر به ما بين دفّتي المصحف، من يعدو عدوّاً أو يجري جرياً.

مواجهة الأحداث

والأمر الثّالث الّذي جاء بسببه القرآن منجّماً هو مواجهة الأحـداث الّـتي تـلتقي بالدّعوة الّتي يقوم عليها الرّسول الكريم، أو مشاركة الرّسول ومساندته في الصّراع الّذي يقع بينه وبين المعارضين والمعاندين، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾.

وقد أشرنا إلى شيء من ذلك من قبل وقلنا: إنّه لو نزل القرآن جملةً واحدةً لما كان له مجال يتحرّك فيه مع الأحداث الّتي تواجه الرّسول، ولما كان فـي الإمكـان أن يكـون حديث عن مجادلات الكفّار ومحاوراتهم وردّ القرآن عليهم وإفحامه لهم، كما لا يمكن أن يكون فيه حديث عن تلك الأُمور الّتي وقعت أثناء الدّعوة، كالإسراء، واستماع الجنّ إلى القرآن من النّبيّ وإيمانهم به، وهكذا ممّا ورد في القرآن من صور الواقع الّذي كانت تعيش فيه الدّعوة بين أوليائها وأعدائها، وهو قدر كبير من القرآن، كان ذا أثر قويّ فـي التّمكين للدّعوة، وتثبيت قلوب المؤمنين بها، وكَبْت أعدائها في كلّ مجال تصدّوا لها فيه، سواء في مجال الجدل والحِجاج باللّسان، أو المصاولة والمضاربة في مـيادين القـتال. (ص: ١٤١ - ١٤٧)

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ آل عمران: ٣

فهذه مقامات ثلاثة:

فالقرآن الكريم كان نزوله منجّماً، فناسبه التّعبير بقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ الّتي تفيد في صورتها النّطقيّة والسّمعيّة تقطيعاً يدلّ على تكرار الحدث مـرّةً بـعد مـرّةً. أمّـا التّـوراة

والإنجيل فقد نزلا دفعة واحدة، فناسبهما الفعل (أنْزَل) الّذي يدلّ في صورتَيه اللّفظيّة والسّمعيّة على مجرّد حدوث الفعل من غير تكرار الحدث مرّةً بعد مرّةً. ثمّ كان القرآن قد كاد يتكمّل حقيقته بهذا القدر الكبير الّذي نزل منه، إذ كانت سورة آل عمران – الّتي فيها هذه الآية – من أواسط السّور المدنيّة وبهذا ناسب أن يعبّر عن القرآن مرّةً أُخرى بالفعل (أَنْزَلَ) الّذي يدلّ على مجرّد النّزول. ويفهم من هذا أنّ القرآن نزل على صورةٍ غير الصّورة الّتي نزلت عليها التّوراة والإنجيل؛ إذ نزل نجوماً مفرّقة، على حين أنّهما نزلا دفعةً واحدةً. ثمّ لكي يكون هناك ما ينفى عن نزول القرآن على تلك الصّورة أنّه لم يكمل، وأنّه قد نزل بعضه ولم ينزل جميعه، قال:﴿ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ ، أي أنّه كمل أو في طريق الكمال، شأن الكتب السّماويّة الّتي نزلت جملةً واحدةً. ونزول القرآن على تلك الصّفة منجّماً قد أكسبه خاصّيّة لا يمكن أن تتحقّق لو أنّه نزل جملةً واحدةً، وقد استطاع بنزوله نجوماً هكذا أن يكون قائماً على إحداث دعوته مدافعاً عنها، فاضحاً أعداءه حين يضبطهم متلبّسين بالإفك والبهتان وتبيّت مالا يُرضى من القول، ثمّ لم يفقده ذلك شيئاً ممّا ينبغي له من تمام وكمال، فلم تسقط منه كلمة، ولم ينخرم منه حرف. (ص: ٣٠٧)

الفصل الحادي والسّتّون

نصّ الدّكتور العطّار (م: ١٤٠٣ ﻫ) في «موجز علوم القرآن»

نزول القرآن وتنزيله

تنزّلات القرآن: بعض آيات القرآن الكريم قرّرت نزول القرآن في شهر رمضان
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ هُدىً لِلنَّاسِ...﴾[١]
﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢].

وبعضها قرّرت تنزيله منجّماً (خلال ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة): ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[٣].

في حين أنّا نعلم أنّ الرّسول الأمين ﷺ بعث بالرّسالة في السّابع والعشرين من شهر رجب – على أقوى الرّوايات – وإنّ أوّل ما نزل من القرآن هو ما صاحب البعثة الشّريفة، وهو قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[٤] وبعدها نزلت سورة المدّثّر.

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

٤ ـ العلق / ١-٢.

ومنها يتبيّن أنّ القرآن أُنزل في ليلة القدر، وتمّ تنزيله طيلة البعثة النّبويّة، وإنّ أوّل ما نزل من القرآن هو في شهر رجب، فكيف يمكن التّوفيق بين ما يبدو من تعارض؟

لا بدّ من التّفريق بين معنى الإنزال والتّنزيل، والأصل في النّزول هو الورود على المحلّ من علوٍّ، والعلوّ كما يكون مكانيّاً؛ فيقال: علا الطّائر، إذا ارتفع عن مستوى الأرض، فقد يكون شأنيّاً؛ فيقال: علا مستوى الطّلبة – مثلاً – حين تزداد معارفهم ويرتفع مستوى معلوماتهم.

فللإشارة إلى أنّ رسول الله ﷺ تلقّى القرآن الكريم من جهة عليا هي الله تعالى، جاء التّعبير عن وحيه بالنّزول.

على أنّ هنا فرقاً بين (الإنزال) و (التّنزيل) رغم دلالتيهما على الورود التّدريجيّ.

وحين يتّضح معنى كلّ من الإنزال والتّنزيل فلا يبقى تعارض، ويكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ في رأي عدد من العلماء، هو النّزول الدّفعيّ للقرآن الكريم، أو الإجماليّ، بمعنى أنّه نزل إلى سماء الدّنيا ليلة القدر جملةً واحدةً، ثمّ نزل بعدها منجّماً [ثمّ ذكر قول الزّركشيّ والقسطلانيّ، كما تقدّم عنهما، فقال:]

ويبدو أنّ الهدف من إنزال القرآن دفعةً واحدةً للمرّة الأولى هو تنوير النّبيّ ﷺ بالمعارف الإلهيّة الكبرى، وأسرار الكون العظيمة، ليمتلىء قلبه ﷺ بالعلوم القرآنيّة، والحقائق الكونيّة الجليلة؛ قال الزّنجانيّ: على أنّه يمكن أن نقول: بأنّ روح القرآن، وهي أغراضه الكلّيّة الّتي يرمي إليها تجلّت لقلبه الشّريف في تلك اللّيلة، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[١]

فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾[٢]

وقوله سبحانه: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[٣].

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٤.

٢ ـ الإنسان / ٢٣.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

ونظائرها من الآيات يفيد (التّنزيل) لا (الإنزال)، وهو تـنزيل القـرآن مـنجّماً وبـصورة تدريجيّة.

قال ابن عبّاس: أُنزل القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك في عشرين سنة [١]، وعنده أيضاً أنّه قال: الّذي ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: جبريل بالقرآن جملة إلى سماء الدّنيا، ثمّ نزل بعد ذلك على محمّد ﷺ يوماً بيوم، آية وآيتين وثـلاثاً، وسورة [٢].

ولعلّ تنزيل القرآن تمّ لعلل؛ منها: تربية الأُمّة وترويضها وهدايتها وتـمكينها مـن التّطبيق والالتزام بالأحكام، وما إليه ممّا سنذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ويتبيّن أنّ القرآن الكريم قد أُنزل دفعةً إجماليّة على الرّسـول ﷺ أو إلى السّـماء الدّنيا، ثمّ تدرّج نزوله طيلة حياته بعد البعثة. ومن هذا البيان نفهم قوله تعالى: ﴿الٓر * كِتَابٌ أُحْكِمَتْ اٰيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [٣] فإنّها تشير إلى القرآن حالة كونه محكماً، وقد أنزله الله تعالى على الرّسول ﷺ دفعةً واحدةً، ثمّ فصّل تفصيلاً حين تنزّل عليه آيات متفرّقات خلال مدّة الدّعوة النّبويّة.

ومنه يظهر أنّ الرّسول ﷺ حين تنزّل عليه الآيات والسّور كان على علم سـابق بمحكم القرآن، لنزوله عليه جملةً ودفعةً واحدةً. وهذا المعنى هو ما يلوح من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [٤]. فإنّها وأمثالها من الآيات ظاهرة في أنّ الرّسول ﷺ كان له علم بما سينزل عليه فنهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي.

وممّا يؤيّد ما ذهبنا إليه، من بيان تنزّلات القرآن، ما ورد عن ابن عبّاس أنّه سأله ابن عطيّة.. [وذكر كما تقدّم عن الطّبَريّ].

---

١ ـ فضائل القرآن / ٢.

٢ ـ تنوير المقباس (تفسير ابن عبّاس) ١ : ٨٦.

٣ ـ هود / ١

٤ ـ طه / ١١٤.

التّدرّج في تنزيل القرآن الكريم

تمّ تنزيل القرآن الكريم وفق منهج الإسلام في تغيير المجتمع البشريّ، وطبقاً لفطرة الإنسان. وإنّ هذا التّوافق بين تنزيل القرآن منجّماً من جهة، وبين طريقة الإسلام التّدرّجيّة في تغيير المجتمعات من جهة ثانية، وبين سنّة الله تعالى في تغيير المجتمعات التّدريجيّ، لهو آية من آيات وحدة مصدر الكون والحياة والإنسان، كما في دلالة قطعيّة على أنّ مصدر القرآن هو خالق الإنسان، وإلّا كيف حدث هذا التّوافق، وتمّ نقل المجتمع البشريّ من حضيض ما آل إليه أمره إلى المستوى الإنسانيّ اللّائق الّذي شهده العالم في ظلّ سيادة الإسلام العظيم.

لقد كان لتدرّج تنزيل القرآن أثر بالغ في نشر الدّعوة الإسلاميّة، وسنبحثه في المطلب الأوّل، كما أنّ هذا التّدرّج في التّنزيل تمّ لحكم تخصّ القرآن والرّسول والمكلّفين من النّاس، وسنبحثها في المطلب الثّاني.

المطلب الأوّل – أثر تدرّج تنزيل القرآن في نشر الدّعوة الإسلاميّة

إنّ التّغييرات الاجتماعيّة ليست عمليّة (ميكانيكيّة) بالنّسبة للفرد والمجتمع، بل هي حركة (ديناميكيّة) يتغيّر بموجبها المحتوى الدّاخليّ للإنسان، فتتغيّر بذلك المظاهر العامّة لحياة المجتمع. لذلك فإنّ أهمّ شرط من شروط نجاح أيّة فكرة تغييريّة، أن تنفذ إلى فطرة الإنسان، وأن تكون متساوية معها، غير متنافرة مع متطلّباتها وحاجاتها الضّروريّة، وإلّا فنصيبها الفشل العاجل أو الآجل.

ولقد عشنا، وسمعنا كثيراً من (الأُطروحات) التّغييريّة الّتي تطرح في السّاحة الإنسانيّة أملاً في أن يؤمن بها الفرد، وتسُود الجماعة، ولكن سرعان ما تغدو فقاعة صابون تنجاب بأوّل هزّة، أو أن تبقى نظريّات مجرّدة تحتجنها بطون الكتب.

ومن الجليّ أنّ (الأُطروحة) الإسلاميّة مُدهِشة للغاية، من حيث ميزاتها الذّاتيّة وآثارها التّطبيقيّة. فإنّها في عمقها التّشريعيّ وشمولها لكلّ ألوان النّشاط الإنسانيّ الفرديّ

والجمعيّ، وعلى كلّ صعيد من جهة، وسرعتها الخارقة الّتي استطاعت خلالها أن تجسّد عقائدها وتشريعاتها، وتمثّل قيمها ومثلها وتحقيق أهدافها وأغراضها، من جهة أُخرى، قد تميّزت بميزات أفردتها عن سواها، وسجّلت في هذا المجال نصراً لم تشهد مثيله الإنسانيّة.

ولم تكن (الطّريقة) الفريدة الّتي مارستها الرّسالة الإسلاميّة في تغيير المجتمع تشوبها شائبة من شوائب (العفويّة) أو (الارتجال) أو (الاعتباط)، وإنّما كانت مقدّرة أحسن تقدير، ومرسومة من قبل العليم الخبير، ولهذا أثمرت للبشريّة أسمى حضارات كوكبنا الأرضيّ.

ولو تدبّرنا طريقة الدّعوة الإسلاميّة لوجدناها أخذت بالتّدرّج في ثلاثة مجالات:

الأوّل – التّدرّج في موضوع الرّسالة:

حيث بدأ الإسلام بتغيير عقائد النّاس وأفكارهم أوّلاً، ثمّ راح يضع لهم القوانين والتّعاليم الّتي تنظّم الفرد والمجتمع ثانياً، وذلك لأنّ الإنسان يسهل عليه أن يغيّر فكرة سبق أن آمن بها، وأن يقتنع بفكرة جديدة قام الدّليل على رجحانها، في حين يعسر عليه ويشقّ أن يغيّر تعاملاً سلوكيًّا سار عليه واعتاده. وهذه القضيّة واضحة لمن تدبّر طبيعة الآيات الّتي نزلت في مكّة، فإنّها عقائديّة بصورة عامّة، أمّا الآيات الّتي نزلت بعد الهجرة فإنّها تشريعيّة عمليّة بصورة غالبة.

الثّاني – التّدرّج في نشر الرّسالة:

حيث باشر الرّسول ﷺ رسالته الكريمة بدعوته عشيرته الأقربين ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[١]، ثمّ اتّسعت الدّعوة فبلّغها للنّاس من حوله ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ..﴾[٢]، ثمّ راح يخاطب الملوك والرّؤساء في العالم،[٣] يعرض عليهم الإسلام باعتباره رسول الله

---

١ ـ الشّعراء / ٢١٤.

٢ ـ الحجر / ٩٤.

٣ ـ راجع كتابه «التّفسير»، فصل التّنظيم الدّوليّ، رسائل النّبيّ ﷺ إلى الملوك والرّؤساء.

إلى النّاس جميعاً.

ومن الجدير بالذّكر والتّأكيد أنّ طبيعة رسالة الإسلام كانت منذ البداية وبالأصل للنّاس جميعاً حتّى يوم القيامة، ولكنّ التّدرّج وقع في مباشرة الرّسالة، كطريقة طبيعيّة ومضمونة النّجاح، وليس الأمر كما يدّعي بعض المستشرقين من افتراءٍ وتُهَمٍ، يرمون بها رسولالله ﷺ من أنّه لم يكن يفكّر أوّل الأمر بالنّاس وبالدّولة، وإنّما كان قصده أهله وعشيرته، وحين اتّسقت له الأُمور، وسّع رسالته ونشر دعوته وأقام دولته. فإنّ هذه الفِرْيَة مردودة من أساسها وواضحة البطلان بنصوص القرآن الكريم.

الثّالث - التّدرّج في الأساليب

حيث بدأ رسولالله الدّعوة بالقول اللّين والإرشاد والموعظة الحسنة. ثمّ ثنّى بالمواقف السّلبيّة والمقاطعات السّلميّة، والنّهي عن الرّكون إلى الأعداء، أو موالاة الجاهلين وأعداء الإسلام. ثمّ أردف ذلك بمقاومة المعتدين، وجهاد من يقف حائلاً دون حرّيّة الرّسالة الغرّاء في دعوة النّاس إليها. وهذا التّدرّج ظاهر من آيات التّصبّر والتّسلية الّتي كانت تنزل على الرّسول ﷺ؛ لتسليته عمّا يعاني من اضطهاد قريش. ثمّ أذن الله تعالى بقتال من يقاتل المسلمين، فمارس رسولالله ﷺ الدّفاع الشّرعيّ لحماية المسلمين من العدوان، وإتاحة المجال لممارسة التّبشير بالإسلام.

لقد كان لهذا التّدرّج في مجالاته الثّلاثة أبلغ الأثر في شمول الإسلام للعالم، وفتحه للقلوب قبل الأقطار، ودون أيّة مقاومة شعبيّة تذكر، في أكثر البلدان الّتي حرّرها الإسلام.

وإنّ الطّريقة التّدرجيّة الّتي مارس الإسلام بموجبها دوره في الهداية والتّنظيم الواسع الشّامل، ليجسد حقيقة ناصعة، هي أنّ الإسلام التّشريعيّ الأصلح والأمثل للإنسان باعتباره دين الفطرة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وإنّ هذه الطّريقة كانت نتيجة حتميّة لنزول القرآن منجّماً؛ إذ أنّ من الواضح لو نزل

---

١ - الرّوم / ٣٠.

جملةً، لوجب تكليف النّاس به دفعةً واحدةً. ولكان الأمر على غير ما حـدث. ولكـنّ حكمة الباريّ عزّ وجلّ ولطفه ورحمته بالنّاس، كلّ ذلك يَسَّر على النّاس الأمر وضمن للرّسالة، النّجاح والانتشار السّريع.

المطلب الثّاني ـ حكم تدرّج تنزيل القرآن

على ضوء ما سبق بيانه، نلمس أنّ التّدرّج في التّنزيل جاء منسجماً مع طبائع المجتمع، ومقرّراً أُسلوب الإسلام في العمل الاجتماعيّ، لا سيّما وأنّ القرآن يمثّل المصدر الأوّل للتّشريع الإسلاميّ.

ولم يكن هذا التّدرّج إلّا لحكم إلهيّة بالغة، اقتضتها مشيئة الله تعالى، وأحاط بها علمه الّذي أحاط بكلّ شيء، ووضع لكلّ شيء قدراً، ونحن وإن كنّا نجهل تلك الحكم بحقائقها، غير أنّا حين نذكر بعضها فإنّما نذكر ما وقفت عليه عقولنا وأدركته أفكارنا، ودون أن ندّعي أن ما ندركه هو الحقائق الشّرعيّة الثّابتة القطعيّة، بل هي حكم راجحة ظاهرة.

ويمكن تصنيف هذه الحكم إلى ثلاثة أصناف: حكم تخصّ الرّسول الكريم ﷺ، وأُخرى تخصّ القرآن، وثالثة تخصّ النّاس.

أوّلاً – حكم تخصّ الرّسول ﷺ

١– إظهار عظمة الرّسول ﷺ: إنّ نزول القرآن جملة في شهر رمضان في ليلة القدر، وتردّد الوحي على رسول الله ﷺ من لدن البعثة المباركة حتّى وفاته تفصح عن عظيم مكانته عند الله تعالى، وسموّ منزلته، وجليل رعاية الله تعالى له وعنايته به؛ لأنّ الحبيب يكثر من ملاقاة محبّه ويزيد من تردّده عليه.

٢ – تثبيت فؤاد الرّسول ﷺ: إنّ الرّسول ﷺ بشر، وقد أُنيطت به مهمّة تحويل مجرى حياة البشريّة تحويلاً يستمرّ إلى يوم القيامة، وإرساء قواعد حضارة تبقي صالحة كرّ الدّهور، وحمل رسالة كتب الله تعالى على نفسه أن يظهرها، وينصرها على الدّين كلّه.

ومع عظمة المسؤوليّة الملقاة على رسول الله ﷺ، نجده عديم المال فاقد الأنصار، لا يملك من الوسائل التّغييريّة، إلّا أصالة الرّسالة الّتي يحملها، وقوّة الإيمان الّذي ينطلق

منه، فليس معه أحد إلّا الصّفوة من أهله وعشيرته، أمّا سائر أفراد عشيرته وجميع النّاس حوله، فيقفون وجهاً لوجه أمام دعوته، بكلّ ضراوة، وبشراسة لا توصف.

ولا غرو أنّ مثل هذه المهمّة صعب جدّاً، بل هو فوق طاقة البشر. فكان لابدّ من إمداد غيبيّ مستمرّ، حتّى يكمل الدّين، وتتمّ النّعمة، ويسود الإسلام. وكان هذا الإمداد إسعافاً ونجدة إلهيّة، تربط جنان الرّسول ﷺ بآية تسلية أو بتأكيد النّصر له، كلّما ادلَهَمَّ الخطب، واعصوصب الأمر.

ولطالما كان الملك جبريل ينزل إليه ﷺ لتسليته ﴿وَاصْبِرْ عَلىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[1]

﴿وَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2]، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[3]

وكان الوحي بأمر الله يدرأ عن النّبيّ ﷺ ما يكال له من الأكاذيب والتّهم، وممّا نزل في هذا المجال قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتّٰى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا...﴾[4]

٣ – تيسير حفظ القرآن: إنّ الرّسول ﷺ كان أُمّيّاً لايقرأ ولا يكتب، وإنّ تدرّج تنزيل القرآن الكريم، يَسَّر عليه حفظه، بخلاف غيره من الأنبياء، فإنّهم كانوا يقرؤون ويكتبون، فيمكنهم حفظ ما ينزل إليهم من الشّرائع والرّسالات.

فلقد كان موسى عليه السلام كاتباً، كما تذكر التّوراة الّتي بأيدينا، فقد جاء فيها: (وقال الرّبّ لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات؛ لأنّني بحسب هذه الكلمات قطعت عهداً معك... فكتب على اللّوحين كلمات العهد، الكلمات العشر)[5].

---

١ ـ المزّمّل / ١٠.

٢ ـ الأحقاف / ٣٥.

٣ ـ فاطر / ٨.

٤ ـ الأنعام / ٣٣ – ٣٤.

٥ ـ التّوراة / سفر الخروج، الإصحاح ٣٤ / ٢٧، ٢٨.

وقال الفرّاء في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١]، إنّهما من قول المشركين، أي هلّا أُنزل عليه القرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة على موسى.

قال الله: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ لنثبّت به فؤادك، كان ينزل الآية والآيتين [٢]. [ثمّ حكى قول أبي شامّة وابن فُورَك، كما تقدّم عن أبي شامّة].

ولقد ساوى الله نبيّنا بسائر الأنبياء في إنزاله القرآن جملةً[٣]، وفضّل رسول‌الله ﷺ على سائر الأنبياء بتنزيله منجّماً مرّةً أُخرى ليحفظه؛ إذ أنّ تردّد الوحي في كلّ ما يستجدّ من حادثة أشدّ عناية بالمرسل إليه، كما أنّ فيه ما يبعث السّرور في قلب الرّسول ﷺ.

والأُمّيّة في رسول‌الله ﷺ صفة تعلي شأنه، وتظهر إعجاز القرآن بجلاء، حيث أنّ القراءة والكتابة وسيلة للعلم لا غاية بذاتها. وقد جاء رسول‌الله ﷺ بما لم يأتِ به من نبيّ ولا رسول ولا أحد من قبله ولا من بعده، من سعة الشّريعة الغرّاء وشمولها وسموّها. ولو كان يقرأ ويكتب لما كان هذا الشّأن الّذي أبهر علماء العالم.

ثانياً – حكم تخصّ القرآن:

١ – بيان إعجازه: إنّ القرآن الكريم حين نزل آية أو آيتين إلى عشر آيات طيلة ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، على نسق واحد وسموّ واحد، دون تعارض أو اختلاف، وهو يمرّ خلال تنزيله بأحوال شتّى، تعرض لرسول الله ﷺ من شدّة ورخاء وعسر ويسر، دون أن ينعكس ذلك على القرآن، ودون أن يظهر فيه أيّ لون من ألوان الانفعال البشريّ الّذي تثيره تلك الأحداث الجسام، فإنّ ذلك أظهر لعظمة القرآن، وآكد لإعجازه

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ معاني القرآن ٢: ٢٦٧ وما بعدها.

٣ ـ قال السّيوطيّ: إنّ سائر الكتب أُنزلت جملة، وهو مشهور في كلام العلماء وعلى أُلسنتهم حتّى كاد يكون إجماعاً، وقد رأيت بعض فضلاء العصر أنكر ذلك، وقال إنّه لا دليل عليه، بل الصّواب أنّها نزلت مفرّقات كالقرآن. وأقول: الصّواب الأوّل. راجع الأدلّة على ذلك: معترك الأقران في إعجاز القرآن ٢: ٢٠٧.

وجاء أيضاً: أنّ نزول التّوراة على موسى كان على زمان تكليمه... متراخياً في أكثر من أربعين سنة. (تفسير شبّر، هامش: ١٢).

ووحيه، وهو يتحدّى الثّقلين أن يأتوا بسورة من مثله طيلة هذه الأعوام.

٢ - بيان المِيزة العمليّة للقرآن: لم يكن القرآن كتاباً نظريّاً يطرح في المجتمع ليتفاعل معه. وعلى ضوء ما تتمخّض عنه التّجربة تجري عليه التّعديلات اللّازمة، ويمارس فيه النّقض والإبرام. إنّ هذا هو شأن ما يتولّد عن العقل البشريّ؛ حيث أنّ العقل محدود، فما يتولّد عنه لابدّ أن يكون محدوداً. أمّا القرآن الكريم فإنّه ﴿الر* كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

لقد جاء القرآن ليطبّق ويهتدي به النّاس، وينظّم شؤونهم المعاشيّة والمعاديّة، وليقرّر الحقوق والواجبات للفرد والجماعة، ويقيم الموازين القسط بين النّاس. لذا كان لزاماً أن يأتي مطابقاً لسنّة الله في تغيّر المجتمعات وتطوّرها التّدريجيّ. وهكذا تمّ تنزيل القرآن على هذه السّنّة؛ يأتي إلى النّاس شيئاً فشيئاً، فيتغيّر النّاس بموجبه شيئاً فشيئاً، حتّى كمل تنزيل القرآن، فكان المجتمع قد تغيّر بكامل جوانبه.

فالجانب العمليّ في القرآن ليس في المجال الموضوعيّ، وما جاء به من تشريعات وأحكام وقواعد ونحو ذلك فحسب، بل إنّه كان (عمليّاً) في الطّريقة أو الأُسلوب الّذي تمّ تنزيله، ولولا هذا الأُسلوب لما امتاز بسمته العمليّة الّذي ميّزته وأكسبته قوّة فعّالة إلى جانب قوّته الموضوعيّة الأصليّة في التّأثير.

٣ - أولويّة الوحي: ممّا روعي في تنجيم القرآن أولويّة ما يكون ماثلاً من الوقائع؛ إذ أنّ بسط الموضوع نظريّاً ليس له من التّأثير - عقائديّاً واجتماعيّاً - كما لو نزل الحكم إثر واقعة من الوقائع، أو عند احتياج النّاس إليه، الأمر الّذي كان يكسب الأحكام صفة الالتزام المباشر من قبل النّاس. فإذا أُنزلت آية في أحكام الأسرى، وليس لدى المسلمين أسرى فإنّ الالتزام بها سيكون في المستقبل. ولكن حين تنزل إثر وقوع المشركين أسرى، والمسلمين لايعلمون أحكامهم هل يفدَون أم يطلق سراحهم منّاً؟ أم... فإنّه ممّا لا شكّ فيه سيكون لنزول القرآن حسب الحاجة، ومع الوقائع من الأثر التّطبيقيّ ما لايكون له فيما لو نزل نظريّاً دون وجود الحاجة.

---

١ ـ هود / ١.

وإذا كان القرآن قد نزل منجّماً؛ ليساير أولويّة ما يستجدّ من الوقائع، فإنّ نصوصه وأحكامه التّشريعيّة تبقى عامّة شاملة لا تختصّ بما نزلت لمعالجته من الوقائع، بل هي حسب القاعدة (العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب).

٤ – التّدرّج التّشريعيّ: إنّ تنزيل القرآن تدريجيّاً كان تحاشياً لهزّات اجتماعيّة عنيفة، وردّات انتكاسيّة حادّة، كان من المحتمل أن تحدث، لولا أن جاء القرآن تبعاً للوقائع والأحداث، ووفق ما تستوعبه طبيعة المجتمع.

فالرّسالة الإسلاميّة بعامّة، والقرآن بخاصّة، مدّ النّاس رويداً رويداً بما يوافق تطويرهم من التّشريعات. ولأنّ ما جاء به القرآن الكريم يشمل النّواحي الحياتيّة جميعها، فلم يكن من الحكمة أن يوضع بين يدي النّاس تشريع يتناول عقائدهم وتعاملهم وأخلاقهم دفعةً واحدةً. ولو تمّ ذلك لما نفذ إلى القلوب، ولبقي ما بقيت القوّة مهيمنة، وسرعان ما يرتدّ[1] النّاس عمّا أُكرهوا عليه، في حين نجد أنّ العقيدة والالتزام بالإسلام استقرّ في قلوب المسلمين، وبالرّغم من كلّ المحن والهزّات الّتي حدثت من لدن وفاة رسول‌الله ﷺ حتّى يومنا الحاضر، فإنّ الإسلام ملأ قلوب المسلمين، فكأنّه خالط دماءهم واستقرّ في عروقهم.

ثالثاً – حكم تخصّ النّاس:

١ – قوّة الإلزام والإقناع: إنّ نزول القرآن تنجيماً جعل للحكم المنزل قوّة إلزاميّة واضحة، باعتباره حكم الله المنزل في تلك الواقعة، وفي ذلك الظّرف. ومنحه قوّة الاقتناع به، والتّسليم له، ولنزوله عند قيام الحدث، أو مثول الواقعة.

فالمصاحبة الزّمنيّة بين الحكم الّذي تنزل به الآية، والحدث أو الواقعة سبب متين للامتثال والتّطبيق. الأمر الّذي أحدث ترابطاً وتلازماً بين التّشريع والتّنفيذ. ولهذا كان المسلمون، إذا سمعوا عشراً من الآيات يهرعون لتطبيقها، ثمّ يعودون للاستزادة، ولو

---

١ ـ لقد بالغ المستشرقون في عدد من ارتدّ في عهد أبي بكر، طعناً في الإسلام. والأمر لم يقع كما ذكروا، وإنّما ارتدّ أفراد في الجزيرة العربيّة، وامتنع جماعة من مبايعة الخليفة، وثارت قبائل وثنيّة لم تسلم من قبل، حتّى سمع أحد الأسرى يقول: «ما آمنت طرفة عين قطّ» وامتنع آخرون عن أداء مال الزّكاة، فقال أبو بكر: «لو منعوني عقالاً لقاتلتهم» فجرى قتالهم.

فرض نزوله دفعةً واحدةً لما تحقّق ذلك.

٢ – ربط المسلمين بالمصدر التّشريعيّ: كان من جرّاء تنجيم القرآن الكريم، أن صار المسلمون إذا وقعت واقعة، أو جدّ أمر استشرفوا هبوط الوحي، وانتظروا حكم الله تعالى ينزل إليهم، وفي هذا أشدّ وثيق لتصرّفات النّاس بالمصدر التّشريعيّ، وإخضاع إرادة المسلمين لإرادة خالقهم المشرّع سبحانه وتعالى.

٣ – دفع الضّيق والحرج التّشريعيّ: إنّ تنزيل القرآن نجوماً جعل الشّرع يحيط بالنّاس شيئاً فشيئاً دون شعورهم بأدنى حرج، فهم ينفّذون الإسلام، وينسلّون من الجاهليّة في سياق حياتهم الاعتياديّة، من غير إلجاءٍ ولا إكراهٍ، في حين لو نزل التّشريع دفعةً واحدةً، وألزم النّاس به جملة، لوجد النّاس فيه حرجاً وكُلفةً، ولعانوا منه ضيقاً ومشقّة، ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[1].

ومرّةً أُخرى إنّ هذه الحكم إن هي إلّا أفكار إسلاميّة، وليست أحكاماً شرعيّة، وقد ذكرناها بناءً على ما وقفنا عليه من أسرار التّشريع، ومقاصد الشّريعة وأحداث السّيرة الشّريفة. والله تعالى هو العالم المطّلع على الأسرار والسّرائر.

ومن الرّاجح أن نضيف لهذه الحكم كون القرآن يتضمّن النّاسخ والمنسوخ، ومقتضاه أن ينزّل منجّماً. كما أنّه يتضمّن الإنكار، لما قد يقع، وجواب من سيسأل أمراً ما، فإنّ كلّ ذلك يقتضي نزوله منجّماً. وفي علم الله تعالى من حكم التّنجيم ما لم نحط به علماً، وما أُوتينا من العلم إلّا قليلاً. (ص: ١٠٧ – ١٢٤)

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

الفصل الثّاني والسّتّون

نصّ الشّيخ معرفت (ت: ١٣٥٦ ﻫ) في كتابه:
«التّمهيد في علوم القرآن»

بدء نزول القرآن

لاشكّ أنّ القرآن نزل على رسول‌الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك؛ لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٣].

وليلة القدر – عندنا – مردّدة بين ليلتين في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك إحدى وعشرين أم ثالثة وعشرين؟ والأرجح أنّها الثّانية؛ لحديث الجُهَنيّ [٤].

وقال الصّدوق رحمه الله: اتّفق مشايخنا على أنّها ليلة ثلاث وعشرين [٥].

والكلام في تعيين ليلة القدر ليس من مبحثنا الآن، وإنّما يهمّنا التّعرّض لجوانب من

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الدّخان / ٣.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ راجع وسائل الشّيعة ٧: ٢٦٢ ح ١٦ باب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان.

٥ ـ الخصال ٢: ١٠٢.

هذا التّحديد، أي نزول القرآن في ليلة واحدة - هي ليلة القدر - من شهر رمضان؛

أوّلاً: منافاته - ظاهراً - مع ما أسلفناه من اتّفاق الإماميّة وعدد من أحاديث غيرهم، على أنّ البعثة كانت في رجب، ولاشكّ أنّ البعثة كانت مقرونة بنزول آي من القرآن، خمس آيات من أوّل سورة العلق. فكيف يتمّ ذلك مع القول بنزول القرآن - كلّه أو بدء نزوله - في شهر رمضان في ليلة القدر؟

ثانياً: ماذا يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر؟ هل نزل القرآن كلّه جملةً واحدةً تلك اللّيلة؟ مع العلم أنّ القرآن نزل نجوماً لفترة عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، حسب المناسبات والظّروف المختلفة، ودعيت باسم «أسباب النّزول» فكيف ذلك؟

ثالثاً: ما هي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن؟ فإن كانت هي سورة العلق أو آي منها، فلِم سمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى أنّها كتبت في بدء المصحف؛ لأنّ هذا التّرتيب شيء حصل بعد وفاة النّبيّ ﷺ، أو لا أقلّ في عهد متأخّر من حياته فرضاً، في حين أنّها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها «لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب»[1]، حديث مأثور عن لسان النّبيّ ﷺ.

وللإجابة على هذه الأسئلة الثّلاثة - بصورة إجماليّة - نقول: إنّ بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن ككتاب سماويّ لأنّه ﷺ نُبّيءَ ولم يؤمر بالتّبليغ العامّ إلّا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اختفاء حتّى نزلت الآية ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[2]. ومن هذا الحين جعل القرآن ينزل تباعاً بسمة كونه كتاباً أُنزل من السّماء، وكان يسجّل على العُسُب واللِّخاف، يكتبه من كان يعرف الكتابة من المؤمنين، وهم عدد قليل خلال عشرين عاماً.

وقد كان بدء نزول القرآن - بعد تلك الفترة - في ليلة القدر من شهر رمضان. وبهذا الاعتبار صحّ التّعبير بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تباعاً استغرق عشرين

---

١ ـ صحيح مسلم ٢: ٩؛ منتخب كنز العمّال بهامش المسند ٣: ١٨٠.

٢ ـ سورة الحجر / ٩٤.

عاماً؛ إذ كلّ حدث خطير تكون له مدّة وامتداد، فإنّ تاريخه يسجّل حسب مبدأ شروعه، كما سنفصّل الكلام عنه.

أمّا أوّل آية نزلت فهي الآيات الخمس من أوّل سورة العلق، ونزلت بقيّتها في فترة متأخّرة. غير أنّ أوّل سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة الحمد، ومن ثمّ سمّيت بفاتحة الكتاب. هذا إجمال الكلام حول هذه المواضيع الثّلاثة، وأمّا التّفصيل فهو كما يلي:

فترة ثلاث سنوات:

ولنفرض أنّ البعثة كانت في رجب، حسب رواية أهل البيت ولفيف من غيرهم، لكنّ القرآن - بسمة كونه كتاباً سماويّاً ودستوراً إلهيّاً خالداً - لم ينزل عليه إلّا بعد فترة ثلاث سنين، كان النّبيّ ﷺ خلالها يكتم أمره من ملأ النّاس، ويدعو إلى الله سرّاً، ومن ثمّ لم يكن المشركون يتعرّضون أذاه، سوى طعنات لسنية؛ حيث لايرون من شأنه ما يخشى على دينهم.

وكان يصلّي إذ ذاك مع رسول الله ﷺ أربعة: عليّ وجعفر وزيد وخديجة، وكلّما مرّ بهم ملأ من قريش سخروا منهم.

قال عليّ بن إبراهيم القمّيّ: فلمّا أتى لذلك ثلاث سنين، أنزل الله عليه: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ* وَاَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[1]، قال: وكان ذلك بعد أن نبّيء بثلاث سنين[2].

وقال اليعقوبيّ: وأقام رسول الله ﷺ بمكّة ثلاث سنين يكتم أمره[3].

وقال محمّد بن إسحاق: وبعد ثلاث سنين من مبعثه نزل ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرْ﴾، فأمر أن يجهر بالدّعوة ويعمّ الإنذار[4].

قال الإمام الصّادق عليه السلام: «مكث رسول الله ﷺ بمكّة بعدما جاءه الوحي عن الله

---

١ ـ الحجر / ٩٤ - ٩٦.

٢ ـ تفسير القمّيّ: ٣٥٣؛ بحار الأنوار ١٨: ٥٤ و ١٧٩.

٣ ـ تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٩.

٤ ـ سيرة ابن هشام ١: ٢٨٠؛ المناقب - ابن شهر اشوب ١: ٤٠ والبحار ١٨: ١٩٤.

تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره، حتّى أمره الله أن يصدع بما أمر به، فأظهر حينئذ الدّعوة»[١].

وهذه الرّوايات إذا لاحظناها مع روايات قائلة: إنّ فترة نزول القرآن على النّبيّ ﷺ استغرقت عشرين عاماً، تعطينا أنّ مبدأ نزول القرآن كان متأخّراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لا شكّ أنّ القرآن كان ينزل عليه ﷺ حتّى عام وفاته ﷺ: وبذلك يلتئم القول بأنّ بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر، كما نصّ عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الصّادق عليه السلام: «ثمّ نزل القرآن في طول عشرين عاماً»، كما جاء في رواية الكُلينيّ[٢] والعَيّاشيّ[٣]، وأشار إليه الصّدوق[٤] والمَجلِسيّ[٥]. والنّصّ على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثير[٦].

وإلى هذا المعنى تشير الرّواية عن سعيد بن المسيّب؛ قال: أُنزل على النّبيّ ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعون[٧]، أي أُنزل عليه القرآن عند ذلك. إذ لا شكّ أنّ النّبوّة نزلت عليه ﷺ عند اكتمال الأربعين، وهذا إجماع الأُمّة، وعليه اتّفاق كلمتهم، فكيف يخفى على مثل سعيد؟

وأوضح من ذلك مارواه الإمام أحمد بسند متّصل إلى عامر الشّعبيّ، أنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه النّبوّة وهو ابن أربعين سنة... [وذكر كما تقدّم عن ابن كثير ثمّ قال:]

وهذه الرّواية وإن كانت فيها أشياء لا نعرفها، ولعلّها من اجتهاد الشّعبيّ الخاصّ، لكنّ الّذي نريده من هذه الرّواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدّة عشرين عاماً، وإنّ

---

١ ـ الغيبة للشّيخ الطّوسيّ: ٢١٧، وكمال الدّين للصّدوق، والبحار: ١٨: ١٧٧.

٢ ـ الأُصول من الكافيّ ٢: ٦٢٩.

٣ ـ تفسير العياشيّ ١: ٨٠.

٤ ـ الإعتقادات: ١٠١.

٥ ـ بحار الأنوار ١٨: ٢٥٣ و ٢٥٠.

٦ ـ الإتقان ١: ٤٠ وتفسير شُبّر: ٣٥٠ عند تفسير آية ٣٢ من سورة الفرقان.

٧ ـ مستدرك الحاكم ٢: ٦١٠.

نزوله تأخّر عن البعثة بثلاث سنين، وهذا شيء متّفق عليه.

آراء وتأويلات

وأمّا تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان، مع العلم أنّ القرآن نزل منجّماً طول عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً، في فترات ومناسبات خاصّة: تدعى بأسباب النّزول، فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات؛

١ - إنّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان، وهذا اختيار محمّد بن إسحاق[١] والشّعبيّ[٢]؛ وقال الإمام الرّازيّ: وذلك لأنّ مبادىء الملل والدّول هي الّتي تؤرّخ بها؛ لكونها أشرف الأوقات، ولأنّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة[٣]. وهكذا فسّر الزَّمَخشَريّ الآية بذلك؛ قال: ابتدىء فيه إنزاله[٤].

وهو الّذي نرتأيه، نظراً لأنّ كلّ حادث خطير إذا كانت له مدّة وامتداد زمنيّ، فإنّ بدء شروعه هو الّذي يسجّل تاريخيّاً، كما إذا سئل عن تاريخ دولة أو مؤسّسة أو تشكيل حزبيّ، أو إذا سئل عن تاريخ دارسة طالب علم أو تلبّسه الخاصّ وأمثال ذلك، فإنّ الجواب هو تعيين مبدأ الشّروع أو التّأسيس لاغير.

وأيضاً فإنّ قوله تعالى: (أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) والآيات الأُخر، حكاية عن أمر سابق لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكي، وإلّا لكان اللّفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنّ من القرآن ما نزل متأخّراً عن ليلة القدر، اللّهمّ إلّا بضرب من التّأويل غير المستند، على ماسيأتي.

كما أنّ اختلاف مناسبات الآيات حسب الظّروف والدّواعي أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها؛ إذ يربط ذلك كلّ آية بحادثة في قيد وقتها، وهذا في كلّ آية نزلت بشأن حدث أو واقعة وقعت في وقتها الخاصّ، وجاءت آية تعالجها في نفس الوقت. كلّ ذلك

---

١ ـ مجمع البيان ٢: ٢٧٦.

٢ ـ الإتقان ١: ٤٠.

٣ ـ التّفسير الكبير ٥: ٨٥.

٤ ـ الكشّاف ١: ٢٢٧.

دليل على أنّ القرآن لم ينزل جملةً واحدةً، وإلّا لما كان موقع لقولة المشركين: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، وقال تعالى ردّاً على هذا الاعتراض: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١]، أي كان نزول القرآن تباعاً وفي فترات مناسبة أدعم لاطمئنان قلبك؛ حيث الشّعور بعناية الله المتواصلة في كلّ آونة ومناسبة[٢].

وذهب إلى هذا الرّأي أيضاً ابن شهر اشوب في المناقب؛ قال: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ)، أي ابتدأ نزوله [٣]. وقال في متشابهات القرآن: والصّحيح أنّ القرآن في هذا الموضع لا يفيد العموم، وإنّما يفيد الجنس، فأيّ شيء نزل فيه فقد طابق الظّاهر...[ثمّ ذكر كلام الشّيخ المفيد ردّاً على الشّيخ الصّدوق كما تقدّم عنه].

٢ - كان ينزل على النّبيّ ﷺ في كلّ ليلة قدر من كلّ عام ما كان يحتاج إليه النّاس في تلك السّنة من القرآن، ثمّ ينزله جبريل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان هو النّوع، لا رمضان خاصّ، وهو احتمال الإمام الرّازيّ أيضاً [٤].

وهذا اختيار ابن جُريَج [٥] و السُّدّيّ، وأسنده الأخير إلى ابن عبّاس أيضاً [٦] ونقله القُرطُبيّ عن مُقاتل بن حيّان، ووافقه الحَليميّ والماوَرديّ وغيرهما [٧].

غير أنّ هذا الاختيار يخالفه ظاهر قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ﴾ أو ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، حكاية عن حدث سابق، فلو صحّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: ننزله، صفة للحال.

وأيضاً يردّه ما استبعدناه على الرّأي الخامس الآتي: ماهي الفائدة المتوخّاة من نزول قرآن قبل الحاجة إليه؟ ولا سيّما في صيغة جملة الماضي أو الحال المستدعية كونها

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الإتقان ١: ٤١.

٣ ـ مناقب آل أبي طالب ١: ١٥٠.

٤ ـ التّفسير الكبير ٥: ٨٥.

٥ ـ الدّرّ المنثور ١: ١٨٩.

٦ ـ مجمع البيان ٢: ٢٧٦.

٧ ـ الإتقان ١: ٤٠.

نزلت لمناسبة وقتيّة، لا موقع لنزولها قبل ذلك حسب التّعبير اللّفظيّ.

٣ – شهر رمضان الّذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: نزل في فلان، أو في مناسبة كذا قرآن. والمراد من القرآن آية أو [illegible] منه [١].

قال الضّحّاك: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾، اي الّذي أُنزل صومه في القرآن [٢]. وقال سُفيان بن عُيَيْنة: معناه أُنزِلَ في فضله القرآن، واختاره الحسين بن الفضل وابن الأنباريّ [٣].

لكنّ هذا الوجه يخصّ آية البقرة، ولا يجري في آيتَي الدّخان والقدر كما لا يخفى، فضلاً عن أنّه تأويل في اللّفظ لا مبرّر له ولا مستند.

٤ – إنّ معظمه نزل في أشهر رمضان، ومن ثمّ صحّت نسبة الجميع إليه. وهذا احتمال ثانٍ احتملهما سيّد قطب؛ قال: الشّهر الّذي أُنزل فيه القرآن إمّا بمعنى أنّ بدء نزوله كان في رمضان، أو أنّ معظمه نزل في أشهر رمضان [٤].

لكن لا دليل على أنّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان وفي ليلة القدر بالخصوص، ولعلّ الواقعيّة تأبى هذا الاحتمال رأساً.

٥ – القرآن نزل جملةً واحدةً في ليلة واحدة، هي ليلة القدر إلى بيت العزّة أو البيت المعمور، ثمّ نزل على رسول الله ﷺ في فترات ومناسبات، طول عشرين أو ثلاث وعشرين عاماً. ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث؛ نظراً لظاهر أحاديث رويت في ذلك... [ثمّ ذكر قول الشّيخ الصّدوق والعلّامة المَجلِسيّ، كما تقدّم عنهما].

وأخرج الطَّبَرانيّ وغيره عن ابن عبّاس؛ قال: أُنزل القرآن ليلة القدر جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا، ووضع في بيت العزّة، ثمّ أُنزل نجوماً على النّبيّ ﷺ في عشرين سنة.

قال جلال الدّين: وهذا هو أصحّ الأقوال وأشهرها، وروى في ذلك روايات كثيرة،

---

١ ـ مجمع البيان ١: ٢٧٦، الكشّاف ١: ٢٢٧.

٢ ـ الدّر المنثور ١: ١٩٠.

٣ ـ التّفسير الكبير – الرّازيّ ٥: ٨٠.

٤ ـ في ظلال القرآن ٢: ٧٩.

حكم على أكثرها بالصّحّة، رواها عن الحاكم والطَّبَرانيّ والبَيهقيّ والنّسائيّ وغيرهم [١].. [وذكر رواية ابن عبّاس نقلاً عن الطَّبَرانيّ ورواية جابر عن السّيوطيّ، كما تقدّم عنهما، ثمّ قال:] .

ومن طُرُقنا روى العَيّاشيّ عن إبراهيم، أنّه سأل الإمام الصّادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ..﴾... [وذكر كما تقدّم عن البحرانيّ، ثمّ قال:] وجاء الحديث في الكافي، إلّا أنّ في آخره: «وأُنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر رمضان» والرّواية هي عن الحَفص بن غِياث [٢].

وفي التّهذيب جاء قسم من الحديث برواية أبي بَصير، وفي آخره: «وأُنزل الفرقان في ليلة القدر» [٣]

هذه جملة من روايات مأثورة، تفسّر نزول القرآن جملةً واحدةً في ليلة واحدة، إمّا إلى البيت المعمور في السّماء الرّابعة، كما في روايات الخاصّة، أو إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، كما في بعض روايات العامّة، ثمّ منها نزلت آياته مفرّقة على رسول الله حسب الظّروف والمناسبات رسلاً رسلاً.

وقد أخذ الظّاهريّون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الرّوايات، مستريحين بأنفسهم إلى مدلولها الظّاهريّ تعبّداً محضاً.

أمّا المحقّقون من العلماء فلم يرقهم الأخذ بمالا يمكن تعقّله، ولا مقتضى للتعبّد بمالا يرجع إلى أُصول العباديّات، ومن ثمّ أخذوا ينقدون هذه الأحاديث نقداً علميّاً، متسائلين: ماهي الفائدة الملحوظة من وراء نزول القرآن جملةً واحدةً في إحدى السّماوات العُلى، ثمّ ينزّل تدريجيّاً على رسول الله صلى الله عليه وآله؟

وإجابة على هذا السّؤال قال الفخر الرّازيّ: ويحتمل أن يكون ذلك تسهيلاً على

---

١ ـ الإتقان ١: ٣٩.

٢ ـ الأُصول من الكافيّ ٢: ٦٢٩.

٣ ـ تهذيب الأحكام ٤: ١٩٤.

جبرئيل، أو لمصلحة النّبيّ ﷺ في توقّع الوحي من أقرب الجهات [١].

وهذا الجواب غاية في الوهن والسّقوط، مضافاً إلى أنّه تخرّص بالغيب، ونستغرب صدور مثل هذا الكلام الفارغ من مثل هذا الرّجل المضطلع بالتّحقيق! [ثمّ حكى قول الفيض الكاشانيّ كما تقدّم عنه، فقال:]

فقد أوّل ؓ البيت المعمور إلى قلب رسول‌الله ﷺ. وربمّا أراد الصّدوق ؓ أيضاً هذا المعنى من قوله: وأعطى نبيّه العلم جملةً واحدةً. [ثمّ أتى بكلام الزّنجانيّ والطّباطبائيّ بحسب ما تقدّم عنهما، فقال:]

أقول: سامح الله التّأويل، ما أسهله طريقاً إلى التّخلّص عن مآزق البحوث النّظريّة! ونحن إذ لا نرى مبرّراً لهكذا تأويلات غير مستندة إلى دليل، نسائل هؤلاء الأعلام: بِمَ أوّلتم البيت المعمور الّذي هو في السّماء الرّابعة - حسب روايات الخاصّة - أو بيت العزّة - حسب روايات العامّة - إلى قلب رسول‌الله ﷺ؟ ولِمَ هذا التّعبير جاء في هذا اللّفظ؟ وسوف نناقش السّيّد العلّامة في اختيار وجودٍ آخر للقرآن بسيط، وراء هذا الوجود المفصّل، أخذه عن أحمد بن عبد الحليم وحقّقه تحقيقاً دقيقاً، ولكنّا رفضناه رأساً، وسيأتي ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

تحقيق مفيد

قال المحقّق العلّامة الشّيخ أبو عبدالله المفيد: الّذي ذهب إليه أبو جعفر... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:] أضف إلى ذلك ما ذكرناه في اختياره الوجه الأوّل.. (١: ٧٢ - ٩٢)

---

١ - تفسير الرّازيّ ٥: ٨٥.

الفصل الثّالث والسّتّون

نصّ الآصفيّ في كتابه: «دراسات في القرآن»

نزول القرآن في ليلة القدر

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: الهاء كناية عن القرآن وإن لم يجرِ له ذكر.

﴿حٰمٓ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾: الهاء إشارة إلى الكتاب، واللّيلة المباركة هي ليلة القدر، وهي في شهر رمضان كما أثبتناه.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾: أخرج ابن مردويه والبَيهقيّ في الأسماء والصّفات... عن ابن عبّاس، أنّه سأله عطيّة بن أسود... [وذكر كما تقدّم عن البيهقيّ، ثمّ قال:]

كان القرآن المجيد قبل نزوله في لوح محفوظ [1] وما هو اللّوح المحفوظ؟ وكيف كان القرآن فيه؟ أبوجود كتبيّ أم بغيره علمه عند الله ثمّ نزل منه؟ وفي كيفيّة النّزول أقوال:

الأوّل: وهو الأشهر، أنّه نزل منه جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، ثمّ كان

---

١ ـ قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ* فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ البروج/٢١ ـ ٢٢.

جبرائيل عليه السلام ينزّله نجوماً على محمّد النّبيّ صلى الله عليه وآله لمدّة ٢٠ - ٢٣ - ٢٥ سنة، على خلاف فيها. والقائلون بهذا القول جمعوا ما هو ظاهر الآية من نزوله بتمامه في ليلة القدر، وبين ما ثبت وتحقّق من نزوله على رسول‌الله صلى الله عليه وآله مفرّقاً حسب الحاجة إلى نزوله عليه في السّفر والحضر من أوّل بعثته إلى قبل وفاته.

الثّاني: أنّه ابتدأ إنزاله على رسول‌الله صلى الله عليه وآله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك عليه في الأوقات المختلفة حسب الحاجة إلى نزوله [1] والقائل بهذا كأنّه اعترف برجوع ضمير أنزلناه إلى القرآن كلّه وأنّه اسم لهذا المجموع، ولكنّه تأوّل ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله: ابتدأ إنزاله، كي لا ينافي ظاهر الآية كيفيّة نزوله على رسول‌الله صلى الله عليه وآله، فجعل ليلة القدر مبدأ نزول القرآن عليه.

الثّالث: أنّه نزل إلى سماء الدّنيا في عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة القدر في كلّ ليلة القدر ما يقدّر الله إنزاله في كلّ سنة، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً طول السّنة على رسول‌الله صلى الله عليه وآله. وهذا الّذي ذكره الإمام الفخر الرّازيّ. احتمالاً؛ قال: ويحتمل أنّه كان ينزل في كلّ ليلة قدر ما يحتاج النّاس إلى إنزاله إلى مثلها من اللّوح إلى السّماء الدّنيا. ونقله القُرطُبيّ والشّيخ الأجلّ الطَّبرِسيّ، عن مُقاتل أنّه قال: كان ينزل ليلة القدر من الوحي على قدر ما ينزل به جبرائيل عليه السلام على النّبيّ صلى الله عليه وآله في السّنة كلّها إلى مثلها.

الرّابع: ما حكاه الماوَرديّ، أنّه نزل من اللّوح.. [وذكر كما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

أمّا هذا القول فساقط من أصله، وقد استغربه السّيوطيّ، ولكنّه لم يبيّن وجه الغرابة لوضوحه.

وأمّا القول الثّالث فصحّته تتوقّف على أن يكون القرآن اسم جنس؛ ليقع على كلّه وعلى أيّ بعض فرض منه، مع أنّ الظّاهر أنّه اسم لمجموع ما نزل على رسول‌الله صلى الله عليه وآله الّذي هو في أيدي المسلمين، وهذا القائل أراد به المقدار الّذي أُنزل في كلّ ليلة قدر باعتقاده وهو مجاز.

---

١ ـ حكاه في مجمع البيان عن ابن إسحاق وعن الشّعبيّ ١: ٢٢٦ و ٥: ٥١٨.

ويدلّ على أنّه اسم للمجموع تصريح أهل اللّغة به، وورود بعض الأحاديث فيه، قال ابن أثير في النّهاية: والأصل في هذه اللّفظة الجمع، وسمّي القرآن قرآناً لأنّه جمع القصص والأمر والنّهي والوعد والوعيد والآيات والسّور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران، وقد يطلق على الصّلاة؛ لأنّ فيها قراءة، تسمية للشّيء ببعضه.

وقال في مجمع البحرين: قوله: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾[1] وهو اسم لكتاب الله، وفي الحديث «القرآن جملة كتاب الله».

وقال في مقدّمة التّبيان: وفي تسميته بالقرآن يحتمل أمرين؛

أحدهما: ما روي عن ابن عبّاس أنّه قال: هو مصدر قرأت قرآناً، أي تلوته، مثل غفرت غفراناً وكفرت كفراناً.

والثّاني: ما حكي عن قَتادة أنّه قال: هو مصدر قرأت الشّيء، إذا جمعت بعضه إلى بعض. ثمّ قال: وتفسير ابن عبّاس أولى؛ لأنّ قوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[2] الوجه المختار أن يكون المراد إذا تلوناه عليك وبيّنّاه لك فاتّبع تلاوته. ولو حملناه على الجمع على ما قال قَتادة لكان يجب ألّا يلزم اتّباع أيّة آية من القرآن النّازلة في كلّ وقت، وكان يقف وجوب الاتّباع على حين الجمع؛ لأنّه علّقه بذلك على هذا القول.

والجواب: أنّ الاتّباع المأمور به هنا غير ذاك الاتّباع؛ لأنّ هذا اتّباع له في جمعه، والمعنى إذا جمعناه فاتّبع جمعه، وذاك اتّباع له في تبليغه والعمل بما فيه. والثّاني يجب عند نزول أيّة آية، والأوّل يقف على حين الجمع، فكأنّ النّبيّ ﷺ كان يحرّك لسانه مع جبرائيل بتلاوته حرفاً حرفاً مخافة أن ينساه أو أن يقدّم شيئاً ويؤخّر شيئاً، فنهاه الله عنه بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، ووعده أن يجمعه في صدره بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ في صدرك، ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي تأليفه على ما نزل، وهذا مرويّ عن ابن عبّاس وقَتادة. فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ معناه فإذا جمعناه في صدرك فاتّبع جمعه، أو

---

١ ـ النّمل / ٩٢.

٢ ـ القيامة / ١٨.

معناه إذا فرغ جبرائيل من قراءته. قال ابن عبّاس: فكان النّبيّ ﷺ بعد ذاك إذا نزل عليه جبرائيل عليه السلام أطرق، فإذا ذهب قرأ.

نعم، حكى الشّيخ الأجلّ الطّبرسيّ في مجمع البيان عن قَتادة والضّحّاك أيـضاً أنّ معناه اعمل بما فيه من الحلال و الحرام، وحكى عن البَلخيّ أيضاً أنّه قال: الّذي أختاره أنّه لم يرد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، يدلّ على ذلك ماقبله ومـا بعده، وليس فيه شيء يدلّ على أنّه القرآن ولاشيء من أحكام الدّنيا، وفي ذلك تقريع للعبد وتوبيخ له حين لا ينفعه العمل. يقول: لا تُحرّك لسانك بما تقرأه من صحيفتك الّتي فيها أعمالك يعني كتابك ولا تعجل، فإنّ هذا الّذي هو على نفسه بصيرة إذا رأى شـيئاً ضجر واستعجل، فيقال له توبيخاً: لا تعجل وتثبّت لتعلم الحجّة عليك، فإنّا نجمعها لك، فإذا جمعناه فاتّبع ما جمع عليك بالانقياد لحكمه والاستسلام المتبعة فيه، فإنّه لا يمكنك إنكاره. هذا ولكنّ الزّمَخشَريّ قد صرّح في الكشّاف بأنّ القرآن اسم جنس يقع على كلّه وعلى بعضه [١] وعليه يكون إطلاقه على البعض إطلاقاً حقيقيّاً، وهو ينافي ما تقدّم عن نهاية ابن أثير من أنّه قد يطلق على الصّلاة؛ لأنّ فيها قراءة تسميته للشّيء ببعضه [٢]. ولو سلّمنا ما قاله الزّمَخشَريّ فلا شكّ في أنّ المراد به هنا الكلّ لوجهين:

الأوّل: أنّه تعالى أشار إليه بالضّمير ولم يسبق له ذكر، فقال: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَـيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [٣]، وهذا يقتضي أن يكون الضّمير إشارة إلى كلّه، وليس كقوله تعالى مشـيراً إلى آيات سورة يوسف: ﴿ تِلْكَ اٰيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ قُرْاٰناً عَرَبِيًّا ﴾ [٤] مع أنّه يمكن أن يكون هذا الضّمير أيضاً إشارة إلى تمام الكتاب لا خصوص تلك الآيات، لكن على وجه توقّع نزول البقيّة.

الثّاني: أنّ فضيلة ليلة القدر تستدعي أن يكون القرآن نازلاً فيها بأسره، ويأتي هذا

---

١ ـ الكشّاف ١: ٤٦٠.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وقُرْاٰنَ الْفَجْرِ اِنَّ قُرْاٰنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ الإسراء/٧٨، والمراد به صلاة الفجر؛ لأنّ فيها القراءة: ومعناه إنّ صلاة الفجر تشهدها ملائكة الّليل وملائكة النّهار، كما في الحديث.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ يوسف / ١.

الوجه في قوله تعالى: ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[١]، مع وجه آخر، وهو أنّه سبحانه أقسم فيه بالكتاب، فينبغي أن يكون المراد به الكلّ. وأمّا القول الثّاني فصحّته تتوقّف على إثبات كون ابتداء نزول القرآن على رسول‌الله ﷺ في ليلة القدر، وهو عندي ممنوع، ويتّضح دليل المنع بالبحث عن البعثة أو بدء نزول القرآن.

وهاهنا شبهتان

[الشّبهة الأُولى]: ما أورده الشّيخ أبو عبدالله المفيد في كتابه «تصحيح الاعتقاد»، ومن أجلها جزم ببطلان هذا الاعتقاد، واعترض على شيخه أبي جعفر الصّدوق بما يأتي، مع ما يلوح في الجواب عنه وعن أصل الشّبهة.

وأوردها أيضاً الشّيخ أبو جعفر الطُّوسيّ في «التّبيان»، وأجاب عنها بما يأتي. وأوردها أيضاً العلاّمة المَجلِسيّ في البحار نقلاً عن المفيد، وأجاب عنها، ولكنّه خلط بين الجواب عن الشّبهة في نزوله جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا وبين الجواب عن الشّبهة في نزوله كذلك على النّبيّ ﷺ، فنفى استبعاد نزوله جملةً واحدةً عليه ﷺ، وهو خارج عن محلّ الكلام، وغير محتمل في نفسه، لمنافاته مع قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٢]، أي أنزلناه كذلك، يعني مفرّقاً لنثبّت به فؤادك.

قال المَجلِسيّ: فلا استبعاد في أن ينزل الله هذا الكتاب جملةً على النّبيّ ﷺ، ويأمره أن لا يقرأ على الأُمّة شيئاً منه إلّا بعد أن ينزل كلّ جزء منه في وقت معيّن يناسب تبليغه وفي واقعة تتعلّق بها[٣]

وهذا الكلام مع ما فيه من التّناقض الظّاهر بين صدره وذيله أجنبيّ عن موضوع البحث ومورد الشّبهة؛ لأنّ موضوع البحث هو نزول القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا لا على النّبيّ ﷺ، ولو كانت الشّبهة في نزوله جملةً على النّبيّ ﷺ لكانت أصعب دفعاً.

---

١ ـ الدّخان / ١ – ٣.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

٣ ـ بحار الأنوار ٦: ٣٥٦.

وقال شيخ الطّائفة بعد أن أخرج حديث نزول القرآن جملةً في ليلة القدر: فإن قيل... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:] وحاصل كلامه قدّس سرّه: إنّ هذه الشّبهة لا تخصّ وروداً بنزول القرآن جملةً في ليلة القدر، بل ترد على نزوله منجّماً على النّبيّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنَادىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[1] وأمثاله الكثيرة.

وأجاب عن هذه الشّبهة بأنّه إذا كان يوم القيامة نادى أصحاب الجنّة هذا، ولكن ترد هذه الشّبهة على خصوص الخطابات القرآنيّة بنحو آخر لا يندفع بهذا الجواب، فهذا الجواب لا يفي بدفع الشّبهة بحذافيرها، وسيأتي تفصيل هذا الإجمال. [وذكر قول الشّيخ المفيد في الرّدّ على الشّيخ الصّدوق كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

أقول: أظنّ أنّه قدّس سرّه فهم ممّا ذهب إليه الشّيخ الصّدوق، وجاء به الحديث من نزول القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر أنّ المقصود نزوله كذلك فيها على النّبيّ ﷺ، ولهذا قال في قصّة المجادلة في الظّهار، وهذه قصّة كانت بالمدينة، فكيف ينزّل الله الوحي بها بمكّة قبل الهجرة، فيخبر بها أنّها كانت ولم تكن؟ وقال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر أنّه نزل منه جملة في ليلة القدر، ثمّ تلا ما نزل منه إلى وفاة النّبيّ ﷺ

مع أنّ الصّدوق قد صرّح بنزوله كذلك إلى البيت المعمور، وكذلك غيره ممّن تقدّمت أقوالهم.

وهذا هو الّذي جاءت به الأحاديث المتقدّمة، منها حديث الكافي بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «نزل القرآن جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى بيت المعمور، ثمّ نزل في طول عشرين سنة».

ومنها ما أورده الشّيخ في «التّبيان» والطَّبرِسيّ في «مجمع البيان» عن ابن عبّاس وسعيد... [وذكر كما تقدّم عنهما ثمّ قال:].

وكان اللّازم في نفي احتمال نزوله على النّبيّ ﷺ التّمسّك بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

---

١ ـ الأعراف / ٤٤.

كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[١] لا التّمسّك بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[٢].

وقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾[٣]، بأنّ هذا خبر عن ماض، فلا يجوز أن يتقدّم مخبره، أو بأنّ الظّاهر قصّة كانت بالمدينة، فكيف ينزّل الله الوحي بها بمكّة قبل الهجرة، بأنّها كانت ولم تكن، فإنّ الإخبار عن شيء بأنّها كانت ولم تكن لا مانع منه أصلاً حتّى حين نزول الآية على النّبيّ ﷺ، وأمثاله في القرآن كثيرة، بل فيه الإخبار بلفظ ماضٍ عن أشياء لم تقع إلى الآن، ولا تقع إلّا في يوم القيامة، وهذا أصعب من قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، الّذي وقع بعد برهة من الزّمان، على القول بنزوله في ليلة القدر إلى سماء الدّنيا، أو على القول بكونه في لوح محفوظ قبل نزوله بكلّ معناه، على ما جاءت به الأحاديث، وأشار إليه الكتاب في قوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٤]. والجواب عن الجميع من وجهين؛

الأوّل: ما تقدّم عن شيخ الطّائفة قدّس سرّه بقوله: إذا كان وقت كذا نزل ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾[٥]، وإذا كان يوم القيامة ﴿نَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[٦].

الثّاني: أنّ علم الله الأزليّ بالأشياء ليس زمنيًّا كعلم أحدنا ببعض الحوادث المختصّ بأحد الأزمنة، بل هو فوق الزّمان ومحيط به، وغير محتاج في وجوده إليه، وغير مختصّ بجزء منه، فلا يتّصف الزّمان بالنّسبة إلى علمه بالماضي والمستقبل والحال، بل نسبته إليه نسبة واحدة، كما أنّ ذاته الأحديّة لمّا لم يكن مكانيّاً كان نسبتها إلى جميع الأمكنة كذلك، فلا يتّصف المكان بالنّسبة إلى ذاته بالقرب والبعد، فهو تعالى عالم أزلاً بجميع الموجودات والحوادث وخصوصيّاتها وأحكامها وأزمنتها وأمكنتها كلّ في وقته، لا من حيث تقيّده

---

١ ـ الفُرقان / ٣١ ـ ٣٢.

٢ ـ الزُّخرُف / ٢٠.

٣ ـ المُجادلة / ١.

٤ ـ البروج/٢١.

٥ ـ التّوبة/٢٥.

٦ ـ الأعراف/٤٤.

بالزّمان واختصاصه بجزء منه، بل يعلمها علماً متعالياً عن وصف الماضي والمستقبل والحال.

فإنّ هذه الأوصاف إنّما يعرض للزّمان إذا قيس إلى زمانيّ يكون في أمده، ويختصّ بجزء منه دون مالا يدخل تحت سلسلته، كعلم الله الأزليّ وذاته الأزليّة الأحديّة؛ وإذ قد ثبت أنّ الأشياء والحوادث الجزئيّة المتأخّرة حتّى إلى فناء الدّنيا وقيام السّاعة حاضرة لديه معلومة له سبحانه، لا استحالة في أن يخبر عنها بلفظ ماضٍ، ويثبته في لوح محفوظ وكتاب مكنون، ثمّ ينزّله منه إلى سماء الدّنيا جملةً لحكمة اقتضته، ثمّ ينزله منه على رسوله نجوماً عند الحاجة إليه.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾[١].

قال ابن عبّاس: أقسم بنزول القرآن، فإنّه نزل متفرّقاً قطعاً نجوماً.

وقال في تفسير ﴿كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾: أي مستور عند الله عن خلقه، وهو اللّوح المحفوظ، أثبت الله فيه القرآن[٢].

هذا، ولكنّ الجوابين لا يفيان بدفع الشّبهة عن خطابات القرآن التّكليفيّة، بناءً على القول بنزوله جملةً في ليلة القدر إلى سماء الدّنيا، أو على القول بثبوته في لوح محفوظ قبل نزوله بكلّ معناه، وترد هذه الشّبهة حينئذٍ على الخطابات القرآنيّة تارةً، من ناحية عدم صحّة خطاب الغائب والمعدوم حقيقة، وأُخرى من ناحية عدم صحّة تكليفهما عقلاً بالبعث والزّجر.

والجواب: أنّ الخطابات القرآنيّة قبل وصولها أينما فرضناها، أكانت في لوح محفوظ، أو في بيت المعمور من سماء الدّنيا لا بدّ أن تكون كلّها خطابات إنشائيّة محضة، وذلك لأنّه لمّا لم يكن هناك مخاطب موجود، بحيث صحّ أن يتوجّه إليه الخطاب حقيقة، بأن يكون يسمعه ويلتفت إليه، وجب أن تكون الخطابات إنشائيّة إيقاعيّة، وإن قلنا: بأنّ

---

١ ـ الواقعة / ٧٥ ـ ٧٨.

٢ ـ مجمع البيان ٥: ٢٢٦.

أدوات الخطاب موضوعة للخطاب الحقيقيّ.

وهذا إنّما يكون لقصور في الخطاب والمخاطَب (بالفتح)، فإحاطته سبحانه علماً بالغائب والمعدوم لا يوجد فيها صلاحية توجبه الخطابات إليهما حقيقة، وكذا الحال فيما إذا أُنزلت الآيات على النّبيّ ﷺ ولم يصدع بعد بها.

فالله سبحانه أنشأ الخطابات التّكليفيّة وغيرها لتصير فعليّة عند وجود المخاطب وصلوحه؛ لتوجيهها إليه بلا حاجة إلى إنشاء جديد، فلا تكليف قبل ذلك حقيقة، ولا خطاب كذلك، وإنّما هو إنشاء محض وإظهار توجيه فحسب.

وأمّا إذا وصلت الخطابات إلى النّبيّ ﷺ وصدع بها، وخرجت عن شفتيه مخاطباً بها الأُمّة فحينئذٍ يقع الكلام في أنّ تلك الخطابات الشّفهيّة تختصّ بالحاضرين لمجلس الخطاب، أو يعمّ الغائب والمعدوم أيضاً. وهذا بحث أُصوليّ لا ربط له بما نحن فيه، وهو مع ذلك بحث بلاثمرة عمليّة كما حقّق في الأُصول، فلا نخوض فيه، ولكن نشير إليه إشارة عابرة فنقول: ربّما يقال: إنّ البحث فيه عقليّ، بمعنى أنّ البحث إنّما هو في إمكان المخاطبة مع الغائب والمعدوم وعدمه، وربّما يقال: إنّ البحث فيه لفظيّ، بمعنى عموم أدوات الخطاب لهما بحسب الوضع وعدمه. والمحقّق صاحب كفاية الأُصول جعل البحث والنّزاع فيه عقليّاً من وجه، والمحقّق النّائينيّ جعل النّزاع فيه عقليّاً من جهة، ولفظيًّا من جهة.

وأمّا أُستاذنا المحقّق آية الله السّيد الخوئيّ فإنّه استظهر في تحرير محلّ النّزاع أنّه منحصر في اللّفظيّ، أي في عموم أدوات الخطاب بحسب الوضع وعدم عمومها، ثمّ اختار العموم بدعوى وضعها للخطاب الإنشائيّ، وإظهار توجيه الكلام بداعٍ من الدّواعي، فيشمل الغائب والمعدوم.

ولنعطف عنان القلم إلى تحرير الجواب عمّا أورده الشّيخ المفيد قدّس سرّه على حديث نزول القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر، أو جوّزه في مدلوله.

أمّا قوله: ما أشبه ما جاء به الحديث بمذهب المشبّهة الّذين زعموا أنّ الله سبحانه لم يزل متكلّماً بالقرآن، ومخبراً عمّا يكون بلفظ كان.

فجوابه: أنّ مجرّد المشابهة لا يكون قدحاً في الحديث، ولا يوجب ضعفه إذا صحّ سنده، ولم يكن في متنه ما يدلّ على قدم القرآن وأزليّته.

هذا مع أنّه لا مشابهة بين ما جاء به الحديث وبين مذهب من سمّاهم المشبّهة، ولعلّهم الحنابلة والكراميّة الّذين قالوا بقدم القرآن وأزليّته، على اختلافهم في التّعبير عنه بما مرّ بيانه في بحث التّكلّم من صفات الحقّ جلّ وعلا.

وليس ما جاء به الحديث بأعجب ممّا جاءت به أحاديث أُخرى أيضاً من ثبوت القرآن في لوح محفوظ قبل نزوله منه إلى سماء الدّنيا في ليلة القدر، ولا أقرب منه إلى ما أوردوه على القول بقدمه وأزليّته من لزوم الأمر بلا مأمور، والنّهي بلا منهيّ، والنّداء بلا سامع، والإخبار بلا مخبر به.

والجواب ماذكرنا، فليس اعتقادنا بحدوث القرآن لأجل هذا الّذي أوردوه على القول بقدمه، بل لأجل القياس الّذي تقدّم في بحث التّكلّم من صفاته سبحانه. وهو أنّ كلامه مركّب من الحروف المسموعة، وكلّما هو كذلك فهو حادث، فكلامه حادث. وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام:«إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه»، وقد ثبت بحكم الضّرورة أنّ القرآن كلام الله.

وأمّا قوله: يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملة في ليلة القدر أنّه نزل جملة منه في ليلة القدر، ثمّ تلاه ما نزل منه إلى وفاة النّبيّ صلى الله عليه وآله فجوابه من وجهين؛

الأوّل: أنّه مبنيّ على أن يكون المراد من نزوله كذلك نزوله على النّبيّ صلى الله عليه وآله وهو ممنوع، والحديث على خلافه، وقد مرّ بيانه.

الثّاني: أنّه مبنيّ على كون ابتداء نزول القرآن على النّبيّ صلى الله عليه وآله في ليلة القدر، وهو ممنوع أيضاً، وتقدّم تفصيله.

وأمّا قوله: فأمّا أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر، فهو بعيد ممّا يقتضيه ظاهر القرآن والمتواتر من الأخبار وإجماع العلماء.

فجوابه أن يقال: أمّا القرآن فظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1]، وقوله:

---

١ ـ القدر / ١.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ﴾[١]، إنّه نزل فيها بأسره وجميعه، وقد بيّنّا وجه الظّهور فيما تقدّم.

وأمّا الأخبار فالمتواتر منها في هذا الباب غير موجود، والموجود منها غير متواتر، وهي مع ذلك صريحة في نزوله في ليلة القدر بأسره وجميعه، فإنّ فيها نزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر، ووضع في بيت العزّة أو في بيت المعمور، أو إلى سماء الدّنيا، على اختلافها في التّعبير، ثمّ كان جبرائيل ينزل به نجوماً على رسول الله ﷺ.

وأمّا الإجماع فلا معنى لبعد المسألة عنه، إلّا أنّه انعقد على خلافها. ودعوى انعقاد الإجماع هنا على الخلاف، أي على عدم نزول القرآن بأسره وجميعه في ليلة القدر، مع تصريح من تقدّمت أسماؤهم من المفسّرين وغيرهم بنزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر، غير مسموعة، كدعوى الإجماع على الوفاق المحكيّ في «الإتقان» عن ابن كثير أنّه قال: حكي الإجماع على أنّه نزل القرآن جملةً واحدةً في ليلة القدر من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا. [ثمّ ذكر قول الصّدوق كما تقدّم عنه فقال:]

أقول: لم يثبت بدليل أنّ الله تعالى أعطى نبيّه العلم بالقرآن جملةً، و لو كان أعطاه العلم به كذلك لكان القرآن في صدره، فما معناه أنّه نزل في بيت المعمور خاصّة، أو ما معناه أنّه نزل عليه بعد ذلك نجوماً حسب الحاجة إليه، وقد كان ﷺ يتوقّع نزول الوحي إليه حول كلّ حادثة، وجواباً عمّا كان يسأل عنه. وقد مضى ذكر حديث سؤالهم إيّاه عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل، ورجل طوّاف بلغ شرق الأرض وغربها، وعن الرّوح، فقال: أخبركم بما سألتم عنه غداً، فمكث خمسة عشر ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، حتّى أرجف أهل مكّة وتكلّموا فيه، ثمّ جاء جبرائيل عن الله بسورة الكهف، وأُنزل عليه ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٢].

وأمّا النّهي عن التّعجيل بالقرآن ففيه وجهان؛ أحدهما: أنّه ﷺ كان يتسرّع إلى تأويل ما ينزل عليه من القرآن فنهاه الله تعالى عنه، والمعنى على هذا لا تعجل بتأويل

---

١ ـ الدّخان / ١.

٢ ـ الإسراء / ٨٥.

القرآن من قبل أن يقضى إليك وحي التّأويل، ويدلّ عليه قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾[١].

الثّاني: أنّه ﷺ كان يتوقّع نزول الوحي عليه يوميًّا حول كلّ حادثة تأميناً لقلوب المؤمنين ومزيداً لعلمه، فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ﴾، أي بإنزاله ﴿مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ﴾، أي يتحتّم بحسب المصلحة ﴿اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾[٢]، واستزادة العلم من الله محبوب له، وقد تكون سبباً لحدوث المصلحة في تعجيل إنزال القرآن عليه فعلّمه الحكيم تعالى طريق الوصول إلى التّعجيل بالنّزول، وهذا طرف من أسرار علم القرآن.

وأمّا النّهي عن تحريك لسانه بالقرآن فكان على ما حكاه الطّبرسيّ عن قَتادة وابن عبّاس أنّه ﷺ كان يحرّك لسانه بتلاوة الآية مع جبرائيل حرفاً حرفاً؛ لشدّة حرصه بضبطه مخافة أن ينساها، أو يقدّم شيئاً ويؤخّر شيئاً، فنهاه الله عن ذلك، ووعد أن يجمعه في صدره بقوله: ﴿اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾[٣] في صدرك.

فالآيتان على هذا تدلاّن على خلاف ما قال به الشّيخ أبو جعفر الصّدوق، من أنّ الله تعالى أعطى نبيّه العلم جملةً، ثمّ قال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٤]، وقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾.[٥]

وللآية الثّانية تفسير آخر تفرّد به البلخيّ ظاهراً؛ قال: الّذي أختاره أنّه لم يُرِد القرآن، وإنّما أراد قراءة العباد لكتبهم يوم القيامة، إلى آخر ما تقدّم عنه نقلاً عن مجمع البيان.

الشّبهة الثّانية: ما أوردها أبو شامة قال: فإن قلت:.. [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:].

أقول: التّوقّف في صحة العبارة على هذا إنّما يكون لجهتين؛

الجهة الأُولى: أنّ قوله تعالى: ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٦] إخبار عن ماض، وهو لم

---

١ ـ طه / ١١٤.

٢ ـ طه / ١١٤.

٣ ـ القيامة/١٧.

٤ ـ طه/١٤٤.

٥ ـ القيامة/١٦.

٦ ـ القدر/١.

يقع، لأنّ الإنزال كان بعد حدوث هذا القول وصدوره، فكان ينبغي أن يقول: إنّا ننزّله في ليلة القدر.

والشّبهة على هذا هي الشّبهة الأُولى بعينها، غير أنّ المستشكل خصّها بهذا الخبر من أخبار القرآن، ولم يلتفت إلى بقيّة أخباره بلفظ ماضٍ عمّا لم يقع حتّى حين النّزول على النّبيّ ﷺ، بل لا يكون إلّا في يوم القيامة.

الجهة الثّانية: هي أنّ قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يحكي عن نزول القرآن في ليلة القدر، فلو كان هو أيضاً من المنزل في ليلة القدر لزم اتّحاد الدّالّ والمدلول، أو تركّب القضيّة من جزءين، لأنّه إن اعتبر دلالته على نزول نفسه في ليلة القدر أيضاً لزم اتّحاد الدّالّ والمدلول، وإلّا لزم تركّب القضيّة من جزءين، لأنّ القضيّة على هذا إنّما تحكي عن المحمول والنّسبة دون الموضوع، فتكون القضيّة المحكيّة بها إذن مركّبة من جزءين: المحمول والنّسبة. مع امتناع تركّبها إلّا من ثلاثة أجزاء؛ لأنّ النّسبة لا تقوم إلّا بالمنتسبين، بل تمتنع حكاية القضيّة عن النّسبة إذا لم تحك عن الموضوع ؛ لأنّ النّسبة لا تقوم بطرف واحد.

والجواب: إنّا نختار الشّقّ الأوّل ونجيب عن إشكال لزوم اتّحاد الدّالّ والمدلول بأنّه يكفي تعدّدهما اعتباراً، وإن اتّحدا ذاتاً، ثمّ نختار الشّقّ الثّاني ونجيب عن إشكال تركّب القضيّة من جزءين بأنّه إنّما يلزم لو لم يكن الموضوع في القضيّة المحكيّة نفس هذا القول، وإلّا كان أجزاؤها الثّلاثة تامّة، وكان المحمول منتسباً إليه، وهو نفس الموضوع لا الحاكي عنه. وهذا ممكن، غير أنّه ليس من باب استعمال اللّفظ في المعنى، وإنّما هو من باب إيجاد الموضوع وإحضاره في ذهن المخاطب خارجاً. فالقضيّة اللّفظيّة مؤلفة من وجود الموضوع واللّفظ المحمول فتكون القضيّة المحكيّة المعنويّة أجزاؤها الثّلاثة تامّة.

هذا، مع أنّ دلالة الآية على نزول نفسها في ليلة القدر دلالة ضمنيّة، أي أنّها تدلّ على نزول نفسها ضمن دلالتها على نزول القرآن في ليلة القدر، وهذه لا يأتي فيها ما يأتي فيما إذا أُطلق اللّفظ وأُريد به نفسه من لزوم اتّحاد الدّالّ والمدلول، أو تركّب القضيّة من جزءين، كما في «الفصول» و «كفاية الأُصول». (ص: ١٤٧ ـ ١٧٣)

الفصل الرّابع والسّتّون

نصّ الدّكتور أبي شهبة في «المدخل لدراسة القرآن»

نزول القرآن الكريم

هذا المبحث من المباحث المهمّة؛ إذ به يعرف تنزّلات «القرآن الكريم»، ومتى نزل؟ وكيف نزل؟ وعلى مَن نزل؟ وكيف كان يتلقّاه جبريل عليه السلام من الله تبارك وتعالى؟ وعلى أيّ حال كان يتلقّاه الرّسول ﷺ من جبريل؟ ولا شكّ أنّ العلم بذلك يتوقّف عليه كمال الإيمان بأنّ القرآن من عند الله، وأنّه المعجزة العظمى للنّبيّ، كما أنّ كثيراً من المباحثات الّتي تذكر في هذا الفنّ يتوقّف على العلم بنزوله، فهو كالأصل بالنّسبة لغيره، والعلم بالأصل مقدّم على الفرع، فأقول - ومن الله أستمدُّ العون والتّوفيق:

معنى النّزول:

النّزول لغة يطلق ويراد الحلول؛ يقال: نزل فلان بالمدينة: حلّ بها، وبالقول: حلّ بينهم، والمتعدّي منه معناه الإحلال؛ يقال: أنزلته بين القوم، أي أحللته بينهم [1]، ومنه قوله

---

١ - في القاموس مادّة «نزل»: النّزول: الحلول، نزلهم وبهم وعليهم ينزل نزولاً ومنزلاً: حلّ، ونزّله تنزيلاً، وإنزالاً ومنزلاً كمجمل، واستنزله بمعنى، وتنزّل نزل في مهلة، وفي المصباح المنير: نزل من علوّ إلى أسفل ينزل نزولاً، ويتعدّى بالحرف والهمزة والتّضعيف؛ فيقال: نزلت به، وأنزلته، ونزّلته، واستنزلته بمعنى أنزلته، والمنزِل: موضع النّزول، والمنزِلة مثله، وهي أيضاً المكانة، ونزّلت هذا مكان هذا: أقمته مقامه؛ قال ابن فارس: التّنزيل: ترتيب الشّيء.

تعالى: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾[١] ويطلق أيضاً على تحرّك الشّيء من علوّ إلى سُفْلٍ؛ يقال: نزل فلان من الجبل، والمتعدّي منه معناه التّحريك من عُلوّ إلى سُفْلٍ، ومنه قوله تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾[٢].

وكلا المعنيين اللّغويّين لا يليقان بنزول القرآن على وجه الحقيقة لاقتضائهما الجسميّة والمكانيّة والانتقال، سواء أردنا بالقرآن المعنى القديم القائم بذاته تعالى أو الكلمات الحكميّة الأزليّة أو اللّفظ العربيّ المبين الّذي هو صورة ومظهر للكلمات الحكميّة القديمة؛ لما علمت من تنزّه الصّفة القديمة ومتعلّقها، وهو الكلمات الغيبيّة الأزليّة عن الموادّ مطلقاً، ولأنّ الألفاظ أعراض سيّالة تنتهي بمجرّد النّطق بها، ولا يتأتّى منها نزول ولا إنزال.

وعلى هذا يكون المراد بالنّزول المعنى المجازيّ، والمجاز في اللّغة العربيّة باب واسع، فإن أردنا بالقرآن الصّفة القديمة أو متعلّقها، فالمراد بالإنزال الإعلام به بواسطة إثبات الألفاظ والحروف الدّالّة عليه، من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللّازم. وإن أردنا اللّفظ العربيّ الدّالّ على الصّفة القديمة يكون المراد نزول حامله به، سواء أردنا بالنّزول نزوله إلى سماء الدّنيا، أو على النّبيّ ﷺ ويكون الكلام من قبيل المجاز بالحذف، وهذا هو ما يتبادر إلى الأذهان عند إطلاق لفظ النّزول.

وللقرآن الكريم وجودات ثلاثة:

١ – وجوده في اللّوح المحفوظ.

٢ – وجوده في السّماء الدّنيا.

٣ – وجوده في الأرض بنزوله على النّبيّ ﷺ ولم يقترن لفظ «النّزول» إلّا بالوجود الثّاني والثّالث، أمّا الوجود الأوّل، فلم يرد لفظ «النّزول» مقترناً به قطّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسمّيه نزولاً أو تنزّلاً.

---

١ ـ المؤمنون / ٢٩.

٢ ـ الرّعد / ١٧.

أين كان القرآن قبل النّزول؟

يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۞ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[١] فقد دلّت الآية على أنّ القرآن كان قبل نزوله ثابتاً وموجوداً في اللّوح المحفوظ، وهذا اللّوح المحفوظ هو الكتاب المكنون الّذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۞ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۞ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] فالظّاهر والّذي عليه جمهور المفسّرين أنّ الكتاب المكنون هو اللّوح المحفوظ، ومعنى ﴿مَحْفُوظٍ﴾ أنّه عن استراق الشّياطين، ومحفوظ عن التّغيير والتّبديل، ومعنى ﴿مَكْنُونٍ﴾ مصون محفوظ عن الباطل، والمعنيان متقاربان.

واللّوح المحفوظ هو السّجل العامّ الّذي كتب الله فيه في الأزل كلّ ما كان وكلّ ما يكون. والواجب علينا أن نؤمن به وأنّه موجود ثابت، أمّا البحث فيما وراء ذلك، كالبحث في حقيقته وماهيّته، وعلى أيّ حالة يكون؟ وكيف دوّنت فيه الكائنات؟ وبأيّ قلم كتب؟ فلا يجب الايمان علينا به؟ إذ لم يرد عن المعصوم عليه السلام في ذلك حديث صحيح، وكلّما ورد إنّما هي آثار عن بعض الصّحابة والتّابعين لاتطمئنّ إليها النّفس [٣].

وحكمة وجود القرآن في اللّوح المحفوظ ترجع إلى الحكمة العامّة من وجود اللّوح المحفوظ نفسه، وإقامته سجلًّا جامعاً لكلّ ما كان وما يكون من عوالم الايجاد والتّكوين، فهو شاهد ناطق، ومظهر من أروع المظاهر الدّالة على عظمة الله وعلمه وإرادته، وواسع سلطانه وقدرته. ولا شكّ أنّ الايمان به يقوّي إيمان العبد بربّه من هذه النّواحي، وبعث الطّمأنينة إلى نفسه، والثّقة بكلّ ما يظهر الله لخلقه من ألوان هدايته وشرائعه وكتبه وسائر أقضيته، كما يحمل النّاس على السّكون والرّضا تحت سلطان القدر والقضاء، ومن هنا تهون عليهم الحياة بضرّائها وسرّائها كما قال جلّ شأنه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ

---

١ ـ البروج / ٢١ - ٢٢.

٢ ـ الواقعة / ٧٧ - ٨٠.

٣ ـ انظر تفسير «القرطبيّ» و«ابن كثير» و «الآلوسيّ» في تفسير آية البروج.

مَافَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتٰيكُمْ وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١].

وللإيمان باللّوح والكتابة أثر صالح في استقامة المؤمن على الجهاد، وتفانيه في طاعة الله ومراضيه، وبعده عن مساخطه ومعاصيه؛ لاعتقاده أنّها مسطورة عند الله في لوحه، مسجّلة لديه في كتابه[٢]، كما قال جلّ شأنه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾[٣].

للقرآن الكريم نزولان؛ الأوّل: نزول من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا. الثّاني: نزوله من السّماء الدّنيا على النّبيّ ﷺ وهذا كلام مجمل يحتاج إلى تفصيل وتوضيح، وإليك البيان.

النّزول الأوّل

نزول القرآن الكريم من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا جملةً واحدةً، وهذا النّزول أكان بعد نبوّته ﷺ أم كان قبل ذلك؟ رأيان للعلماء، أرجحهما الأوّل، وهو الّذي تدلّ عليه الآثار الآتية، وكان هذا النّزول في رمضان ليلة القدر. والدّليل على هذا النّزول ما يأتي:

١ – قوله تعالى في مفتتح سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقال في مفتتح سورة الدّخان: ﴿حٰمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ وقال في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾[٤].

والإنزال أكثر ما يرد في لسان العرب فيما نزل جملةً واحدةً[٥]، بخلاف التّنزيل، فإنّه

---

١ ـ الحديد / ٢٢ – ٢٣.

٢ ـ مناهل العرفان ١: ٣٥، ط أوّل.

٣ ـ القمر: ٥٢ – ٥٣، ومعنى مستطر مكتوب في السّطور.

٤ ـ البقرة / ١٨٥.

٥ ـ الغالب في التّعبير القرآنيّ عمّا نزل دفعةً واحدةً بلفظ الإنزال، وما نزل مفرّقاً التّنزيل. ولهذا لمّا جمع الله بين القرآن والتّوراة والإنجيل عبّر في جانب نزول القرآن على النّبيّ بالتّنزيل، وفي جانب التّوراة والإنجيل بالإنزال؛ لأنّهما نزلا دفعةً واحدةً، وهذا ما لا خلاف فيه، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ

←

يعبّر به في جانب ما نزل مفرّقاً. فدلّت الآيات على أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً في ليلة القدر أخذاً من سورة القدر، وهي اللّيلة المباركة أخذاً من آية الدّخان، وهي من ليلة شهر رمضان أخذاً من آية البقرة.

وأيضاً فمن البديهيّ أنّ القرآن نزل على النّبيّ ﷺ في سنين لا في ليلة واحدة، وأنّه نزل في غير رمضان كما نزل في رمضان، فدلّ هذا على أنّ النّزول الّذي نوّهت بشأنه الآيات غير النّزول على النّبيّ ﷺ مفرّقاً في بضع وعشرين سنة، وأنّ المراد به هو النّزول جملةً واحدةً.

٢ ـ قد جاءت الآثار الصّحيحة مبيّنة لهذا النّزول وشاهدة عليه.. [ثمّ ذكر روايات ابن عبّاس نقلاً عن النّسائيّ والحاكم والبَيهَقيّ، كما تقدّم عن السُّيوطيّ والطَّبَريّ، فقال:] ومعلوم أنّ هذا لا يقوله ابن عبّاس بمحض الرّأي، فهو محمول على سماعه من النّبيّ ﷺ أو ممّن سمعه من النّبيّ من الصّحابة. ومثل هذا له حكم المرفوع؛ لأنّ القاعدة عند أئمّة الحديث أنّ قول الصّحابيّ الّذي لم يأخذ عن الإسرائيليّات فيما لا مجال للرّأي فيه له حكم الرّفع، وبذلك ثبتت حجّيّة هذه الآثار [١] وقد ذكر السّيوطيّ في الإتقان [٢] عن القُرطُبيّ: أنّه حكى الإجماع على أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا.

وهناك قول ثانٍ، وهو أنّ القرآن نزل إلى السّماء الدّنيا في عشرين ليلة قدر، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين [٣] ينزل الله في كلّ ليلة منها ما يقدّر إنزاله في كلّ السّنة، ثمّ ينزل به جبريل بعد ذلك عن النّبيّ ﷺ في جميع السّنة، وبه قال «مُقاتل بن حَيّان»

وهناك قول ثالث، هو أنّ المراد بالآيات السّابقة ابتداء إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل

→

التَّوْرٰيةَ وَالاِنْجيلَ﴾. والتّفريق بين الإنزال والتّنزيل أمر غالب، وليس قاعدة مطّردة، ولذا عبّرت بلفظ «أكثر» بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾ الفرقان / ٣٢، فقد استعملوا التّنزيل وأرادوا الإنزال.

١ ـ نزهة النّظر شرح نخبة الفكر: ٤٣.

٢ ـ الإتقان ١: ٤٠.

٣ ـ هذا مبنيّ على الخلاف في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد النّبوّة، أهي عشر سنوات أم ثلاث عشرة أم خمس عشرة، وأصحّها أوسطها.

بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة على النّبيّ ﷺ وبه قال الشّعبيّ، وكان صاحب هذا القول ينفي النّزول جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا.

وقد ذهب إلى هذا الرّأي من المتأخّرين الأُستاذ الإمام الشّيخ محمّد عبده في تفسير جزء «عمّ»، فقد نقل كلام الشّعبيّ وقوّاه. وقال: إنّ ما جاء من الآثار الدّالّة على نزوله جملةً واحدةً إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، ممّا لا يصحّ الاعتماد عليه؛ لعدم تواتر خبره عن النّبيّ ﷺ وأنّه لايجوز الأخذ بالظّنّ في عقيدة مثل هذه، وإلّا كان اتّباعاً للظّنّ [1]

وأُعقّب على قول الإمام فأقول: إنّ مسألة نزول القرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا ليست من العقائد الّتي يتحتّم تواتر الأخبار بها، والّتي لابدّ فيها من العلم القطعيّ اليقينيّ، مثل وجود الله وصفاته، ونحو ذلك من العقائد، وإنّما يكفي فيها الأخبار الصّحيحة الّتي تفيد غلبة الظّنّ ورجحان العلم، ثمّ إنّ من قال: إنّ مثل هذه الحقيقة الغيبيّة لابدّ فيها من تواتر الأخبار عن النّبيّ ﷺ إنّ كثيراً من السّمعيّات يكتفي فيها بالأخبار الصّحيحة الّتي تفيد رجحان العلم بما دلّت عليه، وعلى هذا جرى العلماء سلفاً وخلفاً. ثمّ إنّ تأويل الآيات بأنّ المراد ابتداء الإنزال صرف للآيات عن ظواهرها، وقد بيّنت أنّ ظاهر الآيات يشهد للنّزول جملةً واحدةً، والظّواهر لا يعدل عنها إلّا بصارف، وأنّى هو؟

وبعد، فالقول الأوّل هو الرّاجح والصّحيح الّذي تشهد له الآيات والآثار. حكمة هذا النّزول: والحكمة في هذا النّزول أمران؛

١ – تفخيم شأن القرآن وشأن من نزل عليه وشأن من سينزل إليهم، بإعلام سكّان السّماوات من الملائكة، بأنّ هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرّسل لأشرف الأُمم، وهي الأمّة الإسلاميّة، وفي هذا تنويه بشأن المنزل و المنزل عليه والمنزل إليهم.

٢ – تفضيل القرآن الكريم علي غيره من الكتب السّماويّة، بأن جمع الله له النّزولين: النّزول جملةً واحدةً، والنّزول مفرّقاً. وبذلك شارك الكتب السّماويّة في الأُولى، وانفرد في الفضل عليها بالثّانية، وهذا يعود بالتّفضيل لنبيّنا محمّد على سائر إخوانه من الأنبياء ذوي الكتب المنزلة، وأنّ الله جمع له الخصائص ما لغيره وزاد عليها.

---

١ ـ تفسير جزء «عمّ»: ١٢٢ ط بولاق.

النّزول الثّاني

قلنا فيما سبق: إنّ القرآن الكريم نزل جملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر، وهذا هو النّزول الأوّل، وكان النّازل به جبريل عليه السلام، فألقاه على السّفرة الكرام البررة، فقيّدوه في صُحُفهم المكرّمة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[١]، وهم الملائكة المختصّون بذلك.

وقد بقي القرآن محفوظاً في هذه الصّحُف المرفوعة المطهّرة بأيدي هؤلاء الملائكة الكرام البررة، حتّى أذن الله لهذا النّور الإلهيّ أن يسطع في أرجاء الأرض، ولهدايته الرّبّانيّة أن تتدارك النّاس، وتخرجهم من ظلمات الشّرك والجهالة والضّلال إلى نور الإيمان والهدى والعرفان، على يد مخلّص البشريّة، ومنقذ الإنسانيّة سيّدنا ونبيّنا محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله فأنزل عليه القرآن هادياً ومبشّراً ونذيراً للخلق أجمعين؛ ليكون آيته الكبرى، ومعجزته الباقية على وجه الدّهر شاهدة له بالصّدق، وأنّه يوحى إليه من ربّه، و هذا هو النّزول الثّاني للقرآن.

وشواهد هذا النّزول أكثر من أن تحصى؛ قال تعالى شأنه: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ[٢] لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ[٤] مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾[٦]، وقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ

---

١ ـ عبس / ١١ ـ ١٦.

٢ ـ عبّر به للدّلالة على أنّ القلب قد وعاه بعد أن وعته الآذان.

٣ ـ الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٥.

٤ ـ هو جبريل الأمين على الوحي.

٥ ـ النّحل / ١٠٢.

٦ ـ الكهف / ١ ـ ٤.

الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[٢].

والّذي نزل به على النّبيّ ﷺ هو أمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو المقصود بالرّوح الأمين في آية الشّعراء، وبروح القدس في سورة النّحل، وهو الرّسول الكريم ذو القوّة المتين الأمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۞ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[٣] والقول كما ينسب لقائله الأوّل، ينسب لمبلّغه وحامله إلى المرسل إليه. وهو شديد القوى، ذو المرّة في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[٤] وقد جاء النّص على أنّ النّازل بالقرآن هو جبريل في قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾[٥]، والمراد بهم اليهود.

كيف كان هذا النّزول ومدّته؟

وقد نزل جبريل عليه السلام على النّبيّ ﷺ منجّماً مفرّقاً على حسب الوقائع والحوادث وحاجات النّاس ومراعاة للظّروف والملابسات.

وقد اختلف العلماء في مدّة هذا النّزول؛ فقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاث وعشرون سنة، وقيل: خمس وعشرون سنة. ومنشأ هذا الاختلاف إنّما هو اختلاف في مدّة مقامه ﷺ بمكّة؛ فقيل: عشر سنين، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة. وأقربها إلى الحقّ والصّواب هو أوسطها، وهو ثلاث وعشرون سنة، وهذا على سبيل التّقريب، وأبعدها هو آخرها. ولو راعينا التّدقيق والتّحقيق تكون مدّة نزول القرآن اثنين وعشرين سنة

---

١ ـ الفرقان / ١.

٢ ـ البقرة / ٢٣.

٣ ـ التّكوير / ٩ - ٢٢.

٤ ـ النّجم / ٤ - ٧، ومعنى ﴿ذو مِرَّةٍ﴾ ذو هيئة حَسَنَةٍ، وقيل: ذو حصانة في العقل، وإحكام في الرّأي.

٥ ـ البقرة / ٩٧ - ٩٨.

وخمسة أشهر [١] ونصف شهر تقريباً، وبيان ذلك أنّ النّبيّ ﷺ نبّيء على رأس الأربعين من ميلاده الشّريف، وذلك في شهر ربيع الأوّل الثّاني عشر منه، وقد بديء الوحي إليه بالرّؤيا الصّادقة، ومكث على ذلك إلى السّابع عشر من رمضان، وهو اليوم الّذي نزل عليه فيه صدر سورة ﴿إِقْرَأْ﴾ أوّل مانزل من القرآن، وجملة ذلك ستّة أشهر وخمسة أيّام. وآخر آية نزلت من القرآن هي قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ اِلَى اللّٰهِ ثُمَّ تُوَفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مَاكَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [٢]، وقد روي أنّ ذلك قبل وفاة النّبيّ ﷺ بتسعة أيّام، وقيل: بأحد عشر يوماً، وقيل: بواحد وعشرين يوماً. فلو أخذنا بالمتوسّط تكون جملة المدّة الّتي لم ينزل فيها القرآن ستّة أشهر وستّة عشر يوماً.

وجملة عمره ﷺ ثلاثة وستّون عاماً؛ لأنّه توفّي في الثّاني عشر من ربيع الأوّل سنة إحدى عشرة من الهجرة كما عليه الجمهور فتكون مدّة نبوّته ثلاثاً وعشرين سنة، فإذا أنقصنا منها ستّة أشهر وستّة عشر يوماً، يكون الباقي اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر وأربعة عشر يوماً، ﴿اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَٰذاَ وَمَاكُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ اَنْ هَدَانَا اللّٰهُ﴾ [٣]

وقد ذكر بعض الكاتبين في تاريخ التّشريع غير هذا، وقد بنى حسابه على أنّ آخر آية نزلت ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وهو خطأ مشهور، وسنبيّن الحقّ في «آخر ما نزل» فيما يأتي إن شاء الله.

الدّليل على نزول القرآن منجّماً

المعروف الثّابت أنّ القرآن الكريم نزل على النّبيّ ﷺ مفرّقاً، ويدلّ على هذا القرآن والسّنّة الصّحيحة.

أمّا القرآن فقوله تعالى: ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ

---

١ ـ راعيت في هذا التّحديد ما ذهب إليه الجمهور، من أنّه ﷺ ولد في الثّاني عشر ربيع الأوّل عام الفيل، وتوفّي في الثّاني عشر أيضاً من ربيع الأوّل عام إحدى عشرة من الهجرة.

٢ ـ البقرة / ٢٨١.

٣ ـ الأعراف / ٤٣.

تَنْزِيلاً﴾ [١]

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۞ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [٢]، فقد روي أنّ المشركين أو اليهود عابوا على النّبيّ ﷺ نزول القرآن مفرّقاً، وقالوا: هلّا نزل جملةً واحدةً، كما نزلت التّوراة على موسى؟ فأنزل الله سبحانه هذه الآية، حاكية لأقوالهم، ورادّة عليهم ببيان الحكمة في إنزاله مفرّقاً، أي أنزلناه مفرّقاً؛ لنثبّت به فؤادك، ولنرتّله ترتيلاً في خاصّة نفسك، وعلى أصحابك.

أمّا السّنن الصّحيحة فقد ورد فيها ما يدلّ على نزول القرآن منجّماً مفرّقاً ففي الصّحيحين وغيرهما عن عائشة: أنّ أوّل ما نزل صدر سورة ﴿إِقْرَأْ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٣]. وفي الصّحيحين ـ أيضاً – عن جابر: أنّ أوّل مانزل بعد فترة الوحي سورة «المدّثّر» إلى ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [٤]. وكذلك روي عن ابن عبّاس وغيره من الصّحابة القول في تقدّم نزول بعض السّور والآيات على بعض، وبترتيب السّور على حسب النّزول [٥]، إلى غير ذلك من الآثار الّتي لا تدع مجالاً للشّكّ في نزول القرآن الكريم على النّبيّ ﷺ مفرّقاً، وهذه الأحاديث والآثار وإن كانت آحادية إلّا أنّها بمجموعها تفيد التّواتر المعنويّ المفيد للقطع واليقين في هذا.

نزول الكتب السّماويّة السّابقة

أمّا الكتب السّماويّة السّابقة فالمشهور بين العلماء: أنّ ذلك كان جملةً واحدةً، حتّى كاد يكون هذا الرّأي إجماعاً كما قال السّيوطيّ.

والدّليل على ذلك آية الفرقان ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢ – ٣٣.

٣ ـ العلق / ٥.

٤ ـ المدّثّر / ٥.

٥ ـ الإتقان ١: ٩ – ١١.

وَاحِدَةً...﴾ الآية، ووجه الدّلالة أنّ الله سبحانه لم يكذّبهم في دعواهم نزول الكتب السّماويّة جملة، بل بيّن لهم الحكمة في نزوله مفرّقاً، ولو كانت الكتب السّماويّة نزلت مفرّقة، لكان كافياً في الرّدّ عليهم أن يقول لهم: إنّ التّنجيم سنّة الله في الكتب السّماويّة الّتي أُنزلت على الرّسل، كما أجاب بمثل ذلك قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِهٰذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ..﴾[1]، فقال في الرّدّ عليهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشَونَ فِى الْأَسْوَاقِ﴾[2] فبيّن لهم أنّ ذلك سنن الأنبياء والمرسلين، وكذلك لمّا قالوا: ﴿هَلْ هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[3]، فردّ عليهم بأنّ سنّته ألّا يرسل رسلاً من البشر، فقال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِى إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، ولمّا قالوا: كيف يكون رسولاً ولا همّ له إلّا النّساء؟ ردّ عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ و جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾[5]، إلى غير ذلك.

ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى في إنزاله التّوراة على موسى عليه السلام يوم الصّعقة: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[6]، وقوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِين هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ﴾[8]، و المراد بالألواح الألواح الّتي كتبت فيها التّوراة.

---

١ ـ الفرقان / ٧.

٢ ـ الفرقان / ٢٠.

٣ ـ الأنبياء / ٣.

٤ ـ الأنبياء / ٧.

٥ ـ الرّعد/٣٨.

٦ ـ الأعراف / ١٤٤ – ١٤٥.

٧ ـ الأعراف / ١٥٤.

٨ ـ الأعراف / ١٧١.

فهذه الآيات دالّة على إنزاله سبحانه التّوراة على موسى جملةً. وهناك آثار [1] صحيحة عن ابن عبّاس تفيد نزول التّوراة جملة، منها ما أخرجه النّسائي وغيره عن ابن عبّاس في حديث النّتوق: قال: أخذ موسى الألواح بعد ما سكن عنه الغضب، فأمرهم بالّذي أمر الله أن يبلّغهم من الوظائف، فثقلت عليهم، وأبوا أن يقرّوا بها حتّى نتق الله عليهم الجبل كأنّه ظلّة، ودنا منهم حتّى خافوا أن يقع عليهم فأقرّوا بها.

وإذا كانت التّوراة، وهي أعظم الكتب السّماويّة السّابقة، وأكثرها أحكاماً وهداية، وقد ثبت نزولها جملةً واحدةً، فأحرى بغيرها من الكتب السّماويّة - كالإنجيل والزّبور وصُحُف إبراهيم - أن تكون قد نزلت جملةً واحدةً، وآية الفرقان - كما ذكرنا - تدلّ على هذا التّعميم وتؤيّده ...

حِكَم نزول القرآن منجّماً مفرّقاً

لنزول القرآن الكريم علي النّبيّ ﷺ مفرّقاً حكم كثيرة وأسرار عديدة، نجملها فيما يأتي:

الحكمة الأُولى

تثبيت فؤاد النّبيّ ﷺ وتطمين قلبه وخاطره، وهي ما أشار إليها الحقّ - تبارك وتعالى - في ردّه على المشركين أو اليهود؛ حيث قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [2]، وهذه الحكمة من أجلّ الحكم وأعظمها، ولذا ذكرها الله أوّل ما ذكر في الرّدّ على هؤلاء، ويندرج تحت هذه الحكمة:

١ - تثبيت فؤاد النّبيّ وتقوية قلبه وإلهاب حماسه وتسليته، وذلك بسبب تكرّر نزول الوحي وتوالي آياته، وما اشتملت عليه الآيات من أنّ رسالته حقّ لاشكّ فيها، وأنّ العاقبة للمتّقين، والنّصر إنّما هو للأنبياء وأتباعهم، وأنّ الله مؤيّده وناصره. وكان النّبيّ ﷺ

---

١ ـ الإتقان (١: ٤٢).

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

كثيراً ما يتحسّر ويحزن؛ لعدم إيمان قومه، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1].

فكانت تنزّل عليه الآيات مسلّية له، فتارةً تنهاه أن يذهب نفسه عليهم حسرات، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[2].

وتارةً يبيّن له أنّ هدايتهم إنّما هي على الله، وإنّما عليك البلاغ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[4]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[5].

وكان كلّما آذاه قومه ونالوا منه وسفهوا عليه، نزلت الآيات داعية له إلى التّحمّل والصّبر والثّبات عليه، وأنّ العاقبة للصّابرين، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[6]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[7] وقال: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[8].

وتارةً تنزّل الآيات قاصّة على النّبيّ أخبار الأنبياء مع أُممهم، وما لاقوه منهم من عنت ومشقّة، وكيف كان تحمّلهم من أقوامهم، وما آل إليه أمرهم من الفوز والنّصر على الأعداء والمكذّبين، وذلك مثل قصص نوح وإبراهيم ولوط وهود و صالح وموسى، وما لاقاه من بني إسرائيل، وقد ذكر الله هذا في قوله: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[9].

---

١ ـ (بَاخِعٌ نَفْسَكَ): قاتلها غماً وحزناً. الكهف / ٦.

٢ ـ فاطر / ٨

٣ ـ البقرة / ٢٧٢.

٤ ـ القصص / ٥٦.

٥ ـ الرّعد / ٤٠.

٦ ـ الأحقاف / ٣٥.

٧ ـ النّحل / ١٢٧.

٨ ـ هود / ١١٥.

٩ ـ هود / ١٢٠

وحينًا آخر تنزّل الآيات بوعيد المكذّبين للأنبياء والمناهضين لدعوتهم كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[١]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٢]، ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣].

وآونة كانت تنزّل الآيات بالحجج والبراهين مبطلة لعقائدهم الزّائفة، ورادّة عليهم ما يتمسّكون به من شبه واهية، كالآيات الواردة في إثبات الله وصفاته وتوحيده، واستحقاقه للعبادة، وإثبات البعث والحشر، وأحوال اليوم الآخر، وإثبات رسالة الرّسل وحاجة البشر إليهم. وكان من ثمرة هذا التّثبيت أن أبدى النّبيّ غاية الثّبات والشّجاعة، والوثوق بالله تعالى في أحرج المواقف وأشدّها هولاً، ألا ترى إلى قوله للصّدّيق في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾، وإلى ثباته يوم أُحد وحنين يدعو إلى الله وقد فرّ عنه الكثيرون، فما زاده ذلك إلّا إيماناً وثباتاً.

٢ – تيسير حفظه وفهمه على النّبيّ ﷺ فقد كان النّبيّ حريصاً على ذلك غاية الحرص، ولقد بلغ من حرصه أنّه كان لا ينتظر حتّى يفرغ جبريل من قراءته، بل كان يتعجّل القراءة، فأنزل الله عليه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾، وقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[٤]، فضمن الله لنبيّه الحفظ والفهم. وطبيعيّ أنّ نزول القرآن مفرّقاً أدعى إلى سهولة حفظه وفهمه، وأيسر وأوفق بالفطرة البشريّة.

وهذا المعنى الّذي أراده الحقّ سبحانه – فما أراد من حكم لنزول القرآن منجّماً ومفرّقاً قطعاً قطعاً – هو غاية ما وصل إليه أهل التّربية في حفظ النّصوص الطّويلة،

---

١ ـ الأعراف / ٩٧ – ٩٨.

٢ ـ فُصّلت / ١٣.

٣ ـ الأنفال / ٣٨.

٤ ـ القيامة / ١٦ – ١٩.

وتسهيل فهمها. وهذا المعنى التّربويّ ما كان يجول بخاطر بشر في هذا العصر وفي هذه البيئة البدويّة. ممّا يدلّ على أنّ منزّل القرآن على هذه الطّريقة البديعة هو الله العالم بالطّبائع البشريّة والنّفوس وأسرارها.

الحكمة الثّانية

التّدرّج في تربية الأُمّة دينيّاً وخلقيّاً واجتماعيّاً وعلماً وعملاً، وهذه الحكمة هي الّتي أشار إليها الحقّ - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1]، ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتي:

١ - التّدرّج في انتزاع العقائد الفاسدة والعادات الضّارّة والمنكرات الماحقة، فقد بعث النّبيّ ﷺ إلى قوم يعبدون الأصنام، ويشركون بالله غيره، ويسفكون الدّماء، ويشربون الخمر، ويزنون، ويغتصبون الأموال، ويئدون البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر، ويظلمون النّساء، ويتزوّجون نساء الآباء، ويجمعون بين الأُختين، كما كانوا يتظالمون، وتقع بينهم الحروب لأوهى الأسباب، كناقة رعت من حمىً، أو سبق فرس، أو نحو ذلك. وكانت الحروب تدوم بينهم عشرات الأعوام حتّى تأكل الأخضر واليابس، وكان التّكافل والتّعاون بينهم يكاد يكون معدوماً، فلا تراحم بين الأغنياء والفقراء ولا بين السّادة والعبيد، ولا بين الأقوياء والضّعفاء.

ومعلوم أنّ النّفس يشقّ عليها ترك ما تعوّدته مرّةً واحدةً، وشديد عادة منتزعة، والإقلاع عمّا اعتقدته بمجرّد النّهي عنه؛ لأنّ للعقائد - حتّى ولو كانت باطلة، وللعادات ولو كانت مستهجنة - سلطاناً على النّفوس، والنّاس أُسراء ما ألِفوا ونشأوا عليه، فلو أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً، وطالبهم بالتّخلّي عمّاهم منغمسون في حمأته من كفر وجهل ومنكرات مرّةً واحدة، لما استجاب إليه أحد، ولما وفّق الرّسول في أداء مهمّته، ولعاد ذلك بالنّقض على الشّريعة الجديدة.

لذلك اقتضت حكمة الله سبحانه - ولله الحكمة البالغة - أن يتدرّج معهم في انتزاع هذه العقائد والمنكرات، فينهاهم عن عبادة غير الله، فإذا ما أقلعوا عنه، أخذ في النّهي عن

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦

منكر غيره وهكذا.

وكذلك كان القرآن يتدرّج معهم في انتزاع المنكر الواحد، كما حدث في تحريم الخمر، فقد نزل فيها أوّل ما نزل: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[١]، فشربها قوم وتركها آخرون... فمن ثمّ اقتضت الحكمة نزول القرآن مفرّقاً.

٢ - التّدرّج في تثبيت العقائد الصّحيحة، والأحكام التّعبديّة والعمليّة والآداب والأخلاق الفاضلة، فأمرهم أوّلاً بالإيمان باللّه وصفاته وعبادته وحده، حتّى إذا ما آمنوا باللّه دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر، ثمّ بالإيمان بالرّسل والملائكة. حتّى إذا ما اطمأنّت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبّه، سهل عليهم بعد ذلك تقبّل الأوامر والتّشريعات التّفصيليّة، والأحكام العمليّة والفضائل والآداب العالية، فأُمروا بالصّلاة والصّدق والعفاف، ثمّ أُمروا بالزّكاة ثمّ بالصّوم ثمّ بالحجّ. وبيّن لهم أحكام النّكاح والطّلاق والرّجعة والمعاملات من بيع وشراء وتجارة وزراعة ودين ورهن إلى غير ذلك من المعاملات الصّحيحة منها وغير الصّحيحة.

ولذلك كان مدار الآيات في القسم المكّيّ على إثبات العقائد والفضائل الّتي لاتختلف باختلاف الشّرائع، بخلاف القسم المدنيّ، فكان مدار التّشريعات فيه على الأحكام العمليّة وتفصيل ما أُجمل قبل ذلك.

[ثمّ ذكر رواية عايشة نقلًا عن البخاريّ كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:]

ولا شكّ أنّ من طبيعة التّدرّج نزول آيات القرآن وسوره بعضها في إثر بعض، وقد دلّ القرآن بهذه السّياسة الرّشيدة في إصلاح الشّعوب وتهذيبها على أنّه معجز وأنّه من عند الله، فما كان لبشر - مهما كان ذكيّاً - أن يتوصّل إلى هذه الطّرق الحكيمة في ذلك الوقت الّذي بعث فيه النّبيّ ﷺ، وإنّما ذلك من صنع الحكيم العليم الخبير.

٣ - تيسير حفظه وفهمه على الأُمّة، فقد أوجب الله على المسلمين حفظ ألفاظه كما أوجب عليهم فهم معانيه؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ

---

١ ـ البقرة / ٢١٩.

أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[١]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٢].

وقد ابتلي المسلمون في مكّة بالمشركين، كما ابتلوا في المدينة باليهود والمنافقين، هذا إلى اشتغالهم بأُمور معايشهم، وبإقامة الدّين، ونشر الإسلام والدّفاع عن دعوته، فلو نزل القرآن مرّةً واحدةً لما أمكنهم حفظه ولا فهمه مع وجود هذه الملابسات والظّروف المحيطة بهم.

لذلك اقتضت حكمته أن ينزل القرآن مفرّقاً، حتّى إذا ما نزلت قطعة منه أمكنهم أن يحفظوها ويجيدوا فهمها.

٤ – تثبيت قلوب المؤمنين، وتعويدهم على الصّبر والتّحمّل بذكر قصص الأنبياء والسّابقين الفينة بعد الفينة، وتذكيرهم بأنّ النّصر مع الثّبات والصّبر، وأنّ العاقبة للمتّقين، والخذلان والخسران للكافرين، إقرأ – إن شئت – قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[٣]. فقد ذكر عطاء أنّ المسلمين لمّا هاجروا إلى المدينة، وتركوا الأهل والوطن والمال، وآثروا رضاء الله ورسوله، وتعرّضوا لألوان من الإيذاء والجهد والفقر والمرض، ومعاداة اليهود والمنافقين لهم، شقّ ذلك على نفوسهم، فأنزل الله هذه الآية.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٥].

بل اقرأ هذا الوعد الّذي يستحثّ الهمم، ويقوّي العزائم: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

---

١ ـ ص / ٢٩.

٢ ـ محمّد / ٢٤.

٣ ـ البقرة / ٢١٤.

٤ ـ آل عمران / ١٤٢.

٥ ـ العنكبوت / ٢ – ٣.

دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ اَمْناً يَعْبُدُونَنى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً﴾[1].

وطبيعيّ أنّ دواعي هذا التّذكير والإرشاد والتّوجيه لم تكن في وقت واحد، بل كانت في أزمنة متعدّدة متفاوتة، فاقتضى ذلك نزول القرآن مفرّقاً على حسب ذلك.

الحكمة الثّالثة

مجاراة الحوادث والنّوازل والأحوال والملابسات في تفرّقها وتجدّدها، وهذه الحكمة هي الّتي أشارت إليها الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَاَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[2]. ويندرج تحت هذه الحكمة ما يأتي:

١ – بيان حكم الله سبحانه وتعالى في الأقضية والوقائع الّتي تحدث بين المسلمين، فقد اقتضت رحمة الله بعباده أنّه كلّما وقعت واقعة لم يكن حكمها معروفاً عند المسلمين أن تنزّل الآية أو الآيات عقبها مبيّنة حكم الله فيها، ومثال ذلك حادثة الإفك، وهي قوله تعالى: ﴿اِنَّ الَّذِينَ جَاؤُا بِالْاِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْاِثْمِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَاَنَّ اللّٰهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[3].

ومثل حادثة خولة بنت ثَعْلبة الّتي ظاهر منها زوجها أوس بن الصّامِت، أي قال لها: أنت عليّ كظهر أُمّي، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ وتقول: إنّ أوساً أخذني وأنا شابّة مرغوب فيّ، حتّى كبر سنّي ونثرت[4] له بطني ظاهر منّي، وأنّ لي أولاداً إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا فقال رسول الله ﷺ «ما أراك إلّا قد حرمت عليه، ولم أومر في شأنك بشيء». فجعلت تجادل رسول الله وتحاوره، رغبة منها أن يجد لها مخرجاً في عشرة زوجها، فأنزل الله سبحانه أوّل سورة المجادلة ببيان حكم الظّهار في الإسلام: ﴿قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى اِلَى اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا اِنَّ

---

١ ـ النّور / ٥٥.

٢ ـ الفرقان / ٣٣.

٣ ـ النّور / ١١ – ٢٠.

٤ ـ أي أنجبت له أولاداً، وهو من الكنايات البديعة.

اللّٰهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللّٰه وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾[١]، وغير ذينك كثير. وطبيعيّ، أنّ الحوادث لم تكن تقع في وقت واحد، فنزل القرآن في هذه الحوادث مفرّقاً لذلك.

٢ – إجابات السّائلين على أسئلتهم الّتي كانوا يوجّهونها إلى النّبيّ ﷺ، سواء أكانت هذه الأسئلة لغرض التّثبّت وللتّأكّد من رسالته، أم كانت للاسترشاد والمعرفة.

ومن النّوع الأوّل قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ اَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ اِلَّا قَلِيلاً﴾[٢]، وقوله: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَاَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً...﴾ الآيات[٣].

ومن الثّاني: قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْاَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[٤]، وقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا اَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْاَقْرَبِينَ...﴾ الآية[٥].

وقوله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾ الآية[٦].

وطبيعيّ أنّ هذه الأسئلة لم تكن في وقت واحد، بل كانت تحدث متفرّقة، فكان نزول القرآن مفرّقاً لذلك.

٣ – تنبيه المسلمين من وقت لآخر إلى أخطائهم وأغلاطهم، وتحذيرهم من معاودتها والوقوع فيها، وذلك مثل ما حدث في أُحُد، فقد خالف الرّماة نصيحة رسول‌الله ﷺ متأوّلين، فكانت النّتيجة أن أُتي المسلمون من جهتهم، وأن شاعت الهزيمة بينهم، وشجّ وجه النّبيّ، وكسرت رباعيّته، واستشهد منهم عدد كثير، فأنزل الله في ذلك آيات عدّة، مسجّلة الأغلاظ، ومحذّرة لهم من المخالفة والفرار عند اللّقاء. اقرأ – إن شئت – قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعْدَهُ اِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِاِذْنِهِ حَتَّى اِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى

---

١ ـ المجادلة / ١ – ٤.

٢ ـ الإسراء / ٨٥.

٣ ـ الكهف / ٨٣ وما بعدها.

٤ ـ البقرة / ١٨٩.

٥ ـ البقرة / ٢١٥.

٦ ـ البقرة / ٢١٩.

الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا اَرِيكُمْ مَا تُحِبُّونَ...﴾الآيات[١].

ومثل ما حدث في حُنين، فقد اغترّ المسلمون بكثرتهم، حتّى قال قائل في هذا اليوم: لن نهزم من قلّة. ولم يعتمدوا على الله حقّ الاعتماد في طلب النّصر، فكانوا أن منوا بالهزيمة أوّلاً، ولو لا تدارك الله تعالى لهم برحمته:، وثبات النّبيّ ﷺ وحوله فئة قليلة من أبطال أصحابه، وإنزال الملائكة مثبّتة لقلوبهم ومقوّية لروحهم لكانت الهزيمة. اقرأ معي قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِى مَواطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ اِذْ اَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً﴾، إلى قوله: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢]

وقد كانت حُنين درساً، تعلّم منه المسلمون أنّ النّصر ليس بالعدد والعدّة فحسب، وإنّما هو من عند الله، وأنّ الاغترار ليس من خلق المسلم، وأنّ الأسباب العادية لا ينبغي أن تشغل المسلم عن اللّجوء إلى الله: ﴿وَمَا النَّصْرُ اِلَّا مِنْ عِنْدِ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٣] ومثل ما حدث من حاطب بن أبي بَلْتَعة قُبيل الفتح،فقد كان رسول‌الله حريصاً على أن تتمّ غزوة الفتح في سرّيّة تامّة، ولكنّ حاطباً كان له أهل في مكّة وكانوا ضعفاء، فأحبّ أن تكون لهم يد على قريش؛ كي يكرموا أهله، فأرسل إلى قريش رسالة في السّرّ بخبر الغزوة، ولكنّ الوحي نزل مخبراً لرسول الله، فأرسل من أحضر الرّسالة، وقد حاول بعض الصّحابة قتله زاعمًا أنّه بعمله صار منافقاً، ولكنّ الرّسول ﷺ لمّا استمع إلى وجهة نظره وعلم صدقه عفا عنه، فأنزل الله في ذلك آيات وهو قوله تعالى: ﴿يَا ءَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ اَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ اِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ...﴾ الآيات[٤].

ومعلوم أنّ هذه الأغلاط لم تقع في وقت واحد، فكان نزول القرآن مفرّقاً لذلك.

٤ – تحذير المسلمين من المنافقين، والكشف عن خبيئة نفوسهم، فقد كانوا بحكم تظاهرهم بالإسلام يختلطون بالمسلمين، ويطّلعون على أسرارهم وأحوالهم فينقلونها إلى

---

١ ـ آل عمران: ١٥٢ وما بعدها.

٢ ـ التّوبة / ٢٥ – ٢٧.

٣ ـ آل عمران / ١٢٦.

٤ ـ الممتحنة / ١ وما بعدها.

الأعداء، أو يرجفون بها في المدينة، فكان ضرر هؤلاء المخالطين المداجين على المسلمين أشدّ من ضرر الأعداء المكاشفين، فلا عجب أن كشف الله أستارهم، وشنّع عليهم أشدّ التّشنيع في كثير من الآيات، فقد كان لهم بالمرصاد، فكلّما بيّتوا أمراً أطلع الله عليه رسوله والمؤمنين، أو كادوا مكيدة ردّها الله في نحورهم، أو أخفوا قولاً أظهره الله.

وطبيعيّ أنّ هذه الأمور المبيّتة، والمكايد المدبّرة، والأقوال السّيّئة الّتي كانت تصدر عنهم لم تكن في وقت واحد، بل كانت في أزمنة متفرّقة، فمن ثمّ جاء القرآن مفرّقاً.

وإن شئت أمثلة لما كان يفعله المنافقون ويقولونه، وإظهار الله لحالهم، فاقرأ معي قول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ...﴾ الآيتين[2].

وقد أنزل الله في شأنهم سورة بتمامها، وهي سورة المنافقين كما ذكر الكثير من أحوالهم في سورة التّوبة. وما زال الله سبحانه يقول في هذه السّورة: ﴿وَمِنْهُمْ... وَمِنْهُمْ...﴾ حتّى فضحهم أشدّ فضيحة، وجعلهم مثلاً لسوء الطّباع والأخلاق والنّذالة والدّسّ والوقيعة في الأوّلين والآخرين.

الحكمة الرّابعة

بيان إعجاز القرآن الكريم على أبلغ وجه وآكده؛ لأنّ القرآن لو نزل جملةً واحدةً لقالوا: شيء جاءنا مرّةً واحدةً، فلا نستطيع أن نعارضه، ولو أنّه جاءنا قطعاً قطعاً لعارضناه، فأراد ربّك أن يقطع عليهم دابر المعذرة والتّعلّل، فأنزله مفرّقاً.

وكأنّ الله سبحانه يقول لهم بعد نزول قطعة منه: إن كنتم ترتابون في أنّ هذا المنزل على هذا الموضع من عندالله، فأتوا أنتم بقطعة مشابهة له.

وقد ذكرنا سابقاً أنّ الله تحدّى النّاس كافّة بالقرآن على مراتب متعدّدة؛ كي تقوم عليهم الحجّة تلو الحجّة، ولو أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً لما أمكن تكرّر التّحدّي في

---

١ ـ البقرة / ٨ ـ ٢٠.

٢ ـ النّساء / ١٤٢ ـ ١٤٣.

المرّة بعد المرّة، وثبوت عجزهم المرّة تلو المرّة.

وهكذ يتبيّن لنا أنّ القرآن بنزوله منجّماً قد أعطاهم بعد كلّ نجم فرصة يعارضون فيها، فإذا ما عجزوا كان ذلك أدلّ على الإعجاز، وأقطع للمعذرة.

وأيضاً فالقرآن على نزوله مفرّقاً، وتباعد ما بين أزمان النّزول يكون سلسلة ذهبيّة مترابطة الحلقات، متآخية الفقرات، منسجمة الشّكل، لا تنبو كلمة عن كلمة، ولا تنفر آية من آية، بل كلّه في غاية الفصاحة والبلاغة والإحكام، ولا يسمُو بأُسلوبه في بعض الآيات، وينزل في البعض الآخر، ولا تنبل الغاية والمقصد في بعض الآيات، وتسفّ في البعض الآخر، ممّا يدلّ أعظم الدّلالة على أنّه ليس من عند بشر.

ولو أنّك نظرت في مؤلّفات أديب من الأُدباء مهما بلغ، فإنّك لا شكّ واجد تفاوتاً بيّناً بين ماألّفه في أوّل حياته، وماألّفه في آخر حياته، سواء أكان في لفظه ومعانيه، أم في أغراضه ومراميه، أم في أُسلوبه وتفكيره.

وإذا كان القرآن لم يأت على غرار ما يصنع البشر، فقد تعيّن أن يكون من عند الله خالق القُوى والقَدَر.

هذا وليست هذه نهاية الحُكم، فهناك لمن أحكم النّظر، وأجال البصر حُكمٌ وحِكمٌ.

تتمّة

الّذي استقرىء من الأحاديث الصّحيحة وغيرها، أنّ القرآن كان ينزل به جبريل على النّبيّ ﷺ بحسب الحاجة: خمس آيات، وعشر آيات، وأكثر أو أقلّ.

وقد صحّ نزول العشر الآيات في قصّة الإفك جملة، وصحّ نزول عشر آيات من أوّل سورة المؤمنون جملة، وصحّ نزول ﴿غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ﴾ وحدها في قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُوْلِى الضَّرَرِ والْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِـاَمْوَالِـهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ﴾[1] وكذلك قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ اِنْ شَاءَ اِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]، نزل بعد أن نزل أوّل الآية،كما حرّره الإمام السّيوطيّ في «أسباب

١ ـ النّساء / ٩٥.

٢ ـ التّوبة / ٢٨.

النّزول»، وقد ورد في بعض الآثار نزول بعض السّور جملةً واحدةً كسورة الإخلاص والكوثر والمرسلات.

[ثمّ ذكر رواية البَيهَقيّ بسنده عن عمر، ورواية ابن عَساكِر من طريق أبي نَضرة، كما تقدّم عن السّيوطيّ، فقال:] فإنّ المراد – إن صحّ – إلقاؤه إلى النّبيّ ﷺ هذا القدر حتّى يحفظه، ثمّ يلقى إليه الباقي، لا إنزاله بهذا القدر خاصّة.

ويشهد لهذا التّفسير ما أخرجه البَيهَقيّ عن أبي العالية، قال: تعلّموا القرآن خمس آيات خمس آيات، فإنّ النّبيّ ﷺ كان يأخذ من جبريل خمساً خمساً. ويصحّ أن يراد به أنّ ذلك هو الغالب الكثير، فلا ينافي حصول الوحي بأكثر أو أقلّ.

وما كان لنا – وقد تكلمّنا عن إنزال القرآن – أن نغفل الكلام عن الوحي، إذ الإنزال متوقّف على معرفة معنى الوحي وكيفيّته، وإمكانه ووقوعه. (ص: ٤٦ ـ ٨٣)

الفصل الخامس والسّتّون

نصّ الدّكتور خَليفة في كتابه: «مع نزول القرآن»

كيفيّة إنزاله

أنزل الله القرآن على نبيّه محمّد ﷺ مفرّقاً؛ ليثبّت به فؤاده ويقوّيه، ويحفظه ويعيه؛ لأنّه كان أُمّيّاً، وتنزيله منجّماً ييسّر على النّاس تلقّي ما جاء فيه من أحكامٍ وفرائضٍ وأوامرٍ ونواهٍ على أزمان مختلفة، حتّى لا تضيق قلوبهم به، أو ينفروا من فرائضه إذا جاءتهم جملة؛ قال تعالى يحكي موقف الكفّار من نزوله منجّماً ويتولّى الرّدّ عليهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1]، أي أنزلناه كذلك لنثبّت به فؤادك، وفسّر بعضهم تثبيت الفؤاد بالحفظ. أمّا التّوراة فقد أنزلها الله جملةً واحدةً يوم الصّعقة، وذلك ما قصّه الله في القرآن بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[2]

وفي كيفيّة إنزال القرآن ثلاثة أقوال

أوّلها: أنّه نزل إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر جملةً واحدةً، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الأعراف / ١٤٥.

عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين سنة، وذلك حسب الخلاف في المدّة الّتي قضاها الرّسول ﷺ بمكّة بعد بعثته، وقد روي ذلك عن الحاكم والبَيهَقيّ، وانتهى إلى ابن عبّاس، حيث قال: أُنزل القرآن في ليلة القدر جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا، وكان الله ينزله على رسوله بعضه في إثر بعض.

ويؤيّد ذلك من القرآن ظاهر الآيات في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1] ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2] و ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[3] وهذا القول أشهر الأقوال.

ثانيها: أنّه نزل إلى سماء الدّنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة قدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في كلّ السّنة، أي أنّ الله أنزل في أوّل ليلة قدر إلى السّماء الدّنيا ما قدّر أن يُنزِله في تلك السّنة، ثمّ يُنزِل ما قدّر نزوله في تلك السّنة موزّعاًعلى السّنة، حسب الأسئلة أو الوقائع الّتي قدّر لها أن تكون في تلك السّنة، ثمّ في ليلة القدر من العام الثّاني ماقدّر له أن ينزّله، ثمّ ينزّله موزّعاً، وهكذا حتّى تمّ إنزاله في السّنوات الّتي بيّنّاها.

ثالثها: أنّه ابتدىء إنزاله في ليلة القدر أوّل ما ابتدىء، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة من سائر السّنوات الّتي نزل فيها. وإنزاله منجّماً في مدّة بعثته ﷺ ليس موضع خلاف؛ لأنّه يمثّل الواقع ويؤيّده أنّ الرّسول كلّمانزلت عليه آية أملاها على كُتّاب وحيه، وقال لهم: «ضعوها بعد آية كذا، في سورة كذا»، وهذا دليل على تنجيم القرآن حسب الوقائع والأسئلة وغيرهما. أمّا كونه نزل من عند الله جملة فذلك موضع الخلاف، فرأيٌ يرى أنّه نزل جملةً إلى السّماء الدّنيا في ليلة واحدة، ورأيٌ يرى أنّه نزل إلى السّماء الدّنيا منجّماً في عشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين ليلة قدر،ورأيٌ يرى أنّه ابتدىء نزوله في ليلة القدر، ثمّ توالى نزوله منجّماً في مدّة بعثته وذلك الرّأي يرى أنّه نزل

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الدّخان / ١.

مفرّقاً فلم ينزل جملةً واحدةً كما في الرّأي الأوّل والرّأي الثّاني أنّه نزل مفرّقاً في عشرين مرّة أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين، ثمّ كان تنجيمه خلال تلك السّنوات.

والأمر المتّفق عليه أنّ النّزول كان في رمضان بنصّ القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ﴾، وبظاهر الآية أخذ أصحاب الرّأي الأوّل في نزوله جملة، وفسّر أصحاب الرّأي الثّاني الآية بأنّه في كلّ شهر رمضان نزل القرآن الّذي سينزّله الله منجّماً خلال العام، وفسّر أصحاب الرّأي الثّالث شهر رمضان الّذي ابتدىء فيه نزول القرآن.

وليس القرآن وحده الّذي نزل في رمضان، بل الكتب السّماويّة نزلت في رمضان، وقد روي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «أُنزلت التّوراة لستّ مضين من رمضان... [وذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ وغيره]. (١٢ ـ ٢٤)

الفصل السّادس والسّتّون

نصّ القَطّان في كتابه: «مباحث في علوم القرآن»

نزول القرآن

أنزل الله القرآن على رسولنا محمّد ﷺ لهداية البشريّة، فكان نزوله حدثاً جللاً يؤذن بمكانته لدى أهل السّماء وأهل الأرض، فإنزاله الأوّل – في ليلة القدر – أشعر العالم العِلْويّ من ملائكة الله بشرف الأُمّة المحمّديّة الّتي أكرمها الله بهذه الرّسالة الجديدة؛ لتكون خير أُمّة أُخرجت للنّاس، وتنزيله الثّاني – مفرّقاً على خلاف المعهود في إنزال الكتب السّماوية قبله – أثار الدّهشة الّتي حملت القوم على المماراة فيه، حتّى أسفر لهم صبح الحقيقة فيما وراء ذلك من أسرار الحكمة الإلهيّة، فلم يكن الرّسول ﷺ ليتلقّى الرّسالة العُظمى جملةً واحدةً، ويقنع بها القوم مع ما هم عليه من صلف وعناد، فكان الوحي يتنزّل عليه تباعاً تثبيتاً لقلبه وتسلية له، وتدرّجاً مع الأحداث والوقائع، حتّى أكمل الله الدّين وأتمّ النّعمة.

نزول القرآن جملةً

يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[١]، ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، ويقول: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾[٣].

ولا تعارض بين هذه الآيات الثّلاث، فاللّيلة المباركة هي ليلة القدر من شهر رمضان، إنّما يتعارض ظاهرها مع الواقع العمليّ في حياة رسول‌الله ﷺ حيث نزل القرآن عليه في ثلاث وعشرين سنة، وللعلماء في هذا مذهبان أساسيّان:

١ – المذهب الأوّل: وهو الّذي قال به ابن عبّاس وجماعة وعليه جمهور العلماء، أنّ المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثّلاث نزوله جملةً واحدةً إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا تعظيماً لشأنه عند ملائكته، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً على رسولنا محمّد ﷺ في ثلاث وعشرين سنة[٤]، حسب الوقائع والأحداث منذ بعثته إلى أن تُوفّي صلوات الله وسلامه عليه حيث أقام في مكّة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات، فعن ابن عبّاس قال: بعث رسول‌الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكّة ثلاث عشرة سنة يوحىٰ إليه، ثمّ أمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستّين[٥].

وهذا المذهب هو الّذي جاءت به الأخبار الصّحيحة عن ابن عبّاس في عدّة روايات.

[ثمّ ذكر أربع روايات عنه، نقلاً عن الحاكِم والبَيْهقيّ والطَّبَرانيّ، كما تقدّم عن الطَّبَريّ وأبي شامَة والسُّيوطيّ].

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الدّخان / ٣.

٤ ـ وقدر بعض العلماء مدّة نزول القرآن بعشرين سنة، وبعضهم بخمس وعشرين سنة؛ لاختلافهم في مدّة إقامته ﷺ بعد البعثة بمكّة، أكانت ثلاث عشرة سنة، أم عشر سنين أم خمس عشرة سنة؟ مع اتّفاقهم على أنّ إقامته بالمدينة بعد الهجرة عشر سنوات، والصّواب الأوّل، انظر الإتقان ١: ٣٩.

٥ ـ رواه البُخاريّ.

٢ – المذهب الثّاني: وهو الّذي روي عن الشّعبيّ، أنّ المراد بنزول القرآن في الآيات الثّلاث ابتداء نزوله على رسول‌الله ﷺ فقد ابتدأ نزوله في ليلة القدر من شهر رمضان، وهي اللّيلة المباركة، ثمّ تتابع نزوله بعد ذلك متدرّجاً مع الوقائع والأحداث في قرابة ثلاث وعشرين سنة، فليس للقرآن سوى نزول واحد هو نزوله منجّماً على رسول الله ﷺ؛ لأنّ هذا هو الّذي جاء به القرآن، ﴿وَقُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1]، وحاول فيه المشركون الّذين نقل إليهم نزول الكتب السّماوية السّابقة جملةً واحدةً، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[2]. ولا يظهر للبشر مزيّة لشهر رمضان وليلة القدر الّتي هي ليلة المباركة، إلّا إذا كان المراد بالآيات الثّلاث نزول القرآن على رسول‌الله ﷺ وهذا يوافق ما جاء في قوله تعالى بغزوة بدر: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾[3]، وقد كانت غزوة بدر في رمضان. ويؤيّد هذا ما عليه المحقّقون في حديث بدء الوحي، عن عائشة قالت: أوّل ما بدىء به رسول‌الله ﷺ عن الوحي... [وذكركما تقدّم عن البُخاريّ].

فإنّ المحقّقين من الشُّرّاح على أنّ الرّسول ﷺ نُبِّىء أوّلاً بالرّؤيا في شهر مولده شهر ربيع الأوّل، ثمّ كانت مدّتها ستّة أشهر ثمّ أوحي إليه يقظة في شهر رمضان بـ﴿اقْرَأْ﴾، وبهذا تتآزر النّصوص على معنى واحد.

٣ – وهناك مذهب ثالث: يرىٰ أنّ القرآن أُنزل إلى السّماء الدّنيا في ثلاث وعشرين ليلة قدر، في كلّ ليلة منها ما يقدّر الله إنزاله في كلّ السّنة، وهذا القدر الّذي ينزل في ليلة القدر إلى السّماء الدّنيا لسنة كاملة، ينزل بعد ذلك منجّماً على رسول‌الله ﷺ في جميع السّنة. وهذا المذهب اجتهاد من بعض المفسّرين، ولا دليل عليه.

أمّا المذهب الثّاني الّذي روي عن الشّعبيّ فأدلّته – مع صحّتها والتّسليم بها –

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢ – ٣٣.

٣ ـ الأنفال / ٤١.

لاتتعارض مع المذهب الأوّل الّذي روي عن ابن عبّاس. فالرّاجح أنّ القرآن الكـريم له تنزلّان:

الأوّل: نزوله جملةً واحدةً في ليلة القدر إلى بيت العزّة من السّماء الدّنيا.

والثّاني: نزوله من السّماء الدّنيا إلى الأرض مفرّقاً في ثلاث وعشرين سنة.

وقد نقل القُرطُبيّ عن مُقاتِل بن حَيّان حكاية الإجماع على نزول القـرآن جـملةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا. ونفى ابن عبّاس التّعارض بين الآيات الثّلاث في نزول القرآن والواقع العلميّ في حياة الرّسول ﷺ بنزول القرآن في ثلاث وعشرين سنة بغير شهر رمضان، عن ابن عبّاس أنّه سأله عطيّة بن الأسود فقال...

[و ذكر كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ ذكر قول السّيوطيّ في سرّ إنزال القرآن وقول السّخاويّ كما تقدّم عن أبي شامَة].

نزول القرآن منجّماً

يقول تعالى في التّنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

ويقول: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرٰى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2].

ويقول: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّٰهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[3].

ويقول: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[4].

ويقول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلٰى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللّٰهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٢ - ١٩٥.

٢ ـ النّحل / ١٠٢.

٣ ـ الجاثية / ٢.

٤ ـ البقرة / ٢٣.

يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

فهذه الآيات ناطقة بأنّ القرآن الكريم كلام الله بألفاظه العربيّة، وأنّ جبريل نزل به على قلب رسول‌الله ﷺ وأنّ هذا النّزول غير النّزول الأوّل إلى سماء الدّنيا، فالمراد بـه نزوله منجّماً، ويدلّ التّعبير بلفظ التّنزيل دون الإنزال على أنّ المقصود النّزول على سبيل التّدرّج والتّنجيم، فإنّ علماء اللّغة يفرّقون بين الإنزال والتّنزيل، فالتّنزيل لما نزل مفرّقاً، والإنزال أعمّ[٢].

وقد نزل القرآن منجّماً في ثلاث وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة بمكّة على الرّأي الرّاجح، وعشر بالمدينة، وجاء التّصريح بنزوله مفرّقاً في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[٣]، أي جعلنا نزوله مفرّقاً كي تقرأه على النّاس على مَهل وتثبُّت، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ بحسب الوقائع والأحداث.

أمّا الكُتُب السّماويّة الأُخرى – كالتّوراة والإنجيل والزّبور – فكان نزولها جـملةً، ولم تنزّل مفرّقةً، يدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[٤] فهذه الآية دليل على أنّ الكُتُب السّماويّة السّابقة نزلت جملةً، وهو ما عليه جمهور العلماء، ولو كان نزولها مفرّقاً لما كان هناك ما يدعو الكفّار إلى التّعجّب من نزول القرآن منجّماً، فمعنى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، هلاّ أُنزل عليه القرآن دفعةً واحدةً كسائر الكُـتُب؟ ومـا له أُنـزل عـلى التّنجيم؟ ولِمَ أُنزل مفرّقاً؟ ولم يرد الله عليهم بأنّ هذه سنته في إنزال الكُتُب السّماويّة كلّها، كما ردّ عليهم في قولهم: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٥] بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾[٦]

---

١ ـ البقرة / ٩٧.

٢ ـ مفردات الرّاغب.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

٥ ـ الفرقان / ٧.

٦ ـ الفرقان / ٢٠.

وكما ردّ عليهم في قولهم: ﴿ اَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾ بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِى الْاَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [1] وقوله: ﴿ وَمَا اَرْسَلْنَا قَبْلَكَ اِلَّا رِجَالاً نُوحِى اِلَيْهِمْ﴾ [2] بل أجابهم الله تعالى ببيان وجه الحكمة في تنزيل القرآن منجّماً بقوله : ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي كذلك أُنزل مفرّقاً لحكمة هي تقوية قلب رسول‌الله. ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، أي قدّرناه آية بعد آية بعضه إثر بعض، أو بيّنّاه تبييناً، فإنّ إنزاله مفرّقاً حسب الحوادث أقرب إلى الحفظ والفهم، وذلك من أعظم أسباب التّثبيت.

والّذي استقرىء من الأحاديث الصّحيحة أنّ القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقلّ، وقدصحّ نزول العشر آيات في قصّة الإفك جملة، وصحّ نزول عشر آيات في أوّل المؤمنين جملة، وصحّ نزول ﴿غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ﴾ وحدها، وهي بعض آية [3].

حكمة نزول القرآن منجّماً

نستطيع أن نستخلص حكمة نزول القرآن الكريم منجّماً من النّصوص الواردة في ذلك، ونجملها فيما يأتي:

١ – الحكمة الأُولى: تثبيت فؤاد رسول‌الله ﷺ

لقد وجّه رسول‌الله ﷺ دعوته إلى النّاس، فوجد منهم نفوراً وقسوة، وتصدّى له قوم غلاظ الأكباد فطروا على الجفوة، وجبلوا على العناد، يتعرّضون له بصنوف الأذى والعنت، مع رغبته الصّادقة في إبلاغهم الخير الّذي يحمله إليهم، حتّى قال الله فيه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلٰى اٰثَارِهِمْ اِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ اَسَفاً﴾ [4]، فكان الوحي يتنزّل على رسول‌الله ﷺ فترة بعد فترة، بما يثبّت قلبه على الحقّ، ويشحذ عزمه للمضيّ قدماً في طريق دعوته، لايبالي بظلمات الجهالة الّتي يواجهها من قومه، فإنّها سحابة صيف عمّا

---

١ ـ الإسراء / ٩٥.

٢ ـ الأنبياء / ٧.

٣ ـ الإتقان / ١: ٤٢.

٤ ـ الكهف / ٦.

قريب تقشّع.

يبيّن الله له سنّته في الأنبياء السّابقين الّذين كُذّبوا وأُوذوا فصبروا حتّى جاءهم نصر الله، وأنّ قومه لم يكذّبوه إلّا علوّاً واستكباراً، فيجد عليه ﷺ في ذلك السّنّة الإلهيّة في موكب النّبوّة عبر التّاريخ الّتي يتأسّى بها تسلية له إزاء أذىٰ قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه، ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾[١]، ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾[٢].

ويأمره القرآن بالصّبر كما صبر الرّسل من قبله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٣].

ويطمئنّ نفسه بما تكفّل الله به من كفايته أمر المكذّبين: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾[٤].

وهذا هو ما جاء في حكمة قصص الأنبياء بالقرآن: ﴿وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[٥].

وكلّما اشتدّ ألم رسول الله ﷺ لتكذيب قومه، وداخله الحزن لأذاهم نزل القرآن دعماً وتسلية له، يهدّد المكذّبين بأنّ الله يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ما كان منهم: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[٦]. ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٧]

---

١ ـ الأنعام / ٣٣ ـ ٣٤.

٢ ـ آل عمران / ١٨٤.

٣ ـ الأحقاف / ٣٥.

٤ ـ المزّمل / ١٠ ـ ١١.

٥ ـ هود / ١٢٠.

٦ ـ يونس / ٧٥.

٧ ـ يونس / ٦٥.

كما يبشّره الله تعالى بآيات المنعة والغلبة والنّصر: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّـاسِ﴾[١]، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزًا﴾[٢]، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

وهكذا كانت آيات القرآن تتنزّل على رسول‌الله ﷺ تباعاً تسلية له بعد تسلية، وعزاء بعد عزاء، حتّى لا يأخذ منه الحزن مأخذه، ولا يستبدّ به الأسى، ولا يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً، فله في قصص الأنبياء أُسوة، وفي مصير المكذّبين سَلْوىٰ، وفي العدّة بالنّصر بُشْرىٰ، وكلّما عرض له شيء من الحزن بمقتضى الطّبع البشريّ تكرّرت التّسلية، فثبت قلبه على دعوته، واطمأنّ إلى النّصر.

وهذه الحكمة هي الّتي ردّ الله بها على اعتراض الكفّار في تنجيم القرآن بقوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[٤]. [ثمّ ذكر قول أبي شامَة في سرّ نزول القرآن منجّماً، كما تقدّم عنه].

٢ – الحكمة الثّانية: التّحدّي والإعجاز

فالمشركون تمادوا في غيّهم، وبالغوا في عتوّهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتَحَدّ يمتحنون بها رسول‌الله في نبوّته، ويسوقون له من ذلك كلّ عجيب من باطلهم، كعلم السّاعة: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾[٥]، ومعرفة الرّوح: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾[٦]، واستعجال العذاب: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾[٧]، فيتنزّل القرآن بما يبيّن وجه الحقّ لهم، وبما هو أوضح معنى في مؤدّى أسئلتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[٨]، أي ولا يأتونك بسؤال عجيب من أسئلتهم الباطلة إلّا أتيناك

---

١ ـ المائدة / ٦٧.

٢ ـ الفتح / ٣.

٣ ـ المجادلة / ٢١.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

٥ ـ الأعراف / ١٨٧.

٦ ـ الإسراء / ٨٥.

٧ ـ الحجّ / ٤٧.

٨ ـ الفرقان / ٣٣.

نحن بالجواب الحقّ، وبما هو أحسن معنى من تلك الأسئلة الّتي هي مثل في البطلان.

وحيث عجبوا من نزول القرآن منجّماً بيّن الله لهم الحقّ في ذلك، فإنّ تحدّيهم به مفرّقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجّة من أن ينزّل جملةً ويقال لهم: جيئوا بمثله، ولهذا جاءت الآية عقب اعتراضهم: ﴿لَولا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، أي لا يأتونك بصفة عجيبة يطلبونها كنزول القرآن جُملةً إلّا أعطيناك من الأحوال ما يحقّ لك في حكمتنا، وبما هو أبين معنى في إعجازهم، وذلك بنزوله مفرّقاً، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الرّوايات في حديث ابن عبّاس عن نزول القرآن: فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جوابًا.

٣ ـ الحكمة الثّالثة: تيسير حفظه وفهمه

لقد نزل القرآن الكريم على أُمّة أُمّيّة لاتعرف القراءة والكتابة، سجلّها ذاكرة حافظة، ليس لها دراية بالكتابة والتّدوين حتّى تكتب وتدوّن، ثمّ تحفظ وتفهم: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ اٰيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ...﴾[1]، ﴿اَلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾[2]، فما كان للأُمّة الأُمّيّة أن تحفظ القرآن كلّه بيسر لو نزل جملةً واحدةً، وأن تفهم معانيه وتتدبّر آياته، فكان نزوله مفرّقاً خير عون لها على حفظه في صدورها وفهم آياته، كلّما نزلت الآية أو الآيات حفظها الصّحابة، وتدبّروا معانيها، ووقفوا عند أحكامها، واستمرّ هذا منهجاً للتّعليم في حياة التّابعين. [ثمّ ذكر رواية ابن عَساكِر عن أبي نَضْرة ورواية خالد بن دينار عن أبي العالية ورواية البَيهَقيّ عن عمر، كما تقدّم عن السّيوطيّ].

٤ ـ الحكمة الرّابعة: مسايرة الحوادث والتّدرّج في التّشريع

فما كان النّاس ليسلس قيادهم طفرة للدّين الجديد لولا أنّ القرآن عالجهم بحكمة، وأعطاهم من دوائه النّاجع جرعات يستطبّون بها من الفساد والرّذيلة، وكلّما حدثت حادثة بينهم نزل الحكم فيها يجلي لهم صبحها ويرشدهم إلى الهدى، ويضع لهم أُصول

---

١ ـ الجمعة / ٢.

٢ ـ الأعراف / ١٥٧.

التّشريع حسب المقتضيات أصلاً بعد آخر.

لقد كان القرآن الكريم بادىء ذي بدء يتناول أُصول الإيمان باللّه تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنّة ونار، ويقيم على ذلك الحجج والبراهين، حتّى يستأصل من نفوس المشركين العقائد الوثنيّة، ويغرس فيها عقيدة الإسلام.

وكان يأمر بمحاسن الأخلاق الّتي تزكو بها النّفس، ويستقيم عوجها، وينهى عن الفحشاء والمنكر، ليقتلع جذور الفساد والشّرّ. ويبيّن قواعد الحلال والحرام الّتي يقوم عليها صَرْح الدّين، وترسو دعائمه في المطاعم والمشارب والأموال والأعراض والدّماء.

ثمّ تدرّج التّشريع بالأُمّة في علاج ما تأصل في النّفوس من أمراض اجتماعيّة، بعد أن شرع لهم من فرائض الدّين وأركان الإسلام ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان، خالصة للّه، تعبده وحده لاشريك له.

كما كان القرآن يتنزّل وفق الحوادث الّتي تمرّ بالمسلمين في جهادهم الطّويل لإعلاء كلمة الله.

ولهذا كلّه أدلّته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبّعنا مكّيه ومدنيّه وقواعد تشريعه.

ففي مكّة شرّعت الصّلاة، وشرّع الأصل العامّ للزّكاة مقارناً بالرّبا: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ...﴾[١].

ونزلت سورة الأنعام – وهي مكّية – تبيّن أُصول الإيمان، وأدلّة التّوحيد، وتندّد بالشّرك والمشركين، وتوضّح ما يحلّ وما يحرم من المطاعم، وتدعو إلى صيانة حرمات الأموال والدّماء والأعراض: ﴿قُلْ تَعَالَوا اَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ اَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ اِحْسَاناً... ﴾الآيتين،[٢]، ثمّ نزل بعد ذلك تفصيل هذه الأحكام.

فأُصول المعاملات المدنيّة نزلت بمكّة، ولكن تفصيل أحكامها نزل بالمدينة، كآية المداينة وآيات تحريم الرّبا.

---

١ ـ الرّوم / ٣٨ – ٣٩.

٢ ـ الأنعام / ١٥١ – ١٥٢.

وأُسُس العلاقات الأُسَريّة نزلت بمكّة، أمّا بيان حقوق كلّ من الزّوجين، وواجبات الحياة الزّوجيّة، وما يترتّب على ذلك من استمرار العشرة أو انفصامها بالطّلاق، أو انتهائها بالموت ثمّ الإرث، فقد جاء في التّشريع المدنيّ.

وأصل الزّنى حرّم بمكّة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [1] ولكنّ العقوبات المترتّبة عليه نزلت بالمدينة.

وأصل حرمة الدّماء نزل بمكّة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللّٰهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [2]، ولكن تفصيل عقوباتها في الاعتداء على النّفس والأطراف نزل بالمدينة.

وأوضح مثال لذلك التّدرّج في التّشريع تحريم الخمر، فقد نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [3]، في مقام الامتنان بنعمه سبحانه، وإذا كان المراد بالسّكر ما يسكر من الخمر، وبالرّزق ما يؤكل من هاتين الشّجرتين كالتّمر والزّبيب – وهذا ما عليه جمهور المفسّرين – فإنّ وصف الرّزق بأنّه حسن دون وصف السّكر يشعر بمدح الرّزق والثّناء عليه وحده دون السّكر.

ثمّ نزل قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [4]، فقارنت الآية بين منافع الخمر فيهما يصدر عن شربها من طرب ونشوة، أو يترتّب على الاتّجار بها من ربح، ومضارّها في إثم تعاطيها، وما ينشأ عنه من ضرر في الجسم، وفساد في العقل، وضياع للمال وإثارة لبواعث الفجور والعصيان، ونفّرت الآية منها بترجيح المضارّ على المنافع.

ثمّ نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ﴾ [5]، فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر في الأوقات الّتي يستمرّ تأثيرها إلى وقت الصّلاة؛

---

١ ـ الإسراء / ٣٢.

٢ ـ الإسراء / ٣٣.

٣ ـ النّحل / ٦٧.

٤ ـ البقرة / ٢١٩.

٥ ـ النّساء / ٤٣.

حيث جاء النّهي عن قربان الصّلاة في حال السّكر حتّى يزول عنهم أثره، ويعلموا ما يقولونه في صلاتهم.

ثمّ نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾ الآيتين[1]. فكان هذا تحريماً قاطعاً للخمر في الأوقات كلّها.

ويوضّح هذه الحكمة ما روي عن عائشة رضي الله عنها قالت: إنّما نزل أوّل ما نزل منه سورة من المفصّل... [وذكركما تقدّم عن السّيوطيّ، ثمّ قال:]

وهكذا كان التّدرّج في تربية الأُمّة وفق ما يمرّ بها من أحداث، فقد استشار رسول الله ﷺ صحابته في أسرى بدر، فقال عمر: اضرب أعناقهم، وقال أبوبكر: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء، وأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي‌بكر، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وأعجب المسلمون بكثرتهم يوم حُنَيْن حتّى قال رجل: لن نغلب من قلّة، فتلقّوا درساً قاسياً في ذلك، ونزل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3].

ولمّا توفّي عبدالله بن أُبيّ ـ رأس المنافقين ـ دعي رسول الله ﷺ للصّلاة عليه، فقام عليه، فلمّا وقف قال عمر: أعلى عدوّ الله عبدالله بن أُبيّ القائل كذا وكذا، والقائل كذا وكذا؟ يعدد أيّامه. ورسول الله ﷺ يبتسم، ثمّ قال له: «إنّي قد خيّرت، قد قيل لي: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[4]. فلو أعلم أنّي إن زدت على السّبعين غفر له لزدت عليها». ثمّ صلّى عليه رسول الله ﷺ، ومشى معه حتّى قام على قبره حتّى فرغ منه، قال عمر: فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله ﷺ، والله ورسوله أعلم، فوالله

---

١ ـ المائدة / ٩٠ ـ ٩١.

٢ ـ من حديث أخرجه أحمد عن أنس. (الأنفال / ٦٧ ـ ٦٨).

٣ ـ أخرجه البيهقيّ في الدّلائل. (التّوبة / ٢٥)

٤ ـ التّوبة / ٨٠.

ما كان إلّا يسيراً حتّى نزلت هاتان الآيتان: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ...﴾[١]، فما صلّى رسول‌الله ﷺ على منافق بعد حتّى قبضه الله عزّ وجلّ[٢].

وحين تخلّف نفر من المؤمنين الصّادقين في غزوة تبوك، وأقاموا بالمدينة، ولم يجد رسول‌الله ﷺ لديهم عذراً هجرهم وقاطعهم حتّى ضاقوا ذرعاً بالحياة، ثمّ نزل القرآن لقبول توبتهم: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٣].

ويشير إلى هذا ما روي عن ابن عبّاس في نزولِ القرآن: ونزّله جبريل بجواب كلام العباد وأعمالهم[٤].

٥ - الحكمة الخامسة

الدّلالة القاطعة على أنّ القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد: إنّ هذا القرآن الّذي نزل منجّماً على رسول‌الله ﷺ في أكثر من عشرين عامًا تنزّل الآية أو الآيات على فترات من الزّمن، يقرأه الإنسان ويتلو سوره فيجده مُحكم النّسج، دقيق السّبك، مترابط المعاني، رصين الأُسلوب، متناسق الآيات والسُّور، كأنّه عقد فريد نظمت حبّاته بما لم يعهد له مثيل في كلام البشر: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٥]. ولو كان هذا القرآن من كلام البشر قيل في مناسبات متعدّدة، ووقائع متتالية، وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التّفكّك والانفصام، واستعصى أن يكون بينه التّوافق والانسجام: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٦].

فأحاديث رسول‌الله ﷺ – وهي في ذروة الفصاحة والبلاغة بعد القرآن الكريم –

---

١ ـ التّوبة / ٨٤ – ٨٥.

٢ ـ أخرجه البّخاريّ وأحمد والنّسائيّ والتّرمذيّ وابن ماجه وغيرهم.

٣ ـ من حديث طويل أخرجه البّخاريّ ومُسلِم وغيرهما، والثّلاثة هم: كَعْب بن مالِك، وهَلال بن أُميّة، ومَرارة بن الرّبيع، وكلّهم من الأنصار. التّوبة / ١١٧ – ١١٨.

٤ ـ أخرجه الطّبَرانيّ والبزّاز عن ابن عبّاس، وأخرجه ابن أبي حاتم من وجه آخر.

٥ ـ هود / ١.

٦ ـ النّساء / ٨٢.

لاتنتظم حبّاتها في كتاب واحد سَلس العبارة، يأخذ بعضه برقاب بعض، في وحدة وترابط بمثل ما عليه القرآن الكريم أو ما يدانيه اتّساقاً وانسجاماً. فكيف بكلام سائر البشر وأحاديثهم: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

الاستفادة من نزول القرآن منجّمًا في التّربيّة والتّعليم.

تعتمد العمليّة التّعليميّة على أمرين أساسيّين: مراعاة المستوى الذّهني للطّلاّب، وتنمية قدراتهم العقليّة والنّفسيّة والجسميّة بما يوجّهها وِجهةً سديدة إلى الخير والرّشاد.

ونحن نلحظ في حكمة نزول القرآن منجّماً ما يفيدنا في مراعاة هذين الأمرين على النّحو الّذي ذكرناه آنفاً، فإنّ نزول القرآن الكريم تدرّج في تربية الأُمّة الإسلاميّة تدرُّجاً فطريّاً لإصلاح النّفس البشريّة، واستقامة سلوكها، وبناء شخصيّتها، وتكامل كيانها، حتّى استوت على سوقها، وآتت أُكُلها الطّيّب بإذن ربّها لخير الإنسانيّة كافّة.

وكان تنجيم القرآن خير عون لها على حفظه وفهمه ومدارسته وتدبّر معانيه، والعمل بما فيه.

وبين نزول القرآن في مطلع الوحي بالقراءة والتّعليم بأداة الكتابة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]، ونزول آيات الرّبا والمواريث في نظام المال، أو نزول آيات القتال في المفاصلة التّامة بين الإسلام والشّرك، وبين ذاك وهذا مراحل تربويّة كثيرة لها أساليبها الّتي تلائم مستوى المجتمع الإسلاميّ في تدرّجه من الضّعف إلى القوّة، ومن القوّة إلى شدّة البأس.

والمنهج الدّراسيّ الّذي لايراعیٰ فيه المستوى الذّهنيّ للطّلاّب في كلّ مرحلة من مراحل التّعليم، وبناء جزئيّات العلوم على كلّيّاتها والانتقال من الإجمال إلى التّفصيل، أو لا يراعي تنمية جوانب الشّخصيّة العقليّة والنّفسيّة والجسميّة منهج فاشل، لا تجني منه

---

١ ـ انظر هذه الحكمة في مناهل العرفان للزُّرقانيّ: ٥٤. الإسراء / ٨٨.

٢ ـ العلق / ١ ـ ٥.

الأمّة ثمرة علميّة سوى الجمود والتّخلّف.

والمدرّس الّذي لايعطي طلاّبه القدر المناسب من المادّة العلميّة، فيثقل كاهلهم ويحمّلهم مالا يطيقون حفظاً أو فهماً، أو يحدّثهم بما لا يدركون، أو لايراعي حالهم في علاج ما يعرض لهم من شذوذ خلقيّ، أو يفشو من عادات سيّئة، فيقسو ويتعسّف، ويأخذ الأمر دون أناة ورويّة، وتدرّج وحكمة، المدرّس الّذي يفعل ذلك مدرّس فاشل، كذلك يحول العمليّة التّعليميّة إلى متاهات موحشة، ويجعل غرف الدّراسة قاعات منفّرة.

وقس على هذا الكتاب المدرسيّ، فالكتاب الّذي لاتنتظم موضوعاته وفصوله، ولا تندرج معلوماته من السّهل إلى الصّعب، ولا تترتّب جزئيّاته ترتيباً محكماً منسقًا، ولا يكون أُسلوبه واضحًا في أداء المعنى المقصود، كتاب ينفر الطّالب من قراءته، ويحرمه من الاستفادة منه.

والهُدى الإلهيّ في حكمة نزول القرآن منجّماً هو الأُسوة الحسنة في صياغة مناهج التّعليم، والأخذ بأمثل الطّرق في الأساليب التّربويّة بقاعة الدّرس، وتأليف الكتاب المدرسيّ. (ص: ٨٥ - ١٠٢)

الفصل السّابع والسّتّون

نصّ الدّكتور حُجّتي في «مختصر تاريخ القرآن»

نزول القرآن الكريم

بدء نزول القرآن

أشرنا فيما سبق إلى هذا الموضوع، ونضيف هنا أنّ العلماء المسلمين اختلفوا في تاريخ بدء نزول القرآن، كما اختلفوا في تاريخ البعثة النّبويّة المباركة [1].

أمّا بشأن بدء نزول القرآن فمن المفسّرين من قال: إنّه كان في النّصف من شعبان، ويذهبون إلى أنّ اللّيلة المباركة الّتي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [2]، هي ليلة النّصف من شعبان [3].

واتّفق المحدّثون والمفسّرون على أنّ بدء القرآن كان في شهر رمضان [4]، مع اختلاف

---

١ ـ قيل: إنّ المبعث النّبويّ كان يوم السّبت الثّامن أو الثّاني من ربيع الأوّل (تاريخ اليعقوبيّ ٢: ١٧)، وقيل: في السّابع والعشرين من شهر رجب (تاريخ الخميس، ١: ٢٨٠، ٢٨١)، وقيل أيضاً: في السّابع عشر من شهر رمضان (تاريخ أبي الفداء، ١: ١١٥).

٢ ـ الدّخان: ٣ – ٤.

٣ ـ مجمع البيان للطّبرسيّ ٩: ٦١.

٤ ـ راجع تاريخ الطّبريّ ٢: ٣٠٠ وسيرة ابن هشام ١: ٢٣٦ و تاريخ أبي الفداء ١: ١١٥ و تاريخ اليعقوبيّ ١: ٧ و مجمع البيان ٩: ٦٦ و التّبيان للشّيخ الطّوسيّ ٩: ٢٢٤ و جامع البيان ٥: ١٠٧ و ١٠٨ و مقدّمتان: ٢٣٥.

بينهم في يوم النّزول.

لقد نصّ كتاب الله العزيز على أنّ القرآن نزل في ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[١]. وهناك آراء مختلفة في تعيين موقع هذه اللّيلة[٢]. وقال معظم العلماء بأنّ هذه اللّيلة في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ﴾[٣].

ولم يتّفقوا على تعيين هذه اللّيلة من بين ليالي شهر رمضان المبارك، فمنهم من قال: إنّها ليلة السّابع عشر من شهر رمضان؛ لأنّ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللّٰهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلٰى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[٤]. هو يوم السّابع عشر من شهر رمضان، وهو يوم بدء المواجهة في معركة بدر[٥].

والطَّبَريّ يذكر أنّ القرآن نزل لثماني عشرة خلون من شهر رمضان[٦]، فتكون ليلة نزول القرآن – إذن – ليلة التّاسع عشر من شهر رمضان.

أكثر روايات مدرسة أهل البيت تشير إلى أنّ ليلة القدر هي إحدىٰ ليالي العقد الأخير من شهر رمضان المبارك، وثمّة قرائن تقوّي الظّنّ بأنّها في ليلة الثّالث والعشرين من هذا الشّهر.

في هذه اللّيلة أُنزل القرآن إلى السّماء الدّنيا، ثمّ أُنزل يوم الرّابع والعشرين من شهر

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ قيل في ليلة القدر: إنّها ليلة النّصف من شعبان، وقيل: إنّها ليلة الأوّل أو ليلة السّابع عشر، أو ليلة التّاسع عشر، أو ليلة الحادي والعشرين، أو ليلة الثّالث والعشرين، أو ليلة الرّابع والعشرين، أو ليلة الخامس والعشرين، أو ليلة السّابع والعشرين من شهر رمضان. (راجع مجمع البيان ١٠ : ٥١٨ – ٥٢٠). وروي عن ابن عبّاس قوله: إنّ ليلة القدر تكرّرت في سورة القدر ثلاث مرّات، ومجموع حروف ليلة القدر تسعة، وحاصل ضرب الثّلاثة في التّسعة سبع وعشرون لذلك فإنّ ليلة القدر هي ليلة السّابع والعشرين من شهر رمضان (راجع كشكول الشّيخ البهائيّ)، وهذا رأي ذوقيّ لايمكن قبوله علميّاً أو تاريخيّاً أو روائيّاً.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

٤ ـ الأنفال / ٤١.

٥ ـ سيرة ابن هِشام ١: ٢٣٩، ٢٤٠.

٦ ـ تاريخ الطَّبَريّ ٢: ٣٠٠.

رمضان إلى الأرض، وبدايته الآية الكريمة: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ...﴾[١].

وأمّا بالنّسبة لما روي بشأن بعثة النّبيّ ﷺ في شهر ربيع الأوّل، فيمكن الجمع بينه وبين نزول القرآن في شهر رمضان كما يلي:بعث رسول‌الله ﷺ في شهر ربيع الأوّل – وهو شهر ولادته أيضاً – عن طريق الرّؤيا في المنام، وبعد مرور ستّة أشهر على هذه الواقعة نزل عليه الوحي في عالم اليقظة[٢].

طريقة نزول القرآن الكريم

ثمّة قرائن قرآنيّة وأدلّة أُخرى تؤكّد أنّ الكتب السّماوية السّابقة نزلت دفعةً واحدةً على الأنبياء. وقد تكون هذه الظّاهرة هي الّتي دفعت بأصحاب الأديان السّابقة لأن يعترضوا على النّبيّ الخاتم بعدم نزول القرآن جملةً واحدةً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٣].

أمّا القرآن فنزل بالتّدريج على امتداد ثلاث وعشرين سنة تقريباً، وكانت تنزّل الآية الواحدة أو أكثر حسب ما تقتضيه الظّروف والمقتضيات.

ويبقي السّؤال عن النّزول الدّفعيّ للقرآن المذكور في الآية الكريمة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٤]، وكيف يمكن أن ينسجم هذا النّزول مع النّزول التّدريجيّ؟ ثمّة أربعة أجوبة على ذلك:

[ثمّ ذكر أربع روايات عن ابن عبّاس ومُقاتل والشّعبيّ والضّحّاك، كما تقدّم عن الطّبرسيّ والسّيوطيّ، فقال:] ويبدو أنّ الجواب الأوّل مسند بأدلّة وروايات أكثر من الباقي.

---

١ ـ العلق / ١.

٢ ـ الإتقان ١: ٧٠ – ٧١.

٣ ـ الفرقان / ٣٢.

٤ ـ القدر / ١.

حكمة التّدرّج في نزول القرآن

ذكر العلماء أوجهاً لحكمة التّدرّج في نزول القرآن نستعرض بعضها:

أ - كثير من الآيات يرتبط بحوادث وقعت في عصر الرّسالة، وتوالي هذه الحوادث يستلزم توالي نزول الآيات. وبعبارة أُخرى هناك ظروف وملابسات تكون أرضيّة لنزول كثير من الآيات، وهي ما نسمّيها بأسباب النّزول. ولمّا كانت هذه الظّروف والوقائع لاتحدث دفعةً واحدةً، بل بالتّدريج، لذلك كان لابدّ من نزول القرآن تدريجيّاً.

ب - لتثبيت قلب النّبيّ على طريق الدّعوة، ولاستمرار الدّفع نحو أداء الرّسالة، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[١].

ج - النّزول التّدريجيّ يوفّر الفرصة للنّبيّ الأُمّيّ ولقومه الأُمّيّين أن يحفظوا القرآن، كما يوفّر الفُرصة لكتابته بالتّدريج، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[٢].

د - مراعاة الطّبيعة الإنسانيّة والنّفس البشريّة في فرض التّكاليف، فتكاليف الإسلام لو نزلت دفعةً واحدةً لما شقّت طريقها نحو التّنفيذ في المجتمع، من هنا تدرّجت بعض الأحكام في النّزول حتّى اتّخذت صيغتها النّهائيّة، كما هو الملاحظ في تحريم الخمر.

هـ - النّزول التّدريجيّ يوفّر الفرصة للتّأمّل والتّدبّر والتّعمّق في مضامين الآيات، خاصّة لأُولئك الأُمّيّين الفاقدين لقدرة الاستيعاب السّريع[٣]. (ص: ٢٣ - ٢٨)

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

٣ ـ جلاء الأذهان ١٠: ٤٠٨، ومنهج الصّادقين ٣: ٣٨٩.

الفصل الثّامن والسّتّون

نصّ الشّيخ محمّد الغزاليّ في كتابه: «نظرات في القرآن»

كيف نزل؟ ولماذا خلد؟

لكي نفهم القرآن فهماً صحيحاً لابدّ أن نفهم الأحداث الّتي عاصرته، وأن نعي الأحوال الّتي قارنت نزوله.

فإنّ آيات القرآن وثيقة الارتباط بالظّروف الّتي جاءت فيها، وفقه هذه الظّروف جزء من فقه الهدايات السّماويّة الّتي تعلّقت بها وتعرّضت لها.

لو أنّ القرآن نزل دفعةً واحدةً لايمكن لدارسه أن يفصل بين معانيه وبين الملابسات العديدة المتشعّبة الّتي أحاطت بها، أو لحار في وضع كلّ حكم بإزاء الحالة الدّقيقة الّتي تناسبه. أمّا والقرآن نزل مفرّقاً على بضع وعشرين سنة حفلت بالحوادث الجسّام، وتتابعت عليها أطوار شتّى، وكان نزوله على هذا النّحو يمتّ بأوثق الصّلات؛ لتغاير الحوادث وتجدّد الأطوار، لذلك لابدّ في فقه القرآن من فقه الحياة نفسها الّتي أحاطت ببداية أمره ونهايته، ولابدّ من استيعاب التّاريخ المفصّل لهذه الفترة الخطيرة.

ومن الظّلم الفادح للقرآن الكريم أن يحاول أحد تفسيره وهو ذاهل عن الجوّ الّذي اكتنف نزول الآيات، فإنّ تاريخ النّزول وسببه جزءان لايمكن تجاهلهما في تكوين المعنى وإيضاح القصد، بل لايمكن تجاهلهما في تربية النّاس بالقرآن وأخذهم بآدابه.

وقد علّمنا الله عزّ وجلّ طرفاً من هذه الحقيقة في هذه الآيات من القرآن: ﴿وَقَالَ

الّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[1].

أي أنّ الله نزّله مفرّقاً كذلك لحكمة مرادة له، وما كان يعجز عن إبرازه للنّاس مرّةً واحدةً، لكن ذلك – لو حدث – يفوّت الآثار العظيمة المقصودة من إرسال الكلام في مواضعه الّتي يجود فيها.

إنّ الكلمة في مناسبتها الدّقيقة تجيء كالعون المسعف عند الحاجة الماسّة، أو كالحلو البارد على شدّة الظّمأ.

والرّسول وهو يحمل عبء البلاغ عن ربّه، ويشقّ طريقه وسط التّكذيب والعناد، والقسوة والهزء، ويمضي بأتباعه القلائل في معركة موصولة اللّيالي والأيّام، هذا الرّسول الجادّ المصابر بحاجة إلى مدد بعد مدد من عناية الله الّذي يبلغ عنه، بحاجة إلى تثبيت الوحي نفسه في مجال لاتفلح فيه قوى البشر وحدها.

إنّ أصحاب الرّسالات الإنسانيّة إن لم تواتهم حظوظ طيّبة، أو تساعدهم أقدار حسنة فشلوا حتماً.

والرّسالات الإنسانيّة أعمال محدودة القيمة والهدف، فكيف بمن يحملون رسالات السّماء؟ وهي أجل وأنبل وأثقل ما عرف العالم من توجيه وجهد.

إنّ تثبيت أفئدتهم بالوحي الّذي هو أساس لظهورهم أمر لاعجب فيه، وتفريق هذا الوحي حسب مايلقون من متاعب وصعوبات أمر لاعجب فيه كذلك.

هذا فيما يتّصل بالنّاحية النّفسيّة للرّسول، وثمّ أمر يتّصل بطبيعة الوحي المنزل، فإنّ الله يقول فيه: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، أي بيّناه في ترسُّل وتثبُّت، والتّبيين على هذه الصّورة معناه سَوق الآيات على مَهل، مفرّقة تفريقاً يسكب الوضوح واليقين على كلّ جزء فيها، قد يكون في الإجمال والسّرعة نوع من الإغماض والتّجوّر. أمّا التّفصيل المتأنّي فهو دائماً قرين الصّدق والدّقّة، وقد فصّلت آيات القرآن من ناحية الأُسلوب، فجاءت وقفة بعد وقفة، وفصّلت من ناحية الموضوع، فجاءت على قريب من ربع قرن، كأنّ الزّمن قد جعل جزءاً من شرحها، أو عوناً على ترديد صداها، وإتاحة التّأمّل المستغرق فيها.

---

١ ـ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣.

وتنكشف هذه الحكمة كلّها في قوله بعد: ﴿وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، أي أنّ النّاس سوف يتلقّون مطالع الرّسالة بصنوف من الاعتراض والتّساؤل، وسيؤلّفون لها ردوداً، ويثيرون حولها شبهاً. وهنا تبدو الفائدة في نزول الوحي مجزّأً، فإنّ الشّبه المثارة ستكون فرصة لمزيد من نور الحقّ يكشف ضلالها، ويمحق محالها، وسيتكفّل الوحي بالإجابة على كلّ سؤال، والإزالة لكلّ خفاء.

وقد تكون تفرقة النّزول ظاهرة النّفع عند الحكم في القضايا المتجدّدة، أو الإفتاء في المسائل العارضة.

بيد أنّ ذلك لا يجعلنا نغفل الأصل الّذي أشرنا إليه ابتداء، إنّ ربع قرن في حياة النّاس ليس شيئاً هيّناً، إنّه مرحلة كبيرة في حياة الشّباب والشّيوخ والرّجال والنّساء، وهو مرحلة تتّسع لشئون كثيرة جدًّا في العلاقات الفرديّة والإجتماعيّة والسّياسيّة، خصوصاً إذا تراوحت أيّامه بين الحرب والسّلام، وجمعت حوادثه بين أُمم مختلفة.

وقد قام محمّد يدعو إلى الله قرابة هذه الفترة، ويواجه العواطف والأفكار، والأفراد والجماعات، والشّدّة والرّخاء، والنّصر والهزيمة، والهجرة والاستقرار وأهل الكتاب وعبدة الأصنام، والدّول المنظّمة، والقبائل السّاذجة. وكان في هذا الإبّان الحافل يدخل في صميم الحياة ولا يحيا على هامشها.

كان الوحي ينزل طول هذه الفترة توجيهاً لما يستقبل أو تعقيباً على ما يستدبر، كان القرآن الكريم طوال ثلاث وعشرين سنة ينزل وفيه حكم الله على ما يكون، وفيه تحديد لموقف الإسلام، لا بالأوامر المقتضية فحسب، بل أحياناً بالقصص المفصّلة الّتي يحيا فيها تاريخ قديم، وتسرد فيها أحداث مشابهة.

ولهذا القصص لون خاصّ واتّجاه معيّن، ومن هنا قلت؛ إنّ فهم القرآن لا يتمّ إلّا بفهم معالم المجتمع الّذي نزل فيه، وإلّا بتحرّي أسباب النّزول وتواريخها، واستقصاء الملابسات الّتي تكتنف الموضوعات كلّها، وبهذا يصحّ أن نكون علماء بالقرآن.

وأحبّ أن أُشير هنا إلى خطأ شائع، فكثير من النّاس يظنّ أنّ التّوراة والإنجيل نزلا جملةً واحدةً، ويعلّل اقتراح الأعراب نزول القرآن جملةً واحدةً بالاطّراد مع السّوابق الأولى، وهذا وهم، فمن الّذي قال: إنّ هذه الكُتُب نزلت كذلك؟ وما دليله؟ إنّ الواقع من

مطالعة ما في يد اليهود والنّصارى الآن ينفى هذا الزّعم، فالأناجيل المتداولة قصص كتبها تلامذة عيسى، ودوّنوا فيها بعض تعاليمه الّتي صدرت عنه حسب الحوادث، وكذلك الرّسائل الأُخرى الّتي كتبها «بولس» وغيره.

والعهد القديم - كما نراه الآن - لايختلف عن العهد الجديد في الزّمن الّذي تألّف فيه.

وليس في القرآن الكريم أنّ الله آتى عيسى الإنجيل دفعةً واحدةً، ولا آتى موسى التّوراة دفعةً واحدةً. والألواح الّتي أخذها موسى كانت تحوي الوصايا العشر فقط.

ولا مانع - فعلاً - من أن ينزل الله على بعض أنبيائه كتباً كاملة، لكنّ هذه الكتب أن تكون أُسُساً لرسالات بعيدة المدىٰ واسعة الشّرائع.

ربّما ضمّت بعض العظات والعبر، وربّما جمعت بعض الحكم والأناشيد، ربّما حوت طائفة من الأحكام الفرديّة لمدّة موقوتة. وذلك شيء غير ما انفرد به القرآن الكريم من خصائص وميزات، جعلت نزوله يأخذ نسقاً مربوطاً بأحوال الحياة وشئون النّاس فترة كافية للإحاطة بكلّ دقيق وجليل منها.

نعم، فالسّنوات الثّلاث والعشرون الّتي استغرقت نزول القرآن يمكن حسبانها دورة اجتماعيّة كاملة، تمّ فيها البيان الإلهيّ لسياسة الحياة والأحياء، وماتفد به القرون بعد ذلك من أحوال نفسيّة واجتماعيّة لايعدو أن يكون صورة مكرّرة لما سبق أن قال القرآن كلمته فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

لقد نزل القرآن منجّماً حسب الحوادث، فلنفهم هذه الحوادث، لنفهم حقيقة القضيّة ومَنحى الحكم جميعاً، وهذه الحوادث ليس خصومة نَشَبت بين أفراد، بل هي سير حياة، وطبيعة بشر، وحال مجتمع، أو هي كما قلنا: مثل يتكرّر على العصور لشؤون الحياة والأحياء، والقرآن النّازل بإزائها هو الإرشاد الإلهيّ الخالد لهذه النّظائر المطّردة.

(ص: ١٩ - ٢٣)

---

١ ـ النّحل / ٨٩.

الفصل التّاسع والسّتّون

نصّ الشّيخ الزّفزاف في كتابه: «التّعريف بالقرآن والحديث»

نزول القرآن

الكلام على نزول القرآن ينتظم القول في ثلاثة مباحث، وهي:

الأوّل: زمن نزوله.

الثّاني: الأحرف الّتي نزل بها.

الثّالث: مواطن نزوله.

زمن نزوله [1]

إنّ ممّا لاشكّ فيه أنّ القرآن نزل على رسولنا محمّد ﷺ منذ رسالته إلى قُبَيل وفاته، فكان ينزل منجّماً بحسب الحوادث ومقتضيات الأحوال، ويدلّنا على هذا أنّ أوّل ما نزل به جبريل عليه في بدء رسالته، كما جاء في كثير من الآثار هو قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْاَكْرَمُ * اَلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْاِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ﴾ [2]. وأنّ آخر ما نزل منه قوله تعالى: ﴿اَلْيَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاَتْمَمْتُ

---

١ ـ نكتفي هنا بهذا البحث فقط، وأمّا البحثان الآخران فسيذكران في موضعهما. (م)

٢ ـ العلق / ١ – ٥.

عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[١]، وقد نزلت في حجّة الوداع الّتي كانت قبل وفاة الرّسول ببضع وثمانين يوماً. وفيما بين ذلك كان ينزل بحسب الحوادث، فقد كانوا يسألونه أحياناً عن الشّيء فينزل حكم الله فيه، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[٢]. وهكذا صار ينزل بالتّوالي تبعاً لحاجة المسلمين إلى التّشريع، وبذا يكون قد استمرّ نزوله ثلاثاً وعشرين سنة تقريباً.

والحكمة في نزوله مفرّقاً على هذا النّحو، أن يكون أيسر على أُمّة محمّد حفظاً وفهماً، وأن يكون أدعى إلى قبوله، بخلاف مالو نزل جملةً واحدةً؛ لأنّه كان ينفر من قبوله حينئذٍ كثير من النّاس، لكثرة مافيه من الأوامر والنّواهي، وإلى هذا يشير مارواه البُخاريّ عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت:... [وذكركما تقدّم عن السُّيوطيّ، ثمّ قال:]

كما أنّ في ذلك تثبيتاً لقلب الرّسول ﷺ؛ لأنّ الوحي إذاكان يتجدّد في كلّ حادثة يكون أشدّ عناية به، وأكثر تقوية لقلبه.

وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[٣]، وقوله ردّاً على الكافرين حينما طلبوا منه أن ينزل القرآن جملةً واحدةً؛ حيث يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[٤]، أي أنزلناه منجّماً على النّحو الّذي تراه؛ لنثبّت به فؤادك.

ولم يكن نزوله مفرّقاً على نسق واحد، بل كان ينزل منه أحياناً الآية، وأحياناً الآيتان، وأحياناً الثّلاثة، وأحياناً أكثر من ذلك على وفق ماتدعو إليه الحاجة.

دفع تعارض ظاهريّ

أثبتنا فيما تقدّم أنّ القرآن نزّل على الرّسول منجّماً، وهذا يقتضي أنّه لم ينزّل جملةً

---

١ ـ المائدة / ٣.

٢ ـ البقرة / ٢١٩.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

٤ ـ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣.

في وقت خاصّ من أوقات السّنة. ولكن قد ورد في القرآن ما ظاهره يناقض هذا، وهو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٣]. فإنّ الآية الأُولى تنصّ على أنّه نزل في رمضان، والثّانية والثّالثة تدلّان على أنّه نزل في ليلة واحدة هي ليلة القدر، وهي اللّيلة المباركة، ومن حيث إنّ الثّابت من الأحاديث أنّ ليلة القدر إحدىٰ ليالي رمضان يكون نزوله في ليلة من ليالي رمضان.

وهنا نقول: إنّ العلماء قد اختلفوا في طريقة دفع هذا التّعارض الظّاهريّ، فاختلفوا في المراد بنزول القرآن في تلك الآيات الثّلاث الّتي تدلّ على نزوله في ليلة من رمضان.

فقال بعضهم: إنّ المراد بنزوله، نزولُه كلّه دفعةً واحدةً من اللّوح المحفوظ إلى بيت العزّة في سماء الدّنيا، وقد روي هذا القول عن ابن عبّاس، فقد روى النّسائيّ وأبوعُبَيد والحاكم عن عِكْرِمة عن ابن عبّاس أُنزل القرآن جملةً... [إلى أن قال:]

وقد رجّح هذا الرّأي جمع كبير من العلماء، وأيّدوه بما رواه الإمام أحمد والبَيْهَقيّ عن واثِلة،... [وذكر الرّوايتين كما تقدّم عن الطَّبَريّ، ثمّ قال:]

وإذا نظرنا إلى هذا الحديث لانجد فيه مايدلّ على مُدّعاهم؛ لأنّه لم يرد فيه نصّ على أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، لأنّ قوله: «والقرآن لأربع وعشرين» كما يصدق بأن يكون المراد القرآن كلّه، يصدق بأن يراد بعضه، نظراً إلى أنّ لفظ «القرآن» يصحّ إطلاقه على بعض القرآن، كما يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلٰى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[٤]. ومعلوم قطعاً أنّ هذه الآية لم تنزل بعد نزول القرآن كلّه، بل نزلت في مكّة، فهي من أواسط الآيات نزولاً، وحينئذ يكون لفظ ﴿الْفُرْقَانَ﴾ فيها إنّما أطلق على بعض القرآن، وهو الّذي كان قد نزل إلى حين نزول هذه

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الدّخان / ٢.

٤ ـ الفرقان / ١.

الآية. كما أنّه لم يصرّح في الحديث بالنّزول إلى بيت العزّة، فكيف يُسلَّم أنّ هذا يكون دليلاً على دعواهم؟ وفضلاً عن هذا، فإنّ هذا الحديث معارض بحديث آخر أخرجه ابن أبي شَيبة عن أبي قِلابة قال: أُنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان[١]. فهذا الحديث يدلّ على أنّ الكتب كلّها نزلت ليلة أربع وعشرين، في حين أنّ الحديث الأوّل وزّع نزولها في رمضان، وهذا تناقض ظاهر بين الحديثين يُسقط الاعتداد بهما. ويقوّي عدم الاطمئنان للحديثين أنّه قد ورد من الأحاديث الصّحيحة ما يدلّ على عدم تعيين ليلة القدر، فقد روى أحمد والبُخاريّ ومسلم عن عائشة أنّ رسول الله ﷺ قال: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان». فهذا يدلّ على أنّ الرّسول ﷺ لم يعيّن ليلة القدر، في حين أنّ الحديثين السّابقين يدلّان على أنّه عيّنها بأنّها في أربع وعشرين من رمضان.

وبهذا يتبيّن أنّ هذين الحديثين لايصلحان سنداً لأصحاب هذا الرّأي، ولايقويان على إثبات ما ادّعوه. وليس معنى هذا أنّنا ننكر قول ابن عبّاس ومن معه، ولكنّا نقول: إنّه قول لايزال يحتاج إلى دليل.

وقال بعض آخر: ليس المراد من نزول القرآن في الآيات الثّلاث السّابقة نزوله جملةً واحدةً، بل المراد ابتداء نزوله، وحينئذ يكون معنى نزوله في رمضان ابتداء نزوله على سيّدنا محمّد ﷺ لا نزوله جملةً إلى بيت العزّة. وذلك لأنّ الّذي يتبادر إلى الذّهن من معنى نزول القرآن هو نزوله على الرّسول؛ لأنّ ذلك هو الّذي يتعلّق به مصلحة النّاس، وهي هدايتهم ببيان أحكام الله لهم. وهو الّذي يليق أن تجعل ليلة حصوله من ليالي القدر والشّرف والعظمة، تبعاً لما يتوفّر به من الهداية. أمّا نزوله إلى بيت العزّة قبل أن يصل إلى النّاس فلا يتحقّق به شيء من هذا. ومتى كان هذا هو المتبادر فلا يصحّ صرف الكلام عنه حتّى يقوم دليل يقتضي ذلك. وليس لدينا دليل من الكتاب أو السّنّة يقتضينا صرف الكلام عن هذا المتبادر. وعلى هذا يجب أن نفسّر نزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة القدر بإبتداء نزوله؛ لأنّ الواقع والأحاديث المتعدّدة دلّت على أنّه نزل على الرّسول منجّماً

---

١ ـ أُنظر الأتقان ١: ٥١.

لادفعةً واحدةً.

وليس بغريب أن يؤرّخ العمل العظيم بالوقت الّذي ابتدأ فيه، فإنّهم يقولون: إنّ الأهرام بنيت سنة كذا قبل الميلاد، ويريدون ابتداء بنائها، ضرورة العلم بأنّها لم تبْن في سنة واحدة، والقرآن الّذي أحدث انقلاباً خطيراً في المجتمع الإنسانيّ من أعظم الأُمور التّاريخيّة، فيصحّ أن ينسب نزوله إلى الوقت الّذي ابتدأ نزوله فيه، وإلى هذا نظر الإمام فخر الدّين الرّازيّ؛ حيث قال في تفسيره بصدد الكلام على آية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1] ما نصّه: وذلك لأنّ مبادىء الملل والدُّوَل هي الّتي يؤرّخ بها؛ لكونها أشرف الأوقات، ولأنّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة [2]، وهذا كلام واضح بيّن الرّجحان.

وبهذا التّأويل تتّفق آيات القرآن، والأحاديث الثّابتة، والواقع المادّي على أنّ المراد من نزول القرآن في الآيات كلّها نزوله على محمّد ﷺ، وأنّه نزل عليه منجّماً لادفعةً واحدةً. أمّا نزوله إلى بيت العزّة دفعةً واحدةً، ثمّ نزوله بعد ذلك منجّماً على محمّد ﷺ، فهو من الأُمور الغيبيّة الّتي لايصحّ اعتقادها إلّا إذا ثبتت بدليل قاطع، فإذا وجد سلّمنا وآمنّا به، وإلى أن يوجد لانستطيع أن نؤوّل الآيات على غير الوجه الّذي تقدّم رُجحانه.

(ص: ٣٢ - ٣٦)

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ أنظر تفسير الفخر الرّازيّ ٢: ١٨٢ الطّبعة الأميريّة.

الفصل السّبعون

نصّ السُّبحانيّ في «مجلّة رسالة القرآن»

بعثته ونزول الوحي إليه وما حولهما من الرّوايات

بعث الله سبحانه نبيّه الأكرم على حين فترة من الرّسل، وطول هجعة من الأُمم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الأُمور، وتلظّ من الحروب، والدّنيا كاسفة النّور، ظاهرة الغرور، على حين إصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، وإغوِرار من مائها، قد درست منار الهدى، وظهرت أعلام الرّدى، فهي متجهّمة لأهلها، عابسة في وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف، ودثارها السّيف[1].

بعث على رأس الأربعين من عمره، وبُشّر بالنّبوّة والرّسالة. وأمّا الشّهر الّذي بعث فيه ففيه أقوال وآراء، فالشّيعة الإماميّة تبعاً لأئمّة أهل البيت: على أنّه ﷺ بعث في سبع وعشرين من رجب... [ثمّ ذكر ثلاث روايات، عن الإمام الصّادق والكاظم عليهما السلام، كما تقدّم عن العلّامة المَجلِسيّ، فقال:]

وأمّا غيرهم فمن قائل بأنّه بعث في سبع عشر من شهر رمضان، أو ثماني عشر، أو أربع وعشرين من هذا الشّهر، أو في الثّاني عشر من ربيع الأوّل.

وبما أنّ أهل البيت أدرى بما في البيت، كيف وهم نجوم الهدى، ومصابيح الدّجى،

---

١ ـ اقتباس من كلام الإمام أمير المؤمنين في نهج البلاغة من الخطبة ٨٥ طبعة عبده.

وأحد الثَّقَلَين الّذين تركهما رسول‌الله ﷺ بعده، فيجب علينا الوقوف دون نظرهم ولا نجتازه. نعم، دلّ الذّكر الحكيم على أنّ القرآن نزل في شهر رمضان؛ قال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[3]. إلى غير ذلك من الآيات الدّالّة على نزوله في شهر رمضان.

والاستدلال بهذه الآيات على أنّه ﷺ بعث في شهر رمضان مبنيّ على [وجوهٍ: الأوّل:] اقتران البشارة بالنّبوّة بنزول القرآن وهو بعد غير ثابت، فلو قلنا بالتّفكيك، وأنّه بعث في شهر رجب، وبشّر بالنّبوّة فيه، ونزل القرآن في شهر رمضان، لما كان هناك منافاة بين بعثته في رجب ونزول القرآن في شهر رمضان.

ويؤيّد ذلك، أي عدم اقتران النّبوّة بنزول القرآن ما نقله غير واحد عن عائشة: أنّ أوّل مابُدىء به رسول‌الله من النّبوّة حين أراد الله كرامته. الرّؤيا الصّادقة. فكان لايرى رسول‌الله ﷺ رؤيا في نومه إلّا جاءت كفلق الصّبح. قالت: وحبّب الله تعالى إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبّ إليه من أن يخلو وحده[4].

لكنّ الظّاهر من ذيل ما روته عائشة أنّ النُّبوّة كانت مقترنة بنزول الوحي والقرآن الكريم، ولنذكر نصّ الحديث بتمامه، ثمّ تذييله ببيان بعض الملاحظات حوله.

روى البُخاريّ: كان رسول‌الله ﷺ يخلو بغار حِراء، فيتحنّث فيه، وهو التّعبّد في اللّيالي... [وذكركما تقدّم عنه، ثمّ قال:] وفي هذه الرّواية تأمّلات واضحة،

١ - ما هو المبرِّر لجبرئيل أن يروّع النّبيّ الأعظم، وأنّ يؤذيه بالعصر إلى حدٍّ أنّه يظنّ أنّه الموت؟ يفعل به ذلك وهو يراه عاجزاً عن القيام بما يأمره به، ولا يرحمه ولايلين معه.

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الدّخان / ٣.

٤ ـ صحيح البُخاريّ ١: ٣، السّيرة النّبويّة ١: ٣٣٤.

٢ – لماذا يفعل ذلك ثلاث مرّات لا أكثر ولا أقلّ؟

٣ – لماذا صدّقه في الثّالثة، لا في المرّة الأُولى ولا الثّانية، مع أنّه يعلم أنّ النّبيّ لا يكذب؟

٤ – هل السّند الّذي روى به البُخاريّ قابل للاحتجاج، مع أنّ فيه الزُّهْريّ وعُروة؟

أمّا الزُّهْريّ فهو الّذي عرف بعمالته للحكّام، وارتزاقه من موائدهم، وكان كاتباً لِهشام بن عَبْد الملك ومعلّماً لأولاده، وجلس هو وعُروة في مسجد المدينة، فنالا من عليّ، فبلغ ذلك السّجّاد عليه السلام حتّى وقف عليهما فقال: أمّا أنت يا عُروة فإنّ أبي حاكَمَ أباك، فحُكِم لأبي على أبيك، وأمّا أنت يا زُهْريّ فلو كنت أنا وأنت بمكّة لأريتك كنّ أبيك[1].

أمّا عُروة بن الزُّبير الّذي حكم عليه ابن عمر بالنّفاق، وعدّه «الإسكافيّ» من التّابعيين الّذين يضعون أخباراً قبيحة في عليّ عليه السلام [2].

نعم، رواه ابن هِشام والطَّبَريّ في تفسيره وتاريخه[3] بسند آخر ينتهي إلى أشخاص يستبعد سماعهم الحديث عن نفس الرّسول الأكرم، ودونك أسماؤهم:

١ – عُبَيد بن عُمَير، ترجمه ابن الأثير؛ قال: ذكر البُخاريّ أنّه رأى النّبيّ، وذكر مُسلِم أنّه وُلد على عهد النّبيّ وهو معدود من كبار التّابعين، يروي عن عمر وغيره[4].

٢ – عبدالله بن شَدّاد، ترجمه ابن الأثير، وقال: وُلد على عهد النّبيّ، روى عن أبيه وعن عمر وعليّ[5].

٣ – عائشة، زوجة النّبيّ؛ حيث تفرّدت بنقل هذا الحديث، ومن المستبعد جدّاً أن لا يحدّث النّبيّ هذا الحديث غيرها، مع تلهُّف غيرها إلى سماع أمثال هذا الحديث.

نعم، ورد مضمون الحديث في تفسير الإمام العسكريّ[6] عليه السلام، ونقله من أعلام الطّائفة

---

١ ـ أي بيت أبيك.

٢ ـ الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم: ٢٢٣.

٣ ـ السّيرة النّبويّة ١: ٢٣٥ – تفسير الطّبَريّ ٣٠: ١٦٢ وتاريخه ٣: ٣٥٣.

٤ – أُسد الغابة ٣: ٣٥٣.

٥ ـ أُسد الغابة ٣: ٣٥٣.

٦ ـ بحار الأنوار ١٨: ١٩٦.

ابن شهر اشوب في مناقبه [١]، والمجلسيّ في بحاره [٢].

لكنّ الكلام في صحّة نسبة التّفسير الموجودة إلى الإمام العسكريّ عليه السلام. وأمّا المناقب فأنّه يورد الأحاديث والتّواريخ مرسلة لامسندة، والمجلسيّ اعتمد على هذه المصادر الّتي عرفت حالها.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٣]، فلو كان التّنزيل هو النّزول التّدريجيّ، فلماذا وصفه بقوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾.

الثّاني: أنّ القرآن نزل دفعةً واحدةً إلى البيت المعمور، حسبما نطقت به الرّوايات الكثيرة، ثمّ صار ينزّل تدريجاً على الرّسول الأعظم.

[ثمّ ذكر رواية حَفْص بن غياث عن الإمام الصّادق عليه السلام كما تقدّم عن الكُلينيّ، فقال:]

ولو صحتّ الرّواية يجب التّعبد بها، وإلّا فما معنى نزول القرآن الّذي هو هدى للنّاس إلى البيت المعمور؟ وأيّ صلة لهذا النّزول بهداية النّاس الّذي يتكلّم عنه القرآن ويقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدٰى وَالْفُرْقَانِ﴾ [٤]. قال الشّيخ المفيد: الّذي ذهب إليه أبو جعفر... [وذكركما تقدّم عنه].

الثّالث: أنّ القرآن يطلق على الكلّ والجزء، فمن الممكن أن يكون المراد بنزول القرآن في شهر رمضان هو شروع نزوله في ليلة مباركة وهي ليلة القدر، فكما يصحّ نسبة النّزول إليه في شهر رمضان، إذا نزل جملةً واحدةً، تصحّ نسبته إليه إذا نزل أوّل جزء منه في شهر رمضان، واستمرّ نزوله في الأشهر القادمة طيلة حياة النّبيّ. فيقال: نزل القرآن في شهر رمضان، أي بدأ نزوله في هذا الشّهر، وله نظائر في العرف، فلو بَدأ فيَضان الماء في المسيل يقال: جرى السّيل في يوم كذا، وإن استمرّ جريانه وفيَضانه عدّة أيّام.

---

١ ـ مناقب آل أبي طالب ١: ٤٠.

٢ ـ بحار الأنوار ١٨: ١٩٦

٣ ـ الفرقان / ٣٢.

٤ ـ البقرة / ١٨٥.

وهذا هو الظّاهر من صاحب «المنار»؛ حيث يقول: وأمّا معنى إنزال القرآن في رمضان... [وذكركما تقدّم عنه].

الرّابع: أنّ جملة القرآن وإن لم تنزل في تلك اللّيلة، لكن لمّا نزلت سورة الحمد بها، وهي تشتمل على جلّ معارف القرآن، فكأنّ القرآن أُنزل فيه جميعاً، فصحّ أن يقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

يلاحظ عليه أن لو كانت سورة الحمد أوّل سورة نزلت على رسول‌الله لكان حقّ الكلام أن يقال: قُل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ * اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أو يقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قل: ﴿اَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. وهذا يعرب عن أنّ سورة الحمد ليست أوّل سورة نزلت على النّبيّ. هذه هي الوجوه الّتي ذكرها المفسّرون المحقّقون، والثّالث هو الأقوى. (العدد: ٤: ١٤٢، عام ١٤١١ ه)

---

١ ـ الميزان ٢: ٢١.

الفصل الحادي والسّبعون

نصّ الشّيخ الأراكيّ في «مجلّة رسالة القرآن»

كيف نزل القرآن؟

لاشكّ أنّ القرآن نزل نجوماً وعلى التّدريج، وأنّ آياته تـتابعت طـبق المـناسبات والظّروف الّتي كانت تمرّ بها رسالة الله في مسيرها الجهاديّ الظّافر تحت قيادة الرّسول الكريم ﷺ، وقد لمّحت إلى هذا النّزول التّدريجيّ للقرآن الآية الكريمة: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[2].

ومع ذلك فإنّ هناك نصوصاً قرآنيّة تشير إلى دفعيّة النّزول القرآنيّ، على ما يفهم من ظاهرها، وذلك كما في الآيات المباركة التّالية:

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[4]، وقال تعالى ﴿إِنَّا

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٥].

وقد اختلف الباحثون الإسلاميّون في وجه الجمع بين الأمرين، وقد ذكروا في ذلك آراء ونظريّات، نعرض فيمايلي لأهمّها؛

النّظريّة الأُولى

وهي الّتي تعتبر للقرآن نزولين: النّزول الأوّل إلى البيت المعمور، أو بيت العـزّة – حسب بعض التّعابير – وهذا هو النّزول الدّفعيّ الّذي أشارت إليه بعض الآيات السّابقة، والنّزول الثّاني على النّبيّ محمّدﷺ بالتّدريج، وطيلة المدّة الّتي كان يمارس فيها مهمّته القياديّة في المجتمع الإسلاميّ.

[ثمّ ذكر رواية عن الإمام الصّادق عليه السلام في قول تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾ كما تقدّم عن الكُلينيّ، فقال:]

وقد نقل ما يقارب هذا عن ابن عبّاس أيضاً، فقد روي عنه أنّه قال: أُنزل القـرآن جملةً واحدةً إلى سماء الدّنيا ليلة القدر، ثمّ أُنزل بعد ذلك بعشرين سنة[٦].

وقد خالف المحقّقون من علماء القرآن هذا الرّأي، ورفضوا النُّصُوص الّتي وردت فيها، ورَمَوها بالضّعف والوهن، وأقاموا شواهد على بطلانه؛ يقول الشّيخ المفيد؛ تـعقيباً على هذه النّظريّة الّتي أخذ بها أبو جعفر بن بابويه الصّدوق :...[وذكركما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

ثمّ يستشهد؛ ببعض الشّواهد القرآنيّة الأُخرى الّتي تؤكّد النّزول التّدريجيّ للقرآن، وتقوم قرينة على بطلان النّزول الدّفعيّ له.

ويناقش صاحب المنار هذه النّظريّة أيضاً ويرفضها قائلاً:...[وذكركما تقدّم عنه، ثمّ قال:] إذن فأهمّ ما يرد على هذه النّظريّة يتلخّص في شيئين:

١ – ورود الآيات القرآنيّة في بعض المناسبات الخاصّة؛ بحيث لايعقل التّكلّم بتلك

---

٤ ـ الدّخان / ٣.

٥ ـ القدر / ١.

٦ ـ الإتقان ١: ٤٠.

الآية قبل تلك المناسبة المعيّنة.

٢ - عدم تعقّل فائدة النّزول الأوّل للقرآن من حيث هداية البشر، فلا وجه لهذه العناية به في القرآن والاهتمام به: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

النّظريّة الثّانية

إنّ المراد من إنزاله في شهر رمضان، وفي ليلة ابتداء القدر منه ابتداء إنزاله في ذلك الوقت. ثمّ استمرّ نزوله بعد ذلك على الرّسول ﷺ بالتّدريج ووفقاً للمناسبات والمقتضيّات.

[ثمّ ذكر قول رشيد رضا، في معنى إنزال القرآن، وقول الشّيخ المفيد، كما تقدّم عنهما، فقال:]

ويبدو أنّ هذا الرّأي هو الّذي استقطب أنظار الأغلبيّة من محقّقي علوم القرآن والتّفسير، نظراً إلى كونه أقرب الآراء إلى طبيعة الأُمور، وأوفقها مع القرائن وظواهر النّصوص القرآنيّة، فإنّ القرآن يطلق على القرآن كلّه كما يطلق على جزء منه، ولذلك كان للقليل من القرآن نفس الحرمة والشّرف الثّابتين للكثير منه، فنزول جزءٍ من القرآن - استهلّ به الوحي الإلهيّ في ليلة القدر من شهر رمضان - يصدق معه نزول القرآن في ليلة القدر وفي شهر رمضان.

وتأييداً لهذه الفكرة، فإنّنا نحاول الاستفادة من التّعابير الجارية بين عامّة النّاس حين يقولون مثلاً: سافرنا إلى الحجّ في التّاريخ الفلانيّ، وهم لايريدون بذلك إلّا مبدأ السّفر. أو نزل المطر في السّاعة الفلانيّة، ويقصد به ابتداء نزوله، فإنّه قد يستمرّ إلى ساعات، ومع ذلك يصحّ ذلك التّعبير.

وبعبارة أُخرى إنّنا نلاحظ صحّة هذا النّوع من الاستعمال في الأسماء الّتي تطلق على قليل المعنى وكثيره على السّواء، كالمطر والسّفر وأمثالهما، بخلاف مالا يطلق إلّا على المعنى بكامله، كالبيت مثلاً، فإنّه لايصحّ في العادة أن يعبّر عن الشّروع ببنائه بعبارة بنينا البيت في الزّمان الفلانيّ، وكلمة «القرآن» كما أشرنا سابقاً تطلق على كلام الله مطلقاً قليله وكثيره، فمن الطّبيعيّ - إذن - التّعبير عن ابتداء نزوله بـ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

﴿الْقَدْرِ﴾ وما شاكل ذلك من التّعابير.

ولابُدّ أن نضيف على هذا الرّأي إضافة توضيحيّة، هي أنّ المقصود من كون ابتداء النّزول القرآنيّ في ليلة القدر من شهر رمضان ليس ابتداء الوحي على النّبيّ ﷺ، فإنّ افتتاحة الوحي المحمّديّ كانت لسبع وعشرين خلون من رجب – على الرّأي المشهور – وكانت الآيات الّتي شعّت من نافذة الوحي على قلب الرّسول ﷺ لأوّل مرّة هي ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ...﴾ إلخ، كما سيأتي الحديث عن ذلك في فصله، ثمّ انقطع الوحي عنه لمدّة طويلة، ثمّ ابتدأه الوحيُ من جديد في ليلة القدر من شهر رمضان، وهذا الّذي تشير إليه الآية المباركة، واستمرّ الوحي عليه ﷺ حتّى وفاته. وبمّا أنّ هذا كان بداية استمرار النّزول القرآنيّ فقد صحّ اعتباره بداية لنزول القرآن.

النّظريّة الثّالثة

وهي النّظريّة الّتي اختصّ بها العلّامة الطّباطبائيّ، تعرّض لها باختصار مع توضيح، وهي تمثّل لوناً جديداً من ألوان الفكر التّفسيريّ انطبعت بها مدرسة السّيد الطّباطبائيّ في التّفسير. وهذه النّظريّة تعتمد على مقدّمات ثلاث تتلخّص فيما يلي:

أ – هناك فرق بين (الإنزال) و (التّنزيل)، والإنزال إنّما يستعمل فيما إذا كان المُنزَل أمراً وحْدانيّاً نزل بدفعةٍ واحدةٍ، والتّنزيل إنّما يستعمل فيما إذا كان المُنزَل أمراً تدريجيّاً، وقد ورد كلا التّعبيرين حول نزول القرآن: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾، ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾.

والتّعبير بـ(الإنزال) إنّما هو في الآيات الّتي يشار فيها إلى نزول القرآن في ليلة القدر، أو شهر رمضان بخلاف الآيات الأُخرى الّتي يعبّر فيها بـ(التّنزيل).

ب – هناك آيات يستشعر منها أنّ القرآن كان على هيئة وحدانيّة، لا أجزاء فيها ولا أبعاض، ثمّ طرأ عليه التّفصيل والتّجزئة، فجعل فصلاً فصلاً وقطعةً قطعةً؛ قال تعالى: ﴿كِتَابٌ اُحْكِمَتْ اٰيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[١].

فهذه الآية ظاهرة في أنّ القرآن حقيقة محكمة، ثمّ طرأ عليها التّفصيل والتّفريق

---

١ ـ هود / ٢.

بمشيئة الله تعالى، والإحكام الّذي يقابل التّفصيل هو وحدانيّة الشّيء وعدم تركّبه وتجزّئه.

ج – هناك آيات قرآنيّة تشير إلى وجود حقيقة معنويّة للقرآن غير هذه الحقيقة الخارجيّة اللّفيظة، وقد عبّر عنها في القرآن بـ(التّأويل) في غير واحدة من الآيات؛ قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[٢].

فالتّأويل على ضوء الاستعمال القرآنيّ هو الوجود الحقيقيّ والمعنويّ للقرآن، وسوف يواجه المنكرون للتّنزيل الإلهيّ تأويله وحقيقته المعنويّة يوم القيامة.

واستنتاجاً من هذه المقدّمات الثّلاث، فللقرآن إذن حقيقة معنويّة وحدانيّة ليست من عالمنا هذا العالم المتغيّر المتبدّل، وإنّما هي من عالم أسمى من هذا العالم، لاينفذ إليه التّغيّر ولايطرأه التّبديل. وتلك الحقيقة هو الوجود القرآنيّ المحكم الّذي طرأ عليه التّفصيل بإرادة من الله جلّت قدرته، كما أنّه هو التّأويل القرآنيّ الّذي تلمح إليه آيات الكتاب العزيز.

وإذا آمنّا بهذه الحقيقة فلا مشكلة إطلاقاً في الآيات الّتي تتضمّن نزول القرآن نزولاً دفعيّاً في ليلة القدر وفي شهر رمضان، فإنّ المقصود بذلك الإنزال هو هبوط الحقيقة المعنويّة للوجود القرآنيّ على قلب رسول الله محمّد ﷺ، وانكشاف ذلك الوجود التّأويليّ الحقيقيّ للقرآن أمام البصيرة الشّفّافة النّبويّة، فإنّ هذا الوجود المعنويّ هو الّذي يناسبه الإنزال الدّفعيّ، كما أنّ الوجود اللّفظيّ التّفصيليّ للقرآن هو الّذي يناسبه التّنزيل التّدريجيّ.

---

١ ـ يونس / ٣٨ – ٣٩.

٢ ـ الأعراف / ٥٢ – ٥٣.

وليس المقصود ممّا ورد من روايات عن أهل البيت حول النّزول الأوّل للقرآن في البيت المعمور إلّا نزوله على قلب النّبيّ محمّد ﷺ، فإنّه هو البيت المعمور الّذي تطوف حوله الملائكة، وقد رمز إليها الحديث بهذا التّعبير الكنائيّ.

وهذه النّظريّة مع ماتتّصف به من جمال معنويّ لانجد داعياً يدعونا إلى تكلّفها، كما لانرى داعياً يدعونا إلى محاولة نقضه وتكلّف ردّه، فليست النّظريّة هذه تتضمّن أمراً محالاً، كما لالزوم في الأخذ بها بعد أن وجدنا لحلّ المشكلة ما هو أيسر هضماً وأقرب إلى الذّهن. (العدد ١: ٨ عام ١٤١١ ه)

الفصل الثّاني والسّبعون

نصّ السّيّد مرتضى العامليّ في «حقائق هامّة»

التّرتيب والنّزول

وتبقى هنا بعض الأسئلة، الّتي يحسن بنا التّعرّض لها، وإن لم تكن من صلب موضوعنا، ولكن ممّا لاشكّ فيه: أنّها لابدّ وإن تدور بخلد القاريء، ويتطلّب لها الإجابة.

ولانريد هنا استقصاء الكلام فيها، وإنّما مانتوخّاه هو مجرّد إثارتها، والتّلويح بالأجوبة، الّتي تحتاج إلى المزيد من البحث، والتّوسّع، والتّتبّع. فإن مالا يدرك كلّه، لايترك كلّه... فإلى مايلي من صفحات.

نزول القرآن نجوماً، سورة سورة

قال تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1].

فهذه الآية قد دلّت: على أنّ القرآن قد نزل مفرّقاً، وأنّ رسول‌الله ﷺ قد قرأه على النّاس، في مدّة زمان متطاولة.

نعم، وهذا هو الثّابت تاريخيّاً أيضاً؛ فإنّه كان ينزّل عليه الشّيء بعد الشّيء، كلّما لزم الأمر، واقتضته المناسبة.

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

لكن يبقىٰ علينا أن نعرف: هل إنّه نزل مفرّقاً بصورة عِشوائيّة، ثمّ جمع ما نزل بصورة عِشوائيّة أيضاً، حتّى دخلت هذه الآية، أو الآيات المدنيّة فـي تـلك السّـورة المكّـيّة، وبالعكس؟! أي أنّه قد دخل المتقدّم في المتأخّر، والمتأخّر في المتقدّم... قليله وكثيره إلخ...

أم أنّه نزل تدريجاً على شكل سُوَر، بأن نزلت كلّ سورة على حِدة؟.

أو أنّه نزل تدريجاً، ودوّن تدريجاً كذلك؟!

أم ماذا؟

الجواب: أنّ الّذي نراه: هو أنّ معظم القرآن قد نزل سورة سورة، حتّى بعض السّور الطّوال أيضاً، كسورة الأنعام والمائدة، والتّوبة، مثلاً.

نعم، سورة البقرة، وربّما غيرها من السُّور الطّوال، قد نزلت تدريجاً؛ بمعنى أنّه ابتدأ نزولها، فنزل منها قسم في يوم، ثمّ لحقه قسم آخر في يوم آخر، وهكذا إلى أن نزلت ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فعلم انتهاء السّورة السّـابقة، وابـتداء سـورة جـديدة، حسـبما صرّحت به بعض الرّوايات، الواردة عن عُثمان، وعن ابن عبّاس، وسعيد بن جُبَير[١]. وعن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً...[٢]

١ ـ راجع: الدرّ المنثور ١: ٧ و ٣: ٢٠٨ عن أبي داود، والبَزّار، والدّارقُطني في الافراد، والطّبَراني، والبَيْهَقيّ في المعرفة. وفي شُعَب الإيمان، وفي السّنن الكُبرىٰ، وعن أبي عُبَيد، وفتح الباريّ ٩: ٣٩ وتفسير القرآن العظيم ١: ١٦ ونيل الأوطار ٢: ٢٢٨ ومستدرك الحاكم ١: ٢٣١ و ٢٣٢ وصحّحه على شرط الشّيخين، وتلخيص المستدرك للذّهبيّ، بهامشه، وأسباب النّزول للواحديّ: ٩ و ١٠ والسُّنن الكُبرىٰ ٢: ٤٢ و ٤٣ ومحاضرات الأُدباء المجلّد الثّاني، الجزء ٤: ٤٣٣ والإتقان ١: ٧٨ وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٥٦ و ٥٧ وراجع: ٥٥ عن بعض من تقدّم، والجامع لأحكام القرآن ١: ٩٥ وعمدة القاري ٥: ٢٩٢ ونصب الرّاية ١: ٣٢٧ والمستصفى ١: ١٠٣ وفواتح الرّحموت بهامشه ٢: ١٤ وتاريخ اليعقوبيّ ٢: ٣٤ والتّفسير الكبير ١: ٢٠٨ وغرائب القرآن، بهامش الطّبَريّ ١: ٧٧ والمصنّف للصّنعانيّ ٢: ٩٢ ومجمع الزّوائد ٦: ٣١٠، عن أبي داود والبَزّار وكنز العمّال ٢: ٣٦٨ عن الدّارقُطنيّ في الافراد، والتّمهيد في علوم القرآن ١: ٢١٢ عن الحاكم واليعقوبيّ، وسُنن أبي داود ١: ٢٠٩ والمنتقى ١: ٣٨٠ وتبيين الحقائق ١: ١١٣ وكشف الأستار ٣: ٤٠ ومشكل الآثار ٢: ١٥٣.

٢ ـ تفسير العيّاشيّ ١: ١٩ وعنه في التّمهيد في علوم القرآن ١: ٢١٢ وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٥٦ ومصباح الفقيه (كتاب الصّلاة): ٢٧٦.

ونسب القُرطُبيّ إلى الصّحابة[١]: إنّهم كانوا يعلمون انتهاء السّورة، وابتداء غيرها، بنزول ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾. فيكون نزول السّورة مستمرّاً إلى أن تنزّل البَسْملة.

وبذلك يعلم عدم صحّة رواية الشَّعْبيّ، الّتي تقول: إنّه ﷺ كان يكتب أوّلاً: باسمك اللّهم – كأهل الجاهليّة –، فلمّا نزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾[٢]، كتب: بسم الله. ثمّ نزل: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾[٣]؛ فكتب: بسم الله الرّحمان، فلمّا نزل: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٤]، فكتبها[٥].

أضف إلى ذلك كلّه. أنّنا لانتعقّل أن يبدأ نزول سورة، فتنزّل منها آيات، ثمّ يتوقّف عنها، فتنزّل عشرات السّور غيرها، ثمّ يعود بعد سنوات إلى السّورة الأُولى، فيكمّلها!!

كما أنّنا لانتعقّل أن تنزّل آية، أو آيات انيوم، فيتركها رسول‌الله ﷺ على حِدة، إلى أن تمضي سنوات، وتنزّل سور كثيرة، ثمّ يجعلها في سور أُنزلت حديثاً.

نعم يمكن أن تنزّل عليه آية أو آيات فعلاً، فيأمر بوضعها، ضمن سورة سبق نزولها، لكن هذا: لادليل عليه إلّا بعض ماورد في موردٍ أو موردين من هذا القبيل ...

ولعلّ ترتيب عليّ عليه السلام لمُصحفه، حسب النّزول، يلقي ظلالاً من الشّكّ على صحّة حتّى هذا المورد. فضلاً عن أن يكون ذلك من عادته وديدنه ﷺ إذ لوكان ﷺ يأمر بذلك لم يكن معنى لترتيبه ﷺ القرآن حسب النّزول ولا كان من حقّه ذلك أيضاً.

ولعلّه يمكن الاستدلال على ما نذهب إليه أيضاً بقوله تعالى: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا

---

١ ـ الجامع لأحكام القرآن ١: ٦٥.

٢ ـ هود/٤١.

٣ ـ الإسراء/١١٠.

٤ ـ النّمل/٣٠.

٥ ـ التّفسير الكبير ١: ٢٠٠، والجامع لأحكام القرآن ١: ٩٢، وأحكام القرآن للجصّاص ١: ٨، وراجع: السّيرة الحلبيّة ٣: ٢٠ و ١: ٢٤٩، والوزراء والكتّاب: ١٤، والتّنبيه والأشراف: ٢٢٥، وعُمدة القاري ٥: ٢٩١، والعقد الفريد ٤: ١٥٨، وطبقات ابن سعد ١ : قسم ٢، وبحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٥٣، وأُكذوبة تحريف القرآن: ٣٥ عن بعض من تقدّم، وعن كنز العمّال ٥: ٢٤٤، وعن رُوح المعاني ١: ٢٧.

وَفَرَضْنَاهَا﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾[٢].

وعبارة إذا ما أُنزلت سورة قد وردت في عدّة آيات.

وقد يؤيّد ذلك قوله تعالى أيضاً: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ...﴾[٣] وغيرذلك من آيات.

ولكن يمكن أن يردّ على هذا: بأنّه تعالى إنّما يخبر عن حالهم حين إنزال السّورة، وأمّا أنّ هذا الإنزال كان دفعةً أو تدريجاً، فليس في الآية ما يدلّ على ذلك...وكذا الحال بالنّسبة لآية سورة النّور أيضاً.

ولكنّنا لانرى هذه المناقشة سَليمة، ولا تامّة، فإنّ الّذين يقولون هذا القول، إنّما يقولونه بالنّسبة لما ينزل أمام أعينهم، ولاينتظرون إلى تمام نزول السّورة في أوقات متباعدة.

إلّا أن يكون قد أَطلق لفظ سورة، وأرادبها حتّى ما يعمّ الآية ولكنّه احتمال بعيد، ويحتاج إلى إثبات.

ترتيب القرآن حسب النّزول

ولكن لايخفى أنّ الّذي كان قرآنه مرتّباً على حسب النّزول، هو أمير المؤمنين عليه السلام.

وقول عِكرِمة - الّذي كان يرى رأي الخوارج -: أنّه لواجتمعت الإنس والجنّ، ليرتّبوه حسب النّزول لما استطاعوا[٤].

لامبرّر له فإنّ ذلك ممكن، ومقدور، وسهل وميسور، لمن عاصر النّبيّ صلى الله عليه وآله واطّلع على نزول الآيات تدريجاً، وكان رسول‌الله صلى الله عليه وآله -كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ - يُمليه على عليّ عليه السلام أوّلاً بأوّل، ويكتبه بخطّ يده، وما كتب آية إلّا وقد علّمه صلى الله عليه وآله تأويلها،

١ ـ النّور / ١.

٢ ـ التّوبة / ١٢٤.

٣ ـ البقرة / ٢٣.

٤ ـ راجع: الإتقان ١: ٥٨.

وتفسيرها، وناسخها، ومنسوخها..

ولعلّ عِكرِمة قد أراد بذلك تبرير عمل أُولئك الّذين جمعوا قرآناً لهم، حذفوا منه، التّفسير، والتّأويل، وشأن النّزول ولم يستطيعوا أن يرتّبوه حسب النّزول، أو لعلّهم لم يريدوا أن يفعلوا ذلك، لسبب أو لآخر.

ترتيب سُور المُصحف الموجود فعلاً

هذا، ولاشكّ في أنّ المُصحف الموجود فعلاً، وهو الّذي جمع عُثمان النّاس على قراءة واحدة فيه، هو القرآن الّذي أنزله الله على رسوله، لم ينقص منه، ولم يزد فيه شيء.

وأنّ سوره هي تلك السُّور الّتي نزلت، إمّا دفعةً واحدةً، أو تدريجاً، يُعلم معه انتهاء السّورة، وابتداء غيرها، بنزول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ولكن قد نجد فيما بأيدينا من نُصُوص ما يؤيّد: أن يكون ترتيب السُّور فيما بينها، إنّما كان من قبل الصَّحابة أنفسهم، وذلك مثل، ماروي من الاختلاف في ترتيب سور المصاحف المنسوبة لبعض الصّحابة – اختلافها – فيما بينها، ومع هذا المصحف الموجود فعلاً أيضاً.

ويدلّ على ذلك أيضاً ما [سيأتي] في فصل: جمع القرآن في عهد رسول‌الله ﷺ من سؤال ابن عبّاس لعُثمان: عن سبب وضع الأنفال وبراءة في موضعها الفعليّ من القرآن، فأجابه عثمان عن ذلك، بما يدلّ على أنّه اجتهاد منه، لمناسبة رآها فيما بينهما[1].

ترتيب آيات المصحف الفعليّ

أمّا بالنّسبة إلى ترتيب الآيات الموجودة في السُّور؛ فإنّنا نَميل إلى الاعتقاد: بأنّها قد بقيت على نفس الوضع الّذي كانت عليه في زمن الرّسول ﷺ.

ولعلّ ممّا يشهد لذلك ـ ولو جزئيّاً ـ: أنّ عدداً كبيراً من السُّور إن لم يكن معظمها،

---

١ ـ راجع المصادر، الّتي تقدمت لقول عُثمان: إنّه كان ﷺ إذا نزلت عليه سورة، قال: ضَعوها في الموضع، الّذي يذكر فيه كذا وكذا..

حتّى السّور الطّوال، قد تمّت، وأصبح لها شكلها الخاصّ بها، وعرفت وشاعت في عهد رسول‌الله ﷺ نفسه، وأصبح يعبّر عنها باسمها الموضوع لها، ويترتّب عليها بعض الآثار في الصّلاة وغيرها، وتصدر بشأنها بعض الأوامر [1].

بل لقد ورد التّعبير بـ «السّبع الطّوال، والمئين والمُفَصّل» الّتي هي تعبيرات عن طوائف من سُور القرآن، في بعض الرّوايات الواردة عن رسول‌الله ﷺ [2].

وأمّا ما روي من أنّ النّبيّ ﷺ كان يأمر في بعض الموارد، بوضع بعض الآيات الّتي نزلت عليه، في موضع معيّن، من سورة بخصوصها، فهو لاينافي ما قلناه، بل يؤكّده.

وأمّا ما رُوي: من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام، قد رتّب قرآنه على حسب النّزول، فهو أيضاً لاينافي ذلك، فلعلّ التّقديم والتّأخير، قد حصل في نفس السُّور، لافي آياتها.

كما أنّ ترتيب القرآن حسب النّزول، لاينافي: أن يأمر النّبيّ ﷺ في مورد، أو أكثر بوضع آية ما، في موضع ما فقد يكون عليه السلام قد رتّبه حسب نزوله، باستثناء هذا المورد، أو ذاك.

وأمّا بالنّسبة لوضع آيات الرّبا – الّتي يقال: إنّها آخر ما نزل [3] – في سورة نزلت في أوّل الهجرة، وهي سورة البقرة، فهو أيضاً، لاينافي ماقلناه، إذ لعلّ هذا المورد بخصوصه، ممّا تصرّف فيه النّبيّ ﷺ وأمر بوضعه في هذا الموضع.

هذا كلّه على تقدير صحّة الرّواية القائلة بأنّ آيات الرّبا هي آخر ما نزل.

ماذا عن تصرّف الصّحابة في تأليف القرآن؟

ويمكن أن يقال: إنّ الصّحابة قد تصرّفوا في تأليف القرآن، وفي آياته وذلك بدليل ما يدّعونه في حديث جمع القرآن، من العُسُب، واللِّخاف، وصدور الرّجال، من أنّهم وجدوا آيتين عند البعض؛ فألحقوهما بسورة التّوبة.

---

١ ـ راجع بعض الأحاديث والنّصوص في كتاب: بحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٩٧ و ٩٥ و١٠١.

٢ ـ راجع على سبيل المثال مشكل الآثار ٢: ١٥٤.

٣ ـ راجع: الإتقان ١: ٢٦ و ٢٧ عن العديد من المصادر وتاريخ الإسلام للذّهبيّ ٢: ٢٨٧.

بل جاء في بعض الرّوايات، قول عمر بن الخطّاب: «لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حِدة، فانظروا آخر سورة من القرآن، فألحقوهما في آخرها..»[١].

ومعنى ذلك؛ هو أنّ الصّحابة، قد اعملوا سلائقهم وذوقهم، في ترتيب آيات القرآن، فضلاً عن سوره.

ولعلّ ممّا يدلّ على ذلك؛ أنّهم يقولون أيضاً: إنّ بعض الآيات المنسوخة، قد تأخّرت فيه على النّاسخة، مع أنّ الأمر بحسب النّزول، لابدّ وأن يكون على العكس؛ فراجع ما ذكروه في آية تربّص المرأة المتوفّى عنها زوجها إلى الحَوْل، أو إلى أربعة أشهر وعشراً.[٢]

ولعلّ هذا يفسّر ما ورد، من أنّ من الأُمور، الّتي يقوم بها الإمام المهديّ، هو أنّه يعلّم النّاس القرآن، وفق ترتيب النّزول.

فعن الإمام الباقر عليه السلام: «إذا قام القائم من آل محمّد، ضرب فساطيط لمن يعلّم النّاس القرآن، على ما أنزله الله عزّ وجلّ؛ فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم؛ لأنّه يخالف فيه التّأليف»[٣].

ونقول: إنّ الشّواهد الآنفة الذّكر، لاتدلّ على تصرّف الصّحابة في آيات القرآن؛ إذ قد يكون النّبيّ صلى الله عليه وآله هو الّذي ألّفه على هذا النّحو، لكنّ المصلحة تقتضي؛ أن يعلّم الإمام المهديّ النّاس القرآن، على حسب ترتيب النّزول.

كما أنّ تقدّم الآية النّاسخة في الذّكر في القرآن، لايدلّ على التّصرّف فيه من قبل الصّحابة، فلعلّ النّبيّ صلى الله عليه وآله نفسه، هو الّذي أمرهم بوضعها في هذا المورد، لمصلحة ولمناسبة رآها، وإنّما يجب عدم تقدّمها على المنسوخة في النّزول، لا في الكتابة في المُصحف.

وأمّا بالنّسبة للرّواية عن عمر بن الخطّاب حول الآيات الثّلاث، وسائر ما يروى فيما يرتبط بجمع القرآن بعد رسول‌الله صلى الله عليه وآله فقد عرفنا ما فيه، وأنّ الجمع والتّأليف قد كان في

---

١ ـ راجع: فتح الباريّ ٩: ١٢ و ١٣ وتفسير الميزان ١٢: ٢٠ عن أبي داود في المصاحف.

٢ ـ راجع: بحوث في تاريخ القرآن وعلومه: ٢٣٧ وراجع أيضاً: الإتقان ١: ٢٤.

٣ ـ روضة الواعظين: ٢٦٥.

زمن رسول‌الله ﷺ نفسه، لابعده.

هذا بالاضافة إلى أنّه قد روي: أنّ سورة التّوبة، قد نزلت بتمامها دفعةً واحدةً.

فعن عائشة، عنه ﷺ قال: ما نزل عليّ القرآن إلّا آية، آية، وحرفاً حرفاً، خلا سورة البراءة، وقل هو الله أحد؛ فإنّهما نزلتا عليّ، ومعهما سبعون ألف صفّ من الملائكة، كلّ يقول: استَوص بنسبة الله خيراً [١].

لكن يرد على هذه الرّواية أنّها تقول: إنّ ما عدا سورة الإخلاص، وبراءة، كلّه قد نزل مفرّقاً مع أنّ الأمر على عكس ذلك، فهناك نصوص في نزول سورة الأنعام والمائدة، والمرسلات وكثير غيرها – نزوله – دفعةً واحدةً أيضاً.

إلّا أن يكون المراد: أنّ الفرق بين سورتي التّوبة، والإخلاص، وبين غيرهما من سور القرآن، هو في نزول سبعين ألف صفّ من الملائكة، لاغير. ولكن ظاهر الرّواية لايتلائم مع هذا التّوجيه أيضاً.

وكلمة أخيرة نقولها هنا

وهي: أنّه حتّى مع وجود بعض الرّوايات الدّالة على أنّ بعض الآيات الّتي تأخّر نزولها، قد وضعت في سور تقدّم نزولها؛ فإنّها لاتوجب القطع بأنّ ذلك قد حصل بالفعل، ولربّما يوصلنا التّحقيق في هذه الرّوايات إلى أنّها غير صحيحة، بحيث يثبت أنّها إنّما نزلت في زمان نزول تلك السُّورة.

كما أنّ ما يذكر من آيات مكّيّة في سورة مدنيّة، أو العكس، يحتاج هو الآخر إلى تحقيق، وتأمّل أيضاً.

فلقد تعوّدنا وجود الكثير من الرّوايات المكذوبة، أو الّتي تفتقر إلى الدّقّة في هذا المجال، هذا كلّه بالإضافة إلى أنّ ذلك ربّما يكون بأمر من رسول‌الله ﷺ في خصوص هذا المورد، أو ذاك.

وهكذا فإنّنا نخرج بنتيجة مفادها، أنّ دعوى وضع بعض الآيات في سور تقدّم

---

١ ـ مجمع البيان ٥: ١ عن الثّعلبيّ.

نزولها، تصبح موضع شكّ وريب، وأنّ روايات نزول بعض السّور دفعةً واحدةً، ونـزول بعض السُّور تدريجاً، حتّى تنزل ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فيعلم حينئذٍ ابتداء السّورة، وانتهاء غيرها - إنّ هذه الرّوايات - تبقى هي الأساس المعتمد، ولايعدل عنها إلّا فـي المورد الخاصّ، الّذي يثبت قطعاً، بعد التّحقيق والتّدقيق فيه، أنّه ليس كذلك.

(ص: ١٤١ - ١٥٠)

ونصّه أيضاً في «الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم صلّى الله عليه وآله»

البعثة في رجب أو في شهر رمضان، وكيفيّة نزول القرآن

المرويّ عن أهل البيت - وأهل البيت أدرى بما فيه، وأقـرب إلى مـعرفة شـؤون النّبيّ صلّى الله عليه وآله الخاصّة - أنّ بعثة النّبيّ صلّى الله عليه وآله كانت في السّابع والعشرين من شهر رجب، وهذا هو المشهور، بل ادّعى المَجْلِسيّ الإجماع عليه عند الشّيعة، وروي عن غيرهم أيضاً.[١]

وقيل: إنّه صلّى الله عليه وآله بعث في شهر رمضان المبارك، واختلفوا في أيّ يوم منه [٢]، وقيل: بعث في شهر ربيع الأوّل، واختلف أيضاً في أيّ يوم منه [٣].

واستدلّ القائلون: بأنّه صلّى الله عليه وآله قد بعث في شهر رمضان المبارك وليس في، رجب بأنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله إنّما بعث بالقرآن، والقرآن قد أُنزل في شهر رمضان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٤]، وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٥].

---

١ ـ راجع السّيرة الحلبيّة ١: ٢٣٨ عن أبي هُرَيْرة، وسيرة مغلطاي: ١٤ عن كتاب العتقيّ عن الحسين، ومنتخب كنز العُمّال هامش مسند أحمد ٣: ٣٦٢، ومناقب ابن شهر اشوب ١: ١٧٣ والبحار ١٨: ٢٠٤ و١٩٠.

٢ ـ راجع تاريخ الطَّبَريّ ٢: ٤٤، وسيرة ابن هِشام ١: ٢٥٦، وتاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٢ و٢٣، والبداية والنّهاية ٣: ٦.

٣ ـ المواهب اللّدنيّة ١: ٣٩، وسيرة مغلطاي: ١٤، وتاريخ اليعقوبيّ ٢: ٢٢، والتّنبيه والأشراف: ١٩٨، ومروج الذّهب ٢: ٢٨٧، والسّيرة الحَلَبيّة ١: ٢٣٨.

٤ ـ القدر / ١.

٥ ـ البقرة / ١٨٥.

ثمّ إنّ هنا إشكال لابدّ من الإشارة إليه، وحاصله أنّ الآيتين المتقدّمتين، وإن كانتا تدلّان على نزول القرآن دفعةً واحدةً، على أحد الاحتمالين في معنى الآيتين، إلّا أنّ قوله تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[١]، يدلّ على نزول القرآن متفرّقاً؛ لأنّه عبّر فيها بـ «نزّل» الدّالّ على النّزول التّدريجيّ، وفيما تقدّم عبّر بـ «أنزل» الدّالّ على النّزول الدّفعيّ، بالإضافة إلى أنّه يقول فيها: ﴿ فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾، وبالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾[٢].

وأيضًا يجب أن لاننسى هنا أنّ بعض الآيات مرتبط بحوادث آنيّة مقيّدة بالزّمان، كقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾[٣]، وكاعتراض الكفّار الآنف، وغير ذلك.

هذا كلّه عدا عن أنّ التّاريخ المتواتر يشهد بأنّ نزول القرآن كان تدريجاً، في مدّة ثلاث وعشرين سنة، هي مدّة الدّعوة.

وقد أُجيب عن إشكال التّنافي بين مادلّ على النّزول الدّفعيّ والنّزول التّدريجيّ بأنّ النّزول الدّفعيّ كان إلى البيت المعمور، حسبما نطقت به الرّوايات الكثيرة، ثمّ صار ينزل تدريجاً على الرّسول الأعظم صلى الله عليه وآله[٤].

وإذن فليكن نزوله التّدريجيّ قد بدأفي السّابع والعشرين من رجب، ولايبقى ثمّة منافاة.

وجواب آخر يعتمد على القول بأنّ القرآن قد نزل أوّلاً دفعةً واحدةً على قلب النّبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله لكنّه لم يؤمر بتبليغه، ثمّ صار ينزل تدريجاً بحسب المناسبات. وربّما يستأنس لهذا الرّأي ببعض الشّواهد الّتي لامجال لها[٥].

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

٣ ـ المجادلة / ١.

٤ ـ راجع تفسير الميزان ٢: ١٥.

٥ ـ راجع: تفسير الميزان ٢: ١٨، وتفسير الصّافي ١ المقدّمة التّاسعة، وتاريخ القرآن للزّنجانيّ: ١٠.

ورأي ثالث يقول: إنّ بدء نزول القرآن كان بعد البعثة بثلاث سنوات، أي بعد انتهاء الفترة السّرّية للدّعوة، كما ورد في عدد من الرّوايات، ونصّ عليه بعضهم [١]، وعلى هذا فلايبقى تنافٍ بين بعثته ﷺ في شهر رجب، وبين نزول القرآن في شهر رمضان المبارك [٢].

أمّا نحن، فنقول

أوّلاً: إنّ تتبّع الآيات القرآنيّة يعطي عدم ثبوت الفرق المذكور بين «الإنزال» و «التّنزيل»، فمثلاً قد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾ [٣]. كما ويلاحظ أنّه يستعمل كلمة «نَزَّلَ» تارة، وكلمة «أَنْزَلَ» ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ [٤]. ومثل ذلك كثير، لامجال لنا لتتبّعه فعلاً، وكلّ ذلك يدلّ على عدم صحّة هذا الفرق بين هاتين الصّيغتين، وقد أشار إلى هذا الجواب بعض المحقّقين وقال: ولوصحّ هذا الفرق بين الإنزال والتّنزيل لكان قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [٥] غلطاً؛ إذ لايمكن الجمع بين التّنزيل التّدريجيّ وبين جملةً واحدةً.

ثانياً: قولهم: إنّ النّبيّ ﷺ قد بعث بالقرآن، غير مسلّم، ولتكن الرّوايات الواردة عن أهل البيت والقائلة بأنّه ﷺ قد بعث في شهر رجب موجبة لوهن قولهم هذا.

ثالثاً: روايات نزول القرآن إلى البيت المعمور لامجال لإثباتها من طرق أهل البيت عليهم السلام ولا إلى الاطمينان إلى صحّتها، كما ذكره الشّيخ المفيد [٦]. وأمّا نزول القرآن أوّلاً دفعةً واحدةً على قلبه ﷺ فإنّ إثباته مشكل، ولا يمكن المصير إليه إلّا بحجّة.

رابعاً: حديث نزول القرآن بعد البعثة بثلاث سنوات، استناداً إلى ماورد من أنّ القرآن

---

١ ـ راجع التّمهيد في علوم القرآن ١: ٨٢ و ٨٣ عن الكافي ٢: ٤٦٠، وتفسير العيّاشيّ ١: ٨٠، والاعتقادات للصّدوق: ١٠١، والبحار ١٨: ٢٥٣، ومستدرك الحاكم ٢: ٦١٠، والإتقان ١: ٣٩ وتفسير شبّر: ٣٥٠، والبداية والنّهاية ٣: ٤، واليعقوبيّ ٢: ٣٤.

٢ ـ التّمهيد ١: ٨١ و ٨٣.

٣ ـ الإسراء / ٩٣.

٤ ـ الفرقان /٤٨.

٥ ـ الفرقان / ٣٢.

٦ ـ تصحيح الاعتقاد: ٥٨.

قد نزل خلال عشرين سنة، لايمكن الاطمينان إليه؛ إذ يمكن أن يكون ذلك قد جاء على نحو التّقريب والتّسامح، ولم يرد في مقام التّحديد الدّقيق، ومن عادة النّاس أن يلقوا الزّائد القليل، أو أن يضيفوه في إخباراتهم، وليس في ذلك إخبار بخلاف الواقع؛ لأنّ المقصود هو الإخبار بما هو قريب من الحدّ، لا بالحدّ نفسه، مع إدراك السّامع لذلك والتفاته إليه.

والنّتيجة هي أنّه لامانع من أن يكون قد بعث ﷺ وصار نبيًّا في شهر رجب، كما أخبر به أهل البيت عليهم السلام وهيّيء ليتلقّى الوحي القرآنيّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[1]، ثمّ بدأ نزول القرآن عليه تدريجاً في شهر رمضان المبارك. ولربّما يؤيّد ذلك ماورد من أنّ الملك كان يترائىٰ له ﷺ قبل أن ينزل عليه القرآن[2].

ويرى المحقّق البحّاثة السّيد مهديّ الرّوحانيّ حفظه الله أنّه يمكن الجمع بين الآيات، بأن يقال: إنّ شروع نزول القرآن كان في ليلة مباركة، هي ليلة القدر من شهر رمضان: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[3]، ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[4]، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[5]. وكان أوّل ما نزل حسب روايات أهل البيت عليهم السلام ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ۞ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ...﴾[6].

والاستدلال بهذه الآيات على أنّ القرآن نزل أوّلاً دفعةً إلى البيت المعمور أو على قلب النّبيّ، ثمّ صار ينزل تدريجاً في مدّة عشرين، أو ثلاث وعشرين سنة، وذلك اعتماداً على قرينة الحال؛ حيث إنّ المسلمين يرون نزوله تدريجاً غير صحيح؛ لأنّ من الممكن أن يكون المراد بالإنزال والتّنزيل واحد، وهو بدء النّزول، فإنّه إذا شرع نزول المطر في

---

١ ـ المزّمّل / ٥.

٢ ـ التّمهيد في علوم القرآن ١: ٨٣ ويحتمل أيضاً أن يكون القرآن قد نزل في شهر رمضان في ليلة القدر دفعةً، لكنّه لم يؤمر بتبليغه، ثمّ صار ينزل عليه تدريجاً لأجل التّبليغ في المناسبات المقتضية لذلك.

٣ ـ القدر / ١.

٤ ـ الدّخان / ٢.

٥ ـ البقرة / ١٨٥.

٦ ـ العلق / ١.

اليوم الفلانيّ، واستمرّ لعدّة أيّام، فيصحّ أن يقال مثلاً: سافرت يوم أمطرت السّماء، أي في اليوم الأوّل من بدء نزوله. وكذلك الحال بالنّسبة للقرآن، فإنّه إذا بدأ نزوله في شهر رمضان، في ليلة القدر، فيصحّ أن يقال: نزل القرآن في شهر رمضان، ويكون المراد أنّه قد بدأ نزوله التّدريجيّ. وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ محتف بقرينة حاليّة يعلمها كلّ أحد، وهو نزول خصوص أوّل سورة ﴿اِقْرَاْ﴾، واستمرّ ينزل تدريجاً بعد ذلك. وهذا كما صحّ أن يقال: ﴿كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾، مع أنّ المطر ينزل تدريجاً، وما ذلك إلّا لأهميّة ذلك اليوم وخطره، وكلّ حادث خطيرله امتداد زمنيّ، إنّما يُسجَّل يوم شروعه، فإذا قيل مثلاً: متىٰ كانت دولة العبّاسيّين، فسيكون الجواب بذكر سنة التّأسيس.

وأمّا حديث البُخاريّ في بدء الوحي والدّالّ على اقتران نزول القرآن بالنّبوّة فسيأتي أنّه باطل لا يصحّ.

ونزيد نحن أنّه قد يمكن تقريب ذلك بأنّ قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾، إنّما هو حكاية عن أمر سابق، ولا يشمل هذا الكلام الحاكي له إلّا بضرب من العناية والتّجوّز، ولا الّذي يأتي بعده، وإلّا لجاء التّعبير بصيغة المضارع أو الوصف، فإنّه يكون حينئذ هو الأوفق[1].

ولعلّ ابن شهر اشوب كان ينظر إلى هذا حين قال في متشابهات القرآن: والصّحيح أنّ القرآن في هذا الوضع لا يفيد العموم، وإنّما يفيد الجنس، فأيّ شيء نزل فيه فقد طابق الظّاهر[2]. (١: ١٩٢ - ١٩٧)

---

١ ـ التّمهيد في علوم القرآن ١: ٨٤.

٢ ـ التّمهيد في علوم القرآن ١: ٨٥.

الفصل الثّالث والسّبعون

نصّ الملكيّ في «تفسير مناهج البيان»

﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ...﴾ القيامة/١٦ – ١٨

[ذكر في بدء الكلام قول الكشّاف ورواية ابن عبّاس عن الطّوسيّ، كما تقدّم عنهما، ثمّ قال:]

أقول: هل المراد أنّه ﷺ تبادر على زعمهم بابتداء القراءة قبل أن يتمّها بأسرها جبريل عليه السلام؟ أو أنّه ﷺ كان يتّبع قراءة جبريل حرفاً بعد حرفٍ، وكلمة بعد كلمة، ولم يصبر حتّى يفرغ جبريل عن قراءته؟ ونظيره الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾[1]. [ثمّ ذكر قول الطّبرسيّ كما تقدّم عنه، فقال:]

أقول: لاظهور ولا دلالة في الآية الكريمة، ولافي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ...﴾ على أنّه ﷺ كان يستعجل بالقراءة، وينازع جبريل في قراءته. وإنّما اعتمدوا في ذلك على مرسلات تاريخيّة واهية لايجوز الاستناد والاتّكاء عليها وعلى نظائرها في باب التّفسير وباب الإفتاء بالحلال والحرام.

وليس النّهي في الآية نهياً تشريعيّاً مولويّاً كي يدلّ على كراهة المسارعة أو

---

١ ـ طه / ١١٤.

تحريمها. ولا دليل على أنّ النّهي كان بعد ارتكاب المنهيّ. فإنّ أقصى ما يدلّ عليه النّهي في باب النّهي التّشريعيّ، الزّجر والمنع عن الطّبيعة المنهيّة. بل الظّاهر أنّ الآية الكريمة تذكرة وإرشاد إلى حسن التّثبّت والتّأنّي في شؤون الرّسالة، وترسيم لأهمّ وظيفة من وظائفه ﷺ وتأديب إلهيّ في شأن خطير من شؤون الرّسالة والنّبوّة في كيفيّة أخذ الرّسالة وتلقّي النّبوّة.

وما ذكره الزّمخشريّ من أنّه كان مسارعةً إلى الحفظ وخوفاً من أن يتفلّت منه، لامحصّل له. فإنّه ﷺ ما كان يتخوّف على نفسه النّسيان وذهاب الوحي والقرآن عن ذكره وحفظه؛ وقد أنزل تعالى عليه سورة الأعلى في مكّة في أوائل أمره، وفيها قوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ ﴾[١].

فهو ﷺ كان يقرأ بإقرائه تعالى، ويستحيل منه النّسيان. ويجب على الزّمخشريّ وأمثاله أن يعرفوا أنّ سورة الأعلى قد نزلت قبل هذه السّورة المباركة وقبل سورة طه، فلا مجال أن يقال إنّه ﷺ كان يتخوّف أن يتفلّت القرآن منه. ولايجوز التّشبّث بالاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللّٰهُ﴾. فالظّاهر أنّ قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ - إلى قوله - نُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرىٰ﴾ مسوق في مقام الامتنان وإبراز العطف والحنان على رسول‌الله ﷺ فليس معنى الآية أنّه تعالى إن شاء يقرئه ولم ينسه، وإن لم يشألم يقرئه فينسه؛ فيخرج الآية عن سياق الامتنان، ويبطل الغرض المسوق له الكلام، فينزل الغرض في الآية منزلة الأُمور العادية. فالعناية في الاستثناء التّحفّظ على التّوحيد، والتّحفّظ على إطلاق قدرته تعالى، وأنّه - سبحانه - ليس مغلول اليد، وأنّ كرامته تعالى على رسوله سواء كانت قبل مرتبة فعليّته العطاء أو في مرتبة فعليّة ليست على نحو الإيجاب، بل إكرامه إيّاه وتفضّله عليه بمشيّته وعمده واختياره تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ... ﴾ ففيه وجوه ثلاثة:

الأوّل: أنّه إخبار عمّا يفعله لرسوله من كرامة الإقراء وعدم النّسيان في المستقبل.

والثّاني: أنّه ميعاد من الله ـ سبحانه ـ بما يعطيه من كرامة الإقراء.

---

١ ـ الأعلى / ٦ – ٨.

والثّالث: أنّه بيان لسنّته الفاضلة وعادته الكريمة في حقّ رسوله وصفيّه ﷺ كما في قولنا: فلان يقري الضّيف، ويكرم الجوار؛ أي: إنّ هذا من دأبه وعادته.

فالظّاهر هو الثّالث؛ إذ فيه بروز الامتنان والتّجلّي بالعطف والحنان. وإذا دخلت على الفعل المضارع السّين يفيد تأكّد تلك السّنّة المستمرّة الإلهيّة بالنّسبة إلى رسول‌الله ﷺ لاتأكّد وقوعها في الاستقبال وتمحّضه وتخلّصه للاستقبال.

واستعمال السّين في الاستمرار – ولو في غير مورد الامتنان – غير عزيز في كلامه تعالى، سواء كان بحسب الوضع؛ كما ذكره ابن هِشام عن بعض النّحويّين – خلافاً للمشهور – أو قلنا إنّه بسبب القرائن المقاميّة؛ كما في قوله تعالى:

﴿سَتَجِدُونَ اٰخَرِينَ يُرِيدُونَ اَنْ يَاْمَنُوكُمْ وَيَاْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا اِلَى الْفِتْنَةِ اُرْكِسُوا فِيهَا فَاِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا اِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا اَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾[١].

وقد تبيّن من جميع ما ذكرنا أنّ قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَنْسىٰ﴾ كافٍ وشافٍ في عصمته ﷺ عن النّسيان، وأنّ قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾[٢]، بمعزل عن إفادة تخوّفه عن النّسيان. وقد أورد الرّازيّ في تفسيره ٣٠: ٢٢٢ ستّة أقوال لاجدوىٰ في إيرادها.

أقول: والسّرّ فيما وقع فيه القوم، إنّهم قد غفلوا أنّ نزول الملك على الإنسان، ومشاهدة الإنسان إيّاه ومكالمته مشافهةً، ونزول القرآن والوحي عليه بواسطة الملك، من باب الإعجاز، ومن الأُمور الخارقة للعادة. وكذلك أخذ الوحي والرّسالة والنّبأ الغيبيّ من الأشخاص المستورة تحت حجب الغيوب، مع أنّ الرّسول بشر مثلنا، من باب الاطّلاع والإشراف على الغيب المحجوب. وهو من أعظم معجزاته ﷺ وليس أمراً عاديّاً كي تجري فيه أحكام العادة ولوازمها من الخطأ والنّسيان.

وصفوة القول في ذلك بالبيان الإجماليّ: أنّه لايخفى عند الفقيه العارف بمقام الرّسالة والنّبوّة والإمامة أنّه – سبحانه – ما أرسل ملكاً رسولاً إلى أحد من البشر، وما جعل أحداً نبيّاً إلّا مقارنةً بإفاضة روح القُدُس عليه؛ وهو العلم الحقيقيّ والعيان الصّريح

---

١ ـ النّساء / ٩١.

٢ ـ القيامة / ٧١.

المصون والمعصوم بالذّات. فبهذا الرّوح القُدسيّ يعرف الملك بشخصه. وبهذا العيان الصّريح يأخذ القرآن والوحي، ويحمله ويحفظه ويقرؤه ويبلّغه، ويعرف أنّ ذلك وحي لاريب فيه؛ تنزيل من حكيم حميد. وهو الحجّة البيّنة الصّادقة بينه وبين ربّه، على رسالته ونبوّته وإمامته. وهو خاصّ بالأنبياء والرّسل والأوصياء الصّديقين. ويستحيل الاختلاف بينهم من أوّل الدّنيا إلى انقضائها. فكلّ سابق يبشّر باللاّحق ويصدّقه. واللاّحق منهم يؤمن بالسّابق ويصدّق ما تقدّم من الرّسل والكُتب. وكذلك الأوصياء الصّدّيقون بما أودعُوا من العلوم والشّرائع، وأُمروا بتبليغه ونشره. ولايتجاوز عن الأنبياء والأوصياء إلى غيرهم. وأمّا غيرهم، فليس عندهم إلّا أشياء مظلمة مغموسة مثار الاختلاف ومعركة للآراء؛ يسمّونها عندهم مكاشفةً أو قطعاً برهانيّاً، ويكفّر بعضهم بعضاً، ويجهّل بعضهم بعضاً. وللرّوح إطلاقات أُخرى.

قال تعالى:﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[1]

﴿ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً ... ﴾[2].

وفي البحار ٢٥: ٥٨، عن البصائر بإسناده عن المفضّل بن عمر قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض، وهو في بيته مرخىً عليه ستره فقال:

«يا مفضّل، إنّ الله تبارك وتعالى جعل للنّبيّ خمسة أرواح... وروح القُدُس فبه حمِل النّبوّة. فإذا قبض النّبيّ صلى الله عليه وآله انتقل فصار في الإمام. وروح القدس لاينام ولايغفل ولايلهو ولايسهو.» والرّوايات في هذا الباب كثيرة في جوامع الحديث.

أقول: وأمّا التّابعون للكتاب والسّنّة بالشّرائط المقرّرة في الشّريعة، فهم في نور وفي فسحة ونجاة عن هذه المزالق والمزلّات.

---

١ ـ البقرة / ٨٧.

٢ ـ الشّورىٰ / ٥٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[١]. الظّاهر من السّياق أنّ هذا بشارة وتأييد ووعد لرسوله ﷺ بجمعه القرآن وقراءته إيّاه عليه. فإنّ الظّاهر من الضّمير في قوله: ﴿جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أنّ المراد هو القرآن لا أبعاضه وأجزاؤه. والمعنى: إنّ على عهدتنا وماجرى به قضاؤنا الحكيم، أن نجمع هذا القرآن الّذي أنزلناه عليك متفرّقاً، وما ننزّله بعد ذلك، إلى تمامه وكماله. وكذلك علينا قرآنه عليك مجموعاً.

والقرآن مصدر من قرأ يقرأ على فُعلان، بمعني القراءة والتّلاوة. وسمّي الكتاب الكريم المنزل على رسول‌الله ﷺ قرآناً، باعتبار أنّه مقروّ ومتلوّ ومن جنس ما يُقرأ وما يتلى. وهذا من باب إطلاق الكتاب على المكتوب. وتوهّم بعضهم أنّه مأخوذ من قرأ بمعنى جمع – مثل: قرأت الماء في الحوض – وسمّي قرآناً باعتبار كونه مجموعاً[٢]. والتّحقيق ما ذكرناه.

فمعنى قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ أي: قراءته. قال الرّازيّ في تفسيره ٣٠: ٢٢٤: معناه: علينا جمعه في صدرك وحفظك.

أقول: يرد عليه أنّ الله سبحانه قد جمع ما أُنزل من القرآن متفرّقاً وتدريجاً في صدره وحفظه، فلا يصلح أن يكون مورداً لوعده تعالى؛ لأنّه تحصيل للحاصل. وتوجيه ذلك بأن نجمعه في صدرك وحفظك ونثبّته على لسانك، غير وجيه. لأنّه لايدفع الإشكال، مضافاً إلى أنّه يكون إقراءاً لاقراءةً.

إن قلت: أيّ مانع أن يقال أنّ مورد وعده تعالى، هو ما بقي من القرآن بعد هذه السّورة المباركة؟

قلت: لامانع منه بحسب الفرض، إلّا أنّ الآية الكريمة وإطلاقها لايلائم التّبعيض؛ بل الظّاهر أنّ مورد هذا الوعد الجميل الصّادق هو مجموع القرآن.

وفي التّبيان ١٠: ١٩٦، عن ابن عبّاس والضّحّاك: معناه: إنّ علينا جمعه في صدرك وقراءته عليك حتّى يمكنك تلاوته.

---

١ ـ القيامة/١٧.

٢ ـ مجمع البيان ج/١: ١٤.

أقول: يرد عليه أيضاً أنّ الله سبحانه قد جمع القرآن عند رسول‌الله ﷺ وقد كان حافظاً إيّاه متمكّناً من تلاوته. فلا يبقى مورد لهذا الوعد، حين أكرم الله رسوله بمفاد قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسىٰ﴾. وأمّا قوله: «وقراءته عليك» فهو موافق لظاهر الآية، فيجب الالتزام به، على ما سيجيء توضيحه عن قريب، إن شاء الله.

إن قلت: أليس ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ في مرحلة التّعليل لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾؟

قلت: نعم؛ إلّا أنّا أوضحنا فيما تقدّم حقيقة هذا النّهي، وذكرنا أنّ النّهي لا دلالة فيه على ارتكاب المنهيّ عنه، ولا الارتكاب من جملة شرائط النّهي. فلا دلالة في النّهي على تحقّق العجلة. ولا دلالة في العجلة – على فرض تحقّقه – على أنّه كان خوفاً من النّسيان؛ بل يجوز أن تكون لعناية أكيدة واهتمام خاصّ لشأن الوحي وأخذه، حبّاً إيّاه وشوقاً إليه، وغير ذلك. فالمتحصّل في المقام وجهان:

أحدهما أن يقال: إنّ مورد وعده تعالى بجمع القرآن، جمع مابقي منه بعد هذه السّورة المباركة، وقراءته عليه بقراءة جبريل.

وثانيهما: يجوز أن يقال: إنّ الله سبحانه كما جمع القرآن كلّه عند رسول‌الله ﷺ لايبعد أنّه قد جمعه عند جبريل عليه السلام فيقرأ تعالى القرآن على رسوله بقراءة جبريل. وهذا هو الظّاهر، فإنّ القارىء والمملي كان هو جبريل، وكان عالماً به وحافظاً إيّاه. فقوله تعالى: ﴿ قُرْآنَهُ ﴾ أي: قراءتنا عليك بقراءة جبريل مرّةً ثانية.

في البحار ٢٢: ٤٦٦، عن إعلام الورى والإرشاد: «... فلمّا أحسّ النّبيّ ﷺ بالمرض الّذي عراه، أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام واتّبعه جماعة من النّاس، وتوجّه إلى البقيع. فقال للّذي اتّبعه: إنّني قد أُمرت بالاستغفار لأهل البقيع.

فانطلقوا معه؛ حتّى وقف بين أظهرهم وقال: السّلام عليكم يا أهل القبور! ليهنّئكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه النّاس، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم، يتبع آخرها أوّلها.

ثمّ استغفر لأهل البقيع طويلاً، وأقبل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إنّ جبريل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن في كلّ سنة مرّة. وقد عرضه عليّ العام مرّتين. ولا أراه إلّا لحضور

أجلي.» وفيه أيضاً: ٤٧٣ عن أسباب النّزول للواحديّ نحوه.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[١].

لايبعد أن يقال: إنّ الآية الكريمة تفريع ممّا تقدّم من مفاد الآيتين؛ أي بيان وظيفته ﷺ في أخذ القرآن وتلقّي الوحي، ووعده تعالى الوعد الجميل الصّادق في قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾. أي: فإذا قرأنا عليك هذا القرآن بقراءة جبريل عند نزول القرآن متفرّقاً وبعد نزوله مجموعاً، فاتّبع قرآنه. ولا يخفى أنّ الأمر في قوله: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أمر إرشاديّ وتذكير إلى وجوب اتّباع القراءة والوحي كمّاً وكيفاً، وتذكرة أيضاً بوجوب اتّباع مفاد ما يقرأ ويتلو، لوضوح أنّ وجوب اتّباع القراءة وجوب طريقيّ، ولا يمكن تجريد القراءة عن الطّريقيّة في مرحلة وجوب اتّباع القراءة على الإطلاق. وعليه يتّضح أنّ معنى وجوب اتّباع القراءة، وجوب اتّباع مفادها ومحتواها من الحقائق والأحكام، بما أنّه وحي وشريعة إلهيّة، لا وجوب اتّباع ألفاظ جبريل عليه السلام عقيب قراءته وتلاوته.

وممّا ذكرنا يظهر سقوط ما ذكروه في تفسير المقام:

منها: ما ذكره في الكشّاف ٤: ١٩١ قال: فكن مقفّياً له فيه، ولا تراسله، وطأمِن نفسك أنّه لا يبقى غير محفوظ، فنحن في ضمان تحفيظه.

ومنها: ما تقدّم نقله عن الكشّاف أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ قال: فأمر بأن يَسْتَنصِت له ملقياً إليه بقلبه وسمعه، حتّى يقضى إليه وحيه؛ ثمّ يقفّيه بالدّراسة إلى أن يرسخ فيه.

ومنها: مافي تفسير الرّازيّ ٣٠: ٢٢٥، عن بعض المفسّرين ما خلاصته: إذا أتممنا عليك قراءته، فاتّبع قراءته بعد تمامها.

أقول: وأنت بعد التّأمّل فيما ذكرنا، تعرف أنّ الضّمير في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ راجع إلى القرآن لا إلى القارىء. ومنشأ هذه الأقاويل ليس إلّا ما ذكروه أنّ رسول‌الله ﷺ كان يستعجل لتلقّي الوحي خوفاً من النّسيان. فأمر بأن يستنصت حتّى يتمّ الوحي، ثمّ يتّبع قراءة القارئ.

---

١ ـ القيامة/١٨.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ وإن كان خطاباً شخصيّاً لرسول الله ﷺ ولكن حيث إنّ وجوب اتّباع القراءة حكم عقليّ، فلا محالة يكون وجوب الاتّباع الشّامل لمن عقل وعرف، من محكمات القرآن ومن المستقلّات العقليّة فيه. (٢٩: ٢٥٢ - ٢٥٩)

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ القدر / ١

تنقيح البحث في المقام يحتاج إلى تحرير أُمور:

الأوّل: إنّ الآية المباركة في صدر السّورة، لتعظيم موقع ليلة القدر وأهميّتها من بين ليالي السّنة، لوقوع عظائم الأُمور فيها من نزول القرآن والملائكة والرّوح بما يجري ويقع من الأُمور والحوادث الّتي تقدّر في هذه اللّيلة بتقدير العليم الحكيم. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾[1]. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[2].

والظّاهر من الآيتين في أوّل القدر والدّخان أنّ فيهما دلالةً على أنّ القرآن بتمامه نزل في ليلة القدر. واحتمال نزول القرآن بنزول أبعاضه احتمال ضعيف جدّاً. وأمّا الآية الأخيرة، فهي كالنّصّ في نزول القرآن بمجموعه في شهر رمضان.

واستشكل على ذلك بأنّ ضرورة التّاريخ قاضية بنزول القرآن من أوّل رسالته ﷺ تدريجاً إلى آخر وفاته في المدينة. وأُجيب عنه: بأنّ القرآن نزل بمجموعه إلى البيت المعمور، ثمّ نزل على رسول‌الله ﷺ تدريجاً في عرض ثلاث وعشرين سنة.

[ثمّ ذكر رواية حفص بن غياث عن الإمام الصّادق عليه السلام كما تقدّم عن الكُلينيّ، فقال:]

بيان: الظّاهر أنّ قوله عليه السلام. «إلى البيت المعمور»؛ أي: إلى من كان من أُمناء الوحي وخُزّان العلوم. قال سيّد العابدين عليه السلام في دعائه لحملة العرش وملائكة الله المقرّبين: «...

---

١ ـ الدّخان / ١ ـ ٥.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

والطّائفين بالبيت المعمور...».

أقول: حديث حَفْص بن غياث، وإن كان خبرًا واحداً لا يمكن الأخذ به على نحو الجزم، إلّا أنّه لايجوز ردّه أيضاً، لعدم استحالة مفاده عقلاً بحسب الواقع؛ وهو كافٍ في دفع التّنازع القطعيّ بين نزول القرآن في عرض ثلاث وعشرين سنة وبين نزول مجموعه في شهر رمضان في ليلة القدر. أي يصير التّعارض احتماليّاً لاقطعيّاً.

الثّاني: قال بعض المفسّرين في رفع الإشكال ما خلاصته: إنّه يحتمل أن يكون المراد من نزول القرآن في ليلة القدر، نزوله في مرتبة جملته وكلّيّته وفي مرتبة تجرّده. وقد نزل على قلب رسول‌الله ﷺ دفعةً واحدةً، ثمّ برز إلى عالم التّفصيل والتّفريق نجوماً وفصلاً. واعتمد في ذلك على وجوه:

الوجه الأوّل: إنّ لفظ «أنزل» ظاهر ومستعمل في النّزول الدّفعيّ. ثمّ استدلّ على لفظ الكتاب الحاكي – على زعمه – عن مرتبة الكلّيّة والتّجرّد.

وفيه أوّلًا: أنّ الفرق بين «أنزل» و «نزّل» بالمعنى الّذي ذكره، لاشاهد ولا دليل عليه، لابحسب المادّة ولا بحسب الهيئة. وثانياً: أنّ استعمال «أنزل» في النّزول التّدريجيّ و «نزّل» في النّزول الدّفعيّ غير عزيز في القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿طٰه * مَا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْاٰنِ لِتَشْقٰى﴾ [1]. ﴿وَكَذٰلِكَ اَنْزَلْنَاهُ قُرْاٰناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ اَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [2]. ﴿وَلَقَدْ اَنْزَلْنَا اِلَيْكَ اٰيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا اِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [3].

والتّوجيه الّذي ذكره في قوله: ﴿وَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [4] وإرجاع «أنزل» إلى النّزول الدّفعيّ، لاشاهد عليه ولايجوز الأخذ به. وقد استعمل «نزّل» في مورد الكتاب أيضاً. قال تعالى:

---

١ ـ طه / ١ - ٢.

٢ ـ طه / ١١٣.

٣ ـ البقرة / ٩٩.

٤ ـ لقمان / ١٠.

﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللّٰهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[1].

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2].

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾[3].

﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّٰهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[4].

الوجه الثّاني: استشهد بقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[5]. فإنّ هذا الإحكام مقابل التّفصيل... [وذكركما تقدّم عن العلّامة الطّباطبائيّ، ثمّ قال:]

وفيه أنّ المراد من معنى الإحكام ما هو في مقابل التّشابه؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾[6].

وهو من نعوت الدّلالة في الكلام والألفاظ، لا من نعوت الوجود العينيّ بما هو موجود مجرّد عينيّ أو موجود عينيّ. وبعبارة أُخرىٰ: معنى الإحكام في الألفاظ والكلام ما ذكرناه. والتّفصيل في مقابل الإجمال والإبهام. أي: مبيّن ومشروح. فكلامه تعالى محكم لاتشابه فيه ولاتناقض ولاخلل ولا نقص، ومفصّل لا إجمال فيه ولا إبهام.

قال في الجوامع: ٢: ١٣٤ ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ نَظْماً محكماً لانقص فيه ولا خلل كالبناء المحكم... ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ كما تفصّل القلائد بدلائل التّوحيد والمواعظ والأحكام... ومعنى «ثمّ» التّراخي في الحال لافي الوقت. كما تقول: هي محكمة أحسن الإحكام، ثمّ مفصّلة أحسن التّفصيل. و ﴿الْكِتَابَ﴾ خبر مبتدأ محذوف ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ﴾ أحكمها و ﴿خَبِيرٍ﴾ عالم فصّلها؛ أي: بيّنها وشرحها.

---

١ ـ البقرة / ١٧٦.

٢ ـ آل عمران / ٣.

٣ ـ النّحل / ٨٩.

٤ ـ الأعراف / ١٩٦.

٥ ـ هود / ١.

٦ ـ آل عمران / ٧.

الوجه الثّالث: قال ﷺ بعد عدّة آيات أوردها في هذا المقام ما ملخّصه: قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]. وجه الاستدلال: إنّ الضّمير راجع إلى القرآن المعلوم بحسب السّياق. قوله تعالى: ﴿كَرِيمٌ﴾ نعت وتجليل للقرآن المحمود عندالله سبحانه لما فيه من الحقائق والمعارف والأحكام. قوله تعالى: ﴿فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ نعت ثانٍ للقرآن؛ أي: محفوظ ومصون عن التّغيير والتّبديل. وهو اللّوح المحفوظ. كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾[٢]. قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة للكتاب المكنون. ويمكن أن يكون وصفًا ثالثاً للقرآن. ومآل الوجهين على تقدير كون «لا» نافيةً واحداً. والمعنى: لايمسّ الكتاب المكنون الّذي فيه القرآن إلّا المطهّرون. أو لايمسّ القرآن الّذي في الكتاب إلّا المطهّرون. والمطهّرون اسم مفعول من التّطهير، وهم الّذين طهّر الله سبحانه نفوسهم من أرجاس المعاصي وقذارات الذّنوب، أو ممّا هو غير المناسب للمسّ الّذي هو العلم دون الطّهارة من الخبث أو الحدث كما هو ظاهر.

أقول: القرآن مصدر بمعنى المفعول؛ أي: المقروء ومن جنس ما يقرأ ويتلى. قوله تعالى: ﴿كَرِيمٌ﴾ نعت وتمجيد للقرآن المبين؛ أي: ذو كرامة ومكانة عندالله سبحانه لاشتماله على أُصول العلم وأُمّهات الشّرائع والمعارف والحقائق الأصيلة. قوله تعالى: ﴿فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ نعت ثان للقرآن الكريم. ولمّا يعلم ما المراد من الكتاب المكنون واللّوح المحفوظ ونظائرهما. فيحتمل قويّاً أن يكون المراد في المقام صحيفةً نوريّةً؛ أي العلم المفاض على عدّة من أوليائه الكرام من الملائكة المقرّبين والأنبياء والرّسل والصّديقين.

ومعنى كون القرآن في هذا الكتاب المكنون في مرتبة كونه مقروءًا ومتلوّاً، كونه معلوماً بهذا العلم عند حملته، لاكون القرآن المقروء والمتلوّ بنحو من الثّبوت والتّجرّد في هذا الكتاب وفي هذا اللّوح. فهؤلاء الحملة الكرام يعلمون القرآن ويحصونه بحقيقة العلم

---

١ ـ الواقعة / ٧٧ ـ ٨٠.

٢ ـ البروج / ٢١ ـ ٢٢.

والإحصاء ويشهدون أنّه حقّ مبين لاريب فيه. كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾. هذا نعت ثالث للقرآن. والمراد من المسّ هو المسّ الظّاهريّ بين الأجسام. وليس في محاورات القرآن الكريم استعمال المسّ واللّمس بمعنى الإدراك سيّما إدراك الحقائق الغيبيّة النّوريّة. واستعمال لفظ المسّ واللّمس في القرآن الكريم، إنّما هو في إلصاق الأجسام. قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [٢]، ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [٣]

وأقصى ما يمكن أن يقال في المقام مسّ العذاب والإحراق والبأساء والضّراء مثل قوله تعالى:

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [٤].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [٥].

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [٦].

واستعمال المسّ واللّمس في الإدراك – كما اشتهر في زماننا في الخطابات و المحاورات العادية – أجنبيّ عن محاورات الكتاب والسّنّة ولايصغى إليه. فتحصّل في المقام أنّ قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ جملة خبريّة منفيّة أُريد بها الإنشاء. فإنّه أبلغ وأوفى في إفادة المنع والتّحريم. والمراد من المسّ هو المسّ الظّاهريّ. فالآية الكريمة تفيد المنع والنّهي عن مسّ الكتاب الكريم إلّا عمّن كان متطهّراً من الأحداث والخبائث.

في نور الثّقلين ٥: ٢٢١، عن الاستبصار بإسناده عن إبراهيم بن عبد الحَميد، عن أبي

---

١ ـ يس / ١٢.

٢ ـ البقرة / ٢٣٧

٣ ـ مريم / ٢٠.

٤ ـ القمر / ٤٨.

٥ ـ فصّلت / ٥١.

٦ ـ الأعراف / ١٨٨.

الحسن عليه السلام قال: المصحف لاتمسّه على غير طهر ولا جنباً ولا تمسّ خطّه ولا تعلّقه. إنّ الله تعالى يقول: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾.

قال في المجمع ٩: ٢٢٦: وقيل: المطهّرون من الأحداث والجنابات. وقالوا: لايجوز للجنب والحائض والمحدث مسّ المصحف. عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. هذا نعت رابع للقرآن المذكور في صدر الآيات الكريمة. فقد أقسم تعالى بمواقع النّجوم في إبطال مقالات المشركين وارتيابهم في شأن القرآن الكريم الّذي بين أظهرنا – مؤكّداً بإنّ ولام التّأكيد – أنّ هذا القرآن ليس بشعر ولاسحر، بل هو قرآن ذو كرامة وجلالة عندالله – سبحانه – محرّم مسّ خطوطه إلّا على من كان طاهراً من الأحداث والجنابات والخبائث. وحيث إنّ تنزيل هذا القرآن عين فعله – سبحانه – وهو تعالى أصدق شاهد أنّه منزّل من عنده – جلّ شأنه – لايرتاب فيه إلّا المبطلون المعاندون. فهذه النّعوت الأربعة للقرآن، كلّها في عرض واحد.

والمستفاد من قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾[١] أنّ الغرض المسوق له الكلام تعظيم الشّهر وترفيع شأنه من حيث إنّه أُنزل فيه القرآن. (٣٠: ٥٩٣-٥٩٩)

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

الفصل الرّابع والسّبعون

نصّ السّيد الحكيم في «علوم القرآن»

نزول القرآن على النّبيّ مرّتين

في رأي عدد من العلماء أنّ القرآن الكريم نزل على النّبيّ مرّتين:

إحداهما: نزل فيها مرّةً واحدةً على سبيل الإجمال، والمرّة الأُخرى نزل فيها تدريجاً على سبيل التّفصيل، خلال المدّة الّتي قضاها النّبيّ في أُمّته منذ بعثته إلى وفاته. ومعنى نزوله على سبيل الإجمال هو نزول المعارف الإلهيّة الّتي يشتمل عليها القرآن وأسراره الكُبرى على قلب النّبيّ؛ لكي تمتلىء روح النّبيّ بنور المعرفة القرآنيّة. ومعنى نزوله على سبيل التّفصيل هو نزوله بألفاظه المحدّدة وآياته المتعاقبة. وكان إنزاله على سبيل الإجمال مرّةً واحدةً؛ لأنّ الهدف منه تنوير النّبيّ، وتثقيف الله له بالرّسالة الّتي أعدّه لحملها. وكان إنزاله على سبيل التّفصيل تدريجيّاً؛ لأنّه يستهدف تربية الأُمّة وتنويرها، وترويضها على الرّسالة الجديدة، وهذا يحتاج إلى التّدرّج.

وعلى ضوء هذه النّظرية في تعدّد نزول القرآن يمكّننا أن نفهم الآيات الكريمة الدّالّة على نزول القرآن في شهر رمضان، أو إنزاله في ليلة القدر بصورة خاصّة، نحو قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[1]، وقوله:

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[١]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[٢]. فإنّ الإنزال الّذي تتحدّث عنه هذه الآيات ليس هو التّنزيل التّدريجيّ الّذي طال أكثر من عقدين، وإنّما هو الإنزال مرّةً واحدةً على سبيل الإجمال.

كما أنّ فكرة تعدّد الإنزال بالصّورة الّتي شرحناها تفسّر لنا أيضاً المرحلتين اللّتين أشار إليهما القرآن الكريم في قوله: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[٣]. فإنّ هذا القول يشير إلى مرحلتين في وجود القرآن؛ أولاهما: إحكام الآيات، والمرحلة الثّانية: تفصيلها، وهو ينسجم مع فكرة تعدّد الإنزال فيكون الإنزال مرّةً واحدةً على سبيل الإجمال، هي مرحلة الإحكام، والإنزال على سبيل التّفصيل تدريجاً هي المرحلة الثّانية، أي مرحلة التّفصيل.

التّدرّج في التّنزيل

استمرّ التّنزيل التّدريجيّ للقرآن الكريم طيلة ثلاث وعشرين سنة، وهي المدّة الّتي قضاها النّبيّ ﷺ في أُمّته منذ بعثته إلى وفاته، فقد بعث ﷺ لأربعين سنة، ومكث بمكّة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه، ثمّ هاجر إلى المدينة وظلّ فيها عشر سنين، والقرآن يتعاقب ويتواتر عليه حتّى مات وهو في الثّالثة والسّتّين من عمره الشّريف.

وقد امتاز القرآن عن الكُتب السّماويّة السّابقة عليه بإنزاله تدريجاً، وكان لهذا التّدرّج في إنزاله أثر كبير في تحقيق أهدافه، وإنجاح الدّعوة وبناء الأُمّة، كما أنّه كان آية من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، ويتّضح كلّ ذلك في النّقاط التّالية:

١ - مرّت على النّبيّ والدّعوة حالات مختلفة جدّاً خلال ثلاث وعشرين سنة، تبعاً لما مرّت به الدّعوة من محن، وقاسته من شدائد، وما أحرزته من انتصار، وسجّلته من تقدّم. وهي حالات يتفاعل معها الإنسان الاعتياديّ، وتنعكس على روحه وأقواله

---

١ ـ القدر / ١.

٢ ـ الدّخان / ٢.

٣ ـ هود / ١.

وأفعاله، ويتأثّر بأسبابها وظروفها والعوامل المؤثّرة فيها. ولكنّ القرآن الّذي واكب تلك السّنين بمختلف حالاتها، في الضّعف والقوّة، في العُسر واليُسر، في لحظات الهزيمة ولحظات الانتصار، والتّنزيل تدريجاً خلال تلك الأعوام، كان يسير دائماً على خطّه الرّفع، لم ينعكس عليه أيّ لون من ألوان الانفعال البشريّ الّذي تثيره تلك الحالات. وهذا من مظاهر الإعجاز في القرآن الّتي تبرهن على تنزيله من لدن عليّ حكيم، ولم يكن القرآن ليحصل على هذا البرهان لولا إنزاله تدريجاً في ظروف مختلفة وأحوال متعدّدة.

٢ - إنّ القرآن بتنزيله تدريجاً كان إمداداً معنويّاً مستمرّاً للنّبيّ ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[١]، فإنّ الوحي إذا كان يتجدّد في كلّ حادثة كان أقوى للقلب، وأشدّ عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك نزول الملك إليه، وتجدّد العهد به، وتقوية أمله في النّصر، واستهانته بما يستجدّ، ويتعاقب من مَحن ومشاكل. ولهذا نجد أنّ القرآن ينزل مسلّياً للنّبيّ مرّةً بعد مرّةٍ مهوّناً عليه الشّدائد، كما وقع في محنة يأمره تارةً بالصّبر أمراً صريحاً، فيقول: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[٢]، وينهاه تارةً أُخرى عن الحزن، كما في قوله: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[٣]. ويذكّره بسيرة الأنبياء الّذين تقدّموه من أولي العزم فيقول: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٤]، ويخفّف عنه أحياناً، ويعلّمه أنّ الكافرين لا يجرحون شخصه، ولا يتّهمونه بالكذب لذاته، وإنّما يعاندون الحقّ بغياً، كما هو شأن الجاحدين في كلّ عصر، كما في قوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٥].

٣ - إنّ القرآن الكريم ليس كتاباً كسائر الكُتُب الّتي تؤلّف للتّعليم والبحث العلميّ، وإنّما هو عمليّة تغيير الإنسان تغييراً شاملاً كاملاً في عقله وروحه وإرادته، وصنع أُمّة،

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ المزّمّل / ١٠.

٣ ـ يوسف / ٦٥.

٤ ـ الأحقاف / ٣٥.

٥ ـ الأنعام / ٣٣.

وبناء حضارة، وهذا العمل لا يمكن أن يوجد مرّةً واحدةً، وإنّما هو عمل تدريجيّ بطبيعته، ولهذا كان من الضّروريّ أن ينزل القرآن الكريم تدريجاً؛ ليحكم عليه البناء، وينشىء أساساً بعد أساس، ويجتذّ جذور الجاهليّة. رواسبها بأناة وحكمة.

وعلى أساس هذه الأناة والحكمة في عمليّة التّغيير والبناء، نجد أنّ الإسلام تدرّج في علاج القضايا العميقة بجذورها في نفس الفرد أو نفس المجتمع، وقاوم بعضها على مراحل حتّى استطاع أن يستأصلها، ويجتذّ جذورها. وقصّة تحريم الخمر، وتدرّج القرآن في الإعلان عنها من أمثلة ذلك، فلو أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً بكلّ أحكامه ومعطياته الجديدة لنفر النّاس منه، ولما استطاع أن يحقّق الانقلاب العظيم الّذي أنجزه في التّاريخ.

(ص: ٣٤ - ٣٧)

الفصل الخامس والسّبعون

نصّ الدّكتور البوطيّ في كتابه: «من روائع القرآن»

نُزُول القُرْآن مُنَجَّمًا والحكمة في ذلك

يقول الله تعالى في كتابه: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[1]. ويقول أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً، كَذَٰلِكَ، لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2].

نعلم من دلالة هاتين الآيتين، وممّا ثبت ثبوتاً قاطعاً في السّنّة والتّاريخ عن طريق السّند الصّحيح، أنّ القرآن لم ينزل على رسول‌الله ﷺ جملةً واحدةً كما نزلت التّوراة على سيّدنا موسى، بل كان نزوله متدرّجاً، فتارةً تُنزل عليه الآية أو الآيتان أو ثلاث آيات، وتارةً تُنزل عليه سورة بجملتها، كالفاتحة، والمدّثّر، وهذا معنى أنّه كان ينزّل منجّماً، وقد ظلت آيات هذا الكتاب المبين تتتابع على مهل وتدرّج، حتّى نزلت آخر آية منها قبل وفاته ﷺ بتسع ليالٍ. وهو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّٰهِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

٣ ـ البقرة / ٢٨٠.

وذلك على ما رجّحه كثير من العلماء.

حكمة نزول القرآن منجّماً:

هنالك حكم هامّة وكثيرة تتعلّق بنزول القرآن منجّماً، نذكر منها ما يلي:

أوّلاً: لقد قضت سنّة الله تعالى في عباده أن يلاقي النّبيّ ﷺ أذىً كبيراً من قومه من أجل نهوضه بينهم بتبليغ رسالة ربّه، وقد لاقى من ذلك أنواع الشّدائد الّتي جعلته بينهم مدّة طويلة غريباً لا ناصر له.

ولقد كان لاتّصال الوحي به إذ ذاك وتتابع نزول الآيات عليه تشدّ من أزْرِه، وتحمّله على الصّبر والمصابرة، وتَعده بالنّصر والتّأييد في النّهاية كان لذلك أبلغ الأثر في مواساته وتخفيف تلك الشّدّة عنه وإزاحة معاني الغربة والضّعف عن نفسه. فمن هذه الآيات مثلاً قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ، وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[1]. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ...﴾ الآيات[2].

فلو أنّ القرآن نزل كلّه عليه جملةً واحدةً، لكان لانقطاع الوحي عنه بعد ذلك أثر كبير في استشعاره الوحشة والغربة. ومهما يكن رسول الله ﷺ قد أُوتي من العزيمة والصّبر، فإنّ لبشريّته أيضاً أثراً بيّناً في حياته ما دام أنّه بشر.

وقد كان لديه ﷺ من قوّة الإيمان بالله ما يكفي لأن يحمله على تبليغ دعوة ربّه والجهاد في سبيلها؛ ولكنّه على ذلك لم يكن به غناء عن المواساة والمعونة والتّصبير إذ يأتيه كلّ ذلك من ربّه المرّة تلو المرّة يعيده إلى الأمن والانشراح والأُنس والرّضىٰ.

وهذا المعنى هو ما عبّر عنه القرآن بالتّثبيت في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾.

ثانياً: كان رسول الله ﷺ أُمّيّاً لا يقرأ ولا يكتب، فليس لديه من الوسائل الكسبيّة ما يضبط ويحفظ به كلّ ما ينزل عليه إلّا وسيلة التّكرار والحفظ. فكان لابدّ من نزول الآيات

---

١ ـ ق / ٣٩ ـ ٤٠.

٢ ـ الحِجر / ٩٤ ـ ٩٩.

بتدرّج وخلال فترات متقطّعة من الزّمن حتّى يكون السّبيل إلى حفظه ووعيه أيسر. وعلى الرّغم من ذلك فقد كان من عادته ﷺ إذا نزلت عليه الآية من القرآن أن يأخذ في تكرارها ويستعجل في محاولة حفظها ويظلّ يحرّك لسانه بها خشية أن تتفلّت من حفظه إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[١].

ثالثاً: احتوى القرآن على متن الفقه الإسلاميّ كلّه، أي على عامّة أحكامه في الجملة سواء ما يتعلّق بالعبادات أو المعاملات المدنيّة أو الأحوال الشّخصيّة أو العقوبات أو النّظم الدّستوريّة والماليّة.

وكان العرب قبل الإسلام متفلّتين عن كلّ قيد، لا يخضعون لقانون ولا يرتبطون بأيّ تنظيم، فكان من العسير عليهم أن ينتقلوا من تلك الحالة في طفرة مفاجئة، إلى التّـقيّد بعامّة أحكام الإسلام ونظمه وقوانينه.

فمن أجل ذلك أخذهم القرآن في ذلك بالوسيلة التّربويّة الّتي لابدّ منها، وهي وسيلة التّدرّج في نقلهم من حياة الفوضى والتّفلّت، إلى حياة النّظام والتّقيّد بالمعايير الّتي لابدّ منها في المجتمع الصّالح. فنزلت أوّلاً الآيات المتعلّقة بالعقيدة ودلائلها، حتّى إذا آمن النّاس وثابوا إلى عقيدة التّوحيد، نزلت آيات الحلال والحرام وعامّة الأحكام في مَـهل وتدرّج. [ثمّ ذكر رواية عائشة عن البُخاريّ كما سيجيء عنه في أوّل ما نزل].

رابعاً: اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون عامّة أحكامه الّتي تضمّنها كتابه المـبين، جواباً عن أسئلة أو حلاًّ لمشكلات واقعة، حتّى تكون أوقع في النّفس وألصق بـالحياة. وتلك وسيلة تربويّة ظاهرة لاتحتاج إلى مزيد بيان لها. وإنّما سبيل ذلك أن تتدرّج هذه الأحكام وآياتها في النّزول تنتظر مناسباتها وظروفها.

ولذلك نجد أنّ الكثير من آي القرآن إنّما نزل جواباً عن سؤال أو حلاًّ لإشكال، فمن الأوّل قوله تعالى:

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَـتَامٰى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ...﴾[٢]

---

١ ـ القيامة / ١٦.

٢ ـ البقرة / ٢٢٠.

وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ اَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ...﴾ [١]

وقوله جلّ جلاله: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْاَنْفَالِ قُلِ الْاَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [٢]

ومن الثّاني قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَاَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ اَعْجَبَتْكُمْ﴾ [٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَا اِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا اَرٰيكَ اللّٰهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [٤].

فقد نزل كلّ منها حلاًّ لمشكلة حدثت، ويطول بنا الحديث لو سَرَدنا لك قصّة كلّ منها.

خامساً – اقتضى التّدرّج بالنّاس في التّشريع أن يوجد ثَمَّة ناسخ ومنسوخ، إذ رُبّ حكم كانت المصلحة والرّحمة بالنّاس تقتضي أخذهم به على مراحل، كتحريم الخمر مثلاً، فقد اكتفى القرآن في أوّل الأمر ببيان أنّ إضراره أكثر من فائدته؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ، قُلْ فِيهِمَا اِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَاِثْمُهُمَا اَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [٥]، حتّى إذا استقرّ في النّفوس ذلك، نزلت آية تنهى النّاس عَن السُّكر في أوقات الصّلاة، وذلك في قوله: ﴿يَاۤ اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ وَاَنْتُمْ سُكَارٰى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [٦] وهو كما ترى تحريم جزئيّ في فترات متقطّعة من الزّمن. فلمّا أخذ النّاس أنفسهم بذلك واعتادوا الامتناع عن الخمر في تلك الأوقات، نزلت آية قاطعة تحرمه تحريماً كلّيّاً. وذلك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْاَنْصَابُ وَالْاَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ

---

١ ـ البقرة / ٢٢٢.

٢ ـ الأنفال / ١.

٣ ـ البقرة / ٢٢١.

٤ ـ النّساء / ١٠٥.

٥ ـ البقرة / ٢١٩.

٦ ـ النّساء / ٤٣.

عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وأنت خبير أنّ كلّ مرحلة من هذه المراحل السّابقة إنّما هي نسخ لما قبلها، وتصعيد بالنّاس إلى طور جديد نحو تكامل التّشريع واستقراره. وهذا لايتمّ - كما تعلم - إلّا بنزول القرآن منجّماً على فترة طويلة من الزّمن.

وثمّة حِكَم أُخرىٰ جليلة لهذه الظّاهرة في نزول القرآن، نمسك عن سردها والإطناب فيها، استغناء بما ذكرنا، واكتفاء بالنّماذج عن الاستقصاء. **(ص: ٣٢ ـ ٣٦)**

---

١ ـ المائدة / ٩٠.

الفصل السّادس والسّبعون

نصّ الدّوزدوزانيّ في «دروس حول نزول القرآن»

[نزول القرآن تدريجًا أو جملةً]

إنّ من العلوم هو نزول القرآن تدريجاً في مدّة ثلاث وعشرين سنة، يدلّ عليه صريحاً قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ...﴾[1].

وحينئذٍ يشكل الأمر في التّوفيق بينه وبين قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[4]. وقيل في التّوفيق بين الآيات وجوه:

الأوّل: ما أفاده العلّامة؛ في «ميزانه» وتبعه من تبعه، وحيث كان هذا الوجه مقبولاً بين العلماء مدّة تقرب خمسين سنة؛ لنقلهم مختاره في كتبهم ومحاوراتهم بلا إيراد ونقد عليه على ما رأيت، قصدت نقل كلامه بتمامه، ثمّ بيانه ونقده جزءاً فجزءاً حتّى لا يبقى لأحد محلّ إبهام في مورد من كلامه.

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الدّخان / ٢.

٤ ـ القدر/١.

وأقول وعليه التّكلان: قال في «الميزان» بعد ردّ جملة من الأقوال: والّذي يعطيه التّدبّر في آيات الكتاب أمر آخر، فإنّ الآيات النّاطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة القدر منه إنّما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدّال على الدّفعة دون التّنزيل، كقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرانُ﴾، وقوله تعالى: ﴿حٰم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2].

واعتبار الدّفعة إمّا بملاحظة اعتبار المجموع في الكتاب أو البعض النّازل منه، كقوله تعالى: ﴿كَمَاءٍ اَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[3]... [إلى أن ذكر قوله: (وإنّ تلك الحقيقة أُنزلت على النّبيّ إنزالًا فعلّمه الله بذلك حقيقة ماعناه بكتابه) كما بيّنّا عنه في ذيل آية ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ...﴾ ثمّ قال:] ومجمل كلامه من بدايته إلى نهايته هو أنّ للقرآن حقيقةً غير هذا الّذي نزل مفرّقاً، وهذا القرآن ليس بقرآن حقيقةً، بل مثاله ولباسه وعكسه وظلاله.

وهذه الحقيقة الّتي يسمّيه بها هي أصل القرآن، وليس فيه فصل وتفريق وآية وسورة، إنّما هو على إحكامه وإتقانه بلا تجزئة أو تفريق، أو وجود أيّ لفظ - عربيّاً كان أو غيره - نزلت جملة على الرّسول ﷺ في شهر رمضان. واستدلّ عليه بسبعة آيات كما مرّ منه مع توضيحه وبيانه.

وجعل مبنىٰ ذلك كلّه في رفع الإشكال من التّعارض بين الآيات، الفرق بين الإنزال الدّال على الإنزال الدّفعيّ، وبين التّنزيل الدّال على النُّزول التّدريجيّ.

وحيث كان هذا الفرق كالأصل لمدّعاه كان من اللاّزم بيان موارد استعمال هذين اللّفظين في الكتاب العزيز واللُّغة، وبيان نقض مدّعاه، وعدم مساعدة القرآن واللُّغة عليه.

[الفرق بين الإنزال والتّنزيل]

فنقول: الفرق بين الإنزال والتّنزيل بما ذكره ليس من المسلّم به بين أهل اللُّغة؛ قال

---

١ ـ الدّخان / ١ - ٣.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ يونس / ٢٤.

الفيّوميّ: نزلت به وأنزلته ونزّلته بمعنى. وفي القاموس: نزّله تنزيلاً وأنزله إنزالاً ومُنزّلاً... واستنزلته بمعنى.

وفي أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها لأبي بكر الرّازيّ في أوّل سورة آل عمران: والّذي وقع لي فيه في الفرق بين الإنزال والتّنزيل والله أعلم أنّ التّضعيف في (نزّل) والهمزة في (أنزل) كلاهما للتّعدية؛ لأنّ نزل فعل لازم في نفسه، وإذا كانا للتّعدية لا يكونان بمعنى آخر وهو التّكثير أو نحوه؛ لأنّه لانظير له، وإنّما جمع بينهما والمعنى واحد – وهو التّعدية – جرياً على عادة العرب في افتنانهم في الكلام، وتصرّفهم فيه على وجوه شتّى[١].

وعُلم ممّا ذكرنا أنّ الفرق بين الإنزال والتّنزيل بما ذكره العلّامة، ليس له دليل يعتمد عليه في كتب اللُّغه.

ولعلّ أوّل من فرّق بينهما في كتب التّفسير هو صاحب الكشّاف، وتبعه من تبعه من المفسّرين بلا تحقيق.

وأمّا ما أفاده الرّاغب: والفرق بين الإنزال والتّنزيل في وصف القرآن والملائكة، أنّ التّنزيل يختصّ بالموضع الّذي يشير إليه إنزاله مفرّقاً ومرّةً بعد أُخرى، والإنزال عامّ. فشيء غير ما ذكروه؛ لانّ الرّاغب لم يقل بالدّفعة في الإنزال، بل قال: عامّ.

ومنه يعلم أنّ من نسب الفرق المذكور إليه غير صحيح، مضافاً إلى أنّه لم يعلم وجه تقييده بالقرآن والملائكة، مع أنّ الاستعمالات القرآنيّة لا تؤيّده كما سيأتي. هذا ما تقتضيه كتب اللُّغه، وهو عدم الفرق.

وأمّا الاستعمالات القرآنيّة فهي أيضاً لاتساعد الفرق المذكور، فنشير إلى بعض الموارد الّتي استعمل فيها التّنزيل في الدّفعيّ؛

المورد الأوّل: قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِى اِسْرَائِيلَ اِلَّا مَا حَرَّمَ اِسْرَائِيلُ عَلٰى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ اَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرٰيةُ﴾[٢].

فالآية كما ترى استعمل لفظ التّنزيل فيها في مقام الدّفعيّ؛ لأنّ من المسلّم أنّ التّوراة

---

١ ـ أسئلة القرآن وأجوبتها: ٢٦.

٢ ـ آل عمران / ٩٣.

أُنزلت دفعة.

وقد أُشير إلى ذلك في أوّل سورة آل عمران ذيل تفسير الآية ﴿وَنَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرٰيةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[١].

حيث قال العلّامة: ويقال: إنّه استعمل التّنزيل في القرآن والإنزال في التّوراة والإنجيل؛ لنزولهما دفعةً والقرآن تدريجاً. [ثمّ ذكر قول صاحب الكشّاف، كما تقدّم عنه، فقال:] والحال أنّها بمرآى منه؛ لأنّ الآيتين في سورة واحدة.

وهذا النّقض كافٍ في ردّ كلامه، بلا حاجة إلى ذكر موارد استعماله في القرآن، إلّا أنّه نذكر موارد أُخر لزيادة البصيرة.

المورد الثّاني: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾[٢]. الملائكة: جمع لملك، وفي الآية استعملت الملائكة في الجمع، ولذا أتت صفتها بلفظ الجمع ﴿يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾. واستعمل الملك في المفرد لمكان قوله: ﴿رَسُولاً﴾. فإذا تقرّر ذلك، وقد ظهر أنّه استعمل التّنزيل في الملك وهو غير قابل للتّدريج؛ لأنّه لامعنى للتّدريج في الملك الواحد، فعُلم أنّ الإنزال والتّنزيل بمعنى.

فلذا نرى أنّه استعمل في القرآن في الملك مرّةً بالتّنزيل كهذه الآية، وأُخرى بالإنزال والتّنزيل كقوله تعالى: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[٣]. فعُلم إن هذا إلّا تفنّناً في العبارة.

المورد الثّالث: قوله تعالى في قصّة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً﴾[٤]، فقوله تعالى في الآية: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ استعمل في غير التّدريج؛ لأنّ المراد من «سلطان» الحجّة والبرهان، فحينئذٍ لايناسب أن يقال: مادام لم ينزل تدريجاً حجّة وبرهاناً؛ إذ ليس في المورد نظر إلى

١ ـ آل عمران / ٣.

٢ ـ الإسراء / ٩٥.

٣ ـ الأنعام / ٨ و ٨١.

٤ ـ الأنعام / ٨١.

التّدريجيّ، فاستعمال التّدريج يكون بلا وجه، سيّما أنّ المقام من باب السّالبة بانتفاء الموضوع؛ لأنّه ليس في الواقع دليل على الشّركة حتّى ينزل.

المورد الرّابع: قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ اَهْلُ الْكِتَابِ اَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ...﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِاَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا اِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾[٣].

ففي الآيات الثّلاث استعمل التّنزيل في الدّفعيّ؛ لأنّ الظّاهر أنّهم طلبوا منه ﷺ الكتاب مجموعاً لامفرّقاً. فلذا قال العلّامة؛ في ذيل الآية الأولى: «الآيات تذكر سؤال أهل الكتاب رسول‌الله ﷺ تنزيل كتاب من السّماء عليهم؛ حيث لم يقنعوا بنزول القرآن بوحي الرّوح الأمين نجوماً».

وكما قال في الكشّاف: «روي أنّ كَعْب بن الأشرف وفَنْحاص بن عازوراء وغيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيّاً صادقاً، فأتنا بكتاب من السّماء جملةً كما أتى به موسى عليه السلام، فنزلت الآية».

والحاصل أنّ التّنزيل استعمل في هذه الموارد الثّلاثة في الدّفعيّ، مع أنّها غير قابلة للتّأويل والتّوجيه.

المورد الخامس: قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ اٰيَةٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾[٤]. الآية تدلّ على أنّهم اقترحوا منه ﷺ نزول آية من ربّه، ومعلوم أنّهم ما اقترحوا آية تدريجيّة، بل طلبوا آية دفعيّة. ولذا قال في الكشّاف: نُزّل بمعنى أُنزل [٥].

وقد سألوا منه ﷺ آيات متعدّدة، كلّها غير تدريجيّ ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى

١ ـ النّساء / ١٥٣.

٢ ـ الأنعام / ٧.

٣ ـ الإسراء / ٩٣.

٤ ـ الأنعام / ٣٧.

٥ ـ الكشّاف ١: ٥٠٣.

تَفْجُرَ لَنَا مِنْ الْاَرْضِ يَنْبُوعاً اَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ... ﴾[١].

ولا معنى لسؤالهم تفجير الينبوع أو تحقّق الجنّة تدريجاً، بل طلبوا منه ﷺ آية ومعجزة، فهي لا تكون إلّا دفعةً وآنًا.

وإن أبيت عن ذلك فنقول: إنّ الآية لانظر فيها إلى التّدريج قطعاً، سيّما بالنّظر إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ اِنَّ اللّٰهَ قَادِرٌ اَنْ يُنَزِّلَ اٰيَةً ... ﴾[٢]؛ لأنّ قدرته مطلقة يناسب عدم تقييده بالتّدريج.

ومن هنا يعلم أنّ ما أفاده العلّامة في توجيه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ﴾ و ﴿يُنَزِّلُ﴾ مشدّدين من التّفعيل، دلالة على أنّهم اقترحوا آية تدريجيّة، أو آيات كثيرة تنزّل واحدة بعد واحدة، كما يدلّ عليه ما حُكي من اقتراحهم في موضع آخر من كلامه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتّٰى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْاَرْضِ يَنْبُوعاً اَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ ﴾ إلى أن قال: ﴿ اَوْ تَرْقىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتّٰى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ﴾[٣].

إلى أن قال: وروي عن ابن كثير أنّه قرأ بالتّخفيف،غير صحيح؛لأنّ الآيات المقترحة من عندهم الإتيان باللّه عزّ وجلّ، ونزول الملك، وتفجير الينبوع، ووجود الجنّة، وإسقاط السّماء كسفاً، وكون البيت من الذّهب والفضّة، ونزول القرآن، كلّها أو جُلّها دفعيّ وغير قابل للتّدريج.

وأمّا قوله: «أو آيات كثيرة تنزّل واحدة بعد واحدة» فهو في غاية الضّعف؛ لأنّ الآيات ذكرت بـ(أوْ) الدّالة على أنّهم طلبوا واحدة منها لا كلّها، وكأنّه توجّه لضعف كلامه، وأشار في ذيله إلى وجه آخر بقوله: وروي عن ابن كثير أنّه قرأ بالتّخفيف. وهو وإن كان صحيحاً في نفسه إلّا أنّه قراءة شاذّة.

المورد السّادس: قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً... ﴾[٤]، فمن

---

١ ـ الإسراء / ٩١ ـ ٩٢.

٢ ـ الأنعام / ٣٧.

٣ ـ الإسراء / ٩٣.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

المعلوم أنّ الكفّار حيث أنكروا نزول القرآن عليه تدريجاً، فقالوا في مقام الاعتراض: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ... ﴾. ومعنى ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أن يكون مكتوباً مثل التّوراة المكتوبة في الألواح.

ويؤيّده – بل يدلّ عليه – قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ اَهْلُ الْكِتَابِ اَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾[1].

وقد تقدّم منّا نقل خبر عن الكشّاف أنّهم قالوا تأتينا بكتاب من السّماء جملةً كما أتى به موسى عليه السلام.

فتحصّل أنّ استعمال التّنزيل في المقام إنّما يصحّ على عدم الفرق؛ لأنّه لو فرض أنّ التّنزيل للتّدريج، لامعنى لأن يقال: لولا نزّل عليه القرآن جملةً واحدةً في كتاب.

ولو فرض فرضاً بعيداً أنّ نزول القرآن جملةً واحدةً قابل للتّدريج، بأن ينزّل جبرائيل عليه السلام من أوّل القرآن إلى آخره في مجلس واحد – حيث أنّ هذا عين التّدريج كما فرضه العلّامة في المقام – لايستقيم أن يقال: إنّ التّنزيل بمعنى التّدريج؛ لأنّ نزول القرآن تدريجاً معناه هو ما وقع في الخارج من نزول القرآن قريب عشرين سنة.

فإذا فرض أن ينزّل في مجلس واحد فهو دفعيّ، فيناسب الإنزال على مبناه، مع أنّ حمل ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ على نزوله في زمان ممتدّ على ما أفاده، مشكل جدّاً.

المورد السّابع: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللّٰهَ اِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ... قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ اللّٰهُمَّ رَبَّنَا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِاَوَّلِنَا وَآخِرِنَا... قَالَ اللّٰهُ اِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾[2].

فالمائدة – على ما هو الظّاهر – هو الطّبق الّذي عليه الطّعام كما في المفردات، ففي الآيات المتواصلة جيء في ثلاثة موارد، الإنزال والتّنزيل في طلب المائدة. فالشّيء الواحد – وهو الطّبق من الطّعام – لايصحّ التّعبير عنه بالإنزال مرّةً بمعنى الدّفعيّ،

---

١ ـ النّساء / ١٥٣.

٢ ـ المائدة / ١١٢ - ١١٥.

وبالتّنزيل أُخرى بمعنى التّدريجيّ، فعُلم أنّ الفرق المذكور لاأساس له.

هذا مع أنّ كلام العلّامة في ذيل الآية يدلّ على عدوله عن فرقه الّذي بنى عليه في حلّ المسألة، نزول القرآن في شهر رمضان، واعتقاده أنّ للقرآن نزولين؛ حيث قال في ذيل قوله تعالى: ﴿ قَالَ اِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ... ﴾: قرأ أهل المدينة والشّام وعاصم ﴿ مُنَزِّلُهَا ﴾ بالتّشديد، والباقون «مُنْزِلُهَا» بالتّخفيف على ما في المجمع، والتّخفيف أوفق؛ لأنّ الإنزال هو الدّال على النّزول الدّفعيّ، وكذلك نزلت المائدة. فأمّا التّنزيل فاستعماله الشّايع إنّما هو في النّزول التّدريجيّ كما تقدّم مراراً، انتهى كلامه.

وأنت ترى صراحة كلامه في شيوع استعمال التّنزيل في التّدريج لا أنّ معناه ذلك، مع أنّه قال في ذيل قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ ﴾: إنّ معنى التّنزيل هو التّدريج فقط.

ولو تخلّص عن المخمصة بقوله: والتّخفيف أوفق، فما يقول في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ اَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾[1]، بالتّشديد، ولم ينقل من أحد قراءته بالتّخفيف، فعُلم أنّ الإنزال والتّنزيل بمعنى واحد.

ومن هنا قال في المجمع ذيل الآية: والوجه في التّشديد أنّ «نزّل» و «أنزل» بمعنى واحد، يعني أنّ عدم موافقه جوابه تعالى بعيسى عليه السلام لايضرّ؛ لأنّ «أنزل» و «نزّل» واحد.

هذا تمام الكلام من ناحية التّنزيل، وأمّا الإنزال فإثبات استعماله في مقام التّدريج أمر مشكل بملاحظة توجيه العلّامة الآيات الّتي استعملت التّنزيل في التّدريج؛ لأنّ كلّ مورد قلنا: إنّه استعمل في مقام التّدريج، يقول: إنّه باعتبار المجموع، كما أفاد في بيان الآيات الواردة في الغيث وأمثاله، مع أنّه ادّعاء صرف، لا وجه له.

نعم، لو كان الفرق المذكور فرقاً أساسيّاً لابدّ من المصير إلى هذا التّوجيه، إلّا أنّ دون إثباته خرط القتاد.

ومع هذا جاءت في القرآن موارد استعمل الإنزال في مقام التّدريج، ونشير إلى

---

١ ـ المائدة / ١١٢.

بعضها: منها قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾[١]، والثّجّاج كما في مجمع البيان، أي صبّاباً دفّاعاً في الصّبابة وقيل: مدراراً، عن مجاهد، وقيل: متتابعاً يتلو بعضه بعضاً، عن قَتادة. وفي تفسير القمّيّ: ماءً ثجّاجاً، قال صبّاً على صبٍّ. وأنت ترى أنّ المعاني كلّها تفيد التّكثير لا الدّفعيّ، ولو كان للفرق أساس كان المناسب أن يقول تعالى: ﴿ وَ نَزَّلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً ﴾. فاستعمال الإنزال الّذي يفيد الدّفعيّ على اعتقاد العلّامة في الآية يدلّ على أنّه لافرق بينهما.

ومنها قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّٰهِ ﴾[٢].

أقول: الإنزال لم يستعمل في المقام بمعنى الدّفعة؛ لأنّ الإنزال لو دلّ على الدّفعة يكون المعنى لو أنزلنا هذا القرآن دفعةً على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله. فحينئذٍ يمكن أن يقال: إنّ هذا أثر للدّفعة، فلو أُنزل القرآن لنا دفعةً فيؤثّر فينا أيضاً.

فعُلم أنّه لا أساس للدّفعيّ في الإنزال، وإلّا يلزم اختلاف المثال مع الممثّل، وهذا لا يصحّ. فالمعنى لو أنزلنا هذا القرآن على جبل بنحو ما أنزلنا عليكم ﴿ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً... ﴾.

هذا مع أنّ ادّعاء إنّ الإنزال للدّفعيّ لا وجه له أصلاً؛ لأنّ ما قيل في التّفعيل من التّدريج لايجوز في الإفعال، لأنّه ليس للدّفعيّ في باب الإفعال عين ولا أثر، ولم يقل به أحد، وما رأيته في واحد من كتب اللّغة.

والخلاصة أنّ الفرق بين الإنزال والتّنزيل لا أساس له لغة واستعمالاً، هذا تمام الكلام في الإنزال والتّنزيل.

وأمّا أصل المدّعىٰ للعلّامة أنّ للقرآن حقيقة غير ما بأيدينا، وغير ما يفهمه النّاس، فقد تكلّم فيه في ذيل الآية: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾[٣]. وتكلّم أيضاً في ذيل قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

---

١ ـ النّبأ / ١٥.

٢ ـ الحشر / ٢١.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

تَأْوِيلِهِ... ﴾[1]؛ قال: إنّ للقرآن حقيقة غير ما نفهمه، وهو المتّصف بالإحكام، وهذا القرآن النّازل تدريجاً هو المتّصف بالتّفصيل، وأنّ المراد من تأويل القرآن أيضاً هو هذه الحقيقة.

ولابدّ لتحقيق مدّعاه من المرور إلى الآيات الّتي استدلّ بها على ذلك فنقول:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[2].

قال في الميزان: وهذا الاحتمال الثّاني (كون القرآن ذا حقيقة أُخرى) هو اللّائح من الآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، فإنّ هذا الإحكام مقابل التّفصيل، والتّفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وقطعةً قطعةً.

فالإحكام كونه بحيث لاينفصل فيه جزء عن جزء، ولا يتميّز بعض عن بعض؛ لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول.

والآية ناطقة بأنّ هذا التّفصيل المشاهد في القرآن إنّما طرأ عليه بعد كونه محكماً غير مفصّل[4]، انتهى كلامه.

قلت: ومن المعلوم أنّ «الكتاب» مرفوع خبر لمبتدأ محذوف، والتّقدير هو أو هذا كتاب، والمشار إليه هو هذا القرآن المعهود، وإلّا لا يجوز حذف المبتدأ؛ لعدم القرينة.

فالمعنى هذا القرآن كتاب أُحكمت آياته ثمّ فصلّت، والمحكم هو في اللّغة المضبوط المتقن [5]. وفي المجمع: المحكم مأخوذ من قولك: أحكمت الشّيء، إذا أتقنته[6].

والتّفصيل معناه التّبيين - كما يأتي بيانه - فالمعنى هذا القرآن كتاب متّصف بأنّه محكم بلا تزلزل، ومبيّن بلا إيهام، وثمّ للتّرتيب اللّفظيّ.

فعُلم ممّا ذكرنا أنّ ما أفاده العلّامة في المقام غير صحيح، ولا معنى لجعل التّفصيل

---

١ ـ آل عمران / ٦.

٢ ـ هود / ٢.

٣ ـ هود / ٢.

٤ ـ الميزان ٢: ١٤.

٥ ـ مجمع البحرين - (مادّة حكم).

٦ ـ ٢: ٤٠٨.

صفة له باعتبار لفظه، فلذا أتى في تفسير سورة هود ما يوافق ما ذكرنا؛ حيث قال: فإنّما يتّصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه، إلى أن نقل ما اختاره في سورة البقرة وردّه بأشدّ ردّ؛ حيث قال: كقول بعضهم: إنّ المراد أُحكمت آياته جملة ثمّ فُرِّقت في الإنزال آية بعد آية؛ ليكون المكلّف متمكّناً من النّظر والتأمّل [١].

وقال فيه: إنّ الأحرى بهذا الوجه أن يذكر في مثل قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [٢]. وقوله تعالى: ﴿قُرآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ [٣].

وهذا القول الّذي نقله عن البعض وردّه هو القول نفسه الّذي كتبه في سورة البقرة كما مرّ آنفاً.

والحاصل أنّ التّدبّر في الآية يعطينا أنّ الكتاب الّذي بأيدينا متّصف بوصفين: الإحكام والتّفصيل، دون ما في اللّوح وحقيقة القرآن - كما ادّعى؛ لأنّ الإحكام والتّفصيل متعلّق بالآيات؛ حيث قال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾، فلو فرض كونه هو ممثّل القرآن وحقيقته، فليس له هناك آية، فعلى هذا ليس الإحكام صفة للكتاب الّذي هو الممثّل والحقيقة في العالم العِلويّ.

وعُلم منه أيضاً أنّه ليس المراد من التّفصيل كونه قطعةً قطعةً، وآية آية، بل المراد أنّ آياته مع كونه محكماً متقناً مفصّل، وتفصيله إمّا باعتبار أنّه يذكر القصص والإحكام والعقائد بلا انحصار في شيء منها، وإمّا باعتبار بيانه؛ لأنّ المحكم كأنّه يلوح منه أنّ مطالبه مجملة مندمجة، والحال أنّه فصلّت وأوضحت آياته، كما قال في المفردات: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ إشارة إلى ما قال: ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.

والتّدبّر في ذيل الآية ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ يؤيّد ما ذكرناه؛ حيث أنّ قوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ يناسب إتقان الآيات، فكأنّه يقول: إنّما أتقن لأنّه حكيم له الإتقان. وقوله: ﴿خَبِيرٍ﴾ يناسب تبيين الآيات؛ لأنّه عالم بالأُمور والخفايا.

---

١ - الميزان ١٠: ١٤٢ - ١٤٣.

٢ - الدّخان / ٢.

٣ - الإسراء / ١٠٦.

وإن شئت توضيحه فنقول: التّفصيل هو التّمييز والتّبيين، وكلّما اتّصف القرآن والكتاب به هو هذا المعنى.

وإذا راجعنا نفس القرآن نجده وافياً بالمدّعىٰ، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ... ﴾[1].

هل يحتمل عاقل كون التّفصيل هنا بمعنى التّقطيع؟ فإنّ معناه يكون حينئذٍ لقالوا: لولا قطّعت آياته، بل إنّهم حيث لم يفهموا لسان العجم يحسبونه حينئذٍ مجملاً، فيقولون بلسان الاعتراض: لولا فصلّت، أي لولا بيّنت وتميّزت آياته.

وكذا قوله تعالى: ﴿ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾[4]، وكذا كلّ آية اشتملت على كلمة التّفصيل. إذا تقرّر هذا فقد اتّضح أنّ ما أفاده العلّامة في معنى الإحكام والتّفصيل لا أساس له.

الآية الثّانية والثّالثة: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ... ﴾[6].

واعتقد العلّامة أنّ الآيتين كالآية السّابقة دالّة على أنّ تفصيل القرآن أمر طارىء على الكتاب، فالكتاب شيء، والتّفصيل الّذي يعرضه شيء آخر، وأنّهم إنّما كذّبوا بالتّفصيل من الكتاب؛ لكونهم ناسين لشيء يؤول إليه هذا التّفصيل وغافلين عنه،

---

١ ـ فصلّت / ٤٤.

٢ ـ الأعراف/١٤٥.

٣ ـ الإسراء / ١٢.

٤ ـ الأنعام / ١١٩.

٥ ـ الأعراف / ٥٢ و ٥٣.

٦ ـ يونس / ٣٩.

وسيظهر لهم يوم القيامة وينظرون إلى علمه ولا ينفعهم النّدم. وقال: وفيها إشعار بأنّ أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب.

قلت: أمّا كلامه في مورد التّفصيل، فقد مرّبنا بيانه في الآية الأُولى بأنّ تفصيل القرآن هو بيانه.

وبناءً على ما قلنا يكون معنى قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ بيّنّاه على علم، والتّعليق على العلم باعتبار أنّ البيان والإيضاح محتاج إلى العلم، ولا يناسب الجملة أن يكون المعنىٰ قطّعناه وجعلناه آية آية على علم، مضافاً إلى ما مرّ بنا آنفاً أنّ استعمال التّفصيل في القرآن إنّما هو بمعنى التّبيين.

وأمّا قول العلّامة ﷺ إنّ أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب، فليس المقام مقام بحثه وتحقيقه. ومع ذلك نشير إليه إجمالاً، فنقول: الّذي يظهر من كلامه في موارد متعدّدة من كتابه أنّ التّأويل هو حقيقة القرآن، ويدّعي أنّه ليس فيه أيّ لفظ، وليس قابلاً للفهم، إلّا أنّه قيّده الله تعالى بالألفاظ ليقرّبها إلى الأذهان.

قال في تفسير سورة آل عمران: وتأويل القرآن هو المأخذ الّذي يؤخذ منه معارفه. وقال في صفحة (٢٥): بل هو من الأُمور الخارجيّة العينيّة. وقال في صفحة (٤٩): إذا عرفت هذا، إنّ الحقّ في تفسير التّأويل أنّه الحقيقة الواقعيّة الّتي تستند إليها الآيات القرآنيّة من حكم أو موعظة أو حكمة، وأنّه موجود لجميع الآيات القرآنيّة محكماً ومتشابهاً، وأنّه ليس من المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأُمور العينيّة المتعالية من أن يحيط بها مشبّكات الألفاظ، وإنّما قيّده الله سبحانه بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا، فهي كالأمثال تضرب ليقرّب بها المقاصد. وكذا في صفحة (٥٥) وصفحة (٦٥) وصفحة (٥٤) من سورة آل عمران.

وقال في سورة البقرة ذيل بيان قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ...﴾: وفيها إشعار بأنّ أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب.

فظهر من تمام ما ذكره أنّ التّأويل هو حقيقة القرآن الّذي ليس فيه أيّ لفظ وآية، وهو الّذي نزل إلى قلب رسول‌الله ﷺ في شهر رمضان جملة، وهذا المعنى هو الّذي لا يفهمه

البشر العادي.

قلت: الحقّ عندنا أنّ التّأويل هو ما يستند إليه الكلام من الإخبار والإنشاء، فكلّ واحد منهما تأويل بحسبه، ففي الإخبار أنّ التّأويل هو ما مضى ويأتي من مطابق الإخبار، كما يظهر من بعض، أو المصلحة والمفسدة.

وفي الإنشاءات هو الحكمة والمصلحة المقتضية للأمر والنّهي والتّهديد ونحوها.

ويؤيّده بل يدلّ عليه الاستعمالات القرآنيّة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾[1]، أي مطابقه، فتدلّ أنّ مطابق الخبر هو التّأويل.

ونظيره قوله تعالى: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾[3].

وأمّا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[4]، فقد استعمل التّأويل في المصلحة والحكمة. وكذا قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾[5].

وممّا ذكرنا يعلم تفسير قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾[6]. فمعنى قوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، أي مجيء مطابقه، وهو تحقّق يوم الجزاء، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾، أي مطابقه، وهو يوم الجزاء، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾، أي نسوا تأويله، ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي في الدّنيا، ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، فحينئذٍ أقرّوا بأنّ ما جاءت وأخبرت به الرّسل عن يوم الجزاء كان حقّاً باعتبار ثبوت ذلك اليوم بالمعاينه.

وكذا قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[7]، أي مطابقه يوم القيمة، وحيث لم يدركوا مطابقه أنكروه كما أنكر من قبلهم، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ

---

١ ـ يوسف / ١٠٠.

٢ ـ يوسف / ٣٦ و ٣٧.

٣ ـ يوسف / ٣٦ و ٣٧.

٤ ـ الكهف / ٨٢.

٥ ـ الكهف / ٧٨.

٦ ـ الأعراف / ٥٣.

٧ ـ يونس / ٣٩.

قَبْلِهِمْ ﴾.

واعلم أنّ العلّامة حيث فسّر التّأويل بالحقيقة الّتي ادّعاها فاضطرّ هنا أن يلتزم وجود التّأويل والحقيقة لكلمات الأنبياء السّلف؛ حيث قال في تفسير الآية: فلِما جاء به سائر الأنبياء من أجزاء الدّعوة الدّينيّة من معارف وأحكام تأويل. كما أنّ لمعارف القرآن وأحكامه تأويلاً، من غير أن يكون من قبيل المفاهيم. ولا يخفى ما فيه من البعد؛ لأنّ التّأويل على ما ادّعاه كان أمراً مخصوصاً للقرآن، وأنّ له ممثّلاً وحقيقة غير قابلة للفهم. اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّ مراده من التّأويل شيء آخر غير ما استظهرناه؛ حيث أنّ كلماته في بيان مراده متشتّتة ومختلفة.

ويظهر من بعض موارده أنّ التّأويل شيء آخر، وهو الحكمة والمصلحة، كما يظهر في تفسير سورة آل عمران[1] وفي موارد أُخر يجده المتتبّع لكلامه.

فعليه لاتنحاشىٰ أن يكون لكلماتهم: تأويلاً، بل كلّ كلام له تأويل بهذا المعنى، وهو حينئذٍ يكون قريباً ممّا ذكرنا، إلّا أنّه بهذا المعنى لا يصحّ قوله: لكونه قرآناً في اللّوح المحفوظ، وأنّه كان هناك على إحكام واندماج بلا أيّ لفظ من مشتبكات الألفاظ، وأنّه هو النّازل عليه ﷺ في شهر الصّيام، وثمّ فصّلت وقطّعت آية آية وسورة سورة، وإنّه هو الّذي كان رسول‌الله ﷺ عالماً به على ما ادّعاه؛ بحيث كان يقرأ قبل جبرائيل عليه السلام، حتّى نهى الله عنه بقوله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ﴾، مع قوله: إنّ أصل الكتاب تأويله وتفصيله.

وعلى أيّ حال ليس المقام محلاًّ لنقض كلامه وإبرامه؛ لأنّه بحث طويل الذّيل، لعلّ الله عزّ وجلّ يوفّقنا للبحث فيه بصورة كامله.

الآية الرّابعة: قوله تعالى: ﴿حٰمٓ ۞ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[2].

قال العلّامة في مقام الاستدلال بها: فإنّه ظاهر في أنّ هناك كتاباً عرض عليه جعله مقروء عربيّاً، وإنّما أُلبس لباس القراءة والعربيّة ليعقله النّاس، وإلّا فإنّه في أُمّ الكتاب

---

١ ـ الميزان ٣: ٥٣.

٢ ـ الزّخرف / ١ ـ ٤.

عندالله ﴿لَعَلِيٌّ﴾: لاتصعد إليه العقول، ﴿حَكِيمٌ﴾: لا يوجد فيه فصل وفصل. وفي الآية تعريف للكتاب المبين، وأنّه أصل القرآن العربيّ المبين.

أقول: ظاهر كلامه أنّ المراد من الكتاب في الموردين هو ما في اللّوح المحفوظ، والمبين صفته، وأنّه جعله مقروء عربيّاً ليعقله النّاس، وإلّا فإنّه في أُمّ الكـتاب لا تـناله العقول. وهو غير صحيح لوجهين؛

الأوّل: توصيفه بلفظ المبين؛ لأنّ الإبانة بمعنى الإظهار والتّبيان، وهذا لا يناسب الكتاب الموجود في اللّوح المحفوظ؛ لعدم الإبانة فيه، بل على ما اعتقده أنّ القرآن هناك على وجه الاندماج والإحكام.

الثّاني: أنّ لازم كلامه أنّ ما في اللّوح المحفوظ في اللّوح المحفوظ؛ لأنّه قال في المقام: الضّمير يرجع إلى الكتاب، وقال: إنّ هناك كتاباً عرض عليه جعله مقروءاً، فيكون المراد من الكتاب هو ما في اللّوح المحفوظ، ومراده من أُمّ الكتاب هو اللّوح المحفوظ كما أقرّ نفسه[1].

فيكون المعنى أنّ الكتاب المبين الّذي في اللّوح المحفوظ هو في اللّوح المحفوظ، ولا يخفى عدم صحّته، ولعلّه لم يتوجّه بأنّ نتيجة بيانه ذلك.

فالتّفسير الصّحيح هو أن يقال: إنّ الكتاب المبين هو القرآن الموجود بأيدينا. والمراد من جعله عربيّاً إيجاده قرآناً بلفظ عربيّ، وإنّما جعل كذلك لعلّكم تعقلون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[2].

وممّا ذكرنا يعلم أنّ ما أفاده في تفسير الآية ﴿... إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبِيًّا...﴾[3]، غير صحيح، بل فيه نوع من التّهافت، والوجه في ذلك يظهر بالتّأمل في بيانه.

وأمّا أُمّ الكتاب، وأنّه ماذا؟ فأقول فيه ما قاله الخليل: كلّ شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى أُمًّا؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾، أي اللّوح المحفوظ، وذلك لكون العـلوم

---

١ ـ الميزان ١٨: ٨٦.

٢ ـ فُصّلت / ٤٤.

٣ ـ الزُّخرُف / ١ - ٤.

كلّها منسوبة إليه متولّدة منه [١].

فحينئذٍ يكون المراد من الكتاب، الكتاب الجامع لكلّ شيء من التّوراة والإنجيل والقرآن وغيرها، وهذا الكتاب الموجود بأيدينا متّخذ منه، وهو أُمّ الكتاب، وهو عندالله محفوظ، ﴿ لَعَلِيٌّ ﴾؛ لعلوّ مكانته، و ﴿ حَكِيمٌ ﴾، أي ذو إحكام أو ذو حكمة. وهو أمر صحيح نقول به، إلّا أنّه لايدلّ على شيء من معتقده، وهو دلالة الآية على كون القرآن في اللّوح المحفوظ على وجه الإحكام والاندماج، ثمّ فصّلت آية آية، وألبس لباس القراءة والعربيّة؛ لأنّه خلاف ظاهر الآية، لعدم تلائم صدر الآية مع ذيلها كما مرّ.

ولو سلّمنا بصحّة تمام كلامه من أوّله إلى آخره، فلا يدلّ على أنّه نزل جملة على رسول‌الله ﷺ، وأنّه هو النّازل في شهر رمضان، بل هو حدس صرف بلا دليل.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [٢].

قال العلّامة: فإنّه ظاهر في أنّ للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون لايمسّه هناك أحد إلّا المطهّرون من عباد الله، وأنّ التّنزيل بعده، وأمّا قبل التّنزيل فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار، وهو الّذي عبّر عنه في آيات الزّخرف بأُمّ‌الكتاب، وفي سور البُروج باللّوح المحفوظ.. الخ.

قلت: التّدبّر في الآيات يعطينا أنّ الله أتى بالقرآن في المقام بصفات عديدة؛

الأُولى: ﴿ الْكَرِيمُ ﴾.

الثّانية: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾.

الثّالثة: ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾.

الرّابعة: ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

فعليه يكون ظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾: أنّ هذا القرآن الموجود بأيدينا لايمسّه إلّا المطهّرون، لا ما استفاده العلّامة من إرجاع الضّمير إلى كتاب مكنون؛

---

١ ـ مفردات الرّاغب مادّة «أمّ».

٢ ـ الواقعة / ٧٧ - ٨٠.

ليكون المعنى أنّ هذا القرآن في العالم الأعلى مكنون ومحفوظ، بحيث لايمسّه إلّا المطهّرون، وهم الأئمّة عليهم السلام مثلاً. ولا يخفى بُعده؛ لأنّه تكون الجملة حينئذٍ كالمعترضة، فيكون قوله: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة ثالثة للقرآن.

هذا إجمال المطلب، وإن شئت التّفصيل فنقول: إنّ غرض السّورة تقسيم النّاس في يوم القيامة، ويشعر في ضمنه إلى حال المكذّبين للقيامة والقرآن، ومن هنا يقول تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، والضّمير للقرآن المعلوم من السّياق.

والمعنى ما بيّنت لكم لقرآن كريم نافع للنّاس؛ لاحتوائه المعارف الّتي فيها السّعادة للبشر، وهذا القرآن المحتوي للسّعادة في كتاب مكنون، والكتاب المكنون هو ما في اللّوح المحفوظ، أثبت الله فيه القرآن، وهذا هو المعروف بينهم في تفسير كتاب مكنون.

وقد يقال: إنّه المُصحف الموجود بأيدينا، وهو المنقول عن مجاهد وغيره، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. لأنّ المراد حفظ ما في المُصحف الموجود عن التّحريف. وهذا ظاهر كلام السّيد في «الدّرر» نقلاً عن ابن الأنباريّ[2].

فعلى أيّ حال – سواء كان المراد أنّ هذا القرآن في اللّوح محفوظ، أو أنّ هذا القرآن الّذي بأيدينا محفوظ لاتصله يد التّحريف – أنّ مقتضى نظم الكلام حينئذٍ هو أن يكون قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة ثالثة للقرآن الموجود بأيدينا.

والمعروف بينهم أنّ المراد من المسّ هو اللّمس بالبدن، فيكون معنى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، أي لابدّ من الطّهارة حين المسّ. فحينئذٍ يشير إلى حكم شرعيّ، فهو إخبار في مقام الإنشاء.

وقد يقال: إنّ المسّ بمعنى الدّرك كما في المفردات[3]: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾، أي لايعلمه، فحينئذٍ يكون المعنى أنّ هذا القرآن الموجود لايدركه إلّا الأفراد المطهّرون.

وأمّا العلّامة فحمل المسّ بالمعنى الثّاني؛ حيث قال في سورة الواقعة: فمسّه هو العلم

---

١ ـ الحِجر / ٩.

٢ ـ الدّرر ٢ / ٤٢٧ ذيل مجلس الثّاني والثّلاثون.

٣ ـ مفردات القرآن: مادّة «طَهَر».

به، وجعل الجملة صفة للكتاب المكنون الّذي فيه القرآن، وهو اللّوح المحفوظ، وقال: إنّ للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون لا يمسّه هناك إلّا المطهّرون، وأنتج أنّ حقيقة القرآن وأصله الّذي هو خال عن التّفصيل والعربيّة هو النّازل عليه ﷺ في شهر رمضان جملة. وعليه يكون قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ﴾ كالجملة المعترضة بين أوصاف القرآن. وما اختاره بعيد من وجوه؛

الأوّل: أنّه ليس غرض الآيات بيان أنّ أصل القرآن شيء لايفهمه أحد، والمقام لايناسب لبيانه، بل المقام في بيان حال القرآن وأوصافه، وأنّه نافع لكرامته، وأنّه في كتاب مكنون محفوظ، لايمكن التّصرّف فيه والتّحريف، وأنّ هذا القرآن لكرامته وعظمته لايجوز مسّه بلا طهارة، وفي المرتبة الرّابعة أنّه تنزيل من ربّ العالمين، وليس كلام عاديّ ولا سحر ونحوه ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾[1].

الثّاني: أنّ حمل المسّ على اللّمس المعنويّ لعلّه لا شاهد له في لُغة العرب، كما يفهم من لسان العرب والمفردات، وفسّر الأخير المسّ باللّمس[2].

وفي المصباح المنير: مسسته،... أفضيت إليه بيدي من غير حائل.

وأنكر المجلسيّ الأوّل؛ استعمال المسّ في الفهم؛ قال: وإن كان لفظ المسّ ظاهراً في المعنى الأوّل (مسّ الورق)؛ لأنّ استعمال المسّ بمعنى الفهم في العرف الجديد، والظّاهر أنّه لم يكن في كلام العرب، ولا في عرفهم ذلك،[3] وقال مثله في شرحه الفارسيّ على «من لايحضره الفقيه».

الثّالث: أنّ الأخبار الواردة عنهم عليهم السلام يخالف هذا الوجه؛ لأنّ الكاظم والباقر عليهما السلام فسّرا ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ بالمُصحف الموجود ومسّه؛ عن أبي الحسن عليه السلام قال: «المُصحف لاتمسّه على غير طهر، ولاتمسّ خطوطه ولاتعلّقه، إنّ الله يقول: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا

---

١ ـ الواقعة / ٨١.

٢ ـ مفردات القرآن: مادّة «مسّ».

٣ ـ روضة المتّقين ١: ٢٣٩.

الْمُطَهَّرُونَ﴾، ونظيره عن الباقر عليه السلام[١].

وفي الصّافي: وفي الاحتجاج: لمّا استخلف عمر سأل عليّاً عليه السلام أن يدفع إليهم القرآن فيحرّفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن إن جئت بالقرآن الّذي جئت به إلى أبي‌بكر حتّى نجتمع عليه. فقال عليه السلام: «هيهات ليس إلى ذلك سبيل، إنّما جئت إلى أبي بكر لتقوم الحجّة عليكم، ولا تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، أو تقولوا: ما جئتنا به، فإنّ القرآن الّذي عندي لا يمسّه إلّا المطهّرون والأوصياء من ولدي».

والحديث كما ترى يدلّ على أنّ الآية صفة لهذا القرآن دون ما في اللّوح المحفوظ.

فتحصّل أنّ قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة للقرآن الموجود بأيدينا، ولو تنازلنا عن ذلك وقلنا: إنّ الجملة ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ صفة لكتاب مكنون، والمراد به ما في اللّوح المحفوظ، فنقول: بناءً عليه الآية لا تدلّ على أنّ ما في اللّوح المحفوظ هو ممثّل القرآن وحقيقته.

بل لنا أن نقول: إنّ ما في اللّوح المحفوظ هو ما بأيدينا بعينه، فيكون المعنى لا يمسّ القرآن الّذي في اللّوح المحفوظ إلّا المطهّرون، فمن المسلّم أنّ القرآن هناك لا يمسّه إلّا المطهّرون.

ولو تنازلنا عن ذلك أيضاً وقلنا: إنّ ما في اللّوح المحفوظ هو ممثّل القرآن وحقيقته على وجه الإحكام، لا دليل لنا على أنّه هو النّازل على رسول‌الله صلى الله عليه وآله في شهر رمضان. ومجرّد ادّعاء الفرق بين الإنزال والتّنزيل لا يثبت ذلك، مع أنّه مرّ بنا عدم صحّة الفرق المذكور فراجع.

الآية السّادسة والسّابعة: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾[٢]، وقوله: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ...﴾[٣].

قال العلّامة في تقريب مدّعاه: وهذا هو الّذي يلوح من نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْجَلْ

---

١ ـ وسائل الشّيعة ١: باب ١٢ من أبواب الوضوء.

٢ ـ طه / ١١٤.

٣ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضـى اِلَيكَ وَحْيُهُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ* فَاِذَا قَرَاْنَاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْاٰنَهُ* ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾، فإنّ الآيات ظاهرة في أنّ رسول‌الله ﷺ كان له علم بما سينزل عليه، فنهي عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي وسيأتي توضيحه في المقام المناسب به، انتهى كلامه.

قلت: ترد عليه أُمور؛

الأمر الأوّل: أنّ الّذي استظهره من الآيتين من علم الرّسول ﷺ بالقرآن قبل نزوله، بحيث كان يقرأ قبل انقضاء الوحي، فشيء خلاف معتقده؛ لأنّه اعتقد أنّ الّذي كان في اللّوح المحفوظ – على إحكام ليس فيه أيّ فصل وآيةٌ ولفظٌ سواء كان لفظاً عربيّاً أو غيره – نزل عليه جملةً. ونهايةً ما في اللّوح المحفوظ هو حقيقة القرآن بلا لباس، وهو الّذي نزل على قلب الرّسول جملة، وهذا شيء لا يمسّه إلّا المطهّرون؛ لأنّه ليس قابلاً للفهم للبشر العاديّ. فعليه من أين علم رسول‌الله ﷺ ألفاظ القرآن حتّى كان يقرأ قبل قراءة جبريل ؟ نعم، هذا موافق لما صار إليه بعضهم من نزول نفس القرآن –الّذي نزل في مدّة ثلاث وعشرين سنة – في ليلة مباركة، إلّا أنّه لا يقول به.

الأمر الثّاني: أنّ الآيات تدلّ على أنّه لم يكن عالماً بمضامين القرآن وهي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿طٰهٰ مَا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لِتَشْقىٰ﴾[1]. ومنها: ﴿يَا ءَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا اَحَلَّ اللّٰهُ لَكَ﴾[2].

ونحوهما سائر عتابات النّبيّ ﷺ، لأنّ من المسلّم به من تفسير الآية الأُولى هو أنّ النّبيّ ﷺ بعد نزول القرآن كان يكثر من العبادة، بحيث تتورّم قدماه، فنزل طه.

فحينئذٍ نقول: إذا كان القرآن نزل جملةً في شهر رمضان على قلبه ﷺ، وكانت هذه الآية في ضمنه نازلة، فمع نزوله قبلاً عليه ﷺ وعلمه بمحتواه كيف لم يعمل وفقه، ولم يتّبع بعلمه، وتورّمت قدماه؟ حتّى نزل مرّةً أُخرى في مرحلة التّدريج كما سيأتي تفصيله.

إن قلت :كما قيل: إنّ في النّزول الأوّل لم يكن مأموراً بالعمل طبقه، فلذا احتاج إلى

---

١ ـ طه / ١.

٢ ـ التّحريم / ١.

النّزول التّدريجيّ.

قلت: أوّلاً – فما فائدة النّزول حينئذٍ جملة إذا لم يجب العمل به حتّى بالنّسبة إلى نفسه؟

وثانياً: أنّه لا معنى أصلاً بعدم كونه مأموراً للعمل؛ لأنّه بعد حصول العلم أنّه مكروه أو محبوب لا يجوز الارتكاب في الأوّل والتّرك في الثّاني، ولو سلّمنا فهل كان مأموراً بالعمل على خلافه حتّى تتورّم قدماه؟ فمنه يظهر حال الآية الثّانية.

فالنّتيجة إنّ الالتزام بأنّه كان عالماً بتمام القرآن بنزوله جملة لاتساعده الآيات القرآنيّة.

وثالثاً: أنّ تفسير الآيتين بما ذكره وبيّنه غير مستقيم كما لا يخفى على من نظر بعين الإنصاف.

بل عندنا أنّ الآيتين تدلّان أنّه ﷺ كان مشفقاً لحفظه أو أخذه، وكان يعجل بذلك حتّى لاينساه أو يأخذه، وبذلك قرائن من نفس الآيتين كما سنبيّن، ومن خارجهما كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسىٰ﴾[1]. هذا إجمال الكلام، وأمّا تفصيل المطلب فنقول:

أمّا الآية الأُولى ﴿لَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضىٰ اِلَيْك وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾[2]، ذكر المفسّرون فيها وجوهاً، فإليك نصّ الشّيخ في التّبيان: أي لا تسأل إنزاله قبل أن يأتيك وحيه، وقيل: معناه لاتلقه إلى النّاس قبل أن يأتيك بيان تأويله، وقيل: ولا تعجل بتلاوته قبل أن يفرغ جبريل من أدائه إليك، انتهى كلامه.

وقبل بيان المختار نقول: إنّ حمل الآيتين بمعنى واحد بعيد بل لا يصحّ، وإن فسّرهما بمعنى واحد العلّامة وغيره؛ لأنّ التّكرار في النّهي عنه ﷺ لا معنى له، لأنّ النّبيّ بالنّهي الأوّل. كان ينتهي، فلا وجه لنزوله ثانيةً بعد مدّة. كما ذكر في ترتيب النّزول أنّ القيامة نزلت قبل طه بأكثر من عشرة سور، فلابدّ أن تحمل الآيتان بمعنى يغاير إحداهما الأُخرى.

---

١ ـ الأعلى / ٦.

٢ ـ طه / ١١٤.

فحينئذٍ نقول: إنّ النّبيّ ﷺ كان يعجّل بالقرآن، وكان يسأل منه تعالى نزوله، فنهى الله تعالى عن العجلة وسؤاله نزول القرآن قبل وقته؛ لأنّ لنزول الآيات مصالح تقتضيه، فقبل هذا لا معنى لنزوله.

ويؤيّده بل يدلّ عليه أُمور؛

الأمر الأوّل: النّهي عن القرآن لاعن القراءة، وليس في البين قرينة على حذفها حتّى يقال: لاتعجل عن قراءة القرآن، فالعجلة بالقرآن إنّما هي سؤاله ﷺ عنه تعالى نزوله.

إن قلت: إنّه على هذا أيضاً يلزم تقدير نزول القرآن وطلبه.

قلت: نعم، هذا معنى العجلة بالقرآن وتفسيره لا تقديره، فإنّه إذا قيل: لاتعجل بكذا، يراد به لا تعجل على أخذه بدون حذف وعناية، وليس كذلك ما لو قيل: لا تعجل بالقرآن، يراد به تلاوته؛ لأنّ إرادة الكيفيّة يحتاج إلى عناية خاصّة.

والأمر الثّاني: قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ فإنّ التّعدية بإلى يفيد ذلك كما في المنجد؛ قال: قضى الأمر إليه: بلغه. وحينئذٍ يكون المعنى لاتعجل بالقرآن في أخذه قبل بلوغ الوحي. والظّاهر عدم استعمال «قضىٰ» متعدّياً بإلى في المعنى الّذي ذكره بقوله: قبل قضاء الوحي، أي تمامه.

والأمر الثّالث: قوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾، فسؤال ازدياد علمه إنّما يناسب هذا المعنى. أعني العجلة بنزول القرآن وإلّا التّعجيل في الحفظ أو القراءة قبل النّزول لايناسب قوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾.

وإنّي بعد كتابة هذا صادفت كلام السّيّد في «الدّرر» يعجبني الإشارة إليه إجمالاً، فإنّه قال في أوّل كلامه: قلنا: قد ذكر المفسّرون في هذه الآية وجهين نحن نذكرهما ونوضّح عنهما، ثمّ نتلوهما بما خطر لنا زائداً على السّطور. إلى أن قال: فأمّا الجواب الثّالث الزّائد على ما ذكر فهو أنّه غير ممتنع أن يريد لاتعجل بأن تستدعي من القرآن مالم يوحَ إليك به، فإنّ الله إذا علم مصلحة في إنزال القرآن عليك، أمر بإنزاله ولم يؤخّر عنك[1].

وأمّا حمل الآية بأنّه ﷺ كان يقرأ قبل إتمام الوحي مالم يوحَ إليه كما احتمله

---

١ ـ وإن شئت تمام كلامه فراجع الدّرر ٢: ٣٥٩.

العلّامة؛ حيث قال بعد مقدّمة: ويؤول المعنى إلى أنّك تعجل بقراءة مالم ينزّل بعد؛ لأنّ عندك علماً به في الجملة، لكن لاتكتف به.. الخ. فشيء منكر؛ لأنّ الدّخول في كلام المتكلّم العادي، وتكلّم المخاطب وسط كلامه قبل تمام كلام المتكلّم قبيح، لا يرتكب به فرد متعارف، فكيف يرضى المسلم العارف بمقام الرّسالة - مع أنّه ﷺ كان عارفاً بمقامه تعالى، وأنّ الملك إنّما يقرأ كلامه تعالى، وأنّ الوظيفة إذا قرىء القرآن لابدّ من الإنصات والاستماع - أن يقول: إنّه ﷺ دخل على كلامه تعالى، وقرأ مالم ينزل ولم ينصت ولم يسمع كلامه تعالى. مع عدم أيّ فائدة في عجلته هذه، إلّا أن يشعر الملك مثلاً أنا عارف بالقرآن قبل وحيك وقراءتك، وهذا شيء لايمكن احتماله في حقّه ﷺ.

هذا كلّه مع أنّ الرّسول ﷺ كان ينتظر كثيراً لنزول القرآن من ربّه، وكان مشتاقاً. ولعلّ هذا واضح عند كلّ من له اطّلاع بحالاته ﷺ، فعليه لامعنى للعجلة بالمعنى الّذي ذكره.

وأمّا قول العلّامة: لأنّ عندك علماً به في الجملة، لكن لاتكتف به، ففيه أوّلاً: أنّ أصل القرآن وحقيقته ليس بعض القرآن حتّى يقال في الجملة، بل هو عينه كما صرّح به مراراً.

وثانياً: العلم الإجماليّ يوجب السّكوت لا العجلة كما لايخفى.

وأمّا الآية الثّانية قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ* إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1]. فظاهر الآية أنّه ﷺ كان يحرّك لسانه عند نزول الوحي، ويستعجل بقراءة القرآن قبل تمام الوحي، فنهاه تعالى عن ذلك، وأشار إلى سبب تعجيله، وأنّه كان يخاف من تلفه ونسيانه، فقال: إنّ علينا جمعه لك في صدرك وقراءته عليك، فإذا قرأناه عليك تماماً فاتّبع قراءته واقرأ.

وهذا المعنى وردت فيه روايات عديدة عن ابن عبّاس وغيره، ولعلّه يأتي منّا الإشارة إلى بعضها، وهو الّذي ذكره أوّل مفسّري الشّيعة، أعني الشّيخ في تبيانه، وعليه دليل من نفس الآية، فإنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ في مقام التّعليل لقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾، وهذا التّعليل يناسب ما ذكرناه؛ لأنّ المعنى حينئذٍ لاتقرأ

---

١ ـ القيامة / ١٦ - ١٧.

القرآن قبل تمام الوحي، ولاتخَف نسيانه؛ لأنّه علينا أن نجمعه من التّلف، بحيث لا تنسى منه شيئاً كما وعدالله تعالى به في قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ﴾. ومن هنا تعلم أنّ ما أفاده العلّامة في بيان التّعليل عليل؛ لأنّه بعد تفسيره قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾.

[ثمّ ذكر قول العلّامة الطّباطبائيّ في ذيل آية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ كما تقدّم عنه، فقال:] وأنت تعلم أنّ العجلة لنزول القرآن، وأنّه كان يستعجل به، بحيث كان يقرأ قبل قراءة جبريل، لاتناسب قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾[1].

فقول العلّامة: إنّ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك بضّم بعضه إلى بعض وقراءته عليك، يناسب ما فسّرنا من خوف النّسيان. ومنه يعلم أنّ ذيل كلامه: فلا يفوتنا شيء حتّى يحتاج إلى أن تسبقنا إلى قراءة مالم نوحيه بعد، غير صحيح؛ لأنّ السّبقة على قراءة مالم ينزل لا يلائم الجمع وضمّ بعضه إلى بعض، وليس بينهما مناسبة حتّى يحمل كلامه تعالى عليه، كما لايخفى على العارف وبالأُسلوب هذا، ويشهد على صحّة ما ادّعيناه جملة من الرّوايات.

[ثمّ ذكر رواية ابن عبّاس وسعيد بن جُبَير وابن المنذر عن قَتادة، كما تقدّم عن الطَّبرسيّ والسُّيوطيّ في ذيل آية ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ فقال:]

وأنت ترى صراحة الرّوايات كلّها في ما قلناه. ومع ذلك قال العلّامة في بحثه الرّوائيّ بعد نقله في «الدّرّ المنثور»: أقول: وروي في معنى صدر الحديث في المجمع عن ابن جُبَيْر وفي معناه غير واحد من الرّوايات، وقد تقدّم أنّ في انطباق هذا المعنى على الآيات خفاء.

قلت: إنّه ظهر ممّا ذكرنا في تفسير الآية أنّه ليس في انطباق هذا المعنى على الآية خفاء، بل ليس معناها إلّا ما في الرّوايات، فالعدول عمّا ذكرنا إلى ما ذكره بلا دليل معتبر لا وجه له.

وليس على مدّعاه خبر ولا شاهد، لامن نفس الآية ولا من خارجها، مع أنّه على ما ادّعيناه شاهد من نفس الآية ومن خارجها من الكتاب والسّنّة، وقد مرّ آنفاً الإشارة إليهما.

---

١ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٧.

والنّتيجة من تمام ما ذكرنا إلى هنا أُمور:

١ – عدم الفرق بين الإنزال والتّنزيل.

٢ – عدم صحّة أن يكون للقرآن أصل وهذا لباسه.

٣ – عدم صحّة نزول أصل القرآن في شهر رمضان للنّبيّ ﷺ.

٤ – عدم صحّة تفسير الآيات السّبع على مدّعا العلّامة.

وحينئذٍ نقول: إنّ ما أفاده – في الجمع بين قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ...﴾[١]. وبين قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ...﴾[٢]، بقوله: من أنّ تمام القرآن وأصله وحقيقته بلا أيّ لفظ وتقطيع إنّما أُنزل في شهر رمضان، والقرآن الموجود بأيدينا نزل قطعة قطعة ومفصّلاً، مدّة ثلاث وعشرين سنة في المواطن المخصوصة بحسب الحاجة – ليس بصحيح كما مرّ تفصيله.

الوجه الثّاني: في الجمع بين الآيات ما ذهب إليه الصّدوق، وقال في اعتقاداته:... [وذكر كما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

واستدلّ عليه بروايات، وهي على ما تفحّصناه ثلاث روايات نقلها في «تفسير البرهان»، وهي وإن كان ظاهراً ثلاث روايات إلّا أنّها ترجع إلى رواية واحدة.

فنورد أوّلاً متن الرّوايات، ثمّ نتكلّم في سندها ودلالتها، الأُولى:... [ثمّ ذكر رواية حَفْص بن غياث عن الإمام الصّادق عليه السلام كما تقدّم عن الكُلَيْنيّ، فقال:]

قلت: ففي سند الحديث مالا يخفى، فإنّ حَفص عامّيّ بلاريب، ولم يثبت توثيقه، وفي قاموس الرّجال: قال في «الوجيزة» إنّه ضعيف، أو موثّق بشهادة الشّيخ في «العُدّة» بعمل الأصحاب بخبره. قلت: هو غلط، فإنّ «العُدّة» إنّما قال: إنّ الإماميّة إنّما يعملون بأخبار العامّة مثل حَفْص بن غياث إذا لم يكن له معارض من خبر إماميّ ولا إعراض.. الخ[٣].

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ الإسراء / ١٠٦.

٣ ـ قاموس الرّجال ٣: ٣٦٥.

وأمّا سُلَيْمان بن داود، فالظّاهر أنّه المنقريّ، ولم يثبت توثيقه، بل نقل عن الغضائريّ أنّه ضعيف جدّاً لايلتفت إليه، يوضع كثيراً على المهمّات[1]، وهو عامّيّ نسبت إليه بعض الأعمال الرّذيلة نعوذ باللّه. إن شئت فراجع.

وأمّا قاسم بن محمّد، فالظّاهر أنّه قاسم بن محمّد كاسولا؛ لروايته عن سُلَيْمان بن داود، والرّجل لم يوثّق، بل عن الغضائريّ ضعيف في حديثه، يعرّف تارةً وينكّر أُخرى، ويجوز أن يخرج شاهداً. فعلم ممّا ذكرنا أنّ السّند غير معتبر.

والثّانية: الحديث العاشر من «البُرهان»، فهو كأنّه هذا الحديث بعينه، إلّا أنّه حذف فيه السّند؛ لأنّه نقل عليّ بن إبراهيم الحديث عن أبي عبدالله عليه السلام، وهو غير ممكن كما لايخفى؛ لعدم ثبوت رواية له عن المعصومين.

والثّالثة: ما رواه عن عليّ بن إبراهيم في ذيل سورة القدر؛ قال: فهو القرآن أُنزل إلى البيت المعمور جملة في ليلة القدر.

والظّاهر أنّه لم ينقل فيه حديثاً، بل هو تفسير منه وبيان، فيرجع الأحاديث الثّلاثة في الباب إلى حديث واحد. إذا تقرّر ذلك أقول: يرد على هذا الجمع أُمور:

الأوّل: إنّ سند هذا القول حديث واحد لايوجب علماً ولا عملاً، كما صرّح به المفيد رحمه الله ؛ قال في تصحيح الاعتقادات: الّذي ذهب عليه أبو جعفر؛... [وذكركما تقدّم عنه، ثمّ قال:]

والثّاني: إنّ هذا الجمع لا يناسب قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ حيث أنّه في البيت المعمور ليس فيه أيّ هداية، ولا يقاس القرآن على القوانين المنشأة في الدّول حتّى يقال: إنّه هاد شأناً.

وذلك لأنّ القرآن ينزل بحسب ما تدعو إليه الحاجة، فقبل الحين لايناسب مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُك فِى زَوْجِهَا...﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿طٰهٰ مَا اَنْـزَلْـنَا

---

١ ـ قاموس الرّجال ٤: ٤٧١.

٢ ـ المجادلة / ١.

عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لِتَشْقىٰ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿عَفَى اللّٰهُ عَنْكَ لِمَ اَذِنْتَ لَهُمْ﴾[2]، لأنّه لا معنى لنزول هذه قبل تحقّق الموضوع إلّا تكلّفاً. وسيأتي منّا في الجمع الثّالث بيانه تفصيلاً.

والثّالث: أنّه لايعلم أيّ حكمة في نزوله إلى البيت المعمور؛ قال الشّعرانيّ في «حاشية تفسير أبي الفُتُوح»: أمّا وجه نزوله إلى السّماء الدّنيا أوّلاً، وعدم نزوله إليه ﷺ من اللّوح ابتداءً لم يعلم لنا وجهه. نعم، لو كان في البين دليل متقن نلتزم به، وأنّىٰ لنا هذا الدّليل؟.

الوجه الثّالث: أنّ نفس القرآن نزل في شهر رمضان على قلب النّبيّ ﷺ، ثمّ نزل تدريجاً، ﴿لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ﴾، وكأنّه ﷺ لم يكن مأذوناً في تلاوته ونشره أوّلاً.

ويقرب منه ما اختاره الفيض في المقدّمة التّاسعة في تفسيره الصّافي؛ حيث قال: كأنّه أُريد به البيت المعمور نزول معناه على قلب النّبيّ ﷺ.

وهو ظاهر بعض الرّوايات، كخبر مُفضّل بن عمر في حديث طويل عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال:... [وذكركما تقدّم عن المَجْلِسيّ، ثمّ قال:]

أقول : في فقه الحديث مالا يخفى، فإنّه وإن كان ذيل الحديث يدلّ على مدّعاه، وأمّا صدره فمبهم، وما أدري أيّ شيء فهم المفضّل من الآيات الأربعة المتعارضة حتّى قال: يا مولاي فهذا تنزيله الّذي ذكره الله في كتابه؟ هذا ويرد على هذا الوجه أُمور؛

الأوّل: أنّ الخبر، خبر واحد لايفيد علماً ولا عملاً، ولا يمكن التّمسّك به مع تعارضه بأخبار أُخر، ومن هذه الأخبار ما يدلّ على نزوله جملةً على البيت المعمور، وأمّا المقصود بالبيت المعمور هو قلب النّبيّ ﷺ كما قال الفيض، فليس له دليل.

الثّاني: أنّ القرآن ظاهر في عدم نزوله جملة له ﷺ لمكان قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْاٰنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[3]؛ لأنّ قوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ دليل على عدم نزوله جملة، بقوله تعالى ﴿كَذٰلِكَ﴾، أي التّدريج، وإنّ في هذا

---

١ ـ طه / ٢.

٢ ـ التّوبة / ٤٣.

٣ ـ الفرقان / ٣١.

لحكمة، وهو تثبيت فؤاده ﷺ، ولو كان القرآن نزل جملةً واحدةً لكان اللّازم في الجواب أن يشعر به.

الثّالث: أنّه لو قيل بنزول القرآن جملةً على النّبيّ ﷺ يشكل الأمر في كثير من الآيات، منها ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[١]؛ حيث أنّها ظاهرة في نزول القول الثّقيل بعدها، فلا يناسب نزوله جملة.

منها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكْ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٢]، ظاهر الآية أنّه قبل نزول السّورة شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، وهذا لايناسب نزول القرآن جملة في ليلة القدر.

منها ﴿طٰهٰ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ لِتَشْقىٰ﴾[٣]، ظاهر الآية يعطينا أنّه ﷺ بعد نزول جملة من القرآن شقّت نفسه حتّى تورّم قدماه، فنزل نهيٌ عن ذلك (طه...). ولو نزل القرآن عليه جملة لم يكن لقوله تعالى: ﴿طٰهٰ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْاٰنَ﴾ معنى قبل التّورّم، وهذا واضح.

منها ﴿عَفَى اللّٰهُ عَنْكَ لِمَ اَذِنْتَ لَهُمْ﴾[٤]، الآية صريحة في أنّه ﷺ أذن لهم سابقاً في تركهم القتال وقعودهم في المدينة، فنزلت الآية، وهذا المعنى يناسب النّزول التّدريجيّ لا الدّفعيّ.

منها ﴿وَلَقَدْ رَاٰهُ نَزْلَةً أُخْرىٰ﴾[٥]، الآية تحكي رؤيته ﷺ ملك الوحي في المعراج، وهذا المعنى لا يصحّ إلّا بعد المعراج، فقبل المعراج لامعنى له.

منها ﴿قَدْ سَمِعَ اللّٰهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللّٰهِ وَاللّٰهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا...﴾[٦]، الآية تدلّ على سماع الله تعالى قول المرأة ومحاورتها مع النّبيّ ﷺ، فهو

---

١ ـ المزمّل / ٥.

٢ ـ الانشراح / ١ - ٤.

٣ ـ طه / ١.

٤ ـ التّوبة / ٤٩.

٥ ـ النّجم / ٥

٦ ـ المجادلة / ١

يلاءم مع التّدريج لا الدّفعيّ.

منها قوله: ﴿فَلَمَّا قَضىٰ زَيدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا...﴾[١]. فتزويج الله تعالى زينب رسوله بعد طلاق زيد لايصحّ إلّا بمجيء زمانه، فكيف يصحّ نزول القرآن جملة في مكّة مع عدم مجيء حينه؛ بل مع عدم تحقّق موضوعه لا يصحّ قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾.

منها قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاها﴾[٢]. وهذه الآية تنادي بأعلى صوتها أنّه تعالى يقول لنبيّه: قد نرىٰ فعلاً تقلّب وجهك في السّماء، وكأنّه كان ينتظر الأمر بتردّد وجهه. فحينئذٍ تقلّب وجهه موضوع لنزول الآية، فلا يصحّ أنّ تنزل قبل هذا، لعدم تحقّق موضوعه، وهذا واضح لمن له أدنىٰ تأمّل، إلى غير ذلك من الآيات.

الرّابع: أنّ الرّوايات دالّة على أنّه لم يكن عالماً بالقرآن قبلاً، بل أخبره الله تعالى بإنزال القرآن عليه تدريجاً ونجوماً، وهي كثيرة، منها ما ورد في ذيل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ... لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ...﴾[٣].

وفي المجمع: قال المفسّرون: إنّ بني عمرو بن عَوف إتّخذوا مسجد قُبا، وبعثوا إلى رسول‌الله ﷺ أن يأتيهم، فأتاهم وصلّى فيه، فحسدهم جماعة من المنافقين من بنى غنم بن عَوف، فقالوا نبني مسجداً فنصلّي فيه، ولانحضر جماعة محمّد ﷺ، وكانوا اثنى عشر رجلاً، وقيل: خمسة عشر رجلاً، فبنوا مسجداً جنب مسجد قبا.

فلمّا فرغوا منه أتوا رسول‌الله ﷺ وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول‌الله، إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة وللّيلة المطيرة والشّاتية، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي فيه لنا وتدعو بالبركة، فقال ﷺ: «إنّي على جناح السّفر، ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم». فلمّا انصرف رسول‌الله ﷺ من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد.

---

١ ـ الأحزاب / ٣٧.

٢ ـ البقرة / ١٤٤.

٣ ـ التّوبة / ١٠٨.

وهذه الرّواية دالّة على أنّ القرآن نزل تدريجاً لاجملة، ولو كان القرآن نزل جملة قبلاً لكان عالماً بمقاصدهم.

ومنها: ما روي في البحار عن عليّ عليه السلام في قصّة أصحاب الكهف، فقالوا: يا محمّد، أخبرنا عن فئة كانوا في الزّمان الأوّل، ثمّ غابوا، ثمّ ناموا. فقالوا لهم رسول‌الله صلى الله عليه وآله «إنّي لا أخبركم بشيء إلّا من عند ربيّ، إنّما انتظر الوحي يجيىء، ثمّ أخبركم بهذا غداً»، ولم يستثن «إن شاء الله»، فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً، حتّى شكّ جماعة من أصحابه، فاغتمّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله، وفرحت قُريش بذلك، وأكثر المشركون القول، فلمّا كان بعد أربعين صباحاً نزل عليه بسورة الكهف[1].

هذه القصّة تعطينا أنّه صلى الله عليه وآله لم يكن عالماً بما سألوا وكان ينتظر الوحي. وأمّا احتمال أنّه صلى الله عليه وآله كان عالماً ولم يكن مجازاً في النّقل فشيء غير معقول بل خلاف ظاهر الرّواية.

وأمثال هذه الرّوايات في المقام كثيرة، بحيث يمكن ادّعاء استفاضتها لو لم نَدّعِ التّواتُر.

الخامس: أنّ تعدّد النّزول – بمعنى أنّه نزل جملة، ثمّ نزل تدريجاً – فشيء لانفهمه، وإن شئت فقس نزول القرآن بنزول الغيث.

فهل يمكن تصوّر نزوله مرّةً أُخرى بعد نزوله أوّلاً؟ فحينئذٍ لايكون الثّاني بوحي منزل، بل إجازة على القراءة على النّاس، كما هو ظاهر الخبر المتقدّم (خبر المفضّل بن عمر)؛ حيث قال صلى الله عليه وآله: «نعم يا مفضّل، أعطاه القرآن في شهر رمضان، وكان لايبلّغه إلّا وقت استحقاق الخطاب».. الخ.

وهذا – أي كون المرّة الثّانية إجازة – خلاف الفرض، بل خلاف الواقع؛ لأنّ من المسلّم به نزول القرآن وتحقّق الوحي إنّما كان متحقّقاً تدريجاً، ويدلّ عليه تغيير حاله صلى الله عليه وآله حين نزوله، ولم يكن مثل تطبيق القرآن مع جبرائيل عليه السلام في كلّ سنة على ما روي.

إن قلت: أما تقولون: إنّ الفاتحة يقال لها: السّبع المثاني، وقيل في وجهه: إنّ السّورة

---

١ ـ بحار الأنوار ٩٣: ٨٠.

نزلت مرّتين، فلذا قيل: السّبع المثاني؟

قلت: أوّلاً – أنّ هذا غير مسلّم به، كما يأتي بيانه في محلّه إنشاء الله.

وثانياً: على فرض تسلّمه هو دليل على أنّ القرآن لم يكن نازلاً مرّتين، وإلّا لا يكون من خصوصيّات الفاتحة. والحاصل أنّ من إثبات نزولين للفاتحة يثبت عدم نزول القرآن مرّتين، وهذا مسلّم به.

وقد اكتفينا في ردّ هذا القول نزول القرآن جملةً على قلب النّبيّ ﷺ بهذه الوجوه الخمسة مخافة المَلَل، كما اكتفينا في نقل الأقوال المتعرّضة لحلّ المسألة وتوجيهها على ثلاثة أقوال؛ لئلّا يكون البحث فيها نقلاً ونقصاً من باب التّطويل بلا طائل، لأنّ أكثراً أبحاثها قد علم ممّا ذكرنا.

فإذا أحطتَ خبراً بما حرّرناه فقد حان بيان المختار في المقام، فنقول: لابدّ لبيانه من تقديم أُمور:

الأوّل: في كيفيّة استعمال لفظ القرآن، فقد يظهر من كلام بعض المفسّرين أو أكثرهم أنّ إطلاق القرآن على القرآن الموجود بأيدينا من سورة الفاتحة إلى آخره هو على الحقيقة، وأنّ استعماله في سورة أو آية أو بعض القرآن على المجاز يحتاج إلى العناية، ولكنّ الحقّ خلافه؛ لأنّ استعمال القرآن مثل استعمال الماء في القليل والكثير على الحقيقة وتشهد عليه اللُّغة، بل صرّح عليه بعض الأُصوليّين وغيرهم؛ قال أبو البقاء في كلّيّاته: وفي التّلويح: هو (القرآن) في العرف العامّ اسم لهذا المجموع، وعند الأُصوليّة وضع تارةً للمجموع وتارةً لما يعمّ الكلّ والبعض. فيكون القرآن حقيقة فيهما باعتبار وضع واحد[1].

ولصاحب المعالم هاهنا تحقيق رشيق في بحث الحقيقة اللُّغويّة، وإليك نصّه؛ قال: والضّمير في ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ للسّورة لا للقرآن، وقد يطلق القرآن على السّورة وعلى الآية، فإن قيل: يصدق على كلّ سورة وآية أنّها بعض القرآن. وبعض الشّيء لا يصدق عليه أنّه نفس ذلك الشّيء.

---

١ ـ كلّيّات أبي البقاء: ٥٢١.

قلنا: هذا إنّما يكون فيما لا يشارك البعض الكلّ في مفهوم الاسم، كالعشرة فإنّها اسم لمجموع الآحاد المخصوصة، فلا يصدق على البعض، بخلاف نحو الماء، فإنّه اسم للجسم البسيط البارد الرّطب بالطّبع، فيصدق على الكلّ وعلى أيّ بعض فرض منه، فيقال: هذا البحر ماء، ويراد منه مفهومه الكلّيّ، ويقال: إنّه بعض الماء، ويراد منه مجموع المياه الّذي هو أحد جزئيات ذلك المفهوم.

والقرآن من هذا القبيل، فيصدق على السّورة أنّها قرآن، وبعض من القرآن بالاعتبارين. على أنّا نقول: إنّ القرآن قد وضع بحسب الاشتراك للمجموع الشّخصيّ وضعاً آخر، فيصحّ بهذا الاعتبار أن يقال: السّورة بعض القرآن، انتهىٰ كلامه.

وهذا هو الّذي ذكره السّيد في «دُرَرِه»؛ حيث قال: والجواب الصّحيح أنّ قوله تعالى: ﴿الْقُرآن﴾ في هذا الموضع لا يفيد العموم والاستغراق، وإنّما يفيد الجنس من غير معنى الاستغراق[1]، انتهى ما رمنا من كلامه، وإن شئت فراجع تمامه.

والاستعمالات القرآنيّة والعرف، واستعمالات الأئـمّة عليهم السلام يـؤيّد ذلك: ﴿وَإِذَا قُرِءَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[2]، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُورًا﴾[3]، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[4].

وكقولهم: أخاف أن ينزل فيّ القرآن، ونحوه. وكذا قولهم:: تستحبّ قراءة القرآن أو تكره، وأمثال ذلك في الرّوايات كثيرة، فلا حاجة إلى نقلها، وأنت ترى أنّ لفظ القرآن استعمل في كلامه تعالى والأئمّة: والعرف في بعض القرآن بلا عناية.

الأمر الثّاني في كيفيّة شروع الوحي، وإثبات أنّه كان تدريجاً. اعلم أنّه يظهر من بعضهم أنّه تحقّق الوحي والنّبوّة بنزول جبرائيل بالقرآن، إلّا أنّ الظّاهر خلافه. وهذا هو الّذي يظهر من الأخبار، وأنّه كان يرى أوّلاً في النّوم رؤياً صادقة، ثمّ كان يسمع صوت

---

١ ـ الدّرر ٢: ٢٥٣.

٢ ـ الاعراف / ٢٠٣.

٣ ـ الإسراء / ٤٥.

٤ ـ الجنّ / ١ - ٢.

جبرائيل ثمّ يراه بعينه، ثمّ كان نبيّاً ثلاث سنين، ثمّ كان رسولاً. بل يظهر من بعض الأخبار عن الأئمّة عليهم السلام أنّه صلى الله عليه وآله كان له ملك يسدّده من أيّام طفولته، إلّا أنّه ليس مورد بحثنا، بل أنّ مورد البحث هو أوّل النّبوّة ونزول الوحي. ونشير إذاً إلى بعض ما ورد في الرّوايات:

الأُولى: في البحار من «المناقب»: أرسله الله تعالى بعد أربعين سنة من عمره، حين تكامل بها واشتدّت قواه؛ ليكون متهيّئاً ومتأهّباً لما أُنذر به، ولبعثته درجات، أوّلها الرّؤيا الصّادقة.

[ثمّ ذكر روايات في الثّانية عن الشَّعْبيّ، وفي الثّالثة عن عليّ بن إبراهيم القُمّيّ، وفي الرّابعة عن الاختصاص كما تقدّم جميعها عن المَجْلِسيّ، فقال:] إلى غير ذلك من الرّوايات الواردة، كلّها تشير إلى أنّ أمر النّبوّة إنّما حصل تدريجاً.

الأمر الثّالث: في زمان تحقّق النّبوّة، اختلفوا في أوّل النّبوّة على خمسة أقوال: والمشهور بين العامّة أنّه صلى الله عليه وآله بعث في شهر رمضان. وأمّا المشهور بين الخاصّة فإنّه صلى الله عليه وآله بعث في يوم سبع وعشرين من رجب، وأرسلوه إرسال المسلّمات.

وقال الأردبيليّ في «جامع الرّواة»: وبعث يوم السّابع والعشرين من رجب وله أربعون. ونقل في البحار عن «الكافي» وأمالي المفيد؛ أربعة أخبار كلّها تدلّ على ذلك[1]. ولعلّ هذا هو المشهور بينهم، بل ادّعى بعضهم الإجماع على ذلك.

وفي زماننا يعدّ البحث فيه بين أبناء الزّمان بحثاً انحرافيّاً، ومع هذا لا مانع عن البحث إجمالاً حوله. فأقول: المشهور بينهم وإن كان ذلك إلّا أنّه قد ورد في بعض الأخبار ما يخالف المشهور، فعن «عيون أخبار الرّضا» عليه السلام قال: فإن قال: ... [وذكر كما تقدّم عن المجلسيّ، ثمّ قال:]

والخبر كما ترى صريح في أنّه بعث في شهر رمضان، وقد يظهر من بعض العلماء وجود القول بكونه مبعوثاً في شهر رمضان، ولفظ المشهور في كلماتهم دليل عليه. [ثمّ ذكر قول الشّيخ المفيد حول البِعْثة، كما تقدّم عن المَجلِسيّ، فقال:]

وظاهر كلامه أنّه ذهب منّا إلى بعثته في شهر رمضان ذاهب، وإن لم يذكر شخصه.

---

١ ـ بحار الأنوار ١٨: ١٨٩.

وكلام «تاج المواليد» صريح فيه، ويأتي نقله: ٧٦. ويظهر من كلام الشّعرانيّ في ذيل سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في «تفسير مجمع البيان» أمران:

١ – عدم كون المبعث في رجب مشهوراً.

٢ – ميله إلى أنّه في شهر رمضان؛ حيث قال: فإن قيل: إن كان ابتدأ نزول القرآن في شهر رمضان، فما وجه الجمع بينه وبين ما ذكره بعضهم أنّ المبعث في رجب؟

قلنا: إن صحّ ذلك ولك يشتبه على الرّاويّ المبعث بالمعراج أمكن حمله. فقوله: إن صحّ ذلك، إشارة إلى عدم اعتقاده أنّه ﷺ بعث في رجب، وقوله: وبين ما ذكره بعضهم، إشارة إلى أنّه ليس بمشهور.

الأمر الرّابع: في بيان عدم الملازمة بين النّبوّة ونزول القرآن، والّذي يظهر من كلمات بعضهم أنّ النّبوّة إنّما تحقّقت بنزول القرآن، كما يظهر ذلك من بعض الأخبار الواردة في شأن نزول سورة إقرأ.

قال في مجمع البيان: إنّ هذه السّورة أوّل ما نزل من القرآن... [وذكركما تقدّم عن الطّبرسيّ، ثمّ قال:]

أقول: أمّا مقام الثّبوت، فكما يكن أن يقترن بوحي القرآن، كذلك يمكن أن تتحقّق النّبوّة قبل الوحي القرآنيّ بنزول جبرائيل أو إسرافيل على رسول‌الله ﷺ وإتيانه بالنّبوّة.

وهذا كما في موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء؛ حيث أنّ موسى عليه السلام كانت نبوّته قبل نزول التّوراة بسنين، كما هو واضح بلا ريب هذا في مقام الثّبوت.

وأمّا في مقام الإثبات فليس لنا دليل يدلّ على الملازمة أو المقارنة، بل يظهر من بعض الأخبار أنّه ﷺ تنبّأ قبل نزول القرآن إليه.

وقد مرّت بنا الإشارة إليه؛ حيث في خبر الاختصاص صرّح بأنّه قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين، يسمع الصّوت ولا يرى شيئاً. ثمّ قرن به جبرائيل عشرين سنة، وذلك حيث أُوحي إليه[١]، والخبر كالصّريح في عدم نزول القرآن في ثلاث سنين؛ لمكان قوله: ثمّ قرن جبرائيل عشرين سنة وذلك حيث أُوحي إليه؛ لأنّه من المسلّم به أنّ

---

١ ـ بحار الأنوار ١٨: ١٩٠

ملك الوحي القرآنيّ هو جبرائيل، وهكذا غيره من الأخبار.

إن قلت: كيف يمكن أن يكون مدّة شهرين تقريباً نبيّاً ولم ينزل عليه القرآن؟

قلت: فمع عدم الملازمة إثباتاً وثبوتاً لا معنى للتّشكيك فيه.

وقد وقع نحوه في الأنبياء السّلف، كما في موسى عليه السلام كان نبيّاً سنين ولم تنزل عليه التّوراة، فبعد مدّة مديدة أنزل الله الألواح، كما صرّح به القرآن. فإنّه بعد نجاة قومه وحضوره الميقات، قال: ﴿يَا مُوسىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ...﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ...﴾[2].

واعتقده بعض منّا، كما في «تاج المواليد» للطّبرسيّ: بعث صلى الله عليه وآله بمكّة يوم الجمعة السّابع والعشرين من رجب وهو ابن أربعين سنة، وأُنزل عليه القرآن يوم الاثنين لإحدىٰ عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان.

الأمر الخامس: عدم الفرق بين الإنزال والتّنزيل، وحيث تكلّمنا إثباته حول كلام العلّامة فلا نعيد هنا.

فالنّتيجة

مقتضى الأمر الأوّل صحّة صدق القرآن على الآية والسّورة.

ومقتضى الأمر الثّاني تحقّق النّبوّة تدريجاً.

ومقتضى الأمر الثّالث أنّ المشهور أنّ النّبوّة اليوم السّابع والعشرين من رجب، وشهر رمضان على قول ورواية.

ومقتضى الأمر الرّابع عدم الملازمة بين النّبوّة ونزول القرآن.

ومقتضى الأمر الخامس عدم الفرق بين الإنزال والتّنزيل.

---

١ ـ الأعراف / ١٤٥.

٢ ـ الأعراف / ١٤٤.

وإذا تحرّر ذلك فاعلم أنّ القرآن يدلّ صريحاً على نزوله في شهر رمضان؛ لمكان قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾[1]. وليس في قباله دليل يدلّ على نزوله في شهر رجب. وكذا ليس لنا دليل متقن يدلّ على نزوله أو معناه جملة على قلب الرّسول ﷺ أو البيت المعمور. وكذا ليس لنا دليل يدلّ على الفرق بين الإنزال والتّنزيل.

فحينئذٍ نقول: معنى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ﴾ أنّ نزول القرآن الّذي هو بركة وهداية تحقّق في شهر رمضان، والنّبوّة في شهر رجب، ولا ملازمة بينهما كما مرّ.

إن قلت: إنّ ظاهر الآية أنّ القرآن نزل جملة بتمامه في شهر رمضان.

قلت: فما وجه الظّهور؟ ومرّ منّا أنّ القرآن كما يستعمل في الآية والسّورة، يستعمل في تمام القرآن، ومنه يظهر ضعف قولهم: إنّ المراد حينئذٍ ابتداء نزول القرآن. ووجه الضّعف أنّه ليس الأمر كذلك، وليس نزول القرآن إلّا مثل الوحي والنّبوّة، فكما يصحّ أن يقال: إنّه نزل وتحقّق الوحي والنّبوّة في رجب ويوم كذا، يصحّ أن يقال: إنّه نزل القرآن في شهر رمضان، بلا حاجة إلى التّفسير بنزول القرآن بإبتداء النّبوّة. وإن شئت توضيح ذلك في العرفيّات فراجع قولهم، فإنّهم يقولون: نزل الغيث أو السّيل في ساعة كذا، فليس معناه ابتداء نزول الغيث أو السّيل في ساعة كذا، مع أنّ ابتداءهما حقيقة في ساعة كذا لا كلّهما، وليس هذا إلّا من باب أنّ الغَيْث والسَّيْل يصدق في الآن الأوّل أنّه غَيْث أو سَيْل، وأنّه نزل في ساعة كذا، هذا كلّه واضح وعدم القبول مكابرة.

فتحصّل من تمام ذلك أنّ رسول‌الله ﷺ تحقّقت نبوّته في سبع وعشرين من رجب بإخبار جبرائيل أو إسرافيل، وكان يتردّد عليه بمجرّد الوحي بينه وبين نزول القرآن بما يقرب شهرين أو أكثر.

واحتمل المَجْلِسيّ الأوّل عدم نزول القرآن عليه بعد المبعث ثلاث سنين؛ حيث قال في شرحه الفارسيّ ما نصّه: «ممكن است از اوّل بعثت تا زمان وفات كه بيست وسه سال بود در سه سال متوالي يا متفرّق، قرآن نيامده باشد»..الخ.[2] واعتقد ما اخترناه من كون

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ كتاب الصّوم از شرح فارسى من لايحضره الفقيه ٢: ١٤١.

نزول القرآن بعد شهرين بعض منّا، منهم صاحب «تاج المواليد»؛ حيث قال: بعث ﷺ بمكّة يوم الجمعة السّابع والعشرين من رجب، وهو ابن أربعين سنة، وأُنزل عليه القرآن يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان.

والمَجْلِسيّ؛ في أربعينه جعله أوّل الاحتمالات؛ حيث قال: السّابع: معنى نزول القرآن في ليلة القدر، وقد نزل ثلاث وعشرين سنة منجّماً كما ذكره المفسّرون، فقيل: المراد ابتداء نزوله، هذا هو احتماله الأوّل[١].

فتحصّل من تمام ذلك أنّ ظاهر القرآن هو نزوله بنزول سورة اقرأ في شهر رمضان في ليلة القدر وليلة مباركة إلى النّبيّ ﷺ، لا كلّ القرآن.

وبعد كتابة هذا رأيت كلام بعض الأعاظم يوافق ما ذكرنا، وإليك نصّه: والحاصل من مجموع تلك الآيات أنّ القرآن نزل في شهر رمضان في ليلة مباركة، هي ليلة القدر، وحكمة الصّوم في هذا الشّهر المُعظّم والعبادة فيه والتّعظيم له هو نزول القرآن فيه.

وذكر كثير: أنّ ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر، ولزم منه أن يكون المبعث في شهر رمضان إن قلنا أوّل المبعث أوّل نزول القرآن، وإن لم نجعل أوّل المبعث وقت نزول القرآن، أمكن كونه في شهر رجب، كما هو معروف بيننا. إلى أن قال: ولا منافاة في أن يكون المبعث في رجب، وبدء نزول القرآن في شهر رمضان[٢].

هذا كلّه بالنّظر إلى نفس القرآن والتّأمّل فيه، وأمّا بالنّظر إلى الأخبار فقد يظهر منها وجه آخر، وإجماله أن يقال: إنّ القرآن نزل تدريجاً في مدّة ثلاث وعشرين سنة، وفي شهر رمضان (ليلة القدر) ينزل تفسير القرآن وبيانه، وما سيكون في تمام السّنة على إمام عصره عليه السلام من رسول الله ﷺ والأئمّة الاثنى عشر.

وهذا هو الظّاهر من الأخبار الواردة في ذيل سورة القدر ولعلّه إليه أشار بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾. فعلى أيّ حال تدلّ عليه أخبار كثيرة، منها: الحديث السّابع من « تفسير البُرهان » ذيل سورة ﴿اِنَّا اَنْزَلْنَاهُ﴾ قال: إنّ رسول الله ﷺ لمّا أُسريَ به، ولم يهبط

---

١ ـ أربعين المَجْلِسيّ ٣٧: ١٧٢.

٢ ـ حاشيه كتاب الوافي ٢: ٥٨ – ٥٩.

حتّى أعلمه الله (جلّ ذكره) علم ما قد كان وما سيكون. وكان كثير من علم ذلك جملة يأتي تفسيره في ليلة القدر.

وكذلك كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد علم جملة العلم، ويأتي تفسيره في ليالي القدر، وهذا المعنى هو الّذي اختاره الفيض في آخر المقدّمة التّاسعة؛ حيث قال: وبالجملة تتميم إنزاله بحيث يكون هدًى للنّاس وبيّنات من الهُدى والفرقان، كما قال سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١] - يعني في ليلة القدر منه - ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ إلى أن قال: وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، أي حين أنزلناه نجوماً، فإذا قرأنا عليك حينئذٍ ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي جملته: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ في ليلة القدر، بإنزال الملائكة والرّوح فيها عليك وعلى أهل بيتك من بعدك، بتفريق المحكم من المتشابه، وبتقدير الأشياء، وتبيين أحكام خصوص الوقائع الّتي تصيب الخلق في تلك السّنة إلى ليلة القدر الآتية.

قال في «الفقيه» تكامل نزول القرآن ليلة القدر، وكأنّه أراد به ما قلناه. وبهذا التّحقيق حصل التّوفيق بين نزوله تدريجاً ودفعة، واسترحنا من تكلّف المفسّرين، انتهى كلامه. وهكذا اختار في «الوافي» كتاب الحجّة، وإن شئت فراجع.

والإنصاف أنّه كلام جيّد بالنّسبة إلى الأخبار، ولعلّه من بطن القرآن الّذي كشفته الأخبار، فمع قطع النّظر عن الأخبار وكشفها، الحقّ الحقيق الّذي لا معدل عنه هو ما قلناه من نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان بنزول خمس آيات من أوّل سورة اقرأ، وأنّ النّبوّة تحقّقت في رجب، ولا ملازمة بينهما، وليس فيه أيّ تكلّف، فالوجهان وجيهان مقبولان عندنا.

وهذا ما تيسّر لنا عاجلاً، والله العالم بحقائق الأُمور، والهادي إلى الصّواب والرّشاد.

(١: ١٢ - ٨٦)

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

الفصل السّابع والسّبعون

نصّ السّيد مير محمّديّ في كتابه: «بحوثٌ في تاريخ القرآن»

كيف نزل القرآن؟

لقد قرّر القرآن الكريم لتكليم الله عباده ثلاث طرق:[1]

الأُولى: أن يكلّمه الله وحياً، أي إلهاماً وإلقاء في القلب.

الثّانية: أن يكلّمه من وراء حجاب.

الثّالثة: أن يكلّمه بواسطة ملك، وذلك بأن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه.

والّذي نريد أن نبحث فيه هنا هو كيفيّة نزول القرآن، وإيصاله إلى النّبيّ محمّد ﷺ وبأيّ من الطّرق المتقدّمة كان ذلك؟

الوجوه والاحتمالات بملاحظة الطّرق الثّلاث الآنفة الذّكر كثيرة، لكن الّذي نختاره هو أنّ جميع القرآن قد أُنزل على محمّد ﷺ بواسطة رسول ألقاه إليه، وهو جبريل. ويدلّ على ذلك آيات:

منها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[2].

---

١ ـ الشّورى / ٥١.

٢ ـ الشّعراء / ١٩٢ ـ ١٩٤.

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]. وقبل بيان ما نحن بصدده لا بأس بالإشارة إلى نقطتين:

الأُولى: أنّ من الواضح أنّ المراد بالرّوح الأمين في الآيات الأوّل ليس هو الله عزّ وجلّ، وذلك بقرينة الآية الثّانية الّتي تقول: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ...﴾؛ حيث إنّها تدلّ على أنّ روح القدس والرّوح الأمين هو الواسطة بين الرّبّ وبين عبده الرّسول ﷺ، فلا يعقل أن يكون هو نفس الله عزّ وجلّ.

الثّانية: أنّ الرّوح الأمين، أو روح القدس في الآيات الأوّل يراد به جبريل، وذلك بقرينة الآية الأخيرة الّتي تقول: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ...﴾، فإنّها صريحة في أنّ مُنَزِّل القرآن من الله تعالى على قلب محمّد ﷺ هو جبريل، فلو كان المراد بالرّوح الأمين، أو الرّوح القدس غير جبريل لوقعت المنافاة بين الآيات.

جبريل نزل بجميع القرآن

إذا تمهّد هذا قلنا: إنّه يظهر من هذه الآيات المذكورة أنّ جبريل قد نزّل جميع القرآن على قلب محمّد ﷺ لابعضه، وذلك لأنّ الضّمائر الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، و ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾، و ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسُ﴾، هذه الضّمائر لا يرتاب أحد في ظهورها في القرآن الشّريف الكائن بين الدّفّتين، والكتاب الّذي هو معجزة محمّد ﷺ الخالدة.

وممّا يشهد ويؤيّد هذا الظّهور المشار إليه هو تلك الآيات الكثيرة التّالية لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهذه الآيات هي: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

---

١ ـ النّحل / ١٠٢ ـ ١٠٣.

٢ ـ البقرة / ٩٧.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾[1].

فإنّ من تأمّل في هذه الآيات يقطع بأنّها تتحدّث عن القرآن كلّه، وهو ما بين الدّفّتين، وإنّ الضّمائر الموجودة فيها يراد بها الدّلالة عليه كلّه لا على بعضه.

الآيات الدّالّة على وساطة جبريل:

ومن الآيات الدّالّة على ما نحن بصدده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[2].

أي أنّ القرآن الّذي يقرءه عليكم محمّد ﷺ ليس هو من عند نفسه، وإنّما هو قول رسول كريم، وهو جبريل، وقد تلقّاه محمّد منه.

المراد بالرّسول الكريم:

ويدلّنا على أنّ المراد بالرّسول الكريم في الآية الشّريفة هو جبريل، ما عن عليّ بن إبراهيم، بسند صحيح، عن هِشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث الإسراء بالنّبيّ ﷺ، وفيه: «... فقلت لجبرئيل - وهو بالمكان الّذي وصفه الله مطاع ثمّ أمين - ألا تأمره أن يريني النّار؟ فقال له: يا مالك، أرِ محمّداً النّار، فكشف عنها غطاءها، وفتح باباً منها...» إلى آخر الحديث.

إذ يستفاد من هذا الحديث أنّ النّبيّ ﷺ قد قرّر أنّ كلمة ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ الواردة في هذه الآية، إنّما هي وصف من الله تعالى لجبرئيل، وقد تجلّت أمانة جبريل عليه السلام في أنّه كان هو المؤتمن على القرآن، وإيصاله إلى محمّد، كما وظهر أنّه مطاع، من حيث أنّه أمر مالكاً فامتثل.

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٣ - ٢٠١.

٢ ـ التّكوير / ١٨ - ٢٢.

وممّا يؤيّد ذلك أيضاً ما ورد في أدعية زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام على ما في الصّحيفة السّجاديّة، عند صلواته على كلّ ملك مقرّب: «وجبريل الأمين على وحيك المطاع في أهل سمواتك، المكين لديك المقرّب عندك».. الخ.

كما أنّ الآيات الواردة في أوّل سورة النّجم، وهي قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوٰى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوٰى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوىٰ﴾[1].

هذه الآيات شاهد آخر، على أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ هو جبريل عليه السلام. قال في مجمع البيان - وهو يفسّر آيات سورة النّجم: يعني جبريل القويّ في نفسه وخلقته، عن ابن عبّاس والرّبيع وقَتادة. وعن الكَلبيّ أنّه قال: ومن قوّته أنّه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود، فرفعها إلى السّماء، ثمّ قلبها، ومن شدّته صيحته لقوم ثمود حتّى هلكوا.

بل إنّ هذه الآيات - أعني آيات سورة النّجم - ليس فقط تصلح دليلاً على أنّ المراد بالرّسول ذي القوّة المكين هو جبريل، بل هي أيضاً دليل آخر على ما نحن فيه؛ إذ أنّها تدلّ على أنّ النّبيّ صلى الله عليه وآله لا يتكلّم بشيء، قرآناً كان أو غيره ممّا ترتبط برسالته، إلّا ويكون ذلك الشّيء وحياً، علّمه إيّاه شديد القُوى، الّذي هو جبريل، وهذا هو نفس ما نحن بصدد إثباته.

الأقوال

هذا ويتّضح بعد كلّ ما تقدّم أنّ القرآن كلّه قد نزل على محمّد صلى الله عليه وآله بوساطة جبريل عليه السلام ويبدو أنّ أهل السّنّة لا يمانعون في ذلك؛ فقد رووا ذلك عن ابن عبّاس بأسانيد صرّحوا بصحّتها؛ قال السّيوطيّ في الإتقان: وعن الحاكم، وابن شَيْبَة من طريق حَسّان بن حُرَيث... [وذكركما تقدّم عنه].

توهّم ودفع

وأخيراً فلعلّنا لا نرى مبرّراً لتوهّم أن يكون ما قدّمناه يخالف وينافي قوله تعالى:

---

١ ـ النّجم / ١ - ٥.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، ونحو ذلك من الآيات الّتي نسب فيها التّنزيل إلى الله لا إلى جبريل.

وذلك لأنّ الفعل كما يصحّ إسناده إلى المباشر المختار، كذلك يصحّ نسبته وإسناده إلى السّبب، فالوجه في إسناد الفعل إلى الله تعالى هو أنّه سبب، وإلى جبريل هو أنّه المباشر المختار...

وإلّا فإنّ وساطة جبريل في الجملة ممّا لاريب فيه، فإسناد تنزيل جميع القرآن إلى الله تعالى لا تصحّ على إطلاقها أيضاً.

ومن ذلك يعلم أنّ الوجه في نسبة تنزيل القرآن تارةً إلى الله تعالى، وأُخرى إلى جبريل عليه السلام هو ما ذكرنا.

مناقشة

هذا ولابدّ هنا من الإشارة إلى ما ربّما يقال: من أنّه لِم لايلتزم بالتّبعيض، بمعنى وساطة جبريل في بعض آيات القرآن لا في جميعها؟

ولكنّ ذلك لا يمكن الالتزام به؛ حيث أنّه لا دليل عليه ولا شاهد له، سوى ما يتوهّم من الأخبار الدّالّة على أنّ نزول الوحي كان على نحوين:

أحدهما: ما كان جبريل واسطة فيه بين النّبيّ صلى الله عليه وآله وبين الله تعالى. والآخر: ما كان بلا واسطة شيء أصلاً.

فمن هذه الأخبار ما رواه في البحار عن المحاسن بسند صحيح، عن هِشام بن سالم؛ قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: كان رسول‌الله صلى الله عليه وآله إذا أتاه الوحي من الله، وبينهما جبريل، يقول: هو ذا جبريل، وقال لي جبريل، وإذا أتاه الوحي وليس بينهما جبريل تصيبه تلك السّبتة، ويغشاه لثقل الوحي عليه من الله عزّ اسمه[1].

ولكنّ هذا الحديث لايكفي لإثبات ما يراد إثباته هنا، وذلك لأنّه في صدد بيان أنّ الوحي كان على نحوين، أحدهما: بواسطة جبريل، والآخر: بدونه، وليس في صدد بيان

---

١ ـ البحار ١٨: ٢٧١.

أنّ الوحي القرآنيّ من أيّ من هذين النّحوين هو، أو من كليهما، ولا دلالة له على شيء من ذلك، وحينئذٍ فيحتمل أن يكون الوحي القرآنيّ ممّا توسّط به جبريل. وأمّا ما لم يتوسّط فيه جبريل، فهو الوحي الّذي جاءه ﷺ في الموضوعات أو في غير القرآن المجيد، ممّا يعبّر عنه بـ«الأحاديث القُدسيّة».

وهذا الاحتمال بعد أن عضده الدّليل، وأيّدته الشّواهد يكون هو المتعيّن، ويخرج عن كونه احتمالاً إلى كونه من الأُمور المعتبرة والثّابتة.

ولابدّ لنا أخيراً من الإشارة إلى أنّه قد روي في البحار بعد هذا الحديث مباشرة حديث آخر يرتبط فيما نحن فيه، وهو عن العَيّاشيّ، عن عيسى بن عبدالله، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام؛ قال: كان القرآن ينسخ بعضه بعضاً... [وذكركما تقدّم عن البَحْرانيّ ثمّ قال:]

ورواه أيضاً الأمين الطَّبرِسيّ في تفسير سورة المائدة عن العَيّاشيّ مع اختلاف يسير.

ولكنّ هذا الحديث لا يدلّ بنفسه على أنّ جبريل ليس متوسّطاً بين الله والنّبيّ حين نزول سورة المائدة؛ إذ لعلّها قد نزلت بواسطة جبريل أيضاً.

اللّهم إلّا أن نستظهر عدم وساطة جبريل فيها بمعونة غيرها من الرّوايات، كأن نستظهر ذلك من عروض ما يشبه الإغماء العارض للنّبيّ ﷺ والثّقل؛ حيث أنّ الأخبار الّتي سبق بعضها تدلّ على أنّ الوحي إذا نزل بواسطة جبريل لم يحصل له ثقل ولا ما يشبه الإغماء، وإذا كان بدونه تصيبه ﷺ تلك السّبتة.

هذا بالنّسبة إلى الدّلالة في هذه الرّواية مع الإغماض عن أُمور أُخرى يطول بذكرها المقام.

وأمّا بالنّسبة إلى سندها فليس من القوّة بحيث يثبت هذا المطلب المخالف لظاهر آيات كثيرة تقدّمت، فإنّ الرّواة الّذين هم بين العَيّاشيّ وعيسى بن عبدالله لم يصرّح بأسمائهم، حتّى نعرف أنّهم واجدون لشرائط اعتبار أقوالهم أم لا، وهذا يكفي وحده وهناً في هذه الرّواية، وإسقاطها عن درجة الاعتبار.

وهكذا فإنّ النّتيجة تكون أنّ جبريل كان واسطة في نزول تمام القرآن على النّبيّ صلّى الله عليه وآله الطّيبين الطّاهرين. (ص: ٩ - ١٧)

الفصل الثّامن والسّبعون

نصّ الصّابونيّ في كتابه: «التّبيان في علوم القرآن»

نزول القرآن الكريم

شرّف الله هذه الأُمّة المحمّديّة، فأنزل عليها كتابه المعجز - خاتمة الكُتب السّماويّة - ليكون دستوراً لحياتها، وعلاجاً لمشاكلها، وبَلْسَماً شافياً لعِللها وأمراضها، وآية مجدٍ وفخار على اصطفاء هذه الأُمّة، واختيارها لحمل أقدس الرّسالات السّماويّة؛ حيث أكرمها الله بإنزال أشرف كتاب. وخصّها بالانتساب إلى أشرف مخلوق محمّد بن عبدالله ﷺ وبنزول هذا القرآن اكتمل عقد الرّسالات السّماويّة، فشعّ النّور على العالم، وسطع الضّياء على الكون، ووصلت هداية الله إلى الخلق، وكان هذا النّزول بواسطة أمين السّماء جبريل عليه السلام، يهبط به على قلب النّبيّ ﷺ ليبلّغه وحي الله، وفي ذلك يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1].

كيف نزل القرآن الكريم؟

للقرآن الكريم تنزّلان:

الأوّل: من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا جملةً واحدةً في ليلة القدر.

---

١ ـ الشّعراء / ١٩٣ - ١٩٥.

الثّاني: من السّماء الدّنيا إلى الأرض مُفَرّقاً في مدّة ثلاث وعشرين سنة.

التّنزّل الأوّل

فقد كان في ليلة مباركة من ليالي الدّهر هي ليلة القدر، أُنزل فيه القرآن كاملا إلى بيت العزّة في السّماء الدّنيا، ويدلّ عليه عدّة نصوص، وهي:

أ – قوله تعالى: ﴿حـٰم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾[١].

ب – وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا اَدْرٰيكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾[٢].

ج – وقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى اُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْاٰنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾[٣].

فقد دلّت هذه الآيات الثّلاث على أنّ القرآن أُنزل في ليلة واحدة، توصف بأنّها مباركة، وتسمّى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾، وهي من ليالي شهر رمضان، ويتعيّن أن يكون هذا النّزول هو النّزول الأوّل إلى بيت العزّة في السّماء؛ لأنّه لو أُريد به النّزول الثّاني على النّبيّ ﷺ لما صحّ أن يكون في ليلة واحدة، وفي شهر واحد هو (شَهْرُ رَمَضَانَ)؛ لأنّ القرآن إنّما نزل في مدّة طويلة هي مدّة البعثة (٢٣) سنة، ونزل في غير رمضان في جميع الأشهر، فتعيّن أن يكون المراد به النّزول الأوّل، وقد جاءت الأخبار الصّحيحة تويّد ذلك، منها: [ثمّ نقل رواية ابن عبّاس عن السّيوطيّ كما تقدّم عنه].

قال السّيوطيّ: ولولا أنّ الحكمة الإلهيّة... [وذكر كما تقدّم عن أبي شامَة]

التّنزّل الثّاني

وأمّا التّنزّل الثّاني فقد كان من السّماء الدّنيا على قلب النّبيّ ﷺ منجّماً، أي مفرّقاً في

---

١ ـ الدّخان / ١ – ٣.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

مدّة ثلاث وعشرين سنة، وهي من حين البعثة إلى حين وفاته ﷺ والدّليل على هذا النّزول وأنّه نزل منجّماً قول الله تعالى في سورة الإسراء. ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[1].

وقوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2].

روي أنّ اليهود والمشركين عابوا على النّبيّ ﷺ نزول القرآن مفرّقاً، واقترحوا عليه أن ينزل جملةً واحدةً، حتّى قال اليهود له: يا أبا القاسم لولا أُنزل هذا القرآن جملةً واحدةً كما أُنزلت التّوراة على موسى، فأنزل الله هاتين الآيتين ردّاً عليهم. وهذا الرّد -كما يقول الزُّرقانيّ - يدلّ على أمرين:

أحدهما: أنّ القرآن نزل مفرّقاً على النّبيّ ﷺ.

والثّاني: أنّ الكُتب السّماويّة قبله نزلت جملة... [وذكركما تقدّم عنه].

حكمة نزول القرآن منجّماً

لنزول القرآن الكريم منجّماً - أي مفرّقاً - حِكَمٌ جليلة، وأسرار عديدة عرفها العالمون. وغفل عنها الجاهلون. ونستطيع أن نجملها فيما يأتي، وهي:

أوّلاً: تثبيت قلب النّبيّ ﷺ أمام أذى المشركين.

ثانياً: التّلطّف بالنّبيّ ﷺ عند نزول الوحي.

ثالثاً: التّدرّج في تشريع الأحكام السّماويّة.

رابعاً: تسهيل حفظ القرآن وفهمه على المسلمين.

خامساً: مسايرة الحوادث والوقائع، والتّنبيه عليها في حينها.

سادساً: الإرشاد إلى مصدر القرآن، وأنّه تنزيل الحكيم الحميد.

ولنبدأ بشيء من التّفصيل عن هذه الحكم العديدة الّتي أجملناها فيما سبق، فنقول

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

ومن الله نستمدّ العون:

أمّا الحكمة الأُولى: وهي تثبيت قلب النّبيّ ﷺ فقد ذكرتها الآية الكريمة في معرض الرّدّ على المشركين، حين اقترحوا أن ينزل القرآن جملةً واحدةً كما نزلت الكتب السّماويّة السّابقة، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ وتثبيت قلب النّبيّ ﷺ إنّما هو رعاية من الله، وتأييد لرسوله أمام تكذيب خصومه له، وإيذائهم الشّديد له ولأتباعه، فقد كانت الآيات الكريمة تنزّل على رسول الله ﷺ تسلية له وشحذاً لهمّته؛ للمضيّ في طريق الدّعوة مهما اعترضته المصاعب والشّدائد، وتقوية لقلبه الشّريف، فقد تعهّده الله سبحانه وتعالى بما يخفّف عنه الشّدائد والآلام، فكان إذا اشتدّ الأذى عليه نزلت الآيات تسلية له وتخفيفاً عمّا يلقاه، وكانت التّسلية تارةً عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين؛ ليقتدي بهم في صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرَنَا...﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٣].

وقد أوضح الباريّ جلّت عظمته الحكمة من ذكر قَصَص الأنبياء، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، وتارةً كانت التّسلية عن طريق الوعد بالنّصر والتّأييد للنّبيّ ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرُكَ اللّٰهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾[٥]، وكقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٦].

وأُخرى تكون التّسلية عن طريق إخبار الرّسول باندحار أعدائه وانهزامهم، كما في

---

١ ـ الأنعام / ٣٤.

٢ ـ الأحقاف / ٣٥.

٣ ـ الطّور / ٤٨.

٤ ـ هود / ١٢٠.

٥ ـ الفتح / ٣.

٦ ـ الصّافات / ١٧١ ـ ١٧٣.

قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١]، وقوله: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[٢]. إلى آخر ما هنالك من ألوان في التّخفيف عن قلب الرّسول، وتطييب نفسه وفؤاده.

ولاشكّ أنّ في تجدّد نزول الوحي، وتكرّر هبوط الأمين جبريل بالآيات البيّنات الّتي فيها تسلية للنّبيّ ﷺ وفيها الوعد بالنّصر والحفظ والتّأييد، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرّسول لمتابعة الدّعوة، والمضيّ في تبليغ الرّسالة الإلهيّة؛ لأنّ الله معه، وهل يشعر بالخذلان والفتور من كانت عناية الله تحوطه وعينه ترعاه؟

أمّا الحكمة الثّانية: وهي التّلطّف بالنّبيّ ﷺ عند نزول الوحي، فقد كانت بسبب روعة القرآن وهيبته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٣]. فالقرآن - كما هو مقطوع به - كلام الله المعجز الّذي له جلال ووقار، وهيبة وروعة، وهو الكتاب الّذي لو نزل على جبلٍ لتفتّت وتصدّع من هيبته وجلاله، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ...﴾[٤] فكيف إذاً بقلب النّبيّ الرّقيق ؟ هل يستطيع أن يتلقّى جميع القرآن دون أن يتأثّر ويضطرب ويشعر بروعة القرآن وجلاله؟ ولقد أوضحت السّيدة عائشة حالة الرّسول حين ينزل عليه القرآن، وما يلاقيه من شدّة وهول من أثر التّنزيل فقالت: كما رواه البُخاريّ ولقد رأيته حين ينزل عليه الوحي في اليوم الشّديد البرد، فيفصم عنه (أي ينفصل)، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً. يتفصّد، أي يتصبّب عرقاً، وذلك من شدّة الوحي ووطأته على النّبيّ ﷺ.

وأمّا الحكمة الثّالثة: وهي التّدرّج في تشريع الأحكام فقد كانت جليّةً واضحة؛ حيث سلك القرآن الكريم مع البشريّة - وخاصّة منهم العرب - طريق الحكمة، ففطمهم عن الشّرك، وأحيا قلوبهم بنور الإيمان، وغرس في نفوسهم حبّ الله ورسوله، والإيمان

---

١ ـ القمر / ٤٥.
٢ ـ آل عمران / ١٢.
٣ ـ المزمّل / ٥.
٤ ـ الحشر / ٢١.

بالبعث والجزاء، ثمّ انتقل بهم بعد هذه المرحلة - مرحلة تثبيت دعائم الإيمان - إلى العبادات، فبدأهم بالصّلاة قبل الهجرة، ثمّ ثنّى بالصّوم وبالزّكاة في السّنة الثّانية من الهجرة، ثمّ ختم بالحجّ في السّنة السّادسة منها، وكذلك فعل في العادات المتوارثة. زجرهم أوّلاً عن الكبائر، ثمّ نهاهم عن الصّغائر في شيء من الرّفق، وتدرّج بهم في تحريم ما كان مستأصلاً في نفوسهم كالخمر والرّبا والميسر، تدرّجاً حكيماً، استطاع بذلك أن يقتلع الشّرّ والفساد من جذوره اقتلاعاً كاملاً. ولنأخذ بعض الأمثله على ذلك التّشريع الحكيم الّذي نجح في انتهاجه القرآن، في معالجة الأمراض الاجتماعيّة، تحريم الخمر الّذي كان داءً مستشرياً عند العرب، كيف استطاع أن يمحوه ويقضي عليه الإسلام؟ لقد انتهج القرآن في تحريمه أربعة مراحل، كما هو الشّأن في تحريم الرّبا، فلم يحرّمه دفعةً واحدةً؛ لأنّهم كانوا يتعاطون شرب الخمر كما يشرب الواحد منّا الماء الزّلال، فلم يكن من الحكمة أن يحرّمه عليهم دفعةً واحدةً، وإنّما حرّمه بالتّدريج.

المرحلة الأُولى: فبدأ أوّلاً بالتّنفير منه بطريق غير مباشر، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً...﴾[١] الآية، فقد أخبر تعالى أنّه قد أنعم على النّاس بهاتين الشّجرتين: النّخيل وَالأعناب، يستخرجون منهما السَّكَر، أي الخمر الّذي يسكر، والرّزق الحسن الّذي ينتفع منه النّاس من مأكول ومشروب، فمدح الثّاني ووصفه بأنّه رزق حسن، وأخبر عن الأوّل بأنّه سَكَر، أي شيء يسكر ويذهب بعقل الإنسان. وبهذه المباينة في الوصف يتّضح لكلّ عاقل الفارق الكبير بين الأمرين المذكورين.

المرحلة الثّانية: جاء التّنفير المباشر عن طريق المقارنة العمليّة بين شيئين: شيء فيه نفع مادّي ضئيل، وشيء فيه ضرر جسميّ وصِحّيّ وعقليّ جسيم، وفيه كذلك زيادة على الأضرار العظيمة مهلكة للإنسان عن طريق وقوعه في الإثم الكبير، استمع إلى قوله تعالى: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

١ ـ النّحل / ٦٧.

نَفْعِهِمَا...﴾[1] الآية. والمراد بالمنافع هنا المنافع المادّية الّتي كانوا يستفيدونها من وراء التّجارة والبيع للخمر؛ حيث يربحون منها، كما يربحون من وراء الميسر، وقد جمع القرآن بين الخمر والميسر في الآية الكريمة، ولا شكّ أنّ النّفع في الميسر مادّيّ بَحت؛ حيث يربح بعض المقامرين فكذلك في الخمر.

قال العلّامة القُرطُبيّ في تفسيره عند تفسير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أمّا في الخمر فربح التّجارة، فإنّهم كانوا يجلبونها من الشّام برُخْصٍ، فيبيعونها في الحجاز بربح، هذا أصحّ ما قيل في منتفعها. وبالمقارنة بين هذين الشّيئين تبيّن أنّ الإسلام نفّر من الخمر عن طريق بيان أضرارها الجسميّة ولكنّه لم يحرّمها، وقد روي في سبب نزول هذه الآية أنّ جماعة من المسلمين فيهم عمر بن الخطّاب جاءوا إلى الرّسول الكريم، فقالوا: يا رسول‌الله، أخبرنا عن الخمر، فإنّها مَذْهَبَةٌ للعقل، مَضْيّعَةٌ للمال، مُنْهَكةٌ للجسم، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ الآية.

وفي المرحلة الثّالثة: كان التّحريم للخمر، ولكنّه كان تحريماً جزئيًّا؛ حيث نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلٰوةَ وَأَنْتُمْ سُكَارىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾[2] الآية. فقد حرّم الله عليهم الخمر وقت الصّلاة فقط حتّى يصحّوا من سكرهم، فكان المسلمون يشربونها ليلاً وفي غير أوقات الصّلاة.

وفي المرحلة الرّابعة: وهي المرحلة الأخيرة كان التّحريم الكلّيّ، القاطع المانع، حيث نزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ، وَالْأَزْلَامُ، رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ...﴾[3]...

وهكذا تمّ تحريم الخمر تحريماً بالتّدرّج، فكان في ذلك أعظم حكمة جليلة سلكها الإسلام في معالجة الأمراض الاجتماعيّة. وقد جاء في كتاب «مناهل العرفان» للزُّرقانيّ ما نصّه: وتدرّج الإسلام بهم في تحريم ما كان مستأصلاً... [وذكركما تقدّم عنه].

---

١ ـ البقرة / ٢١٩.

٢ ـ النّساء / ٤٣.

٣ ـ المائدة / ٩٠.

أمّا الحكمة الرّابعة: فهي تسهيل حفظ القرآن على المسلمين، وفهمهم وتدبّرهم له، فمن المعلوم أنّ العرب كانوا أُمّيّين، أي لا يقرأون ولا يكتبون وقد سجّل القرآن الكريم عليهم ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ اٰيَاتِهِ...﴾[١] الآية، كما كان ﷺ أمياً كذلك: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾[٢]. فاقتضت حكمة الله أن يُنزل كتابه المجيد منجّماً؛ ليسهل حفظه على المسلمين، لأنّهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم، فكانت صدورُهم أناجيلهم، كما ورد في وصف أُمّة محمّد ﷺ وأدواتُ الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم، فلو نزل القرآن جملةً واحدةً لعجزوا عن حفظه، وعجزوا بالتّالي عن تدبّره وفهمه.

أمّا الحكمة الخامسة: فهي مسايرة الحوادث والوقائع في حينها، والتّنبيه على الأخطاء في وقتها، فإنّ ذلك أوقع في النّفس وأدعى إلى أخذ العظة والعبرة منها عن طريق الدّرس العمليّ، فكلّما جدّ منهم جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وكلّما حصل منهم خطأ أو انحراف نزل القرآن بتعريفهم وتنبيههم إلى ما ينبغي اجتنابه ولطلب عمله. ونبّههم إلى مواطن الخطأ في ذلك الوقت والحين، خذ مثلاً على ذلك غزوة حُنين، فقد دخل الغرور إلى نفوس المسلمين، وقالوا قولة الإعجاب والاغترار، لمّا رأوا عددهم يزيد على عدد المشركين أضعافاً مضاعفة، حينذاك داخلهم العجب فقالوا: لَن نُغلَب اليوم مِن قلّة. وكانت النّتيجة انكسارهم وانهزامهم وتولّيهم الأدبار، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾[٣]. ولو أنّ القرآن نزل جملةً واحدةً لما أمكن التّنبيه على الخطأ في حينه، إذ كيف يتصوّر أن تنزل الآيات في شأن المؤمنين واغترارهم ولم تحدث بعد تلك الواقعة أو الغزوة؟ وكذلك الحال في أخذ الفداء من الأسرى في بدر؛ حيث نزل التّوجيه السّماويّ

---

١ ـ الجمعة / ٢.

٢ ـ الأعراف / ١٥٧.

٣ ـ التّوبة / ٢٥.

الرّائع: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ اَنْ يَكُونَ لَهُ اَسْرىٰ حَتّٰى يُثْخِنَ فِي الْاَرْضِ...﴾[١] الآية.

أمّا الحكمة السّادسة: فهي الإرشاد إلى مصدر القرآن الكريم، وأنّه تنزيل الحكيم الحميد. وفي هذه الحكمة الجليلة يجدر بنا أن ننقل نصّ ما كتبه العالم الفاضل الشّيخ محمّد عبد العظيم الزُّرقانيّ في كتابه:... [وذكركما تقدّم عنه].

كيف تلقّى النّبيّ ﷺ القرآن؟

تلقّى النّبيّ ﷺ القرآن بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، وجبريل تلقّاه عن ربّ العزّة جلّ جلاله، وليس لجبريل الأمين سوى تبليغ كلام الله وإيحائه للرّسول ﷺ فاللّه جلّت حكمته قد أنزل كتابه المقدّس على خاتم أنبيائه بواسطة أمين الوحي جبريل، وعلّمه جبريل للرّسول، وبلّغه الرّسول لأُمّته، وقد وصف الله جبريل عليه السلام بأنّه أمين على الوحي، يبلّغه كما سمعه عن الله تعالى: ﴿اِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ اَمِينٍ﴾[٢]، وقال تعالى في وصفه أيضاً: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْاَمِينُ * عَلٰى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾[٣]. أمّا حقيقة الكلام وحقيقة المُنْزِل فإنّما هو كلام الله، وتنزيل ربّ العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَاِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْاٰنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[٤]. وقد كان ﷺ يعاني عند نزول القرآن شدّة، وكان يحاول أن يجهد نفسه من أجل حفظ القرآن، فيكرّر القراءة مع جبريل حين يتلو عليه القرآن؛ خشية أن ينساه أو يضيع عليه شيء منه، فأمره الله تعالى بالإنصات والسّكوت عند قراءة جبريل عليه، وطمأنه بأنّه تعالى سيجعل هذا القرآن محفوظاً في صدره، فلا يتعجّل في أمره، ولا يجهد نفسه في تلقّيه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْاٰنِ مِنْ قَبْلِ اَنْ يُقْضٰى اِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾[٥]. وأمّا تَكَفُّلُ الله تعالى له بالحفظ فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * اِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْاٰنَهُ * فَاِذَا

---

١ ـ الأنفال / ٦٧.

٢ ـ التّكوير / ١٩ ـ ٢١.

٣ ـ الشّعراء / ١٩٣ ـ ١٩٤.

٤ ـ النّمل / ٦.

٥ ـ طه / ١١٤.

قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[١]. وقد كان جبريل يدارس النّبيّ ﷺ القرآن في رمضان، فينزل جبريل على رسول‌الله ويستمع له القرآن، فيقرأ الرّسول بين يديه، وجبريل يستمع، ويقرأ جبريل والنّبيّ يستمع، وهكذا يدارسه في كلّ رمضان ما نزل من القرآن مرّةً واحدةً، وقبل وفاته ﷺ نزل عليه جبريل مرّتين في رمضان، فدارسه القرآن، حتّى لقد شعر ﷺ من نزول جبريل مرّتين عليه بدنوّ أجله، وقال لعائشة: «إنّ جبريل كان ينزل عليّ فيدارسني القرآن مرّةً واحدةً في رمضان، وقد نزل عليّ هذا العام مرّتين، وما أراني إلّا قد اقترب أجلي».

وقد كان الأمر كذلك، فقد انتقل في ذلك العام إلى جوار ربّه ﷺ، وانقطع بوفاته نزول الوحي.

أمّا كيف تلقّى جبريل القرآن عن الله عزّ وجلّ، فقد تقدّم معنا أنّه كان سماعاً؛ حيث سمع من الله عزّ وجلّ هذه الآيات، فنزل بها على رسول‌الله ﷺ [ثمّ حكى قول البَيهَقيّ والزُّرقانيّ كما تقدّم عنهما].

هل السّنة النّبويّة بوحيٍ من الله؟

تقدّم معنا أنّ القرآن الكريم كلام الله، ومعنى ذلك أنّ اللّفظ والمعنى هو من عند الله، ولا دخل لجبريل أو لمحمّد فيه سوى التّبليغ عن الله عزّ وجلّ. أمّا السّنّة النّبويّة فإنّها بوحي كذلك من الله، ولكنّ اللّفظ للرّسول والمعنى من عند الله؛ لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحىٰ﴾[٢]. [ثمّ ذكر كلام الجُوَينيّ نقلاً عن السُّيُوطيّ، كما تقدّم عنه]. (ص: ٣٧ ـ ٥٢)

---

١ ـ القيامة / ١٦ ـ ١٩.

٢ ـ النّجم / ٣ ـ ٤.

الفصل التّاسع والسّبعون

نصّ الأبْياريّ في «الموسوعة القرآنيّة»[1]

الحكمة في نزول القرآن منجّماً

وفيما بين السّابع عشر من رمضان من السّنة الحادية والأربعين من ميلاد الرّسول، وكان بدء نزول الوحي، وإلى ما قبل موته ﷺ بأيّام لا تجاوز الواحد والثّمانين ولا تنقص عن العشرة، وكان آخر ما نزل من الوحي، أي في نحو من إحدى وعشرين سنة، أو على الأصحّ في نحو من ثماني عشرة سنة، بإسقاط المدّة الّتي فترفيها الوحي والّتي بلغت ثلاث سنين، نزل هذا القرآن منجّماً يشرّع للنّاس، ويتابع الأحداث، ويجيب ويبيّن: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ اِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَاَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[2]، ﴿وَقُرْاٰناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَاَهُ عَلَى النَّاسِ عَلٰى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[3].

وما كانت حكمة السّماء تقضي إلّا بهذا، مع أُمّة يراد لها أوّلاً التّحوّل من عقائد إلى عقيدة، والخروج من وثنيّة إلى دين، ومن أوهام وظنون إلى منطق وحقّ، ومن لا إيمان إلى إيمان.

---

١ ـ وذكر مثله أيضاً في كتابه الموسوم بـ«تاريخ القرآن».

٢ ـ الفرقان / ٣٣.

٣ ـ الإسراء / ١٠٦.

تلك خطوة أُولى كان من الحكمة أن تبدأ بها الدّعوة وتفرغ لها، حتّى إذا ما ضمّت النّاس على الطّريق أخذتهم بما تحمي إيمانهم به، فحاطتهم بعبادات وألزمتهم بواجبات، والنّاس لا يَمضون فيما جدّ عليهم خُرساً لا ينطقون، وعُمياً لاينظرون، وغُفْلًا لا يتدبّرون. فهم مع هذا كلّه سائلون يتبيّنون، والوحي يتابعهم في كلّ ما عنه يستفسرون؛ إذ به تمام الرّسالة.

ثمّ إنّ هذه الدّعوة السّماويّة بدأت جهاداً وعاشت جهاداً، أملته الأيّام وتمخّضت عنه الأعوام، وهو وإن كان في علم السّماء قبل أن يقع، لكنّه كان على علم النّاس جديداً لم يقع، وكان لابدّ أن يلقّنوه مع زمانه وأوانه.

ثمّ ما أكثر ما أخذ النّاسُ وأعطوا في ظلّ الدّعوة؛ لتثبت أركانها في نفوسهم، وهذا وإن كان في علم السّماء قبل أن يقع، لكنّه كان على حياة النّاس جديداً لم يقع، وكان لابدّ أن يلقّنوا بيانه مع زمانه وأوانه.

وهكذا لم تكن الرّسالة كلمة ساعتها، وإنّما كانت كلمات أعوام ثمانية عشر، وكانت هذه الكلمات كلّها في علم السّماء وفي اللّوح المحفوظ، ولكنّها نزلت إلى علم النّاس مع زمانها وأوانها.

لهذا نزل القرآن مُنجّماً، ولقد خال المشركون أنّ دعوة الرّسول إليهم كلمة، وأنّ صفحته معهم صفحة، وفاتهم أنّ الدّعوة معها خطوات، وأنّ هذه الخطوات معها جديد على علمهم لا على علم السّماء، وما أحوجهم مع كلّ جديد إلى مزيد، ومن أجل هذا الّذي فاتهم استنكروا أن ينزّل القرآن منجّماً، وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[1] وكان جواب السّماء عليهم. ﴿كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[2]، أي جعلناه بعضه في إثر بعض، منه ما نزل ابتداء، ومنه ما نزل في عقب واقعة أو سؤال؛ ليكون في تتابعه مع الأحداث، وما تثيره من شكوك، ما يردّ النّفوس إلى طمأنينة، والأفئدة إلى ثبات.

وإنّك لو تتبّعت أسباب النّزول في القرآن ومواقع الآيات لتبيّنت أنّ رسالة الرّسول لم

---

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ الفرقان / ٣٢.

تكن جملةً واحدةً، ليكون القرآن جملةً واحدةً، بل كانت أحداثاً متلاحقة تقتضي كلمات متلاحقة.

فلقد نزلت آية الظّهار في سَلمة بن صَخْر، ونزلت آية اللّعان في شأن هلال بن أُميّة، ونزلت آية حدّ القذف في رُماة عائشة، ونزلت آية القبلة بعد الهجرة، وبعد أن استقبل المسلمون بيت المقدس بضعة عشر شهراً، ونزلت آية اتّخاذ مقام إبراهيم مصلًّى حين سأل عمر الرّسول في ذلك. كذلك كانت الحال في الحجاب، وأسرى بدر، وغير ذلك كثير، فكان القرآن ينزّل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات، وأكثر وأقلّ، وقد صحّ نزول عشر آيات في قصّة الإفك جملة، كما صحّ نزول عشر آيات من أوّل «المؤمنين» جملة، وصحّ نزول ﴿غَيْرَ أُولِى الضَّرَرِ﴾[1] وحدها، وهي بعض آية، وكذا ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[2] إلى آخر الآية، وهي بعض آية، ونزلت بعد نزول أوّل الآية. (١: ٣٤٥ - ٣٤٨)

---

١ ـ النّساء / ٩٥

٢ ـ التّوبة / ٢٨

الفصل الثّمانون

نصّ الشَّرقاويّ في «[تاريخ] القرآن المجيد»

نزول القرآن

نزل القرآن مفرّقاً وفي أوقات متباعدة، وتاريخه هو تـاريخ الرّسـالة المـحمّديّة، ومدّته هي مدّتها أو قريباً من ذلك.

وقد صرّح القرآن بأنّ نزوله كان في رمضان، وفي ليلة القدر منه على الخصوص، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[2].

وأكّد ذلك بالنّسبة إلى اللّيلة المذكورة قوله في الآية الأُخرى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[3]. ورمضان مختصّ بإنزال الكُتب السّماويّة السّابقة، فقد جاء في مسند الإمام أحمد من حديث واثِلة... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ].

ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت، أنّه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة، فـيكون إنزاله في ليلة خمس وعشرين.

وهذه الكُتب المنزلة ما عدا القرآن نزل كلّ منها على الرّسول الّذي نزل عليه جملةً

---

١ ـ البقرة / ١٨٥.

٢ ـ القدر / ١.

٣ ـ الدّخان / ٣.

واحدةً.

وأمّا القرآن المجيد فمعلوم أنّه نزل على محمّد بن عبدالله ﷺ مفرّقاً من حين رسالته إلى قرب وفاته، بيد أنّ ظاهر هذه الآيات يدلّ على أنّه نزل كلّه جملةً واحدةً في ليلة من ليالي شهر رمضان، وهو أيضاً ظاهر حديث واثِلة السّابق.

وهذا يثير في النّفس تساؤلا: كيف يتسنّى القول بنزول القرآن كلّه جملةً واحدةً، مع ما هو معلوم يقيناً من أنّه نزل على محمّد بن عبدالله ﷺ مفرّقاً في اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريباً؟ حتّى أنّ الكافرين قالوا كما حكي الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[1].

وقد يجيب بعض النّاس عن هذا التّساؤل فيقول: إنّ الّذي أُنزل في ليلة القدر إنّما هو أوّل القرآن نزولاً، وهو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2]. فيكون قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[3]، معناه شهر رمضان الّذي ابتدىء فيه إنزال القرآن. وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، معناه إنّا ابتدأنا إنزاله.

وهذا الجواب ليس بسديد؛ لأنّ فيه حمل الآيات على غير ظاهرها. والجواب السّديد هو ما أجاب به ابن عبّاس في آثار صحيحة مرويّة عنه، نكتفي منها بما يلي:

أوّلاً: أخرج الحاكم عن ابن عبّاس ﵁ أنّه قال: فُصِلَ القرآن من الذّكر، فوُضع في بيت العزّة من السّماء الدّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النّبيّ ﷺ[4]. ومعنى قوله: فُصِلَ القرآن من الذّكر، أنّ الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلاً من اللّوح المحفوظ، ثمّ أنزلوا ما كتبوه إلى مكان في السّماء الدّنيا يسمّى بيت العزّة؟

ثانياً: أخرج النّسائيّ والحاكم والبَيهَقيّ عن ابن عبّاس ﵁ أنّه قال: أُنزل القرآن

١ ـ الفرقان / ٣٢.

٢ ـ العلق / ١ ـ ٥.

٣ ـ البقرة / ١٨٥.

٤ ـ البرهان ١: ٢٢٩.

جملةً واحدةً إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر، ثمّ أُنزل بعد في عشرين سنة. وقوله: في عشرين سنة، فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين، وحذف الكسر، وهو سنتان وخمسة أشهر تقريباً.

ثالثاً: أخرج ابن مَردُوَيه والبَيهَقيّ وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس ﷺ أنّه سأله عَطِيّة بن الأسود، فقال: وقع في قلبي الشّكّ... [وذكركما تقدّم عن الطَّبَريّ ثمّ قال:].

وقوله: وقع في قلبي الشّكّ، لا يقصد به حقيقة الشّكّ، فإنّ القرآن لايشكّ فيه مسلم، وإنّما مقصوده أنّ هذا التّعارض الّذي يبدو لأوّل وهلة يثير في النّفس حيرة في الفهم، مع إيمان بأنّ القرآن حقّ لاريب فيه.

وقوله: أُنزل على مواقع النّجوم، معناه أنّه أُنزل مفرّقاً على مثل مساقط النّجوم، فإنّ النّجوم تسقط أمام الأنظار في أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضاً. وقوله: رِسلا - بكسر الرّاء - معناه تُؤَدَة، أي في زمن طويل.

ولا شكّ أنّ نزول القرآن من اللّوح المحفوظ إلى موضع مخصوص في السّماء الدّنيا يسمّى بيت العزّة لا يقوله ابن عبّاس ﷺ اجتهاداً ولا تخميناً، فإنّه من علم الغيب الّذي لا يطّلع الله عليه إلّا رسوله ﷺ.

وهذا النّزول الغيبيّ إن كان ممّا يحمل على القول به، هو إبقاء الآيات الواردة في نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملةً واحدةً، فإنّه لا يعارض نزوله الحسّيّ في التّاريخ المذكور، أي ابتداء نزوله على الرّسول ﷺ مفرّقاً، بل إنّ الرّواية نفسها تشير إلى ذلك وتبيّن المراد به، فهما إذن نزولان: غيبيّ وحسّيّ، وتاريخهما واحد[1].

ويتساءل العلّامة الزَّركَشيّ[2] عن السّرّ في هذا النّزول، ويُجيب عن ذلك بقوله: فإن قيل:... [وذكركما تقدّم عن أبي شامَة، ثمّ قال:]

وقد بيّن الله تعالى حكمة نزول القرآن مفرّقاً لا جملةً واحدةً في موضعين في الكتاب العزيز:

---

١ ـ عبدالله كنون (ذكرى نزول القرآن): ٧.

٢ ـ البرهان ١: ٢٣٠، الإتقان ١: ٥٠.

الموضع الأوّل: قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾[١].

الموضع الثّاني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾[٢].

وصدر آية الإسراء: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، يرشد إلى حكمة من حكم التّفرقة، وهي أن يتيسّر على النّاس حفظه وفهمه، وتخلّيهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتّدريج، وتحلّيهم بالعقائد والأعمال الصّالحة بالتّدريج أيضاً. وآخرها ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾، يرشد إلى حكمة أُخرى من حكم التّفرقة، وهي الدّلالة على أنّ القرآن منزل من الله تعالى وليس من قول البشر، فإنّه مع نزوله مفرّقاً حسب الحوادث وإعجازه بهذا التّرتيب الزّمنيّ كان الرّسول ﷺ يأمر الكتبة كلّما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى بعد آية كذا من سورة كذا، فكان ترتيبه في التّلاوة غير ترتيبه في النّزول، وكان مع ذلك متناسباً أعظم التّناسب، بل معجزاً للخلق جميعاً أن يأتوا بمثله، فهذا إعجاز متكرّر مرّتين؛

أُولاهما: بترتيبه النّزوليّ الزّمنيّ المنسّق مع الوقائع.

وثانيتهما: بترتيبه في التّلاوة آيات وسوراً طوالاً وقصاراً وأوساطاً.

والآية الأُولى من آيتي الفرقان: ٣١ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾، ترشد إلى حكمة ثالثة، وهي تثبيت قلب الرّسول ﷺ بتجدّد الوحي ونزول الملك، وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانشراح الصّدر، مع ما في ذلك من تيسّر الحفظ وتكرار انتصاره على الأعداء، بتكرار عجزهم عن الإتيان بمثله كلّما تحدّاهم.

والآية الكريمة الثّانية من آيتي الفرقان: ٣٢ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الفرقان / ٣٢ ـ ٣٣.

وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾، ترشد إلى حكمة رابعة، وهي مسايرة الحوادث بإجابة السّائلين، وبيان حكم الله تعالى في الوقائع المتجدّدة، وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أوّلاً فأوّل، وهتك أستار المنافقين والمشكّكين، كلّما همّوا بأمر فيه كيد للإسلام والمسلمين[١].

وكان أوّل ما نزل هو قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، كما تفيده السّنّة الصّحيحة، ففي البُخاريّ عن عائشة قالت: أوّل ما بدىء به رسول‌الله... [وذكركما تقدّم عنه، فقال:]

لكن جاء في صحيح مُسلم عن جابر: أوّل ما نزل من القرآن سورة المدّثّر[٢]، وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحي الّتي تلت النّزول الأوّل[٣].

والرّوايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البُخاريّ وعند مسلم نفسه تؤيّد ذلك، ونورد هنا رواية البُخاريّ؛ لوضوحها واختصارها، وهي عندهما معاً من طريق ابن شهاب الزُّهْريّ عن أبي سَلَمة عن جابر... [وذكركما تقدّم عنه، فقال:]

فبان بهذا أنّ الأوّليّة الحقيقيّة هي الّتي في حديث عائشة، وأنّ الّتي في حديث جابر إنّما هي أوّليّة إضافيّة؛ لأنّ الحديث عن فترة الوحي لا يكون إلّا بعد وحي سابق زيادة على أنّ مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدّثّر وافتتاحها هذا، ممّا يؤذن بسبق خطاب ﴿اِقْرَأْ﴾ على خطاب ﴿يَاءَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وإذا كانت أوّل ما نزل هو قوله تعالى: ﴿اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، كما ثبت لدينا بالدّليل القاطع، فإنّ آخر ما نزل على الرّاجح والمعتمد هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّٰهِ﴾ الآية[٤]، أخرجه النّسائيّ وابن مَردُوَيه والطَّبَريّ عن ابن عبّاس[٥]...(٢٥ ـ ٣٣)

---

١ ـ الإتقان: ٥٣، شهر القرآن، للشّيخ على البولاقيّ - الوعي الإسلاميّ، العدد ٥٧.

٢ ـ البُخاريّ ١: ٦٦.

٣ ـ البُرهان ١: ٢٠٦.

٤ ـ البقرة / ٢٨١.

٥ ـ الإتقان ١: ٢٧.

الفصل الحادي والثّمانون

نصّ الدّكتور على الصّغير في «دراسات قرآنيّة»

نزول القرآن

نزل القرآن بأرقىٰ صور الوحي، وتأريخ نزوله يمثّل تأريخ القرآن في حياة النّبيّ ﷺ، وهو تأريخ يستغرق ثلاثة وعشرين عاماً[1].

هذه الحُقبة الذّهبيّة هي تأريخ الرّسالة المحمّديّة في عصر صاحب الرّسالة، والعناية بها منبثقة عن عناية الوحي بصاحبها، وبتواجده معه يحمّله العبء حيناً، ويلقي له بالمسؤوليّة حيناً آخر، ويتناوب عليه بآيات الله بين هذا وذلك.

وكان نزول القرآن مدرّجاً، وتفريقه منجّماً، ممّا أجمعت عليه الأُمّة، وصحّت به الآثار الإستقرائيّة، إستجابة للضّرورة المُلحّة، وإقتضاءً للحكمة الفذّة في تعاقب التّعليمات الإلهيّة، يُسراً ومُرونةً واستيعاباً.

والّذي يهمّنا في هذه المرحلة عطاؤها الإنسانيّ في ضبط النّصّ القرآنيّ، ودقّة

---

١ ـ هنالك عِدّة أقوال في مدّة نزول القرآن: فقيل: عشرون، أو ثلاث وعشرون، أو خمس وعشرون سنة. وهو مبنيّ على الخلاف في مدّة إقامته ﷺ بمكّة بعد النّبوّة: فقيل عشر سنوات، وقيل: ثلاث عشرة، وقيل: خمس عشرة سنة. ولم يختلف في مدّة إقامته بالمدينة أنّها عشر. (البرهان: ١ / ٢٣٢). فإذا علمنا أنّه ﷺ أُوحي إليه وهو ابن أربعين سنة، وتوفّي وعمره ثلاث وستّون سنة، نرجّح أن تكون مدّة الوحي ثلاثة وعشرين عاماً.

أُصوله ووصوله من ينابيعه الأُولى، وهو موضوع البحث.

يكاد أن يتوافر لنا اقتناع نطمئنّ إليه بأنّ أوائل سورة العلق هو أوّل ما نزل من القرآن.

ومنشأ هذا الاقتناع تأريخيّ وعقليّ، أمّا التّأريخيّ فمصدره إجماع المفسّرين تقريباً، ورواة الأثر، وأساطين علوم القرآن[١]. وأمّا العقليّ فالقرآن أُنزل على أُمّيّ لا عهد له بالقراءة؛ ليبلّغه إلى أُمّيّين لا عهد لهم بالتّعلّم، فكان أوّل طوق يجب أن يكسر، وأوّل حاجز يجب أن يتجاوز، هو الجمود الفكريّ والتّقوقع على الأوهام، وما سبيل ذلك إلّا الافتتاح، بما يتناسب مع هذه الثّورة، وقد كان ذلك بداية للرّسالة بهذه الآيات ﴿بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ * اِقْرَأْ بِاسْمِ... ﴾ إلى ﴿مَالَمْ يَعْلَمْ﴾[٢].

إنّها الدّعوة الفطريّة إلى العلم والإيمان بوقت واحد، والبداية الطّبيعيّة لملهم هذا العلم، ورائد وسيلة التّعلّم، فهو إرهاص بإيمان سيشعّ، وإشعار بإفاضات ستنتشر، مصدرها الخالق، وأداتها القلم؛ لارتياد المجهول، وإكتشاف المكنون، والقرآن كتاب هداية وعلم.

فلا ضير أن تكون أوائل العلق أوّل ما نزل، وسياقها القرآنيّ لا يمنع من نزولها دفعةً واحدةً، لا سيّما إذا وجدنا نصّاً في أثر، أو رواية من ثقة.

وأمّا ما حكاه ابن النّقيب في مقدّمة تفسيره، وأخرجه الواحِديّ عن عِكرِمة والحَسَن، والضَّحَّاك عن ابن عبّاس من أوّل ما نزل من القرآن ﴿بِسْمِ اللّٰـهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ﴾[٣] فلا ريب فيه، ولا غبار عليه: فإنّه من ضرورة نزول السّورة نزول البَسْمَلة معها، فهي أوّل آية نزلت على الإطلاق[٤].

وبدأت مسيرة الوحي تلقي بثقلها على عاتق الرّسول الأعظم ﷺ، وفتح محمّد للنّداء السّماويّ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[٥] ذراعاً وقلباً وتأريخاً. وهذا القول ثقيل

---

١ ـ الصّحيح ١: ٥، الباقِلّانيّ – نكت الانتصار: ٨٨، مجمع البيان ٥: ١٤، البرهان ١: ٢٠٦، الإتقان ١: ٦٨ وما بعدها.

٢ ـ العلق / ١ – ٥.

٣ ـ الإتقان ١: ٧١.

٤ ـ المصدر نفسه ١: ٧١.

٥ ـ المزّمّل / ٤.

بمبناه ومعناه، فهبوطه من سماء العزّة، وساحة الكبرياء والعظمة يوحي بثقله في الميزان، وتسييره للحياة العامّة بشؤونها المتعدّدة يوحي بكونه عبأ ثقيلاً في التّشريع والتّنفيذ وإدارة الكون والعالم.

إنّ تلقّي النّبيّ ﷺ لهذا القول يعني النّهوض بما تتطلّبه الرّسالة من جهد وعناء وصبر، ونهوضه بذلك يعني تحمّله لهذا الثّقل في الإلقاء والإنزال والتّبليغ والإعداد.

ونزل القرآن منجّماً؛ الآية والآيتين والثّلاث والأربع، وورد نزول الآيات خمساً وعشراً وأكثر من ذلك وأقلّ، كما صحّ نزول سور كاملة[١].

ونزل القرآن في شهر رمضان المبارك: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[٢]، وفي ليلة مباركة فيه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٣]، وحملت اللّيلة المباركة على ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٤]، هكذا صرّح القرآن.

واختلف في هذا الإنزال كلّاً أو جزءً، جملة أو نجوماً، دفعة أو دفعات، إلى السّماء الدّنيا تارةً، وعلى قلب النّبيّ تارة أُخرى[٥].

وأورد الطَّبرِسيّ جملة الأقوال في ذلك:

أ - إنّ الله أنزل جميع القرآن في ليلة القدر إلى السّماء الدّنيا، ثمّ أُنزل على النّبيّ بعد ذلك نجوماً، وهو رأي ابن عبّاس.

ب - إنّه ابتدأ إنزاله في ليلة القدر، ثمّ نزل بعد ذلك منجّماً في أوقات مختلفة، وبه قال الشَّعبيّ[٦].

ج - إنّه كان ينزل إلى السّماء الدّنيا في ليلة القدر ما يحتاج إليه في تلك السّنة جملةً

---

١ ـ الإتقان ١: ١٢٤ وما بعدها.

٢ ـ البقرة / ١٨٥.

٣ ـ الدّخان / ٣.

٤ ـ القدر / ١.

٥ ـ تفصيل هذه الآراء والرّوايات الكثيفة في المرشد الوجيز: ١١ وما بعدها، البرهان ١: ٢٣٠ وما بعدها؛ الإتقان ١: ١١٨، والأسماء والصّفات: ٢٣٦.

٦ ـ الإتقان ١: ١١٨.

واحدةً، ثمّ ينزل على مواقع النّجوم إرسالاً في الشّهور والأيّام، وهو رأي ابن عبّاس[١].

إلّا أنّ ظاهر الآيات أُنزل القرآن جملة، ويؤيّده التّعبير بالإنزال الظّاهر في اعتبار الدّفعة، دون التّنزيل الظّاهر في التّدرّج، فمدلول الآيات أنّ للقرآن نزولاً جُملياً على النّبيّ ﷺ غير نزوله التّدريجيّ الّذي تمّ في ثلاث وعشرين سنة[٢].

لقد أكّد هذا المعنى من ذي قبل ابن عبّاس بقوله: إنّه أُنزل في رمضان، وفي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملةً واحدةً، ثمّ أُنزل بعد ذلك على مواقع النّجوم رسلاً في الشّهور والأيّام[٣].

ومهما يكن من أمر، فلا ريب بنزوله مفرّقاً ومنجّماً؛ ليثبت إعجازه في كلّ اللّحظات، ولينضح بتعليماته بشتّى الظّروف، في حين يعترض فيه الكَفَرَة على هذا النّزول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[٤].

ولكنّ الرّد كان حاسماً؛ لأنّ الوحي إذا تجدّد في كلّ حادثة، كان أقوىٰ للعزم، وأثبت للفؤاد، وأدعى للحفظ والاستظهار، وأشدّ عناية بالمرسل إليه، فلا يغيب عنه إلّا ويهبط عليه، ولا يودعه حتّى يستقبله، وذلك يستلزم كثرة نزول الملك عليه وتجديد العهد به، وبما معه من الرّسالة، وهو مضافاً إلى العطاء الرّوحيّ، ذو عطاء نفسيّ تهذيبيّ بالنّسبة للنّبيّ ﷺ: ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل ﷺ عليه فيه[٥].

وناهيك في أسرار تعدّد النّزول حكمة ويقيناً واستمراراً لجدّة القرآن، وحضوره في زخمة الأحداث، وتجدّد الوقائع، وطبيعة الرّسالة المتدرّجة في تعاليمها من الأسهل إلى السّهل، ومن السّهل إلى الصّعب، ومن الكلّيّات العامّة إلى التّفصيلات الجزئيّة.

والوحي ينظر إلى النّاس باعتبارهم الهدف الرّئيسيّ من تنزيل القرآن قصد هدايتهم، ورجاء إثابتهم إلى الحقّ، فاهتمّ بهذا العنصر في سبب النّزول مفرّقاً، وصرّح بذلك سبحانه

---

١ ـ مجمع البيان ١: ٢٧٦.

٢ ـ الميزان ٢٠: ٣٣٠.

٣ ـ الأسماء والصّفات: ٢٣٦.

٤ ـ الفرقان / ٣٢.

٥ ـ المرشد الوجيز: ٢٨.

و تعالى: ﴿ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾[١].

١ – وقد أفاض القُدامىٰ من العلماء والمفسّرين في أسرار التّنجيم في النّزول، استفادوا قسماً منها من القرآن، واجتهدوا في القسم الآخر، فمن الأوّل تيسير حفظ القرآن، و تثبيت فؤاد النّبيّ، ومعرفة النّاسخ من المنسوخ، والإجابة عن أسئلة السّائلين[٢].

ومن الثّاني كون القرآن أُنزل وهو غير مكتوب على نبيّ أُمّيّ، كما حكي ذلك عن أبي بكر بن فورك (ت: ٤٠٦ ه)[٣].

وقد لاحظ باحث معاصر أنّ القُدامىٰ قد أدركوا حكمتين في ذلك هما: تجاوب الوحي مع الرّسول، وتجاوبه مع المؤمنين[٤].

٢ – وإذا كان ما فهمه القُدامىٰ – كما يدّعى – يقف عند هذا الحدّ، فلا ينبغي عند الباحثين المحدثين أن يقف عند حدود معيّنة، وعليهم الإمعان والإيغال في الاستنتاج. وإن كان كلّ ما تقدّم هو الصّحيح، ولكن لا مانع أن يضاف إليه بأنّ القرآن الكريم – كما يبدو من منهجيته الاستقرائيّة – يريد كتابة التّأريخ الإنسانيّ، بكلّ ما في هذا التّأريخ من مفارقات وأحداث ونوازع وتطوّرات، والتّأريخ إنّما يكتب في جزئيّاته، ومن ضمّ هذه الجزئيات بعضها لبعض يتكوّن التّأريخ بمظاهره الماضية وتطلّعاته الحالية؛ لإنارة المستقبل وإضاءة درب السّالكين، والتّأريخ لا يتألّف جملةً واحدةً، وإنّما ينجّم موضوعاتٍ وصوراً ومشاهد، ومن مجموعها يتشكّل الأثر البارز لسمة من السّمات، والقرآن إنّما يعني بتأريخ الأُمم والإيمان، والشُّعوب والهداية، فهما رمزان متلازمان، تنحصر عليه ذكر أحدهما بالآخر، حصراً عضويّاً ترى فيه الكون وقضيّة التّوحيد يشكلان خطوطاً رئيسيّة تنبثق منها حيثيّات فرعيّة في النّبوّة والرّسالة وعوالم الحياة.

٣ – والرّسالة المحمّديّة إحدى سنن الكون البنائيّة، وكما تقتضي سنن الكون

---

١ ـ الإسراء / ١٠٦.

٢ ـ الإتقان ١: ٨٥ – ١٢١، المرشد الوجيز: ٢٨.

٣ ـ البرهان ١: ٢٣١.

٤ ـ صبحي الصّالح، مباحث في علوم القرآن ٥٢.

التّدرّج، فهي تقتضي التّدرّج كما اقتضتها، ابتداءً بخلق السّماوات والأرض والأفلاك وما فيهن وما بينهنّ، وانتهاءً بخلق الإنسان وحياته وأطواره ونشوئه ومماته وتلاشيه وإعادته حيّاً، وإثابته أو عقابه.

والسّنن الطّبعيّة في الحياة تلتقي بالسّنن الرّوحيّة في القرآن، فمصدرهما واحد، وهو تلك القوّة الخلاّقة المبدعة المدبّرة، وهي كما تستطيع أن تحكم الأمر فجأة كلمح البصر ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾[1]، فهي كذلك تستمهل وتتدرّج وفقًا لمصالح الكون، وتنظر لشؤون الحياة، وكان التّدرّج في نزول القرآن من هذا الباب.

٤ – وما التّدرّج في نزول القرآن إلّا دليل من أدلّة إعجازه البيانيّة، فما نزل منه لم يكن بادىء الأمر إلّا سوراً قصيرة، وآيات متناثرة تناثر النّجوم، وهو بهذا القدر الضّئيل ينادي بالتّحدّي، فدلّ على إعجازه في ذاته مع محاولة تقليده ومضاهاته، سواءً أكان جزءاً أم كلاً. فقليله معجز، وكثيره معجز، ولقد وقع هذا التّحدّي في مكّة على هذا القليل فما نالوه، ووقع في المدينة وهو متكامل بنفس المنظور، وبناءً على هذا التّأسيس فقد كان التّدرّج في النّزول مصاحباً لعمليّة الإعجاز، ودليلاً من أدلّتها النّاطقة، وهو بعد مشعل هداية في السّعي والعمل والمثابرة.

٥ – وهنالك ملحظ جدير بالأهميّة في هذا النّزول التّدريجيّ، هو إحكام الأمر وإبرام العقد، وهذا الإحكام وذلك الإبرام يتمثّل بعمليّة صياغة النّفوس في إطار جديد، فهي على قرب عهد من الجاهليّة بأعرافها ومفاهيمها وأخطائها، والنّقلة الفوريّة ليست خطوة عمليّة في التّغيير الاجتماعيّ الّذي أرادته رسالة القرآن، فمن عزم الأُمور – إذن – أن تستجيب النّفوس لهذا التّغيير الجذريّ، ولكن لا على أساس المفاجئة الخطرة، الّتي قد تولّد ردّة فعل مضادّة تطوح بكلّ شيء، بل تقليص القِيَم القديمة شيئاً فشيئاً، وتضييعها جزء فجزء، لتتلاشى في نهاية المطاف، وتختفي عن صرح الاجتماع. وخير دليل على ذلك مسألة تحريم الخمرة؛ إذ ارتبطت بالعرب أدبيّاً واجتماعيّاً ونفسيّاً واقتصاديّاً، وهي جوانب متعدّدة، أباحت هذا الإدمان المستحكم عند العرب، فلو حرّمت دفعةً واحدةً لكفر

---

١ ـ القمر / ٥٠.

بهذا التّحريم، ولضاعت فرصة التّغيير الاجتماعيّ، ولكنّ الوحي تلبّث وترصّد وتأنّى، فجاء بالأمر في خطوات متعاقبة شملت بيان المنافع والمضارّ والمآثم، وتدرّجت إلى النّهي عن اقتراب الصّلاة ﴿ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ ﴾، وانتهت إلى التّحريم النّهائيّ: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ... ﴾[1].

٦ – ولنقف بهذا الجانب الحسّاس والمؤثّر على صلب الموضوع من بدايته قبل النّظر في التّطبيق.

كانت الجزيرة العربيّة بعامّة، ومكّة المكرّمة بخاصّة، تتجاذبهما عقائد شتّىٰ، فالصّابئة لها طُقوسها المختلطة من ابتداعات وشعائر ترتبط بالكواكب وتأثيرها على الأحداث الأرضيّة[2]. وما امتزج من عاداتهم في مذاهب قُريش في الوثنيّة وعبادة الملائكة، ومراسم الحجّ.

والمسيحيّة وما صاحب مبادئها من تحريف مزدوج، وتغيير مفاجيء، فبدل التّسامح الدّينيّ الّذي اشتهرت به تعاليم السيّد المسيح، والزّهد في الحياة بكلّ مظاهرها، استخدم المسيحيّون في إرضاء شهواتهم كلّ وسائل العبث والتّرف والقسوة، فمن عزلة مصطنعة إلى تزمّت مفتعل، ومن تثليت لا يستقيم إلى وثنيّة مستهجنة، ومن تمسّك باللّاهوت إلى ابتزاز للحرّيّة، كلّ ذلك يتراصف نماؤه بين أوهام موروثة وخرافات مستجدة.

واليهوديّة بما كان يكتنفها من غموض في ستر العلم وتحريف للكلم عن مواضعه، واستيعاب لاستحصال المال، وجمع الثّروة عن طريق الخيانة والرّبا والاحتكار.

والحنفيّة وهي أسلم الأديان آنذاك عن الدّسّ والتّحريف الكبيرين، فقد أدخل عليها مع ذلك تزييف في بعض الوقائع، ومغالطة في طُقوس الحجّ ومتابعة الوثنيّة، وارتباط قسم من العرب بها على أساس من التّعصّب للأخطاء الموروثة في تألية الملائكة وتأنيثها، وعبادة الأصنام وتقديسها، ورؤية الشّمس والقمر والكواكب بمنظار الأرباب.

---

١ ـ المائدة / ٩٠.

٢ ـ أنظر جزء من عقائد الصّابئة – محمّد عبدالله دراز – مدخل إلى القرآن الكريم (١٣٢) وما بعدها.

والجاهليّة وأرجاسها في الوأد والبغاء والرّبا والزّنى، وقتل الأولاد خشية الفقر، وأكل التّراث وحبّ المال، ووراثة النّساء كرهاً بما صرّح به القرآن في آيات عديدة، ومواضع كثيرة من سوره[1].

ألا يتناسب مع هذا الخليط العجيب من الدّيانات المحرّفة وتعدّد الآلهة، أن يبدأ الوحي بنداء التّوحيد لأوّل مرّة، وقد كان ذلك كذلك، فاستنقذ النّاس من عبوديّة الفكر واسترقاق النّفوس. واتّجه بها إلى عبادة الله الواحد القهّار، وهي عبادة تجمع إلى راحة الضّمير صدق العبوديّة دون إذلال، وصحّة الاعتقاد دون إنحراف، ابتعاداً عن الخرافات والأساطير والمتاهات.

وكان من الجدير بعد هذه الاستجابة أن يتمّ تشريع الصّلاة؛ لأنّها تتضمّن التّوحيد والعبادة بوقت واحد.

وحينما اتّجهت القلوب للّه بدأ تطهير النّفوس بالخلق والأدب والصّفاء الرّوحي والإيثار، وكان كذلك منطلق الوحي بتعليماته الواحدة تِلوَ الأُخرى.

٧ - واشتدّ الأذى بالمسلمين، فكانت قصص الغابرين إيذاناً بحرب نفسيّة، فما هم عنها ببعيد: ﴿ وَاَنَّهُ اَهْلَكَ عَاداً الْاُولىٰ ۞ وَثَمُودَ فَمَا اَبْقىٰ ﴾[2].

وكانت أحاديث الأنبياء مع أُممهم، واستقراء أحوالهم في العذاب نذيراً بما قد يصيب العرب نتيجة التّكذيب، والأُمور تقاس بأضرابها: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۞ اِنَّا اَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۞ تَنْزِعُ النَّاسَ كَاَنَّهُمْ اَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[3].

وهكذا الحال في كلّ من قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾، ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ اٰلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾[4].

---

١ ـ أنظر على سبيل المثال العادات الجاهليّة كما يصورّها القرآن: النّساء / ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٨، ١٢٧، الأنعام / ١٤٠، النّور / ٣٣، الفجر / ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠.

٢ ـ النّجم / ٥٠ - ٥١.

٣ ـ القمر / ١٨ - ٢٠.

٤ ـ القمر / ٢٣، ٣٣، ٤١.

وهي مؤشّرات إنذارية في آيات من سورة واحدة، فكيف بك في السّور المكّيّة كافّة؟

وقد ذكّرت قريش بعذاب الاستئصال في الفترة المكّيّة، وكان ذلك مجالاً رحباً من مجالات الوحي في هذه الحُقبة العصيبة، فثاب من ثاب إلى رشد، وتجبّر من تجبّر في ضلالٍ، وأمثلة عديدة متوافرة، ومن نماذجه قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾[1].

وهكذا الإشارة إلى مجموعة الأُمم المكذّبة، وقد مزّقوا كلّ ممزّق، كما في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]. وما قصّة نوح مع قومه، وموسى مع آل فرعون، وصالح وشُعيب وهود إلّا مؤشّرات فيما سبق.

٨ – وقد تناسق بشكل متقن عجيب استقراء اليوم الآخر، والتّذكير بأهواله ومظاهره، والتّحذير من عذابه وكوارثه، والتّصريح بفناء الأعراض وذهابها، وتلاشي العوالم ونهايتها، وصفة الجنّة والنّار، وحال المؤمنين والكافرين، وقد مثّل ذلك بسور فضلاً عن الآيات، وبمجموعة مكّيّة منها زيادة عن المتفرّقات. وما سوره الرّحمن والواقعة والحاقّة والمعارج والمدّثّر والقيامة والمرسلات والنّبأ والنّازعات والتّكوير والانفطار والمطفّفين والانشقاق والطّارق والغاشية والبلد والقارعة والتّكاثر، وغير ذلك إلّا معالم في هذا الطّريق مضافاً إلى مئات الآيات الأُخرى المتناثرة نجوماً في معظم السّور المكّيّة.

٩ – وزيادة على التّشريع المناسب في المدينة المنوّرة، وإقرار الأحكام، وتوالي الفروض، والدّعوة إلى الجهاد، وتصنيف معالم القتال، وتحديد سهام الحقوق، فقد عانت المدينة من ظاهرة النّفاق، متسترّة بالدّين تارةً، ومتأطّرة بسبيل أهل الكتاب تارةً أُخرى، فقد تعدّد مكرهم بالنّبيّ ﷺ وعظم وقعهم على المسلمين، فكانوا رأس كلّ فتنة، وأصل

---

١ ـ السّجدة / ٢٦.

٢ ـ المؤمنون / ٤٤.

كلّ سوءة، فالدّسائس تحاك، والأراجيف تروّج، والأباطيل تلوكها الألسن، فما كان من القرآن إلّا أن تعقّبهم بالّتي هي أحسن تارةً، وبالإنذار تارةً أُخرى، وبالتّقريع والتّوبيخ وغيرهما، فكان الوعيد على أشدّه، والأغراء بهم على وشكّ الوقوع، وقد عالج القرآن مشكلتهم، وسلّط الأضواء على تحرّكاتهم، وتربّصهم الدّوائر بالإسلام، وصوّر حالتهم النّفسيّة والخلقيّة الجماعيّة والفرديّة، وأبان واقعهم الدّنيويّ ومآلهم الأُخرويّ، وقد جاء ذلك متراصفاً في سور عديدة؛ لمعالجة كلّ حالة بإزائها، فكانت سورة البقرة وآل عمران والنّساء والمائدة والأنفال والتّوبة والعنكبوت والأحزاب والفتح والحديد والحشر والمنافقون والتّحريم، ميادين فارهة في تعقيب ظاهرة النّفاق وحقيقة المنافقين، فكان ذلك سمة لهم لاتبلى.

ولا نريد أن نطيل أكثر فأكثر في هذا الجانب وسواء، فهو بديهيّ لاستكمال الرّسالة وضرورة تطبيقها، ومواكبة الوحي لهذه الأحداث والأزمات والمؤشّرات دليل على أصالة هذا المنهج المتناسب تأريخيّاً وزمنيّاً مع مرحليّة الظّروف.

١٠ – وهناك العلاقة الثّنائيّة بين الوحي والنّبيّ ﷺ، وهناك التّجاوب المطلق بينهما، وكان تحقّق ذلك في التّدرّج بالنّزول، وكانت الأزمات ـ وهي تحاول أن تعصّف بالنّبيّ ﷺ ـ تضرب فجأة بإرادة الوحي إلالهيّ، فهو إلى جنبه يشدّ عزمه، ويقوّي أسره، ويسلّيه تارة، ويعزّيه تارة أُخرى، ويصبّره ويؤسّيه فيما يقتصّ له من الأنباء، وما يورده من الصّبر، وما يحدّده من الأحكام، مفرّقاً بين الحقّ الثّابت الرّصين، والباطل المتزعزع الواهن، وفي ذلك تثبيت له على المثل، وتحريض له على المثابرة، وإعلام له بالنّصر؛ لأنّها سنّة الله مع رسله وأنبيائه.

وهناك أسئلة تتطلّب الإجابة المحدّدة، وحوادث تستدعي القول الفصل، ولا يضمن هذا إلّا الوحي فيما ينزل به، فقد سألوه عن الخمر والميسر، وسألوه عن المحيض، وسألوه عن القتال في الأشهر الحرم، وسألوه عن الأهلّة، وسألوه عن السّاعة، وسألوه عن الرّوح، وسألوه عن الأنفال، وسألوه عن الجبال، وسألوه عن ذي القرنين وهكذا، فتصدّر الوحي للإجابة الفاصلة.

واستفتوه في النّساء، واستفتوه في الكلالة، فأفتاهم الوحي عن الله. ووقع الظّهار والإيلاء وحادثة الإفك، وغنموا في الحرب، وحصل الزّنىٰ، ونزلت السّرقة، وبدأ القتل العمد والقتل الخطأ، وهي حوادث متعدّدة في أزمنة متعدّدة، وقد نزلت أحكامها المتعدّدة، وهكذا.

إنّ الإحصاء الدّقيق لهذه الجزئيّات قد لاينتهي إلّا بصفحات كبيرة لا يتّسع لها هذا البحث، وفيما أشرنا له غنيّة في التّمثيل النّطبيقيّ.

١١ – وهناك ملحظ جدير بالأهميّة في الوحي التّدريجيّ، يعود إلى التّنزيل نفسه؛ ليحكم فيه على ناحيتين:

الأُولى: أنّه ليس من كلام البشر، وإنّما هو من كلام الله وحده، وذلك أنّ هذه المراحل المتعدّدة الّتي مرّ فيها، لم يحصل فيه تفاوت في الأُسلوب البيانيّ، فهو في الأوّل نفسه في الوسط والآخر، ومع كثرة الأحداث وتعدّد المسؤوليّات في بيان الأحكام، وتدارك النّوازل، واستيعاب المشكلات، لم يبدُ فيه – ولو مرّةً واحدةً – أيّ اختلاف وتناقض، ولو كان من كلام البشر، لحصل فيه التّفاوت والتّناقض معاً، وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللّٰهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾[1].

الثّانية: أنّ قليل هذا التّنزيل وكثيره هو الدّليل المتعاقب – مرّةً بعد مرّةٍ – على نبوّة محمّد ﷺ؛ لأنّ مراعاة المناسبة، والعقل في الأمر الجلل، والتّحدّث عن الغيب المطلق، كلّ ذلك بتحديد قاطع، وحجّة لا تقبل جدلاً، لا يمكن أن يكون إلّا من قبل الله تعالى؛ لأنّ النّبيّ ﷺ أُمّيّ يفقد أدنى ما يمكن أن يتمتّع به غيره من النّاس الاعتياديّين في القراءة والكتابة، فكيف إذن بمسائل التّشريع، وإخبار الغيب، وقضايا السّاعة، ومختلف الأحكام، ولم يسبق له أن مارس قبل بعثته أيّ نوع من أنواع الثّقافة والمعرفة الّتي تتناسب مع هذا العطاء المتواصل من الوحي، وفي هذه القضيّة الخارجة عن مقدرة النّبيّ تأكيد لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[2]. (ص: ٣٧ ـ ٤٩)

---

١ ـ النّساء / ٨٢.

٢ ـ الحاقّة / ٤٤ – ٤٧.

الأعلام والمصادر

نبذة مختصرة عن ترجمة أصحاب هذه النّصوص

نودّ التّنبيه هنا على أنّنا نرى من الضّروريّ ذكر نبذة موجزة عن ترجمة هؤلاء المؤلّفين الّذين وردت أسماؤهم في هذه النّصوص مرتّبةً بحسب تاريخ وفياتهم، ملخّصةً عن عدّة مصادر، وفي مايلي أسماؤهم مرتّبةً بحسب حروف الهجاء.

ملاحظات:

١ - اكتفينا عند عرض النّصوص بالاسم الّذي اشتهربه المؤلّف وبها اشتهر كتابه، ولهذا ينبغي الرّجوع إلى هذا الفهرس: «فهرس الأعلام والمصادر» لأجل الاطّلاع على الأسماء الكاملة للمؤلّفين ولكتبهم.

٢ - إذا لم يتيسّر لنا الاطّلاع على سنة ولادة أو وفاة بعض أصحاب هذه النّصوص من المعاصرين، نذكر كلمة (مُعاصِر) أمام اسمه وتاريخ تأليف كتابه أو تاريخ طبعته في آخر ترجمته.

٣ - ذكرنا المصادر والمراجع الّتي استقينا منها النّصوص في آخر ترجمة كلّ شخص، علماً بأنّ بعض الأعلام الواردة أسماؤهم في هذا الفهرس هم من أصحاب المؤلّفات والمصنّفات الكثيرة، ولكنّا اكتفينا في الفهرس بما استفدنا منها من كتبهم في هذه النّصوص دون غيرها.

٤ - إذا وقفنا على مصادر أُخرىٰ في سائر الأجزاء نذكرها هناك من دون تكرار ما في هذا الفهرس.

(آ)

الآصفيّ **(معاصر)**

هو الشّيخ عليّ بن محمّد البروجرديّ الآصفيّ، وُلد في النّجف الأشرف، له «دراسات في القرآن» [ط: مطبعة النّعمان النّجف ـ ألّفه عام ١٣٨٦ هـ].

الآلوسيّ **(١٢١٧ ـ ١٢٧٠هـ)**

هو شِهاب الدّين محمود بن عبدالله الحسينيّ الآلوسيّ البغداديّ، كان مفسّرًا محقّقًا، سلفيّ الإعتقاد، له «روح المعانى في تفسير القرآن» [٣٠ ج، ط: دار إحياء التّراث العربيّ ـ بيروت ـ ١٣٥٣ هـ].

(ا)

ابن باديس **(١٣٠٥ ـ ١٣٥٩ هـ)**

هو عبد الحميد بن محمّد المعروف بابن باديس، قائد الثّورة الإسلاميّة العربيّة ضدّ الاستعمار الفَرنسيّ بالجزائر، له تفسير يسمّى باسمه [١ ج، ط: دار الفكر ـ بيروت ـ ١٣٩٠ هـ].

ابن جُزَيّ **(٦٩٣ ـ ٧٤١ هـ)**

هو أبو القاسم محمّد بن أحمد بن جُزَيّ الكَلبيّ، العالم اللّغويّ الفقيه المفسِّر من أهل غَرناطَة، له «التّسهيل لعلوم التّنزيل» [٤ ج، ط، دار الكتب العربيّ ـ بيروت ـ ١٣٩٣ هـ].

ابن الجَوزيّ **(٥٠٨ - ٥٩٧ هـ)**

هو أبو الفرج جمال الّدين عبد الرّحمان بن عليّ، المعروف بابن الجوزيّ الحنبليّ، محدِّث، مفسِّر، مولده ووفاته ببغداد، له «زاد المسير في علم التّفسير» [٩ج، ط: المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ١٣٨٤ هـ].

ابن حَجَر
(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ)

هو أبو الفضل شهاب الدّين أحمد بن عليّ المعروف بابن حَجَر العَسقلانيّ الفلسطينيّ، وهو أعظم نُقّاد الحديث وشُرّاحه، له «فتح الباريّ بشرح صحيح البُخاريّ» [ط (٢) دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت - ١٤٠٢ هـ].

ابن شهر اشوب
(.... ـ ٥٨٨)

هو أبو جعفر رشيد الدّين محمّد بن عليّ بن شهر اشوب السّرويّ المازندرانيّ، أصله من سارية (ساري) من بلاد مازندران، له كتب كثيرة منها: «مناقب آل أبي طالب» [٤ج، ط (٢) دار الأضواء ـ بيروت ـ ١٤١٢هـ].

ابن طاووس
(٥٨٩ - ٦٦٤ هـ)

هو عليّ بن موسى بن جعفر بن طاووس حفيد بنت الشّيخ الطُّوسِيّ، فقيه، أديب، وصاحب الكرامات، مولده بالحلّة ومدفنه ببغداد، له «سعد السّعود» [ط: أمير - قم - ١٣٦٣هـ].

ابن كثير
(٧٠١ - ٧٧٤ هـ)

هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشّافعيّ، حافظ، فقيه، مؤرّخ، وُلِد ببصرىٰ الشّام. له تفسيرٌ يُعرف باسمه [٧ج، ط (٢) دار الفكر - بيروت - ١٣٨٩ هـ] و «البداية والنّهاية». [١٤ ج، مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ومكتبة النّصر ـ الرّياض ـ ١٣٨٨ هـ].

ابن النَّديم
(٤٣٨ هـ)

هو أبو الفرج محمّد بن أبي يعقوب النّديم البغداديّ. له كتاب «الفهرست»، وهو من أقدم كتب التّراجم وأفضلها [ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٨ هـ].

أبو حَيّان
(٦٥٤ - ٧٤٥ هـ)

هو محمّد بن يوسف بن عليّ بن حَيّان الغَرناطيّ الأندلسيّ الشّافعيّ، مفسّر، محدّث، لغويٌّ، له «تفسير البحر المحيط» [٨ ج، ط: دار الفكر للطّباعة والنّشر - بيروت - ١٤٠٣ هـ].

أبو زُهرة (مُعاصرٌ)	هو الشّيخ محمّد أبو زُهرة من الأساتذة الكبار بجامعتي الأزهر والقاهرة، عالمٌ بفقه المذاهب الإسلاميّة، له «المعجزة الكبرى» [ط، ن: دار الفكر العربيّ ـ بيروت ـ ألّفه عام ١٣٩٠هـ] و «الملكيّة ونظرية العقد في الشّريعة الإسلاميّة» [ط، ن: دار الفكر العربيّ بيروت ألّفه عام ١٣٩٦هـ].
أبو شامَة (٥٩٩ - ٦٦٥هـ)	هو أبو القاسم عبد الرّحمان بن إسماعيل المَقْدِسيّ، محدّث، مفسّر، أصله من القُدس، مولده ووفاته في دمشق، ولُقّب بأبي شامَة لشامة كبيرة كانت فوق حاجبيه، له «المُرشِدُ الوَجيز» [ن: دار صادر بيروت: ١٣٩٥هـ].
أبو شهبة (١٣٣٣ ـ...)	هو الدّكتور محمّد محمّد أبو شهبة المصريّ، أُستاذ علوم القرآن بجامعة الأزهر، له كُتب كثيرة منها: «المدخل لدراسة القرآن الكريم» [ط (٢) دار الكتب - القاهرة - ١٩٧٣ هـ].
أبو الفتوح (... ـ ٥٣٥ هـ)[١]	هو جمال الدّين حسين بن عليّ الخَزاعيّ المعروف بأبي الفتوح الرّازيّ، مفسّر، متكلّم، فقيه، مولده ومدفنه بالرّي، له «تفسير رَوْضُ الجِنان ورَوح الجَنان» [ط: مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النّجفيّ - قم - ١٤٠٤ هـ].
الأبياريّ (مُعاصرٌ)	هو إبراهيم الأبياريّ، عالم، محقّق من القاهرة بمصر، له «الموسوعة القرآنيّة» [١١ ج، ط، ن: مؤسّسة سجلّ العرب ألّفه عام: ١٤٠٥ هـ].

١ ـ ذكر الزّركليّ في أعلامه: توفّي عام ٥٨٨ هـ وما ثبّتناه مأخوذٌ من كتاب «ريحانة الأدب».

أحمد خليل (مُعاصرٌ)	هو الدّكتور السّيد أحمد خليل، له «دراساتٌ في القرآن» [ط، ن: دار المعارف بمصر - ١٣٩٢ هـ].
الأراكيّ (مُعاصرٌ)	هو الشّيخ محسن الأراكيّ، محقّق، كاتب، من علماء الحوزة العلميّة في قُم المقدّسة، له مقالات في مجلّة «رسالة القرآن» [ط، ن: دار القرآن الكريم العدد (١) - قم - ١٤١١ هـ]
الأُشَيْقِرْ (مُعاصرٌ)	هو محمدّ عليّ الأُشَيْقِرْ، الأُستاذ بكلّيّة بغداد سابقاً، له «لَمحات من تاريخ القرآن» [ط: مطبعة النّعمان - النّجف - ١٣٨٧ هـ].
الأصفهانيّ (١٢٦٦ - ١٣٠٨ هـ)	هو الشّيخ محمّد حسين الأصفهانيّ النّجفيّ، محدّثٌ، فقيهٌ، حكيمٌ، له «مجد البيان في تفسير القرآن» [ط: مؤسّسة البعثة - طهران - ١٤٠٨ هـ].

(ب)

البَحرانيّ (... - ١١٠٧ هـ)	هو السّيد هاشم بن سليمان الحسنيّ البحرانيّ الكَتْكانيّ، مفسِّرٌ، محدّثٌ، فقيهٌ، له «البرهان في تفسير القرآن» [٤ ج، ط (٢): آفتاب - طهران - ١٣٧٥ هـ].
البخاريّ (١٩٥ - ٢٥٦ هـ)	هو أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل البُخاريّ، المحدّث المشهور، جمع نحو ستّمائة ألف حديث طويل واختار في كتابه «الجامع الصّحيح» ما وثق برواته؟! وهو أوثق الكتب السّتّة المعوّل عليها عند السُّنّة. [ط: دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت -].
البُروجرديّ (١٢٣٨ - ١٢٧٧هـ)	هو السّيد حسين بن السّيد رضا الحسينيّ البُروجرديّ الفاطميّ، فقيه، مفسِّر ومن تلامذة صاحب الجواهر، له «تفسير الصّراط المستقيم» [ط: الصّدر - طهران].

البُروسَويّ (... ـ ١١٢٧ هـ)	هو أبوالفداء إسماعيل حقّيّ بن مصطفى الإسلامبوليّ الحنفيّ، مفسّرٌ، متصوِّفٌ من أتباع الطّريقة الخلوتيّة، له التّفسير الكبير «روح البيان» [١٠ ج، ط: المطبعة العثمانيّة - إستانبول - ١٩٢٨ م]
البَيضاويّ (٦٨٥ - ٧٩١ هـ)	هو عبدالله بن عمر بن محمّد البَيضاويّ، قاضٍ، مفسّرٌ، ولد في مدينة البَيضاء قرب شيراز، له «أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل» [٢ ج، ط (٢) مصطفى البابي - مصر - ١٣٨٨ هـ].
البُوطيّ (مُعاصِرٌ)	هو الدّكتور محمّد سعيد رمضان البُوطيّ كان سوريّاً، له كتب، منها: «من روائع القرآن» [ط (٢) مكتبة الفارابيّ دمشق ١٣٧٨هـ].
البَيهقيّ (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)	هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ الشّافعيّ البَيهقيّ، من أئمّة الحديث، وُلد في خُسروجَرد[١]. له «السّنن الكبرىٰ» [ط: دار المعرفة - بيروت] و «الأسماء والصّفات» [ط: مطبعة السّعادة - ١٣٥٨ هـ ـ ن: دار إحياء التّراث العربيّ].

(ح)

الحاكم (٣٢١ - ٤٠٥ هـ)	هو أبو عبدالله محمّد بن عبدالله بن حَمدويه المعروف بالحاكم النّيسابوريّ، من أكابر الحفّاظ والمصنّفين، له «المستدرك على الصّحيحين» [٤ ج، ط: مكتب المطبوعات الإسلاميّة - حلب].

١ ـ من قرى بَيهَق.

الحَجازيّ
(١٣٣٨ ـ..)

هو الشّيخ محمّد محمود الحجازيّ، من العلماء البارزين وأُستاذ التّفسير وأُصول الدّين في الأزهر، له «التّفسير الواضح» [ط (٢): دار الكتب العربيّ بمصر، ١٣٧١ هـ] و «الوحدة الموضوعيّة» [ط: دار الكتب الحديث ـ القاهرة - ١٣٩٠ هـ].

حجّتيّ
(مُعاصرٌ)

هو الدّكتور محمّد باقر حجّتيّ، أُستاذ علوم القرآن في كلّيّة الإلهيّات بطهران وعضو مجمع اللّغة العربيّة بدمشق، له « مختصر تاريخ القرآن الكريم» [ط: المستشاريّة الثّقافيّة للجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة بدمشق ١٤٠٥ هـ].

الحكيم
(مُعاصرٌ)

هو السّيد محمّد باقر بن المرجع الشّيعيّ الأكبر المرحوم آية الله العظمى السّيّد محسن الحكيم العراقيّ، له «علوم القرآن» [ط: مطبعة الاتّحاد - طهران - ١٤٠٣ هـ].

(خ)

الخازن
(٦٧٨ - ٧٤١ هـ)

هو عليّ بن محمّد بن إبراهيم، المعروف بالخازن الشّافعيّ، وقيل: الشّيعيّ[١]. عالمٌ بالتّفسير والحديث، له «لُباب التّأويل في معاني التّنزيل» المعروف بتفسير الخازن [٧ ج، ط: مطبعة الإستقامة - القاهرة - ١٣٨١ هـ].

الخِضريّ
(مُعاصرٌ)

هو الأُستاذ الشّيخ محمّد الخِضريّ بِك المِصْريّ، كان مفتّشاً في وزارة المعارف، ومدرّساً للتّاريخ الإسلاميّ في الجامعة المصريّة سابقاً، له: «تاريخ التّشريع الإسلاميّ» [ط: دار الكتب العلميّة - بيروت - ١٣٩٠ هـ].

---

١ ـ معجم مصنّفات القرآن لعلي شواخ، ج ٤: ٢١٤.

الخَطيب (١٣٣٩ ـ...)	هو عبد الكريم الخَطيب المصريّ، من كبار المؤلّفين البارزين في القاهرة، له «التّفسير القرآنيّ للقرآن» [١٦ ج، ط: مطبعة السّنّة المحمّديّة - القاهرة - ١٣٨٦ هـ] و «إعجاز القرآن» [ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٩٥ هـ].
خليفة (مُعاصرٌ)	هو الدّكتور محمّد محمّد خليفه، له «مَعَ نزول القرآن» [ط، ن: مكتبة النّهضة المصريّة - القاهرة - ١٣٩١ هـ].
خليل ياسين (... - ١٤٠٥)	هو الشّيخ خليل ياسين العامليّ اللّبنانيّ، له «أضواءٌ على متشابهات القرآن» يحتوي على ١٦٠٠ سؤال وجواب [٢ ج، ط: مطبعة الجديدة - لبنان - ١٣٨٨ هـ].
الخُمينيّ (... - ١٣٩٨ هـ)	هو الشّهيد السّيّد مصطفى المصطفويّ، ابن آية الله العظمى الإمام الخُمينيّ قائد الثّورة الإسلاميّة في إيران كان عالماً مجتهداً، فيلسوفاً عارفاً، له «تفسير القرآن الكريم» [ط: وزارة الإرشاد الإسلاميّ - طهران - ١٤٠٤ هـ].

(د - ر - ز)

الدُّوزدُوزانيّ (مُعاصرٌ)	هو الشّيخ ميرزا يدالله بن عبد الحميد الدُّوزدُوزانيّ، إحدى الشّخصيّات العلميّة وأُستاذ في الحوزة العلميّة بقم المقدّسة، له «دروس حول نزول القرآن» وهي عبارة عن محاضرات ألقاها على عدد من الطّلاب. [ط: (١) أمير - قم - ١٤١٣ هـ].
رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ)	هو السّيد محمّد رشيد بن عليّ رضا، بغداديّ الأصل، عالمٌ بالتّفسير والأدب، له «تفسير المنار» تقريراً لدرس أُستاذه محمّد عبده [١١ ج، ط: دار المعرفة - بيروت -].

الزُّرقانيّ (مُعاصرٌ) هو الأُستاذ محمّد عبد العظيم الزُّرقانيّ، مدرِّس علوم القرآن وعلوم الحديث في جامعة الأزهر سابقاً، له «مناهل العرفان في علوم القرآن» [٢ ج، ط: دار إحياء الكتب العربيّة ١٣٦٢ هـ].

الزَّركشيّ (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ) هو أبو عبدالله بدر الدّين محمّد بن عبدالله الزَّركشيّ الشّافعيّ، مولده ووفاته بمصر، له «البرهان في علوم القرآن» [٤ ج، ط (٢) دار إحياء الكتب العربيّة ١٣٩١ هـ].

الزَّفزاف (مُعاصرٌ) هو محمّد الزَّفزاف، أُستاذ الشّريعة المساعد بكلّية دار العلوم جامعة القاهرة، له «التّعريف بالقرآن والحديث» [ط(١)...؟].

الزَّمخشريّ (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الخوارزميّ الزَّمخشريّ[1] الحنفيّ المعتزليّ، من أئمّة علوم التّفسير واللّغة والأدب، له «الكشّاف عن حقائق التّنزيل» [٤ ج، ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٧ هـ].

الزّنجانيّ (١٣٠٩ - ١٣٦٠ هـ) هو العلّامة الشّيخ أبو عبدالله الزّنجانيّ ابن الميرزا نصرالله، كان فيلسوفاً، مفسِّراً، مولده ووفاته بزنجان، له «تاريخ القرآن» [ط: مكتبة الصّدر - طهران - ١٣٨٧ هـ].

(س)

السُّبحانيّ (مُعاصرٌ) هو المحقّق الشّيخ جعفر السُّبحانيّ التّبريزيّ، أحد الشّخصيات العلميّة وأُستاذ في الحوزة العلميّة بقم المقدّسة، له كتب ومقالات متعدّدة، منها: مقالات في مجلّة «رسالة القرآن» [ط، ن: دار.

---

١ ـ زمخشر من قرى خوارزم.

القرآن الكريم – قم – ١٤١١هـ].

السُّبكيّ (مُعاصرٌ) هو الأُستاذ عبد اللّطيف محمّد السُّبكيّ، الحنبليّ ومن العلماء الكبار بالأزهر عام ١٣٧٢ هـ وعضو المجلس الأعلى للشّؤن الإسلاميّة، له كتب كثيرة منها: «في رياض القرآن» [ط: المجلس الأعلى للشّؤن الإسلاميّة – القاهرة – ١٣٨٣ هـ].

سيّد قُطب (... ـ ١٣٨٦ هـ) هو من أعوان حسن البنّاء، وقد سَجَنَتْه الحكومة المصريّة، ثمّ أعْدَمته، له تفسير «في ظلال القرآن» [٥ ج، ط (١١) دار الشّروق – بيروت – ١٤٠٥هـ].

السُّيوطيّ (٨٤٩ – ٩١١ هـ) هو أبوبكر جلال الدّين عبد الرّحمان بن الكمال السُّيوطيّ الأشعريّ الشّافعيّ، مفسِّرٌ، مؤرِّخٌ أديبٌ، مولده ووفاته في القاهرة، له «الإتقان في علوم القرآن» [٤ ج، ط (٢) أمير – قم – ١٤٠٥ هـ] و «الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور» [٦ ج، ط: الميمنيّة بمصر – ١٣١٤ هـ].

(ش)

شُبَّر (١١٨٨ – ١٢٤٢ هـ) هو العلّامة السّيّد عبدالله بن محمّد رضا شُبَّر، ولد في النّجف الأشرف وعُرفت أُسْرته بـ «آل شُبَّر» وهي من بيوت العلم والفضل... أصلهم من الحلّة في العراق، له كتب كثيرة منها: «الجوهر الثّمين في تفسير الكتاب المبين» [٦ ج، ط: مكتبة الألفين، الكويت – ١٤٠٧ – هـ].

الشِّرْبينيّ (... ـ ٩٧٧ هـ) هو شمس الدّين محمّد بن أحمد الخطيب الشِّربينيّ الشّافعيّ، من أهل القاهرة، له «السّراج المنير» [٤ ج، ط (٢) دار المعرفة للطّباعة والنّشر – بيروت – ١٢٨٥ هـ].

الشَّرقاويّ (مُعاصرٌ) هو محمود الشَّرقاويّ من علماء القاهرة بمصر، له كتاب الموسوم بـ«القرآن المجيد» [ط: دار الشّعب بالقاهرة - ١٣٩٠ هـ].

الشّريف الجُرجانيّ (٧٤٠ - ٨١٦ هـ) هو عليّ بن محمّد المعروف بالسّيد الشّريف الجُرجانيّ، الحنفيّ، وقيل: الإماميّ، وُلد في تاكو قرب استر آباد، له «حاشية على تفسير الكشّاف» [ط: دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٧ هـ].

الشَّريف المرتضى (٣٥٥ - ٤٣٦ هـ) هو أبو القاسم السّيّد عليّ بن الحسين الموسويّ علم الهُدى، كان جامعاً للعلوم العقليّة والنّقليّة وفنون الأدب والعربيّة، مولده ووفاته ببغداد، له «الأمالي في القرآن» [٢ ج ط (٢) دار الكتب - بيروت - ١٣٨٧ هـ] و «رسائل الشّريف» [٢ ج، ط (١) سيّد الشّهداء - قم - ١٤٠٥ هـ].

الشَّعرانيّ (١٣٢٠ - ١٣٩٣ هـ) هو العلّامة المحقّق آية الله ميرزا أبو الحسن بن الشّيخ محمّد الشَّعرانيّ، وهو من أحفاد ملاّ فتح الله الكاشانيّ، كان مفسّراً، فقيهاً، فيلسوفاً، رياضيّاً، وُلد بطهران ودُفن فيها وله كتب كثيرة منها: «نثر طوبى» [٢ ج، ط (٢) من مطبوعات المكتبة الإسلاميّة - طهران - ١٣٩٨ هـ].

الشَّهرستانيّ (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) هو أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم الشَّهرستانيّ الأشعريّ، مفسِّرٌ، متكلّم. ولد في شهرستان، له «مفاتيح الأسرار ومصابيح الأبرار» [٢ ج، خطيّ، ٩٠٠ هـ].

شيخ زاده (... - ٩٥١ هـ) هو محي الدّين محمّد بن مصطفى القوجويّ، مفسِّر من فقهاء الحنفيّة. له «حاشية على تفسير أنوار التّنزيل البَيضاويّ» وهي أعظم الحواشيّ فائدةً وأكثرها نفعاً [ط: المكتبة الإسلاميّة تركيا].

(ص)

الصّابونيّ
(مُعاصرٌ)

هو محمّد عليّ الصّابونيّ، الأُستاذ بكلّيّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة بمكّة المكرّمة، له «التّبيان في علوم القرآن» [ط: دار القلم - بيروت - ١٣٩٠ هـ].

صُبحي الصّالح
(... - ١٤٠٧ هـ)

هو الدّكتور صبحي الصّالح أُستاذ الإسلاميّات وفقه اللّغة في كلّيّة الآداب بالجامعة اللّبنانيّة، سابقاً، له «مباحث في علوم القرآن» [ط (٥) دار العلم للملايين - بيروت - ١٣٨٥ هـ].

صدر المتألّهين
(٩٧٩ - ١٠٥٠ هـ)

هو محمّد بن إبراهيم صدر الدّين الشّيرازيّ المشهور بملّا صدرا أو صدر المتألّهين، أحدث تحوّلاً في العلوم العقليّة، إذ كان أوّل من جمع بين الفلسفة المشّائيّة والإشراقيّة والكلام، له كتب كثيرة منها «تفسير القرآن الكريم» [٦ ج، ط (٢) أمير - قم - ١٤٠٦] و «أسرار الآيات» [ط: وزارة الثّقافة والتّعليم العالي - طهران - ١٤٠٢] و «تفسير سورة الواقعة» [ط: خواندنيها - طهران - ١٤٠٤ هـ].

الصّدوق
(... ـ ٣٨١ هـ)

هو أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين موسى بن بابويه القُمّيّ المعروف بالشّيخ الصّدوق، محدّث إماميّ كبير، وكتابه «من لا يحضره الفقيه» من الكتب الأربعة للشّيعة، له «رسالة في الاعتقادات» [مخطوطه].

الصّعيديّ
(مُعاصرٌ)

هو الدّكتور عبد المتعال الصّعيديّ، أُستاذ اللّغة العربيّة بجامعة حلب، له مقالات وبحوث كثيرة، منها: ما نشر في مجلّة «رسالة الإسلام» الصّادرة عن دار التّقريب بين المذاهب الإسلاميّة بالقاهرة [١٥ج، ط (٣) مجمع البحوث الإسلاميّة بمشهد المقدّسة ـ ايران ـ ١٤١١هـ].

الصّغير
(مُعاصرٌ)

هو الدّكتور الشّيخ محمّد حسين عليّ الصّغير، أُستاذ كلّيّة الفقه في النّجف الأشرف، وُلد في النّجف الأشرف، ينحدر من عائلة آل الخاقانيّ، له كتب منها «دراسات قرآنيّة» [ط: (٢) مكتب الإعلام الإسلاميّ – قم – ١٤١٣ هـ].

الصّفّار
(... ـ ٢٩٠)

هو أبو جعفر محمّد بن الحسن الصّفّار بن فَرُّوخ القُمّيّ من أعاظم المحدّثين الإماميّة. كان من أصحاب الإمام العَسكريّ عليه السلام، وله كتب كثيرة، أشهرها: «بصائر الدّرجات» [ط: منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعَشيّ ـ قم ـ ١٤٠٤هـ].

(ط)

الطّباطبائيّ
(١٣٢١ – ١٤٠٢ هـ)

هو العلّامة السّيد محمد حسين القاضي الطّباطبائيّ التّبريزيّ، وُلد في تبريز وتوفّي في قم المقدّسة، وكان له أفكار جديدة في العلوم العقليّة والتّفسيريّة، له «الميزان في تفسير القرآن» [٢٠ ج، ط (٣) إسماعيليان – طهران – ١٣٩٤ هـ] و«القرآن في الإسلام» [ط: سبهر – طهران – ١٤٠٤ هـ].

الطَّبرِسيّ
(... ـ ٥٤٨ هـ)

هو أبو عليّ الفضل بن الحسن الطَّبرِسيّ، من أجلّاء الإماميّة، نسبته إلى «تفرِش» من بلاد ايران، مدفنه في المشهد الرّضويّ، له تفسير «مجمع البيان لعلوم القرآن» [٥ ج، ط: مطبعة العرفان – صيدا – ١٣٣٣ هـ] و «تفسير جوامع الجامع» [٣ج،ط (٣) بهرام – طهران – ١٤٠٤ هـ].

الطَّبَرِيّ
(٢٢٥ – ٣١٠ هـ)

هو أبو جعفر محمّد بن جَرير الطَّبَرِيّ، مفسِّر، مؤرِّخ، وكان شافعيّاً، ثمّ اختار لنفسه مذهباً مستقلاً. وُلد في آمُل من أعمال طَبَرَستان، له «جامع البيان في تفسير القرآن» [١١ ج، ط (٣) مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ – مصر – ١٣٨٨ هـ].

الطُّريحيّ
(٩٧٩ – ١٠٨٥ هـ)

هو الشّيخ فخر الدّين عليّ بن أحمد بن طُريح الرَّماحيّ، فقيه، مفسِّر، لغويّ، وُلد في النّجف الأشرف ودُفن فيها، له «مجمع البَحْرَين ومَطلع النَيِّرَيْن» [٦ ج، ط: طراوت – طهران – ١٣٦٢هـ].

الطّوسيّ
(٣٨٥ – ٤٦٠ هـ)

هو أبو جعفر محمّد بن الحسن الطّوسيّ، من أعاظم فقهاء الشّيعة، جامع المعقول والمنقول، ومؤسّس الحوزة العلميّة في النّجف الأشرف، وكتاباه «التّهذيب» و «الاستبصار» من الكتب الأربعة للشّيعة، له «التّبيان في تفسير القرآن» [١٠ ج، ط: المطبعة العلميّة – النّجف – ١٣٧٦ هـ].

(ع – غ)

عِزَّة دَروَزَة
(١٣٠٥ ـ...)

هو محمّد بن عبدالهادي المعروف بعِزَّة دَروَزَة، وُلد في نابلس بفلسطين، له «التّفسير الحديث» [١٢ ج، ط: دار إحياء الكتب العربيّة – ١٣٨١ هـ] وتاريخ «القرآن المجيد» [ط: المطبعة العصريّة – صيدا].

الإمام العَسْكريّ
(٢٣٢ ـ ٢٦٠)

هو الإمام أبو محمّدالحسن بن عليّ الهاشميّ ، المعروف بالعَسْكريّ ، الإمام الحادي عشر عند الإماميّة . وُلد في المدينة وقَضَى شهيدًا في سامرّاء على يد المعتمد من خلفاء بني العبّاس ، وله تفسير منسوبٌ إليه ، المعروف بتفسير الإمام

العَسْكريّ. [ط (١) مهر ـ قم ـ ١٤٠٩هـ].

العطّار (... ـ ١٤٠٣هـ)
هوالدّكتور السّيد داود العَطّار، عميد كلّيّة أُصول الدّين ببغداد سابقاً، توفّي في ايران، له كتب منها «موجز علوم القرآن» [ط: مؤسّسة الأعلميّ - بيروت - ١٣٩٩ هـ].

على دَدَة (... - ١٠٠٧هـ)
هو الشّيخ على دَدَة بن مصطفى الموستاريّ الملقّب بشيخ التّربة. وُلد في موستار إحدىٰ مُدن البوسنة والهِرسك، له «حل الرّموز وكشف الكنوز في الأسئلة الحكميّة والأجوبة العلميّة» [المخطوطة ١٣١٤ هـ].

عَيّاد (مُعاصِرٌ)
هو جمال الدّين عَيّاد، ماجستير في الدّراسات العربيّة والإسلاميّة من الجامعة الأمريكيّة بالقاهرة، له «البحوث في تفسير القرآن، سورة العلق» [ط دار الحمّاميّ للطّباعة - القاهرة - ١٣٨٠ هـ].

الغَزاليّ (مُعاصِرٌ)
هو الشّيخ محمّد الغَزاليّ من علماء الأزهر البارزين المجاهدين وعضو دار التّقريب بين المذاهب الإسلاميّة سابقاً، له « نظراتٌ في القرآن» [ط ...؟].

(ف)

الفخر الرّازيّ (٥٤٤ - ٦٠٦هـ)
هو أبو عبدالله محمّد بن عمر التّيميّ البكريّ الفخر الرّازيّ، المفسّر الكبير والمتكلّم الشّهير، أصله من طَبَرَستان، مولده في الرّي، له «مفاتيح الغيب» المعروف «بالتّفسير الكبير» [٣٢ ج، ط: البهيّة المصريّة - القاهرة -].

الفيروز آباديّ (٧٢٩ - ٨١٧ هـ) هو محمّد بن يعقوب الشّيرازيّ الفيروز آباديّ، وُلد «بكازرون»، من أئمّة اللّغة والأدب، له «بصائر ذوي التّمييز في لطائف الكتاب العزيز» [٦ ج، ط: لَجنة إحياء التُّراث الإسلاميّ - القاهرة - ١٣٨٣ هـ].

الفيض الكاشانيّ (... - ١٠٩١ هـ) هو محمّد محسن بن المرتضى المعروف بالفيض الكاشانيّ، تلميذ صدر المتألّهين وصهره، وُلد ونشأ في قم وتوفّي في كاشان، له «تفسير الصّافيّ» [٥ ج، ط (١) دار إحياء الكتب العربيّة بمصر - ١٣٧٦ هـ].

(ق)

القاسميّ (١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ) هو جمال الدّين محمّد بن سعيد بن قاسم، مولده ووفاته بدمشق، وكان سلفيّ العقيدة، له «محاسن التّأويل» المعروف «بتفسير القاسميّ» [١٧ ج، ط (١) دار إحياء الكتب العربيّة - مصر - ١٣٧٦ هـ].

القُرطُبيّ (... ـ ٦٧١ هـ) هو أبو عبدالله أحمد بن أبيبكر الأنصاريّ الخَزرجيّ الأَندَلُسيّ، من أهل قُرطُبَة، توفّي في أسيوط مصر، له «الجامع لأحكام القرآن» المعروف «بتفسير القُرطُبيّ» [٢٠ ج، ط (٢) دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت - ١٣٧٢ هـ].

القَطّان (مُعاصرٌ) هو مَنّاع خليل القَطّان، أُستاذ التّفسير بكلّيّة الشّريعة، ومحاضر بالمعهد العالي للقضاء في «الرّياض»، له «مباحث في علوم القرآن» [ط (٢) منشورات الحديث - الرّياض - ١٣٩١ هـ].

القُمّيّ (٣٢٨هـ)	هو المحدّث، الثّقة الجليل أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن هاشم القُمّيّ، عاش في عصر الإمام العسكريّ عليه السلام، وله كتب منها: التّفسير المسمّى باسمه [٢ ج، ط (١) دار الكتابة للطّباعة والنّشر ـ قم ـ ١٤٠٣هـ] وكتاب الأنبياء [مخطوط].

(ك)

الكاشانيّ (... ـ ٩٨٨ هـ)	هو مولى فتح الله بن مولى شكر الله الكاشانيّ، فقيه، مفسِّرٌ، متكلِّم إماميّ، له «مَنهَج الصّادقين» [١٠ ج، ط: أُفست المطبعة الإسلاميّة - طهران -١٣٨٨ هـ].
الكُلينيّ (... - ٣٢٩ هـ)	هو أبو جعفر محمّد بن يعقوب المعروف بثقة الإسلام الكُلينيّ، رئيس المحدّثين للشّيعة الإماميّة، مولده في كُلين بالرّي، ومدفنه ببغداد، له «الكافي» في الأُصول والفروع والرّوضة (من الكتب الأربعة للشّيعة) [٨ ج، ط: دار الكتب الإسلاميّة - طهران - ١٣٨٨ هـ].

(م)

مالك بن نَبيّ (١٣٢٣ - ١٣٩٣ هـ)	وُلد في مدينة قُسْطَنطينة في الجزائر، كان مهندساً كهربائيّاً، له «الظّاهرة القرآنيّة» [ط: دار الفكر - دمشق - ساحة الحجاز ١٤٠٢ هـ].
مؤلّف المَبانيّ (... ؟...)	هو صاحب كتاب «المباني في نظم المعاني» اسمه مجهول، لأنّ الصّفحة الأُولى من النّسخة الوحيدة قد فقدت، لكنّه يذكر في الصّفحة الثّانية من المخطوطة أنّه بدأ في تأليفه عام (٤٢٥ هـ).

المَجلِسيّ (١٠٢٧ - ١١١١ هـ)	هو محمّد باقر بن محمّد تقي المعروف بالمَجلِسيّ الأصفهانيّ، محدِّث، فقيه، متكلّم. له ثلاثمأة مصنَّف، أعظمها وأشهرها «بحار الأنوار...» [١١٠ ج، ط (٣) دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت - ١٤٠٣هـ].
المَراغيّ (مُعاصرٌ)	هو أحمد بن مصطفى المَراغيّ، أُستاذ الشّريعة الإسلاميّة بكلّيّة دار العلوم في القاهرة سابقاً، له تفسيرٌ يعرف باسمه. ألّفه عام (١٣٦٥ هـ) [١٠ ج، ط (٣) إحياء التّراث العربيّ - بيروت - ١٣٩٤ هـ].
مرتضى العامليّ (١٣٦٤ ـ...)	هو السّيد جعفر مرتضى العامليّ، الأُستاذ والمؤرّخ الإسلاميّ، وُلد في جبل عامل بلبنان، له كتب كثيرة منها: «حقائق هامّة حَوْلَ القرآن الكريم» [ط (١) مؤسّسة النّشر الإسلاميّ قم المقدّسة ١٤٠٧ هـ] و«الصّحيح من سيرة النّبيّ الأعظم ﷺ» [٦ج، ط: قم المقدّسة - ١٤٠٣هـ].
المسعوديّ (... ـ ٣٤٦ هـ)	هو أبو الحسين عليّ بن الحسين المسعوديّ المعتزليّ، وقيل: الإماميّ، من ذريّة عبدالله بن مسعود، مؤرّخ مشهور، وُلد ببغداد ونشأ فيها، ثمّ شدّ الرّحال إلى بعض الأقطار الإسلاميّة، له كتب منها: مروج الذّهب [٤ ج، ط (٢) دار الهجرة - قم - ١٤٠٤هـ].
مُسلم (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)	هو أبو الحسين مُسلم بن الحَجّاج بن مُسلم القُشَيريّ النّيسابوريّ، مولده ووفاته بنيسابور. أشهر كتبه: «صحيح مسلم» وهو أحد كتب الصّحاح المعوّل عليها عند أهل السّنّة [ط: دار إحياء التُّراث العربيّ - بيروت - ١٣٧٣ هـ].

المصطفويّ (١٣٣٤ ـ ..) هو الأُستاذ المحقّق الميرزاحسن المصطفويّ التّبريزيّ، سكن بطهران، وله كتب كثيرة منها: «التّحقيق في كلمات القرآن الكريم» [١٤ ج، ط (١) وزارة الثّقافة والإرشاد الإسلاميّ ـ طهران ـ ١٤١٢هـ].

مطهّريّ (... ـ ١٣٩٩ هـ) هو الشّهيد المحقّق آية الله مرتضى المطهّريّ، مولده في فريمان بخراسان، مفسّر، فيلسوف من تلامذة الإمام الخمينيّ والعلّامة الطّباطبائيّ رضوان الله تعالى عليهما، له مصنّفات كثيرة ومحاضرات مسجّلة، أُخرجت في كتب متعدّدة منها: «معرفة القرآن» [ط: مؤسّسة القرآن الكريم - طهران - ١٤٠٢ هـ]، ومنها: تفسير سورة الفجر والقيامة» بالفارسيّة [ن: الحزب الجمهوريّ الإسلاميّ، قم ١٤٠٢هـ].

معرفت (١٣٥٦ ـ ..) هو الشّيخ محمّد هادي معرفت، وُلد بكربلاء، ودرس في النّجف الأشرف، فأصبح أُستاذاً ومحقّقاً في قُم المقدّسة، له «التّمهيد في علوم القرآن» [٥ ج، ط: مِهر - قم - ١٣٩٦هـ].

المفيد (٣٣٦ - ٤١٣ هـ) هو أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النّعمان المعروف بالشّيخ المفيد وبابن المعلّم، الفقيه، والمتكلّم الإماميّ المشهور، وُلد في عُكبَرا ببغداد ، وله «تصحيح الاعتقاد» [ط: أمير ـ قم ـ ١٣٦٣هـ].

المَلِكيّ (ت: ١٣٢٤ ـ ..) هو الشّيخ العالم الفاضل المتّقيّ محمّد باقر المَلِكيّ، وُلد في ميانة من توابع آذربايجان بإيران، وسَكَن في قم المقدّسة، له كتب كثيرة منها: «تفسير مناهج البيان» [٢ ج، ط: وزارة الثّقافة والإرشاد الإسلاميّ - طهران - ١٤١٤هق].

مولى صالح المازندرانيّ (... - ١٠٨٥ ه) هو العلّامة حسام الدّين محمّد بن ملّا أحمد سَرْويّ، المعروف بملّا صالح المازندرانيّ، كان تلميذ الشّيخ البهائيّ والمَجْلِسيّ الأوّل وصهره، له «شرح أُصول الكافيّ» [١٢ ج، ط: مكتبة الإسلاميّة - طهران - ١٣٨٢ ه].

المَيبُذيّ (... ـ ٥٣٠ ه) هو رشيد الدّين أبو الفضل بن أبي سعيد أحمد المَيْبديّ اليزديّ، له «كشف الأسرار وعُدّة الأبرار» وقد ذكر فيه كثيراً من أقوال «خواجه عبدالله الأنصاريّ» ولهذا عرف باسمه [١٠ ج، ط (٢) سبهر - طهران - ١٣٩٩ه].

مير محمّديّ (مُعاصرٌ) هو السّيّد أبو الفضل مير محمّديّ، أُستاذ علوم القرآن في جامعة الإلهيّات بطهران، له «بحوث في تاريخ القرآن وعلومه» [ط: مؤسّسة البيادر للطّباعة - بيروت - ١٤٠٠ ه].

(ن)

النَّسائيّ (٢١٥ ـ ٣٠٣) هو أحمد بن عليّ بن شُعيب، القاضي الحافظ، أصله من نَساء (من قُرى سَرَخْس بخراسان). استوطن مصر، فمات بالرَّملة ببيت‌المقدس وقيل: بمكّة وهو الأرجح. وله كتب كثيرة منها: «السّنن بشرح جلال الدّين السّيوطيّ» وهو أحد كتب الصّحاح السّتّة عند أهل السّنّة [٨ج، ط: دار الفكر للطّباعة والنّشر ـ بيروت ـ ١٣٤٨ه].

النّهاوَنديّ (... - ١٣٦٩) هو الشّيخ علي أكبر بن ملّا محمّد حسين، أصله من نهاوند من توابع بروجَرد نشأ في النّجف الأشرف ورجع إلى المشهد الرّضويّ عام ١٣٢٨ ه وتوفيّ فيه، له كتب منها: «خزينة الجواهر من الأُصول والفروع والأخلاق» [ط (٥) المطبعة

الإسلاميّة – طهران – ١٣٩٠هـ].

النّهاونديّ (... – ١٣٧١ هـ) هو الشّيخ محمّد بن المحقّق آية الله الميرزا عبد الرّحيم، كان مولده في الغَريّ[1] وموطنه في المشهد الرّضويّ، له « نفحات الرّحمان في تفسير القرآن» [٤ ج، ط: مطبعة العلميّ ـ طهران ١٣٥٧ هـ].

النّيسابوريّ (... ـ ٧٢٨هـ) هو الحسن بن محمّد القُمّيّ النّيسابوريّ، كان مفسّراً، رياضيّاً، حكيماً، مولده في قم، وموطنه في نيسابور، له «غرائب القرآن» المعروف بتفسير النّيسابوريّ [١٠ ج، ط: مطبعة البابى بمصر ١٣٨١ هـ].

(و – ى)

الواحديّ (... ـ ٤٦٨هـ) هو أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحديّ، مفسّر، النّحويّ، الإماميّ[2]، أصله من ساوة من بلاد ايران، مولده ووفاته بنيسابور، له «أسباب النّزول» [ط: دار الكتب العلميّة بيروت ـ استنساخ انتشارات الرّضيّ – قم – ١٤٠٣ هـ].

الوِشنويّ (١٣٢٩ ـ...) هو العالم المحدّث المتتبّع الشّيخ محمّد قَوام بن حبيب الله القميّ، وُلد في وِشنوة من توابع قم، له كتب منها: «حياة النّبيّ وسيرته» [ط: الخيّام – قم – ١٤١٢ هـ].

---

١ ـ هو الإسم السّابق الّذي كان يطلق على المنطقة الّتي شيّدت عليها مدينة النّجف الأشرف.

٢ ـ ذكره صاحب الذّريعة بأنّه من مصنّفي الشّيعة.

اليعقوبيّ
(... - ٢٨٤ هـ)[1]

هو أحمد بن إسحاق بن واضح اليعقوبيّ، مؤرّخ جغرافيّ شيعيّ[2] من أهل بغداد، أصله من أصفهان. له كتاب في التّأريخ يسمّى باسمه [ط: دار صادر بيروت...].

١ـ في تاريخ وفاته خلاف، والمثبت أعلاه اخترناه من؟كتاب «ريحانة الأدب».

٢ ـ تشيّعه ظاهرٌ من خلال كتابيه (التّأريخ والبلدان).

مصادر الأعلام

١ - الأعلام [٩ ج] خير الدّين الزّركليّ
٢ - أعيان الشّيعة [١٠ ج] السّيد محسن الأمين
٣ - الذّريعة إلى تصانيف الشّيعة [٢٥ ج] محمّد محسن الشّيخ آغا بزرك الطّهرانيّ
٤ - ريحانة الأدب [٨ ج] الشّيخ ميرزا محمّد عليّ مدرّس
٥ - طبقات أعلام الشّيعة [٢ ج] محمّد محسن الشّيخ آغا بزرك الطّهرانيّ
٦ - الكنى والألقاب [٣ ج] الشّيخ عبّاس القمّي
٧ - معجم الدّراسات القرآنيّة عند الشّيعة عامر الحُلْو
٨ - معجم مصنّفات القرآن [٤ ج] الدّكتور علي شواخ إسحاق
٩ - المنجد في الأعلام لويس معلوف
١٠ - وفيات الأعيان [٨ ج] أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن أبي بكر بن خلّكان
١١ - التّراجم الموجودة في مقدّمة كتبهم
١٢ - الشّخصيّات المعاصرة للمُترجم له.

فهرس الموضوعات

النّزول و مراتبه

النزول منجماً

النبيّ صلّى الله عليه وآله و القرآن

القرآن و الملائكة

ترتيب النّزول

البعثة و تاريخ النّزول

كلام الله تعالى

جبرائيل و القرآن